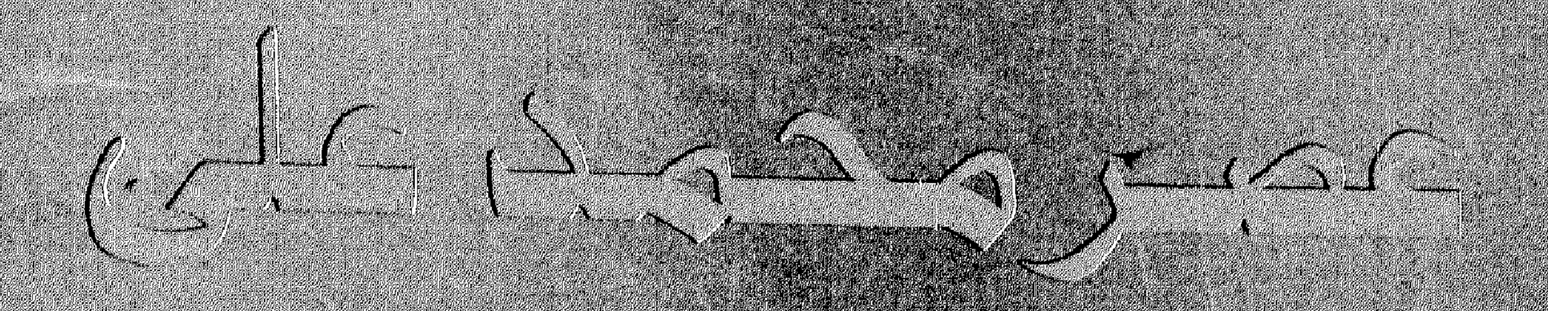
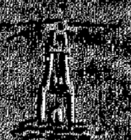
عبد الرحمن الرافعي









بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الطبعة الخامسة
سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع .



عبد الرحمن الرافعى

ولد فى ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ — وتوفى فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الخامسة

الحمد لله إذ الطبعة الرابعة من كتاب «عصر محمد على» الذى أخرجته دار المعارف سنة ١٩٨٢ تعيد طبعته الخامسة مشكورة تطابق تماما الطبعات السابقة.

والله المستعان.

سنة ١٩٨٩ — كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الرابعة

نحمدك سبحانه وتعالى. فقد سبق هذه الطبعة طبعات الأولى سنة ١٩٣٠ والثانية سنة ١٩٤٧ والثالثة سنة ١٩٥١ تشمل تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على.

والله الموفق.

يناير سنة ١٩٨٢ — كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب فى مارس سنة ١٩٤٧ .

وقد ظهرت بعدها بحوث ودراسات قيّمة عن عصر محمد على ، لمناسبة الذكرى المئوية لإبراهيم باشا سنة ١٩٤٨ ، والذكرى المئوية لمحمد على الكبير سنة ١٩٤٩ ، وراجعتها جميعًا فلم أر فيها تعارضا مع ماكتبت ، ورأيت فيها تفصيلا لبعض ما أجملت ، أما الخطوط الرئيسية فهى هنا وهناك متطابقة متماثلة ، وهذا ما جعلنى أحرص على أن لا أزيد شيئاً على الطبعة الثانية ، اللهم إلا إضافات يسيرة حرصت على إثباتها فى هامش الكتاب تحت عنوان (هامش الطبعة الثالثة) .

وأود أن أنوه إلى أن هذا الكتاب يتناول « عصر محمد على » ، ويشتمل على تاريخ مصر القومى فى عهده ، أى منذ سنة ١٨٠٥ ، أما نشأته وتاريخ حياته ، وتطور الحوادث التى انتهت بولايته حكم مصر ، فقد فصلنا الحديث عن ذلك كله فى الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » إذ أفردت (الفصل الثالث عشر) منه للكلام عن « نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية » من جلاء الفرنسيين عن البلاد سنة ١٨٠١ إلى إرتقاء محمد على أريكة مصر سنة ١٨٠٥ .

هذا ، وقد أشرت فى مقدمة الطبعة الثانية إلى سلسلة هذه المجموعة ، وألمعت فى ختامها إلى أنه لم يبق منها إلا كتاب « فى أعقاب الثورة المصرية » ، وقد يسر الله لى إخراج الجزء الأول منه فى يوليه سنة ١٩٤٧ ، والجزء الثانى فى نوفبر سنة ١٩٤٩ ، والأول يشتمل على تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ويحتوى الثانى على تاريخ مصر القومى من وفاة سعد إلى وفاة الملك فؤاد الأول فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ ،

يناير سنة ١٩٥١ — **عبد الرحمن الرافعى**

مقدمة الطبعة الثانية

كان عنوان هذا الكتاب عندما ظهر لأول مرة « تاريخ الحركة القومية – الجزء الثالث – عصر محمد على » ، وإذ صار فى سلسلة تاريخ الحركة القومية عصرًا قائماً بذاته ، فقد جعلته كتابا مستقلا ، عنوانه « عصر محمد على » ، فهو هو الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية كما تراه فى مقدمة الطبعة الأولى ، وقد سرت على هذا النحو فيما أصدرته بعد ذلك من هذه السلسلة ، فأخرجت كتاب « عصر إسماعيل » فى جزءين ، يتناول الأول عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل ، ويشتمل الثانى على ختام الكلام عن عهد إسماعيل ، يليه كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ، ثم كتاب « مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال » ويتناول فترة الانحلال القومى الذى أصاب البلاد فى السنوات العشر الأولى للاحتلال ، من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ ، يليه كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » وفيه تاريخ البعث الوطنى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ ، فكتاب « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » ويشتمل على تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ ، وأخرجت فى العام الماضى كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » ويتضمن تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ .

ولم يبق إلا كتاب « فى أعقاب الثورة المصرية » ، وبه تكمل هذه المجموعة ، والحمد لله أولا وأخيراً .

مارس سنة ١٩٤٧ **عبد الرحمن الرافعى**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الجزء الثالث من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » . وهو يتناول الكلام عن عصر محمد على .

تضمن الجزء الأول من الكتاب ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، واشتمل الجزء الثانى على تنمية وقائع المقاومة الشعبية إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية بعد انتهاء تلك الحملة ، إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب ، وقد قلنا فى بيان هذه الحقيقة : « إن محمد على هو أول من استعان بالعامل القومى الذى ظهر على مسرح الحوادث السياسية ، وأنه من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية ، ودورٌ من أدوارها التاريخية ، اقترن ظهوره بظهور العامل القومى ، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به والياً مختارا على مصر ، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر بَنَّاء فى صرح القومية المصرية » .

فموضوع الجزء الثالث هو تفصيل الكلام عن « عصر محمد على » ، وكيف كان دوراً من أدوار الحركة القومية .

والحركة القومية كما عيّناها فى مقدمة الكتاب وجعلناها أساس البحث والتدوين هى الجهود التى بذلتها الأمة فى سبيل تحرير مصر من النير الأجنبى وفك قيود الاستبداد عنها وتقرير حقوق الشعب السياسية ، هى التضحيات التى قدمتها والآلام التى احتملتها فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة .

وعلى هذا الاعتبار يجب أن نعد عصر محمد على صحيفة مجيدة من صحائف الحركة القومية ، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة ، فيه تحقق الاستقلال القومى وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به ، فيه تأسس الجيش المصرى ، والأسطول المصرى ، والثقافة المصرية ،

وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد ، فهو عصر استقلال وحضارة وعمران .

* * *

إن استقلال مصر كان ثمرة الحروب التى خاضت غمارها فى عصر محمد على ، تلك الحروب التى بذلت فيها الأمة أرواح عشرات الآلاف من زهرة أبنائها ، من أولئك الأبطال المجهولين الذين جاهدوا واستشهدوا فى ميادين القتال ، وسقوا أديم الأرض بدمائهم ، فى ربوع مصر والسودان ، وفى صحارى جزيرة العرب ، وجبال كريت والموره ، وبطاح سورية والأناضول ، وفى قاع اليمّ بمياه اليونان ، أو على سواحل مصر والشام ، فلا جرم أن كان الجيل الذى عاش فى عصر محمد على هو أكثر الأجيال عملا وتضحية فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، فعلى أكتافه وبجهوده وضحاياه قام صرحُ الاستقلال عالى الذرى ، وهو الذى نهض بالأعمال الأولى لحضارة مصر وعمرانها ، فشق الترع ، وأقام القناطر والجسور ، وشاد المدارس والمعاهد ، وبنى العمائر والدواوين والقصور ، وأنشأ الموانئ ودور الصناعة (الترسانات) ، واستحدث المعامل ، وشيد القلاع والاستحكامات ، وبذل فى سبيل تلك المنشآت راحته وحياته ، ويكفيه فضلا فى ميدان التضحية أنه أنشأها وبناها عاملا على السخرة ، دون أن ينال على جهوده أجراً ولا جزاء ، ولا شكورا ، وأن عشرات الآلاف من بنيه قد ماتوا تحت أعباء المجهودات المضنية التى احتملوها فى سبيل إتمام تلك الأعمال المجيدة ، فإذا قارنتَ بين جهود ذلك الجيل وتضحياته ، وما بذلته الأجيال المتعاقبة من بعده إلى اليوم ، حكمت من غير تردد أنه أكثر الأجيال بذلا ومساهمة فى أعباء الجهاد القومى ، وأكثرها تضحية بالنفس والروح والمال فى سبيل استقلال مصر وعمرانها ، فهو جديرٌ بأن تنحنى الأجيال المصرية احتراما لذكراه ، وتقديراً لفضله ، لأنه عمل لها جميعا ، وبذل لها راحته ودمه وحياته ، وأحتمل ما احتمل من جهد وحرمان ليعبد لها الطريق كى تجنى ثمار جهوده وتضحياته وآلامه .

والحقيقة البارزة التى تخلص لك من إنعام النظر فى تاريخه أن عبقرية محمد على يرجع إليها الفضل الكبير فى تنظيم ذلك الجهاد واستثماره وتوجيهه إلى خير مصر وعظمتها ، كما أن مواهب الأمة المصرية وحسن استعدادها للتقدم ، وماضيها فى الحياة القومية ، كل أولئك كان مادة الاستجابة لدعوة محمد على ، ومن جميعها تكوّن الفَلك النورانى لتلك النهضة التى سطعت شمسها فى عصره ، فلو أنه تولى الحكم فى بلد آخر من بلدان السلطنة العثمانية وقتئذ ، لدفنت

فيه عبقريته ، ولما استطاع أن يشيد ذلك الملك الضخم ، ولا أن ينهض بتلك المشروعات والأعمال الجليلة ، ولكانت نهايته لا تختلف كثيراً عن خاتمة الباشوات الذين شقوا عصا الطاعة على السلطنة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر ، ولكن تأييد الشعب له ، ومناصرته إياه عند اشتداد الأزمات ، كان لها الفضل الأكبر فى ثبات ملكه وتغلبه على الدسائس والعقبات التى اعترضته فى طريقه ، وحسبك تبياناً لهذه الحقيقة أن تلق نظرة على مباحث هذا الجزء وأن ترجع إلى الفصول التى أفردناها للكلام عن الجيش والأسطول وأعمال العمران ، تجد أن على سواعد المصريين قد قام ذلك الملك العريض وتمت تلك المنشآت العظيمة ، وأن محمد على لم يستطع إنشاء الجيش النظامى من العناصر غير المصرية التى كانت تتألف منها القوة الحربية فى أوائل حكمه ، لِمَا فطرت عليه من التمرد والفوضى ، ولم يوفق إلى تأسيس ذلك الجيش الذى تفخر به مصر فى تاريخها الحديث إلا بعد أن ألفه من صميم المصريين .

* * *

إن مفخرة الجيل الذى عاش فى عصر محمد على أنه حقق لمصر استقلالها ، وألف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه إلى حظيرة الوطن ، فله فضل تحقيق تلك الوحدة التى كانت وبقيت على مدى السنين من أقدس مطالب القومية المصرية ، ولئن اعترض ذلك الاستقلال قيودٌ حالت دون جعله استقلالا تاما ، فلم يكن ذلك عن تقصير فى الجهاد ، بل لأن الدول الأوروبية قد تألبت على مصر بتحريض السياسة الإنجليزية ، فحرمتها ثمرة انتصاراتها ، وهذا الاستقلال مع ما اعترضه من قيود لايزال مفخرة عصر محمد على ، لأن الجيل الذى حققه واستخلصه وبذل فى سبيله ما بذل من جهود وتضحيات ، قد دافع عنه وتركه للأجيال المتعاقبة سليماً من الأذى ، لكنها بدلا من أن تنهض بالدفاع عنه وتصل به إلى غايته من الاستقلال التام ، أو تحتفظ به كما هو وتصونه بالمهج والأرواح ، قد تهاونت فيه ، وقصرت فى الذود عنه ، حتى رزئت البلاد بالاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ ، فتصدع البناء الذى أقيم فى عصر محمد على .

ويكفينا تقديرًا لجهاد الجيل أو الجيلين اللذين أدركا ذلك العصر ، إن انجلترا حاولت فى خلاله احتلال مصر مرتين ، فالمرة الأولى سنة ١٨٠٧ حين جردت عليها حملتها المعروفة بحملة الجنرال فريزر ، فكان نصيبها الإخفاق والهزيمة فى (رشيد) و(الحماد) مما اضطرها إلى الجلاء

عن البلاد كما تراه مبسوطا فى الفصل الثانى ، والمرة الثانية سنة ١٨٤٠ بعد ما فازت مصر على تركيا فى معركة (نصيبين) ، فألبت انجلترا عليها الدول الأوروبية واتفقت وحلفاءها على إذلالها وجردت عليها أساطيلها فى سورية ومصر ، ومع أنها استعانت عليها بحلفائها فإن كل ما أصابت منها أن حرمتها فتوحاتها وأرجعتها إلى حدودها الأصلية ، لكنها أخفقت فى إدراك مطامعها الاستعمارية فى مصر ، وعبثاً أنفذت أسطولها إلى مياه الإسكندرية بقيادة الكومودور نابييه Napier يتهددها ويتوعدها بالاحتلال ، فلم يستطع أن ينزل جنوده إلى أرض الكنانة ، إذ أدرك أن لها جيشاً قويًّا يحمى الذمار ويدفع الغارة ويدحر الأعداء ، فقارن بين موقف الكومودور نابييه سنة ١٨٤٠ وموقف الأميرال سيمور سنة ١٨٨٢ حينما أرسلته انجلترا إلى مياه الإسكندرية أثناء الحوادث العرابية ، وكيف سهل عليه أن يعبث باستقلال مصر ، إذ آنس منها ضعفاً وتخاذلا ، فاحتل الجنود الإنجليز أرض مصر ، ولم يلقوا بها المقاومة التى لقيها نابليون سنة ١٧٩٨ ، وكليبر سنة ١٨٠٠ ، ومنو سنة ١٨٠١ ، وفريزر سنة ١٨٠٧ ، ونابييه سنة ١٨٤٠ ، فمن هذه المقارنة يتبين لك فضل الجيل الذى عاش فى عصر محمد على ، ومبلغ ذوده عن الاستقلال ، وحسن بلائه فى الدفاع عن الذمار .

فلجهاد هذا الجيل وكفاحه فى سبيل مصر خصصنا الجزء الثالث من الكتاب ، أقدمه لمواطنىَّ الأعزاء ، سائلا من الله الهداية والتوفيق ، وعليه سبحانه الاعتماد والتكلان .

* * *

للذكرى

وإذْ يوافق اليوم تمام الحول الثالث على وفاة فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى ، فإلى روحه الطاهرة المستقرة فى الرفيق الأعلى أرسل تحيات الذكرى والوفاء ، فسلام عليك يا أمين فى أعلى عليين ، سلام عليك من قلوب لا تنسى جهادك فى سبيل المثل الأعلى ، سلامٌ عليك ما كرَّت الأعوام وتعاقبت الأجيال ، ولتُخلد ذكراك على الدهر ما بقى فى الدنيا وفاء وما ذُكِر الإخلاص والمخلصون ،

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠

عبد الرحمن الرافعى

* * *

أقسام الكتاب :

مقدمة الطبعة الرابعة – مقدمة الطبعة الثالثة – مقدمة الطبعة الثانية – مقدمة الطبعة الأولى

الفصل الأول : الزعامة الشعبية فى السنوات الأولى من حكم محمد على
الفصل الثانى : الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها
الفصل الثالث : اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان
الفصل الرابع : انفراد محمد على بالحكم
الفصل الخامس : تحقيق الاستقلال القومى –حروب مصر فى عهد محمد على
الفصل السادس : فتح السودان وتحقيق وحدة وادى النيل
الفصل السابع : حرب اليونان
الفصل الثامن : الحرب فى سورية والأناضول
الفصل التاسع : معاهدة لندن ومركز مصر الدولى
الفصل العاشر : دعائم الاستقلال – الجيش
الفصل الحادى عشر : الأسطول
الفصل الثانى عشر : التعليم والنهضة العلمية
الفصل الثالث عشر : أعمال العمران والحالة الاقتصادية
الفصل الرابع عشر : نظام الحكم
الفصل الخامس عشر : الحالة الاجتماعية
الفصل السادس عشر : شخصية محمد على والحكم على عصره
الفصل السابع عشر : إبراهيم باشا
وثائق تاريخية : الفهارس

خلاصة مباحث الجزءين الأول والثانى

من كتاب « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر»

نذكر هنا خلاصة فصول الجزءين الأول والثانى من « تاريخ الحركة القومية » لنضع أمام القارئ صورة موجزة منهما قبل قراءة « عصر محمد على » .

* * *

الجزء الأول

مقدمة الكتاب وإهداؤه .

الفصل أول : نظام الحكم فى عهد المماليك .

الفصل الثانى : تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية .

الفصل الثالث : نظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر–ديوان القاهرة ، دواوين الأقاليم ، الديوان العام .

الفصل الرابع : المجمع العلمى .

الفصل الخامس : المقاومة الأهلية فى عهد الحملة الفرنسية ، فى الإسكندرية .

الفصل السادس : فى البحيرة ، معركة شبراخيت ، نهب القرى .

الفصل السابع : فى القاهرة ، واقعة امبابه أو معركة الأهرام .

الفصل الثامن : عود إلى الإسكندرية ، واقعة أبو قير ، ديوان الإسكندرية .

الفصل التاسع : فى رشيد .

الفصل العاشر : عود إلى البحيرة ورشيد .

الفصل الحادى عشر : فى القليوبية والشرقية .

الفصل الثانى عشر : عود إلى القاهرة ، سياسة الحفلات .

الفصل الثالث عشر : ثورة القاهرة الأولى .

الفصل الرابع عشر : فى المنوفية والغربية .

الفصل الخامس عشر : فى الدقهلية ودمياط .

الفصل السادس عشر : المقاومة فى الوجه القبلى .

الفصل السابع عشر : استمرار المقاومة فى الوجه القبلى .

الفصل الثامن عشر : وثاء تاريخية .

الفصل التاسع عشر : مراجع البحث .

الجزء الثاني

مقدمة الجزء الثانى .

الفصل الأول : إعادة الديوان فى عهد نابليون ، نظام الديوان الجديد ، الديوان العمومى والديوان الخصوصى .

الفصل الثانى : الحملة على سورية .

الفصل الثالث : الحالة فى مصر أثناء الحملة على سورية ، الثورة فى الشرقية ، الثورة فى غرب الدلتا .

الفصل الرابع : سياسة نابليون فى مصر بعد عودته من سورية ، معركة أبو قير البرية .

الفصل الخامس : اضطراب الأحوال فى فرنسا ورحيل نابليون .

الفصل السادس : قيادة الجنرال كليبر .

الفصل السابع : معاهدة العريش .

الفصل الثامن : نقض المعاهدة ومعركة عين شمس .

الفصل التاسع : ثورة القاهرة الثانية .

الفصل العاشر : مقتل الجنرال كليبر .

الفصل الحادى عشر : قيادة الجنرال منو .

الفصل الثانى عشر : هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر .

الفصل الثالث عشر : نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، قادة الشعب وزعماؤه ، ظهور محمد على الكبير ، الصراع بين القوات الثلاث ، جلاء الإنجليز عن مصر ورحيلهم عنها ، ثورة الشعب على المماليك ، ثورة الشعب على الوالى التركى ، أيام الثورة ، خلع خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا لمصر ، السيد عمر مكرم روح الحركة ، ختام الثورة .

الفصل الرابع عشر : وثائق تاريخية .

عبد الرحمن الرافعى وفكره فى كتابه
عصر محمد على

أحب أن أسجل قبل تقديم هذا الكتاب فضل الرئيس محمد أنور السادات الذى ألهمه الله ضمن مآثره على مصر وأبناء مصر ، أن يأمر بإعادة طبع مؤلفات عبد الرحمن الرافعى التاريخية والوطنية . حتى يقف الشعب المصرى على حقيقة تاريخ بلده . جعل الجنة مثوى الرئيس البطل حيث استشهد يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ فى أثناء العرض العسكرى بيدِ آثمة غادرة برغم كفاحه ونضاله فى سبيل مصر وترابها ، وأبناء مصر كافة ، وأعماله الخالدة فى قضية مصر ، حيث حررها من الاحتلال ، وحقق لها الأمن والأمان ، ولأبنائها الكرامة والرخاء والسعادة . فهو مع النبيين والصديقين والشهداء فى جنات النعيم .

ونعود إلى كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، الذى ربطه بكتابيه السابقين – تاريخ الحركة القومية بجزأيه الأول والثانى – فبين المؤلف كيف آل الحكم إلى محمد على بإرادة الشعب المصرى ، وكيف كان سرده للوقائع بدقة وأمانة يمهد لها ويورد بعد سردها نتائجها ورأيه فى هذه الواقعة وتلك النتائج ، لم يكن يكتب المؤلف كتابه عن عصر محمد على من زاوية الحزب الوطنى ، لأن الحزب الوطنى لم يكن فى عالم الحياة . فى هذه الحقبة من تاريخ مصر . ولنا شرح هذه المسألة عند تقديم مؤلفاته عن الثورة العرابية وما بعدها . ولم يكن متحيزًا لتركيا كما يدَّعى بعضهم . ونظرة إلى الفصول العديدة تجده كيف كان يهاجم تركيا ويسجل عليها مواقفها العدائية قبل شعب مصر.

لم يكن يكتب المؤلف عن محمد على فحسب بقدر ما أبرزه عن عظمة الشعب المصرى ، وزعاماته الشعبية أمثال السيد/عمر مكرم وغيره من زعماء مصر.

تحدث المؤلف عن مقاومة الشعب للاحتلال الإنجليزى الذى وقع عام ١٨٠٧ الذى منى بالهزيمة بفضل كفاح وجهاد الشعب المصرى . فرحل الإنجليز عن مصر فى نفس العام .

وكتب عن أمجاد محمد على فى الحروب التى خاضها فى الحجاز وسورية والأناضول واليونان والسودان والمورة وكريت ، ونسب هذه الانتصارات إلى الجيش المصرى والأسطول البحرى المصرى ، الذى كان لمحمد على وابنه قائد حروب الاستقلال فضل فى إنشائه من أبناء

مصر ، ثم تعهدهما بتنظيمه وترقيته ودقة خططهم .

وأبان المؤلف الحضارة الفكرية والأدبية والعلمية والاجتماعية ، ونهضة مصر فى سائر المجالات فى الصناعة والزراعة والبناء وغيرها ، وقد تعهدها محمد على الذى أسس بحق مصر المستقلة .

مزايا وانتصارات محمد على سجلها المؤلف بدقة . وهناك المآخذ التى أخذها على حكم محمد على أنه لم يحقق الحرية لشعبه ، ولم يفكر فى إنشاء نظام نيابى يمثل الشعب ، واحتكر الأراضى الزراعية وحاصلات مصر الزراعية وصناعاتها ، وسائر مرافق الدولة لنفسه . فلم يتح الفرصة للصانع المصرى أو الفلاح المصرى أو التاجر المصرى أن يكون حرًا فى صناعته ، أو الفلاح المصرى مالكاً لأرضه . وقبض على تجارة مصر كلها . وصار الرافعى يوضح نتائج ذلك على الاقتصاد القومى لمصر وثرواتها ..

فى الوقت نفسه لم يبخس المؤلف محمد على حقه فيما أداه نحو مصر فجعلها دولة مستقلة ذات سيادة كاملة جابت جيوشها البرية وأساطيلها البحرية الآفاق ، حتى ترى الدول الأوربية متكاتفة قبله ، وخشيت من اختلال التوازن الدولى . وفى أوربا بصفة خاصة ، وكشف الرافعى عن ذكاء وفطنة وقوة عزيمة محمد على ، برغم أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة التى تعلمها وهو فى سن الأربعين .

وكيف كانت شجاعة محمد على وشكيمته ومضاء عزيمته ذات أثر بارز فى تحقيق القومية المصرية ، ثم وحدة وادى النيل ، التى قال الرافعى عن هذه الوحدة أنها حقيقة واقعة ، لأن السودان جزء من مصر ، ومصر جزء من السودان .

ثم سرد المؤلف فضل محمد على فى النهضة العمرانية والزراعية والأدبية والعلمية ، وصار يعدد مناقبه ، ذلك لم يمنع الرافعى أنه قال عن مذبحة القلعة إنها نقطة سيئة فى تاريخ محمد على باشا ، وإنها قضت على روح الديموقراطية التى كانت قد ظهرت بوادرها فى احتجاجات الشعب على المظالم ، وقال إن الشعب بعد مذبحة القلعة فقد ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديموقراطية ، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الأمم ، ومن دعائم حياتها القومية .

فالرافعى فى كل سطر كتبه عن عصر محمد على تشعر أنه رجل مبادئ يدين بالديموقراطية ، وينشد الحرية لشعبه ، ويحقق له حياة نيابية تمثله ، وهو ما كانت تفتقده مصر إبّان حكم محمد على لها .

استشهد الرافعى بمراجع كثيرة مصرية وأجنبية : أهمها كتاب المؤرخ الكبير الجبرتى . يناقش ما يستشهد به ويحققه . ويخلص إلى حقيقته ومدى ما يحويه من حقائق ، ويبدى رأيه خالصًا مؤيدًا بحجج وأدلة .

فكر الرافعى فى كتابه عصر محمد على على أنه لم يكن يؤرخ لمحمد على فحسب ، بل يبرز كفاح الشعب المصرى من خلال حكم محمد على . والحروب التى انتصر فيها الجيش المصرى برًّا وبحرًا . وترجم لقواد الجيش كلٌ على حدة ، كما ضمن كتابه تراجم عمَّن كان له نصيب من كفاح فى تكوين دعائم الاستقلال والنهضة العمرانية فى كافة المجالات .. انظر ما قاله عن سليمان الفرنساوى (الجنرال سيف) وما قاله عن إبراهيم أدهم باشا أحد الضباط المصريين الأكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية ، والحاج عمر الذى تعهد بهندسة السفن الحربية وبنائها فى الترسانة القديمة . ثم قواد الأسطول المصرى ورجال البعثات العلمية الذين أوفدهم محمد على إلى أوربا لتحصيل العلوم والفنون فى كافة المجالات : من هندسة وطب وحرب وصناعة وغيرها .

ها هو ذا الرافعى يتحدث عن رفاعة رافع الطهطاوى فى عدة صفحات من الكتاب : حياته وعلمه ومؤلفاته التى لم يكن يعلم إلا القليل عنها . لولا إشارات الرافعى إليها .

ثم يتحدث عن علماء الهندسة والرياضيات ، كل على حدة ، ويبرز أعمالهم . ثم علماء الطب والجراحة . ثم رجال الدولة والسياسة ، ومن بينهم محمد شريف باشا ، الذى قال حكمته : « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ووعد بترجمة حياته فى كتابه عصر إسماعيل . ثم غيره من رجال الحربية والإدارة العسكرية والملاحة والعلوم البحرية ، وبناء السفن ، والحقوق والعلوم السياسية ، والطبيعيات ، والزراعة ، والفنون الجميلة .

ولم يغب عن فكر الرافعى أن يتحدث وهو بصدد بيان أعمال العمران فى عصر محمد على أن يبين حالة مصر الاقتصادية والزراعية وشئون الرى . وكيف تم إنشاء القناطر الخيرية ، وأثرها فى رى الأطيان الزراعية . وحاصلات مصر التى أدخلها محمد على فى عهده ، ومصانع الغزل والنسج ، كل مصنع على حدة : مكانه وإنتاجه ومحتوياته وغيرها من المصانع .

إن الرافعى فوق أنه يتسم بفكر صادق فقد كان منصفًا فيما سجله من حقائق ، ورأيه فيها بكل دقة وأمانة وصدق .. لا ينحاز ولا يتأثر إلا بما يمليه عليه فكره ورأيه .

لقد أنهى الرافعى كتابه بالحديث عن شخصية محمد على . ثم شخصية إبنه إبراهيم القائد العظيم .

لم يكن الرافعى يتجه إلى مجرد كتابة تاريخ فى فترة من الزمن أو عن محمد على وحده ، بل إن فكره كان يتجه إلى كافة النواحى : اجتماعية واقتصادية وقومية وغيرها التى كانت تحيط مصر .

ولا شك أن الرافعى يخالف كثيرًا من اتبعوا نظرية كتابة التاريخ للتاريخ فقط ، لأن المتأمل فى فكر الرافعى فى كتابه عصر محمد على يخلص إلى أن الرجل كان يربط الماضى بالحاضر ، ويتنبأ بالمستقبل كأثر من آثار الواقعة التى يشرحها ، وكان يجمع الإحصائيات والبيانات ويقارنها فى حقبات من الزمن : فالدقة والصدق والنزعة إلى الحرية والديموقراطية والإشادة بكفاح الشعب المصرى وجهاده وفضل محمد على ومآخذه عليه – أنصفه حيث يستحق الإنصاف ، وسجل عليه ما يؤخذ عليه .

والمتتبع لحركات الدول الأوربية حيال مصر فى عهد محمد على – التى سجلها الرافعى فى كتابه بتفصيل وتعليق عليها – يجد أن التاريخ قد أعاد نفسه ، بعد انتهاء عصر محمد على ، كل ذلك يبين فى مؤلفات الرافعى التالية لهذا الكتاب .

جزاه الله على ما قدمه لمصر ونفع به الأجيال المتعاقبة والله ولى التوفيق .

أكتوبر سنة ١٩٨١

المستشار

حلمى السباعى شاهين



محمد علي

مؤسس الدولة المصرية الحديثة وباعث نهضتها واستقلالها

(١٧٦٩ - ١٨٤٩)

الفصل الأول

الزعامة الشعبية فى السنوات الأولى من حكم محمد على

موقف محمد على فى بداءة حكمه

تقلد محمد على باشا ولاية الحكم بإرادة زعماء الشعب ونزولا على رأيهم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، كما أوضحنا ذلك تفصيلا بالجزء الثانى من كتاب « تاريخ الحركة القومية »[1] ، فالزعامة الشعبية هى التى أبلغته سلطة الحكم ، وقد ظلت هذه الزعامة فى الميدان ، وبقيت قائمة عاملة فى السنوات الأولى من حكم محمد على ، فكان لها أثر فعال فى تثبيت دعائم ملكه وتذليل العقبات التى وضعها فى طريقه رجال الإستانة من جهة ، والإنجليز وصنائعهم المماليك من جهة أخرى ، وإحباط الدسائس التى دبروها والمؤامرات التى سعوا بها إلى اقتلاعه عن كرسى الولاية ، فالزعامة الشعبية كان لها فضل وعمل هام من هذه الناحية ، وكذلك كان لها عمل كبير فى توجيه الشئون العامة ، ونصيب وافر فى سلطة الحكومة . وسنبحث فى هذا الفصل مبلغ سلطة تلك الزعامة وعملها فى تلك السنوات .

لم ترسخ قدم محمد على باشا فى الحكم بمجرد مبايعته أو صدور الفرمان المؤذن بتوليته ، فإن الدسائس كانت تحيط به من كل جانب ، فالسياسة الإنجليزية تسعى بمختلف الوسائل لترد السلطة إلى محمد بك الألفى[2] ، وكان عمالها فى الإستانة لا يفتأون يسعون لدى الباب العالى فى إسناد حكم مصر إليه ، وقناصلها فى مصر يمدون المماليك بالمعونة ، ويحركون الطمع فى نفوسهم ويلقون فى روعهم أن انجلترا لا تدع صنائعها ولا تتخلى عنهم ، وأنها لابد محققة آمالهم ، والمماليك من ناحيتهم كانوا يجمعون جموعهم ليحاربوا الوالى الجديد .

---

(١) راجع الفصل الثالث عشر من الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » تحت عنوان « لتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية) وفيه الكلام عن نشأة محمد على الكبير ثم ظهوره على مسرح الحوادث السياسية وتسلسل هذه الحوادث إلى أن بويع واليا على مصر فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ .

(٢) زعيم المماليك . راجع الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣٤٧ . (الطبعة الأولى)

موقف تركيا

وكانت السياسة التركية مترددة غير مستقرة ، ترقب الأحوال لتتبع الخطة التى تراها أكفل بمصلحتها وأوفق لبسط نفوذها فى مصر ، ولم تكن خالصة النية نحو محمد على باشا ، بل كانت ترميه بعين البغض ، وتنفس عليه رسوخ قدمه فى مصر ، وحسبه جرماً فى نظرها أنه لم يكن من الولاة الذين ترسلهم كل عام إلى مصر وتوليهم وتعزلهم كما تشاء ، بل كان الوالى المختار من الشعب المصرى ، فالشعب هو الذى أجلسه على كرسى الولاية ، ولم تكن هذه الطريقة فى تعيين الولاة مما يروق فى نظر الحكُومة التركية ، صحيحٌ أن حكومة الإستانة قد لبت نداء الشعب المصرى وأصدرت فرمانها بعزل الوالى الذى ثار عليه الشعب (وهو خورشد باشا) ، وتعيين محمد على واليا مكانه ، وقد أوفدت إلى القاهرة رسولا يحمل هذا الفرمان ، ولكن هذا لم يكن دليلا على خلوص نية تركيا نحو مصر ، وهو لا يعدو أن يكون حلا مؤقتا تتفادى به من ثورة الشعب إلى أن تحين الفرصة فتسترجع سلطتها فى البلاد وتضع يدها حيث شاءت ، ولو كانت صادقة النية لاكتفت برسولها ذاك يحمل فرمان إسناد الولاية إلى محمد على ، لكنها أوفدت بعد ذلك قبطان باشا[٣] فى عمارة حربية تقل ٢٥٠٠ من الجنود ليرقب الحالة فى مصر ويجعل عينه على الحوادث ، ويتخذ من القرارات النهائية ما يراه موافقا لمصلحة تركيا .

وصلت هذه العمارة إلى أبو قير يوم ١٧ يوليه سنة ١٨٠٥ أى فى الوقت الذى كان خورشد باشا مازال ممتنعاً فى « القلعة » معتصما بها ، ولم تجر عادة تركيا بإرسال مثل هذه القوة إلا ذريعة لحدث تحدثه فى البلاد ، فهذه القوة الحربية لم تأت إلى مصر عبثا ، بل جاءت ليستعين بها قبطان باشا على إنفاذ أغراضه الخفية ، ولقد كانت مهمته الظاهرة استنزال خورشد باشا الوالى المعزول من « القلعة » ، بيد أن الحكومة التركية خولته السلطة المطلقة فى تثبيت محمد على فى الولاية أو عزله عنها .

وتتبين لك مقاصد تركيا من أن قبطان باشا لم يبرح السواحل المصرية بعد انقضاء مهمته الظاهرة ، بل ظل متربصا وحوله الخمسمائة والألفا مقاتل . وأخذ يرقب الحالة ليتبع الكفة الراجحة ، وقد راسله محمد بك الألفى زعيم المماليك وعرض عليه أن ينحاز بقواته إلى سلحدار

---

(٣) هو عبد الله رامز باشا .

خورشد باشا الذى كان لم يزل بالجيزة يناوئ محمد على ، وأن ينضموا جميعاً إلى الجنود الذين جاء بهم قبطان باشا ، ويزحفوا على القاهرة لينتزعوها من محمد على ويطردوا الجنود الأرناءود من البلاد .

دسائس السياسة الإنجليزية

وتردد عليه أيضا رسل الإنجليز أثناء مقامه فى أبو قير وأيدوا مطالب محمد بك الألفى ، وسعوا فى إقناعه بإسناد ولاية مصر إليه ، وحسنوا له ذلك الأمر ، زاعمين أن المماليك هم وحدهم القادرون على حكمها وإعادة الأمن والنظام فى ربوعها ، وإن بقاء محمد على فى كرسى الولاية يجدد الفتن ويستفز المماليك إلى استئناف الحرب والقتال ويحفزهم إلى الزحف على القاهرة لاسترداد سلطتهم القديمة ، فيضطرب حبل الأمن ، ولم يكتف رسل الإنجليز بتأييد صنائعهم المماليك على هذا النحو ، بل جاهروا بأن الحكومة الإنجليزية قد تضطر إلى تجريد جيش على مصر لتأييد وجهة نظرها .

فالسياسة الإنجليزية كانت ترمى منذ نيف ومائة عام إلى تثبيت قدمها فى وادى النيل ، بتولية صنائعها من المماليك حكم البلاد ، وتتهدد بتجريد قواتها لهذا الغرض ، وقد جردت هذه القوة فعلا سنة ١٨٠٧ كما سيجىء بيانه .

أما حجة محمد على لدى قبطان باشا فهى أنه مؤيد من زعماء الشعب ، مرضى عنه منهم ، وأنه الكفيل بانتشال البلاد من وهدة الفوضى والفتن التى تردت فيها ، وأنه بمقاومته المماليك وحماتهم الإنجليز لا يخدم مصر وحدها بل يخدم الباب العالى ويحول دون تحقيق مطامع السياسة الإنجليزية فى البلاد .

معاضدة زعماء الشعب لمحمد على

فمحمد على باشا كان إذن فى حاجة كبرى إلى تأييد الزعامة الشعبية وإقرارها إياه فى مركزه ليقوى بها على مقاومة العواصف التى هبت عليه من مختلف الجهات .

وقد بقيت تلك الزعامة تؤيده وتناصره ، وتمده بالعون والعضد ، فكان لها النفوذ الفعال والفضل الكبير فى تثبيت دعائم عرشه فى السنوات الأولى من حكمه .

ومن الواجب أن نبادر فنقول إن السيد عمر مكرم الذى كان على رأس تلك الزعامة وحامل لوائها فى تقليد محمد على سلطة الحكم قد احتفظ بهذه المهمة فيا بذلته الزعامة الشعبية للدفاع عن عرشه .

وكان المماليك يعرفون ذلك النفوذ لزعماء الشعب ، وخاصة للسيد عمر مكرم ويعلمون أنهم هم الذين اقتادوا الجماهير وانحازوا بها إلى محمد على ، فما فتئوا بعد توليته يسعون إلى استمالتهم فى جانبهم ليسكبوا نفوذهم المعنوى فى ثل عرش الوالى الجديد ، لكنهم وجدوا فيهم إباء وإعراضا وثبت زعماء الشعب على مناصرتهم لمحمد على .

هجوم المماليك على القاهرة وإخفاقهم

(أغسطس سنة ١٨٠٥)

دبر المماليك الهجوم على القاهرة ليستولوا عنوة على زمام الحكم ، وبادروا إلى إنفاذه فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٥ ، ولما يمض شهران على تولية محمد على باشا ، وربما كان قصدهم من هذا التعجيل أن يضربوا ضربتهم قبل رحيل قبطان باشا عن مصر ليشهد بعينه قوة المماليك وشدة بأسهم ، فينحاز إلى جانبهم ويولى واحداً من زعمائهم حكم مصر ، وقد اختاروا لهجومهم يوم الاحتفال بوفاء النيل (أغسطس سنة ١٨٠٥) إذ يكون محمد على باشا والجمع الحاشد من الجنود والأهالى مشغولين بالاحتفال فى مصر القديمة بعيداً عن المدينة ، وأحكموا تدبيرهم ، أو خيل إليهم أنهم أحكموه ، بأن تآمروا سرًّا مع بعض رؤساء الجند أن ينضموا إليهم إذا هم دخلوا المدينة ، وتبادلوا وإياهم الرسائل من قبل فى هذا الصدد ، لكن محمد على علم بسر هذه المؤامرة ، فاعتزم أن يوقع المماليك فى الكيد الذى كادوا ، واتفق سرًّا مع بعض رجاله الأمناء على أن يتصلوا بالمماليك ويتظاهروا لهم بالإخلاص ، ويستدرجوهم إلى دخول العاصمة ، فيمدوا لهم فى غيهم ، ويزينوا لهم نجاح خطتهم ، وهم فى الواقع أعوان لمحمد على[٤] ، فنى

(٤) ذكر الجبرتى فى ترجمة محمد بك الألفى ما يؤيد هذه الرواية ، فقد أورد كلامًا ما قاله الألفى عن زملائه المماليك فى تبيان غلطاتهم وعدم إصغائهم لنصائحه وأشار إلى حادثة هجومهم على القاهرة وأنها وقعت بتدبير محمد على باشا فقال : « واحتال عليهم ثانيا يوم قطع الخليج فراجت حيلته عليهم أيضا وأرسلت إليهم فنصحتهم فاستغشونى وخالفونى ، ودخل الكثير منهم البلد وانحصروا فى أزقتها وجرى عليهم ما جرى من القتل الشنيع والأمر الفظيع ولم ينج إلا من تخلف منهم أو ذهب من غير الطريق » .

اليوم الموعود[٥] هجم المماليك على القاهرة فى قوة تبلغ ألفاً من المقاتلة شاكى السلاح ، وعلى رأسهم جماعة من زعمائهم وهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى وأحمد كاشف سليم وغيرهم ، واقتحموا باب الحسينية بعد أن حطموه ودخلوا القاهرة من باب الفتوح ، وقصد زعماؤهم إلى دار السيد عمر مكرم ليعجموا عوده ويستنجدوه ، ولكنه رفض مقابلتهم ، فقصدوا إلى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وهناك وافاهم السيد عمر مكرم وصارحهم القول بألا ينتظروا منهم عونا ولا نجدة ، ونصح إليهم أن يعودوا من حيث أتوا ، فعلموا أن الزعامة الشعبية لاتؤيدهم ، وانقلبوا هنالك خائبين ، ودب الفشل والارتباك فى صفوفهم وصفوف جندهم ، فخرج فريق منهم من باب البرقية نجاة بأنفسهم ، وذهب رهط آخر إلى باب زويلة وتقدموا جهة الدرب الأحمر ، فتلقاهم الجند الذين كانوا هناك بالرصاص فتقهقروا إلى داخل باب زويلة ، وحاولوا دخول جامع المؤيد والامتناع به ، فهاجمهم جماعة من المغاربة والمرابطين هناك وأطلقوا عليهم الرصاص ، فلجأ فريق منهم إلى جامع البرقوقية ، وذهبت طائفة أخرى تعدو بخيلها إلى باب النصر ، فألفوه مقفلا ، فنزلوا عن جيادهم وتسلق بعضهم الأسوار ونجا بنفسه ، وتفرق آخرون فى العطوف واختفوا فيها ، وأما الذين لجأوا إلى جامع البرقوقية فإن اثنين منهم تمكنا من الخروج ولحقا بالمماليك النازلين بدار الشيخ الشرقاوى ، وبعد أن انبأهم بما وقع فر الجميع خارجين من باب الغريب ، أما الباقون (فى جامع البرقوقية) فقد أحاط بهم الجند وقتلوا منهم مقتلة نحو الخمسين وأسروا نحو الثمانين وذهبوا بهم إلى محمد على باشا ، فأمر بقتلهم فقتلوا جميعاً ، وبذلك انتهت مؤامرة المماليك بالخيبة والخسران ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ما معناه : « ولم يتفق للأمراء المصرية (المماليك) أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة وطبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغلّ أيديهم » .

استيلاء « محمد على » على الجيزة

وانتهز محمد على فرصة هذه الهزيمة فاستولى على الجيزة (سبتمبر سنة ١٨٠٥) وكانت لم تزل إلى ذلك الحين فى أيدى المماليك ، وظهر عليهم وعلى سلحدار خورشيد باشا ، واضطره إلى التسليم والتخلى عن جنده وذخائره واللحاق بمولاه خورشيد باشا فى الإسكندرية .

---

(٥) ١٦ أغسطس سنة ١٨٠٥ — ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ .

رحيل قبطان باشا إلى الإستانة

وطّدت هذه الحوادث مركز محمد علي ، فلم يعد قبطان باشا يتردد فى أى الفريقين ينضم إليه ، ورأى أن محمد علي باشا هو الأحق بالتأييد ، لأن الشعب والقوة فى جانبه ، واعتزم أن ينقلب إلى الإستانة ، فرحل عن البلاد فى أكتوبر سنة ١٨٠٥ ومعه خورشيد باشا الوالى المخلوع .

غادر قبطان باشا أرض مصر وهو يتنبأ لمحمد على بمستقبل كبير ، فقد روى عنه أنه قال يوما قبل رحيله : « إنى لأترك فى مصر رجلا ستجده الدولة يوما من أعظم خصومها شأنا وأكبرهم خطراً ، ولم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته » ، وقد حققت الأيام صحة هذا الرأى فإن محمد على قد خرج على تركيا وهزم جيوشها فى ميادين الحرب وزلزل عرش السلطنة العثمانية وكاد يدكه لولا أن وقفت أوروبا فى طريقه .

رجوع محمد على إلى زعماء الشعب فى مهات الأمور

عرف محمد على باشا ما لزعماء الشعب من المكانة والنفوذ عند الجماهير ، فقدر لهم هذه المنزلة ، وكان يرجع إليهم ويستشيرهم فيا يجد من مهات الأمور ، فمن ذلك أنه كلما احتاجت الحكومة إلى تقرير إتاوة جديدة رجع إليهم بادىء الأمر وأوضح لهم الحاجة الملجئة إليها ، وخاصة إذا كان الغرض منها دفع رواتب الجند ، فينال إقرارهم وموافقتهم ، ذكر الجبرتى ما خلاصته أنه فى أواخر جمادى الثانية سنة ١٢٢٠ (سبتمبر سنة ١٨٠٥) احتاج إلى دفع باقى أعطية العسكر « فتكلم مع المشايخ فى ذلك وأخبرهم بأن العسكر باق لهم ثلاثة آلاف كيس لا نعرف لتحصيلها طريقة ، فانظروا فى ذلك وكيف يكون العمل ، ولم يبق إلا هذه النوبة » ، وأقنعهم بأنه إذا أخذ العسكر رواتبهم سافروا إلى بلادهم ولم يبق منهم إلا من كان فى حاجة إليهم ومن يتولون المناصب من ضباطهم .

وقد اقتنع زعماء الشعب بهذه الحجة وخاصة لأنهم كانوا يميلون إلى رحيل الجنود الأرناءود والدلاة عن البلاد لكثرة مساوئهم واعتدائهم على الناس ، فوافقوا على فرض الاتاوة الجديدة .

ومما يلفت النظر فى مشاورة محمد على باشا للشيوخ قوله لهم « ولم يبق إلا هذه النوبة » ،

وهذا يدلك على مبلغ عنايته باكتساب رضاهم وإقناعهم بأن الحاجة إلى صرف رواتب الجنود هى التى الجأته إلى هذه الإتاوة ، وان هذه آخر مرة يلجأ فيها إلى زيادة الضرائب ، وقد اقتنع الشيوخ بهذه الحجة كما قدمنا ، واستقر الرأى بعد المشاورة على أن تستولى الحكومة فى ذلك العام على ثلث الفائض من الحصص والالتزام (أى على ثلث ايراد الملتزمين لأن ما يسمونه الفائض هو صافى دخلهم) ، وكان الملتزمون يؤلفون إلى ذلك العهد طبقة كبيرة من الملاك ، فتبرموا بهذه الاتاوة التى هى أشبه بالمصادرة ، وضجوا من حرمانهم ثلث إيرادهم كل عام ، ولكن محمد على باشا أراد أن يطمئنهم بأن هذه الوسيلة استثنائية وأنها لا تتكرر كل سنة فوعد الشيوخ بكتابة فرمان يلتزم فيه عدم العودة إلى ذلك ثانيا ويثبت فيه « لعن الله من يفعلها مرة أخرى » ، فاقتنع الشيوخ بهذا الشرط ، وانفرجت الأزمة مؤقتاً .

كان زعماء الشعب إذن مرجع الحكومة فيما تفرضه من الإتاوات والضرائب ، كما كانوا ملجأ الشعب فى تخفيف ما تفرضه منها ، ومن ذلك أن الحكومة فرضت فى تلك السنة (أكتوبر سنة ١٨٠٥) على أهل رشيد اتاوة قدرها أربعون ألف ريال توزع على ثلاثة عشر من تجار المدينة ، فحضر إلى القاهرة وفد من أهل رشيد يتظلمون من هذه الإتاوة ، وقابلوا السيد عمر مكرم والشيوخ ورفعوا إليهم ظلامتهم ، فقام السيد عمر وفى صحبته الشيوخ وعرضوا الأمر على محمد على باشا ، وتشاوروا فى تخفيف الإتاوة ، فاستقر الرأى على إنزالها إلى عشرين ألف ريال ، وفى مايو سنة ١٨٠٦ طلبت الحكومة قرضاً من الملتزمين والتجار على القاعدة التى سار عليها خورشيد باشا الوالى المعزول فى العام السابق (سنة ١٨٠٤) فضاق الناس ذرعا وذهبوا أفواجا إلى السيد عمر مكرم يشكون ويتبرمون ، فبذل ما فى وسعه للتخفيف عن بعضهم .

مكانة السيد عمر مكرم

يتبين من هذه الوقائع أن زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم كان لهم نفوذ فعال فى إدارة الحكومة ، وكانوا ملجأ الناس فى رفع المظالم ، وقد عظم نفوذ السيد عمر مكرم فى تلك السنوات إلى ما لم يسبق له نظير من قبل ، ولا غرو فهو الذى أجلس محمد على على عرش مصر وكان فى السنوات الأولى من حكمه أحد أركان ذلك العرش .

ولقد بلغ من مكانته أن محمد على باشا لما اعتزم أن يجرد جيشا لمحاربة محمد بك الألفى فى الصعيد (ابريل سنة ١٨٠٦ — صفر سنة ١٢٢١) عرض عليه أن يستخلفه فينوب عنه ويكون

« قائمقاما » مدة غيبته ، فامتنع السيد عمر مكرم ولم يقبل ، ولم يذكر الجبرتى سبب امتناعه ، ولكن إذا صح ما يقوله من أنه « تبين أنها إيهامات لا أصل لها » فيكون الامتناع راجعا إلى أنه شعر بأن العرض لم يكن إلا ضربا من ضروب المجاملة والتكريم ، أو لأنه كان يتورّع عن مناصب السلطة ويخشى أن يتهمه حساده – وكانوا كثيرين – بأنه يسعى إلى الجاه ولا يعطى إلا ليأخذ ، فأراد أن يجعل جهاده خالصا لوجه الله والوطن .

ولم يكن السيد عمر مكرم فى حاجة إلى أن يكون « قائمقاما » ليعظم مركزه ، فقد كان له فى نفوس الشعب أكبر منزلة وأعظم مكانة ، وكان فى الاجتماعات والحفلات العامة يتقدم المدعوين فيخلون له صدر المجالس طواعية واختياراً ، فيكون بجانب محمد على كتفا لكتف ، وحسبك أن تقرأ بعض ما ذكره الجبرتى عنه فى مناسبات مختلفة لتعرف إلى أى حد بلغ نفوذه ومكانته ، قال : « ارتفع شأن السيد عمر وزاد أمره بمباشرة الوقائع [٦] وولاية محمد على باشا ، وصار بيده الحل والعقد والأمر والنهى والمرجع فى الأمور الكلية والجزئية » ، وقال فى موضع آخر : « ولما وقع ما وقع فى ولاية محمد على باشا وانفرد السيد عمر أفندى فى الرياسة صارت بيده مقاليد الأمور » .

ولا نزاع أن الزعامة الشعبية قد اكتسبت نفوذا معنويا كبيرا لمكانة السيد عمر مكرم وشخصيته ومهابته ، فهو بحكم رآسته لهذه الزعامة كان يسبغ عليها من شخصيته الكبيرة ما يجعلها نافذة الكلمة محترمة المقام .

أدرك السيد عمر مكرم إذن مكانة عظمى فى نفس الشعب ، وعند الحكومة ، ولم تكن هذه المكانة لتخفى على زعماء المماليك ، فلجأ إليه محمد بك الألفى وطلب وساطته له عند محمد على باشا وشفاعته لديه ليصفو له وللأمراء المماليك وتنتهى الحرب بينهم على أن يقطعهم جهة يقيمون بها ويستغلونها ، لكن محمد على كان أبعد نظرا من أن يطمئن لخصومه الألداء فعادت الحرب بينهما وانسحب الألفى بك إلى الفيوم يعد العدة للقتال ، واعتزم محمد على أن يزحف عليه ليستخلص الوجه القبلى من سلطة المماليك .

---

(٦) يريد وقائع الثورة التى قامت ضد خورشد باشا وفصلنا الكلام عنها بالجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣٦٤ . (الطبعة الأولى)

الحرب بين محمد على والمماليك

كان المماليك حتى أوائل سنة ١٨٠٦ أصحاب النفوذ والحكم فى الصعيد ، إذ كان محمد بك الألفى يحتل الفيوم ، وسليمان بك ومعه ثلاثة من أتباعه البكوات يرابطون بجنودهم شمالى أسيوط ، وعثمان بك حسن يرابط فى مديرية إسنا ، وإبراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسى وأتباعهما يحتلون شاطئ النيل بين أسيوط والمنيا ، فكان على ذلك معظم الصعيد تحت سلطة المماليك ، فأنفذ محمد على جيشا بقيادة حسن باشا للزحف عليهم .

إنحدر حسن باشا فى النيل من الجيزة ومضى حتى بلغ الرقة[٧] ، وما كاد يتجاوزها حتى التقى بقوات محمد بك الألفى الذى جاء من الفيوم قاصدا الوجه البحرى (مارس سنة ١٨٠٦ – أواخر ذى الحجة سنة ١٢٢٠) ، وكان الألفى قد حشد تحت لوائه فى الفيوم عدة آلاف من العرب ليناجز بهم قوات محمد على ، فنازل بهم جيش حسن باشا فى معركة انتهت بهزيمة هذا الأخير وانسحابه إلى (الرقة) ، وتابع الألفى زحفه إلى الجيزة ومنها سار شمالا إلى البحيرة ، أما حسن باشا فلم يشأ أن يصطدم بالألفى وسار جنوبا حتى بلغ بنى سويف ، وبقى بها لا يعمل عملا ، وفى الوقت نفسه تقدم إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى شمالا وحاصروا المنيا وكانت بها حامية من جنود محمد على ، وكان موقع المنيا عظيم الخطر ، فأمدها حسن باشا بنجدة تحت قيادة أخيه عابدين بك فجاءتها وشدت أزر الحامية ، ووقفت الحرب عند هذا الحد إذ واجه محمد على مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه كما تراه فيما يلى :

محاولة عزل محمد على وإخفاقها
(سنة ١٨٠٦)

لم يكن محمد على كما قدمنا مرضيا عنه لا من الحكومة التركية ولا من الإنجليز ، ولئن أخفقت مناورة سنة ١٨٠٥ وبقى على عرشه فإن ذلك لم يمنع الإنجليز من أن يسعوا سعياً حثيثاً فى تحقيق سياستهم التى ترمى إلى إقصائه عن مصر وإحلال المماليك مكانه .

---

(٧) على شاطئ النيل بمديرية الجيزة .

دسيسة إنجليزية جديدة

وقد ساعد انجلترا على تجديد سعيها لدى الباب العالى رجحان كفتها فى حروبها مع فرنسا حين بلغ الصراع بين الإنجليز ونابليون أشده ، فقد كان لهم الفوز فى معركة (الطرف الأغر) البحرية[٨] ، حيث اشتبك الأسطول البريطانى بقيادة الأميرال نلسن والأسطول الفرنسى الذى يقوده الكونتر أميرال فيلنوف ، فانتصر الأسطول الإنجليزى فى تلك المعركة الشهيرة ، وخرجت انجلترا من الحرب قوية الشوكة نافذة الكلمة ، باسطة سيادتها على ظهر البحار ، وقضت نهائيا على آمال نابليون فى أن ينازعها تلك السيادة ، فصار البحر الأبيض المتوسط تحت مطلق سلطانها ، ورجحت كفتها السياسية فى الشرق وخاصة على ضفاف البوسفور حيث لم تعد تخشى مزاحمة فرنسا لها ، وأخذت تملى سياستها على الباب العالى مستعينة بما أكسبها الفوز البحرى على نابليون من الشوكة والنفوذ ، واستأنفت تدخلها فى المسألة المصرية بما يطابق أهواءها ، وكان أول ما قصدت إليه أن تبسط نفوذها فى وادى النيل وتحقق المطامع التى فاتها تحقيقها فى السنوات الماضية ، أثناء الحملة الفرنسية وبعد انتهائها ، وكانت على يقين أن بسط نفوذها يتحقق بإعادة الحكم فى مصر إلى صنائعها من المماليك ، فطلبت من الباب العالى بلسان سفيرها فى الإستانة عزل محمد على عن ولاية مصر وجعل الحكمْ فيها إلى محمد بك الألفى ، وتوصلت إلى إقناع الحكومة التركية بوجهة نظرها بحجة ما يعود عليها من النفع من وراء هذا التغيير ، وألقت فى روعها أن محمد على باشا لا يميل إلى الإذعان لأوامرها ولم يدفع إلى ذلك الحين شيئا من الخراج الذى كان يؤديه الولاة السابقون .

سعت انجلترا سعيها لإسناد حكم مصر إلى محمد بك الألفى ، وكان الألفى على اتصال مستمر بعمال الإنجليز ، يتبادل وإياهم الرسائل والرسل ليتخذ انجلترا شفيعة بل حامية وكفيلة له لدى الباب العالى كى تتفق وإياه على الشروط التى يتولى بها الحكم . فعرضت انجلترا على الحكومة التركية أن تعين والياً جديداً بدل محمد على يكون من طراز الولاة الأتراك الأقدمين الذين كانوا يتركون سلطة الحكم للأمراء المماليك ، وأبلغتها أن الألفى يتعهد بأداء جزية سنوية

---

(٨) ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ .

مقدارها ١٥٠٠ كيس[٩] تضمن الحكومة الإنجليزية إيفاءها ، ويتعهد بالولاء وبذل الطاعه والخضوع لأوامر الاستانة ، وأن هذا الاتفاق إذا تم يكون فاتحة تقدم فى المعاملات التجارية بين البلدين مما يؤدى إلى زيادة رسوم جمارك مصر وسورية ، وبالتالى يعود بالربح على خزانة الإستانة ، فاستمع الباب العالى لهذه الحجج ، ورأى فيها منفعة مادية تعود عليه ولو كان من ورائها تسليم مصر للمطامع الإنجليزية ، وصادف هذا الإغراء هوى فى نفوس حكام الإستانة لأن الباب العالى لم ينس أن إسناد ولاية مصر إلى محمد على كان نتيجة قيام ثورة شعبية على الوالى الرسمى المعين بمقتضى « فرمان سلطانى » ، وأن الإرادة الشاهانية التى اقتضت تولية محمد على إنما صدرت تحت ضغط تلك الثورة ، وهذا أمر لم يكن سائغًا ولا مألوفًا عند سلاطين الترك ، وكذلك لم يكن مألوفاً أن تقر الحكومة التركية واليا فى منصبه أكثر من سنة ، فلا جرم كانت تنظر إلى بقاء محمد على وسعيه فى تثبيت مركزه فى مصر بعين السخط والمقت ، فصحت عزيمتها على أن تعزله ، وأصدرت فرماناً بتولية موسى باشا فى مكانه وتقليد محمد على ولاية سلانيك ، ومعنى ذلك إبعاده عن مصر ، وكان متفقا على أن موسى باشا سيكون آلة فى يد المماليك كما كان شأن ولاة مصر فى القرن الثامن عشر ، وأن يسمح للمماليك بشراء أفواج الرقيق من جنسهم وجلبهم إلى مصر ورفع الحظر الذى كان مضروبا عليهم فى هذا الصدد منذ الحملة الفرنسية فيعودوا إلى شراء المماليك من أسواق الرقيق ويقوى بهم جيشهم فى مصر ، وبذلك تتحقق وجهة النظر البريطانية فى المسألة المصرية ، ويعود الحكم إلى المماليك وتبسط انجلترا نفوذها فى مصر على أيديهم .

مجىء أسطول عثمانى إلى مصر لعزل محمد على

ولأجل أن تحقق الحكومة التركية ما اعتزمت عليه أنفذت عمارة بحرية بقيادة صالح باشا قبودان العمارة العثمانية ليتم النقل والتغيير دون أن تحدث مقاومة أو تنهض معارضة ، فأقلعت العمارة تقل الوالى الجديد موسى باشا ، وكان الألفى قد أطلع من قبل على مفاوضات الإنجليز والباب العالى ، ووقف عليها من قناصل انجلترا فى مصر ، وهذا هو السبب الذى دعاه إلى التحرك من الفيوم قاصدًا الوجه البحرى ، فكانت غايته من ذلك أن يتلقى القبودان صالح

(٩) ٧٥٠,٠٠٠ قرش .

باشا عند حضوره ، فلما وصل إلى قرب دمنهور علم بوصول العمارة العثمانية ، فابتهج لهذا النبأ ابتهاجا عظيما .

وصلت العمارة التركية إلى الإسكندرية فى أول يوليه سنة ١٨٠٦ ، وكانت من أربع بوارج وفرقاطتين وسفينتين أخريين وعلى ظهرها موسى باشا الوالى الجديد وجنود الحملة المتأهبة للنزول إلى البر ، وعدتها ثلاثة آلاف مقاتل ، والتقى الألفى فى حوش عيسى برسل الترك والإنجليز ، وهنأوه بقرب تحقيق آماله .

رواية الجبرتى

يتبين من رواية الجبرتى أن محاولة عزل محمد على تمت بالاتفاق بين الإنجليز والحكومة التركية ومحمد بك الألفى ، قال فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٢١ (يونيه سنة ١٨٠٦) ما خلاصته :

« وردت سعاة من الإسكندرية وأخبروا بورود أربعة مراكب وفيها عساكر من النظام الجديد[١٠] وصحبتهم ططريات (رسل) وبعض أشخاص من الانكليز (تأمل !) ومعهم مكاتبة خطاباً إلى الألفى وبشارة بالرضا والعفو للأمراء المصرية (المماليك) من الدولة العثمانية بشفاعة الإنكليز فلما وصلوا إليه بناحية حوش ابن عيسى بالبحيرة سر بقدومهم ، وعمل لهم شنكا ، وضرب لهم مدافع كثيرة ، وأرسلهم إلى الأمراء القبليين (المماليك بالصعيد) وصحبتهم أحد سناجقه وهو أمين بك ومحمد كاشف تابع إبراهيم بك الكبير ، ثم أنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر إلى المشايخ وغيرهم بمصر وكذلك إلى مشايخ العربان مثل الحويطات والعائد وشيخ الجزيرة » .

وقال فى موضع آخر فى ترجمة محمد بك الألفى : « وكان مع ما هو فيه من التنقلات والحروب يراسل الدولة والإنكليز ، وأرسل أمين بك إلى الإنكليز فسعوا مع الدولة لمساعدته وحضروا إليه بمطلوبه فعمل لهم بحوش ابن عيسى شنكا وأرسلهم مع أمين بك إلى الأمراء القبليين » ، وقال فى موضع آخر : « والسبب فى حركة القبطان (صالح باشا) إرساليات الألفى للإنكليز ومخاطبة الإنكليز الدولة ووزيرها محمد باشا السلحدار » .

(١٠) أى من الجيش النظامى الجديد.

فالمسألة إذن كما ترى لم تكن إبدال وال بآخر ، بل هى دسيسة إنجليزية تركية حيكت شباكها فى الإستانة بقصد إعادة المماليك إلى حكم مصر وبسط النفوذ الإنكليزى عليها .

ولم يكد يستقر صالح باشا فى الثغر حتى أوفد رسولا إلى محمد على يبلغه فرمان النقل والتغيير ويأمره بالذهاب إلى سلانيك مقر ولايته الجديدة ، وكان محمد على يعالج المشكلات بالحكمة والسياسة والدهاء ، فتظاهر بالامتثال ، ولكنه تأهب سرًّا للمقاومة ، وأجاب أنه مستعد للرحيل إلى سلانيك غير أن الجند يعارضون فى رحيله قبل أن تؤدى رواتبهم المتأخرة ، وقدرها عشرون ألف كيس ، فكانت هذه الحجة أول ذريعة توسل بها إلى إحباط مؤامرة العزل والنقل ، وأخذ محمد على يعد العدة للمقاومة ، فاتجه فكره فوراً إلى السيد عمر مكرم يستنجد به لإحباط المؤامرة الجديدة .

قال الجبرتى : « فلما قرأ الدفتر دار الورقة أرسل إلى السيد عمر النقيب فركب إليه وحضر صحبته إلى الباشا واختليا معاً ساعة ثم فارقاه » .

ففى هذه الخلوة أفضى محمد على إلى السيد عمر مكرم بمؤامرة الإستانة ، وطلب إليه المعونة والنجدة ، فكان عمر مكرم عند ظنه ، وكان له نعم العضد الأمين ، واتفقا على الخطة المشتركة .

كانت هذه الأزمة خطيرة العواقب ، وكادت تقتلع محمد على عن كرسيه وترجع بالبلاد إلى حكم المماليك ، فإن الفرمان الذى جاء به قبطان باشا كان يتضمن تولية موسى باشا على مصر وانفصال محمد على باشا عن ولايتها ويتضمن أيضا « العفو عن الأمراء المماليك ، وأن يكونوا كعادتهم فى إمارة مصر وأحكامها وأن يستقر الباشا الجديد فى القلعة كعادته » ، ومعنى ذلك إطلاق يد المماليك فى حكومة البلاد كما كانوا قبل الحملة الفرنسية وارتكاس البلاد فى حكم التقهقر والفوضى .

فالمؤامرة كانت واسعة النطاق اشترك فى حياكة خيوطها الباب العالى والإنجليز والمماليك معاً ، فلا غرو أن ابتهج محمد بك الألفى لورود الفرمان الجديد ابتهاجا عظيما ، وأرسل رسله فى البلاد لإذاعته بين الناس .

حصار دمنهور

اعتزم الألفى عندما وصلت العمارة التركية إلى الإسكندرية أن يستقر فى دمنهور ليتخذها مركزا يجمع فيه قواته ويدير خططه ، وكان يظن أن أهلها لا يخالفون له أمرا بعد وصول الوالى الجديد ، فأعلنهم بقدوم العمارة التركية ووصول فرمان يقلده حكم مصر ، وطلب إليهم تسليم المدينة ونزولهم على حكمه ، لكن الأهالى رفضوا التسليم ، وأعدوا لمقاومته والامتناع فى المدينة ، وأرسلوا إلى السيد عمر مكرم ينبئونه بالخبر فأبلغه إلى محمد على باشا ، ووضع الألفى الحصار حول دمنهور لإكراهها على التسليم .

تضامن محمد على والعلماء فى مقاومة فرمان العزل

استوثق محمد على من معاضدة السيد عمر مكرم ، ومن ثم عزم على مقاومة إرادة الباب العالى ، وأخذ يتأهب للحرب والقتال ، واتفق هو والسيد عمر على أن يجتمع العلماء ويكتبوا محضرا فى شكل التماس بالاعتراض على عزل محمد على والاحتجاج على تولية موسى باشا ورجوع السلطة للمماليك .

ومضمون هذا الاعتراض أن الأمراء (المماليك) قد عرضوا على السدة السلطانية تعهدهم بدفع الأموال الأميرية إلى خزانة الدولة العلية وأداء مرتبات الحرمين الشريفين والعفو عن جرائمهم الماضية فى مقابل إقرارهم على دخول مصر القاهرة ، وأن طلبهم قد حاز القبول ، ومن ثم صدر الأمر السلطانى بعزل محمد على باشا وتوجيه ولاية سلانيك إليه وتقليد موسى باشا ولاية مصر ، وقبلت توبتهم على أن يقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية كفالتهم ، على أن الموقعين على العريضة لا يستطيعون كفالتهم « فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول ، ونحن لا قدرة لنا على ذلك ، لما تقدم من الأفعال الشهيرة ، والأحوال والتطورات الكثيرة ، ولا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ، فنرجو عدم المؤاخذة فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها ، لأننا لا نقدر على دفع المعتدين والطغاة والمتمردين ، الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم » ، وعدد العلماء فى عريضتهم مساوىء المماليك ومظالمهم ، وأطروا فعال محمد على باشا ، وختموا كلامهم بتفويض الأمر إلى

السدة السلطانية ، وكتبوا من العريضة نسختين إحداهما إلى القبطان باشا والأخرى إلى السلطان بعد ما وقعوا عليها بإمضاءاتهم وأختامهم .

ومعنى هذا البيان على ما فيه من إظهار الولاء والإخلاص للسدة السلطانية أنهم لا يجيزون تغيير الوالى ، ولا يرضون بعودة الحكم إلى المماليك ، ولا يقبلون كفالتهم ، وأنهم متمسكون بولاية محمد على ، وفى هذا من تأييده فى مركزه والاستهانة بالفرمانات (الشاهانية) مالا يغرب عن البال .

أما قبطان باشا فقد مضى فى تنفيذ مهمته ، فبعث إلى العلماء برسالة ينبئهم فيها بعزل محمد على باشا وتقليد موسى باشا ، ويدعوهم إلى الامتثال للأمر ، وبعث بمثل هذه الرسالة إلى السيد عمر مكرم ، وبثالثة إلى السيد محمد السادات ، فلم يلق منهم جوابا صريحا بالامتثال ، بل أبدوا أعذارهم ، وكانت الأوامر تقضى برحيل الجنود الأرناءود مع محمد على ، فتذرعوا بأن امتناع الجنود عن الرحيل وعصيانهم يترتب عليه تعرض البلاد للخراب ، فكرر قبطان باشا عليهم الأمر فى رسالة شديدة اللهجة قال فيها : « إنه لا يقبل هذه الأعذار ولا ما نمقوه من التمويهات التى لا أصل لها ولا بد فى تنفيذ الأوامر وسفر الباشا (محمد على) هو وحسن باشا وعساكرهم وخروجهم من مصر وذهابهم إلى ناحية دمياط وسفرهم إلى الجهة التى أمروا بالذهاب إليها ، ولا شىء غير ذلك أبدا » .

وكتب العلماء رسالة أخرى إلى قبطان باشا فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٢١ (أغسطس سنة ١٨٠٦) يذكرون فيها صراحة أنهم لا يرتضون عن محمد على باشا بديلا ، ومما جاء فى هذه الرسالة قولهم : « إن محمد على باشا كافل الإقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله ، وقاطع المعتدين ، وان الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله ، والشريعة مقامة فى أيامه ، ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف ، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها فى أيام المماليك المعتدين الذين كانوا يعتدون عليهم ويسلبون أموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بأخذ الفرض والكلف (جمع كلفة) الخارجة عن الحد أما الآن فجميع أهل القطر المصرى مطمئنون بولاية هذا الوزير» .

استعداد محمد على للحرب

اعتمد محمد على إذن على تأييد زعماء الشعب له فى المقاومة وأخذ يحرض رؤساء الجند على العصيان والمعارضة فى رحيله ، وقد صادف هذا التحريض هوى فى نفوسهم لأنهم خشوا إذا هو ارتحل عن مصر أن تسقط رواتبهم المتأخرة وكانت تبلغ نحو عشرين ألف كيس ، فاتفق وإياهم على أن يقاوم الأمر الصادر له من الاستانة إذا أعطوه موثقا بأن يكونوا مخلصين له متفانين فى الدفاع عنه فعاهدوه على الأمانة والإخلاص ، وأقسموا له أنهم مؤيدوه وناصروه ، فأخذ يعمل مطمئنا ويستعد للمقاومة ، فأمد القلعة بالميرة والذخيرة ، وحصن الطوابى الباقية من عهد الحملة الفرنسية والمحيطة بأطراف المدينة ، وأنفذ جيشا من جنوده إلى الرحمانية ليكون على أهبة الاستعداد لقتال الألفى بك والأتراك ، وبعث إلى حسن باشا بالصعيد يدعوه إلى التقدم نحو القاهرة لتكون قواتها كلها على أهبة القتال .

رواية الجبرتى

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وشرع الباشا فى عمل آلات حرب وجلل ومدافع ، وجمعوا الحدادين بالقلعة وأصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهام إلى القلعة ، وظهر منه علامات العصيان وعدم الامتثال ، وجمع إليه كبار العسكر وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك » .

وقال فى موضع آخر : « وأرسل الباشا فجمع الأخشاب التى وجدها ببولاق فى الشوادر والحواصل والوكائل وطلعوا بجميع ذلك إلى القلعة لعمل العربات والعجل برسم المدافع والقنابر » .

موقف زعماء الشعب

كل هذه الاستعدادات تدل على أن محمد على قد اعتزم فعلا مقاومة قرار الباب العالى بالقوة ، ولقد عاونه على إنفاذ فكرة المقاومة ثقته بتأييد زعماء الشعب له وتضامنهم وإياه فى مقاومة عودة المماليك إلى الحكم .

ولقد كان تأييدهم صادراً عن نية صادقة وعقيدة راسخة فى نفوسهم ، لأنهم هم الذين اختاروه للولاية ، فهم بحكم اختيارهم يريدون أن تنفذ إرادتهم بتثبيت قدم محمد على فى الحكم ولأنهم من جهة أخرى يعلمون أن تعيين موسى باشا مع إطلاق يد المماليك ورؤسائهم فى الحكم معناه الرجوع إلى حكم المظالم والارتكاس فى الفوضى ، وهذا أمر لا ترضاه نفوسهم لأنهم هم الذين أثاروا الشعب على هذه المظالم ولقد رأوا فى سياسة محمد على باشا ورجوعه إليهم فى تقرير الضرائب التى يفرضها وفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه حين ولايته الحكم أن يسير بالعدل والقسطاس ، فلا جرم أن تطمئن نفوسهم إليه ، كل هذه الظروف جعلت تأييد زعماء الشعب لمحمد على أمراً طبيعيًّا يقضى منطق الحوادث بأن لا مناص منه .

فمناصرة الزعماء لمحمد على باشا هى تأييد للسياسة التى رسموها من قبل ، وتثبيت للسلطة التى كسبوها فى تسيير شئون الحكومة ، وهذه السلطة نفسها لم يتجاهلها الباب العالى لأنه جعل رجوع المماليك إلى الحكم معلقا على كفالة العلماء لهم ، ولقد استمسك العلماء بهذا الشرط فصرحوا فى عريضتهم إلى الدولة أنهم لا يقبلون هذه الكفالة ولا يرضون بها ، ومعنى ذلك أنهم لا يريدون رجوع الحكم إلى المماليك ولا يبغون عن محمد على بديلا .

سياسة محمد على

وتذرع الباشا من جهة أخرى بالدهاء والحيلة بإزاء المماليك ، فأخذ يعمل على فصم عراهم مستخدما التنافس القديم بين زعمائهم .

كان محمد على يعلم بأن الألفى بك مكروه من بقية رؤساء المماليك كالبرديسى وإبراهيم بك وعثمان بك حسن وأنهم ينقمون منه انفراده بالاتصال بالإنجليز وكتمانه عنهم أسرار مفاوضاته وإياهم ، وقد بادر الألفى إلى الرحيل عن الفيوم قاصداً البحيرة وشواطئ الإسكندرية لمقابلة صالح باشا دون أن يكاشف زملاءه بلخيله نفسه ، فأثار فيهم الحفيظة القديمة التى كانت تبدو ما بين آن وآخر وأرسلوا سعاتهم إلى محمد على يعرضون عليه الصلح ، فانتهزها فرصة ليضعف شوكة الألفى خصمه اللدود ، فتلقى السعاة بالبشاشة والترحيب ووصلهم بالهدايا إعلانا عن مقاصده الودية حيالهم ، واطمأن من جانبهم ، واستخدم حيال الترك سلاحا آخر وهو الرشوة ، فإنه كان يعلم ما انطوت عليه نفوس حكام تركيا وساستهم من الإذعان للمال والنزول على حكمه ، ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد قوله عنهم : « إنى أعرف الترك وأعرف الطريقة التى

تنجح معهم فالرشوة هى وسيلة فعالة مع هؤلاء الناس » ، فاستخدم هذا السلاح وأخذ يقدم الرشا والهدايا لصالح باشا وبطانته من جهة ، ولرجال « المابين » فى الاستانة من جهة أخرى ، وكان لهذه الوسيلة فضل كبير فى تمهيد السبيل لمساعيه ، فقد بعث بعريضة زعماء الشعب إلى الإستانة لتقديمها إلى السدة السلطانية على يد رسول من أبنائه وأرسل معه ٢٠٠٠ كيس برسم رجال الدولة جمعها له رؤساء الجند لإعداد الأهبة للحرب والقتال ، فأحدثت هذه الرشوة أثرها على ضفاف البوسفور .

وبذل كذلك سفير فرنسا فى الإستانة مساعى جمة لتعضيد محمد على فاجتمعت هذه الأسباب المختلفة وعدلت من خطة الباب العالى ، فبعث الديوان إلى صالح باشا يطلق يده ويكل إليه التصرف المطلق فى الأمر كما سيأتى .

معركة النجيلة

قلنا إن محمد على باشا أنفذ إلى الرحمانية جزءا من جيشه لمحاربة محمد بك الألفى والأتراك فوصل هذا الجيش فى أواخر يوليه سنة ١٨٠٦ إلى الرحمانية ، وكان يقود حاميتها طبوز أوغلى (كتخدابيك) وطاهر باشا ابن أخت محمد على باشا ، فلما أقبلت النجدة استظهر بها القائدان وخرجا من الرحمانية ، ولما علم الألفى بهذه الحركة اعتزم مواجهة قوات محمد على ، فرفع الحصار عن دمنهور وأقبل بقواته واشتبك هو وجنود محمد على فى (النجيلة)[١١] يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٦ وانتهت المعركة بهزيمة العلويين فانسحبوا بقيادة كتخدا بك إلى منوف بعد أن خسروا نحو ستمائة بين قتيل وأسير واستولى المماليك على الرحمانية .

رواية الجبرتى عن معركة النجيلة

كانت معركة النجيلة ذات خطر وشأن وكان لها تأثير بالغ فى نفس محمد على باشا ، قال الجبرتى فى صددها مايلى :

« وفى ثانى عشر جمادى الأولى سنة ١٢٢١ وردت الأخبار بأن العسكر الكائنين بالرحمانية ومرقص[١٢] رجعوا إلى النجيلة ونصبوا عرضيهم (معسكرهم) هناك وحضر الألفى تجاههم

(١١) جنوبى الرحمانية .

(١٢) على مقربة من الرحمانية .

فركبوا لمحاربته وكانوا جمعا عظيما ، فركب الألفى بجيوشه وحاربهم ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم وانهزام العسكر وقتل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البحر (النيل) وألقوا بأنفسهم فيه ، وامتلأ البحر من طراطير الدلاتية (الدلاة) ، وهرب كتخدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية وعدوا فى المراكب واستولى الألفى وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبخانتهم وأرسل برءوس القتلى والأسرى إلى القبودان (صالح باشا) وأشيع خبر هذه الواقعة فى الناس وتحدثوا بها وانزعج الباشا والعسكر انزعاجا عظيما » .

استئناف حصار دمنهور ودفاعها المجيد

تشجع الألفى بهذا الانتصار وعاود محاصرة دمنهور ، فدافع أهلها دفاعا مجيدًا مدة شهرين من بدء الحصار الأول ، وكانوا متروكين لقوتهم ، وعبثا طلبوا النجدة من محمد على فإنه لم يستطع أن يمدهم خلال هذه المدة ، فلما استأنف الألفى حصارها كان على يقين من استيلائه عليها عنوة وخاصة بعد انتصاره على جنود محمد على فى النجيلة والرحمانية ، وقد زحف هذه المرة مجهزا بالمدافع الكثيرة التى يقوم عليها رماة من الأروام والإيطاليين أمده بهم الإنجليز.

ولكن الألفى لم ينل من دمنهور منالا ، إذ دافع أهلها عنها رجالا ونساء دفاع الأبطال وردوا هجمات المماليك المرة بعد المرة . وفى خلال الحصار أرسل أهلها إلى السيد عمر مكرم وإلى محمد على باشا بما يحدر بهم عمله فجاءهم الجواب بوجوب الاستمرار على المقاومة ، وأمدهم السيد عمر بكل ما يحتاجون إليه من الذخيرة والميرة ، قال الجبرتى فى ترجمة محمد بك الألفى أنه « رجع إلى البحيرة وأراد دمنهور فامتنع عليه أهلها وحاربوه وحاربهم ولم ينل منهم غرضا والسيد عمر مكرم يقويهم ويمدهم ويرسل إليهم البارود وغيره من الاحتياجات » .

وظل الألفى زهاء شهر يحاول الاستيلاء على دمنهورا فيرتد عنها خائبا ، وقد أثر هذا الفشل فى تطور الأحوال تأثيراً كبيراً ، قال فولابل فى هذا الصدد : « يمكن اعتبار دفاع دمنهور ذلك الدفاع الذى جمع بين الشجاعة والثبات ، وكذلك تخاذل رؤساء المماليك ، من أهم الأسباب المباشرة التى أحبطت الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالى والإنجليز[١٣] » ، ويقول المسيو

(١٣) فولابل ، مصر الحديثة .

جومار فى هذا المعنى : « إن أهالى دمنهور قد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمثابرة أثناء الحملة الفرنسية فى ظروف تختلف عن الظروف التى قاوموا فيها قوات الألفى مما يدل على ما فطروا عليه من الشجاعة (١٤) .

حبوط مؤامرة العزل

انتهز محمد على فرصة انهماك الألفى فى محاصرة دمنهور فاتصل بحاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليحوّلهم إلى صفه ، وقد أحدث المال فى نفس صالح باشا ونفوس بطانته تحولا كبيرًا فى وجهة نظرهم ، وزاد هذا التحول خيبة الألفى فى الاستيلاء على دمنهور وما تبين لصالح باشا من انقسام المماليك وتخاذلهم ، فإن البرديسى لما رأى ارتباط الألفى بالإنجليز أعرض عن تأييده لحقده عليه ولأنه من أنصار الالتجاء إلى فرنسا ، وقد تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على المماليك والركون إليهم لأن الألفى تعهد أن يؤدى له ١٥٠٠ كيس كانت ثمن إعادتهم للحكم ، وأوفد رسولا إلى زملائه إبراهيم الكبير وعثمان بك البرديسى وعثمان بك حسن وكانوا وقتئذ بالصعيد يسألهم معاونته فى أداء هذا المبلغ ، ولكنهم ردوا الرسول خائبا وعلم صالح باشا بذلك فغضب على الألفى وأخذ يفكر فى تغيير خطته ، ورأى أن تأييد زعماء الشعب لمحمد على ، ورفضهم ولاية موسى باشا وتضعضع الألفى فى حصار دمنهور وتخاذل المماليك فيما بينهم كل هذه الأسباب تبرر تحويل شراعه إلى ناحية محمد على .

وفى غضون ذلك وردت من الباب العالى إلى صالح باشا رسالة تطلق يده وتفوض إليه أن يتصرف على ما يراه صالحا ، ومعنى ذلك أن حكومة الإستانة رجعت عن فرمانها القاضى بعزل محمد على باشا من ولاية مصر ، فصحت عزيمة صالح باشا على تثبيت محمد على فى الولاية ، وتم الأمر على ذلك فى مقابل أن يؤدى إلى الباب العالى ٤٠٠٠ كيس ، وأن يجعل ابنه إبراهيم بك (باشا) رهينة بالاستانة على هذا المبلغ ، وانتهت المشكلة بورود مرسوم إلى محمد على يتضمن « إبقاءه واستمراره على ولاية مصر حيث أن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس » ، فزينت القاهرة لهذا النبأ ثلاثة أيام متواليات .

فرسوم التثبيت مبنى إذن على أن محمد على باشا مؤيد من الشعب مرضى عنه من زعمائه

---

(١٤) مانجان . تاريخ مصر فى حكم محمد على الجزء الأول ص ٤٤٣ .

موثوق فى عدله ، ومن ذلك يتبين أن الزعامة الشعبية كما كانت صاحبة اليد الطولى فى اختيار محمد على باشا لولاية الحكم فإنها كانت العامل الأكبر فى توطيد مركزه وإحباط المؤامرة الواسعة النطاق التى كادت تقتلعه عن عرشه .

وانتهت تلك المؤامرة بالإخفاق والفشل وأقلع القبودان صالح باشا بعمارته من أبو قير يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠٦ (٥ شعبان سنة ١٢٢١) قاصدا الاستانة يصحبه موسى باشا وإبراهيم بك بن محمد على ، وترك صالح باشا وكيله بمصر ليتعجل توفية الأربعة الآلاف كيس التى تعهد بها لحكومة الاستانة .

وبذل محمد على جهده فأدى الأربعة آلاف كيس كاملة فى أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، فجاءه رسول من الاستانة يحمل فرمانين أحدهما بإقراره فى حكمه والثانى يأمره فيه بتسفير المحمل وإرسال القمح المطلوب إلى جدة .

وبذلك استقر محمد على على عرش مصر وحبطت المؤامرة التى كان يقصد منها عزله .

وفاة البرديسى

كانت العناية الإلهية تلحظ محمد على باشا فى أدوار حياته ، ففى الوقت الذى انتهت فيه مؤامرة الباب العالى والإنجليز بالإخفاق والفشل جاءه الخبر بوفاة عثمان بك البرديسى أحد زعماء المماليك الذين يطمحون إلى ولاية الحكم وأحد الذين يخشى منهم على عرشه الجديد ، فالبرديسى ما فتىء يتحين الفرص لتحقيق مطامعه إلى أن عاجلته المنية يوم ٨ رمضان سنة ١٢٢١ (١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦) ، فدفنه أتباعه فى الصعيد وأمّروا عليهم شاهين بك المرادى خلفا له ، وشاهين بك هذا كان خصما لدوداً للألفى فكانت أمارته حائلة دون توحيد صفوف المماليك وسببا لاطمئنان محمد على من هذه الناحية .

وغنىٌ عن البيان أن محمد على باشا قد ابتهج بوفاة أحد خصومه الذين ينافسونه فى الحكم ، ولم يكد يمضى شهران على وفاة البرديسى حتى عاجلت المنية خصمه الآخر الألد محمد بك الألفى .

إخفاق الألفى ووفاته

لم ييئس الألفى أن يظاهره الإنجليز فى انتزاعه الحكم ، فاستمر متصلا بقنصل انجلترا فى مصر يطلب من دولته النجدة والمدد ، وفى غضون ذلك انتقضت العلاقات بين انجلترا وتركيا ، واعتزمت انجلترا احتلال مصر ، ومن هنا جاءت فكرة الحملة الإنجليزية التى سيأتى الكلام عنها فيما يلى ، وقد أنبأه قنصل انجلترا بقرب وصول العمارة الإنجليزية بهذه الحملة .

فكان هذا النبأ باعثاً له على البقاء فى البحيرة ليتصل بالإنجليز عند قدومهم ، وقد شدد الحصار على دمنهور ليفتحها ويتخذها معقلا له ، ولكن مقاومة دمنهور وامتناعها عليه أفسد خطته ، ذلك أن جنوده سئموا الاستمرار على الحرب والقتال واشتد بهم الحر والتعب ، ونفدت مؤونتهم ، وكان ذلك فى زمن القيظ فتمردوا عليه وأعلنوه بأنهم تاركوه إذا أصر على متابعة الحصار ، وانتظر هو عبثا ورود النجدة الإنجليزية فلم تصل (وكانت آتية فى الطريق) ، فاضطر أن ينقلب بجيوشه إلى الصعيد بعد أن خانه الحظ وخذله زملاؤه ، وتمرد عليه جنوده ، وأبطأ عليه حلفاؤه .

فامتناع دمنهور واستعصاؤها على الألفى كان من أهم أسباب إخفاقه فى سياسته ، قال المسيو مانجان فى هذا الصدد : « إن دفاع دمنهور المجيد هو جدير بأن يسجل فى صفحات تاريخ مصر الحربى فقد تولى أهلها الشجعان هذا الدفاع وحدهم دون أن يتلقوا أى مدد أو مساعدة حتى من محمد على الذى كان هذا الدفاع دفاعا عنه فقاوم أولئك الشجعان بكل ثبات وبسالة قوات الألفى كلها إلى أن تكلل دفاعهم بالنجاح فكان له تأثير كبير فى إحباط خطة الباب العالى » .

وقال الجبرتى فى ترجمة حياة محمد الألفى يصف موقفه بعد رحيل صالح باشا إلى أن ارتد عن دمنهور : « ولما تنحت عنه عشيرته ولم يلبوا دعوته وأتلفوا الطبخة وسافر القبودان وموسى باشا من ثغر اسكندرية على الصورة المذكورة استأنف المترجم أمراً آخر ، وراسل الإنكليز يلتمس منهم المساعدة ، وأن يرسلوا له طائفة من جنودهم ليقوى بهم على محاربة الخصم كما التمس منهم فى العام الماضى فاعتذروا له بأنهم على صلح مع العثمانى وليس فى قانون الممالك إذا تحالفوا فى صلح ان يتعدوا على المصادقين معهم ولا يوجهون نحوهم عساكر إلا بإذن منهم أو

بالتماس لمساعدة فى أمرمهم ، فغاية مايكون المكالمة والترجى ، ففعلوا وحصل ماتقدم ذكره ولم يتم الأمر ، فلما خاطبهم بعد الذى جرى صادف ذلك وقوع النفرة بينهم وبين العثمانى ، فأرسلوا إلى المترجم يوعدونه بإنفاذ ستة آلاف لمساعدته ، فأقام بالبحيرة ينتظر حضورهم نحو ثلاثة شهور ، وكان ذلك أون القيظ وليس ثم زرع ولا نبات ، فضاقت على جيوشه الناحية ، وقد طال انتظاره للإنكليز ، فتشكى العربان المجتمعون عليه وغيرهم لشدة ما هم فيه من الجهد ، وفى كل حين يوعدهم بالفرج ويقول لهم اصبروا لم يبق إلا القليل ، فلما اشتد بهم الجهد اجتمعوا إليه وقالوا له إما أن تنتقل معنا إلى ناحية قبلى فإن أرض الله واسعة وإما أن تأذن لنا فى الرحيل فى طلب القوت ، لما وسعه إلا الرحيل مكظوما مقهوراً من معاندة الدهر فى بلوغ المآرب — الأول مجىء القبودان وموسى باشا على هذه الهيئة والصورة ورجوعهما على غير طائل ، الثانى عدم ملكه دمنهور وكان قصده أن يجعلها معقلا ويقيم بها حتى تأتيه النجدة ، الثالث تأخر مجىء النجدة حتى قحطوا واضطروا إلى الرحيل ، الرابع ، وهو أعظمها ، مجانبة إخوانه وعشيرته وخذلانهم له وامتناعهم عن الانضمام إليه ، فارتحل من البحيرة بجيوشه ومن يصحبه من العربان حتى وصل الاخصاص » .

عاد الألفى قاصدا الصعيد بعد خذلانه فى حصار دمنهور ، وقد تولاه اليأس والقنوط ، وسار كئيبا حزينا ومعه القوات العديدة التى كان يحسب أنها تصل به إلى عرش النيل ، فكان تحت لوائه ستة آلاف من العرب وستمائة من فرسان المماليك وثمانمائة من الترك والنوبيين ومعه من آلات القتال عشرة مدافع وعدد لا يحصى من البنادق والأسلحة ، وكانت الميرة والمؤونة تحملها آلاف عدة من الإبل .

رجع الألفى بهذه القوات الحاشدة فى أوائل يناير سنة ١٨٠٧ ، فكان لا يمر ببلدة إلا أباحها لجيشه نهبا وسلبا ، فكان أهل القرى ينزحون عن بلادهم إذا ما اقترب منها ويخلونها من الميرة والمتاع والماشية نجاةً بها من النهب .

وبلغت هذه الجموع المخَربة إلى الجيزة ، فأوجس محمد على باشا خيفة من مجىء خصمه الألد بهذه القوة الرهيبة ، وأخذ يستعد للمقاومة ، فجمع نحو أربعة آلاف من جنوده فى شبرا (١٢ يناير سنة ١٨٠٧) وعبر بهم النيل إلى امبابة واتخذها معسكره العام ، ولكنه رأى من كثرة جموع الألفى ما جعله يحجم عن مهاجمته .

وكانت طلائع الألفى تحت قيادة شاهين بك قد تقدمت واحتلت قرية الكوم الأسود التى

تقع على مسير ساعة ونصف من امبابه جنوبا ، وسار الألفى بك حتى بلغ شبرامنت ، ولم تغادره الكآبة التى لازمته من يوم رحيل العمارة التركية ورفع الحصار عن دمنهور ، وزاد فى غمه أنباء وصلته عن تخاذل رؤساء المماليك فى الصعيد وتخليهم عن نصرته وقد كان يؤمل أن يتخذوه رئيساً لهم بعد وفاة البرديسى ، فاشتد غيظه وانفجر صدره كمدًا وصرعه المرض فأحس بدنو أجله ، فدعا البكوات المماليك من أتباعه وأمّر عليهم شاهين بك الألفى خليفة له ، ثم قضى نحبه ليلة ٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ (١٩ ذو القعدة سنة ١٢٢١)[١٥] .

كتب المسيو مانجان عن مصرعه أنه خرج للتنزه ممتطياً جواده فرأى عرباناً من جيشه يتلفون مزرعة فثارت نزوة الغضب فى رأسه فانقض عليهم وقتل أربعة منهم كان بينهم شيخ قبيلة ولما انقلب إلى خيمته اعتراه قىء مستمر وأصابه مرض قتال قيل أنه الكوليرا ولم يمهله إلا ساعات حتى أودى بحياته وكان له من العمر خمس وخمسون سنة ، وأوصى بأن يدفن فى البهنسا .

وذكر الجبرتى أنه لما وصل إلى قرب قناطر شبرامنت جلس على ربوة هناك وزادت هواجسه وآلامه وأخذ يودع أحلامه وآماله ثم تحرك به خلط دموى وتقايأ دماً وأحس بدنو أجله فقال : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على » .

مات الألفى فى الوقت الذى كان الانجليز يسيرون حملتهم على مصر ، وقد وصلت هذه الحملة إلى الإسكندرية بعد موته بنحو أربعين يوماً ، وقد يكون موته من أسباب إخفاق تلك الحملة كما سيجىء ، وبموته تخلص محمد على من ألد أعدائه وأقواهم بأساً وأصعبهم مراساً .

الحملة على المماليك فى الصعيد

قضى الألفى نحبه فى الوقت الذى كان محمد على باشا يجهز تجريدة لمحاربة المماليك فى الوجه القبلى ، فلما أعد معدات الحملة بدأ بالزحف ، وكان جيشه مؤلفاً من ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان وست سفن مسلحة ، وأقلت الحملة نحو ثمانمائة مركب ، وأصيب محمد على هو أيضاً بالكوليرا لكن طبيبه الخاص عنى به أحسن العناية وتغلبت بنيته القوية على المرض فشفى منه وكان فى أيام مرضه موضع العطف من العلماء والأعيان ، فلما نقه وانتهض

---

(١٥) اعتمدنا فى هذا التاريخ على رواية الجبرتى ، وهى تختلف قليلا عن رواية المسيو مانجان الذى جعل تاريخ الوفاة ٣٠ يناير .

اعتزم السير إلى الصعيد فعهد بإدارة الأمن إلى كتخداه وغادر القاهرة يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٧ [١٦] .

وعلم أن قوات المماليك احتشدت فى المنيا فقصد إليها بجيشه ولما وصل إلى بنى سويف أرسل إلى زعماء المماليك رسلا من العلماء يسعون للصلح ، وكانت تلك خدعة منه ، وأخذ فى الوقت نفسه يجتذب إليه بعض العربان الموالين للمماليك ويستميلهم بالمال ، ثم تقدم ذات ليلة إلى معسكر المماليك ولما كانت حراسته موكولة إلى أولئك العربان توصل إليه بإرشادهم فانقض على المماليك وهم نائمون فأوقع بهم واستولى على كل مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين منهم إلى حدود الصحراء .

وبعد أن هزمهم بالقرب من أسيوط احتل المدينة واتخذ معسكره فيها ، وهناك تلقى أخبار الحملة الإنجليزية .

* * *

(١٦) مانجان . تاريخ مصر فى حكم محمد على جزء ١ ص ٢٦٧ .

الفصل الثانى

الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وإخفاقها

لم تكد مصر تنجو من خطر رجوع المماليك إلى الحكم حتى واجهت أزمة أشد وأعظم خطراً ، وهى الحملة التى جردتها عليها انجلترا سنة ١٨٠٧ لاحتلالها وتحقيق مطامعها فى وادى النيل .

أسباب الحملة

ترجع أسباب تلك الحملة إلى انتقاض العلاقات بين انجلترا وتركيا وما اعتراها من الجفاء والعداء لانحياز تركيا إلى جانب فرنسا ، فنقمت انجلترا من الحكومة التركية تلك السياسة واتفقت هى والروسيا على الكيد لها ، وساءت العلاقات بين الدولتين حتى انتهت بإعلان الحرب بينهما ، ودخل الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال دوكورث (Duckworth) بوغاز الدردنيل واعتزمت انجلترا أن تضرب تركيا فى مصر فتنال بذلك غرضين وهما إذلال تركيا من جهة وتحقيق أطماعها فى مصر من جهة أخرى .

حالة الأفكار فى القاهرة والأقاليم

جردت انجلترا حملتها على مصر بقيادة الجنرال فريزر ، وكانت على اتفاق مع محمد بك الألفى أن يؤيدها ويشد أزرها على أن تكفل للمماليك الاستيلاء على حكومة البلاد .

لكن مصر لم تستسلم لتلك الغزوة ، بل قاومتها بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وظهرت الأمة بذات الروح التى نهضت بها بإزاء الحملة الفرنسية أى بروح المقاومة والبذل والتضحية والدفاع والمحاماة عن الذمار حتى انتهت الحملة بالخيبة والفشل .

جاءت مصر أخبار الحملة الإنجليزية قبل قدومها وعلم الناس بها من الرسائل الواردة من الإستانة ، فأخذوا يعدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية التى تقدمتها بنحو عشر

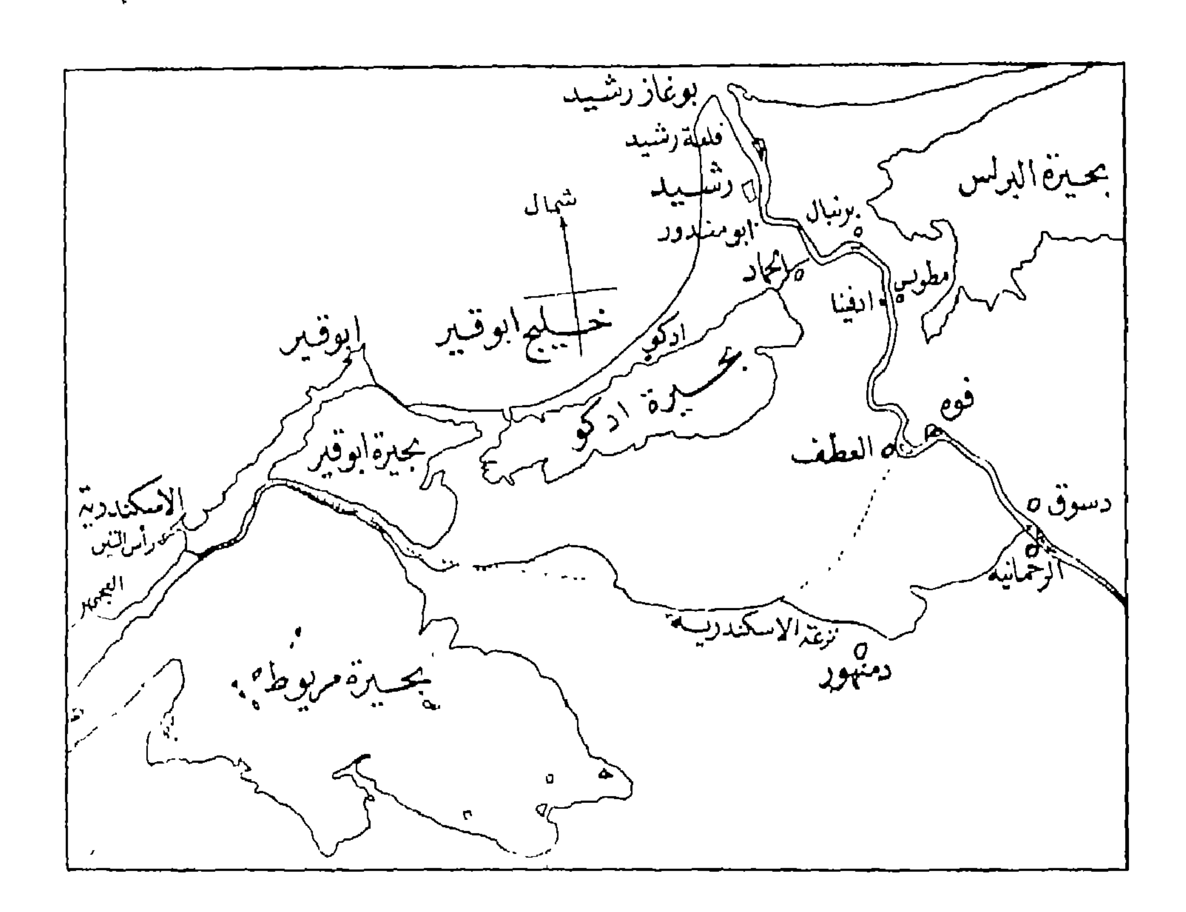
سنوات ، وتولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية بما عهد فيه من شجاعة وحزم وإخلاص .

ذكر الجبرتى حالة البلاد قبيل مجىء هذه الحملة فقال فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢١ (فبراير سنة ١٨٠٧) : « شرع أهل الإسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها وكذلك أبو قير ، وأرسل كتخدا بك (نائب محمد على باشا) من يتقيد ببناء قلعة بالبرلس ، وحصل بمصر قلق ولغط ، وغلت الأسعار فى البضائع المجلوبة وعملوا جمعيات فى بيت كتخدا بك وبيت السيد عمر النقيب واتفقوا على إرسال تلك المراسلات إلى محمد على باشا بالجهة القبلية صحبة ديوان أفندى (سكرتيره) » .

أقبلت العمارة الإنجليزية إلى مياه الإسكندرية فى شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، فأرسل السعاة أخبار مجيئها إلى القاهرة ، وكان محمد على باشا غائبا عنها يقاتل المماليك فى الصعيد ، فلما استفاضت أخبارها هاجت الخواطر وقلق الناس ، واجتمع ولاة الأمور يتشاورون فيما يجب عمله للدفاع عن البلاد .

قال الجبرتى : « فلما وصلت تلك المكاتبات اجتمع كتخدا بك وحسن باشا وبونابارته الخازندار وطاهر باشا والدفتر دار والروزنامجى وباقى أعيانهم ، وذلك من الغروب ، وتشاوروا فى ذلك ، ثم أجمع رأيهم على إرسال الخبر بذلك إلى محمد على باشا يطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام ، ففعلوا ذلك وانصرفوا إلى منازلهم بعد حصة من الليل ، وأرسلوا تلك المكاتبة إليه فى صبح يوم الجمعة صحبة هجانين ، وشاع الخبر وكثر لغط الناس فى ذلك » .

قلنا إن الحملة الإنجليزية جاءت على اتفاق سابق مع الألفى زعيم المماليك ، لكن الأقدار الإلهية قضت أن يموت الألفى قبل أن تهبط الحملة إلى مصر ، ولو أنها تقدمت فى مجيئها أربعين يوما فجاءت والألفى على قيد الحياة وحوله تلك الألوف من المقاتلة لكان محتملا أن يتحول مجرى الحوادث فى مصر ، بَيْدَ أنها وصلت بعد موت الألفى وتشتت أنصاره وانفضاض جيشه ، فكان ذلك من الأسباب التى هيأتها العناية الإلهية بجانب المقاومة التى أبدتها مصر لإخفاق هذه الحملة .



خريطة مواقع الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧

وترى فيها البلاد والمواقع التى ورد ذكرها فى الفصل الثانى ، والجهات التى مرت بها الحملة منذ نزول الجنود الإنجليزية بشاطئ العجمى (غربى الإسكندرية) إلى هزيمتهم فى رشيد والحماد ، والخريطة مرسومة حسب تخطيط سنة ١٨٠٧ ، وتجد بها ترعة الاسكندرية التى كانت موجودة فى ذلك العهد وأنشئت مكانها ترعة المحمودية سنة ١٨١٩ وقد أشرنا إلى تخطيطها فى الخريطة بخط منقوط .

مجىء العمارة الإنجليزية

فى أوائل مارس سنة ١٨٠٧ أقبلت سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية دون أن تخبر بأسباب حضورها ، ولعلها كانت سفينة استطلاع لتعرف الحالة فى الثغر ، فلما كان يوم ١٤ مارس جاءت سفينة حربية أخرى واستدعت القنصل الإنجليزى[١٧] فلبى الدعوة ومضى مسرعا لمقابلة من فيها ، ولم يكد يعود إلى الثغر حتى بادر بإنفاذ عدة من السعاة يحملون رسائل إلى جهات بعيدة ، وقد ظن الأهالى أنها مرسلة إلى الرعايا الانجليز لاستدعائهم إلى الثغر ، ولكن تبين بعد ذلك أنها مرسلة إلى البكوات المماليك فى الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة البريطانية واستدعائهم إلى الوجه البحرى ، فدلت هذه الرسائل على أن الحملة الانجليزية جاءت باتفاق سابق مع الألفى على أن يمدها المماليك بما لديهم من الرجال والعتاد .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وبعد موت الألفى بنحو الأربعين يوما وصلت نجدة الإنكليز إلى ثغر الاسكندرية وطلعوا إليها فبلغهم عند ذلك موت المذكور ، فلم يسهل بهم الرجوع فأرسلوا إلى الجماعة المصريين (يريد المماليك) ظانين أن فيهم أثر الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدهم الإنكليز على ردهم لمملكتهم » .

وقال فى موضع آخر ما خلاصته : « إن هذه الطائفة من الإنكليز ومن انضم إليهم وعدتهم على ما قيل ستة آلاف لم تأت إلى الثغر طمعاً فى أخذ مصر (!) بل كان ورودهم ومجيئهم مساعدة ومعاونة للألفى على أخصامه باستدعائه لهم واستنجاده بهم ، وسبب تأخرهم فى المجىء لما كان بينهم وبين العثمانى من الصلح . فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة ، وكان الألفى ينتظر حضورهم بالبحيرة ، فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه مقبلا وقضى الله بموته بإقليم الجيزة ، وحضر الإنكليز بعد ذلك إلى الإسكندرية فوجدوه قد مات ، فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ويقولون لهم إنما جئنا إلى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الألفى قد مات وهو شخص واحد منكم وأنتم جمع فلا يكون عندكم تأخير فى الحضور فإنكم لا تجدون فرصة بعد هذه وتندمون بعد ذلك إن تلكأتم » .

---

(١٧) هو الماجور ميست Misset وكان قنصلا عامًّا لانجلترا فى مصر.

يتبين من ذلك أن الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ كانت باستدعاء الألفى واتفاقه مع الإنجليز على احتلال البلاد ، وهذا يؤيد الحقيقة التى بسطناها فى الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » وهى أن المماليك كانوا صنائع السياسة الإنجليزية وظلوا صنائعها إلى أن استراحت البلاد منهم ، ولعلك لاحظت فى رواية الجبرتى قوله ان الإنجليز لم يأتوا إلى الثغر طمعا فى أخذ مصر الخ ... وهو قول من لم يدرك كنه السياسة الانجليزية ، والجبرتى معذور فى عدم إدراكه حقيقة مقاصدها ، فلم يكن قد بلاها ، ولا عرف أسرارها ، وهو فى انخداعه بها أحق وأولى بالمعذرة ممن توهموا سنة ١٨٨٢ أى بعد نيف وسبعين عاما من هذه الحوادث أن الإنجليز جاءوا مصر للدفاع عن عرش الخديوية المصرية ، وكان عليهم أن يفهموا أنهم إنما جاءوا ليحتلوا البلاد ويبسطوا نفوذهم وسيطرتهم فيها .

احتلال الإسكندرية

فى يوم ١٦ مارس عادت السفينة الإنجليزية تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الأخرى وألقت مراسيها بالميناء الغربية ، ونزلا منها ضابطان طلبا مقابلة محافظ الثغر فى ذلك العصر ، واسمه أمين أغا ، وهو من ضباط الإستانة وكان متواطئاً مع الإنجليز أن يسلم لهم المدينة على رشوة من المال ، قال المسيو مانجان فى كتابه ان الإنجليز قد اشتروا أمين أغا هذا بالمال . والذى أعطاه هذا المال هو قنصل انجلترا فلما قابله الضابطان النازلان من العمارة الإنجليزية اتفق معهما على أن يسلم المدينة دون مقاومة ، ثم لم يكد يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الإنجليزية مؤلفة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الأميرال لويس Lewis وسدت مدخل الميناء الغربية ، وفى مساء ذلك اليوم أخذ جنود الحملة ينزلون إلى البر بشاطئ العجمى ، ثم زحف الإنجليز على الإسكندرية وعسكروا تحت أسوارها ، وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة (أبو قير) شرقى الإسكندرية ، وانقضى يومان فى مفاوضات صورية بينهم وبين أمين أغا محافظ المدينة انتهت بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة وعددها نحو ثلثمائة مقاتل ، ودخل الإنجليز الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة .

هذا ما فعله أمين أغا محافظ الإسكندرية فى ذلك العهد ، ولعلك تذكر موقف السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى حين مجيء حملة نابليون سنة ١٧٩٨ ومبلغ شجاعته فى

مقاومتها[١٨] وتقابل بين موقفه النبيل ومخزاة (أمين أغا) فى استسلامه للحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ ، وأمين أغا هو من ضباط الإستانة لأن الحكومة التركية كانت تعد الإسكندرية إلى ذلك العهد تابعة لها مباشرة فكانت تعين حاكمها ، وأما السيد محمد كريم فقد كان فى عهد الحملة الفرنسية حاكم المدينة الوطنى ، فقابل بين موقف الحاكم الوطنى وشجاعته وجبن ضابط الإستانة ونذالته تجد الفرق بين الاثنين عظيما .

استولى الإنجليز إذن على الإسكندرية دون حرب ولا قتال ، لكن الجبرتى فى إيراده أخبار تلك الحملة ذكر فى يوميات شهر محرم سنة ١٢٢٢ ورود أنباء من الإسكندرية بوقوع قتال « وضرب بالمدافع الهائلة من البحر وهدم جانب من البرج الكبير وكذلك الأبراج الصغار » ، وكل ذلك لم يكن سوى إشاعات باطلة كانت ترسل إلى القاهرة فيتناقلها الناس كما تروج الإشاعات الكاذبة أثناء الحروب ثم لا تلبث أن ينكشف بطلانها ، والواقع أنه لم يحصل ضرب بالمدافع الهائلة ولا هدم جزء من البرج الكبير أو الأبراج الصغيرة ، والجبرتى كان يذكر كل الاشاعات التى ترد أثناء وقوع الحوادث الخطيرة التى يدونها فقد ذكر أيضاً أنهم « أشاعو أن الاسكندرية ممتنعة عن الإنكليز وأنهم طلعوا إلى رأس التين والعجمى فخرج عليهم أهل البلاد والعساكر وحاربوهم وأجلوهم عن البر ونزلوا إلى المراكب مهزومين وحرقوا منهم مركبين وأنه وصلت إليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوهم فى البحر وأحرقوا مراكبهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ولم يبق منهم إلا القليل » .

ولم يكن شىء من ذلك صحيحا ولا قريبا من الواقع ، بل كله مكذوب وكان مصدره الإشاعات الباطلة أوكما يقول الجبرتى بعد ذلك « واستمر الأمر فى هذا الخلط القبلى والبحرى عدة أيام ولم يأت من الإسكندرية سعاة ولا خبر صحيح » وبعد أن أورد الجبرتى تلك الاشاعات ذكر أنه « فى ٢٠ محرم وردت الأخبار الصحيحة بأخذ الإسكندرية واستيلاء الإنكليز عليها يوم الخميس تاسع الشهر ودخلوها وملكوا الأبراج يوم الأحد صبيحة النهار وسكن صارى عسكرهم بوكالة القنصل » فالجبرتى فى إيراده (الأخبار الصحيحة) لم يذكر أنه حدثت حرب أو قتال ولا ضرب بالمدافع الهائلة ولا هدم للأبراج ، وهذا يؤيد المصادر الصحيحة التى اتفقت روايتها على أن استيلاء الإنجليز على الإسكندرية قد تم من غير مقاومة بفضل خيانة أمين أغا .

---

(١٨) انظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » الفصل الخامس .

كانت الحملة الإنجليزية مؤلفة من نيف و ٦٠٠٠ مقاتل[١٩] بقيادة الجنرال فريزر Fraser ويتألف هذا الجيش من فرقتين. الأولى بقيادة الجنرال ستوارت Stuart والأخرى بقيادة الجنرال ويكوب Wacop .

ولعلك تعجب كيف جازف الإنجليز بهذا العدد الضئيل فى الحملة على مصر فى حين أن نابليون بونابرت لم يقدم على غزوها إلا بجيش مؤلف من ٣٦٠٠٠ من المقاتلة وعمارة من أعظم الأساطيل البحرية ، ولكن هذه الدهشة لا تلبث أن تزول إذا علمت أن الإنجليز كانوا يظنون أنهم لا يجدون فى مصر مقاومة ذات شأن بسبب الاضطرابات التى مزقت شملها ، وكانوا من جهة أخرى يعتمدون على قوات المماليك فى مصر ، ولذلك لم يصحبوا معهم قوة من الفرسان اكتفاء بما يظاهرهم به صنائعهم المماليك ، وكانوا يعتقدون أنهم لا يلبثون أن يطأوا أرض مصر حتى يسارع إليهم المماليك من أنحاء البلاد لملاقاتهم والانضمام إليهم ، فلما دخلوا الإسكندرية ولم يروا لهم أثرا أرسل إليهم القنصل الإنجليزى يطلب من زعمائهم الحضور ليلتقوا بمنقذيهم وحماتهم .

ولما بلغت القاهرة أنباء احتلال الإسكندرية أحدثت انزعاجا كبيراً بين الناس وخاصة لما علموا أن محافظ الثغر قد سلم المدينة بدون قتال ، فأخذ زعماء الشعب يجتمعون ويتشاورون ، فاستقر رأيهم على أن يدعوا الشعب إلى التطوع لصد الإنجليز عن البلاد .

موقف المماليك

وكان محمد على لم يزل بالصعيد يقاتل قوات المماليك ، فلما جاءته الأنباء الأولى عن الحملة توجس خيفة منها واعتزم العودة إلى القاهرة ، على أنه قابل الخبر برباطة جأش ، وعمد إلى الدهاء فى كسر حدة المماليك ليضمن عدم انحيازهم إلى صفوف الإنجليز ، ففاوض زعماءهم فى إبرام الصلح معهم ، وكانت شروطهم لقبول الصلح أن يترك لهم حكم الوجه القبلى ، وقد وجد محمد على أن الضرورة السياسية تقتضى المهادنة معهم حتى يدفع خطر الحملة الإنجليزية ، فقبل منهم هذا الشرط على أن يؤدوا له خراج الصعيد وعلى أن يكونوا إلى جانبه فى محاربة الإنجليز ، فرضى المماليك بهذا الشرط ، ولو كان الألفى بك على قيد الحياة لما رضى به ، ولكن

---

(١٩) اعتمدنا فى هذا الإحصاء على الوثيقة رقم ٢٠ من وثائق الحملة الإنجليزية التى أخرجتها الجمعية الجغرافية فى كتاب (مصر وانجلترا – حملة سنة ١٨٠٧) للمسيو دوان .

خلفاءه لم يكونوا مرتبطين مع الإنجليز بمثل الروابط والعهود التى قطعها الألفى على نفسه ، فضلا عن أنهم خشوا إساءة سمعتهم واتهامهم بالخيانة إذا هم انضموا إلى الانجليز أعداء مصر والإسلام فقبلوا أن يحالفوا محمد على ، ولم يكونوا صادقين فى التحالف ، بل كانوا يضمرون أن يتربصوا حتى تنكشف نتائج الحملة الإنجليزية فإن هى فازت انحازوا إليها وإن أصابها الفشل فهم على تحالفهم مع محمد على ، وكذلك كان شأنهم فى كل عهد أن يكونوا مع الغالب ، على أن هذا الموقف فى ذاته قد أفاد قضية مصر لأنه حرم الإنجليز عضدا قويًا كانوا يعتمدون عليه فى حملتهم .

أخلى إذن محمد على الصعيد ، وسار بجنوده إلى القاهرة فاحتل المماليك عواصم الوجه القبلى وتقدموا إلى الجيزة .

واقعة رشيد وهزيمة الإنجليز فيها

٣١ مارس سنة ١٨٠٧ (٢١ محرم سنة ١٢٢٢)

كانت خطة الإنجليز فى القتال أن يزحف المماليك على القاهرة فيحتلوها ، وأن يحتل الإنجليز بمعاونة أسطولهم ثغور مصر ويزحفوا إلى الداخل ويبسطوا أيديهم على حكومة البلاد مستعينين بصنائعهم المماليك .

وقد تلقى الجنرال فريزر وهو بعد فى الإسكندرية تقريرا من المستر بتروتشى Petrucci قنصل انجلترا فى رشيد عن حالة مصر وإحصاء ما بها من القوات ، فأمعن النظر فى هذا التقرير ودرس الموقف بمقدار ما بلغ إليه علمه ، ثم اعتزم الزحف على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش ومنها يزحف إلى داخل البلاد ، وعهد بهذه المهمة إلى الجنرال ويكوب وأنفذه إليها فى قوة من ٢٠٠٠ من الجنود .

تحرك هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس قاصدا رشيد ، فكان تحت أسوارها فى اليوم التالى ، وأخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس .

كان محافظ رشيد وقتئذ يدعى على بك السلانكلى ، وهو رجل شجاع ثاقب النظر يختلف كثيراً فى أخلاقه عن أمين أغا حاكم الإسكندرية ، وتحت أمره نحو سبعمائة جندى ، فعزم على مقاومة الجيش الإنجليزى معتمدا على قوة الحامية وعلى مشاركة الأهالى فى الدفاع عن المدينة ،

ولأجل أن يبعث الحمية فى نفوس جنوده ويحملهم على الاستبسال فى القتال أمر بإبعاد مراكب التعدية إلى البر الشرقى للنيل حتى لا يجد رجال الحامية وسيلة إلى الارتداد إذا حدثتهم نفوسهم أن يسلموا كما سلمت حامية الإسكندرية ، فلما تم له نقل جميع المراكب وشعر الجنود والأهلون عند اقتراب الجيش الانجليزى أن البحر من ورائهم ، والعدو من أمامهم ، صحّت عزيمتهم على المقاومة إلى النهاية ، وأمر على بك أن تتراجع الحامية إلى داخل المدينة وأن يعتصموا هم والأهلون بالمنازل مستعدين للضرب وألا يبدءوا بحركة ما إلا عندما تصدر لهم الإشارة بإطلاق النار .

فتقدم الإنجليز ، ولما لم يجدوا أثرا للمقاومة خارج البلد اعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها محتذية بما فعله أمين أغا محافظ الإسكندرية ، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين ، وكانوا قد أعياهم السير فى الرمال من الإسكندرية إلى رشيد ، فانتشروا فى الطرق والأسواق يرتادون أمكنة يلجأون إليها ويستريحون فيها ، ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار وتشتمل المدينة عليهم ، حتى أصدر على بك أمره بإطلاق النار ، فاقتحمهم الرصاص من كل صوب ، وأخذ الأهلون يطلقون النار من النوافذ والسطوح ، فدب الرعب فى قلوبهم ، وسقط الكثيرون منهم صرعى فى الشوارع ، فقتل الجنرال ويكوب برصاصة أردته ، وقتل الكثير من ضباطه ، فاستولى الذعر على نفوس الإنجليز ولاذوا بالفرار ، وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش الانجليزى وارتداد الأحياء منه عن رشيد فى حالة يأس وفشل ، فتقهقروا إلى الإسكندرية بطريق أبو قير وبلغ عدد القتلى منهم فى هذه الواقعة نحو ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ من الجرحى وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيراً .

رواية الجبرتى عن واقعة رشيد

ذكر الجبرتى عن واقعة رشيد ما يأتى :

« فى يوم الجمعة رابع عشرين محرم سنة ١٢٢٢ وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد فى صبح يوم الثلاثاء حادى عشرينه (أى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧) ودخلوا إلى البلد وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم

من الأسلحة وطلبوا الأمان فم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين وفرت طائفة إلى ناحية دمنهور[٢٠] وكان كاشفها عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره ورجع إلى ناحية ديه ومحلة الأمير وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم وأخذ منهم أسرى وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة فضربوا مدافع وعملوا شنكا » .

نصيب المصريين فى المعركة

كان لأهالى رشيد النصيب الأوفر فى هزيمة الجيش الانجليزى ، لأن حاميتها العسكرية كانت من القلة بحيث لا تستطيع أن تصد الجيش الزاحف ، وقد سبق لنا القول أن أخبار الحملة الانجليزية قد استفاضت فى مصر قبل مجيئها وعلم الناس بأمرها من الرسائل الواردة من الاستانة وأخذت الثغور تستعد لمقاومتها ، ولم يقبل الأهلون فى رشيد أو غيرها أن يطلبوا المدد من جنود القاهرة لما اشتهروا به وقتئذ من النهب والسلب إذ كان معظمهم من الأرناءود والدلاة وأخلاط السلطنة العثمانية ، فآثر الأهالى أن يتولوا الدفاع عن المدينة بأنفسهم واحتملوا معظم العبء فى المقاومة والقتال ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى يوم الثلاثاء ٧ محرم سنة ١٢٢٢ (٧ مارس سنة ١٨٠٧) عملوا جمعية ببيت القاضى حضرها المشايخ والأعيان وذكروا أنه لما وردت الأوامر بتحصين الثغور أرسل الباشا (محمد على) سليمان أغا ومعه طائفة من العسكر وأرسل إلى أهالى الثغور والمحافظين عليها مكاتبات بأنهم إن كانوا يحتاجون إلى عساكر فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين أرسلهم ، فأجابوا بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون إلى عساكر زيادة تأتيهم من مصر فإنهم إذا كثروا فى البلد يأتى منهم الفساد والإفساد ، فعملوا هذه الجمعية لإثبات هذا القول » .

يتبين من ذلك أن الأهالى أبوا أن يطلبوا النجدة من العسكر توقيا لما يقع منهم من الفساد وأنهم وطنوا النفس على تحمل أعباء القتال بأنفسهم ، ومما يؤيد تلك الحقيقة أن وقائع الحملة تدل على أن الحاميات العسكرية قد فر معظمها من الميدان ولم تواجه الجيش الإنجليزى ، فقد مر بك ما فعله أمين أغا حاكم الإسكندرية وحامية المدينة من التسليم وكذلك فعلت حامية دمنهور فإنها لما بلغتها أخبار احتلال الانجليز الاسكندرية أخلت دمنهور وانسحبت إلى فوه ، وحاول الدمنهوريون أن يثنوهم عن عزمهم وحرضوهم على البقاء بالمدينة لمقاومة الانجليز ،

(٢٠) لعل الصواب أبو قير .

فأبوا إلا الهرب وأرسل الأهالى إلى السيد عمر مكرم ينبئونه بفرارهم ، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفى ١٧ محرم سنة ١٢٢٢ ورد مكتوب من أهالى دمنهور خطابا إلى السيد عمر النقيب مضمونه أنه لما دخلت المراكب الانكليزية إلى اسكندرية هرب من كان بها من العساكر وحضروا إلى دمنهور فعندما شاهدهم الكاشف (الحاكم) الكائن بدمنهور ومن معه من العسكر انزعجوا انزعاجا شديدا وعزموا على الخروج من دمنهور ، فخاطبهم أكابر الناحية (الأعيان) قائلين لهم كيف تتركونا وتذهبون ولم تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا فى حروب الإنكليز ، فلم يستمعوا لقولهم لشدة ما داخلهم من الخوف وعبوا متاعهم وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه وتركها وعدى وذهب إلى فوه من ليلته ثم أرسل ثانى يوم فى أخذ الأثقال ، فهذا ما حصل أخبرناكم به » .

ينتج مما تقدم أن النصر فى معركة رشيد يرجع إلى الأهالى وأنهم هم الذين احتملوا معظم أعباء الجهاد وأبلوا أحسن بلاء فى الدفاع عن المدينة .

نتائج واقعة رشيد

كان لموقعة رشيد تأثير كبير فى تطور الأحوال ، لأن هذا النصر المبين قد ملأ قلوب المصريين حماسة وفخرا ، وضعضع الهيبة التى كانت للإنجليز فى نفوس الناس ، تلك الهيبة التى جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الأساطيل الفرنسية فوق ظهر البحار ، فلا غرو أن يبعث هذا النصر إلى نفوس الشعب روح الثقة ، ويحفزه إلى الاستمرار فى المقاومة . ولقد كان لهذه الواقعة فى نفوس المماليك تأثير بالغ فإنها كانت لهم صدمة شديدة أضعفت أملهم فى نجاح الحملة الإنجليزية وجعلتهم ينكمشون فى معاقلهم بالوجه القبلى ، وبالتالى جعلت الجيش الإنجليزى لا يتوقع المعاونة التى كان ينتظرها منهم ، فكل هذه الاعتبارات جعلت لواقعة رشيد من الأهمية شأنا بالغا فى قيمته وخطره .

وقد بادر على بك حاكم رشيد بعد الموقعة إلى إنفاذ الأسرى الإنجليز إلى القاهرة ومعهم رءوس قتلاهم ليكون ذلك إعلاناً للنصر الذى نالته رشيد ثم ليبعث هذا المنظر فى نفوس الجنود والشعب روح الأمل والثقة ، وكان يوم حضورهم يوما مشهودا .

قال الجبرتى فى وصفه ما خلاصته :

« فلما كان يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (أبريل سنة ١٨٠٧) أشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر ورءوس القتلى معهم على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأسا ، والأحياء خمسة وعشرون ، ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة وفى يوم الإثنين وصل أيضا جملة من الرءوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسا ، وثلاثة عشر أسيرا وفيهم جرحى » .

حالة الشعب النفسية وتطوعه للقتال

تكلمنا عن نصيب أهل رشيد فى المعركة التى دارت رحاها فى شوارعها وفيما حاق بالجيش الانجليزى من الهزيمة ، ولقد بدت على سكان القاهرة تلك الروح التى تجلت فى أهل رشيد ، فمنذ أن وردت أنباء المعركة الأولى استنفر الشيوخ وفى مقدمتهم السيد عمر مكرم أهل القاهرة إلى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد فى حث الناس على الجهاد ، فاستجابوا للدعوة راضين ، وأقبلوا على التطوع مختارين .

فضل السيد عمر مكرم

أخذ المتطوعون يذهبون فى صبيحة كل يوم إلى أطراف المدينة يعملون فى حفر الخناق وإقامة الاستحكامات شمالى القاهرة لصد الإنجليز إذا جاءوا بطريق شبرا ، وبادروا إلى العمل فى ذلك وسارعوا إلى الاستعداد للقتال وعلى رأسهم السيد عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ثم يعودون إلى أعمال معاشهم عند الظهر .

وظهرت العاصمة بتلك الروح التى تجلت فيها قبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ وفى خلال

ثورة الشعب على خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ ، قال المسيو مانجان فى هذا الصدد يصف ما شاهده :

« كان السيد عمر مكرم يذهب فى صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير إلى حيث يشتغل العمال فى إقامة الاستحكامات ، وكثيرا ما يبقى هناك النهار كله فى خيمة أعدت له ، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة فى نفوس الناس جميعا ، وقد بذل كل إنسان ما فى وسعه لإقامة الاستحكامات [٢١] .

وقال الجبرتى يصف عمل السيد عمر مكرم :

« وفيه – يوم ٢٦ محرم – نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الإنكليز حتى مجاورى الأزهر وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس » .

فتأمل دعوة الجهاد التى بثها السيد عمر مكرم والروح التى نفخها فى طبقات الشعب ، فإنك لترى هذا الموقف مماثلا لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام ، ثم تأمل فى دعوته الأزهريين إلى المشاركة فى القتال ، تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الذمار أيضاً ، فعملهم فى ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم .

وقال الجبرتى فى موضع آخر يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة للتشاور فيما يجب عمله :

« وفى يوم الثلاثاء حصلت جمعية ببيت القاضى وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتر دار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وباقى المشايخ فتكلموا فى شأن حادثة الإنكليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد وأن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذاء كما هو شأنهم وأن يساعد بعضهم بعضاً على دفع العدو ، ثم تشاوروا فى تحصين المدينة وحفر خنادق ، فقال بعضهم إن الإنكليز لا يأتون إلا من البر الغربى والنيل حاجز بين الفريقين ، وإن الفرنساوية كانوا أعلم بأمر الحروب وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل من باب

---

(٢١) تاريخ مصر فى حكم محمد على ، جزء ٢ ص ٢٧٩ .

الحديد إلى البحر (النيل) فينبغى الاعتناء بإصلاحه ولو لم يكن كوضعهم وإتقانهم واتفقوا على ذلك » .

وقال فى موضع آخر : « وفى يوم الأربعاء ٢٩ محرم ركب السيد عمر النقيب والقاضى والأعيان المتقدم ذكرهم ونزلوا إلى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور وصحبتهم قنصل الفرنساوية وهو الذى أشار عليهم بذلك ، وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة » .

وقال عن اشتراك طبقات الشعب فى حفر الخندق المذكور وإقامة الاستحكامات بما بلغ إليه جهد كل مطيق : « وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجى وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس (الجمرك) والنصارى والأروام والشوام والأقباط واشتروا المقاطف والغلقان والفوس والقزم وآلات الحفر وشرعوا فى بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية » .

وقد حدثت كل هذه الاستعدادات ومحمد على باشا لم يزل غائباً بالصعيد ، وهذا يدلك على أن الشعب كان متطوعاً من تلقاء نفسه للقتال عازماً على الحرب والمقاومة كما كان شأنه عند مجىء الحملة الفرنسية ، أما قنصل فرنسا الذى أشار إليه الجبرتى فهو المسيو دروفتى وكان فى الإسكندرية عندما جاءت العمارة الإنجليزية ، فغادر الثغر مخافة أن يقع أسيراً فى يد الانجليز لما كان بين انجلترا وفرنسا من العداء المستحكم فى ذلك الحين ، فرحل من الاسكندرية إلى رشيد ومنها انحدر إلى القاهرة فاشترك فى تنظيم وسائل الدفاع عنها .

ولم يقتصر تطوع سكان القاهرة على الدفاع عن العاصمة بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد ، وذلك أنه على الرغم من ردهم الجيش الإنجليزى الأول فإنهم استهدفوا لزحف الجيش الإنجليزى الثانى الذى جاء ليمحو أثر الواقعة الأولى ، فضرب الحصار على رشيد ، وركب المدافع على آكام أبى مندور التى تتسلط عليها ، وأخذ يضربها بالمدافع تمهيداً للهجوم عليها وفتحها عنوة ، وقد تهدم كثيرمن بيوتها ومات كثير من أهلها من ضرب المدافع وتساقط القنابل ، فأرسل السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد الرسائل إلى السيد عمر مكرم يستنجده ويطلب إليه إمداد المدينة بالرجال والعتاد . فقرأ السيد عمر الرسالة الأولى على الناس وحصنهم على التطوع لنجدة رشيد ، فاستجابوا وتطوعوا وحملوا السلاح وأزمعوا السفر لنجدة

إخوانهم ، وبالرغم من أن (كتخدا بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يحضر محمد على باشا من الصعيد فإن كثيرين منهم لم يعبأوا بهذا المنع وارتحلوا لنجدة أهل رشيد فى صد الجيش الإنجليزى .

وتطوع كذلك أهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد وأقبلوا عليها يدافعون عنها ، فكان ذلك مظهرا جليلا من مظاهر التضامن القومى والاشتراك فى حمل أعباء الجهاد ، واتحاد الكلمة فى ساعة الخطر ، وفداء كل موضع فى البلاد بكل فرد من أهل البلاد .

قال الجبرتى : « وفى يوم الخميس غاية محرم ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب إشراف رشيد والمشار إليه بها (أى كبير أعيانها) يذكر فيه أن الإنكليز لما أوقع بهم رشيد ورجعوا فى هزيمتهم إلى الإسكندرية استعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلى رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر (النيل) إلى الجبل عرضا ، وذلك ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه ، فهذا ما حصل أخبرناكم ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والجبجانة والعدة والعدد وعدم التأنى والإهمال ، فلما وصل هذا الجواب قرأه السيد عمر النقيب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد . فامتثلوا ولبسوا الأسلحة ، وجمع إليه طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلى وكثيراً من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد ، وركب فى صبحها إلى كتخدا بك واستأذنه فى الذهاب فلم يرض وقال حتى يأتى أفندينا الباشا (محمد على) ويرى رأيه فى ذلك ، فسافر من سافر ، وبقى من بقى » .

وقال فى موضع آخر : « وفى يوم السبت ثانى صفر (١١ أبريل سنة ١٨٠٧) وردت مكاتبة أيضاً من ثغر رشيد وعليها إمضاء على بك السلانكلى حاكم الثغر وطاهر باشا وأحمد أغا المعروف ببونابرت بمعنى مكتوب السيد حسن السابق ويذكرون فيه أن الإنكليز ملكوا أيضاً كوم الأفراح وأبو منضور ويستعجلون النجدة ، وفى خامس صفر وردت مكاتبة من رشيد عليها إمضاء السيد حسن كريت يخبر فيها بأن الإنكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون البلد بالمدافع والقنابل ، وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس ، وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الإعانة والنجدة فلم تسعفونا بإرسال شىء ، وما عرفنا لأى شىء هذا الحال ، وما هذا الإهمال ، فالله الله فى الإسعاف ، فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس ونحو ذلك من الكلام وهى خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ ومؤرخة فى ثانى صفر ٢٢ » .

معركة الحمّاد

(٢١ أبريل سنة ١٨٠٧)

كانت واقعة رشيد ضربة شديدة أصابت الجيش الإنجليزى ، فأراد الجنرال فريزر أن يمحو أثر الهزيمة التى حاقت به فى تلك الواقعة ، واعتزم تجريد جيش آخر يستأنف الزحف على رشيد وعهد بقيادته إلى الجنرال ستوارت .

وفى غضون ذلك وصل محمد على باشا إلى القاهرة عائدا من الصعيد فبلغها ليلة ١٢ أبريل سنة ١٨٠٧ (٣ صفر سنة ١٢٢٢)[٢٢] فأطلع على الأنباء الواردة عن هزيمة الإنجليز فى رشيد ، فاطمأن نفسا وألفى الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع ، على أنه لم يركن إلى ما حدث فى تلك الموقعة ورأى بثاقب نظره إن الإنجليز قد يستأنفون القتال والزحف ليستردوا هيبتهم الضائعة ، فبادر إلى تجريد جيش أنفذه لمحاربتهم وصدهم عن التقدم ، وأتم عمل الاستحكامات التى بدء بها قبل حضوره ، وواصل العمل فى حفر الخنادق بين باب الحديد وبولاق لأقامة خط الدفاع عن القاهرة من الشمال وشق أخاديد أمام الخنادق تتصل بالنيل لتمتلئ بالمياه وتعرقل تقدم الجيش الإنجليزى ، وأغرق عدة من المراكب بين جزيرة بولاق والشاطئ لمنع مرور السفن الانجليزية فى النيل إذا جاءت من رشيد ، ونصب بطاريات من المدافع فى شبرا وامبابه وجزيرة بولاق ، واشترك العلماء والشعب فى العمل بحماسة وغيرة وحمية .

وأخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش ، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء فى جمع ما يستطاع تدبيره من المال فجمعوا تسعمائة كيس من سكان العاصمة خصصوها لنفقات الزحف .

وتم تجهيز الحملة ، فكانت مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة وألف من الفرسان ، وسارت قاصدة إلى رشيد بقيادة طبوز أو غلى[٢٣] .

---

(٢٢) رواية الجبرتى .

(٢٣) هو كتخدا بك أى نائب محمد على ، ويسميه الجبرتى (دبوس أو غلى) ، وهو جد حسين رشدى باشا أحد رؤساء الوزارة السابقين .

أما جيش الجنرال ستورات فكان عدده نحو أربعة آلاف مقاتل مجهزين بالمدافع والأسلحة والذخائر .

تحرك هذا الجيش من الإسكندرية يوم ٣ أبريل زاحفا على رشيد ، ولما صار على مقربة منها أنفذ الجنرال ستوارت كتيبة منه احتلت (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد بين النيل وبحيرة ادكو[٢٤] ، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد ، ومنع وصول المدد إليها من الجنوب وحماية ساقة الجيش الإنجليزى .

واحتل الإنجليز أيضا آكام أبى مندور ، وركبوا عليها المدافع ليضربوا رشيد بالقنابل ، وعسكر معظم الجيش غربى رشيد وجنوبيها وأخذ يحاصرها (٧ أبريل) ويضربها بالمدافع .

كان الإنجليز يظنون أن ضرب المدينة بالمدافع يلقى الرعب فى نفوس الحامية والأهالى ، ويضطرهم إلى التسليم ، وقد أنذروهم غير مرة بأن يسلموا المدينة ، ولكنهم رفضوا ، وكان انتصارهم السابق فى واقعة رشيد قد بعث فى نفوسهم الحمية والحماسة ، فصمموا على الاستبسال فى الدفاع عن مدينتهم ، وبالرغم مما أحدثته القنابل من تخريب البيوت وقتل العدد الكثير من السكان فإنهم صابروا وصبروا واحتملوا هذه الشدائد بشجاعة ورباطة جأش ، وكانوا يخرجون من المدينة من آن لآخر لمناوشة القوات الإنجليزية ، واستمر الضرب والحصار نحو اثنى عشر يوماً دون أن يفوز الإنجليز بطائل .

كتب الجنرال ستوارت فى رسالة له إلى الجنرال فريزر يقول[٢٥] :

« إن ما أنبأتمونى به من قرب حضور المماليك جعلنى أتريث فى الهجوم على رشيد ، لقد ألحقنا بالمدينة أضراراً كبيرة ، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المرمى ٣٠٠ قنبلة ، على أنه قد تبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التى تنزل بهم ، إن قواتهم لا تزيد على ما بلغنا على ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الأرناءوط وألف من الأهالى المسلحين ، ولكن نظراً لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل اقتحام المدينة ، وان نجاحنا معلق على نجدة المماليك ، فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل إلى البر الشرقى من النيل قوة تشترك فى القتال ، أما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق علينا فى قوة الفرسان ، وليس لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كجهات الدلتا ، وفى انتظار تلك النجدة

---

(٢٤) انظر موقعها بالخريطة ص ٥٥ .

(٢٥) وثائق الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ للمسيو دوان وثيقة رقم ٤٦ .

يتبين لنا مبلغ أهمية موقعنا فى (الحماد) فإننا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها ، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها فى يدنا » .

كان الإنجليز ينتظرون إذن أن ينجدهم المماليك ، ولكن هؤلاء أخذوا يسوفون ويماطلون فى الوفاء بعهدهم ، ويرقبون تطور الحوادث ، ثم تخلوا عن حلفائهم لما رأوا من حرج مركزهم .

وفى غضون ذلك أخذ الأهالى يناوشون مواقع الإنجليز فى الحماد ، فأنفذ إليها الجنرال ستوارت مددا من الجنود ، وركب المصريون أيضاً مدفعين على الشاطئ الشرقى وأخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزى بالبر الغربى ، فاجتاز الماجور ماكدونالد Macdonald النهر عند مسجد أبى منذور (١٦ أبريل) ومعه قوة من ٢٥٠ جنديا واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ثم تلقى المصريون مدداً فعاد ماكدونالد أدراجه إلى البر الغربى .

واستمر الضرب والحصار إلى أن جاء المدد الذى أرسله محمد على باشا بقيادة طبوزاوغلى ، فتغير الموقف الحربى تغيراً جوهرياً .

كان هذا المدد مؤلفا من فرقتين ، الأولى يقودها طبوزاوغلى نفسه بالبر الشرقى للنيل ، والأخرى بقيادة حسن باشا بالبر الغربى ، وكانت الفرقتان تسير كلتاهما حذاء الأخرى على الشاطئين ، فلما جاءتا على مقربة من رشيد عسكرت فرقة حسن باشا بالبر الغربى تجاه (الحماد) ، وعسكرت الأخرى فى (برنبال) بالشاطئ الشرقى وكان جنود الفرقتين يشاهد بعضهم بعضاً .

ففى صبيحة ٢٠ أبريل تقدمت طلائع الجيش المصرى من الفرسان (من فرقة حسن باشا) نحو مواقع الإنجليز فى الحماد ، والتقت بكتيبة منهم وسط المزارع ، فأراد هؤلاء الارتداد إلى القرية ، ولكنهم لم يحكموا انسحابهم وأحاط بهم فرسان الجيش المصرى فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين .

فلما علم الجنرال ستوارت بهذا الاصطدام الأول أنفذ الكولونل ماكلود Mac Leod ومعه مدد من الجنود والمدافع إلى (الحماد) لتثبيت مركز الانجليز فيها ، وعهد إليه بقيادة القوة المرابطة بها .

كان موقع هذه القرية على جانب كبير من الأهمية ، وعليها يدور محور القتال لأنها واقعة فى برزخ بين النيل وبحيرة ادكو ، وفى شمالها ترعة كانت فى ذلك الحين جافة تصل من النيل إلى

قرب البحيرة ، فلو أن الانجليز أحكموا الدفاع عن موقعهم بها لأمكنهم أن يسدوا الطريق أمام الجيش المصرى فلا يستطيع اجتياز ذلك البرزخ ولا الوصول إلى رشيد يمدها بالنجدة .

رتب الكولونل مواقع جنوده ليدافع بهم عن هذا البرزخ ، وكان عددهم ثمانمائة مقاتل ترتكز ميسرتهم إلى النيل بقيادة الماجور وجلسند Wøgelsand ، وميمنتهم قرب بحيرة (ادكو) بقيادة الكابتن تارلتون Tarleton ، والقلب فى قرية الحماد بقيادة الماجور مور Moor ، أما جمهرة الجيش الإنجليزى فرابطت حول رشيد لحصارها .

وانقضى يوم ٢٠ أبريل وموقع الإنجليز فى الحماد لم يستهدف فى الظاهر للخطر ، وكان الكولونل ماكلود مطمئنا إلى مركزه ، لكن الجنرال ستورات لاحظ حينما فتش خط الدفاع فى الحماد (ليلة ٢١ إبريل) أنه لا يحتمل فى بعض جهاته ضغط قوات الجيش المصرى إذا تكاثر عددها ، فعهد إلى الكولونل ماكلود أن يستبسل فى الدفاع عن مواقعه قدر ما يستطيع ، وفى حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين فعليه أن يرتد إلى شاطئ البحيرة ، فإذا لم يستطيع ذلك فليتراجع إلى مواقع الجيش الإنجليزى الذى كان يحاصر رشيد .

وأدرك الجنرال ستورات إن القوات المصرية بعد إن جاءها المدد صارت أكثر عدداً من الجيش الإنجليزى ، فارتأى أن ينتظر إلى اليوم التالى (٢١ أبريل) واعتزم إذا لم تصله النجدة من المماليك أن ينسحب من الحماد ويرفع الحصار عن رشيد ويتراجع إلى الإسكندرية .

أما طبوزاوغلى ، قائد الجيش المصرى ، فإنه كان إلى ذلك الوقت مرابطاً فى برنبال بالبر الشرقى ، متردداً فى أى طريق يسلكه ، هل يذهب رأسا لنجدة رشيد ليرفع الحصار عنها ، أم يهاجم أولا موقع الانجليز فى الحماد ، إلى أن تشجع بالنصر الذى ناله فرسان حسن باشا بالبر الغربى فى الاصطدام الأول ، فاعتزم اتباع الخطة الأخيرة ، فعبر النيل ليلا بجنوده ، وأقلتهم المراكب إلى العدوة اليسرى ، وانضموا إلى فرقة حسن باشا تأهباً لمهاجمة الحماد فى صبيحة الغد (٢١ إبريل) .

وفى الصباح شاهد الكولونل ماكلود قوات الجيش المصرى قد تكاثر عددها ، وامتلأ السهل برجالها ، فأرسل من فوره إلى الجنرال ستوارت ينبئه الخبر ويطلب إليه ان يقره على الانسحاب إلى مواقع الجيش الإنجليزى حول رشيد ، فبعث إليه ستوارت يقره على خطته ، ويمدع بفصيلة من الجند ، ولكن الرسول لم يصل إلى الحماد وكذلك لم يجيء المدد ، لأن فرسان الجيش المصرى قد انسابوا فى السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد ، فاعتزم

ماكلود الانسحاب من خط دفاعه ، ولكنه لم يحكم خطته ، وتفرقت قواته ، فتمكن فرسان الجيش المصرى من الانقضاض عليها واحدة إثر أخرى فى الوقت الذى احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماد .

تعقب الفرسان القوات الثلاث ، فأحاطوا بقوة القلب وكان معها الكولونل ماكلود ، وانهال عليها الرصاص من كل صوب فقتل معظم رجالها وقتل من بينهم الكولونل ماكلود نفسه .

وأحاطوا كذلك بالميمنة فقتل قائدها الكابتن ترلتون ومعظم جنودها ، ولم ينج من القتل سوى خمسين وقعوا فى الأسر .

أما الميسرة فقد قاومت قليلا وأحاط بها الفرسان من كل جانب ، فلم ير قائدها الماجور وجلسند بدًّا من التسليم ، فسلم هو والبقية الباقية من الإنجليز ، وكان ذلك ختام المعركة .

بدأت الواقعة الساعة السابعة صباحاً . واستمرت ثلاث ساعات حمى فيها وطيس القتال ، وانتهت بهزيمة الجيش الإنجليزى المرابط فى الحماد ، ولم ينج منه أحد ، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر ، وبلغت خسارته نحو ٤١٦ من القتلى و ٤٠٠ أسير .

كان الجنرال ستوارت مرابطاً أثناء الواقعة جنوبى رشيد ومعه بقية الجيش الإنجليزى ، فلما أدرك عظم النكبة التى حلت بقواته فى الحماد سارع إلى رفع الحصار عن رشيد وبادر إلى الانسحاب قبل أن ينقض عليه الجيش المصرى ، فأتلف مدافعه التى لم يستطع حملها وتراجع إلى طريق أبو قير يجر أذيال الخيبة والهزيمة .

وبالرغم من كتمانه تدابير الانسحاب فإن أهالى رشيد والبلاد المجاورة تعقبوه فى انسحابه إلى أن وصل إلى بحيرة ادكو وجرت مناوشات على شاطئ البحيرة بينه وبين المصريين انتهت بارتداد هؤلاء ومواصلة الإنجليز الانسحاب حتى بلغوا أبو قير ومن هناك استقلوا السفن إلى الاسكندرية .

رواية الجبرتى عن معركة (الحماد)

قال الجبرتى عن معركة الحماد مايلى :

« فى يوم الخميس ١٤ صفر حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنجليز وهزيمتهم ، وذلك أنه اجتمع الجم الكبير من أهالى البحيرة وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من

المتطوعة والعساكر ، وأهل دمنهور ، وصادف وصول كتخدا بك واسماعيل كاشف الطوبجى إلى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الإنكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رءوس ، فخلع الباشا (محمد على) على الساعيين جوختين ، وفى أثر ذلك وصل أيضاً شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر ، وبالغا فى الأخبار وإن الإنكليز انجلوا عن متاريس رشيد وأبى مندور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى أن توسطوا البرية وغنموا جبخانتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين » .

وقال فى موضع آخر يصف تطوع المصريين فى القتال بعد معركة رشيد الأولى ونصيبهم فى معركة الحماد وما أبلو فيها من البلاء الحسن ، وكيف غمط حقهم بعد ذلك ولم يعرف فضلهم فى الجهاد والفوز :

« وكذلك أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروزوالمحاربة ، واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ، وجمعوا من بعضهم دراهم ، وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء ، وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور ، فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم ، فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك ، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرءوس على الصورة المذكورة وفر الباقون إلى من بقى بالإسكندرية ، وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فضل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره ، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك » .

تأثير معركة الحماد فى الموقف الحربى

كانت معركة (الحماد) هزيمة ساحقة للإنجليز ، فملأت نفوس المصريين عزماً وفخراً وثقة ، وأسقطت هيبة الجيش الإنجليزى وخاصة لما جمع كتخدا بك أسراهم وشحنهم فى المراكب إلى القاهرة ليتحقق الناس عظم النصر الذى أدركه الجيش المصرى .

وصل أولئك الأسرى إلى بولاق يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٢ (٢٩ إبريل سنة ١٨٠٧) فسيقوا من بولاق إلى الأزبكية ومنها إلى القلعة ، وعددهم ٤٨٠ أسيراً وفى مقدمتهم من قواد الجيش

الإنجليزى الماجور مور ، والماجور وجلسند ، وكان يوم حضورهم يوما مشهود احتشدت فيه الجماهير من سكان العاصمة على جوانب الشوارع والطرقات لرؤية منظر الأسرى ، وطيف برءوس القتلى الإنجليز ليراها الناس على الطريقة التى كانت مألوفة فى ذلك العصر فبلغ عددها ٤٥٠ رأساً .

أما الجنرال فريزر فقد أسقط فى يده بعد هزيمتى رشيد والحماد ورأى من العبث أن يعاود القتال ، فامتنع بالإسكندرية وأخذ فى تحصينها ، وبعث بالرسل إلى زعماء المماليك يذكرهم بوعود الألفى ويناشدهم العهود ويحرضهم على إمداده ومعاضدته ليواصل القتال ويعيدهم إلى دست الأحكام ، ولكن المماليك لما علموا بما حل بالانجليز من الهزيمة صموا آذانهم عن الاستجابة لطلب الجنرال فريزر وظلوا بعيدين عن غمرات القتال .

ولكى يأمن الجنرال فريزر على نفسه قطع سد أبو قير لتطغى مياه بحيرة أبو قير على مريوط وتحيط المياه بالإسكندرية من جميع الجهات ، وهذه هى المرة الثانية التى قطع فيها الإنجليز هذا السد ، وكانت المرة الأولى سنة ١٨٠١ حينما حاربوا الجنرال منو فأرادوا أن يحصروه فى الاسكندرية فقطعوا السد[٢٦] .

ولا يخفى أن قطع السد يتلف ترعة الإسكندرية فيمنع وصول مياهها إلى الثغر ويخرب بلاداً كثيرة فى جهات مريوط ، فالإنجليز قد تسببوا فى هذا الخراب مرتين .

وأخذ محمد على يعد العدة للزحف على الإسكندرية وإجلاء الإنجليز عنها ، ولم يكد يبدأ فى إنفاذ عزمه حتى جاءه بالقاهرة رسول من قبل الجنرال فريزر يحمل رسالة منه ، فظن أن هذه الرسالة خاصة بالأسرى الإنجليز الذين فى القلعة ، ففضها فإذا فيها طلب الجنرال فريزر المفاوضة فى الصلح على أن يجلو الجيش عن الإسكندرية ، ولم يكن محمد على يتوقع جلاء الإنجليز عن البلاد بهذه السهولة وهم الذين يتطلعون منذ سنوات عدة إلى احتلالها وبسط نفوذهم عليها ويبذلون الجهود والوسائل لتحقيق أطماعهم فيها ، فلم يغب عن محمد على ما بذله الإنجليز من عهد الحملة الفرنسية لإحتلال مصر ولا مساعيهم لدى الباب العالى ودسائسهم المستمرة لتولية صنائعهم المماليك حكم البلاد وخاصة محمد بك الألفى ، ولا تجريدهم تلك الحملة فى هذا الغرض ، كل هذا لم يفت نظر محمد على الثاقب ، ولذلك لم يكد يصدق هذه الرسالة ، وحاول كتمان دهشته منها وابتهاجه لها ، وأجاب الرسول بأنه ذاهب بجيشه إلى

---

(٢٦) انظر الجزء الثانى من تاريخ الحركة القومية ص ٢٥٢ (الطبعة الأولى) .

دمنهور ، وهناك سيبعث بجوابه إلى الجنرال فريزر .

والواقع أن انجلترا عزمت وقتئذ على العدول عن غزو مصر ، ولم يكن ذلك منها تورعا ولا عدولا عن تحقيق أطماعها الاستعمارية فى وادى النيل ، بل لأن الحالة السياسية فى أوروبا كانت لا تمكنها من متابعة حملتها على مصر ، وذلك أن الصراع بينها وبين نابليون استحر وبلغ مبلغه فى ذلك العهد ، وكان نابليون إذ ذاك فى أوج قوته ومجده ، وقد دان له معظم القارة الأوروبية ، وعقد مع قيصر الروسيا صلح (تلسيت) الشهير ، ذلك الصلح الذى وطد مركزه فى أوروبا وضمن له صداقة القيصر ، فاستطاع أن يتفرغ لتوجيه قواته الهائلة لسحق انجلترا ؛ فرأت هذه أن تجمع قواها لتدافع عن جزيرتها ، وآثرت ألا تغامر بجيوشها فى حملات بعيدة وهى فى حاجة إليها ، ورأت من جهة أخرى بعد ما أصاب جنودها من الهزيمة والخذلان فى رشيد والحماد أن الحملة على مصر ليست مرجوّة العواقب ، من أجل ذلك عدلت عن متابعة حملتها وأرسلت تستدعى جيشها من الإسكندرية ، وأمرت الجنرال فريزر بالإقلاع بجنوده إلى صقلية ، ولا يعنى هذا أنها تخلت عن مطامعها فى مصر ، بل رأت أن ترجئ تحقيقها إلى أن تسنح فرصة أخرى ، وكذلك ظلت تضمر الشر لمصر وترقب الفرص إلى أن كشرت عن نابها أثناء اشتداد الصراع بين مصر وتركيا سنة ١٨٣٩ فتدخلت فى المسألة المصرية ، وألبت الدول الأوروبية على مصر وحرمتها ثمرة انتصاراتها على الأتراك ، كما سيجىء بيانه ، وظلت بعد ذلك تتحين الفرص لاحتلال البلاد حتى سنحت لها الفرصة سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة العرابية .

إبرام الصلح وجلاء الإنجليز عن البلاد

اعتزم محمد على إذن السفر إلى دمنهور وسار بجيشه من معسكره فى إمبابة إلى الرحمانية ، ومنها إلى دمنهور ويوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧ (٧ جمادى الثانية) ، وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الفرسان مجهزين بمدفعية قوية .

ولما بلغ دمنهور التقى بالجنرال شربروك Scherbrook الإنجليزى الذى فوضه الجنرال فريزر فى الاتفاق على الصلح ، وهناك أبرم الطرفان المعاهدة[٢٧] ، وهى تقضى بجلاء الجنود الإنجليزية عن الإسكندرية فى مقابل استرجاعهم أسراهم وجرحاهم ، فبادر محمد على بإنفاذ أمره إلى القاهرة ليحمل الأسرى الإنجليز على الفور ، وأخذ الجنرال فريزر يعد معدات الجلاء

(٢٧) بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وقد نشرنا نصها فى قسم الوثائق وثيقة رقم ١ .

ويتسلم الأسرى ، وفى اليوم التاسع عشر من سبتمبر[٢٨] تم جلاء الإنجليز عن المدينة ، وتسلم الإسكندرية طبوز أوغلى نيابة عن محمد على ثم أقلعت السفن البريطانية ذاهبة بجنود الحملة إلى صقلية .

قال الجبرتى : « وفى يوم الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ وصل المبشرون بنزول الإنكليز من ثغر الإسكندرية إلى المراكب ودخل إليها كتخدا بك (طبوز أوغلى) ونزل بدار الشيخ المسيرى »

وبذلك طويت صحيفة الاحتلال البريطانى الثانى[٢٩] ، فكانت مدته ستة أشهر .

فتأمل فى هذا التاريخ ، سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، وارجع معى بفكرك إلى أكثر من مائة سنة خلت ، واعلم بأن انجلترا ما فتئت خلال هذه الأعوام الطوال ترقب فريستها وتتحين الفرص لتحقيق مطامعها القديمة فى بلادنا العزيزة ، وما زالت تدبر الذرائع وتخلق الحوادث وتنصب الشباك حتى استطاعت بعد خمس وسبعين سنة من جلائها عن البلاد أن تحتلها سنة ١٨٨٢ ، ومن غرائب القدر أن يكون جلاء الإنجليز فى الاحتلال الثانى كان فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٧ ودخولهم القاهرة فى الاحتلال الثالث كان فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فما أعظم الفرق بين التاريخين ، فالأول يذكرنا بيوم سؤدد وفخار ، والثانى يثير فى نفوسنا لوعة الأسى والأحزان !

كانت الإسكندرية خلال السنوات السبع الماضية فى عزلة عن القطر المصرى بعيدة عن نفوذ محمد على ، ذلك أن الباب العالى كان يعتبرها تابعة مباشرة لحكمه ولم يكن للولاة ظل من النفوذ فيها ، فبقيت على هذه الحال إلى أن جلا الإنجليز عن البلاد وسار محمد على إليها ، فكان هذا الجلاء فرصة سعيدة لبسط نفوذ الحكومة المصرية على ربوعها ، ودخلها محمد على لأول مرة بعد جلاء الإنجليز وكان يوما مشهودا أطلقت فيه مدافع القلاع والأبراج ابتهاجا بانضمام الإسكندرية إلى جامعة الوطن .

عودة محمد على إلى القاهرة

ظل محمد على فى الإسكندرية إلى أن غادرها وسار برًّا إلى رشيد يصحبه حسن باشا ، ومن هناك انحدر فى النيل إلى القاهرة ، وفى طريقه إليها انقلب به مركبه أمام (وردان) فاجتاز

---

(٢٨) اعتمدنا فى تاريخ هذا اليوم على الوثيقة رقم ١٢٩ من وثائق الحملة الإنجليزية المتقدم ذكرها .

(٢٩) سميناه الثانى تمييزاً له عن الاحتلال الأول الذى وقع سنة ١٨٠١ فى أواخر عهد الحملة الفرنسية واستمر بعد انتهائها إلى سنة ١٨٠٣ (راجع الجزء الثانى من تاريخ الحركة القومية ص (٣٣١) الطبعة الأولى ، والاحتلال الثالث الذى رزئت به البلاد سنة ١٨٨٢ ولا تزال تعانيه إلى اليوم (١٩٤٦) تاريخ إعداد الطبعة الثانية من الكتاب الحالى .

النهر سباحة وواصل سفره راكبا جواده ، فكبا به الجواد على غير عادته وسقط على الأرض فتطيرت حاشية الباشا من الحادثتين ، ثم وصل محمد على إلى القاهرة وبلغها فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٧ .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فى ثالث شعبان سنة ١٢٢٢ (٦ أكتوبر سنة ١٨٠٧) وصل الباشا إلى ساحل بولاق ، فضربوا لقدومه مدافع من القلعة ، وعملوا له شنكا ثلاثة أيام ، واتفق أن الباشا فى حال رَجوعه من الإسكندرية نزل فى سفينة صغيرة وصحبته حسن باشا طاهر وسليمان أغا الوكيل سابقا فانقلبت بهم وأشرف ثلاثتهم على الغرق وتعلق بعضهم بحرف السفينة فلحقتهم مركب أخرى أنقذتهم من الغرق وطلعوا سالمين وكان ذلك عند زفيتة [٣٠] » .

ولما بلغت أنباء الجلاء عن الاسكندرية إلى الأستانة ابتهج السلطان محمود ابتهاجا عظيما لما كان بين تركيا والجلترا من العداء فى ذلك الحين ، فأرسل رسولاً إلى محمد على يظهر له ابتهاجه ويهدى إليه سيفا ثمينا وخلعة ، وكذلك أنعم على إبراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وعمر بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة .

وأعادت الحكومة التركية إبراهيم بك (باشا) إلى مصر وكان بالاستانة رهينة حتى يؤدى محمد على الأربعة الآلاف كيس التى التزم بأدائها ، فاطلقت الحكومة سراحه إعرابا على ابتهاجها بانتصار الجيش المصرى .

وصفوة القول أن إخفاق الحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ وهزائم الإنجليز فى رشيد والحماد هى صفحات مجد وفخار لمصر والمصريين .

فتنة الجند وإخمادها

(سنة ١٨٠٧)

كان محمد على باشا معتزما بعد أن تخلص من الحملة الإنجليزية أن يجرد حملة على المماليك فى الصعيد ليقضى على سلطانهم به ، لكنه علم وهو فى الإسكندرية أن الجنود قد جنحوا فى العاصمة إلى التمرد والفتنة ، فرأى أن يدع الحملة على المماليك حتى ينتهى من إخماد فن فتنة الجند .

---

(٣٠) على شاطئ النيل شمالى القناطر الخيرية من بلاد مركز قليوب وتسمى زفيتة شلقان .

عاد إلى القاهرة فطالعه الناس بالشكوى من مسلك الجنود وإخلالهم بالنظام ، والواقع أن هؤلاء الجنود كان دأبهم النهب والسلب والعدوان على الناس وانتهاك الحرمات والاستهانة بالأرواح والأموال .

وكما كان للزعامة الشعبية الفضل الكبير فى إحباط الحملة الإنجليزية كذلك كن لها الفضل فى مناصرة محمد على باشا ومعاونته على اخماد فتنة العسكر .

كان أولئك الجند افة على الأمن والنظام ، وكذلك كانوا خطرا على استقرار محمد على باشا فى الحكم ، وقد تخلص من العناصر الأكثر نزوعا إلى العصيان كالدلاة مثلا ، فإنه بعد توليته حكم مصر سرح معظمهم وعهد إلى فرقة من الأرناءود ترحيلهم إلى الحدود السورية ، وفى أثناء جلائهم عن البلاد نهبوا قرى الوجه البحرى وعاثوا وأفسدوا ، لكن بقيت عناصر الأرناءود من الجنود غير النظاميين وبقية من الدلاة تخل بالأمن وتنزع إلى العصيان ، وكانوا كلما لجحوا فى فتنة ازدادوا تمردا وطغيانا ، وكلما عادوا من حملة أو تجريدة جاسوا خلال القرى آخذين ما تصل إليه أيديهم بالنهب والسلب .

وقد رأى محمد على باشا من نزوعهم إلى العسف والاعتداء وانسلالهم إلى الأرياف والعاصمة للنهب والقتك بالأهلين عقب حملة سنة ١٨٠٧ ما جعله يصمم الرأى على تأديبهم وكبح جماحهم ، فلما استقر به المقام فى القاهرة اعتزم إنفاذ هذا العزم . وكان ذلك عين الصواب لأن أولئك الجند قد تمادوا فى طغيانهم ولم يزعهم وازع من سلطة أو نفوذ حتى تهددوا محمد على ذاته بالفتك به .

ففى ٢٨ أكتوبر تجمهرت جموع حاشدة من الجنود الأرناءوود وذهبوا بجمعهم وصخبهم الى سراى الباشا بالأزبكية يطالبون برواتبهم المتأخرة ، فلم يجابوا إلى طلبهم ووعدوا بالدفع ، فلم يرضوا ، وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على أبواب القصر ونوافذه ، ولما نفدت ذخيرتهم عادوا من حيث أتوا ، ولم تمض ثلاث ساعات على هذا التجمهر حتى جاء رهط آخر من الجنود الدلاة وحذوا حذو الأرناءوط فى تمردهم وشغبهم ، ففزع الناس من هذه الفتنة وخشوا عواقبها وأقفلوا الدكاكين والأسواق ، وأغلقوا بوابات الدروب والحارات من الغروب وسهروا خلفها بالأسلحة ، فأدرك محمد على خطر هذه الفتنة ، و فاحاط لنفسه قبل أن يصيبه شرها ، وكان ذلك من دلائل فراسته وبعد نظره ، فإن الجنود المتمردين كانوا قد أجمعوا الفتك به فى سرايه بالأزبكية ، وكانت هذه السراى مكشوفة للمتمردين ، فعقد العزم على مبارحتها إلى

القلعة ، لأنه رآها آمن مستقرًا ومقامًا .

ففى اليوم التالى (٢٩ أكتوبر) انتقل ليلا مع صحبه المخلصين له إلى القلعة بعد أن نقل إليها أمتعته الثمينة وخزائنه التى كانت بسراى الأزبكية ، وقد تم انتقاله إلى القلعة سرًا بحيث لم يشعر به الجنود المتمردون ، فلما علموا بالخبر ثارت ثائرتهم وأقبلوا ينهبون سراى محمد على ، وتجمهروا فى أنحاء المدينة وأطلقوا أيديهم فى النهب والسلب والاعتداء على الناس ، واستمرت الفتنة سبعة أيام حتى أنست الناس الاحتفال برؤية رمضان .

استفحلت الفتنة واضطربت لها العاصمة وكادت تقضى على الأمن والنظام فيها ، فتدخل السيد عمر مكرم والعلماء ، واجتمعوا غير مرة طورا فى القلعة ، وآونة فى بيت السيد عمر مكرم ، وآنا فى بيت السيد محمد المحروقى كبير التجار ، وبحثوا فى خير الوسائل لإخماد الفتنة ، فاتفقوا رأيا على أن تؤدى الحكومة للجنود المتمردين جزءا من رواتبهم المتأخرة قدروه بألفى كيس ، ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا أن يتحمل الأهالى هذه الإتاوة الجديدة ، فوزعوها على التجار والملاك والصناع وأرباب الحرف ، وأقنعوا المتمردين بالإخلاد إلى السكينة مقابل هذا المبلغ من المال .

فجبيت الإتاوة ، ودفعت للجنود ، واستتبت السكينة مؤقتا على حساب الأهالى ، واعتزم محمد على تلقاء خطورة هذه الفتنة أن يقتص من زعمائها ، فقرر نفى رجب أغا أحد رؤساء الجند الأرناءود وأشدهم نزوعا إلى العصيان ، وكان هذا الأغا يعمل من قبل فى صفوف محمد بك الألفى رئيسا لقواته المشاة ، فلما مات الألفى جاء إلى القاهرة يصحبه رهط من رجاله وأخذ يعيث فسادا ، فلما قرر محمد على نفيه استكبر وأصر وأبى أن يذعن للأمر ، وامتنع فى باب الخلق ، وكادت تقوم فى المدينة فتنة جديدة لولا أن تدخل فى الأمر عمر بك وصالح قوش من رؤساء الجند الأرناءود ، فذهبا برجب أغا إلى بولاق وأنفذاه إلى دمياط فارتحل منها إلى بلاده .

دلت هذه الفتنة على أنه مادام جيش الحكومة خليطا من تلك العناصر المتمردة النازعة أبدا إلى الإخلال بالنظام فلا يستقر الأمن فى البلاد ، ولا تستقيم شئونها ، ومن هنا خالجت محمد على فكرة التخلص من الجنود غير النظاميين وإنشاء جيش جديد أساسه الطاعة والنظام للرؤساء ، وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ فكرته ، فكان من وسائل تحقيقها إرسال أخلاط الجيش غير النظامى إلى الحملات البعيدة فى الحجاز والسودان ، وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجا تمهيدًا لتأسيس الجيش المصرى النظامى كما سيأتى بيانه .

الفصل الثالث

اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان

الموقف السياسى

من الراجح أن محمد على باشا كان يميل فى ذات نفسه إلى التخلص من الزعامة الشعبية التى أجلسته على قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت فى هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصى عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة ، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم أو تتحيفهم مساوئ الحكام ، ولا نزاع فى أن هذا النوع من الرقابة لم يكن مألوفا ولا سائغا فى ذلك العصر ، ولئن كان محمد على مدينا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التى اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التى تدبر له ، فإن السلطة فى ذاتها من شأنها أن تطغى صاحبها وتنزع به إلى الإستبداد بالأمر ، فمحمد على بعد أن إستقر فى الحكم وثبتت قدمه طمحت نفسه إلى الإستبداد وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأى فى شئون الحكومة وسعيهم فى رفع المظالم عن الناس ، ومهما يكن هذا التدخل شرعيا ولا غبار عليه لصدوره من قوم بايعوا محمد على الولاية بشرط أن يسير فى الحكم بالعدل والقسطاس ، فمما لا نزاع فيه أنه كان يميل إلى التخلص من هذه الرقابة بإقصاء الزعامة الشعبية عن الميدان .

كل هذا صحيح واقع لاريب فيه ، ولكن من الحق أن نقول أيضا إن الزعامة الشعبية هى التى هدمت سلطتها بيدها ، وإنها كانت تحمل فى عناصرها أسباب انحلالها ، ذلك أن زعماء الشعب لم يكونوا على وفاق وتضامن وإخلاص متبادل ، فأخذت أسباب التنافس والتحاسد والمطامع الشخصية تفرق بينهم ، ودبت فى نفوس الكثيرين منهم عقارب الحسد لما ناله السيد عمر مكرم من المنزلة والرياسة ، ومع أن عمر مكرم بلغ مكانته بجدارة واستحقاق لما له من فضل السبق فى تكوين تلك الزعامة وإقامتها على طريق السداد ، ولما اشتهر عنه من الأنفة والحمية ، والتعفف وعلو النفس ، والبعد عن الصغائر ونزعات الهوى . فإن زملاءه فى الزعامة

قد حسدوه ونقموا عليه رياسته ، فأخذوا يكيدون له لإضعاف مركزه ، والنيل من مكانته ، ولم يجدوا سبيلا أقرب إلى تحقيق غرضهم من التزلف إلى محمد على والوقيعة بينه وبين عمر مكرم ، فانتهزها محمد على فرصة للتخلص من الزعيم الشعبي الذى كان لديه كالرقيب العتيد على أعماله ، ثم للتخلص كذلك من الزعامة الشعبية بجملتها مرة واحدة .

هذا هو السبب الجوهرى فى تفكك عرى تلك الزعامة الشعبية وانحلالها ، وإذا تأملت فيما ذكره الجبرتى خلال يومياته رأيت أن أسباب التخاذل وتفرق الكلمة قد بدأت تعمل فى تقويض دعائم تلك الزعامة من أواخر سنة ١٨٠٥ ، واستمرت تلك الأسباب تبدو حينا وتختفى حينا آخر إلى أن بلغت مداها سنة ١٨٠٩ ، وانتهت بالوقيعة بالسيد عمر مكرم ونفيه إلى دمياط ، وبمنفاه وإقصائه عن الميدان انهار ركن الزعامة الشعبية وهوى نجمها الساطع ، وطويت صحيفتها إلى حين .

ومما يستوجب الدهشة والأسف أن التخاذل بين الزعماء بدأ لأسباب واهية ما كان يجدر أن تفرق بين قوم حملوا دورا خطيرا فى حياة مصر السياسية ، فقد كان أول سبب لانقسامهم هو تزاحمهم على نظر أوقاف الأزهر . . !

قال الجبرتى فى حوادث رمضان سنة ١٢٢٠ (نوفبر سنة ١٨٠٥) :

« وفى هذه الأيام وقعت بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها ، وتحزبوا حزبين حزب مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وحزب مع الشيخ محمد الأمير وهم الأكثر ، وجعلوا الشيخ الأمير ناظرا على الجامع (الأزهر) وكتبوا له تقريرا بذلك من القاضى وختم عليه المشايخ والشيخ السادات والسيد عمر أفندى النقيب ، وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيس ، وكان يتقلدها أحد الأمراء (المماليك) فلما خرج الأمراء من مصر صارت تابعة لمشيخة الأزهر لوقت تاريخه ، فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوى » .

تخاذل الزعماء وحالتهم النفسية

كان هذا الخلاف من الحوادث الجوهرية التى لفتت نظر الكتاب الأفرنج ممن تابعوا حوادث مصر فى ذلك العصر ، فقد ذكره المسيو مانجان فى كتابه بقوله :

« إن العلماء اختلفوا فيما بينهم على من يتولى النظر على أوقاف الأزهر وانقسموا فريقين

فريق أراد أن يكون ذلك للشيخ محمد الأمير ، وفريق تحزب للشيخ الشرقاوى وطلب أن يكون النظر إليه ، وقد فاز الأمير وحزبه فتقرر له النظر » .

ثم أخذ هذا الخلاف يستفحل مع الزمن ، وسعى بعض الشيوخ البعيدين عن أسبابه ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن السجينى أن يحسموه خيفة أن يتصدع بناء الجماعة ، فدعاهم السجينى إلى داره وأعد لهم وليمة يبتغى بها أن يزول ما فى نفوسهم من أسباب الجفاء ، قال الجبرتى فى حوادث صفر سنة ١٢٢١ (أبريل سنة ١٨٠٦) : « وفى هذه الأيام كان بين مشايخ العلم منافسات ومناورات ومحاسدات وذلك فى أوائل شهر رمضان سنة ١٢٢٠ ، وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا ، فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجينى ابن الشيخ عبد الرءوف عمل وليمة ودعاهم إليها فاجتمعوا فى ذلك اليوم وتصالحوا فى الظاهر » .

فتأمل كيف كانت المنافسة بين الشيوخ والزعماء لأسباب شخصية واهية وهى التزاحم على مشيخة جامع أو إدارة أوقاف ، وتأمل فى قول الجبرتى أنهم حينما اجتمعوا على مائدة الشيخ السجينى تصالحوا ، وكان صلحهم (فى الظاهر) ، ومعنى ذلك أنه لم يكن إلا رياء ومداهنة ، وبقيت السرائر على ما طويت عليه .

لم يخف أمر هذا التنافس على محمد على ، بل لابد أن يكون قد ابتهج له فى خاصة نفسه ابتهاجا عظيما ، وعزم على استغلاله لينفرد بالحكم ، ويتخلص من تلك الرقابة الشعبية ، وقد قويت فيه نعرة الإنفراد بالحكم بعد إخفاق الحملة الإنجليزية ، مما جعله ينزع إلى الاستئثار بالحكومة والقضاء على كل سلطة تراقبه أو تعارضه ، وقد بدأ بالتخلص من الزعامة الشعبية لأن هذه الزعامة مرتكزة على أساس راسخ من التفاف الشعب حولها وصحة المبادئ التى تعمل لها .

ومن الحق أنه نقول انه لم يكن من بين زعماء الشعب من كان يحسب له حساب كبير مثل السيد عمر مكرم ، فإنه الرجل الذى كان يتمثل فيه دائما تاريخ الثورة ، فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ، ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات ، وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته ، وأيده فى مسلكه بعض الشيوخ ، ولكن أغلبيتهم قد انصرفت إلى أسباب المنافع ، والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور ، وأخذوا يقلدون البكوات المماليك فى البذخ والرفاهية ، فأذلتهم الدنيا ، وضعفت نفوسهم أمام سلطة الحاكم ونفوذه .

وكان محمد على عند فرضه الضرائب الجديدة على القرى والالتزامات قد راعى خاطر

الشيوخ ليضمهم إليه ، فأعفى أملاكهم وضياعهم وما دخل فى التزامهم من دفع ضريبة (الفائض) وكذلك شمل بهذا الإعفاء أملاك من ينتمون إليهم ، فاغتر الشيوخ بهذا التمييز فى المعاملة ، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين ، وتركوا الدنيا تفسد من طباعهم ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء (المماليك) واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات . . . زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية » .

وغنى عن البيان أن هذه الحالة النفسية التى وصفها الجبرتى قد أدت إلى إضعاف مكانة الشيوخ وإزالة هيبتهم من القلوب ، ومهدت السبيل لمحمد على ليتسلم زمامهم ، لأنه يكفى أن يلوح لهم بمنفعة جديدة أو يتهددهم بحرمانهم من منفعة قائمة ليضمن ولاءهم وموافقتهم إياه فى كل ما يرغب عمله ، وكانت الحكومة فى غضون ذلك تفرض ما تشاء من الإتاوات والضرائب ، فطورا تقرر الاستيلاء على نصيب من إيراد الملتزمين وتارة تقرر قروضا إجبارية تكره عليها الملاك والتجار ، وكانت فيما تقرره تعفى الشيوخ من الإتاوات ، ولكنها قررت فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٠٧ أبطال هذا الامتياز وتعميم ما تفرضه من الضرائب العقارية الجديدة على أطيانهم .

الخلاف بين محمد على والسيد عمر مكرم

كانت الحكومة كلما احتاجت إلى المال تفرض ضرائب وإتاوات جديدة على الأطيان والمتاجر وغيرها ، فساءت الحالة الاقتصادية ، ووقع الضنك واستد الضيق بالأهالى ، وكثرت هجرتهم من القرى ، وزاد الحالة حرجا نقص النيل نقصًا فاحشًا فى فيضان أغسطس سنة ١٨٠٨ ، فارتفعت الأسعار ، واشتد الغلاء ، وقلت الغلال فى الأسواق ، فلجأ الأهالى كعادتهم إلى العلماء ، وهؤلاء كلموا محمد على فى كثرة الضرائب وطلبوا إليه رفع تلك المظالم ، فغضب عليهم الباشا ، ونسب إليهم ظلم الأهالى لأنه حينما أعفى أطيانهم من الضرائب الجديدة كانوا هم مع ذلك يقتضونها من الفلاحين ، وتهددهم بمراجعة ما نالهم من هذا الباب ، فقبلوا

المراجعة ، وكان هذا الجدل نذيرًا باشتداد الخلاف بين محمد على باشا والعلماء ، واتفقوا على إقامة صلاة عامة للاستسقاء ، وهى الصلاة التى تقام إذا ما شح النيل للدعاء إلى الله أن يرفع الكرب ويجرى الماء .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فلما كان يوم سبت ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٣ وخامس عشر مسرى القبطى نقص النيل نحو خمسة أصابع وانكشف الحجر الراقد الذى عند فم الخليج تحت الحجر القائم ، فضج الناس ورفعوا الغلال من الرقع والعرصات والسواحل ، وانزعجت الخلائق بسبب شحة النيل فى العام الماضى وهيفان الزرع وتنوع المظالم وخراب الريف وجلاء أهله واجتمع فى ذلك اليوم المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال بالخروج إلى الصحراء وادعوا الله ، فقال له الشيخ الشرقاوى ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم ، فقال أنا لست الظالم وحدى ، وأنتم أظلم منى ، فإنى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم إكراما لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندى دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفى كيس ، ولابد أنى أفحص ذلك ، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة عن فلاحيه أرفع الحصة عنه ، فقالوا له لك ذلك ، ثم اتفقوا على الخروج والسقيا فى صبحها بجامع عمرو بن العاص لكونه محل الصحابة والسلف الصالح يصلون به صلاة الاستسقاء ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون إليه فى زيادة النيل ، وبالجملة ركب السيد عمر والمشايخ وأهل الأزهر وغيرهم والأطفال واجتمع عالم كثير وذهبوا إلى الجامع المذكور بمصر القديمة ، فلما كان فى صبحها وتكامل الجمع صعد الشيخ جاد المولى على المنبر وخطب بعد أن صلى صلاة الاستسقاء ، ودعا الله وأمن الناس على دعائه وحوّل رداءه ، ورجع الناس بعد صلاة الظهر وبات السيد عمر هناك ، وفى تلك الليلة رجع الماء إلى محل الزيادة الاولى واستتر الحجر الراقد بالماء ، وفى يوم الإثنين خرجوا أيضا ، وأشار بعض الناس بإحضار النصارى أيضا ، فحضروا وحضر المعلم غالى ومن يصحبه من الكتبة الأقباط ، وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان ، وانفض الجمع أيضا ، وفى تلك الليلة التى هى ليلة الثلاثاء زاد الماء ونودى بالوفاء وفرح الناس ، وطفق النصارى يقولون إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجنا ، فلما كانت ليلة الأربعاء طاف المنادون بالرايات الحمر ونادوا بالوفاء ، وعمل الشنك والوقدة تلك الليلة على العادة ، وفى صبحها حضر الباشا والقاضى واجتمع الناس وكسروا السد وجرى الماء فى الخليج جريانًا ضعيفًا » .

وبالرغم من جريان النيل فارن الضائقة الاقتصادية لم تخف وطأتها ، وزادت الحكومة فى فرض الضرائب ، فازداد البؤس واشتد الضيق بالناس .

ولما كانت سنة ١٨٠٩ قرر محمد على باشا فرض ضريبة المال الميرى على الأراضى الموقوفة ، وهى المعروفة بالرزق الأحباسية أى المرصدة على المساجد والسبل والخيرات ، وكذلك على أطيان الأوسية التى كانت ملكا خاصًّا للملتزمين ، وهذه الأطيان كانت كلها معفاة من الضرائب ، وقرر كذلك فحص أطيان الرزق والأوقاف وطلب حججها ممن يتولون النظر عليها ، وأمر حكام الأقاليم (الكشاف) بالاستيلاء على تلك الأطيان إذا لم يقدم أصحابها إلى الديوان حجج إنشاء الوقف ، ومعنى ذلك تمهيد السبيل لمصادرة معظم الأطيان الموقوفة ، لأن الكثير منها قد تقادم العهد على وقفه بحيث أصبحت حججه لا تنطبق عليه لتغير المعالم أو للنزاع فى الاستحقاق ، وتخويل حكام الأقاليم أمر فحصها معناه إطلاق يدهم فى إلغاء ماشاءوا من الأوقاف .

وقررت الحكومة أيضا إلزام جميع الملتزمين بأن يؤدوا للحكومة نصف الفائض لهم من الالتزام ،أى نصف الصافى من إيرادهم من الأطيان الداخلة فى التزامهم ، ومعنى ذلك مقاسمة الملتزمين فى معايشهم .

كانت هذه المحدثات سببا فى تبرم جمهور الملاك ونظار الأوقاف والمستحقين والملتزمين ، وهم طبقة كبيرة من السكان ، ومنهم المحتاجون الذين لا يرتزقون إلا من غلة الأوقاف الموقوفة عليهم من أسلافهم ، أو من إيراد الأطيان الداخلة فى التزامهم ، فلا جرم أن تثير هذه المغارم فى نفوسهم عاصفة من الاستياء والسخط وان يجأروا بالشكوى إلى الشيوخ الذين هم ملجأ المظلومين فى ذلك العصر .

وكان مفهوما أن تكون هذه المحدثات سببا لاشتداد الخلاف بين محمد على باشا والسيد عمر مكرم ، لأنه لم يكن منتظرا أن يقره عليها ، وكان له من النفوذ على الجماهير ما يجعل احتجاجه بمثابة إحراج لمركز الحكومة . فاعتراض السيد عمر مكرم واحتجاجه كان أمرا ذا بال ، وله من العواقب فى إثارة الشعب مالا يغرب عن البال ، وقد حدث ماكان منتظرا ، فاجتمع الناقمون على المحدثات الجديدة ، واتفقوا على أن يقصدوا إلى الأزهر لرفع ظلامتهم إلى الشيوخ والعلماء ، وحدث من قبيل المصادفات أن ولاة الشرطة اعتقلوا طالبا من طلاب العلم فى الأزهر يمت بصلة القربى إلى أحد علمائه (السيد حسن البقلى) ، فتشفع العلماء فى اطلاق

سراحه ، فلم يقبلوا وأرسلوه إلى القلعة ، فجاءت هذه الحادثة سببا جديدا لإثارة الخواطر فوق ثورانها بسبب الضرائب الجديدة .

ففى يوم السبت ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ (٣٠ يونية سنة ١٨٠٩) بينما الشيوخ حاضرون بالأزهر كعادتهم لقراءة الدروس أقبل الناس أفواجا من رجال ونساء ، ومنهم أهل الطالب المسجون يصرخون ويستغيثون ، وأبطلوا الدروس ، فاجتمع الشيوخ بالقبلة ، وأرسلوا إلى السيد عمر مكرم فحضر إليهم وأخذوا يتداولون الرأى فيما يجب عمله ، وتناسوا مؤقتا منافساتهم الشخصية ، واتفقوا على الدفاع عن مصالح الجمهور ، ثم انفض الاجتماع وذهبوا إلى بيوتهم على أن يجتمعوا ثانيا .

واستأنفوا الاجتماع فى الغد وتداولوا الأمر ، وأجمعوا الرأى على الاعتراض على المحدثات الجديدة من المظالم والمغارم عامة ، وأهمها فرض الضريبة على الأطيان الموقوفة وأطيان الأوسية ، ومقاسمة الملتزمين فى إيرادهم ، وضريبة الدمغة على المنسوجات والمصوغات والأوانى ، واعتقال الطالب الأزهرى بغير ذنب جناه ، وحبسه بالقلعة ، واتفقوا على أن يرفعوا هذا الاحتجاج كتابة إلى محمد على باشا .

توافق الشيوخ فى هذا الاجتماع على الإخلاص والتضامن ، « وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » كما يقول الجبرتى ، ولكن هذا العهد لم يكن صادرا عن نية صادقة ، فإن حساد السيد عمر مكرم كانوا مضمرين فى أنفسهم أن يخذلوه إذا حزب الأمر واشتدت الأزمة ، وأن يدعوه وجها لوجه أمام محمد على .

وظاهر من رواية الجبرتى أنهم اتفقوا رأيا على الاكتفاء بتقديم العريضة بمثابة احتجاج على تصرفات الباشا وعدم الذهاب إليه خيفة أن يؤثر فيهم إذا اجتمع بهم ، أو تلين قناتهم إذا صاروا بحضرته ، على أن محمد على اعتزم أن يفرق جمعهم باستدعائهم فيختلفوا فى وجوب الذهاب إليه أو الامتناع عن مقابلته ، فتقع الفرقة بينهم ، وتظهر مكنونات ضمائرهم ، وهنالك يضرب الضربة التى اتفق مع المهدى والدواخلى على إيقاعها بالسيد عمر مكرم .

الوقيعة بالسيد عمر مكرم

وتفصيل ذلك أن محمد على أوفد سكرتيره (ديوان أفندى) لمقابلة الشيوخ وتعرف نياتهم ، أوجس نبضهم كما يقولون ، فوجد منهم فى اليوم الأول اتحادا فى الرأى ، وأصروا على

عدم مقابلته والاكتفاء بالعرض الذى قدموه ، وفى ذلك معنى الغضب والاحتجاج الذى يخشى محمد على عواقبه فى نفوس الجمهور.

قال الجبرتى فى وصف هذه المقابلة : « حضر ديوان أفندى وقال إن الباشا يسلم عليكم ، ويسأل عن مطلوباتكم ، فعرفوه بما سطروه إجمالا ، وبينوه له تفصيلا ، فقال ينبغى ذهابكم إليه ، وتخاطبونه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم ، وإنما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم [1] ولا تقبل نفسه التحكم ، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم إنفاذ الغرض ، فقالوا بلسان واحد لا نذهب إليه أبدا مادام يفعل هذه الفعال ، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق ، فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور ، فقال لهم ديوان أفندى وأنا قصدى أن تخاطبوه مشافهة ويحصل إنفاذ الغرض ، فقالوا لا نجتمع عليه أبدا ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ، ونقتصر على حالنا ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا ، وأخذ ديوان أفندى « العرضحال » ووعدهم برد الجواب »

هذا ما ذكره الجبرتى عن اجتماع الشيوخ بسكرتير محمد على باشا ، ومنه يتبين أنهم كانوا فى بادئ الأمر يدا واحدة فى الاعتراض على المظالم والضرائب الجديدة وأن ما سماه الجبرتى « عرضحالا » كان بمثابة احتجاج شديد له خطره وعواقبه ، وكثير من الثورات يكون منشؤها العرائض أو « العرضحالات » ، وقد كان هذا العرض مقرونا بالامتناع عن مقابلة الباشا ورفض المباحثة معه ، وهذا أمر خطير فى ذاته وفى نتائجه ، وليس هذا الامتناع مقصورا كما يقول الشيوخ على أن « يلزموا بيوتهم ويقتصروا على حالهم ويصبروا على تقدير الله بهم وبغيرهم » بل هو إعلان للجمهور بأنهم غضبوا على من أجلسوه منذ سنوات على كرسى الحكم ، ومصارحة لهم بأنه خالف الشروط التى بايعوه عليها ، ففى هذا العمل السلبى تهديد صريح لمحمد على بأن يجيب طلباتهم وإلا فإنهم « لا يجتمعون عليه أبدا » .

وبديهى أن محمد على باشا أدرك بثاقب نظره ما ينطوى تحت هذه « المقاطعة » من المعانى ، وما يترتب عليها من النتائج ، فبادر أولا إلى الإفراج عن الطالب الأزهرى « قريب السيد حسن البقلى » الذى كان محبوسا ، ليفهم الجمهور أن لا ظلم ولا حبس ولا تعذيب ، ثم

---

(١) كذا فى الجبرتى . وهذه الرواية تقرب فى معناها من رواية المسيو مانجان فى كتابه « تاريخ مصر فى حكم محمد على » جزء ١ ص ٣٣٢ .

أخذ يجهد الفكر لفصم عرا تلك الزعامة الشعبية التى كانت تقلق باله وتقض مضاجعه ، ومضت أربعة أيام على اجتماع الشيوخ دون أن يبعث إليهم محمد على بالجواب ، والظاهر أنه قضى هذه الأيام فى استمالة بعض الشيوخ إليه والائتمار بالسيد عمر مكرم .

وفى ذلك يقول الجبرتى : « إلى أن بدت الوحشة بين الباشا والسيد عمر مكرم فتولى كِبْر السعى عليه سرا هو وباقى الجماعة حسدًا وطمعًا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به » .

وكان بدء هذه المؤامرة أن اجتمع الشيخ محمد المهدى والشيخ محمد الدواخلى وناظر المهمات (محمد أفندى طبل) ، واتفقوا معا على الخطة التى يتبعونها لإنفاذ المؤامرة ، وبعد تفرقهم ذهب المهدى والدواخلى إلى السيد عمر وأخذا يدافعان عن محمد على باشا ، ويبرئانه مما نسب إليه ، وكان هذا الدفاع مقدمة انقلابهم على السيد عمر ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « اجتمع الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى عند محمد أفندى طبل ناظر المهمات ، وثلاثتهم فى نفوسهم للسيد عمر مافيها ، وتناجوا مع بعضهم ، ثم انتقلوا فى عصرها وتفرقوا ، وحضر المهدى والدواخلى إلى السيد عمر ، وأخبراه أن محمد أفندى المذكور ذكر لهم أن الباشا لم يطلب مال الأوسية ولا الرزق (الأطيان الموقوفة) ، وقد كذب من نقل ذلك ، وقال أنه يقول إنى لا أخالف أوامر المشايخ ، وعند اجتماعهم به ومواجهته يحصل كل المراد » .

فالمهدى والدواخلى دافعا إذن عن محمد على ، ونقضا الاتفاق الذى تم بين الشيوخ فى اجتماعهم السابق ، ومضمونه ألا يذهبوا إلى محمد على باشا إلا إذا أجاب مطالبهم ، لأن كلامهم الجديد للسيد عمر يدل على قبولهم الاجتماع بالباشا وتحبيذهم هذا الاجتماع .

وقد فطن السيد عمر إلى سر الخطة الجديدة التى اتبعها المهدى والدواخلى ، أما هو فقد أصر على عهده بعد أن ألزم الشيخين الحجة ، إذ قال لهما : « أما إنكاره طلب مال الرزق والأوسية فهاهى أوراق المباشرين عندى لبعض الملتزمين مشتملة على طلب الفرضة (الضريبة) ونصف الفايض (أى نصف إيراد الملتزمين) ومال الأوسية والرزق ، وأما الذهاب إليه فلا أذهب إليه أبدا ، وإن كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذى وقع بيننا فالرأى لكم » .

وانقضَّ المجلس ، وعلم محمد على باشا بما دار فيه ، فأدرك أن السيد عمر مكرم لا تلين قناته ، وأنه مصمم على المقاومة ، فأخذ كما يقول الجبرتى يدبر تفريق جمع الشيوخ ، « وخذلان السيد عمر لما فى نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه ، ومعارضته له فى غالب

الأمور ، ويخشى صولته ، ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره ، إن شاء جمعهم ، وإن شاء فرقهم ، وهو الذى قام بنصره ، وساعده ، وأعانه ، وجمع الخاصة والعامة حتى ملّكه الإقليم ، ويرى أنه إن شاء فعل نقيض ذلك ، فطفق يجمع إليه بعض أفراد من أصحاب المظاهر ويختلى معه ويضحك إليه ، فيغتر بذلك ، ويرى أنه صار من المقربين وسيكون له شأن إن وافق ونصح ، فيفرغ له جراب حقده ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة » .

بهذه العبارة وصف الجبرتى موقف محمد على باشا إزاء السيد عمر مكرم وصفاً دقيقاً ، فمحمد على كان يخشى نفوذ السيد عمر ويتوجس من إثارته الجمهور عليه واقتلاعه من مركزه ، كما اقتلع خورشد باشا من قبل ، ولذلك أخذ يقرب إليه بعض أصحاب المظاهر وطلاب المنافع ويعدهم ويمنيهم ليفصلهم عن السيد عمر .

ورواية الجبرتى فى مجموعها تتفق ورواية المسيو مانجان (صديق محمد على باشا) فى كتابه ، فقد ذكر أن السيد عمر مكرم لما حضر إليه سكرتير الباشا وعبد الله بكتاش (ترجمانه) يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٠٩ ، وكان العلماء مجتمعين عنده ، طلبا إليه أن يذهب لمقابلة الباشا ، فرفض الذهاب ، وأقسم ألا يرى محمد على باشا إلا إذا عدل عن مشروعه فى فرض الضرائب الجديدة ، وانتقد سياسته انتقادًا شديداً قائلا : « وإذا أصر الباشا على مظالمه فإننا نكتب إلى الباب العالى ، ونثير عليه الشعب ، وأنزله عن كرسيه كما أجلسته عليه » .

فعمر مكرم كان معتمدًا على منزلته عند الشعب ، وعلى سابقة يده على محمد على ، أما منزلته الشعبية فكانت تزداد قوة على مدى الأيام ، لما تبينه الناس من بقائه على عهده ، واستمساكه بالمهمة التى أخذها على عاتقه ، وهى أن يكون ترجمان الشعب الصادق ورسوله الأمين فى مراقبة ولاذة الأمور ، ورفع المظالم عن الجمهور ، فكانت مكانته تعظم كل يوم بما كان يسديه من الخير إليهم ، يدلك على عظم مكانته الاجتماعية أنه أقام فى ذلك الحين مهرجانا لختان حفيده فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (إبريل سنة ١٨٠٩) ، فكان من أعظم ما رأته القاهرة روعة وجمالا ، احتشدت فيه الجموع من كافة الطبقات ، واكتريت الأماكن لمشاهدته ، قال الجبرتى فى وصفه :

« واستهل شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٤ ، وفيه شرع السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى عمل مهمّ لختان ابن ابنته ، ودعا الباشا والأعيان ، وأرسلوا إليه الهدايا والتعابى ، وعمل له زفة يوم الاثنين سادس عشر ، مشى فيها أرباب الحرف والعربات والملاعيب وجمعيات

وعصب صعايدة وخلافهم من أهالى بولاق والكفور والحسينية وغيرها من جميع الأصناف وطبول وزمور وجموع كثيرة ، فكان يوما مشهودا اكتريت فيه الأماكن للفرجة ، وكان هذا الفرح هو آخر طنطنة السيد عمر بمصر ، فإنه حصل له عقب ذلك ماسيتلى عليك قريبا من النفى والخروج من مصر » .

تدبير المؤامرة

علمت مما تقدم أن الشيخين المهدى والدواخلى كانا قوام الوقيعة بالسيد عمر مكرم وأنهما أخفقا فى إقناعه بالعدول عن موقف الصلابة والتشدد الذى وقفه إزاء محمد على باشا .

ويقول الجبرتى أن المهدى والدواخلى أعادا الكرة لإقناع السيد عمر بالعدول عن مقاطعة الباشا ، فذهبا إليه ثانيا صحبة سكرتيره وعبد الله بكتاش ترجمانه ، وطال بينهم الكلام والمعالجة ، ولكن السيد عمر أصر على الامتناع عن مقابلة الباشا ، ثم طلبا إلى الشيخ محمد الأمير أن يذهب معهما لمقابلته ، فاعتذر بوعكه ، والظاهر أنه أبى أن يشترك معهما فى المؤامرة على السيد عمر ، فرفض الذهاب معهما .

وعندئذ أظهر المهدى والدواخلى مكنون نياتهما ، فذهبا وحدهما إلى محمد على باشا بالقلعة ، واجتمعا به وهوّنا له من أمر السيد عمر لكى يطمئن على مركزه إذا أراد أن يبطش به ، قال الجبرتى ما خلاصته ، ان الباشا قال فى كلامه لهما : أنا لا أرد شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم إذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى ، ثم أخذ يلوم السيد عمر على تخلفه وتعنته ، ويثنى على الباقين (أى الذين انفصلوا عنه) ، وقال عنه أنه فى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ، ويخوفنى بقيام الجمهور ، فقال الشيخ المهدى (وهنا بيت القصيد) : هو ليس إلا بنا ، وإذا خلا عنا فلا يسوى بشىء ، إن هو إلا صاحب حرفة ، أو جابى وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين ، قال الجبرتى ، « فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم (أى البطش بالسيد عمر) ووافق ذلك ما فى نفوسهم من الحقد للسيد عمر ، ثم تباحثوا معه حصة ، وقاموا منصرفين مذبذبين ، ومظهرين خلاف كامن فى نفوسهم من الحقد وحظوظ النفس ، غير مفكرين فى العواقب » .

انتهى إذاً هذا الاجتماع بالاتفاق بين محمد على والمهدى والدواخلى على الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وكان الدواخلى حاضر الاجتماع أصالة عن نفسه ونيابة عن الشيخ عبد الله الشرقاوى ،

أى ان الشرقاوى كان شريكا فى المؤامرة ، ولكنه لم يشأ أن يظهر فيها بشخصه تفاديا من اللوم وسوء الظن به ، وترك المهدى والدواخلى أن يحكما فصولها ، ولم يكن المهدى والدواخلى والشرقاوى فى موقفهم عاملين على هدم السيد عمر فحسب ، بل كانوا فى الواقع يهدمون أنفسهم وزملاءهم ، وكل عضو فى تلك الزعامة الشعبية التى قامت بدور خطير فى تاريخ مصر القومى ، وقد فاتهم وهم تحت تأثير الحقد والحسد « وحظوظ النفس » أن يقدروا عواقب عملهم ، فصدق فيهم قول الجبرتى إنهم كانوا « غير مفكرين فى العواقب » .

ذهب المهدى والدواخلى ثانية إلى السيد عمر ليقضيا إليه بما شاءا من حديث الباشا ، وكان غرضهما تبرير موقف محمد على ، وأراد أن يدخلا الرهبة فى نفس السيد عمر حتى يذعن أو يسجلا عليه التمرد والعصيان إذا أصر على موقفه ، قال الجبرتى : « وحضروا عند السيد عمر وهو ممتلىء بالغيظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد ، فأخبروه أن الباشا لم يحصل منه خلاف ، وأنه قال أنا لا أرد شفاعتكم ولكن نفسى لا تقبل التحكم ، والواجب عليكم إذا رأيتمونى فعلت شيئاً مخالفا أن تنصحونى وتتشفعوا ، فأنا لا أردكم ولا أمتنع عن قبول نصحكم ، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم ، وكأنكم تخوفوننى بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون فى زمان المماليك ، فأنا لا أفزع من ذلك . وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندى إلا السيف والانتقام ، فقلنا له : هذا لا يكون ، ونحن لا نحب ثوران الفتن ، وإنما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى ، وندعو الله برفع الكرب ، ثم قال (أى محمد على) أريد أن تخبرونى عمن انتبذ لهذا الأمر ، ومن ابتدأ بالخلف ، فغالطناه ، وأنه وعدنا بإبطال الدمغة ، وتخفيف الفايض إلى الربع بعد النصف ، وأنكر طلب ضريبة المال الميرى عن أطيان الأوسية والرزق من إقليم البحيرة » .

هذا ما ذكره الجبرتى ، ومنه يتبين أن المهدى والدواخلى أرادا الإفضاء إلى السيد عمر بأن محمد على باشا يعتبر عمل الشيوخ حركة ثورية يتوعد بقمعها بالسيف والانتقام ، وأنه سأل عن المدبر لها ، فغالطاه فى الجواب أى لم يتهما السيد عمر بزعامتها ، على أنهما لم يصدقا السيد عمر القول ، فإن حديثهما مع محمد على كان يدور حول تحريضه على السيد عمر والتهوين من أمره وتصغير شأنه حتى وصفاه بأنه (صاحب حرفة) أى نقيب الأشراف ، ولعمرى إن السيد عمر مكرم لم ينل ما نال من المكانة لتوليه نقابة الأشراف ، بل إن مكانته ترجع إلى شخصيته البارزة ونفسه العالية ، وشجاعته ونزاهته ، وترفعه عن الدنايا وسفاسف الأمور ، ولو لم يكن نقيبًا

للأشراف لما نقصت مكانته عما صارت إليه من العظمة ورفعة الشأن .

انتهت المقابلة على غير جدوى ، وانفض ذلك المجلس ، والمؤامرة ماضية فى سبيلها ، أو كما قال الجبرتى : « قاموا منصرفين ، وانفتح بينهم باب النفاق ، واستمر القال والقيل ، وكلٌّ حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما فى ضميره » .

واستأنف محمد على باشا السعى ليكسب السيد عمر ويستميله إليه بالحسنى ، وكان الشيوخ وسطاءه فى هذا السعى ، ففى أول جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ اجتمع الشيوخ عند السيد عمر فى داره ، وأعادوا الكرة لإقناعه بمقابلة الباشا « فحلف السيد عمر أنه لا يطلع إليه ، ولا يجتمع به ، ولا يرى له وجها إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات ، وقال إن جميع الناس يتهموننى معه ويزعمون أنه لا يتجارى على شىء يفعله إلا باتفاق معه ، ويكفى ما مضى ، ومهما تقادم يتزايد فى الظلم والجور » .

وعبثاً حاول الشيوخ إقناعه ، فأصر وأبى ، فاستقر رأيهم أن يذهبوا دون السيد عمر لمقابلة الباشا ، وأرسلوا فى طلب الشيخ محمد الأمير لهذا الغرض ، فاعتذر بوعكه ، ومعنى ذلك أنه رفض الذهاب معهم ، وأنه كان واقفا على ما دبره زملاؤه للسيد عمر فأبى أن يشترك فى أدوار هذه المأساة ، فاتفقوا على ذهاب الشرقاوى والمهدى والدواخلى والفيومى « وذلك على خلاف غرض السيد عمر ، وقد ظن أنهم يمتنعون لامتناعه للعهد السابق والأيمان » ، ولكن لم يمنعهم العهد ولم تمنعهم الايمان عن مقابلة الباشا ، فذهبوا إليه وتكلموا معه « وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية » ، ثم ذاكروه فى أمر الاتاوات التى فرضها ، وكانت موضع شكايات الناس وسخطهم ، فأخبرهم أنه يرفع ضريبة الدمغة ، وكذلك يرفع الضريبة عن الأطيان الأوسية والرزق (الأطيان الموقوفة) ويكتفى بأخذ ربع فايض إيراد الملتزمين بدلا من النصف ، وانصرفوا من عنده وذهبوا إلى السيد عمر ليعرضوا عليه ما قرره الباشا ، لعله يرضى بذلك ، فقال لهم وهل أعجبكم ذلك ، فلم يجيبوا جوابًا صريحًا ، فقال إنه أرسل يخبرنى بتقرير ربع المال الفايض فلم أرض وأبيت إلا أن يرفعه كله لأنه فى العام الماضى لما طلب تقرير الربع قلت له هذه تصير سنة متبعة ، فحلف أنها لا تكون بعد هذا العام ، وإنما طلبها لضرورة النفقة على العسكر ، وإن طلبها فى المستقبل يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله ، وعاهدنى على ذلك ، وهذا فى علمكم ، كما لا يخفى عليكم ، قالوا نعم ، قال وأما قوله إنه رفع طلب المال عن الأوسية والرزق فلا أصل لذلك ، وها هى أوراق البحيرة وجهوا بها الطلب ، فقالوا اننا ذكرنا

له ذلك فأنكر ، وحاجبناه بأوراق الطلب ، فقال ان السبب فى طلب ذلك من إقليم البحيرة خاصة ان المساحين لما نزلوا للكشف على أراضى الرى والشراقى ليقرروا عليها فرضة (ضريبة) الأطيان حصل منهم الغش والتدليس فإذا كان فى أرض البلدة خمسمائة فدان رى جعلوها مائة وسموا الباقى رزقا وأوسية لإعفائها من المال فقررت ذلك عقوبة لهم فى نظير تدليسهم وخيانتهم ، فقال السيد عمر : وهل ذلك أمر واجب فعله ، أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه فى العام الماضى وهى فرضة الأطيان التى ادعى لزومها لإتمام نفقات العسكر ، وحلف أن لا يعود لمثلها ، وقد عاد وزاد . وأنتم توافقونه وتسايرونه ، ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة ، وأنا وحدى مخالفًا وشاذًا ؛ ولامهم السيد عمر على نقضهم العهد والايمان ، وانفض المجلس (وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق ، وتحركت حفائظ الحقد والحسد ، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار ، والباشا يراسل السيد عمر ويطلبه للحضور إليه والاجتماع به ويعده بإنجاز ما يشير عليه ، وأرسل إليه كتخداه (وكيله) ليترفق به ، وذكر له أن الباشا يرتب له كيسا (خمسمائة قرش) فى كل يوم ويعطيه فورا ثلثمائة كيس خلاف ذلك ، فلم يقبل » .

فمحمد على لما أخفق فى استمالة السيد عمر بالوسطاء أراد أن يكسبه بالمال ، ولعله ظن أن شأنه شأن صالح قبطان باشا وسائر موظفى حكومة الاستانة « عبيد الدرهم والدينار » كما قال فيهم ، ولكن السيد عمر مكرم كان على أخلاق كريمة ، أخصها النزاهة والعفة ، فلم يؤثر فيه وعد أو وعيد ، ولا ترغيب أو ترهيب .

اشتداد الأزمة

وفى غضون ذلك أخذ رسل السوء يزيدون هوة الخلف اتساعاً بين محمد على والسيد عمر مكرم ، وينقلون إلى الباشا ما يقوله السيد عمر فى مجالسه ، ويزيدون عليه ما سولت لهم أغراضهم ، والسيد مصرٌ ممتنع عن مقابلته ، وأحيط بيته بالجواسيس لمراقبة حركاته وسكناته ، وإحصاء زواره ، وحدث فى خلال ذلك أن حرر محمد على باشا بيانا برسم الحكومة التركية ، يذكر فيه ما أنفقه فى مصر من الخراج ، وقدره نحو أربعة آلاف كيس [٢] وأنها صرفت فى مهمات تختص بشئون البلاد ، فمنها ما صرف فى سد ترعة الفرعونية ، وما صرف على الحملات

---

(٢) كانت الحكومة التركية تطالب بهذا المبلغ كباقى المخصص لها .

العسكرية لمحاربة المماليك ، وما أنفقه على عمارة القلعة وترميم المجراة وحفر الترع ، وأوضح فى بيانه ان الميرى قد نقص بسبب الشراق ؛ وأرسل البيان إلى السيد عمر مكرم لإقراره والتوقيع عليه ، فامتنع وأظهر الشك فى محتوياته ، وقال للرسول الذى حمله إليه : أما ما صرفه على سد ترعة الفرعونية فإن الذى جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافا كثيرة ، « وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له ، وان وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر » ، وكان جوابًا جافًا شديد اللهجة ، فلما عاد الرسول إلى محمد على اشتد حنقه عليه ، وطلبه من جديد لمقابلته ، فأصر على الامتناع ، فلما كثر التراسل بينهما فى هذا الشأن قال السيد عمر : « ان كان ولابد فاجتمع به فى بيت السادات ، وأما طلوعى إليه فلا يكون » ، فلما بلغ هذا الجواب مسامع محمد على باشا ازداد حنقه ؛ وكبر عليه أن يشترط السيد عمر مكرم أن تكون المقابلة بينهما فى دار غير مقر حكمه ؛ وقال : « هل بلغ له أن يزدرينى ويأمرنى بالنزول من محل حكمى إلى بيوت الناس » ، وصمم على البطش به .

ومع بلوغ الأزمة إلى هذا الحد فإن محمد على باشا كان يحسب حسابا كبيراً لمكانة السيد عمر فى الجمهور ، فلم يفكر فى أن يكون العقاب من نوع ما كان مألوفا فى ذلك العصر من القتل أو السجن ، بل اعتزم أن يعزله من نقابة الأشراف وينفيه إلى دمياط ليبعده عن القاهرة حيث له من من النفوذ ما يجعل أهلها رهن إشارة تصدر منه ، ورأى بثاقب نظره أن يكون عقابة متفقًا (ظاهرا) مع الأوضاع الشرعية المألوفةوقتئذ ، بأن يدعوه إلى الاحتكام فيما شجر بينهما من الخلاف إلى القاضى والشيوخ ، وكان مطمئنًا من قبل إلى حكمهم ، واثقًا من تحيزهم ، وبهذه الوسيلة يضع السيد عمر فى مركز حرج ، فإذا هو أجاب الدعوة وقبل حكم القاضى والشيوخ خرج من التقاضى مغلوبًا ، وحينئذ يكون لمحمد على باشا ان ينفيه جزاء خروجه بدون حق على ولى الأمر ، وإن لم يحضر كان امتناعه فى ذاته خروجا أيضا على السلطة الشرعية ، فالمؤامرة كانت إذن محكمة التدبير ، ولولا نقض الشيوخ للعهود والمواثيق لما استطاع محمد على باشا أن ينال من خصمه منالا .

نفى عمر مكرم إلى دمياط

فلما أصبح يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ (٩ أغسطس سنة ١٨٠٩) نزل محمد على باشا من القلعة وذهب إلى بيت ابنه إبراهيم باشا (وكان وقتئذ بك) بالأزبكية ،

وطلب القاضى والمشايخ ، وأرسل إلى السيد عمر رسولا من طرفه ورسولا من طرف القاضى يستدعيانه للحضور ليحتكم وإياه لديهم ، فأدرك السيد عمر أن المؤامرة قد وصلت إلى دورها الأخير ، ورأى من العبث أن يذهب إلى محكمة يعلم من رأى أعضائها وتواطئهم مع خصمه ما يجعل الاحتكام إليهم عبثا لا يجدى ، فآثر الامتناع عن إجابة الدعوة ، واعتذر بمرضه ، فلم يكن من محمد على باشا إلا أن أمر فى حضرة القاضى والشيوخ بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ، ونفيه من مصر ، وأن ينفذ الأمر فورا ، وخلع على السيد محمد السادات خلعة نقابة الأشراف .

وقد رأى الشيوخ أن يُراءوا بالعطف على السيد عمر ، فتشفعوا عند الباشا أن يمهله ثلاثة أيام ، حتى يستعد للرحيل ، فأجابهم إلى ذلك ، ثم سألوه أن يأذن له بالذهاب إلى أسيوط (مسقط رأسه) لتكون منفى له ، فرفض محمد على إجابة هذا الطلب ، وخيره بين النفى إلى دمياط أو الإسكندرية ، وانفض المجلس على ذلك .

أما السيد عمر فقد قابل هذه المحنة بالثبات ورباطة الجأش ، وقال فى هذا الصدد : « أما منصب النقابة فإنى راغب عنه زاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب ، وأما النفى فهو غاية مطلوبى ، ثم طلب أن يكون النفى إلى جهة ليست تحت حكم محمد على باشا إذا لم يأذن له بالذهاب إلى أسيوط ، واختار الطور أو درنه (بطرابلس الغرب) ، فعرض هذا الطلب على الباشا ، فرفضه ، وأصر على نفيه إلى دمياط ، فأخذ السيد عمر يستعد للسفر ، ووكل عنه السيد المحروق كبير تجار القاهرة وعهد إليه إدارة أملاكه ورعاية أهل بيته .

رحيل السيد عمر مكرم إلى منفاه

كان رحيل السيد عمر إلى دمياط مشهدًا مؤثراً ، فإن الجمهور قد أدرك عظم النكبة وشعر الناس بوحشة كبيرة لنفى الرجل الذى كان ملاذهم وملجأهم فى رفع المظالم ، فاجتمعوا لوداعه ولإظهار عواطفهم نحوه ، وكانت سيما الحزن والكآبة بادية على جمهور المودعين .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « واستهل شهر رجب سنة ١٢٢٤ بيوم الأحد وفيه اجتمع المودعون للسيد عمر ، ثم حضر محمد كتخداى الألفى (الذى عهد إليه اصطحابه إلى منفاه) فعند وصوله قام السيد عمر وركب فى الحال وخرج صحبته ، وشيعه الكثيرون من المتعممين وغيرهم ، وهم يتباكون حوله ، حزنًا على فراقه ، واغتم الناس لسفره وخروجه من مصر ،

لأنه كان ركنًا وملجأً ومقصداً للناس لتعصبه لنصرة الحق ، فسار إلى بولاق ، ونزل فى المركب ، فسافر من ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج إليهم إلى دمياط » .

موقف الشيوخ بعد نفى زعيمهم

لم يتورَّع الشيخ محمد المهدى عن إظهار مكنونات ضميره فى الدور الأخير من أدوار المأساة ، ففى صبيحة الليلة التى ارتحل فيها السيد عمر إلى منفاه ذهب إلى محمد على باشا يلتمس منه المكافأ على تدبير المؤامرة ، فطلب وظائف السيد عمر فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الإمام الشافعى ونظر وقف سنان باشا ببولاق ، وطلب كذلك ، ما كان منكسراً له من راتبه من الغلال نقدا أو عينا مدة أربع سنوات ، فأمر محمد على بدفعها إليه نقدا من خزانة الحكومة وقدرها خمسة وعشرون كيسا « وذلك كما يقول الجبرتى – فى نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر » .

ولم يكتف الشيوخ بالتواطؤ مع محمد على باشا على الوقيعة بالسيد عمر ، بل أخذوا بعد نفيه يعملون على النيل من سمعته ، ولعلهم رأوا مظاهر حزن الناس على فراقه ، وعطفهم عليه ، فأرادوا أن يحاربوه بسلاح الافتراء والتشهير ، ليسوِّغوا فعلتهم ، فكتبوا عرضًا لإرساله إلى الاستانة يبررون فيه عزل السيد عمر من نقابة الأشراف ونفيه ، نسبوا إليه فيه ، أنه أدخل فى دفتر الأشراف أسماء أشخاص ممن أسلموا من الأقباط واليهود ، وأنه قبض من محمد بك الألفى مبلغا من المال ليمكنه من حكم مصر فى أيام قيام الجمهور على أحمد خورشد باشا الوالى السابق ، وانه كان متواطئًا مع الأمراء المماليك حين شرعوا فى مهاجمة القاهرة يوم الاحتفال بوفاء النيل سنة ١٨٠٥[٣] ، وأنه أراد أخيراً إحداث فتنة بين الجمهور ليخلع الباشا ويولى خلافه .

وقد نمق الشيوخ هذا البيان ، وطافوا به على زملائهم ليوقعوا عليه ، فامتنع كثير منهم عن التوقيع ، وبرَّءوا السيد عمر مما رمى به وقالوا : « هذا كلام لا أصل له » ، وحصلت مشادة بين رؤساء الشيوخ المدبرين لهذا المنشور وبين الممتنعين عن التوقيع ، ثم غيَّروا صورة المنشور ، وخففوا لهجته ليحملوا زملاءهم على توقيعه فامتنع كذلك بعضهم ، وكان أشدهم إصرارًا على

(٣) انظر ص ٢٩ .

استنكاره والامتناع عن توقيعه السيد احمد الطحطاوى مفتى الحنفية ، وكان من العلماء الصالحين المتنزهين عن المطامع الدنيوية ، فسخط الشيوخ عليه وتهددوه بعزله من منصبه ، فلم يعبأ بهم ، فعزلوه ، وولوا بدله الشيخ حسين المنصورى ، وخلع عليه محمد على باشا خلعة الإفتاء ، فلم يكترث السيد الطحطاوى لهذا الأمر ، ولم يأبه له ، وأعاد إلى الشيخ السادات الخلعة التى خلعها عليه من قبل حينما تولى الافتاء ، فاستاء السادات من هذا العمل ، وعده إهانه كبرى له ، واستمر السيد الطحطاوى يقبّح عمل الشيوخ . واعتزلهم واعتكف فى داره « وهم يبالغون فى ذمه والحط منه لكونه لم يوافقهم على شهادة الزور ، كما يقول الجبرتى ، فكان عمل الطحطاوى حجة بالغة على نفاق الشيوخ وريائهم .

خلا الجو لحسّاد السيد عمر مكرم والمؤتمرين به ، ولكنهم فى الواقع قد جنوا على أنفسهم وعلى مكانتهم ونفوذهم ، فإن المؤامرة التى دبروها قد أسقطت منزلتهم فى نظر الجمهور وفى نظر محمد على باشا ، فالجمهور رأى فى عملهم معنى الغدر والخيانة ، ومحمد على رأى فيه الضعة وصغار النفس ، فلم يبق لهم عنده ذلك الشأن الذى كان لهم من قبل ، ولم يعد يعبأ برأيهم ، وسقطت تلك الزعامة الشعبية التى كانت لها المكانة العظمى والقول والفصل فى تطور الحوادث مدى عشر سنوات متعاقبة ، وزالت عنهم تلك الهيبة التى اكتسبوها بجهادهم وإخلاصهم وتضامنهم ، وأضاعوها بتحاسدهم وتخاذلهم ، ودالت دولتهم ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وحقت عليهم الآية الشريفة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وقد سجل عليهم الجبرتى رأيه فيهم بقوله : « إن الحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد ، مع أن السيد عمر كان ظلّا ظليلا عليهم وعلى أهل البلد ، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض » ، وقال فى موضع آخر : « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا فى الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية » .

عمر مكرم فى منفاه

أما السيد عمر مكرم فقد عاش فى دمياط تحت المراقبة « والحرس ملازمون له » إلى ان تشفع له قاضى قضاة مصر صديق افندى لدى محمد على باشا ، فأذن له بالانتقال إلى طنطا ، وذلك فى ربيع الأول سنة ١٢٢٧ ، فكأنه قضى بدمياط نحو أربع سنوات ، وبقى بطنطا إلى

ربيع الأول سنة ١٢٣٤ (ديسمبر سنة ١٨١٨) إذ طلب الإذن له أن يؤدى فريضة الحج ، وكان محمد على قد بلغ قمة المجد والسلطة ، وقهر الوهابيين ، وذاع صيته فى الخافقين ، فتذكر المنفى العظيم الذى كان له الفضل أكبر الفضل فى إجلاسه على عرش مصر ، فتلطف بقبول طلبه ، وأذن له بالذهاب إلى القاهرة وأن يقيم بداره إلى أوان الحج ، وذكر صديقه القديم بالخير ، وقال لجلسائه : « أنا لم أتركه فى الغربة هذه المدة إلا خوفا من الفتنة ، والآن لم يبق شىء من ذلك ، فإنه أبى ، وبينى وبينه مالا أنساه من المحبة والمعروف ».

كتاب محمد على إلى السيد عمر مكرم

وقد بعث إليه بكتاب رقيق يبلغه إجابة طلبه ، والكتاب يحتوى أرق عبارات الاحترام والتبجيل ، ويدل على مبلغ ماله عنده من المكانة الرفيعة قال فيه :

« مظهر الشمائل سنيها ، حميد الشئون وسميها ، سلالة بيت المجد الأكرم ، والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه .

« أما بعد فقد ورد الكتاب اللطيف ، من الجناب الشريف ، تهنئة بما أنعم الله علينا ، وفرحا بمواهب تأييده لنا ، فكان ذلك مزيدا فى السرور ، ومستديما لحمد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، واعلانا بنيل مناكم ، جزيتم حسن الثناء ، مع كمال الوقار ونيل المنى ، هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن فى الحج إلى البيت الحرام ، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ، للرغبة فى ذلك ، والترجى لما هنالك ، وقد أذناكم فى هذا المرام ، تقربا لذى الجلال والإكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدَعوا الابتهال ، ولا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن فى الطاهرين ، والمأمول من الأصفياء المقبولين ، والواصل لكم جواب منا خطابا إلى كتخدائنا ، ولكم الإجلال والاحترام ، مع جزيل الثناء والسلام » .

عودة عمر مكرم إلى القاهرة ثم نفيه ثانيا

وبعث الباشا بالخطابين إلى السيد عمر صحبة حفيده السيد صالح ، وأرسل إلى كتخدائه يبلغه الأمر « وأشيع خبر مقدمه فكان الناس بين مصدق ومكذب » حتى وصل إلى بولاق يوم السبت ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ (٩ يناير ١٨١٩) ، فركب من هناك وتوجه لزيارة الإمام

الشافعى ، ثم ذهب إلى القلعة وقابل الكتخدا وكان محمد على باشا وقتئذ بالاسكندرية ، « وهنأه الشعراء بقصائدهم ، وأعطاهم الجوائز ، واستمر ازدحام الناس أياما ، ثم امتنع عن الجلوس فى المجلس العام نهارًا ، واعتكف بحجرته الخاصة ، فلا يجتمع عنده إلا بعض من يريدهم من الأفراد ، فانكف الكثير عن التردد عليه ، وذلك من حسن الرأى » .

يتبين من رواية الجبرتى أن منزلة السيد عمر مكرم فى قلوب الشعب بقيت كما كانت عند منفاه ، ولم ينس الناس ما أسداه لهم من الخير ، مع انقضاء عشر سنوات على نفيه ، ورجع عظيما كما كان قبل نفيه ، ولولا ذلك لما هنأه الشعراء بقصائدهم وازدحم الناس على داره ، وظاهرٌ أن عيون محمد على باشا كانت منبثة حول داره ترقب بحذر ازدحام الجماهير على بابه ، وتستمع تهانى الشعراء له ، وتشهد مظاهر تعلق الشعب بزعيمه القديم ، وكيف أن الزمن والمحنة والشيخوخة والنفى ، كل ذلك لم يؤثر فى منزلته فى القلوب ، ومن المحتمل أن هذه « المظاهرات » لم تكن لتروق لأصحاب السلطة وقتئذ ، ولا يبعد أن يكون قد بلغ السيد عمر أن مثل هذه « المظاهرات » مما يؤخذ عليه ، فآثر الاعتكاف فى داره حتى لا تكون فتنة ولا تكون وقيعة ، فكان ذلك « من حسن الرأى » كما يقول الجبرتى ، وأن كلمة « حسن الرأى » تؤكد أن الاعتكاف كان سياسيًا .

على أن محمد على لم يأمن على مركزه من نفوذ السيد عمر مكرم ، ولم يطمئن لبقائه طويلا فى القاهرة ، وبالرغم من شيخوخته ، واعتكافه فى بيته بمصر القديمة (بساحل أثر النبى) فإنه كان مصدر قلق لمحمد على ، وحدث أن قامت فى القاهرة سنة ١٨٢٢ فتنة هاج فيها السكان استياء من فرض ضريبة جديدة على منازل العاصمة بعد فرضها على منازل البنادر فى الأقاليم ، فأخذ الموظفون يطوفون بالمنازل لتقدير الضريبة عليها ، فوقعت مصادمات بين أهالى باب الشعرية وبعض الموظفين الموكول إليهم تقدير الضريبة أدت إلى إقفال الدكاكين وهياج الأهالى ، وذهبت جموعهم إلى دار الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وكان يسكن على مقربة من موطن الهياج ، وقد خرج من داره قاصداً الأزهر ، فالتفت به الجماهير رجالا ونساء يضجون ويصيحون ، وكادت تقع الفتنة لولا أن عاجلتها الحكومة بالحزم واتخاذ التدابير الكفيلة بحفظ الأمن ، ونفذت الحكومة الضريبة كما قررتها ، وقد ساورت الظنون محمد على باشا ، وارتاب فى ألا يكون للسيد عمر مكرم يد فى تلك الفتنة ، والواقع أنه كان بعيدًا عنها ،

فأرسل إليه رسولا فى داره[٤] أنهى إليه أن محمد على يأمره بمغادرة القاهرة والإقامة فى طنطا ، ومعنى ذلك أنه أمر بنفيه ثانيًا من مصر ، فأجاب السيد عمر باستعداده لمبارحة العاصمة بعد أن يعد مركبًا ينقله إلى طنطا ، فأخبره الرسول ان المركب معدًّا لهذا الغرض فى ساحل مصر القديمة ، فأدرك أن المراد أن يغادر المدينة فورا ، ويرحل إلى منفاه ؛ فتلقى هذه المحنة الجديدة بالصبر ، وبرح العاصمة مساء ذلك اليوم ، فكانت هذه هى المرة الرابعة التى يذهب فيها إلى المنفى ؛ فالأولى والثانية فى عهد الحملة الفرنسية ، والمرتان الثالثة والرابعة فى عصر محمد على

وهكذا كانت حياة ذلك المجاهد الكبير سلسلة من النفى والهجرة ، ومكافحة الخطوب والمحن ، ولم يُعرف فضله ، ولا كوفىء على جهاده بالشكر وحسن التقدير ، بل كان نصيبه النفى ، والحرمان ، والإقصاء من ميدان العمل ، ونكران الجميل ، وذلك كان جزاء أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية .

* * *

(٤) يوم ١٥ أبريل سنة ١٨٢٢ ، وقد كانت وفاته فى هذه السنة .

الفصل الرابع

انفراد محمد على بالحكم

يدل منطق الحوادث على أن نية محمد على فى الانفراد بالحكم قد بدأت تتملكه ، كما ألمعنا إلى ذلك ، بعد عودته من الإسكندرية عقب جلاء الإنجليز عن البلاد ، وذلك أن مركزه قد توطد إذ تغلب على دسائس الباب العالى أولا ، ثم هزم الحملة الانجليزية ثانيًا ، وبسط نفوذه وسلطانه على بلاد خارجة عن نطاق حكمه كالإسكندرية التى كان الباب العالى يعتبرها تحت مطلق سلطته ، فانتصار الجيش المصرى على الإنجليز ، واستخلاص البلاد من قبضة دولة قوية البطش عزيزة الجانب ، جعل محمد على يترع إلى الانفراد بحكومة البلاد ويستأثر بها بلا معارض ولا منازع ، وأخذ يعمل على ذلك تدريجًا ، مستعينًا بما أوتى من الدهاء وسعة الحيلة .

وإذا تأملت فى مجرى الحوادث عقب عودته إلى القاهرة تجد أنه قد أخذ فعلا من ذلك الحين يعمل على تحقيق هذا الغرض ، ذلك أنه اغتنم الفرصة فى ثورة الجنود الأرناءود ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة وإخلالهم بالنظام كعادتهم ، فاعتزم الانتقال من سرايه بالازبكية إلى قلعة المقطم ، واتخاذها مقراً له ، ومعنى انتقاله إلى القلعة عزمه على أن يحكم البلاد بالقوة ، لأنك إذا رجعت بذاكرتك إلى نحو أربع سنوات مضت قبل وقوع هذه الحوادث تجد أن خورشد باشا حينما انتقل من سرايه بالأزبكية إلى القلعة[1] كان معتزمًا أن يحكم البلاد بالقوة ، دون أن يعبأ برأى شيوخها وزعمائها ومطالب جماهيرها .

والواقع ان سكنى ولى الأمر فى الأزبكية أى فى قلب العاصمة يجعله أميل إلى الإصغاء لمطالب الشعب إذا هاجت خواطره ، لأن الأزبكية كانت الميدان الذى تحتشد فيه الجموع إذا حفزها حافز من شكوى أو احتجاج ، فإذا ما سكنها ولى الأمر كان أقرب إلى رؤية مظاهرات الشعب وأدنى للاستماع إلى صيحاته ومطالبه .

---

(١) انظر الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ، ص ٣٦١ (الطبعة الأولى) .

أما إذا استقر فى القلعة ، فكأنه يريد أن يمتنع فى قمة الجبل ، ويضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد ، ويصمَّ أذنيه عن سماع صيحات الجماهير ، وينظر إلى القاهرة كما ينظر النسر المحلِّق فى السماء إلى فريسته على الأرض .

ولا يذهبنَّ عنك أن القلعة تربض على ذروة المقطم كما يربض الأسد فى عرينه ، وهى بابراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتتسلط عليها ، فكأنما بناها صلاح الدين الأيوبى فى ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسلاطين معقلا يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها ، ويكفيك أن تصعد يوما إلى القلعة ، وتمد نظرك إلى ما يتناوله الأفق ، لتتضاءل القاهرة أمامك ، إذ تراها مبسوطة لعينيك بشوارعها ، وميادينها ، وقصورها ، ومبانيها ، وأشجارها ، وحدائقها ، كرقعة صغيرة تكاد تكون فى قبضة يدك وعلى بسطة ذراعك ، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامتة ، ولا تكاد إذ ترى أشباح الناس تتحرك فى شوارعها وطرقاتها أن تميز بين مسيرهم ودبيب النمل ، وهيهات أن تبلغ سمعك أصواتهم مهما علت أو اكتظت بهم الميادين فى مختلف نواحيها القريبة والبعيدة ، فالحاكم المستبد إذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره ، صامتةً لا يسمع لها صوتاً ، جامدةً لا يحس لها ركْزاً ، ويرى نفسه فى ذلك العلو الشاهق ، تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاغرة أفواهها على المدينة ، لا جرم أن تعتريه وساوس السلطة المطلقة ، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه .

فمحمد على باشا قد انتقل إلى القلعة واتخذها معقلا له حينما قامت فى المدينة فتنة الجند الارناءود ، ومن يومئذ وهو معتزم أن يستأثر بالحكم لا ينازعه فيه منازع ، فبعد أن أخمد فتنة الجند اتجهت عزيمته إلى التخلص من الزعامة الشعبية ، فتم له ما أراد كما رأيت فى الفصل السابق ، ثم صحت عزيمته على التخلص من خصومه المماليك ، فإنهم بالرغم من تقليم أظافرهم كانوا لا يفتأون يتحينون الفرص لمناوأته ومنازعته الحكم والسلطان .

موقف محمد على إزاء المماليك

كان عدد المماليك فى ذلك الحين يبلغ ٢٥٠٠ من المقاتلة كما قدرهم المسيو مانجان[٢] ، وقد استعان محمد على باشا على رؤسائهم منذ سنة ١٨٠٧ بالحيلة ، فابتدأ باستمالة شاهين بك الألفى خليفة محمد بك الألفى ، ومازال يعرض له المودة والصفاء حتى اجتذبه إلى القاهرة ووافقه على

(٢) فى كتابة (تاريخ مصر فى عهد محمد على) الجزء الأول .

أن يقيم بالجيزة ويكون له إيراد إقليم الفيوم وثلاثين قرية فى اقليم البهنسا ، وعشر قرى فى الجيزة ، وأطلق له التصرف فى ذلك كله التزاما وكشوفية [٣] وضم له كشوفية البحيرة بتمامها إلى الإسكندرية ، وكتب له الحجة بذلك .

فارتضى شاهين بك بهذا الصلح ، وطابت له نفسه ، وجاء القاهرة لزيارة محمد على باشا ، فأكرم مثواه ، ودعاه إلى مأدبة عند ابنه طوسون ، ثم سكن شاهين بك بالقصر الذى أعد له بالجيزة (شوال سنة ١٢٢٢ – ديسمبر سنة ١٨٠٧) ، وضرب صفحا عن عيشة الكفاح والقتال ، وحذا حذوه بعض الأمراء المماليك ، فبذلوا الطاعة لمحمد على باشا ، وأرسل فى أوائل سنة ١٨٠٨ (ذى القعدة سنة ١٢٢٢) إلى زملائه المماليك فى الصعيد يرغبهم فى الاذعان والولاء لمحمد على .

كان لدعوة شاهين بك أثرها فى كسر حدة المماليك ، فوقفت حركات القتال فى الصعيد . وهدأت الحالة هدوءا نسبيًا ، ويرجع سبب هذا الهدوء إلى ما أصاب المماليك من الضعف ، وإلى اليأس الذى تسرب إلى نفوس زعمائهم ، فإن إبراهيم بك الكبير قد أضعفته الشيخوخة ، فصار أقرب إلى الراحة والسكون بعد ما هدّت السنون من نشاطه وقوته ، وكذلك عثمان بك حسن ، وهذان هما كبيرا المماليك المعترف لهما بالزعامة بعد موت الألفى والبرديسى ، على أنهما مع ماتو لاهما من الضعف واليأس ظلا على عهدهما القديم من كراهية محمد على باشا وعدم الثقة فى مقاصده حيال المماليك ، أما شاهين بك المرادى (خليفة البرديسى) فلم يكن له نفوذ بجانب إبراهيم بك وعثمان بك حسن .

كان محمد على باشا يعلم نفسية ذينك الزعيمين ، ويعرف أن التجارب جعلتهما لا يطمئنان إليه ، ولا يثقان به ، فتخطاهما وصرف مساعيه إلى استمالة صغار البكوات والكشاف من اتباعهما ، فانتهز فرصة الهدوء النسبى الذى ساد صفوف المماليك وجعل يوفد رسله إليهم يدعوهم إلى الإخلاد للطاعة على أن يرتب لهم رواتب تقوم بأودهم فى القاهرة ، وانتهى بهذه الوسيلة إلى فصم عرى المماليك واجتذاب بعضهم إلى العاصمة .

ولما مات شاهين بك المرادى خليفة البرديسى (مايو سنة ١٨٠٨) أراد محمد على أن يظهر سطوته وأنه ولى الأمر ، فعين سليم بك المحرمجى رئيسًا للمماليك المرادية ، خلفا لشاهين بك ، وخلع فى الوقت نفسه على مرزوق بك ابن إبراهيم بك الكبير خلعة حاكم جرجا ، فوضع

(٣) اى يتولى حكم تلك البلاد ويستولى على ايراد أطيانها بعد أداء الميرى .

المماليك بهذا التعيين المزدوج أمام الأمر الواقع ، وجمع فى الوقت نفسه بين إعلان سلطته عليهم واجتذاب إبراهيم بك بتعيين ابنه حاكما لجرجا ، ولم يعهد المماليك أن يتحكم فيهم الولاة الأتراك السابقون ويتدخلوا فى شئونهم إلى هذا الحد الذى وصل إليه محمد على ، فإنهم كانوا محتفظين باستقلالهم فى اختيار زعمائهم وكان الصعيد تحت مطلق تصرفهم .

اجتمع رؤساء المماليك ، وتشاوروا فيما يكون موقفهم حيال هذا التدخل ، وبعد الأخذ والرد استقر رأيهم على قبول الأمر الواقع .

لكنهم لم يؤدوا ما على البلاد التى تحت سلطتهم من الأموال الأميرية ، نقداً أو غلة ، فتهددهم محمد على بتجريد حملة عليهم إذا لم يؤدوها ، فتوسط شاهين بك الألفى بين الفريقين ، واتفقوا على أن يؤدوا ثلث ما عليهم من غلال الحكومة ، وقدر ذلك سبعة آلاف ومائة ألف أردب (مارس سنة ١٨٠٩) ، ولكنهم لم يفوا بها ، فجرد عليهم ، فى سبتمبر سنة ١٨٠٩ ، جيشًا لإخضاعهم واستخلاص الصعيد من أيديهم .

على أن المماليك لم يفكروا فى مقاومته ، فانسحبوا إلى الجبال القريبة من جرجا وأسيوط . فرأى محمد على أن الفرصة سانحة ليتولى حكم الوجه القبلى ، فسار فى شهر أكتوبر من القاهرة فى جيش يبلغ ستة آلاف مقاتل ، فلم يكد يبلغ أسيوط حتى بادر المماليك إلى طلب الصلح ، فاشترط عليهم محمد على أن يرحلوا عن الوجه القبلى ، ويقيموا فى القاهرة ، على أن يعطيهم بعض الجهات يستغلونها ويدفعون أموالها والضرائب التى تفرض عليها . وهذه الشروط تدلك على مبلغ ما وصل إليه المماليك من الضعف ، فإن شروطهم السابقة كانت أن يتولوا حكم الصعيد على دفع الخراج ، أما الشروط الأخيرة فأساسها التخلى عن الحكم والإقامة فى القاهرة تحت حكم محمد على .

تم هذا الاتفاق فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٤ (نوفمبر سنة ١٨٠٩) بأسيوط ، وطلب المماليك مهلة ثلاثة يقضون فيها مصالحهم ، فقبل محمد على هذه المهلة ، وعاد إلى القاهرة ، ولما انقضت المدة طلبوا مدها أشهرا فرضى بذلك ، ولما انتهى الأجل أنذرهم إذا لم يحضروا أن يجرد عليهم الجيش ، فأذعنوا وأزمعوا الرحيل إلى العاصمة .

سار إبراهيم بك وزملاؤه إلى القاهرة (مايو سنة ١٨١٠) ، فلما كان قريبا من الجيزة عسكر بالبر الغربى ، ونصب خيامه على رمية المدفع من الجيزة ، وهناك ترددت الرسل بين إبراهيم بك ومحمد على باشا ، وكان الباشا مقيمًا وقتئذ بقصره بشبرا ، وتعددت مقابلات الرسل على غير

طائل : إذ أن إبراهيم بك كان قليل الثقة فى مقاصد محمد على باشا ، كما أن محمد على نفسه لم يكن يبغى من هذه المفاوضات إلا كسب الوقت لتقليم أظافر المماليك وإذلالهم ، واستاء إبراهيم بك من المعاملة التى عومل بها ، إذ لم تضرب لحضوره المدافع كما كان ينتظر ، وتركه محمد على باشا فى الجيزة دون أن يكترث له ، فاعتزم العودة إلى الصعيد ، ناكثا الصلح ، وبذلك تجدد الخصام بين محمد على باشا والمماليك .

وقد توصل إبراهيم بك إلى إقناع شاهين بك خليفة الألفى بنقض اتفاقه هو أيضا مع محمد على ، والرحيل عن القاهرة إلى حيث يتحدوا وإخوانه ، فاستجاب له وانسل من الجيزة ، وتبعه فى انسحابه البكوات والكشاف المماليك الذين لبثوا بمصر سنتين راضين بحكم محمد على ، وعاد الاتحاد إلى صفوف المماليك ، فاستاء محمد على من هذه الحركة ، وجرد جيشًا جديدًا لمحاربة خصومه .

تجدد القتال ، وزحف الجيش على الصعيد ، فانتصر على المماليك فى البهنسا واللاهون ، واستولى على إقليم الفيوم ، وانسحب إبراهيم بك وعثمان بك حسن وسليم بك زعماء المماليك إلى أسوان ، منهوكة قواهم منحلة عزائمهم ، ورجع شاهين بك الألفى يطلب العفو من محمد على باشا ، فعفا عنه وسمح له بالإقامة فى القاهرة وأقطعه داراً جميلة ليسكن فيها بالأزبكية (أكتوبر سنة ١٨١٠) ، ولعله أراد اجتذابه هذه المرة ليلقى حتفه فى مذبحة القلعة كما سيجىء بيانه ، وكذلك فعل كثير من البكوات والكشاف والمماليك ، فإنهم طلبوا من محمد على الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم وعفا عنهم ، وأذن لهم بالعودة إلى القاهرة والإقامة فيها .

أخضع محمد على الصعيد لحكمه ، ودانت له مصر قاصيها ودانيها ، ورجع المماليك الذين قدموا طاعتهم إلى القاهرة ، وأخذوا ينصرفون إلى أسباب الرفاهية والرغد ، وأغدق عليهم محمد على من خزانة الحكومة ما جعلهم يستطيبون الإقامة فى القاهرة ، ويؤثرونها على عيشة الكفاح والقتال ، وانصرفوا إلى ترتيب عيشتهم الجديدة ، وتجميل بيوتهم وتأثيثها بفاخر الرياش والأثاث ، وشرع معظمهم فى التزوج وإعداد الأفراح والمسرات ، وخيل إليهم أنهم استراحوا من شظف العيش ، وأهوال الكر والفر ، وأنهم مقبلون على حياة الهناء والرفاء والبنين ، ولم يدروا ما خبأ لهم القدر من خاتمة رهيبة .

ذلك أن محمد على باشا أوجس خيفة من بقاء المماليك فى القاهرة ، وخاصة لما اعتزم تجريد الحملة على الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لأوامر الإستانة ، وخشى إذا غادر الجيش مصر

وضعفت قوته الحربية أن يعودوا لمناوأته وانتزاع السلطة من يده ، فرأى أن لا وسيلة للاحتفاظ بسلطانه وانفرداه بالحكم سوى التخلص من البقية الباقية من المماليك ، ومن هنا نبتت فى رأسه فكرة اغتيالهم فى المؤامرة المعروفة بمذبحة القلعة .

مذبحة القلعة

(أول مارس سنة ١٨١١)

إذا ذهبتَ يوماً إلى قلعة صلاح الدين لتتعرف ما تشتمل عليه من المواقع والمبانى والآثار ، فقف قليلا تحت منارة جامع السلطان حسن ، واتجه بنظرك إلى القلعة ، تجدها ماثلة أمامك ، بموقعها المنيع ، وأسوارها العالية ، وأبراجها الشاهقة وأبوابها الضخمة ، وأول ما يلفت نظرك قباب جامع محمد على ومآذنه الهيفاء البديعة الصنع التى تداعب السحاب فى علوها ، فإذا رجَّعت الطرف فى هذا المنظر فدعه جانبا ، لأنه لم يكن موجودًا بتمامه فى العصر الذى نكتب عنه ، إذ لم يكن محمد على باشا قد بنى جامعه إلى هذه السنة (عام ١٨١١) ، وانظر أمامك ، تجد باباً ضخما غائرًا فى الجبل ، تعلوه أبراج قديمة ، هذا الباب هو المسمى (باب العزب) وهو باب القلعة من الجهة الغربية ، ويقع على الميدان المسمى الآن ميدان (صلاح الدين) ، وكان يسمى فى ذلك العهد ميدان الرميلة ، فإذا دخلت هذا الباب تجد طريقا وعرا متعرجا ، منحوتا فى الصخر ، تسير فيه صعدًا بالجهد والعناء إلى رحبة القلعة ، وتصل من هذه إلى جامع محمد على ، ثم إلى قصره .

فإذا تعرَّفت تلك المواقع ، وثبتت صورتها فى ذهنك ، فاسمع ما جرى فيها يوم أول مارس سنة ١٨١١ .

لما عاد محمد على باشا من الوجه القبلى أخذ يجهز جيشا ينفذه إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين ، تلبية لنداء الحكومة التركية ، وجعل يهيىء معدات الحملة فى أوائل سنة ١٨١١ ، وعقد لواء قيادتها لابنه أحمد طوسون باشا ، وأعد مهرجانا فخما بالقلعة ، حدد له يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ للاحتفال بإلباس ابنه خلعة القيادة ، ودعا رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم ، وكان الترتيب أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ، ثم ينزل من القلعة فى أبهته وموكبه مخترقا أهم شوارع المدينة ليصل إلى

معسكر الحملة فى القبة[٤] .

وكان مثل هذا الاحتفال من المواكب المشهودة التى تحتشد لها الجماهير ، وقد دعا الباشا جميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك وأتباعهم لحضور الحفلة ، فعد المماليك هذه الدعوة علامة الرضا من محمد على باشا ، وركبوا جميعًا فى زينتهم وكبكبتهم ، وارتدوا أجمل وأثمن ما عندهم من الملابس ، وامتطوا خير ما لديهم من الجياد ، وذهبوا صبيحة ذلك اليوم إلى القلعة قبل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا .

وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد على باشا فى قاعة الاستقبال الكبرى ، فتلقاهم بالبشر والحفاوة ، وقدمت لهم القهوة ، وشكرهم الباشا على اجابتهم دعوته ، وألمع إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه فى موكبه ، فأجابوه بالشكر ، واعتذروا عن تخلف بقية أخوانهم الذين مازالوا فى الصعيد ولم يحضروا للاشتراك فى الاحتفال ، فقابل الباشا الاعتذار بالتجاوز والإعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين ، وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهة ثم ما لبث أن أذن مؤذن الرحيل ، فقرعت الطبول وصدحت الموسيقى ، فكان ذلك إعلانا بالتأهب لتحرك الموكب .

وعندئذ نهض المماليك وقوفا ، وبادلوا الباشا وبادلهم عبارات التحية والاحترام وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم فى الموكب الفخم ، ولما تقلد الأمير طوسون باشا اللواء بدأ الركب يسير منحدراً من القلعة .

تحرك الركب ، تتقدمه طليعة من الفرسان الدلاة يقودها ضابط يدعى أوزون على ، يتبعها والى الشرطة ، والأغا (محافظ المدينة) والمحتسب ، ويليهم الوجاقلية ، ثم كوكبة من الجنود الارناءود يقودهم صالح أق قوش ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب ، ومن بعدهم بقية الجنود الارناءود فرسانًا ومشاةً ، وعلى أثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب .

سار الموكب على هذا النظام ، منحدراً إلى باب العزب المتقدم ذكره ، متسرباً فى ذلك الطريق الضيق الوعر الذى وصفناه آنفًا .

فاجتازت الباب طليعة الموكب ، ثم رئيس الشرطة ، ثم المحافظ ومن معه ، ثم الوجاقلية ، ولم يكد هؤلاء يجتازون باب العزب حتى ارتج الباب وأقفل من الخارج على حين

---

(٤) الضاحية المعروفة شمالى العاصمة ، وتسمى قبة العزب .

فجأة إقفالا محكما فى وجه المماليك ، ومن ورائهم الجنود الأرناءود ، فلما رأى هؤلاء الجنود الباب قد أقفل ، وكانوا عالمين بما تدل عليه هذه الإشارة ، تحولوا عن الطريق فى صمت وسكون ، وتسلقوا الصخور التى تكتنفه وتعلوه يمينًا وشمالا ، وأخذوا مكانهم على الصخور والأسوار والحيطان المشرفة عليه ، ولم يتنبه المماليك بادىء الأمر إلى أن الباب قد أقفل ،واستمروا يتقدمون متجهين إليه ، ولكن لم تكد تبلغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مقفلا فى وجوههم إقفالا محكما ، وأبصروا الارناءود يتسلقون الصخور المشرفة عليهم ، فتوقفوا قليلا عن المسير ، وتضامَّت صفوفهم المتلاحقة بعضها أثر بعض ، ولم تمض هنيهة حتى دوى طلق الرصاص من نوافذ إحدى الثكنات ، فكان هذا نذيرًا بإنفاذ المؤامرة ، ذلك أنه لم تكد تلك الطلقات تدوى فى الفضاء حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الأرض ، فالباب الضخم مقفل فى وجوههم ، والجنود الارناءود من ورائهم ، ومن فوقهم ، وعن يمينهم ، وشمالهم ، يتناولونهم برصاص بنادقهم .

لم يستطع المماليك دفاعا عن أنفسهم ، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة ، أو الرجوع القهقرى ، أو النزول عن جيادهم ، لضيق المكان الذى حصروا فيه ، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم ، وهيهات أن تعمل السيوف فى ذلك الموقف شيئا ، فانصب عليهم الرصاص ، وحصدهم حصدًا ، وجاءهم الموت من كل مكان .

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تختبط بدمائها ، أمكن للباقين أن يترجلوا عن جيادهم ، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التى كانوا مكدسين فيها ، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوى والملابس الثمينة والثياب الفضفاضة ليسهل عليهم الفرار ، ولكن الرصاص كان يتلقفهم أينما صعدوا ، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم فى جوف الطريق ، ومن هؤلاء شاهين بك الألفى الذى تمكن فى عدة من مماليكه أن يتسلق الحائط وصعد إلى رحبة القلعة وانتهى إلى عتبة قصر صلاح الدين ، فعالجه الجنود الأرناءود برصاصة أردته صريعًا ، واستطاع سليمان بك البواب أن يجتاز الطريق وجسمه يقطر دما ، ووصل إلى سراى الحرم ، واستغاث بالنساء صائحًا (فى عرض الحرم) ، وكانت هذه الكلمة تكفى فى ذلك العهد لتجعل من يقولها فى مأمن من الهلاك ، ولكن الجنود عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه ، وطرحت جثته بعيدًا عن باب السراى ، وتمكن بعض

المماليك من الوصول إلى حيث كان طوسون باشا راكبًا جواده منتظرًا أن تنتهى تلك المأساة . فتراموا على أقدامه طالبين الأمان ، ولكنه وقف جامداً لا يبدى حراكا ، وعاجلهم الجنود بالقتل ، وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض فى ذلك المضيق وعلى جوانبه حتى بلغ ارتفاع الجثث فى بعض الأمكنة إلى أمتار ، واستمر القتل إلى أن أفنى كل من دخلوا القلعة من المماليك ، ومن لم يدركه الرصاص ممن وقع تحت جثث الآخرين أوفرّ فى نواحى القلعة أو تخلف عن الموكب ، ساقه الأرناءود حيا إلى الكتخدا بك فأجهزوا عليه ضربًا بالسيوف ، واستمر القتل من ضحوة النهار إلى هزيع من الليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث .

وهكذا دخل القلعة فى صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم ، قتلوا جميعا ، ولم ينج منهم إلا واحد يسمى (أمين بك) ، فإنه كان فى مؤخرة الصفوف ، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة فصعد بجواده إلى المكان المشرف على الطريق وبلغ سور القلعة ، ورأى الموت محيطا به ، فلم يجد منجى إلا أن يرمى بنفسه من أعلى السور إلى خارج القلعة ، وكان الخطر المحقق فى تلك المحاولة ، إذ يعلو السور عن الأرض ستين قدمًا ، ولكنه خاطر بنفسه مؤثراً الموت على القتل ، فلكز جواده ، فقفز به متردياً ، ولما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجلا ، وترك الجواد يتلقى الصدمة ، فتهشم الجواد لفوره ، ونجا أمين بك من الموت ، ومضى يعدو فى طريق الصحراء ، ومازال يطوى الفدافد متنكراً حتى بلغ إلى جنوب سورية[*] .

أحكم محمد على باشا تدبير المؤامرة ، فلم يقف على سرها إلا أربعة من خاصة رجاله ، وهم حسن باشا قائد الجنود الأرناءود ، والكتخدا بك محمد لاظ أوغلى ، وصالح قوش أحد ضباط الجند ، وإبراهيم أغا حارس الباب ، وصالح قوش كما مر بك كان يقود كوكبة الجنود الأرناءود فى الموكب ، وهو الذى أمر بإقفال باب العزب وأعطى إشارة القتل إلى رجاله .

وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان محمد على باشا جالسا فى قاعة الاستقبال ، ومعه امناؤه الثلاثة ، وقد ظل فى مكانه هادئًا إلى أن بدأ الموكب يتحرك ، واقتربت اللحظة الرهيبة ، فساوره القلق والاضطراب ، وساد القاعة صمت عميق ، إلى أن

---

(٥) ذكر المسيو فولابل فى كتابه (مصر الحديثة) أن هذا المملوك بقى على قيد الحياة حتى ظهور كتابه سنة ١٨٣٢ وأنه لجأ إلى الاستانة حيث دخل فى خدمة السلطان .

سمع إطلاق أول رصاصة ، وكانت إيذانًا ببدء المذبحة ، فوقف محمد على وامتقع لونه ، وعلا وجهه الاصفرار ، وتنازعته الانفعالات المختلفة ، وأخذ يسمع دوى الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة وهو صامت لا ينبس بكلمة ، إلى أن حصد الموت معظم المماليك ، وأخذ صوت الرصاص يتضاءل ، وكان ذلك إعلانًا بانتهاء المؤامرة ، وعندئذ دخل عليه المسيو ماندريشى طبيبه الايطالى وقال له : « لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم » ، فلم يجب محمد على بشىء ، وطلب قدحا من الماء فشربه جرعة طويلة ، وخرج الكتخدا بك وأخذ يجهز على الباقين من المماليك .

لم يكن أحد من سكان القاهرة يتنبأ قبل أن تقع المذبحة بما خبأه القدر بين أسوار القلعة ، فكانت الجماهير يعلوها الابتهاج محتشدة فى الشوارع المعدة لسير الموكب تنتظر مروره ، ولقد مرت طليعة الموكب بين جموع المتفرجين ، وأخذ الناس يترقبون بلهف مرور الصفوف التى تليها ، ثم انقطع تلاحق الصفوف ، فعجب الناس وطفقوا يتساءلون عن السبب ، وذهبت أفكارهم فى تفسير ذلك مذاهب شتى ، وفيما هم ينتظرون قدوم الصفوف المتأخرة سمع المحتشدون فى ميدان الرميلة الذى بأسفل القلعة صوت الرصاص يدوى فى الفضاء بعد أن أقفل باب العزب ، فسرى الذعر إلى الناس إذ وصل خبر المذبحة إلى الجماهير القريبة من القلعة وصاح صائح : « قتل شاهين بك » ، وسرعان ما ذاع الخبر بسرعة البرق إلى مختلف الأنحاء ، فتفرقت الجماهير وأقفلت الدكاكين والأسواق ، وهرع الناس إلى منازلهم ، وخلت الشوارع والطرقات من المارة ، وأعقب هذا الذعر نزول جماعات من جنود الأرناءود إلى المدينة يقصدون بيوت المماليك فى أنحاء القاهرة ، فاقتحموها وأخذوا يفتكون بكل من يلقونه فيها من أتباعهم ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويغتصبون من النساء ما يحملن من الجواهر والحلى والنقود ، واقترفوا فى ذلك اليوم واليوم الذى تلاه من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ، ولم يكتفوا بالفتك بمن يلقونه من المماليك ونهب بيوتهم واغتصاب نسائهم ، بل تجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة ، وبلغ عدد المنازل التى نهبوها خمسمائة منزل ، وأصبح اليوم التالى (السبت) والسلب والنهب والقتل مستمر فى المدينة ، واضطر محمد على باشا إلى النزول من القلعة فى ضحوة ذلك اليوم وحوله رؤساء جنده وحاشيته لوضع حد للنهب والاعتداء ، فمر بالأحياء المهمة التى كانت هدفا لعدوان الأرناءود ، وأمر بقطع رءوس من استمروا فى النهب والاعتداء ، وكذلك فعل طوسون باشا .

قال الجبرتى : « ولولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية المدينة وحصل منهم غاية الضرر » .

ونبه على الأرناءود بأن يقتصروا على القبض على المماليك الذين بقوا أحياء لتخلفهم عن الذهاب إلى القلعة فى اليوم المشهود ، وإرسالهم إلى القلعة ، فكان الكتخدا بك يأمر بقطع رءوسهم ، ولم ينج منهم إلا من هرب من المدينة مختفيًا وهاجر إلى الوجه القبلى ، وكذلك صدر محمد على أمره إلى كشاف المديريات باعتقال كل من يلقونه من المماليك وقتلهم .

بلغ عدد من قتلوا من المماليك فى القلعة وفى أنحاء القاهرة والمديريات فى تلك الأيام الرهيبة نحو ١٠٠٠ من أمراء وكشاف وأجناد ومماليك .

وقد ذكر الجبرتى أسماء من لهم شهرة ممن قتلوا بالقلعة وبلغه خبرهم ، وهم شاهين بك كبير المماليك الألفية ، ويحيى بك ، ونعمان بك ، وحسين بك الصغير ، ومصطفى بك الصغير ، ومراد بك ، وعلى بك ، وهؤلاء من الأمراء الألفية ، ومن غيرهم أحمد بك الكيلارجى ، ويوسف بك أبو دياب ، وحسن بك صالح ، ومرزوق ابن ابراهيم بك الكبير ، وسليمان بك البواب ، وتابعه أحمد بك ، ورشوان بك ، وابراهيم بك ، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير ، وسليم بك الدمرجى ، ورستم بك الشرقاوى ، ومصطفى بك أيوب ، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن ، وعثمان بك إبراهيم ، وذو الفقار تابع جوهر ، ومن الكشاف (الحكام) على كاشف الخازندار ، وعثمان كاشف الحبشى ، ويحيى كاشف ، ومرزوق كاشف ، وعبد العزيز كاشف ، ورشوان كاشف ، وسليم الكاشف ، وفايد كاشف ، وجعفر كاشف ، وعثمان كاشف ، ومحمد كاشف ، وأحمد كاشف الفلاح ، وأحمد كاشف صهر محمد أغا . وخليل كاشف ، وعلى كاشف قيطاس ، واحمد كاشف ، وموسى كاشف .

نفذ القضاء فى ذلك اليوم على فئة المماليك ، ولم يبق منهم إلا عدد ضئيل ممن بقوا مع ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن اللذين لم يطمئنا من قبل لمصالحة محمد على باشا وبقيا فى الصعيد ومعهما ذلك الرهط من المماليك ، فلما بلغهم نبأ مذبحة القلعة مضوا جنوبًا إلى ما وراء أسوان وأوغلوا فى إقليم النوبة ودنقلة ، ونجا أيضا من القتل عدا هؤلاء نحو ستين مملوكًا فروا إلى سورية .

الرأى فى مذبحة القلعة

تلك هى الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ، ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك ، فإنا عددنا عليهم من المساوىء التى ارتكبوها والمضار التى جلبوها على البلاد ما يغنى عن البيان ، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية . ولو أن محمد على باشا استمر فى محاربتهم وجها لوجه حتى تخلص منهم فى ميادين القتال لكان ذلك خيرًا له ولسمعته ، ولا يسوّغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة فى ذلك العصر ، وأن هذه المؤامرة هى صورة مكبرة لما أمر به الباب العالى سنة ١٨٠٤ من الفتك بالمماليك ، إذ عهد إلى الصدر الأعظم وإلى حسين قبطان باشا أن يقضى عليهم بهذه الطريقة نفسها[٦] ، فإن تكرار السيئات لا يبررها ، وبالجملة فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة فى تاريخ محمد على باشا .

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم أنه اضطر إليها دفاعا عن نفسه وان المماليك كانوا يأتمرون به حين ذهب إلى السويس يتعهد شئون العمارة المعدة لنقل الحملة الوهابية ، ونمى إليه أنهم ينوون الفتك به عند عودته إلى القاهرة (فبراير سنة ١٨١١) فخرج من السويس ليلا على غير ميعاد وأسرع فى السير حتى دخل القاهرة ولما تحقق أنه لا يأمن فتك المماليك به وبخاصة إذا أنفذ الحملة على الحجاز وخلت البلاد من الجنود اعتزم قطع دابرهم ، وهذه الرواية لم نجد لها سندًا قويًّا ، ولا نعتقد أن هذا الحادث هو الذى أوحى إلى محمد على تدبير مذبحة القلعة ، بل أغلب الظن أنها كانت نتيجة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على ذلك الحادث وكان قبله بمدة .

ولم تلق مذبحة المماليك تبريرًا قويًا حتى من أصدقاء محمد على المدافعين عنه وعن حكمه ، فانظر مثلا إلى ما كتبه المسيو مانجان وهو صديق للباشا تراه يقول :

« إننى أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك ، على أننى أعده من بعض النواحى خيراً لمصر ، فإن بقاءهم يفضى إلى حرب هى أضر على البلاد من الايقاع بهم ، كما إن أرادة الباب العالى كانت تؤدى إلى استمرار تلك الحرب ، فالضربة الجريئة التى ضربها محمد على تنفيذًا لأوامر الباب العالى السرية قد قضت على نظام كانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجًا ، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا ، ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان

(٦) انظر الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣١٥ وما بعدها (الطبعة الأولى) .

يقضى أن يلجأ إلى طرق حازمة ، فقد كان محاطا بجنود فطروا على الشغب والفوضى ، وكان مضطرًا إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب ، فكان عليه أن يفكر فى إضعاف خصومه الذين يزدادون فى هذه الحالة قوة ونفوذا ، فقد بلغه على ما قيل أنهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس ، ولما علم أن السياح من الافرنج يلومونه فى رحلاتهم وكتبهم على اغتيال المماليك ويعدونه عملا منافيًا للإنسانية صرح بأنه يبغى أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب حادثة اغتيال الدوق دانجان[٧] D Engein ليحكم الناس على الحادثتين » .

ويقول المسيو جومار وهو الذى جعله محمد على باشا مديرا لأول بعثة مدرسية مصرية فى فرنسا :

« لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية » .

هذا ، وإذا نظرنا إلى هذه الحادثة من الوجهة القومية البحتة وجدنا أن البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم وتقلمت أظفارهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد على وسلطانه ، فماذا كان يستطيع إبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما أن يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك الذين كانوا يحيطون بهم ؟

وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم وقد تركوا أخوانهم فى الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش ؟ ما نظن مطلقًا أن ثمة خطرًا كان يتهدد محمد على من هذه الناحية ، وما نظنه كان فى حاجة إلى التخلص من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر .

ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا إلى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية ، فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرًا

(٧) الذى اتهمه نابليون ظلمًا بالتآمر عليه وأمر بقتله فى محاكمة صورية .

بانحلال الحياة القومية وفسادها ، فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قومية كبرى ، فإنما الأمم أخلاق وفضائل ، أضف إلى ذلك أن هذه الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية ، وتعددت مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم ، فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح إلى زمن طويل ، وأحلت فى مكانها روح الرهبة من الحكام ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانًا على انفراده بالحكم ، فلم يبْدُ من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح ومعارضة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنىٌ عن البيان أنه مع ما أسداه محمد على من الخير للبلاد فى خلال حكمه فإنه لم يعوض على الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية ، ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية .

* * *

الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومى

حروب مصر فى عهد محمد على

نظرة عامة فى تلك الحروب من الوجهة القومية

إن حروب مصر فى عهد محمد على باشا هى التى مكنتها من تحقيق استقلالها القومى ولولا تلك الحروب لما تكون ذلك الاستقلال ولرجعت البلاد إلى عهد الحكم التركى وبقيت زمنًا لا يمكن تقديره ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية ، يتعاقب عليها الولاة كل سنة أو سنتين .

ففى ميدان الحروب تكونت الدولة المصرية الحديثة ، وحققت استقلالها ، وكذلك قضت سنة الله فى الأمم أن لا يأتيها استقلالها رغدًا ، بل تخوض إليه غمار المتاعب والضحايا والآلام تناله بالقوة ، وتحافظ عليه بالقوة ، وإذا ما تراخت قوة الأمة واعتراها الوهن والضعف ، أو تطوّحت وركبت متن الشطط ، أو تخاذل أبناؤها وتفرقت كلمتهم ، التوى عليها القصد ، واستهدف استقلالها للخطر ، ولا يلبث أن تعصف به أطماع الغزاة والمستعمرين ، وقضت سنة الله فى خلقه أن الدول الفتية لا تتكون ولا تنشأ إلا فى ميادين القتال والنضال ، وما المعاهدات التى تعترف بوجود الدول الحديثة واستقلالها إلا منظمة ومقررةً لنتائج الحروب والانقلابات التى يتحقق فيها ذلك الاستقلال .

فتلك الحروب التى خاضت مصر غمارها فى عهد (محمد على) هى السبيل التى أوصلتها إلى تحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها ، وحفظ كيانها ، وبلوغ مركزها الدولى ، والمكانة التى نالتها بين الدول هى ثمرة تلك الحروب أولا .

على هذا الاعتبار ننظر إلى حروب مصر فى عهد محمد على ، فهى من الوجهة القومية سبيل الاستقلال الذى نالته فى تاريخها الحديث ، وما الوقائع ، والمعارك ، والأسماء ، والحوادث

التى تخللتها إلا معالم لهذا السبيل ، لذلك وجب علينا أن نستعرض هذه الحروب ونتابع وقائعها ، ونتبين نتائجها فى تكوين مصر المستقلة .

الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧

إن الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ كانت أول حرب اشتبكت فيها مصر دفاعا عن كيانها ، وكانت فاتحة سعيدة لحروب مصر فى ذلك العصر ، لأنها انتهت بإخفاق انجلترا فيما كانت ترمى إليه من احتلال مصر ، وقد استوفينا الكلام عن تلك الحرب فى الفصل الثانى .

الحروب الوهابية

(١٨١١ — ١٨١٩)

إن جزيرة العرب هى أول ميدان لحروب مصر الخارجية فى عهد محمد على ، وكانت الحرب فيها من أشق الحروب التى خاضت غمارها وأطولها مدى ومن أكثرها ضحايا ومتاعب ، جردت مصر فى خلالها حملات عدة كلفتها الضحايا الكثيرة فى الأرواح والأموال ، ولقى فيها الجنود الشدائد والأهوال فى قطع المراحل البعيدة المترامية بين الفيافى والقفار ، ونالتهم المتاعب والأوصاب ، من وعورة الطرق ، وشدة القيظ ، تضطرم به الأرض والسماء ، إلى قلة المؤونة وندرة المياه وفقدانها فى معظم الجهات ، إلى محاربة عدو مستبسل بذل النفس والنفيس دفاعًا عن وطنه .

تحملت مصر فى الحرب الوهابية خسائر جسيمة ، وإن فداحة تلك الخسائر لتدعونا أن نتساءل عن السر فى اهتمام محمد على باشا بخوض غمار تلك الحرب الضروس ، وبذل ما اقتضته من الجهود والضحايا ، واحتمال أعبائها سنوات عدة متوالية بلا هوادة ومن غير أن يتردد فى متابعتها أو يثنيه عنها ما أصاب الجيش فى بعض أدوارها من الهزائم والمهالك ، بل كان كلما أخفقت حملة جرد الأخرى حتى بلغ النصر والظفر .

نتساءل عن ذلك وخاصة لأن الحرب الوهابية قد تبدو غير ضرورية ولا لازمة لمصلحة مصر ، ولم يخض غمارها إلا استجابة لنداء تركيا ، فإن حكومة الإستانة ما فتئت فى مختلف المناسبات تدعوه إلى تجريد جيوشه لمحاربة الوهابيين ، طلبت إليه ذلك فى أواخر ديسمبر سنة

١٨٠٧ قبل أن يمضى عامان على ولايته ، إذ ورد إليه فرمان بتجديد ولايته وإسناد منصب الدفتردار (مدير الشئون المالية) إلى ابنه ابراهيم ، وتكليفه فى الوقت ذاته إرسال الجنود إلى الحجاز لقمع الفتنة الوهابية ، وجددت تركيا هذا الطلب بل ذلك الأمر سنة ١٨٠٨ ثم سنة ١٨٠٩ ، وكان محمد على فى كل مرة يتعلل باشتغاله بمحاربة المماليك ، فلما انتهى من حملته عليهم بالوجه القبلى وعاد إلى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ ألفى رسولا من الإستانة يحمل إليه رسالة جديدة تقضى بتكليفه الإسراع فى تجريد الجيش لمحاربة الوهابيين ، فلم يستطع وقد فرغ من محاربة المماليك أن يتمحّل الأعذار القديمة فى التأجيل والتسويف ، وبادر إلى الاستجابة ، وأبدى اهتمامًا كبيرًا بتهيئة معدات الحرب فى الحجاز ، ومن يومئذ اعتزم السير بالحملة حتى تصل إلى غايتها وهى القضاء على الدولة الوهابية فى شبه جزيرة العرب ، فما هى إذن مصلحة مصر ومصلحة محمد على باشا فى الإقدام على تلك الحملة الشاقة ؟

إن محمد على لم يكن ليغفل عما بينه وبين تركيا من سوء الظن المتبادل ، ولم يغرب عن ذهنه إن حكومة الاستانة سعت غير مرة لتقتلعه من عرش مصر ، وان القوة هى التى ردّت يدها وحالت دون تحقيق مرادها ، ولكنه لبى أخيرًا نداءها فى الحملة على الحجاز لأنه رأى فى خوضه غمار الحرب الوهابية تمكينًا لسلطته ورفعًا لشأنه وشأن مصر وأعلاء لمكانتها .

ذلك أنه لما استفحلت الدعوة الوهابية أنفذت تركيا لإخمادها حملات عدة رجعت بالخيبة والفشل ، وتعطلت شعائر الحج ، وامتنع ورود عشرات الآلاف من الحجاج من أنحاء الشرق ، فتزلزلت هيبة تركيا وأثرت هذه الحالة فيها تأثيرا كبيرا ، ووقع الشك فى مقدرة السلطان العثمانى على الاضطلاع بمهمة « حامى الحرمين الشريفين » تلك التى كانت تجعل لتركيا المقام الممتاز بين الممالك الاسلامية .

فرأى محمد على أنه إذا نجح حيث أخفقت تركيا واستطاع بقوة جيشه أن يقضى على دولة الوهابيين ويستخلص منهم الأراضى المقدسة ، فلا جرم أن يتوطد مركزه وتسمو مكانته حيال تركيا ، فلا تعود تفكر فى عزله أو تغييره ، ولا تستطيع أن تعامله معاملة سائر الولاة الذين كانت تتصرف فيهم بالعزل والنقل ، بل يدعوها تطور الحوادث إلى أن تعامله معاملة الند للند ، أو الحليف للحليف ، ويتدرج مركزه من والٍ تابع إلى حاكم مستقل ، أضف إلى ذلك أنه إذا لم يلبِّ دعوة السلطان ويتأهب لمحاربة الوهابيين فإن ذلك يكون مبررا لعزله ، ولم يكن

مركزه بعد قد استقر حتى لا يحسب حسابًا لأوامر الاستانة ، بل كان عليه أن يتقى شرها حتى ترسخ دعائم ملكه .

فالحرب الوهابية كانت إذن وسيلة لتوطيد مركز محمد على ، كما أنها سبيل لرفع شأن مصر ، وأعلاء مكانتها ، وتمهيدًا لتتبوأ المركز الذى نالته من بعد بين الدول .

وأغلب الظن أن فكرة الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر قد بدأت تملك عليه مشاعره من ذلك العهد ، وأنه أخذ يعمل لها من طريق الفتح والحرب ، وليس ثمة حرب تعلى مكانة مصر وتنيلها مركزًا ممتازًا وتكسبها عطف الشرق والعالم الإسلامى مثل الحرب الحجازية ، فقد كان الغرض منها إنقاذ الحرمين الشريفين من حكم فرقة الوهابية ، وتجديد ما بين الأمم الإسلامية من الصلات الأدبية والاقتصادية ، وإعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها .

وإذا رجعتَ إلى الماضى وتذكرت ما فعله على بك الكبير رئيس المماليك عندما تولى حكم مصر سنة ١٧٦٣ [١] تجد أنه عندما سعى إلى الاستقلال والتخلص من الحكم العثمانى وأعلن انفصاله عن تركيا وعزل الوالى كان أول ما وجه إليه عزمه أن جرد جيوشه على جزيرة العرب وفتح معظمها وبسط نفوذه على الحجاز ، فاستحق اللقب الذى أسبغه عليه شريف مكة وهو « سلطان مصر وخاقان البحرين » .

فمحمد على قد خاض غمار الحرب الوهابية لا لمصلحة تركيا ، بل تثبيتاً لمركزه ، وإعلاء لشأن مصر ، وقد حققت الأيام صدق نظره ، إذ عظمت منزلته حيال تركيا خلال الحرب الوهابية وبعد انتهائها ، وعلت مكانة مصر الحربية والسياسية ، وامتدت سلطتها إلى جزيرة العرب ، وانبسطت رقعتها واتسعت حدودها ، فإن الجيوش المصرية التى جردها محمد على لحرب الوهابية لم تنسحب منها بعد كسر الوهابيين ، بل ظلت تحتلها وأخذت الحكومة المصرية تبسط سلطانها فى أصقاع الجزيرة وتنصب لها الحكام وقواد الجند ، كما أن تركيا كافأت محمد على بإسناد مشيخة الحرم المكى وولاية جدة إلى ابنه ابراهيم ، فاتسع فعلا نطاق مصر ، وضمت إليها بلاد الحجاز ونجد والعسير وجزءًا من اليمن ثم وصلت سيادتها إلى شاطىء الخليج الفارسى ، أى أن نفوذ مصر قد امتد إلى معظم جزيرة العرب ، وظل كذلك إلى أن اضطربت الأحوال السياسية سنة ١٨٤٠ واضطرت مصر إلى سحب جنودها كما سيجىء بيانه .

---

(١) انظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ٥٨ (الطبعة الأولى) .

وكان لمحمد على أغراض أخرى محلية أدركها من الحملة الوهابية ، أهمها التخلص من طوائف الجنود الأرناءود والدلاة الذين ألفوا التمرد والشغب ، فقد رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صاروا خطرا على الأمن وعقبة دون استقرار سلطة الحكومة [٢] ، فكانت الحملة الوهابية خير فرصة انتهزها محمد على ليقذف بتلك الطوائف المتمردة إلى الأصقاع النائية من جزيرة العرب ، لعله فى غيبتهم يستطيع أن يدخل النظام الجديد فى الجيش المصرى ، وقد سعى إلى ذلك فعلا خلال الحملة الوهابية وإن كانت ظروف الأحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فأرجأه إلى سنة ١٨٢٠ كما سنذكره فى حينه .

وكذلك كانت الحملة ذريعة لإطلاق الحكومة فى فرض ما تشاء من الضرائب والإتاوات من غير أن يجد الشعب مسوّغا للاعتراض عليها ، فإن حجة محمد على باشا فيما فرضه أثناء الحملة الوهابية من مختلف الضرائب والإتاوات الفادحة أن الحكومة فى حاجة إلى المال لإنفاقه على حرب مقدسة ترمى إلى استرداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج ، فهى من هذه الناحية جهاد مفروض وكذلك الإنفاق عليها .

تلك هى البواعث التى جعلت محمد على يقدم على تلك الحرب الشاقة ، والآن فلننقل كلمة عن الوهابية ونشأتها ، ثم نتكلم بعد ذلك عن الحملة ووقائعها .

الدعوة الوهابية

ظهرت الدعوة الوهابية فى جزيرة العرب حوالى منتصف القرن الثامن عشر على يد زعيمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولذلك نسبت إليه وسمى أتباعه وأنصاره الوهابيين .

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣ م) فى (العُيَيْنة) من بلاد نجد ، ونشأ بها وقرأ القرآن وحفظه ، وتلقى العلم عن أبيه الذى تولى القضاء فى بعض بلدان العارض [٣] ، وحج إلى بيت الله الحرام وهو بعد فى سن الشباب ، ثم قصد إلى المدينة المنورة وأقام بها نحو شهرين ، ثم عاد إلى بلده واشتغل بدراسة الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وكان حادّ الفهم ، شديد الذكاء ، سريع الإدراك والحفظ قوى الرغبة فى العلم ، رحل فى طلب

---

(٢) انظر ص ٥٨ (الطبعة الأولى) .

(٣) من أقاليم نجد .

العلم فقصد إلى البصرة والحجاز مرارًا ، وجاء (الحسا) وكانت آهلة بالمشايخ والعلماء ، وطالت أقامته بالبصرة يتلقى فيها العلم ويقرأ كثيراً من كتب الحديث والفقه واللغة ، فاتسع فى كل ذلك ، ثم عاد إلى أرضه وموطنه .

كان محمد بن عبد الوهاب حنبلى المذهب ، يميل إلى الشدة فى التعاليم الدينية ، ولا يأخذ بالرّخص ، فاستنكر كثيرًا من البدع الفاشية بين المسلمين ورأى فيها شركا بالله ، فدعا إلى التوحيد وصنف فيه كتابا ، وحدثته نفسه أن ينقى الدين ويخلصه مما دخله من البدع ، فدعا قومه إلى نبذها وطرح كل مالم يرد فى القرآن والسنة من الأحكام والتعاليم ، والرجوع بالدين إلى فطرته وبساطته الأولى ، وقد أخذ دعوته من طريقة الإمام ابن تيمية ، فالمذهب الوهابى هو فى أصوله المذهب الحنبلى ، والفكرة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب فى أصلها وجوهرها فكرة صالحة ، لكنه غلا فيها وتشدد ، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ أخذه ولا يتبع تعاليمه ، واعتباره مشركًا بالله ، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم (مشركين) ، ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحًا وتجد لها الأتباع فى بلاد فطر أهلها على الخشونة والبداوة ، ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران .

فمن تعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير وشرب الدخان والتنباك ، وكذلك تحريم إقامة المزارات ونصب القباب على القبور واعتبارها مخالفة لأحكام الدين ثم الدعوة إلى هدمها ، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو ، على أن هذا الغلو لم يسىء إلى الدعوة الوهابية بمقدار ما أساء إليها إسراف أنصارها فى القسوة وارتكابهم الفظائع مع مخالفيهم فى المذهب والعقيدة .

دعا محمد بن عبد الوهاب قومه إلى الأخذ بتعاليمه ، فنالت دعوته نجاحًا بين أهل نجد ، وأخذ يكسب الأعوان والأنصار خلال عدة من السنوات دون أن تأبه له الحكومة العثمانية ، ولكن حدث يومًا أن قدمت إليه امرأة متهمة بالزنى ، وثبت عليها التهمة ، فأمر برجمها فقتلت على الفور ، ولم تكن هذه العقوبة مما تسيغه النفوس ، فأحدثت استياء شديدًا وانتهى نبؤها إلى حاكم الحسا التى تمتد سلطته إلى العينة ، فأرسل يتهدد الشيخ بالقتل إذا لم يرجع عن طريقته ، ولما علم بذلك أنصاره أقبلوا يعرضون عليه أن ينزل بينهم ويكون فى حماهم ، فرحل إلى مدينة (الدّرعية) إذ كان أميرها (محمد بن سعود) ، فأعجب الأمير بدعوته واعتنقها ، وآوى إليه محمد بن عبد الوهاب .

كانت (الدرعية) من أكبر بلاد نجد ، فرأى فيها محمد بن عبد الوهاب خير مثابة لنشر دعوته ، وأخذت من ثَم تستفيض بين القبائل .

وأعلن الأمير محمد بن سعود مناصرته للتعاليم الوهابية ، وتعاهد والزعيم على التعاون فى نشر الدعوة على أن يؤيد سيادة الأمير بين العرب (سنة ١١٥٧هـ - ١٧٤٤م) ، ومن يومئذ اتخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (الدرعية) مقرًا له ، وأخذ يبث منها دعوته وكان يأتى إليه فيها أتباعه ومناصروه يتلقون عنه ، وأخذ هو كذلك يوفد الرسل إلى البلاد لنشر الدعوة إلى التوحيد ، وأيد الأمير محمد بن سعود هذه الدعوة بحد السيف ، فدعا القبائل والبلاد المجاورة إلى الأخذ بها أو يقاتلهم ، فلم تمض عدة من السنوات حتى عمت الدعوة معظم بلاد نجد ، وحارب الأمير قبائل عدة كانت تناوئ الوهابية إلى أن توفى سنة ١٧٦٥ .

مخلفه فى تلك السنة ابنه الأمير (عبد العزيز بن سعود) ، وكان من أشد أنصار الدعوة ، فأصابت فى عهده نموًا وانتشاراً ، وامتد نفوذه السياسى إلى معظم بلاد نجد وتجاوزها إلى بعض أنحاء الحجاز وأطراف العراق ، وتوفى محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن قويت دعوته واستفاضت بين القبائل .

وقد حاول شريف مكة (الشريف غالب بن مساعد) أن يصد دعوة الوهابيين ونفوذهم بقوة السيف والقتال ، وزحف رجاله على نجد لكنه انهزم أمام قوات عبد العزيز وعاد إلى الحجاز .

وظلت الدعوة بعد وفاة زعيمها ومؤسسها تنمو وتضطرد بفضل تأييد عبد العزيز لها ، وتنكيله بالقبائل التى لا تدين بها ، فامتد نفوذ الوهابيين إلى ولاية البصرة ، وزحفوا على (كربلاء) مثابة الشيعة واستولوا عليها (سنة ١٨٠١) ، وأمعنوا فى أهلها قتلا ، ونهبوا المدينة ، وهدموا مسجد الحسين بن على رضى الله عنهما ، وأخذوا ما فى قبته من النفائس والجواهر .

ضج المسلمون فى سائر الأقطار وخاصة الشيعية من غزوة (كربلاء) وما ارتكبه الوهابيون فيها من الفظائع ، فجاء الدرعية شيعى متنكر واغتال الأمير عبد العزيز وهو قائم يصلى العصر فى جامع الدرعية (سنة ١٨٠٣) .

فخلفه ابنه (سعود) فى الإمارة ، واستمر الوهابيون فى قوة ومنعة ، ولم يستطع الولاة الترك الغلبة عليهم لا فى عهد عبد العزيز ولا فى عهد سعود ، فإن سليمان باشا والى العراق جرد حملة على (الحسا) لمحاربة الوهابيين فعادت الحملة مدحورة .

وصل (سعود بن عبد العزيز) فى فتوحاته إلى حدود مسقط ، وامتد نفوذه إلى شواطىء الخليج الفارسى ، واعتزم فتح الحجاز ، فجرد جيوشه على الشريف غالب ، وزحف الوهابيون على (الطائف) التى تعد مفتاح مكة فاحتلوها (سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م) ، ثم دخل سعود مكة ظافراً بعد أن جلا عنها الشريف غالب وجنوده إلى جدة (محرم سنة ١٢١٨ هـ ١٨٠٣ م) .

وكتب (سعود) إلى السلطان سليم الثالث سلطان تركيا ينبئه بهذا الفتح ويخبره أنه قد هدم القباب التى فوق القبور ، ويطلب إليه منع مجىء المحمل من دمشق أو القاهرة « فإن ذلك ليس من الدين فى شىء » .

وفى هذه الرسالة ، وإخراجه من كان بمكة من الترك ، إعلان بتقلص ظل السلطنة العثمانية عن مكة .

واستولى الوهابيون على (المدينة) بعد فتح مكة بسنتين ، ونهبوا نفائس الحرم النبوى وما فيه من الجواهر ، وكانت قيمتها لا تقدر بمال ، ذكر الجبرتى ما ذاع عن قيمتها فنقل أنها « ملأت أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيم القدر ، من ذلك أربعة شمعدانات من الزبرجد وبدل الشمعة قطعة ماس مستطيلة يضىء نورها فى الظلام ، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت ، ونصالها من الزبرجد والبشم ، وسلاحها من الحديد الموصوف وعليها دمغات بإسم الملوك والخلفاء السالفين » .

امتدت دعوة الوهابيين إلى (عسير) و (اليمن) واتجهت أنظارهم إلى الشام ، فزحفوا عليها ووصلوا فى زحفهم إلى حدود فلسطين ، ولكن دعوتهم لم تلق فى سورية تأييداً لما ارتكبوه من القسوة والفظائع ومنعهم المحمل الذى يصحبه الحجاج من دخول مكة ، وقد خرج عبد الله باشا العظم والى الشام بالمحمل فمنعه الوهابيون من التقدم وقتلوا جنوده ونهبوا الحجاج .

تعطلت مراسم الحج السنوية واضطربت تركيا بإزاء امتداد دعوة الوهابيين واستيلائهم على الحرمين الشريفين ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من الحج وانتصارهم على الولاة فى العراق والشام ، فاستنجدت بمحمد على باشا وطلبت إليه محاربتهم ، وكان نفوذهم فى ذلك الحين قد بلغ أقصى مداه ، ولم تجىء سنة ١٨١١ التى جهز فيها محمد على جيشه لقتالهم حتى كان سلطانهم قد امتد من أقصى الجزيرة إلى أقصاها .

معدات الحملة

اتخذ محمد على جهة (القبة) القريبة من القاهرة معسكراً للحملة إلى أن يتم تجهيزها ، وعقد لواءها لنجله (أحمد طوسن باشا) وكان فى السابعة عشر من عمره ، ورتب له أبوه حفلة حافلة لإلباسه خلعة القيادة وانتقاله إلى معسكر الحملة ، ولما وقعت مذبحة المماليك بالقلعة فى اليوم الذى كان محدداً لها (أول مارس سنة ١٨١١) أرجئت الحفلة إلى يوم ٣٠ مارس ، ففى اليوم المعهود تحرك موكبه من القلعة إلى معسكر الحملة بالقبة وأخذت الحكومة تجهزها بالرجال والعتاد وقطعت فى ذلك ستة أشهر ونيفا إلى أن صارت على أهبة الرحيل ، وبلغ عدد رجالها ٨٠٠٠ مقاتل منهم ستة آلاف من المشاة وألفان من الفرسان بينهم الكثير من البدو .

وتولى إدارة مهماتها السيد محمد المحروقى كبير تجار مصر[٤] ، وكان له فى إعدادها وتجهيزها ورسم خططها شأن كبير ، قال الجبرتى فى هذا الصدد لمناسبة رحيله إلى الحجاز : « وفيه — ١٢ رمضان سنة ١٢٢٦ (٣٠ سبتمبر سنة ١٨١١) خرج السيد محمد المحروقى ليسافر صحبة الركب وخرج فى موكب جليل لأنه هو المشار إليه فى رياسة الركب ولوازمه واحتياجاته وأمور العربان ومشايخهم ، وأوصى الباشا ولده طوسون باشا أمير العسكر بألا يفعل شيئا من الأشياء إلا بمشورته وإطلاعه ، ولا ينفذ أمرًا إلا بعد مراجعته » .

كان خط سير الحملة أن تقلع السفن بالجنود المشاة من ثغر السويس إلى (ينبع) ميناء المدينة المنورة ، أما الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا فيسيرون برًّا من طريق برزخ السويس فالعقبة حتى يبلغوا (ينبع) فيلتقوا بالمشاة بها ومن هناك يزحف الجيش إلى وجهته[٥] .

وقد استوجب نقل المشاه والمهات بحراً إنشاء عمارة بحرية من السفن ، لأن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين أسطول فى البحر الأحمر (ولا فى البحر الأبيض) فاعتزم محمد على إنشاء أسطول لنقل الحملة ، وأبدى فى سبيل ذلك من علو الهمة ما جعله مضرب الأمثال فى قوة الإرادة ومضاء العزيمة ، ذلك أن كل المهات والأخشاب والمواد اللازمة لإنشاء الأسطول كانت تنقصه ، فجلب الأخشاب من أشجار مصر ، واستكملها من الخارج وخاصة من

---

(٤) هو ابن السيد احمد المحروقى الذى أوردنا ترجمته فى الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣٠٥ (الطبعة الأولى) .

(٥) تجد خط سير الحملة برًّا مرسومًا على الخريطة الملحقة بهذا الفصل .

الأناضول ، وبادر إلى إنشاء السفن فى « ترسانة » بولاق ، وجمع لهذا الغرض كل من استطاع جمعهم من صناع المراكب ، وتولى الإشراف بنفسه على العمل ، فأخذ الصناع يقطعون الأخشاب ويفصلونها قطعًا ويضعون على كل قطعة رقمًا خاصًّا بها ، ثم تنقل على ظهور الجمال إلى السويس لتركَّب هناك ، ويقال إن عدد الإبل التى استخدمت لهذا الغرض بلغ ثمانية عشر ألفا ، ولم تمض عشرة أشهر حتى انشىء بالسويس ثمانية عشر مركبا كبيرا تسع أكثر ما أعد للحملة من الجنود والمؤن والذخائر والمهمات .

وباشر محمد على ترحيل الحملة ومهماتها من السويس ، فأقلعت بها السفن يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٨١١ قاصدة ينبع ، وعاد هو إلى القاهرة ، ثم ارتحل طوسون باشا من بركة الحاج يوم ٦ أكتوبر يقود حملة الفرسان يتبعها عدد كبير من الإبل تحمل ما تحمل من المهمات والمؤونة والذخائر .

وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع من كل حرفة ، وصحبها السيد محمد المحروقى مدير المهمات كما قدمنا ، ومضى معها أربعة من العلماء من أئمة المذاهب الأربعة ، وهم السيد أحمد الطحطاوى الحنفى ، والشيخ محمد المهدى الشافعى ، والشيخ الخانكى المالكى ، والشيخ المقدسى الحنبلى ،وكان مقررًا سفر السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد (الذى كان له شأن فى مقاومة الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧) ، والشيخ على حفاجى من علماء دمياط ، ولكنهما اعتذرا عن مصاحبة الحملة فأعفيا من السفر .

وقائع الحملة

قلنا إن الحرب التى خاضت مصر غمارها فى صحارى جزيرة العرب وجبالها من أشق الحروب وأصعبها ، لأن الجيش المصرى واجه قوة الوهابية فى أوجها ، وعلى رأسهم أمير شديد المراس قوى الشكيمة بعيد النظر وهو الأمير (سعود بن عبد العزيز) الملقب بسعود الكبير ، يمتاز موقفه بأنه يحارب حربا دفاعية ، فى بلاده ومفاوزه ، وبين معاقله ورجاله ، على أن الجيش المصرى قد وجد معاضدة من سكان الثغور الحجازية كجدة وينبع ، لأن انقطاع طريق الحج ألحق بهم ضرراً كبيرًا ، إذ كانت أرزاقهم تأتيهم من الحجاج ، فكانوا ناقمين على الوهابيين ودعوتهم ، وكذلك أشراف مكة ، وخاصة الشريف غالب ، فإن نفوذ الوهابيين قد محق سلطته ، وإن كانوا قد سمحوا له بالإقامة فى مكة ، وفضلا عن ذلك فإن محمد على وبجليه

طوسون وإبراهيم استطاعوا أن يستميلوا إليهم بعض رؤساء القبائل من أنصار الأمير سعود بالعطاء والوعود ، فكانت هذه الوسائل من العوامل التى أيدت مركز الجيش المصرى فى الحملة على الحجاز .

احتلال ينبع

وصلت الحملة بطريق البحر إلى ميناء (ينبع) فاحتلتها دون مقاومة تذكر ، ولم يكن بها سوى حامية من ثلثمائة من الوهابيين فر قائدهم وبعض رجاله ووقع الباقون قتلى أو أسرى .

احتلال بدر

ثم جاء طوسون باشا بطريق البر يتقدم فرقة الفرسان ، فلما وصلت الفرقة (أكتوبر سنة ١٨١١) وتلاقت وحدات الجيش أمر طوسون بالزحف على (المدينة) فتحرك الجيش من ينبع وسار إلى (بدر) وكان الوهابيون ممتنعين بها ، فاشتبك بهم فى معركة دامت ساعتين انتهت باحتلال (بدر) وارتد الوهابيون إلى وادى (الصفراء)[٦] حيث تحصنوا بها وأقاموا الاستحكامات لملاقاة الجيش المصرى .

هزيمة الصفراء

زحف طوسون على وادى (الصفراء) فى قوة تبلغ ثمانية آلاف من الجنود وهاجمها الجند حتى صاروا إلى طرق ضيقة يشرف عليها الوهابيون من على ، فانهالت القذائف على الجنود وفتكت بهم فتكًا ذريعًا ، فانقلبت الصفوف الأولى منهزمة ، ووقع الذعر فيما وراءها ، فاختل نظام الجيش وكانت عليه الهزيمة ، وتشتت الجند تاركين مضاربهم وأثقالهم ومدافعهم وتراجعوا يرمى بهم الرعب قاصدين الساحل .

كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى فقد فيها الجيش المصرى نحو ستمائة قتيل ، وفقد معظم مدافعه وذخيرته وأرزاقه ، ورجعت فلوله بغير نظام إلى ينبع ، وقتل منهم عدة آلاف فى الطريق بحيث لم يبق من الجيش بعد أن رجع إلى ينبع غير ثلاثة آلاف ، ولو أن الوهابيين الذين

---

(٦) تجد بالخريطة الملحقة بهذا الفصل مواقع البلاد التى يرد ذكرها فى سياق الحديث .

دافعوا عن وادى (الصفراء) كانوا أكثر عددًا وأكثر دراية بفنون القتال لتعقبوا جيش طوسون باشا بعد الهزيمة وكان من المحقق ألا ينجو منه أحد.

بعث طوسون بنبأ هذه الهزيمة إلى أبيه ، ونسبها إلى اختلاف قواده وتقصيرهم وكان أكثر الجنود والضباط الهاربين من الأرناءود ، ثم طلب طوسون المدد كى يسد الفراغ الذى وقع فى صفوف الجيش ، فتأثر محمد على باشا لهذه الهزيمة تأثراً شديدًا ، وأرسل يستدعى رؤساء الجيش المسئولين عنها ، وعاد بعضهم إلى مصر من تلقاء أنفسهم ، فغضب عليهم محمد على وأقصاهم عن مراكزهم ونفاهم من مصر ، وكان منهم (صالح قوش) رئيس الجند الأرناءود الذى كان له شأن خطير فى مذبحة المماليك بالقلعة.

لم تضعضع هذه الهزيمة من عزيمة محمد على باشا ، بل قابلها بالجلد والثبات ، وأخذ يعد العدة لإرسال حملة جديدة إلى الحجاز ، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى وبرزوا إلى خارج البلدة ».

واضطر محمد على باشا للقيام بنفقات الحملة إلى فرض ضرائب جديدة ، فاستوفى الضريبة من باقى الأطيان الموقوفة ، وطلب إتاوة من القرى ، وكان الفلاحون بمنزلة من الضنك والفاقة ، فأذن لهم أن يؤدوها غلالا ، وأمكنه أن يموّن منها الجيش المصرى فى الحجاز.

موقف طوسون باشا

بقى الوهابيون بعد انتصارهم فى واقعة (الصفراء) فى معاقلهم لا يفكرون فى مهاجمة طوسون باشا بينبع ، واكتفوا بتحصين المدينة ، وانتهز طوسون هذه الغفلة وأخذ فى فترة انتظار المدد من مصر يستميل القبائل الضاربة بين ينبع والمدينة بالمال والهدايا ، وقد رأى أن هذه الوسيلة أعود عليه بالنفع من الانتصار على الوهابيين فى معركة بل معارك ، كما أنها هى الوسيلة الفعالة فى التغلب عليهم ، وقد نجح فعلا فى خطته هذه ، وأرسل له محمد على باشا صناديق الأموال والكساوى لتفريقها على رجال القبائل ، فمهدت له السبيل للاستيلاء على المدينة ومكة.

احتلال الصفراء

تلقى طوسون باشا المدد ، فتحرك قاصداً المدينة ، وانضم إليه كثير من القبائل من عرب (جهينة) (وحرب) ، واحتل الصفراء بدون مقاومة بفضل مؤازرة العرب الموالين له .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فى ٢٤ رمضان سنة ١٢٢٧ (أول أكتوبر سنة ١٨١٢) وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك[٧] على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدبير شريف مكة (الشريف غالب) ، ولم يجدوا بها أحداً من الوهابيين ، فعندما وصلت هذه البشائر ضربوا مدافع كثيرة تلك الليلة من القلعة » .

فتح (المدينة)

تابع الجيش سيره حتى بلغ أسوار المدينة ، وكانت الرحلة إليها شاقة مضنية تكبد فيها الجنود المتاعب والأهوال لوعورة الطرق وبعد المسافات واشتداد الحر ، فأمر الجنود أن يسيروا فى الليل ويستريحوا فى النهار ، قطع الجيش فى رحلته ثلاث ليال حتى بلغ المدينة ، فضرب عليها الحصار ، وتفادى إطلاق القنابل عليها خشية أن تصيب الحرم النبوى الشريف ، فاستعاض عن الضرب بوضع لغم تحت سور المدينة استعداداً لنسفه ، وأنذر السكان بأن يلزموا بيوتهم حتى لا يصيبهم مكروه ، وفى الموعد المضروب أشعل اللغم فنسف جزءاً كبيراً من السور وفتح ثغرة دخل منها الجنود ، فقتلوا من أدركوهم من الحامية الوهابية واحتلوا المدينة ، فكان احتلالها أول انتصار كبير للجيش المصرى فى حرب الحجاز ، وأرسل طوسون مفاتيح المدينة إلى أبيه فى مصر وبشره بهذا النصر المبين ، فأذيع الخبر فى العاصمة وأطلقت المدافع من القلعة ابتهاجاً بهذه البشرى .

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٢٧ يوم الأضحى وردت هجانة من ناحية الحجاز وعلى يدهم البشائر بالاستيلاء على قلعة المدينة المنورة ، ونزول المتولى على حكمهم ، وأن القاصد الذى أتت بشائره وصل إلى السويس وصحبته مفاتيح المدينة ، فحصل للباشا (محمد على) بذلك سرور عظيم ، وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد »

وتقدم المصريون فاحتلوا (الحناكية) شمالى المدينة .

---

(٧) كذا يسمى الجيش المصرى ، وكان الجبرتى يعطف كثيرا على الوهابيين ويدافع عنهم وينتقد الحملة عليهم .

فتح مكة

(يناير سنة ١٨١٣)

عاد طوسون باشا إلى ينبع وأقلع منها إلى جدة فاحتلها ، واستقبله بها الشريف غالب وسار منها إلى مكة فدخلها دخول الظافر ، وكان لمعاونة الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز التى استمالها بالمال أثر كبير فى استيلاء الجيش المصرى عليها .

وقد وردت الأنباء إلى مصر بفتح مكة فزينت المدينة خمسة أيام متواليات ابتهاجا بهذا الفتح المبين .

قال الجبرتى : « وفى يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٢٢٨ (٩ فبراير سنة ١٨١٣) وردت بشائر من البلاد الحجازية باستيلاء العساكر على جدة ومكة من غير حرب ، فضربوا مدافع كثيرة ، ونودى فى صبح بزينة المدينة ومصر وبولاق ، فزينت خمسة أيام أولها الأربعاء وآخرها الأحد » .

احتلال الطائف

وبعد أن وطد طوسون باشا مركزه فى مكة تقدم إلى (الطائف) فاحتلها فى ٢٩ يناير سنة ١٨١٣ .

تحرج موقف الجيش المصرى

رأيت مما تقدم مبلغ ما ناله الجيش المصرى من الانتصارات المتوالية ، واحتلال المدينة ومكة وأهم مواقع الحجاز ، على أن هاتيك الانتصارات لم تلبث أن أعقبها تحرج مركز الجيش ، ذلك أن الأمير (سعود بن عبد العزيز) ظل منذ نزول الجيش المصرى إلى ينبع يرقب تطور القتال دون أن يخاطر فيه ، وترك لبعض أنصاره الاشتباك مع الجيش المصرى فى المعارك المتقدمة ، وأخذ هو فى خلال الفترة يدرس أساليب الجيش المصرى فى الحرب ، ويتعرف مبلغ قوته ، ويرسم الخطط ، ويستعد لملاقاته فى الوقت المناسب ، فلما بلغه نبأ احتلال (الطائف) أمر قواته بالزحف ، وكانت مؤلفة من جيشين ، الأول يقوده هو بنفسه ، والثانى بقيادة ابنه

(فيصل) ، فزحف الجيشان بمجوعها على مكة والمدينة وأخذ الوهابيون يقطعون المواصلات بين المدينتين .

أدرك طوسون حرج موقفة ، فبادر إلى ملاقاته ، وشرع فى مهاجمة المراكز التى احتشد فيها الوهابيون .

هزيمة الجيش المصرى فى (تَرَبة)

اتخذ فيصل مدينة (تربة) معسكرًا له وأحاطها بالخنادق ، فأنفذ طوسون باشا بقيادة مصطفى بك أحد قواده لمهاجمته فيها ، فسار إليها مصطفى بك بجنوده وضربوا عليها الحصار ، لكن الوهابيين انقضوا عليهم ، وكانوا بقيادة سيدة من نبلائهم تدعى غالية . أثارت فيهم الحمية والحماسة فأعملوا فى الجيش المصرى قتلا إلى أن وقعت عليه الهزيمة ، وارتد بغير نظام إلى الطائف بعد أن ترك مدافعه وذخيرته .

اخلاء الحناكية

وفى الوقت نفسه أخذ الأمير (سعود بن عبد العزيز) فى قوة من عشرين الفا يهاجم الحناكية التى كانت ترابط بها حامية من الجيش المصرى بقيادة عثمان كاشف ، وهى تبعد عن المدينة بنحو عشرين فرسخا ، فدافعت عنها الحامية دفاعًا شديدًا ، لكنها اضطرت للتسليم أمام جموع الوهابية ، فاحتل الوهابيون (الحناكية) وساروا قاصدين الزحف على المدينة .

تغير الموقف الحربى ، ورجحت كفة الوهابيين ، فإن هزيمة الجيش المصرى فى (تربة) وإخلاء (الحناكية) قد أضعف مركز طوسون باشا ، وأخذ الوهابيون يهاجمون المخافر الأمامية للجيش المصرى بدون انقطاع أو هوادة .

خسائر الجيش

وزاد فى حرج الموقف انتشار الأمراض فى الجيش المصرى ، وما أصاب الجنود من الإعياء لشدة القيظ وقلة المؤنة والماء ، ورداءة الطقس والمتاعب الهائلة التى أنزلتها بهم المعارك ، وقطع المراحل الشاسعة فى صحراء الحجاز ، ولم يكن فى الجيش أطباء لمعالجة المرضى وتدبير الوسائل الصحية ، ففتكت بهم الأمراض فتكًا ذريعًا ، وقد أصاب الجيش من المعارك والأمراض

خسائر فادحة ، بلغت من بدء القتال نحو ثمانية آلاف قتيل ، وفقد الجيش من مؤونته نحو خمسة وعشرين ألف رأس من الماشية ، وتكلفت الحملة إلى ذلك الحين ٣٥٠٠٠[٨] كيس أى ١٧٥,٠٠٠ جنيه ، وهذا الإحصاء يدلك على ما تكبدته مصر من الضحايا والخسائر الجسيمة فى الدور الأول وحده من الحرب الحجازية .

رأى طوسون باشا بعد تلك الخسائر أن يلزم خطة الدفاع ، واعتصم هو وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع ، وأرسل إلى أبيه بطلب المدد .

سفر محمد على إلى الحجاز
(أغسطس سنة ١٨١٣)

تلقى محمد على باشا هذه الأنباء بالجلد والثبات ، وأجمع أن يسير بنفسه إلى الحجاز لمتابعة القتال إلى نهايته والقضاء على الوهابيين وبسط نفوذ مصر فى جزيرة العرب ، فحشد ما وسعه أن يحشد من الجنود فى مصر ، وفرض إتاوات على التجار ، وجرد حملة جديدة ، وسار إلى الحجاز فى شهر أغسطس ١٨١٣ ليقود الجيش المصرى فى تلك الحرب الآكلة .

أبحر محمد على من السويس ونزل بجدة ، فشدد وصوله من عزائم الجيش لما كان يبعثه فى النفوس من القوة المعنوية ، وأخذ أثناء مقامه فى جدة يدرس الحالة عن كثب ليضع الخطة التى تضمن له الفوز والغلبة ، ثم مضى قاصدًا مكة وأدى مناسك الحج ، ومن هنا جاء لقبه (الحاج محمد على) .

اعتقال الشريف غالب

وكان أول ما اتخذه اعتقاله الشريف غالب ، ذلك أنه ارتاب فى إخلاصه ، ورأى منه تراخيًا فى معاونة الجيش المصرى مما يحتمل أن يكون سببه رغبته فى إطالة الحرب ليخدم مصالحه الذاتية ، ووقر فى نفسه أن مسلكه كان من أسباب استفحال الدعوة الوهابية وأن بقاءه فى مركزه قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها إلى غايتها ، فأمر بالقبض عليه واعتقله فى

---

(٨) إحصاء فولابل فى كتابه « مصر الحديثة » ج ٢ ص ٥٨ .

نوفمبر سنة ١٨١٣ وبعث به إلى القاهرة[٩] وولى ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور.

وطد محمد على مركزه فى مكة ليجعلها بمنجاة من هجمات الوهابيين ، ثم اعتزم السير لمهاجمتهم فى معاقلهم فعهد إلى ابنه طوسون باشا أن يتخذ (الطائف) قاعدة للزحف ، فسار ومعه جيش من خمسة آلاف من المشاة وألف من الفرسان وستة من المدافع ، وفيما هو يعد هذه المعدات كان سعود يرقب حركات خصمه ، وامتنعت قواته فى (بيشه) و (رَنْيه) و (تربة) [١٠] فسار طوسون باشا من الطائف قاصداً الاستيلاء على (تربة) وضرب عليها الحصار ولكنه لم ينل منها منالا وكانت الحملة عليها شاقة منهكة للجنود مضنية لهم فساءت حالتهم ونفدت مؤونتهم.

فأكره طوسون على رفع الحصار عن تربة والارتداد بجنوده ، فتعقبهم الوهابيون ورجع الجيش أدراجه إلى الطائف بعد أن أحرق خيامه تفاديًا من وقوعها فى يد الأعداء.

احتلال قنفذه ثم إخلاؤها

وقد رأى محمد على أن أهل العسير يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه فى الحجاز ، فأنفذ حملة إلى ميناء (قنفذه) فاحتلتها وأمر بتحصينها توطئة للزحف على داخل البلاد ، وأبقى بها حامية من ألف ومائتى جندى ، ولكن هذه الحامية لم تلبث قليلا حتى اضطرت إلى إخلائها ، ذلك أن قومندان الحامية فاته ان يحتل عين الماء التى تستقى منها البلدة فاحتلها العربان وقطعوا الماء عن الحامية ، فأنفذ إليها القومندان كتيبة من الجنود لاستخلاصها ولكن العرب هاجموهم بقيادة زعيمهم (طامى بن شعيب) وردهم على أعقابهم فوقع الرعب فى جنود الحامية ولم ير قائدهم وسيلة لانقاذهم من الظمأ سوى اخلاء المدينة والرجوع إلى جدة فنجا من الحامية من استطاع النجاة بركوب السفن وقتل الوهابيون عدداً كبيراً ممن أدركوهم قبل أن يتمكنوا من الفرار ، وبذلك فشلت الحملة على قنفذة.

---

(٩) وصل الشريف غالب إلى القاهرة بعد أن صادر محمد على أمواله ، ثم نقل إلى سلانيك حيث توفى بها سنة ١٨١٦.

(١٠) بالقسم الجنوبى من نجد ، بالقرب من حدود الحجاز ، وتقع تربه على بعد ثمانين ميلا من الطائف ، وبيشة على بعد مائة ميل من تربه.

طلب محمد على المدد من مصر

وبديهى أن هزيمة طوسون فى (ترَبَة) ، وإخلاء قنفذة ، ومناوشات الوهابيين المستمرة لوحدات الجيش المصرى ، كان من شأن ذلك كله أن يبعث اليأس والقنوط ، لكن محمد على باشا كان ذا عزيمة حديدية لا تنثنى أمام الصعاب مهما عظمت ، وهذه العزيمة من أخص صفاته ، وهى من عوامل عظمته ومجده ، فقابل هذه الهزائم بالثبات وعلو الهمة ، وكان قد أرسل إلى كتخدا بك فى مصر (محمد لاظ أوغلى) يطلب إليه أن يوافيه بالمدد والمؤن ، فأمده بسبعة آلاف من الجنود وسبعة آلاف كيس ، وتحملت مصر فى إعداد هذه الحملة الجديدة تضحيات جسيمة ، فإن الكتخدا بك نزولا على أمر محمد على استولى على أملاك الملتزمين (فبراير سنة ١٨١٤) فتذمر الناس من هذا الإرهاق وقصدوا إلى المشايخ ليحولوا دون إنفاذه ، فذهبت شكاواهم عبثًا ، وجمع الكتخدا سبعة آلاف كيس من المصادرات وفرض الاتاوات واستطاع أن يجند السبعة الآلاف مقاتل من مختلف طبقات المجتمع بطريقة التطوع للخدمة العسكرية . وقد تأخذك الدهشة إذ تسمع فى هذا المقام عبارة التطوع ، لأن المفهوم أن مثل هذه الحملات البعيدة كان يحشد لها الناس بالقوة ، ولكن ما ذكرناه مستفاد من رواية الجبرتى فقد أشار إلى هذه الطريقة فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٢٩ (مارس سنة ١٨١٤) بقوله : « وفى ليلة الاثنين سادسه حضر مميش أغا من ناحية الحجاز مرسلا من عند الباشا باستعجال حسن باشا للحضور إلى الحجاز ، وكان قبل ذلك بأيام أرسل يطلب سبعة آلاف عسكرى وسبعة آلاف كيس ، فشرع كتخدا بك فى استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحى القرى ، فكان كل من ضاق به الحال فى مغاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه ، وإن كان وجيهًا جعله الكتخدا أميرًا على مائة أو مائتين » .

وفاة سعود بن عبد العزيز

وصل هذا المدد إلى جدة ، وفيما كان محمد على باشا يتأهب للزحف ساعدته العناية الإلهية بوفاة خصمه الشديد البأس الأمير (سعود بن عبد العزيز) ، توفى بالدرعية فى إبريل سنة ١٨١٤ .

فخلفه فى الإمارة نجله (عبد الله بن سعود) ، ولم يكن على صفات أبيه من الشجاعة

والإقدام وبعد النظر وعلو الهمة ، بل كان على العكس شديد التردد ضعيف الفؤاد لين العريكة لا يميل إلى الحرب والقتال ، فكانت وفاة سعود بن عبد العزيز من الأسباب التى ساقتها الأقدار لنجاح محمد على ، وهكذا كان للحظ أثر كبير فى حياة ذلك الرجل العظيم .

حصار الوهابيين الطائف

أنفذ محمد على عابدين بك أحد قواد جيشه لاحتلال وادى زهران الذى يفصل اليمن عن الحجاز ، فزحف ولم يلق بادىء الأمر كبير مقاومة ، ثم ما لبث الوهابيون أن عادوا يهاجمون الجيش المصرى حتى اضطر إلى الانسحاب ونالته الخسائر الفادحة ، فكان انسحابه هزيمة للمصريين ، وظفرا للوهابيين ، وتعقبه هؤلاء حتى (الطائف) واقبلوا بجموعهم الحاشدة وضربوا عليها الحصار وكان فيها طوسون باشا .

بلغ محمد على هذا النبأ وهو فى جدة فأخذ يعمل فكرة لإنقاذ ابنه من الحصار فاهتدى إلى حيلة حربية تدل على شدة ذكائه وحضور ذهنه ، ذلك أنه ركب فى عشرين من رجاله وسار نحو الطائف ، ووقف على جبل يشرف عليها ، فشاهد مركزها وهى محصورة ، وفيما هو كذلك جاءه رجاله بفارس عربى من الوهابيين وقع أسيرًا فى أيديهم ، فلما رآه محمد على أخذ يسأله عن قوات الوهابيين فيجيبه على ما يسأل ، ثم عرض عليه أن يطلق سراحه على أن يحمل رسالة إلى ابنه طوسون فى الطائف ، وأخذ عليه موثقًا أن يؤدى الرسالة ، فوفى الرجل بعهده ، وحمل الرسالة إلى طوسون باشا فإذا هى تحوى الكلمة الآتية : « إنى قادم إليك فأحضر والحق بنا فوق الجبل » .

رفع الحصار عن الطائف

وقد اطلع الوهابيون على فحوى الرسالة ، فتوهموا أن جيشًا عرمرماً قد أقبل لنجدة طوسون ، وأنهم سيقعون حينئذ بين نارين ، والحقيقة أنها خدعة ابتكرها محمد على لإيهام الوهابيين أنه قادم فى قوة كبيرة ، وقد كان لهذه الخدعة أثرها الفعال فى سير القتال ، فإن الوهابيين أجمعوا على الانسحاب ورفعوا الحصار عن الطائف .

التأهب لمعاودة القتال

عاد محمد على ونجله إلى مكة (يونيه سنة ١٨١٤) ومنها إلى جدة وأخذ فى تدريب السبعة الآلاف من الجنود الذين بعث بهم الكتخدا بك ، وبقى فى جدة ثلاثة أشهر يعد العدة لاستئناف القتال ، وفيما هو يتأهب للزحف شبت الثورة فى قبائل البدو الضارية بين ينبع والمدينة ، وسببها أن حاكم المدينة قتل شيخ قبيلة حرب ، فقامت القبائل للأخذ بالثأر وقطعت السبل بين جدة ومكة وينبع والمدينة وكادت الثورة تستفحل لولا أن عالجها محمد على باشا بالحكمة فسار طوسون إلى ينبع ومنها إلى بدر حيث التقى برؤساء القبائل فتعهد لهم بعقاب حاكم المدينة عقابا يتكافأ مع جريمته فهدأت بذلك حدة غضبهم ، وساعده على تهدئتهم ما بذله لهم من المال فكان من نتائج ذلك أن تخلوا عن وادى الصفراء الذى يحتلونه .

وفى خلال تلك الحوادث تلقى طوسون باشا من المدينة نبأ وفاة حاكمها الذى شبت الثورة بين القبائل بسببه ، فأذاع طوسون هذا النبأ بين القبائل وأفهمهم أن أباه هو الذى أمر بقتله عقابًا له على فعلته ، فهدأت القبائل وجنحت إلى السلم وكفت عن قطع الطرق ، وكان موسم الحج قد أقبل فصار طريق الحجاج مأمونًا ، وحج محمد على للمرة الثانية وأقبل الحجاج من مصر ومن سائر الأقطار الإسلامية وأدوا الفريضة آمنين مطمئنين .

واقعة (بِسْل)

(يناير سنة ١٨١٥)

وبعد أن تمت مراسم الحج ، تجددت الحرب ، وأنفذ محمد على جنوده إلى (الطائف) تمهيدا للزحف ، وكان الوهابيون قد جمعوا من المقاتلة نحو عشرين ألفا حشدوهم بقيادة فيصل بن سعود بين (بسل) و(تربه) وكان لهم عدا ذلك احتياطى من نحو عشرة آلاف مقاتل ، فزحف محمد على فى نحو أربعة آلاف مقاتل على (بسل) الواقعة بين الطائف وتربه ، والتقى فيها بجيش الوهابيين (يناير سنة ١٨١٥) فدارت رحى القتال بين الفريقين واستعرت نار الحرب واستمرت المعركة من الفجر حتى المساء ، وانتهت بهزيمة الوهابيين وقتل منهم نحو ستمائة وتشتت الباقون ، وتعد واقعة (بسل) من أكبر وقائع الحرب الوهابية بل من أهم المعارك فى تاريخ مصر الحربى .

احتلال (تَرَبه) و (ورَنيه) ثم (بيشه)

تابع المصريون زحفهم بعد واقعة بسل فاحتلوا (تربه) ثم احتلوا كذلك (رنيه) و (بيشه) ولقى الجيش خلال هذه الغزوة متاعب هائلة ولم يكن غذاء الجنود فى الغالب سوى التمر، وكان محمد على يقاسمهم شظف العيش ليشجعهم على احتماله

احتلال قنفذه

ثم رجع إلى الشاطىء واحتل ميناء (قنفذه) وأبقى فيها حامية مصرية وذهب منها إلى جدة ومنها إلى مكة تحف به أعلام الظفر.

احتلال الرَّس

وزحف طوسون من المدينة على القسم الشمالى من نجد متشجعًا بتلك الانتصارات، فبلغ فى زحفه إلى الرَّس[11] إحدى مدن نجد المهمة فاحتلها، ثم احتل (الشُّبَيبية) الواقعة على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين، واستعد الجيشان فأخذ كل منهما يتأهب لمعركة فاصلة.

طلب الوهابيين الصلح

على أن طوسون رأى من المغامرة أن يبدأ بالهجوم لأنه أدرك أنه أمام قوات تفوقه عدداً، فتشاور وقواد جيشه واتفقوا رأيًا على الانسحاب إلى المدينة، ولكنه لم يكد يستقر رأيه على هذا العزم حتى أوفد إليه الأمير (عبد الله بن سعود) رسولا يعرض الصلح والطاعة، فدهش طوسون لهذه المفاجأة على حين كان يشعر بأن مركز عدوه قوى منيع، لكن ضعف (عبد الله بن سعود) وما جبل عليه من التردد كان من أهم البواعث التى مالت به إلى التسليم والخضوع.

فأجاب طوسون على طلب الصلح أنه لا يستطيع أن يجيب الطلب إلا بعد عرض الأمر على والده، وأنه يمنح الأمير الوهابى هدنة عشرين يومًا حتى يراجع والده، فقبل عبد الله بن سعود، وتهادن الفريقان ووقفت الحركات الحربية، وبقى كل جيش مكانه ينتظر الهدنة أن تنتهى.

---

(١١) تبعد عن المدينة نحو ٢٧٠ ميلا شرقًا بشمال.

رجوع محمد على إلى مصر

وفى غضون ذلك عاد محمد إلى مصر فجأة : ذلك أنه تلقى من مصر أنباء شغلته وأهاجت وساوسه ، إذ علم منها أن ثمة مؤامرة دبرها (لطيف باشا) فى غيبته كما سيجىء بيانه ، وبلغه كذلك أن حوادث خطيرة توشك أن تقع فى أوروبا إذ الصراع بالغ أشده بين نابليون والدول المتألبة عليه ، وعلم من الأنباء الأخيرة أن نابليون بعد أن هزمه الحلفاء ونفوه إلى جزيرة (البا) قد أفلت من منفاه ورجع إلى فرنسا واسترد عرشه وسلطته ، فخشى محمد على أن تكون عودة نابليون سببًا فى تجدد الحرب والقتال فى أوروبا واستهداف مصر لحملة جديدة إذ يفكر نابليون ثانية فى غزوها ، ومع أن هذه الفكرة لم يهجس بها نابليون بعد عودته من منفاه إلا أن محمد على كان شديد الحذر كثير الهواجس خوفًا على مركزه ، فأسرع بالرجعة إلى مصر لكى يتقى المفاجآت التى ليست فى الحسبان وعاد من طريق (القصير) فقنا فالقاهرة ، وذكر الجبرتى نبأ عودته فى حوادث رجب سنة ١٢٣٠ ، فقال إنه حضر إلى الجيزة ليلة ١٥ رجب (٢٣ يونية سنة ١٨١٥) .

مؤامرة لطيف باشا

أما مؤامرة لطيف باشا فحكايتها كما يذكرها جمهور المؤرخين أنه كان من مماليك محمد على شاب اسمه (لطيف أغا) قرّبه إليه واختصه وجعله أمين خزانته ، فلما جاءت الأنباء باستيلاء الجيوش المصرية على (المدينة) واستخلاصها من أيدى الوهابيين أوفده محمد على إلى الاستانة ليزف البشرى إلى الديوان العالى ، فأنعمت الحكومة التركية على لطيف أغا برتبة الميرميران فصار (لطيف باشا) ، فداخله الزهو والخيلاء ، وزين له بعض رجال (المابين) أن يأتمر بسيده ومنّوه الأمانى ووعدوه بالمساعدة على أن يخلفه فى ولاية مصر ، فقبل لطيف باشا هذه المهمة ، وخيل له زهوه وغروره أنها فكرة ناجحة ، وخاصة لأن محمد على عازم على التوجه إلى الحجاز فيكون غيابه خير فرصة لتنفيذ مهمته واعتلائه عرش مصر ، وعاد إلى القاهرة ونفسه مملوءة آمالا كبارًا ، وبدا عليه فى مصر من الغطرسة والكبرياء ما جعل الظنون تحوم حوله ، واستشف محمد على بثاقب نظره تغيرًا فى أطواره وحركاته ، فارتاب فى أمره ، وما أكثر ما يستهدف الناس للشبهات والريب فى ذلك العصر ، وزاد فى ارتيابه أن كتخداه (محمد لاظ أوغلى) المشهور بكراهيته لجنس المماليك نقم على لطيف باشا كبرياءه وخيلاءه وما ناله من المزايا

والرتب ، فألقى فى روع محمد على أنه يسرف فى بذل المال ويستكثر من الاتباع والمماليك فعسى أن يتخذهم جندًا ويحدث بهم حدثًا ، فتزعزعت ثقة محمد على فيه ، ولما مضى إلى الحجاز عهد إلى محمد لاظ أوغلى أن يرقب حركات لطيف باشا وأطلق له أن يتخذ ما يراه فى شأنه ، وكان الكتخدا معتزما التنكيل به ، فأخذ يؤلب عليه رؤساء الحكومة مثل حسن باشا ، وطاهر باشا ، وطبوز اوغلى ، ومحو بك ، ومحمود بك الدويدار ، وكذلك أوغر عليه صدر إسماعيل باشا ابن محمد على ، وصمم على قتله بعد أن أخذ للأمر عدته .

وفى اليوم الموعود باغته بدعوته إلى اجتماع يعقد فى القلعة للنظر فى بعض الشئون ، وخيره بين أن يحضر أو يغادر الديار المصرية ، وكان لطيف يعلم ما وراء هذه الدعوة من المهالك ، فحار فى أمره ، وبينما هو يفكر فى حيلة ينجو بها أبصر فرأى بيته يحاصره نحو ألفين من الجنود جاءوا ليقبضوا عليه وأخذوا يطلقون الرصاص على داره ، فعلم أن قد أحيط به ، وفكر فى الفرار ، فاستتر فى مخبأ بداره ومعه نساؤه ومملوك له حتى جن الليل ، فتسلل هو إلى بيت خازنداره واختفى فيه .

أما العسكر فاقتحم جماعة منهم دار لطيف باشا وكشفوا مخابئها ، وفتشوها تفتيشًا دقيقًا ، فعثروا على النساء والمملوك ، ولم يجدوا ضالتهم أى لطيف باشا ، ولما كان الغد أراد لطيف أن يغادر بيت خازنداره خشية أن تقع عليه عيون الرقباء لقربه من بيته ، فصعد إلى سطح البيت ، واعتزم أن يقفز من سطح إلى سطح ليلوذ بالهرب ، وبينما هو يقفز من سطح خازنداره أبصره أحد الجنود المراقبين له فصاح به لينبه إليه الرقباء ، فرماه لطيف باشا برصاصة جندلته ، ولكنها أيقظت نظر الرقباء فتعقبوه ، ولم تمض ساعات حتى ألقوا القبض عليه فكبلوه وساقوه إلى الكتخدا لمحاكمته .

فعقد الكتخدا ديوانا من كبار رؤساء الحكومة واتفقوا على إعدامه ، وسيق لطيف باشا إلى ساحة الإعدام تحت سلالم سراى القلعة وقطع رأسه .

ويلوح لنا أن ما ذكره جمهور المؤرخين من قبل أن قتل لطيف باشا يرجع إلى ممالأته لحكومة التركية على انتزاع ولاية مصر من محمد على أمر مشكوك فيه ، ولا يسهل تصديقه ، لأن الوقت لم يكن مناسبًا لخلع محمد على وهو منصرف إلى توجيه كل قواته لمحاربة الوهابيين ، وحكومة الاستانة لم تكن فى ذلك الحين تخشى بأس محمد على بل كانت فى حاجة إليه لتفرغ من الدولة الوهابية التى تنازعها السلطة والسيادة وتتهددها بإنشاء دولة عربية قد تنتزع منها

الخلافة ، فمحمد على كان وقتئذ مشمولاً برضا الحكومة التركية ، ولا يتفق منطق الحوادث مع تآمرها عليه فى هذه الظروف .

وأغلب الظن أن محمد على وحاشيته قد ساءهم الأنعام على لطيف باشا بالباشوية إذ لم يسبق للسلطان أن أنعم بها على أحد بعد تولية محمد على غير أبنائه ، وأخذت بطانة الباشا وخاصة كتخداؤه محمد لاظ أوغلى ينظرون بعين المقت والارتياب إلى لطيف باشا ، وزادهم مقتًا له ما بدا عليه من الغطرسة والخيلاء بعد عودته من الاستانة ، وكان لاظ أوغلى معروفا عنه كرهه للماليك ، ولطيف باشا كان فى الأصل مملوكًا ، فحقد عليه واعتزم التنكيل به كما تقدم ، واتخذ تهمة المؤامرة وسيلة لإنفاذ عزمه .

وقد ذكر الجبرتى حكاية المؤامرة ، ولم يؤيدها فى روايته ، وكذلك لم يروها مانجان بلهجة تفيد اليقين .

مشروع الصلح وإخفاقه

فى خلال الهدنة التى عقدها طوسون باشا مع (عبد الله بن سعود) جاءه كتاب من والده ينبئه أنه سافر إلى مصر لشئون هامة وأنه ترك له عدداً عظيمًا من الجند بقيادة خازنداره ، ويوصيه بالمبادرة إلى الزحف على (الدرعية) عاصمة الوهابيين لاستئصالهم والقضاء عليهم .

ورد خطاب محمد على إلى ابنه فأرسل يستدعى الخازندار إلى مدينة (الرس) قبل انقضاء أجل الهدنة ، وتشاور طوسون باشا هو وقواد الجيش ورؤساء القبائل الموالية ، واستقر رأيه على قبول الصلح ، واشترط لذلك شروطًا أهمها أن تحتل الجيوش المصرية (الدرعية) وأن يرد عبد الله بن سعود كل ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر وأن يكون رهن أوامر طوسون باشا حتى إذا طلب إليه السفر إلى أى جهة كائنة ما كانت أذعن للأمر ، وأن يؤمن سبل الحج ويكون خاضعًا لحاكم المدينة ، وألا يتم تمام الصلح إلا بعد عرضه على محمد على باشا وإقراره .

وأرسل عبد الله بن سعود وفدًا إلى القاهرة ليعرض الصلح على محمد على ، ووصل الوفد إلى مصر فى سبتمبر سنة ١٨١٥ ، ولكن محمد على أظهر تشدداً ولم يرض بالشروط التى عرضها ابنه ، وصمم على معاملة أمير الوهابيين معاملة الخوارج والعصاة ، ولعله كان يرمى إلى بسط حكمه على جزيرة العرب ، فرأى فى بقاء ظل لدولة الوهابيين مهما تظاهر عبد الله بن سعود

بالخضوع والولاء حائلا دون استقرار حكمه فى الجزيرة ، فآثر أن يمحق قوته ويأخذه أسيرًا ليقضى على دولته القضاء الأخير ، فطلب إلى الوفد قبل أن يصفح عن أميرهم أن يردَّ جميع ما أخذه الوهابيون من نفائس الحرم النبوى وأن يسلم الدرعية إلى حاكم المدينة وأن يحضر بنفسه ويذهب إلى الاستانة ليكون رهن أوامر السلطان وليقدم له حسابًا عن أعماله ، وكان محمد على يتوقع ألا تقبل شروطه القياسة وخاصة سفر عبد الله بن سعود إلى الاستانة لأن معنى ذلك تسليم عنقه إلى يد الجلاد ، وقد تحقق ما توقعه فإن عبد الله بن سعود لما بلغه نبأ هذه الشروط أرسل يقول أنه لم يبق لديه شىء من النفائس التى انتزعها أبوه حتى يرد منها شيئاً ، ورضى بأن يعين محمد على نائبًا عنه فى الدرعية يولى قبض الخراج أو أن يحدد الخراج بمبلغ معلوم يتعهد بأدائه ، ورفض شرط الذهاب إلى الاستانة .

فأرسل محمد على يتهدده بالحرب وينذره جيشًا جرارًا يكتسح بلاده ويخربها ، وبذلك أخفقت مفاوضات الصلح ، وتأهب عبد الله بن سعود للحرب والقتال ، وجرد محمد على حملة جديدة على الحجاز بقيادة أكبر أنجاله إبراهيم باشا .

رجوع طوسون باشا إلى مصر

علم طوسون باشا وهو فى الحجاز بأنباء الفتنة العسكرية التى أثارها الجنود الأرناءود بالقاهرة وما وقع منهم من النهب والتمرد مما سيجىء بيانه ، فقرر العودة إلى مصر ، وسار من المدينة إلى ينبع ، ومنها إلى السويس بحرًا ، وكان وصوله إليها فى غاية شهر ذى القعدة سنة ١٢٣٠ ، وقدم القاهرة يوم ٥ ذى الحجة (٨ نوفمبر سنة ١٨١٥) ، وكان الاحتفال باستقباله عظيمًا بالغًا ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : «فى رابع ذى الحجة سنة ١٢٣٠ نودى بزينة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا سرورًا بقدومه ، فلما أصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع ، وعملوا له موكبًا حافلاً ، ودخل من باب النصر ، وعلى رأسه الطلخان وشعار الوزارة ، وطلع إلى القلعة وضربوا فى ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكا وحراقات» .

استئناف الحرب فى الحجاز بقيادة إبراهيم باشا

أبدى محمد على همة كبيرة فى تجريد الحملة الجديدة ، وظل ستة أشهر بعد معداتها ، وعقد لواءها لابنه الأكبر إبراهيم باشا[١٢] ، فأمر بجمع المراكب فى ساحل بولاق لنقل المؤونة والذخائر والمدافع والمهمات إلى قنا ومنها تنقل براً إلى ثغر (القصير) لتقلع منه إلى (ينبع) بحرًا ، وسار إبراهيم باشا من بولاق يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ قاصدًا قنا ، ولما وصل إلى أسيوط جند ألفين من الفلاحين لينضموا إلى الحملة .

ولما بلغت الحملة إلى قنا نقلت على ظهور الإبل إلى القصير ، وأعد إبراهيم باشا ستة آلاف جمل قدمها عرب العبابدة لهذه الغاية ، فمضت الحملة إلى ميناء القصير وأقلعت بهم سفن الأسطول المصرى إلى ينبع ، فبلغتها يوم ٢٩ سبتمبر ، وكان يصحب ابراهيم باشا ضابط فرنسى من ضباط أركان الحرب وهو المسيو فيسيير Vaissiere وطبيب وجراحان وصيدلى من الايطاليين .

ولم يكد يستقر به المقام فى ينبع حتى سار إلى المدينة ، فأدى فروض الزيارة النبوية ، وأخذ يستعد للزحف والقتال .

وفى اليوم الرابع من عيد الأضحى سار بجيشه وقصد (الصويدرة) شمالى المدينة واتخذها معسكره العام وأخذ يجهز المعدات ويجمع الإبل للزحف على نجد ، ولكنه عانى مصاعب كثيرة فى بدء الحملة ، منها أن معظم القبائل كانت ممالئة للوهابيين على محاربة الجيش المصرى ، فأخذوا يناشدون القوافل بين الصويدرة والثغور البحرية . فأنفذ إبراهيم باشا لمحاربتهم قوة من ألفى جندى التقت بهم على مسيرة يومين وأوقعت بهم الهزيمة .

ثم أخذ العرب يؤثرون الجانب المصرى على الوهابيين لما لم يجدوا من هؤلاء منفعة أو طائلا ، فانضموا إلى إبراهيم باشا وتعهدوا بتقديم ما يطلب من الإبل وغيرها .

زحف إبراهيم باشا من (الصويدرة) وسار إلى (الحناكية) وعسكر بها وتحصن فيها ، واتخذها نقطة ارتكاز لزحفه ، ثم تحرك منها قاصدًا (الرس) التى اتخذها عبد الله بن سعود معسكراً له ، وكان الوهابيون قد احتلوها بعد عودة طوسون باشا إلى مصر .

---

(١٢) أنعم عليه السلطان بالباشوية مكافأة لأبيه على خدماته ، وكان يبلغ من العمر سبعًا وعشرين سنة .

وفاة طوسون باشا

(سبتمبر سنة ١٨١٦)

رجع طوسون باشا إلى مصر كما قدمنا ، وبعد أن استقر به المقام تولى قيادة الفرق التى أنفذها محمد على لترابط على فرع رشيد ، وكان غرض محمد على توزيع الجنود فى مختلف أنحاء الوجه البحرى حتى لا يكون احتشادهم فى القاهرة خطراً على النظام بعد ما بدا منهم من التمرد والعصيان ، ولكى يلقى فى روعهم أنه لا يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم أمر بأن يصحبهم فى معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه ورؤساء جنده ، فتولى طوسون باشا قيادة بعض تلك الفرق كما قدمنا ، واتخذ معسكره فى (برنبال) الواقعة بالبر الشرقى للنيل تجاه رشيد ، والتمس بها الراحة من عناء المعارك التى خاضها فى الحجاز ، فاتخذ الموسيقيين والراقصين والراقصات والمغنيات ومجالس اللهو ، وبقى بها إلى أن عاجلته منيته ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦ إثر مرض ثار به فجأة ، قيل إنه نشأ من تهالكه على اللذات ، ولم يمهله أكثر من عشر ساعات ثم فاضت روحه ، فنقلت جثته بطريق النيل إلى القاهرة ودفن فى مقابر الإمام الشافعى .

توفى طوسون وهو مقتبل الشباب إذ لم يتجاوز العشرين من عمره ، فجزع أبوه على فقده جزعاً شديداً وحزن الناس لوفاته لما كان عليه من الشجاعة والجود والميل إلى الشعب .

حصار (الرّس)

اشتبكت طلائع الجيش المصرى بالوهابيين على مقربة من (الرس) ، فكانت الغلبة للجيش المصرى ، لما امتاز به من النظام والتسلح بالبنادق الحديثة ، ومعاونة العربان من قبيلة حرب .

هزم الوهابيون ورجعوا القهقرى ، وامتنع عبد الله بن سعود فى (الرس) ، فضرب عليها إبراهيم باشا الحصار ، وجلب المدافع لرميها ، وأقام الاستحكامات حولها ، لكنها كانت على قوة ومنعة ، فاستمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما دون أن ينال منها طائلا ، ودافع عنها الوهابيون دفاع الأبطال بالرغم من قتالهم جيشاً مسلحاً بالبنادق الحديثة ، ولم يكن عندهم إلا البنادق من الطراز العتيق الذى يطلق بالفتيلة ، ومع ذلك صدوا هجمات الجيش المصرى ثلاث مرات وكبدوه خسائر جسيمة ، وبلغ عدد قتلاه مدة الحصار ٢٤٠٠ جندى ، على حين

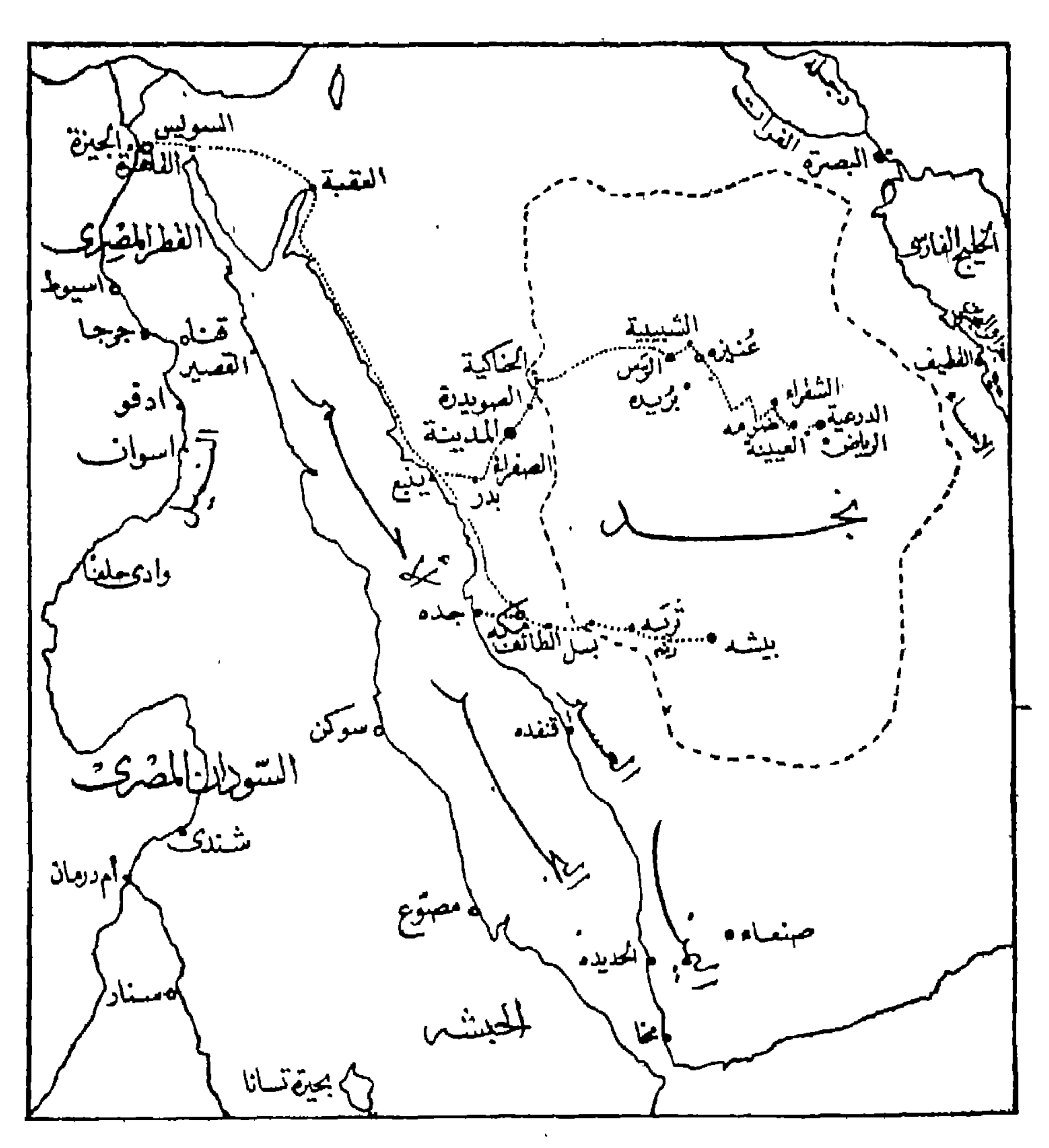
لم يقتل من الوهابيين سوى ١٦٠ مقاتلا ، وهذا يدلك على فداحة الخسائر التى أصابت الجيش المصرى فى حصار (الرس) .

وقد أدرك إبراهيم باشا أن خسائره ستتفاقم إذا هو استمر فى الحصار ، وأن ذخيرته نقصت ومؤونته كادت تنفذ ، وأصبح الجيش هدفًا للمجاعة . أضف إلى ذلك ما خامر نفوس الجنود من الملل واليأس ، وما قاسوه من الشدائد والأهوال ، ثم انتشار الأمراض بينهم ، وهبوب الزعازع والأعاصير التى كانت تقتلع الخيام فترمى بها فلا يجد الجنود وخاصة المرضى والجرحى مأوى لهم .

فاضطر إبراهيم باشا أن يرفع الحصار عن (الرس) ، وأن يقبل من عبد الله ابن سعود شروطًا لوقف القتال ما كان ليرضاها لو لم تمتنع عليه ، فصالحه على أن يرفع الحصار عن المدينة وأن يضع أهلها سلاحهم ويقيموا على الحياد ، ولا يدخل الرس أحد من جنود إبراهيم باشا أو ضباط جيشه ، ولا يجبر الأهالى على تقديم شىء من المؤونة للجيش ، ولا يؤدوا إتاوة ، وأنه إذا استولى الجيش على مدينة (عُنيزة) تسلم له (الرس) بدون قتال ، وإن لم يفلح يعود القتال ثانية .

سار إبراهيم باشا قاصدًا (عنيزة) ، واحتل فى طريقه (الخبراء) بعد أن ضربها بالمدافع عدة ساعات ، واستراح الجيش بها أحد عشر يومًا ، ثم سار إلى (عنيزة) وحاصرها ستة أيام إلى أن سلمها حاكمها محمد بن حسن على ألا تؤسر الحامية الوهابية وأن يؤذن لها بالذهاب أنى شاءت بشرط أن تتخلى عما لديها من الأسلحة والذخائر والمؤونة ، فرضى إبراهيم باشا بهذه الشروط ودخل المدينة ، ثم أرسل كتيبة من الجند لاحتلال (الرس) طبقا للشروط التى اتفق عليها من قبل .

كان لسقوط (عنيزة) بهذه السرعة أثر كبير فى سير القتال ، لأنها من أهم مواقع نجد فتراجع عبد الله بن سعود إلى (الشقراء) ، وأخذ يحصن (الدرعية) مخافة أن تتداعى بتأثير ضربات إبراهيم باشا ، وجنحت القبائل فى بلاد القصيم إلى التسليم خوفًا من بطش إبراهيم وأذعنت له .



خريطة الحرب الوهابية

وفيها بيان المواقع التى ورد ذكرها فى الفصل الخامس

فتح الشقراء

(يناير سنة ١٨١٨)

استأنف إبراهيم باشا الزحف ، فاحتل (بُرَيدة) بعد قتال طفيف ، وبقى بها شهرين تلقى فى خلالها المدد من مصر ، ثم سار فى أواخر ديسمبر سنة ١٨١٧ قاصدًا (الشقراء) وهى من أمنع بلاد نجد فوصلها يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ وضرب عليها الحصار ، وأخذ يشدد فى حصارها ويضربها بالمدافع حتى طلب أهلها التسليم ، ورضى منهم ألا يأخذ منهم أسرى وأن يؤذن لهم بالذهاب حيث شاءوا على ألا يحملوا السلاح ثانيًا لقتال الجيش المصرى وإذا نقضوا عهدهم استحل دماءهم .

ودخل إبراهيم باشا المدينة دخول الظافر يوم ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ .

كان فتح (الشقراء) انتصارًا كبيرًا للجيش المصرى لما لموقعها من الشأن والخطر ، ولما وصلت إلى مصر أنباء هذا الفتح قوبلت بابتهاج عظيم .

قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفى أواخر ربيع الثانى سنة ١٢٣٣ (فبراير سنة ١٨١٨) حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لإبراهيم باشا وأنه استولى على بلدة تسمى (الشقراء) ، وأن عبد الله بن سعود كان بها فخرج منها هاربًا إلى الدرعية ليلا ، وأن بين عسكر الأتراك والدرعية مسافة يومين ، فلما وصل هذا المبشر ضربوا لقدومه مدافع من أبراج القلعة وذلك وقت الغروب من يوم الأربعاء سادس عشرينه » .

فتح الدرعية

(سبتمبر سنة ١٨١٨) .

أنشأ إبراهيم باشا فى الشقراء مستشفى وترك بها فصيلة من الجنود ، وسار قاصدًا (الدرعية) عاصمة الوهابيين ، وكانت تبعد عن المدينة المنورة التى اتخذها إبراهيم باشا قاعدة للحركات الحربية بنحو ٤٠٠ ميل ، وهذا يدلك على عظم المراحل التى قطعها الجيش فى الحرب والقتال .

فعرج فى طريقه إلى (الدرعية) على (ضُرمة) إذ علم أن بها كثيرا من المؤونة والجياد ،

فامتنعت عليه ، فضربها بالمدافع ودافع حاكمها وأهلها عن مدينتهم دفاعًا شديدًا وقتلوا كثيرا من المهاجمين ، واستمر القتال حتى طلب الحاكم التسليم على أن يخلى البلد ، فأخلاها وترك الأهالى هدفا لبطش الجيش ، وأمر إبراهيم باشا بقتلهم عقابًا لهم على ما كبدوا الجيش من الخسائر ، فقتلوا جميعًا .

بقى إبراهيم باشا شهرين فى (ضرمة) حيث عاقته الأمطار عن الزحف ، ثم غادرها فى ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ قاصدًا (الدرعية) عاصمة الوهابيين ، فخطّ تجاهها يوم ١٦ أبريل فى جيش مؤلف من خمسة آلاف وخمسمائة من المشاة والفرسان مجهزين باثنى عشر مدفعا .

تتألف (الدرعية) من خمسة أحياء متجاورة يحيط بكل منها سور ، فكانت المدينة محصنة تحصينًا منيعًا وفيها بعض المدافع يستعملها الوهابيون فى القتال .

رتب إبراهيم باشا مواقع جنوده وأعد العدة لمهاجمتها ، وعاونه فى رسم خطط الحصار الضابط الفرنسى الذى يصحبه وهو المسيو فيسيير Vaissiere ، وبدأ إبراهيم يضرب المدينة بالمدافع ، ولكنها امتنعت عليه ودافع عنها الوهابيون دفاع الأبطال واشترك نساؤهم فى القتال فكان دفاعهم مجيدًا .

استمر الحصار أكثر من شهرين والمدينة مستعصية على الجيش المصرى ، فبدأ مركزه يتحرج ، وزاد فى حرجه أن الطبيعة أصابت الجيش بنكبة كادت تودى به لولا ثبات إبراهيم باشا وعزيمته الحديدية ، فقد هبت عاصفة على معسكر الجيش يوم ٢١ يونيه ١٨١٨ أطارت نارًا كان أحد الجنود يوقدها ، فاندلعت النار إلى خيمة منصوبة على قرب من مستودع الذخيرة ، فاحترقت الخيمة وامتدت نارها إلى المستودع فانفجر لساعته ونسف الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش ، فذعر الجنود لدوى الانفجار ولما أصاب الذخيرة من التدمير ، وكادت تحل الهزيمة بالجيش ويختل نظامه لولا أن قابل إبراهيم باشا تلك الكارثة بالشجاعة والجلد ، ومما يؤثر عنه فى هذا الموقف أنه قال لمن حوله : « لقد فقدنا كل شىء ، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا فلنتذرع بها ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض » .

وأخذ يشجع الضباط والجنود ، وأرسل يطلب الذخيرة من المواقع التى يحتلها الجيش المصرى ، كالشقراء ، وبريدة ، وعنيزة ، ومكة والمدينة ، وينبع .

وعلم الوهابيون بما حل بذخيرة الجيش المصرى ؛ فقرروا الهجمة عليه لعلهم يأخذونه من ضعف ، وهاجموه فعلا فى اليوم التالى ؛ ولكن إبراهيم باشا أحكم خطط القتال وأمر جنوده

بالاقتصاد فى الذخيرة فرد الوهابيين على أعقابهم ، واستمرت الحرب سجالًا إلى أن جاءته الذخيرة فسد بها النقص ، وتلقى من أبيه رسالة بأنه ممده بثلاثة آلاف من المقاتلة بقيادة خليل باشا ، فاعتزم إبراهيم باشا أن يضرب الضربة القاضية قبل أن يتلقى المدد لكى لا يشاركه خليل باشا فى فخر الظفر بالوهابية .

رواية الجبرتى

أشار الجبرتى إلى تلك الحوادث بقوله :

« وفى منتصفه (رمضان سنة ١٢٣٣ – يوليو سنة ١٨١٨) وصل نجّاب وأخبر بأن إبراهيم باشا ركب إلى جهة من نواحى الدرعية لأمر يبتغيه ، وترك عرضيه (جيشه) ، فاغتنم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضى على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة ، وأحرقوا الجبخانة (الذخيرة) ، فعند ذلك قوى الاهتمام وارتحل جملة من العساكر فى دفعات ثلاث برًا وبحرًا يتلو بعضهم بعضا فى شعبان ورمضان ، وبرز عرضى (جيش) خليل باشا إلى خارج باب النصر » .

وقال فى حوادث شوال من تلك السنة : « وفى ثامنة ارتحل خليل باشا مسافرًا إلى الحجاز من القلزم وعساكره الخيالة على طريق البر » ، ومعنى هذا أن المشاة ذهبوا من السويس بحرًا وسار الفرسان برًا من طريق برزخ السويس إلى الحجاز ، فتأمل عظم المراحل التى كان يقطعها الجنود والمتاعب الهائلة التى كانوا يتكبدونها فى تلك الحرب الشاقة .

قلنا إن إبراهيم باشا اعتزم أن يضرب الدرعية الضربة القاضية ، فوجه قواته إلى كل حى من أحيائها ، واحدًا إثر آخر ، فاستولى على الأول ثم على الثانى ثم على الثالث ، وبذلك ضاق الخناق على الوهابيين ، وكان الحصار قد دام خمسة أشهر ، فرأى عبد الله بن سعود أن ليس فى مقدوره المقاومة بعد أن فدحته الخسائر ونالته الأوصاب من طول الحصار وأهواله ، فجنح إلى الصلح والتسليم ، وأرسل يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ رسولا إلى إبراهيم باشا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح .

فابتهج إبراهيم باشا لهذه الرسالة ابتهاجًا عظيمًا ، وأذن بوقف القتال ، ثم جاء عبد الله بن سعود بنفسه إلى معسكر إبراهيم باشا ، فتلقاه القائد العظيم بالحفاوة والإكرام ، وتم الاتفاق بينهما على أن تسلم (الدرعية) إلى البطل إبراهيم وأن يتعهد بالإبقاء عليها ، وألا يوقع بالوهابيين

أو ينالهم بضرر ، وأن يذهب عبد الله بن سعود إلى مصر ثم إلى الاستانة كما هى رغبة السلطان ، فرضى عبد الله بن سعود بهذه الشروط ، واستولى الجيش المصرى على الدرعية بعد حصار دام نحو ستة أشهر ، .وبعد فتح الدرعية لم تلبث المدن الباقية من نجد أن سلمت وخضعت لقائد الجيش المظفر .

كان محمد على فى خلال تلك الوقائع قلقًا على مصير الحملة التى يقودها ابنه فى فيافى نجد ووهادها ، وتأخرت عنه أخبارها ، فاشتدت هواجسه ومرض بعينه وطلب من العلماء أن يقرءوا البخارى ويتوجهوا إلى الله بدعواتهم مبتهلين أن ينصر جيشه ، قالا الجبرتى فى حوادث رمضان سنة ١٢٣٣ (يوليو سنة ١٨١٨) : « وانقضى شهر الصوم والباشا متكدر الخاطر ومتقلق ومنتظر ورود خبر يسر بسماعه » .

إلى أن جاءته البشرى بانتصار إبراهيم باشا ودخوله الدرعية ، فابتهج لهذه البشرى أيما ابتهاج ، وأطلقت المدافع من القلعة يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨١٨ ، إعلانًا لهذا النصر المبين .

انتهاء الحرب الوهابية

انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصرى وبسط نفوذ مصر فى بلاد العرب ، وكانت هذه الحرب من أشقّ حروب مصر فى عهد محمد على وأكثرها ضحايا وأعظمها نفقات ، وقد تخللتها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضى على الحملة المصرية ، فإن الجيوش التى جردها محمد على استهدفت للخطر فى مواطن عدة وخاصة فى هزيمة (الصفراء) الأولى ، وحصار (الرس) عندما استعصت على إبراهيم باشا ، وفى حصار الدرعية ، وعند ما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها . ففى تلك المرات الأربع كادت الحملة المصرية تقع فى الأسر لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام .

ومن الأسباب التى أدت إلى اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود والأموال التى بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد على واشتروا بها ذمم البدو ، فإن القبائل التى انحازت إلى جانب الجيش المصرى قد عاونته معاونة كبيرة ، ولولا ذلك لكانت مواصلاته عرضة للانقطاع ولما استطاع أن يقطع تلك المراحل الشاقة فى بلاد مقفرة ، أضف إلى ذلك أن عزيمة محمد على وإبراهيم ، وما احتمله الجيش المصرى من الصبر على المشاق والأهوال ، كل ذلك كان له

الفضل الأكبر فى ماأدركه من الفوز ، وبفضل تلك التضحيات الجسيمة أمكن مصر أن تبسط نفوذها فى مفاوز جزيرة العرب تلك التى يصعب على أى دولة أن تخضعها ، وقد ظل هذا النفوذ مبسوطًا على أنحائها إلى أن تقلص ظله فى أواخر عهد محمد على كما سيجىء بيانه .

الحفلات الحربية فى عهد محمد على

كان للأنباء التى جاءت بفتح الدرعية وانتهاء الحرب الوهابية أثر ابتهاج عظيم فى مصر ، وقوبلت باحتفالات بالغة وصفها الجبرتى بقوله :

« فى سابع ذى الحجة سنة ١٢٣٣ (أكتوبر سنة ١٨١٨) وردت بشائر من شرق الحجاز براسلة من عثمان أغا الوردانى أمير الينبع بأن إبراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية ، فانسرّ الباشا لهذا الخبر سرورًا عظيمًا ، وانجلى عنه الضجر والقلق ، وأنعم على المبشر ، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش ، وفى ثانى عشر وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع ، وذلك قبيل العصر ، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة ، واستمر الضرب من العصر إلى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع ، وصادف ذلك شنك أيام العيد ، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق » .

وتجددت الحفلات فى شهر محرم سنة ١٢٣٤ (نوفمبر سنة ١٨١٨) لمناسبة ورود تفاصيل الانتصارات التى نالها إبراهيم باشا ، وأسهب الجبرتى فى وصف تلك الحفلات مما يدلك على فخامتها وبهائها .

فقد نودى بزينة المدينة سبعة أيام ، ونصبت السرادقات خارج باب النصر ، ومن بينها سرادق محمد على باشا وباقى الأمراء لمشاهدة الحفلات ، وهى مناورات حربية تتخللها حركات فروسية قام بها الخيالة والمشاة ، واقترنت بإطلاق المدافع بكثرة هائلة « بحيث يتخيل الإنسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المترامحين رعودا هائلة » ، وفى الليل كانت توقد المصابيح والمشاعل ، وتطلق السواريخ والحراقات ، وتضرب المدافع .

وبعد انقضاء السبعة الأيام أعدت حفلات أخرى فى جهة بولاق تختلف فى نظامها وأوضاعها عن حفلات باب النصر ، فهذه كانت برية ، أما حفلات بولاق فكان ميدانها

النيل وشاطئيه ، ولعلها لذلك كانت أبدع وأروع ، فقد استؤجرت الأماكن المطلة على البحر بأجور مرتفعة لتزاحم الناس على مشاهدتها واستجلاء مناظرها ، وكان قوام الحفلات مناورات بحرية تقوم بها السفن والمراكب تمثل فيها المعارك البحرية ، ولبست بولاق حلة من الرونق والبهاء ، وأقبل الناس من كل صوب لمشاهدة معالم الزينة « وزين أهالى بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم ، ودقت الطبول والمزامير والنقرازانات فى السفائن وغيرها ، وطبلخانة (موسيقى) الباشا تضرب فى كل وقت ، والمدافع الكثيرة تضرب فى ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشاء ، وتوقد المشاعل وتعمل أصناف كل الحراقات والسواريخ والنفوط ، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين » .

ولعلك تلحظ من التأمل فى وصف الجبرتى لهذه الحفلات أنها فاقت فى جلالها وفخامتها كل ما تقدمها من الحفلات فى مختلف المناسبات ، ولم نجد فيما وصفه بعد ذلك من الحفلات لغاية انتهاء كتابه (سنة ١٨٢١) ما يدانيها فى الروعة والبهاء ، وهذا يدلك على عظم تقدير الشعب للانتصارات الحربية وما تستثيره فى النفوس من روح الفخر والعزة ، ولا جرم أن الحفلات الحربية هى مظهر من مظاهر تقدم الشعوب وتقديرها لمفاخرها القومية وتكريم الفضائل والأخلاق الحربية ، فالحفلات التى وصفها الجبرتى تنطوى على هذه المعانى السامية ، وليس عجبًا أن تحتفل مصر بفتح الدرعية فإن فتحها هو أعظم انتصار نالته فى أول حرب خارجية خاضت غمارها فى تاريخها الحديث ، فالدرعية هى عاصمة الوهابيين ، وبفتحها توجت حرب شاقة دامت سبع سنوات وكللت بالنصر والظفر .

مقتل عبد الله بن سعود

جاء عبد الله بن سعود إلى مصر أسيرًا فنزل القاهرة يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨ وتلقاه محمد على فى قصره بشبرا فأكرم مثواه ، ثم أمر برحيله إلى الاستانة ، فوصلها وهناك قتل بأمر السلطان .

تخريب الدرعية

لم يف محمد على بعهود ابنه ابراهيم فى شروط الصلح ، فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها وأن يرسل إلى القاهرة أخوة عبد الله بن سعود ، فنزل إبراهيم على أمر أبيه وأرسل أخوة ابن سعود وخرب الدرعية وأحرقها .

عودة إبراهيم باشا إلى مصر

بقى إبراهيم باشا بعد سقوط (الدرعية) يوطد نفوذه فى تلك الأصقاع ، وظل كذلك إلى ان اعتزم العودة إلى مصر ، فرجع من طريق القصير فقنا ، وانحدر فى النيل حتى بلغ الجيزة يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ ، وقابل والده فى قصره بشبرا ، فضمه إلى صدره مفتخرًا بابنه العظيم ، ثم دخل إبراهيم القاهرة من باب النصر فى اليوم التالى دخول الظافر ، وشق المدينة من باب النصر إلى القلعة فى موكب مهيب ، واحتشدت الجماهير لمشاهدته وتحيته ، وجاء محمد على إلى مسجد الغورى وشاهد موكب ابنه أثناء مسيره ، ولما بلغ إبراهيم باشا القلعة استأنف سيره فى موكبه إلى مصر القديمة وقصد من هناك إلى قصره بجزيرة الروضة ، وزينت المدينة ابتهاجا برجوع القائد الكبير ، وظلت فى أفراح وزينات سبعة أيام متواليات أو كما يقول الجبرتى : « استمرت الزينة والوقود والسهر بالليل ، وعمل الحراقات ، وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ، والمغانى والملاعب فى مجامع الناس سبعة أيام بلياليها ، فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط » .

فتح سيوه

(فبراير سنة ١٨٢٠)

كان محمد على لا يفتأ يعمل لتوسيع تخوم الديار المصرية والوصول إلى حدودها الطبيعية ، فمن ذلك أنه جهز تجريدة من ١٣٠٠ جندى بقيادة حسن بك الشماشرجى لفتح واحة سيوه ، فسار إليها حسن بك يقود هذه الحملة ونشب قتال بينه وبين أهلها دام ثلاث ساعات وانتهى بهزيمة الأهلين وخضوعهم وطلبهم الأمان واعترافهم بالطاعة والولاء للحكومة المصرية (فبراير سنة ١٨٢٠) ، وانضمت هذه المنطقة من ذلك الحين إلى حظيرة الوطن ، وقد أبدى حسن بك الشماشرجى فى تلك الحملة حزما ودراية .

ومما هو جدير بالملاحظة أن فتح سيوة وقع فى أوائل سنة ١٨٢٠ أى قبيل الحملة التى جردها محمد على لفتح السودان ، وأغلب الظن أنه أراد أن يأمن على حدود مصر الغربية قبل الزحف جنوبًا .

وقد انتظمت شئون سيوة فى عهد الحكم المصرى ، وقصدها رواد الاكتشاف وجابوا أنحاءها لتعرف أحوالها واكتشاف آثارها ، وعاونهم حسن بك الشماشرجى فى مهمتهم ، ومن هؤلاء المسيو لينان دى بلفون Linant de Bellefonds كبير مهندسى محمد على ، والمسيو دروفتى Drovétiti قنصل فرنسا العام فى مصر ، والمسيو ريتشى Ricci من أطباء إيطاليا وغيرهم ، فكان الفتح المصرى ممهدا السبيل للفتح العلمى والحضارة .

* * *

الفصل السادس

فتح السودان

(سنة ١٨٢٠ – ١٨٢٢)

السودان جزء لا يتجزأ من مصر ، والحدود الجغرافية والقومية لمصر تشمل وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، فمصر والسودان جزءان لا ينفصلان من وحدة سياسية واقتصادية لا تقبل التجزئة ، تربطها روابط الوطن والتاريخ واللغة والدين ، وصلات الدم والنسب والمرافق المشتركة .

والسودان معدود منذ القرون الغابرة جزءاً من مصر ، ولقد أثبت (ماسبرو) وغيره من المؤرخين ما بين مصر والسودان من الروابط التاريخية القديمة ، وثبت من النقوش الهيرغليفية أن الملك (تحو تمس الأول) توغل حتى إلى منطقة البحيرات واحتل بعض النقط الحربية التى كانت على النهر[1] ، وإذا كان السودان قد فصل عن مصر فى بعض الأزمنة قديماً أو حديثاً فلم يكن ذلك إلا خروجاً على القاعدة الأزلية وهى أنه جزء لا يتجزأ من مصر .

إن ارتباط مصر والسودان ضرورة حيوية لها ، وخاصة لمصر ، فإنها تستمد حياتها من النيل ، فهى هبة النيل كما قال هيرودوت ، أو كما يقول المعاصرون : مصر هى النيل والنيل هو مصر ، فلا تطمئن على حياتها إذا تملكت منابع النيل دولة أخرى ، ولا يتحقق استقلال مصر التام إلا إذا شمل وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، وصارت هى والسودان وحدة سياسية تتألف منها الدولة المصرية المستقلة ، ولا تمييز فى ذلك لمصر على السودان فى هذه الوحدة ، فكلاهما جزء لا يتجزأ من هذا الوادى ، وكلاهما يكمل الآخر ولا غنى له عنه ، فمصر لا تستطيع أن تقف على قدميها منفصلة عن السودان ، والسودان أيضاً لا يستطيع أن يقف على قدميه منفصلا عن مصر ، وإذا انفصلا يفقد كل منهما كيانه ويصبح كلاهما إقليما تنقصه مشخصات الدولة ومقوماتها .

(١) شايى لونج بك . مصر ومديرياتها المفقودة ص ٤٠ .

هذه المبادىء وتلك الحقائق التى برهنت على صحتها عظات التاريخ على تعاقب العصور ، ونطقت بها الحوادث السياسية فى مدى مائة العام الأخيرة ، قد عمل محمد على باشا على تحقيقها ، فلم يكد يوطد مركزه وينال الانتصارات العظيمة ، التى فاز بها الجيش المصرى فى حرب الوهابيين حتى صحت عزيمته على فتح السودان ونشر علم مصر الخفاق فى أصقاعه وربوعه .

إن فتح السودان هو ثالث الحروب التى خاضت مصر غمارها فى عهد محمد على لتأليف وحدتها السياسية ، ولو لم تلحّ عليه تركيا فى المبادرة إلى تجريد الجيوش على شبه جزيرة العرب لكان فتح السودان أول حروبه بعد أن ردّ الغزوة الإنجليزية ، لأن محمد على لم يكن ليغفل عن أهمية السودان الحيوية لمصر ، لكن الضرورات السياسية هى التى شغلته ردحًا من الزمن عن فتحه وجعلته يبدأ بحرب الوهابيين .

أسباب فتح السودان

يذكر المؤرخون بواعث وأسبابا عدة لفتح السودان ، فمنها رغبة محمد على فى اكتشاف مناجم الذهب والماس التى تناقل الناس أنها موجودة فى أصقاع السودان ، وخاصة فى سنار ، ثم إمكان تجنيد السودانيين فى الجيش المصرى النظامى لما اشتهر به الجنود السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء ، ثم رغبته فى التخلص من الفرق الباقية من عسكر الأرناءود وغيرهم من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب ، وعادوا إلى مصر وظلوا على ما جبلوا عليه من النزوع إلى العصيان والتمرد والإخلال بالنظام ، فرأى محمد على تخلصًا منهم أن يجردهم على السودان ، وخاصة لأنه شرع وقتئذ فى تأسيس الجيش المصرى النظامى كما سيجىء بيانه ، ومن أغراضه أيضا القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين كانوا لاجئين إلى إقليم دنقلة ، وهم على ما بلغوا إليه من الضعف كانوا مصدر قلق لمحمد على ، فاعتزم القضاء عليهم لكى لا يستردوا قوتهم يومًا ما ويزحفوا على مصر ، وكان يرمى كذلك إلى توسيع ملك مصر من الجنوب ، واكتشاف منابع النيل ، وإيجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان ، وتوسيع نطاق المعاملات التجارية بينهما ، إذ لم يكن يقصد السودان من المشتغلين بالتجارة سوى فئة قليلة من التجار المخاطرين بأنفسهم من سكان الوجه

القبلى ، وكانت أسفارهم فى الغالب عرضة للخطر ، وتحولت معظم متاجر السودان إلى طريق سواكن ومصوع من ثغور البحر الأحمر وكاد ينقطع ورودها إلى مصر ، فرأى محمد على أن يبسط نفوذ مصر فى السودان لتكون طريقاً لمتاجرها ، وأدرك أن فى توسيع نطاق التجارة بين مصر والسودان فائدة لعمران البلدين وتنمية لما تجبيه الحكومة من المكوس على المتاجر فيزداد دخلها ، ويعوضها بعض ما فقدته من الأموال والنفقات فى الحرب الوهابية .

هذه هى الأسباب والبواعث التى يذكرها جمهور المؤرخين لفتح السودان ، وكلها كما ترى أسباب صحيحة ووجيهة ، ولكن يلوح لنا أن ضمان سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية والاطمئنان على منابع النيل كانت من أهم البواعث التى حفزت محمد على إلى فتح السودان ، فإن ما اشتهر به ذلك الرجل العبقرى من بعد النظر وصدق العزيمة لابد قد جعله يقدر أهمية السودان لمصر ، ويدرك أن الاستقلال لا يتحقق إلا إذا تملكت مصر مجرى النيل من منبعه إلى مصبه .

قال فى هذا الصدد (سدنى بيل) أحد نبلاء الإنجليز فى كتابه [٢] : كانت العوامل التى حملت محمد على أن يفتح السودان كثيرة ، ولكنه من المعتقدين فى فوائد الرى ومنافعه ، فيرجح كثيراً أن الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى أحد أغراضه .

ويقول إبراهيم باشا فوزى فى كتابه :

« قضى ساكن الجنان محمد على باشا محيى الديار المصرية لبانتين من فتح السودان ، بل تخلص من ورطتين كبيرتين ، فقد علمت من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على باشا أن دولة أوربية كبيرة كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل ، فاهتم لهذا الخبر أكبر اهتمام واستشار كثيراً من المهندسين الأوربيين الذين جاء بهم من بلادهم إلى القطر ، فأقروا بالإجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد مغبته حيث تصير حياة مصر فى يدها فصمم على إنفاذ الحملة إلى السودان » [٣] .

وغير خاف أن تلك الدولة التى يشير إليها فوزى باشا فى كتابه هى انجلترا ، فهى التى كانت تناوئ محمد على وتدأب للسعى فى احتلال مصر وبسط نفوذها عليها ، وقد شرعت فعلا فى احتلالها سنة ١٨٠٧ وجردت عليها حملة الجنرال فريزر كما تقدم بيانه فى الفصل الثانى وهزمت

---

(٢) ضبط النيل والسودان الحديث ص ١٤١ .

(٣) كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر جزء ١ ص ٥٨ .

هذه الحملة فى رشيد والحماد ، مما اضطرها إلى الجلاء عن البلاد ، فأرادت بعد ذلك أن تسيطر على مصر من الجنوب بعد أن أخفقت من الشمال .

ففتح السودان هو إذن حرب قومية بحتة ، والغرض منها من أسمى أغراض الحروب وأنبلها قصداً ، إذ كانت الغاية منها تأليف وحدة وادى النيل ، ولا يخفى أن مساحة السودان تزيد عن ضعف مساحة مصر إذ أنه يبلغ مسطح القطر المصرى مرتين ونصفاً ، ومساحته تضاهى ربع مساحة القارة الأوروبية ، فبفتح السودان اتسعت رقعة الدولة المصرية فبلغت ثلاثة أمثال ما كانت عليه ، ووصلت إلى معظم حدودها الطبيعية ، فلا غرو أن نعد فتح السودان خير حروب مصر فى عهد محمد على .

وليس فى فتح السودان أى غضاضة على أهله ، فإن الحروب كثيراً ما كانت دعامة للوحدة القومية ، فقديماً حاربت انجلترا اسكتلندا (الجزء الشمالى للجزيرة البريطانية) حروباً متواصلة ، ومازالت بها حتى أخضعتها وصارت جزءاً من المملكة البريطانية بعد أن كانت منفصلة عنها ، ولم يقل أحد أن انجلترا كانت باغية على اسكتلندا ، ولا كانت هذه الحروب سبباً لدعاية انفصالية بين الاسكتلنديين بعد انضمامهم إلى حظيرة الوطن البريطانى ، بل صاروا مواطنين بريطانيين مخلصين على تعاقب السنين لا يفكر واحد منهم فى الانفصال عن وطنهم .

وهل أتاك حديث الحرب الأهلية التى نشبت فى الولايات المتحدة الأمريكية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فى القرن التاسع عشر؟ أن سبب هذه الحرب ان ولايات الجنوب ظهرت فيها نزعة الانفصال عن ولايات الشمال ، وأعلنت انفصالها عن حكومة الاتحاد الأمريكى ، فحاربتها هذه حرباً استمرت أربع سنوات من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ ، ولم تنته إلا بعد أن قهرت حكومة الاتحاد جيوش الولايات الجنوبية فى معارك هائلة بلغت خسائر الفريقين فيها نيفا وستمائة ألف نفس ماتوا قتلا أو من الجروح والأمراض ، وبذلك استقرت وحدة الولايات المتحدة وصارت أمة واحدة ودولة واحدة ، ولم يقل أحد من سكان الجنوب أن تجريد الولايات الشمالية جيوشها على الولايات الجنوبية قد أذلها واستثار فيها نزعة الانفصال ، بل بالعكس كانت هذه الحروب تأييداً وتدعيما للوحدة الأمريكية ، على ما كان بين الولايات الشمالية والجنوبية من الفوارق فى الطبيعة والمناخ والأخلاق والعادات ، والآن لا يفكر أحد من سكان الجنوب فى تسويغ نزعة الانفصال التى جاشت بها وقتاً ما نفوس

أسلافهم ، ولا يلوم أحد منهم حكومة الاتحاد على حرب كان الغرض منها تأييد الوحدة القومية التى هى أساس عظمة الولايات المتحدة .

فما يثيره بعض دعاة الانفصال من اتخاذ فتح السودان الأول ثم الثانى ذريعة لبث دعايتهم تدحضه الشواهد التاريخية والنواميس الطبيعية ، وهم بهذه الدعاية إنما يعملون بقصد أو بغير قصد على فصم عرى الوحدة بين مصر والسودان ، والتمكين للمطامع الاستعمارية من تحقيق أغراضها فى وادى النيل ، والحقيقة التى تخلص لك من تتبع الحوادث قديمها وحديثها أن لا أمن ولا استقلال لسكان الشمال والجنوب من أبناء وادى النيل إلا فى ظل وحدة هذا الوادى العظيم .

اعتزم محمد على إذن تجريد الحملة على السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين ، وهذا يدلك على قوة إرادته ومضاء عزيمته ودأبه على توسيع ملك مصر ، فإنه لم يكد ينتهى من تلك الحرب الشاقة ويبسط نفوذ مصر على جزيرة العرب حتى بادر إلى خوض غمار حرب أخرى أعظم غاية ، وأكثر منفعة ، وأعود بالخير والرفاهية على مصر والسودان وعلى الحضارة والإنسانية ، كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقل مشقة وأقصر مدة من حرب الوهابيين ، فقد كان الجيش المصرى يواجه فى جزيرة العرب قوماً مدربين على القتال ، اشتهروا بشدة البأس وعاشوا للكر والفر ، وهم فوق ذلك معتزون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية من قبل ، أما الجيش الذى تحرك لفتح السودان فلم يلق أمامه سوى قوات مشتتة عزلاء لاسلاح معها إلا الرماح وما إليها من الأسلحة البائدة ، وهى تجهل أساليب القتال وفنونه ، ولم يلق الجيش المصرى مقاومة تذكر إلا فى بلاد الشايقية وهم قبائل يسكنون جنوبى دنقلة ، وفى كردفان التى كانت تابعة لسلطنة دارفور ، وفى مملكة سنار ، والعقبة الكؤود التى اعترضت الجيش المصرى فى فتح السودان هى الحميات والأمراض الوبيئة التى حصدت طوائف الجنود ، فكانت أشد خطراً على الجيش من القتال وخوض المعارك .

مقدمات الحملة

لجأ بقية المماليك بعد مذبحة القلعة إلى جنوبى النوبة فيما يلى شلال أسوان ، واتخذوا مديرية دنقلة معقلا لهم ، فأوفد محمد على إليهم بعض حاشيته تدعوهم إلى العودة إلى مصر والإقامة فيها على شروط أهمها ألا يستوطنوا المدن المصرية إلا بإذن منه وأن يحضروا العاصمة بخفرهم

بعض ضباطه حتى لا ينهبوا شيئًا من القرى والبلاد التى يمرون بها فى طريقهم إلى القاهرة ، وأن يتنازلوا عن امتيازاتهم القديمة ولا يطالبوا بما أخذ منهم بعد مذبحة القلعة .

كان محمد على يدرك أن المماليك لا يقبلون هذه الشروط المهينة المذلة ، وبذلك يجد المسوِّغ لتجريد الحملة للقضاء عليهم ، وقد رفضوا فعلا قبولها ، وأخذوا يتوعدون بالدخول فى حدود مصر ، فلما جاء جوابهم محمد على أمر من فوره بحشد جيش فى مصر القديمة لفتح النوبة ودنقلة وعقد لواءه لثالث أنجاله إسماعيل باشا .

وقبل أن يأمر بالزحف ذهب بنفسه إلى حدود مصر العليا فى سبتمبر سنة ١٨١٩ يصحبه حسن باشا قائد الجنود الأرناءود ومحمد لاظ أوغلى (كتخدابك) ووصل إلى ما وراء شلال أسوان ليرتاد تلك الجهات ويرتب مواقع جنوده ويرسم خطط الزحف ، ثم عاد إلى الجيزة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩ وأخذ يتم معدات الحملة التى أعدها لفتح السودان .

معدات الحملة

تتألف الحملة عند بدء الزحف من ٤٠٠٠ مقاتل كما أحصاهم المسيو فردريك كايو العالم الفرنسى الذى صحب الحملة ، وقد تلقى هذا الإحصاء من عابدين بك رئيس أركان حرب اسماعيل باشا ، من هؤلاء ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين ، و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ، و ٦٠٠ من المشاة ، و ٣٠٠ من رجال المدفعية ، و ٨٠٠ من المشاة العرب والمغاربة ، و ٧٠٠ من عرب العبابدة ، فيكون مجموعهم ٤٠٠٠[٤] .

ثم تلقى إسماعيل باشا خلال الزحف مددًا من ١٤٠٠ مقاتل فبلغ الجيش ٥٤٠٠ مجهزين بأربعة وعشرين مدفعًا .

وأنفذ محمد على جيشا آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لفتح كردفان بلغ عدده ٤٠٠٠ جندى مجهزين بعشرة مدافع ، فيكون مجموع الجيشين اللذين توليا فتح السودان نحو عشرة آلاف مقاتل .

وصحب الحملة ثلاثة من العلماء مهمتهم دعوة الأهلين فى البلاد التى يبلغها الجيش إلى الدخول فى الطاعة والاعتراف بسلطة الحكومة حقنا للدماء ، وهؤلاء العلماء هم الشيخ محمد الأسيوطى الحنفى ، والسيد أحمد البقلى الشافعى ، والشيخ السلاوى المغربى .

---

(٤) فردريك كايو ، رحلة فى مروى والنيل الأبيض وفازوغلى جزء ٢ ص ٥٠

وصحب الحملة أيضًا بعد فتح دنقلة ، المسيو فردريك كايو Cailliaud المتقدم ذكره بقصد الاكتشاف والبحث عن مناجم الذهب ، وله فى رحلته بالسودان كتاب ضخم يعد من أهم مراجع فتح السودان[٥] .

احتشد الجيش فى مصر القديمة حيث أعد محمد على باشا ثلاثة آلاف مركب لنقل الجنود والمهمات والذخائر والمؤن بطريق النيل ، وأمر بإعداد نحو ثلاثة آلاف من الإبل فى (إسنا) للسير منها براً ، وسار فى خدمة الحملة ألفان من الأتباع .

وقائع الحملة

ركب الجنود المشاة المراكب فانحدروا فى النيل ، وسار الفرسان ورجال المدفعية بالبر الغربى ، وتقدمت الجيش طليعة مؤلفة من خمسمائة من الفرسان ، وتحركت الحملة قاصدة حدود دنقلة .

وتحرك إسماعيل باشا وحاشيته فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٢٠ بعد سفر الحملة بيومين فبلغوا أسوان ، والتقوا فيها ببقية الجنود الذين سبقوهم إليها ، فأقاموا بها ريثما تجتاز المراكب الشلال الأول . ثم تقدموا جنوبًا ، ففر المماليك الذين كانوا بالدر . ودانت البلاد لإسماعيل باشا .

فتح دنقلة

سارت الحملة من أسوان إلى (وادى حلفا) على ظهور المراكب ، أما الفرسان فقطعوا المسافة براً فى اثنى عشر يومًا[٦] وأقامت الحملة فى (وادى حلفا) نحو عشرين يومًا حتى اجتازت المراكب الشلال الثانى ثم زحفت على مديرية دنقلة فسرت من وادى حلفا إلى (سكوت) ، ومن سكوت إلى (دنقلة) ، ولم تلق مقاومة تذكر من المماليك ، فقد استسلم بعضهم ، ورحل البعض إلى (شندى) يريدون الالتجاء إلى ملكها ، ولكنه لم يقبل إيواءهم ، فتشتتوا بين القبائل السودانية وسلبهم السودانيون أسلحتهم حتى انقطع دابرهم وقضى على البقية الباقية من المماليك .

---

(٥) رحلة مروى والنيل الأبيض وفازوغلى للمسيو فردريك كايو فى خمسة أجزاء .

(٦) كايو الجزء الثانى ص ٥٢ .

وسلمت البلاد التى مر بها الجيش كسكوت و (المحس) و (ارقو) ، فقدم أهلها وحكامها الطاعة ، وكانوا يظنون أن الجيش المصرى راجع إلى مصر بعد تشتيت شمل المماليك إذ كان ظنهم أنه جاء لمحاربتهم ، فلم يعدوا لمقاومته فانتهز هذه الفرصة واحتل بلاد دنقلة كلها .

معركة كورتى

(٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠)

ولما دخل الجيش بلاد (الشايقية) جنوبى دنقلة تجمعوا لقتال إسماعيل باشا بالقرب من (كورتى) الواقعة بالشاطئ الغربى للنيل ، ولم يكن معه من الجنود سوى ٨٠٠ فارس ، أما بقية الحملة فقد أبطأ قدومها لتأخر المراكب فى اجتياز الشلالات ، فانقضّ الشايقية على رهط من رجاله وقتلوا منهم ٧٥ مقاتلا ، فاشتبك إسماعيل والشايقية فى معركة دامت ثلاث ساعات (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠) انتهت بهزيمة الشايقية حيث فتكت بهم نيران البنادق ، فقتل منهم نحو ٨٠٠ وقتل من جنود إسماعيل باشا نحو الثلاثين ، وقد أبدى الشايقية بسالة كبرى فى قتالهم ، فأعجب بهم إسماعيل باشا ، وعرض عليهم بعد انتهاء القتال أن ينتظموا فى سلك الجيش المصرى ، فاستجابوا إلى طلبه ، وبذلوا ولاءهم للحكم المصرى وظلوا محافظين على عهدهم على مدى السنين .

ثم تقدم إسماعيل بعد المعركة وبلغ (كورتى) عاصمة الشايقية من أعمال مديرية دنقلة فأحرقها ، وانتظر بها ريثما تكامل جيشه ثم استأنف الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ [١] مجتازا صحراء (بيّوضه) يصحبه الفرسان حتى بلغ النيل تجاه (بربر) وكانت الرحلة إليها شاقة منهكة للقوى احتمل فيها الجند متاعب مضنية ، أما المشاة فقد ساروا حذاء النيل .

من بربر إلى أم درمان

فتح الجيش المصرى (بربر) فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ ، وقدم ملكها نصر الدين خضوعه ، فأقره ، إسماعيل على بلده ، ثم (شندى) يوم ٨ بعد أن قدم ملكها الملك (نمر) ولاءه ، وتابع الجيش زحفه جنوبا إلى أن بلغ (حلفايه) الواقعة على مقربة من ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض فاحتلها ، ثم احتل (أم درمان) الواقعة على النيل الأبيض ، واجتاز

---

(١) كابو جزء ٢ ص ٧٦ .

الجنود النيل فبلغوا مكان مدينة الخرطوم[٨] التي كانت قبل الفتح محلة صغيرة لا تحتوى أكثر من عشرة بيوت من الغاب ، ثم أنشئت بها مدينة (الخرطوم) التي صارت عاصمة السودان ومبعث الحضارة والعمران فى أنحائه .

وبعد أن وطد إسماعيل مركزه فى الخرطوم ترك بها حامية عسكرية وسار بباقى جيشه لإتمام فتح مملكة سنار[٩] .

فتح سنار

ففتح مملكة (سنار) واحتل (ودمدنى) من أهم مدنها ، وقدم ملكها الملك نادى ولاءه ، ثم دخل إسماعيل (سنار) عاصمة المملكة فى ١٢ يونيه سنة ١٨٢١[١٠] ودانت البلاد للحكم المصرى من جنوبى وادى حلفا إلى سنار .

فتح كردفان

قلنا إن محمد على عهد إلى صهره محمد بك الدفتردار فتح كردفان ، وكانت تلك البلاد تابعة لسلطان دارفور ، فبينما كان إسماعيل باشا يزحف على سنار سار جيش الدفتردار إلى وجهته بطريق دنقلة وأبى قس ، وكانت الرحلة إلى كردفان شاقة مهلكة للجنود لأنهم ساروا سبعة أيام متوالية يقطعون الفيافى فى صحراء لاماء فيها ولا زرع .

والتقى الدفتردار بجيش نائب السلطان محمد الفضل سلطان دارفور فاشتبك الفريقان فى واقعة دموية ببلدة (باره) شمالى الأبيض (أبريل سنة ١٨٢١) انتهت بانتصار جيش الدفتردار واحتلال (الأبيض) عاصمة كردفان .

كانت معركة (باره) أشد معركة خاضها الجيش المصرى فى الفتح الأول ، وقد أبدى فيها جيش كردفان شجاعة كبيرة ، ولكن مدافع الجيش المصرى غلبتهم على أمرهم وحاول سلطان دارفور بعد المعركة أن يسترد كردفان وأغار عليها لكنه عاد خائبا .

---

(٨) على بعد نحو ١٨٠٠ كيلو متر من أسوان مع حسبان تعاريج النيل .

(٩) كانت مملكة سنار تمتد من بربر شمالا إلى فازوغلى جنوبا .

(١٠) كايو الجزء الثانى ص ٣٣٠

فتك الأمراض بالجنود

اعترض الجيش المصرى فى فتح السودان خصم لدود أشد وطأة من الحرب وأهوالها ، وهو فتك الأمراض وانتشارها ، وخاصة أمراض المناطق الحارة ، ولم يكن يصحب الحملة إلا قليل من الأطباء خالين من الكفاءة ففتكت الأمراض بالجنود واجتاحت عدداً عظيمًا منهم .

قال المسيو كايو الذى صحب الحملة فى سنار[١١] إن الجيش الذى سار به إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق مات منه لغاية سبتمبر سنة ١٨٢١ ستمائة مقاتل ، ثم زاد عددهم إلى ١٥٠٠ فى أكتوبر[١٢] وبلغ عدد مرضاه ٢٠٠٠ مريض ، وكان عدد المرضى يزداد كل يوم ، ولما ساءت حالة الجيش من هذه الناحية أرسل إسماعيل إلى أبيه يشكو إليه سوء الحال ، قال وكانت حالة الجنود من جهة المأكل والملبس وقلة العناية بهم تدعو إلى الإشفاق ، فقد كانوا يأكلون نوعاً رديئاً من الذرة يضر بصحتهم ، ثم إن ملابسهم بليت فلم يجدوا ما يقيهم جو تلك الأصقاع ورطوبتها وكثرة أمطارها ، وكانوا إذا ناموا يفترشون الأرض فتصيبهم رطوبتها ، ولم يكن بالجيش أطباء ولا أدوية ، فكثر عدد المرضى وفشت العدوى واشتدت وطأة الأمراض بالجنود فى سنار حتى لم يبق لدى إسماعيل باشا من العسكر الصالحين للخدمة سوى خمسمائة . وتبرم الجند بهذه الحالة وظهرت بين الأهلين بوادر الانتقاض وراجت الإشاعات السيئة عن حالة الجيش فى سنار وكردفان ، فأخذ إسماعيل باشا يمنى الجنود بأن مراكب المؤونة والعتاد قادمة عن قريب من جهة شندى .

مجىء إبراهيم باشا ثم عودته

بقى إسماعيل باشا متوقفًا عن الزحف قلقا على مصير جيشه إلى أن جاءه إبراهيم باشا بطل الحجاز[١٣] يصحبه بعض الأطباء لمكافحة الأمراض ومعه المؤونة والملابس للجنود ، فانتعش الجيش لقدومه ، وذبت فيه روح الأمل والشجاعة ، ولا غرو فإن قدوم بطل الحجاز وقاهر

---

(١١) رحلة كايو جزء ٢ ص ٣١٣ .

(١٢) رحلة كايو جزء ٢ ص ٣١٧ .

(١٣) يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢١ كما يقول كايو جزء ٢ ص ٣١٨ .

الوهابيين جدير بأن يرد إلى الجنود قوتهم المعنوية ، وقد وزع المؤونة والملابس على الجنود ودفع لهم رواتبهم المتأخرة وجاء على أثره مدد من الجند .

وأخذ إبراهيم باشا يدبر مع أخيه اسماعيل خطة فتح ما بقى من السودان ، فاتفقا على اقتسام الزحف كل منهما فى ناحية وتوزيع الجيش إلى فرقتين ، فرقة بقيادة إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على النيل الأزرق لغاية إقليم فازوغلى[١٤] والأخرى بقيادة إبراهيم باشا ليخترق جزيرة سنار إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ويمد فتوحات مصر إلى أعالى النيل

فتح فازوغلى

وبعد أن تمت معدات الزحف تركا حامية من الجنود فى سنار واتخذ كل من الأميرين سبيله فى الجهة التى اعتزم فتحها ، ولكن إبراهيم باشا مرض بالدوزنتاريا أثنا الفتح ، ولم يتجاوز فى حملته جبل (القربين) فى وسط الجزيرة ، ثم عاد إلى سنار ، ومنها إلى مصر.

ووصل إسماعيل باشا فى زحفه إلى بلاد (فازوغلى) فدانت له (يناير سنة ١٨٢٢) وقدم له ملكها (الملك حسن) ولاءه وخضوعه .

وقد تكبد الجيش متاعب هائلة فى تلك الحملات البعيدة ، ونالت منه الجهود والأوصاب ، وبعث إسماعيل إلى أبيه يطلب الإذن له بالعودة إلى مصر ، ولكنه أرسل يلومه على هذا الطلب وكلفه البقاء فى السودان إلى أن يتم مهمته ، وقد أذعن وبقى زمنًا يوطد دعائم السيادة المصرية فى تلك الأصقاع ، ثم أشفق محمد على على صحة ابنه فأرسل يأذن له بالرجوع إلى مصر ولكن هذا الإذن لم ينجه من الردى .

البحث عن مناجم الذهب

وبعد أن فتح إسماعيل باشا بلاد فازوغلى سار إلى جبل (بنى شنقول) جنوبى فازوغلى للبحث عن مناجم الذهب يصحبه المسيو كايو ، فحفر أماكن عدة ، لكنه لم يعثر على ضالته ولم يكتشف إلا شذورًا قليلة من التبر ، فقفل راجعًا إلى سنار.

---

(١٤) سمى باسم الجبل المعروف بجبل فازوغلى جنوبى سنار ويقع على الشاطىء الغربى للنيل الأزرق ويمتد حذاء النهر إلى بلدة فامكة التى أسسها محمد على واتخذها عاصمة مديرية فازوغلى ، أما عاصمتها القديمة قبل الفتح فهى قرية صغيرة تدعى (فازوغلى) .

وفى غيبته طارت إشاعات السوء عن جيشه ، وأرجف المرجفون أن قد أحيط به وبرجاله فبدت بوادر التمرد فى بعض البلاد ، وقتل بعض الضباط فى القرى ، فاضطر إسماعيل أن يعود إلى سنار ليوطد سلطته بها (فبراير سنة ١٨٢٢) .

وفشت الحميات بين الجنود فى (سنار) لكثرة هطول الأمطار ، فانتقل بجنده إلى (ودمدنى) لاعتدال مناخها ، وبنى بها قشلاقًا كبيرًا من الطوب بقيت آثاره إلى عصرنا الحاضر .

مقتل إسماعيل باشا

مكث إسماعيل زمناً فى سنار يدبر أمر الحكومة التى أسسها ، ثم أرسل أفواجًا من الأسرى السوادنيين يصحبهم رهط من الجنود إلى أسوان لتجنيدهم فى الجيش المصرى النظامى الذى كان محمد على جادًا فى تأسيسه ، واستعد هو أيضا للعودة إلى مصر مُصعدا فى النيل .

وعلم فى غضون ذلك أن أهالى حلفاية وشندى وما حولها ثاروا فى وجه السلطة المصرية ، وكانت مساوئ الجنود وخاصة الأرناءود من أسباب هياج الأهلين وثورتهم ، فاحتشد الثوار حول حلفاية وشندى وهجموا على قوافل الأرقاء السودانيين وانتزعوهم من أيدى الجنود الموكلين بهم ، ورجعوا إلى شندى فرحين بهذا النصر المبين .

علم إسماعيل باشا بهذا النبأ ، فقام من فوره قاصداً (شندى) ومعه بقية الجيش ، وكان الملك (نمر) ملك شندى هو المدبر لهذه الثورة ، فجاء إسماعيل المدينة فجأة فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢ ، وأمر بإحضار ملك شندى أمامه ، فلما مثل بين يديه أخذ يقرعه ويسرف فى تأنيبه ، ثم تمادى فلطمه على وجهه (بالشبك) ، فلم يجب الملك على هذه الإهانة البالغة ، ولكنه أسرها فى نفسه وعزم على أن يغسلها بانتقام ذريع .

أما إسماعيل باشا فقد عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفيها فى خمسة أيام وألف من الرقيق ، وأظهر الملكُ نمر الإذعان وقبل أن يحتمل الغرامة ، ثم دعا إسماعيل باشا وبطانته إلى وليمة فى قصره بشندى ، وكان من القش ، فأجابوا الدعوة وذهبوا إلى القصر واستووا فيه ، ورحب بهم الملك ترحيبًا عظيمًا ، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر بحجة العلف لخيل الباشا ، ولم يدر بخلد الضيوف أن ثمة مؤامرة رهيبة تدبر لهم ، فلما فرغوا من طعامهم وأكثروا من شراب (المريسة) أخذوا يتأهبون للعودة إلى

معسكرهم ، فإذا النار قد طارت فى أكوام الحطب والقش المحيطة بالقصر ، وإذا هى قد عمَّتها واندلعت فيما حولها ، فجعلت القصر شعلة من الجحيم ، وحصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته فلم يستطيعوا الإفلات من هذا الحصار الجهنمى لهول النار المشتعلة ولإحاطة جنود الملك بهم يرمونهم بالنبل والسهام من كل ناحية . فسُدّت المسالك فى وجوههم حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يستطع الجند نجدتهم إذ كانوا فى معسكرهم بعيدين عن مكان المأساة ، ولما وقعت الكارثة انقض عليهم رجال الملك نمر ففتكوا بهم ، ولم ينج منهم إلا من هرب به العمر .

كانت هذه النازلة كارثة كبرى أثرت تأثيراً سيئًا فى مركز الجيش المصرى ، وتصدعت لها هيبته ، فإن مقتل قائد الجيش بهذه الطريقة الجهنمية من شأنه أن يبعث اليأس والرعب فى نفوس الجنود .

فلما بلغ الخبر محمد على باشا[١٥] حزن حزناً شديدًا لقتل ابنه إسماعيل وخاصة بعد أن فقد منذ أعوام معدودة ابنه طوسون ، على أنه تلقى المصيبة بالجلد والصبر واعتزم المضى فى سبيله .

وكان محمد بك الدفتردار وقت هذه الكارثة فى كردفان ، فلما جاءه نبؤها بادر من فوره بالزحف على شندى للثأر والتنكيل بمن اشتركوا فى الواقعة ، وقد خرب شندى ، وأسرف فى التنكيل والقسوة بما جعله مضرب الأمثال فى الميل إلى القتل وسفك الدماء ، وقتل آلافا من الناس ليثأر لصهره ، وسبى من الصبيان والنساء آلافًا أخرى أرسلهم إلى القاهرة ، وتعقب الملك نمر لكنه لم يدركه لفراره إلى حدود الحبشة .

ما ذكره الجبرتى عن فتح السودان

دوّن الجبرتى فى كتابه حوادث مصر لغاية سنة ١٨٢١ ، أى أنه أدرك ابتداء فتح السودان ، وذكر عنه شذرات متفرقة خلال يومياته ، تناول فيها الكلام عن مقدمات الحملة وبعض وقائعها ، وانتهى إلى ذكر فتح سنار ، وقد رأينا تقديرا لهذا المرجع التاريخى القومى الجليل أن نورد هنا ما ذكره فى هذا الصدد .

---

(١٥) علم به فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ كما ذكر ذلك مانجان جزء ٢ ص ٢٥٢ ، ويقول إن إسماعيل باشا لم يمت حرقًا بل قتلا وروايته لا تتفق مع معظم المراجع .

قال فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٤ (سبتمبر سنة ١٨١٩) مايأتى :

« وفى منتصفه سافر الباشا (محمد على) إلى الصعيد ، وسافر صحبته حسن باشا طاهر ومحمد أغا لاظ (لاظ أوغلى) المنفصل عن الكتخدائية ، وحسن أغا ازرجانلى وغيرهم من أعيان الدولة .

وهذه هى الرحلة التى سافر إليها محمد على باشا قبل فتح السودان ليرتاد حدود مصر ويرسم الخطط للزحف على النوبة ودنقلة .

وقال فى حوادث محرم سنة ١٢٣٥ :

« وفى ٢٧ (١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩) حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل فى سرحته إلى الشلال ، وكان الناس تقولوا على ذهابه إلى قبلى أقاويل ، منها أنه يريد التجريد على بواقى المصريين (المماليك) المنقطعين بدنقلة ، فإنهم استفحل أمرهم ، واستكثروا من شراء العبيد ، وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول إليها ، ومنها أنهم قالوا أنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد ، وأن ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدله ومقدار ما يصرف عليه حتى يستخرج صافيه ، وبطل كل ما توهموه وخمنوه برجوعه » .

فالجبرتى فى هذه النبذة يذكر عودة محمد على من رحلته إلى أسوان ، ويذكر أقاويل الناس فى البواعث لهذه الرحلة ، ومنها (أخذ بلاد دارفور والنوبة) أى فتح السودان ، والبحث عن مناجم الذهب والمعادن الأخرى ، ثم يقول إن ما توهمه الناس وخمنوه بطل برجوعه ، والواقع أن الجبرتى كان واهمًا فيما يقول ، فإن محمد على إنما رجع لتجهيز الحملة على السودان ، وأن ما توهمه الناس كان صحيحًا .

ثم قال فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٣٥ (يناير سنة ١٨٢٠) : « فى أوله عزل الباشا محمد بك الدفتردار عن إمارة الصعيد وقلد عوضه أحمد باشا بن طاهر باشا وسافر فى خامسه » .

ويلوح لنا أن لهذا النبأ علاقة بفتح السودان ، لأن محمد على فصل الدفتردار عن حكم الصعيد لينضم إلى الحملة ويعاون إسماعيل باشا فى فتح السودان .

وقال عن تعيين إسماعيل بن محمد على لقيادة الحملة وتجهيز معداتها :

« وفيه (جمادى الأولى سنة ١٢٣٥ — فبراير سنة ١٨٢٠) قوى عزم الباشا على الإغارة على

السودان ، فمن قائل ، إنه متوجه إلى سنار ، ومن قائل إلى دارفور ، وصارى العسكر (القائد العام) ابنه اسماعيل باشا وخلافه ، ووجه الكثير من اللوازم إلى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلى والشرقية ، واهتم اهتمامًا عظيمًا ، وأرسل أيضا بإحضار مشايخ العربان والقبائل » .

نقول واستدعاء المشايخ والقبائل كان الغرض منه تجنيد العربان فى الحملة ، ومن المعلوم أنها كانت تضم فى صفوفها كثيرًا من فرسان العرب المصريين كما ذكرناه آنفًا .

وقال فى حوادث رجب سنة ١٢٣٥ (أبريل سنة ١٨٢٠) : « وفى عشرينه سافر محمد أغا لاظ (لاظ أو غلى) وهو المنفصل عن الكتخدائية إلى قبلى ، بمعنى أنه فى مقدمة الجردة يتقدمها إلى الشلال » .

ثم قال فى حوادث رمضان ١٢٣٥ (يونيه سنة ١٨٢٠) : « واستهل شهر رمضان بيوم الاثنين والاهتمام حاصل ، وكل قليل يخرج عساكر ومغاربة مسافرين إلى بلاد السودان ، ومن جملة الطلب ثلاثة من طلبة العلم يذهبون صحبة التجريدة ، فوقع الاختيار على محمد أفندى الأسيوطى قاضى أسيوط ، والسيد أحمد البقلى الشافعيين والشيخ أحمد السلاوى المغربى المالكى » .

وقال عن تشتيت شمل المماليك فى دنقلة وتسليم بعضهم :

« وفى هذا الشهر (شوال سنة ١٢٣٥ – يوليه سنة ١٨٢٠) حضرت طائفة من بواقى الأمراء المصريين (المماليك) من دنقلة إلى بر الجيزة ، وهم نحو الخمسة وعشرين شخصاً وملابسهم قمصان بيض لاغير . فأقاموا فى خيمة ينتظرون الإذن وقد تقدم الإرسال بطلب الأمان عندما بلغهم خروج التجاريد ، وحضر ابن على بك أيوب وطلب أماناً لأبيه ، فأجيبوا إلى ذلك وأرسل لهم أماناً لأجمعهم ما عدا عبد الرحمن بك الذى يقال له المنفوخ ، فلا يعطيهم أمانًا ، لما حضرت مراسلة الأمان لعلى بك أيوب وتأهب للرحيل حقدوا عليه (أى المماليك) وقتلوه » .

وقال أيضاً فى هذا الصدد : « فى أوائل ربيع الأول سنة ١٢٣٦ (ديسمبر سنة ١٨٢٠) حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرية (المماليك) البواقى فى حالة رثة وضعف وضيم واحتياج ، وكانوا أرسلوا وطلبوا الأمان فأجيبوا لذلك » .

وقال : « وفى أواخر رجب سنة ١٢٣٦ (أبريل سنة ١٨٢١) حضر جماعة من المماليك

المصرية الذين كانوا بدنقلة فيهم ثلاثة سناجق أحدهم أحمد بك الألفى زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير » .

وقال عن سفر إسماعيل باشا قائد الحملة ومحمد بك الدفتردار ثم إبراهيم باشا : « وفيه (ذى القعدة سنة ١٢٣٥ – أغسطس سنة ١٨٢٠) سافر إسماعيل باشا إلى جهة قبلى ، وهو أمير العسكر المعين لبلاد النوبة ، كل ذلك والباشا الكبير (محمد على باشا) على حالة بالإسكندرية » .

« وفى ١٧ رجب سنة ١٢٣٦ (أبريل سنة ١٨٢١) ارتحل محمد بك الدفتر دار مسافراً إلى دارفور ببلاد السودان بعد أن تقدم طوائف كثيرة عساكر أتراك ومغاربة » .

وذكر عن سفر إبراهيم باشا فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ (أغسطس سنة ١٨٢١) :

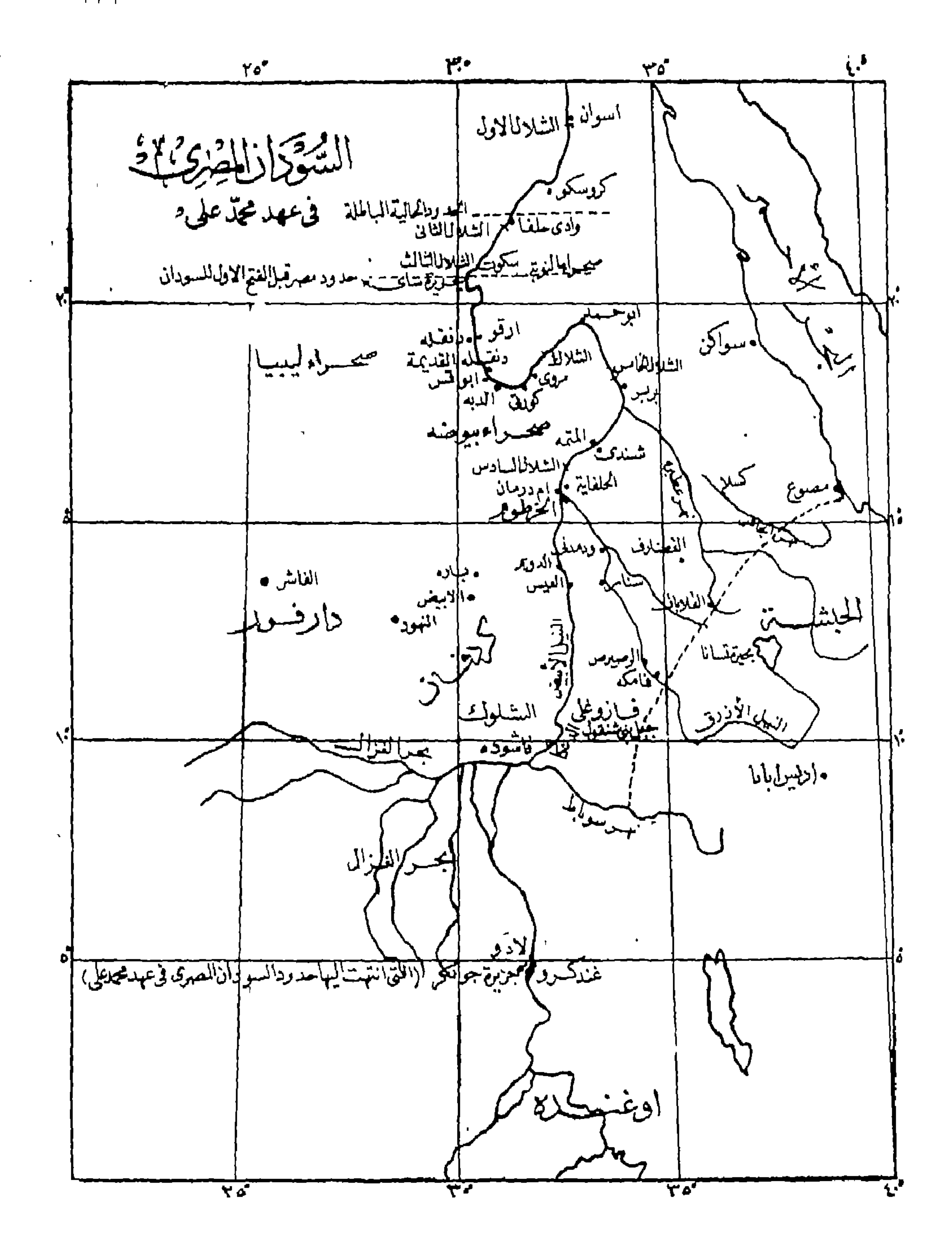
« وبعد سفر الباشا إلى الإسكندرية سافر أيضاً إبراهيم باشا إلى ناحية قبلى قاصدًا بلاد النوبة » .

وقال عن وقائع الحملة :

« واستهل شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٦ (٣٠ أغسطس سنة ١٨٢١) وفيه خرجت عساكر كثيرة ومعهم رؤساؤهم وفيهم محو بك ومغاربة وآلات الحرب كالمدافع وجبخانات البارود واللغمجية وجميع اللوازم قاصدين بلاد النوبة وما جاورها من بلاد السودان ، وفيه سافر محمد كتخدا لاظ (لاظ أو غلى) المنفصل عن الكتخدائية إلى إسنا ليتلق القادمين ويشيع الذاهبين ، وفيه وصلت بشائر من جهة قبلى باستيلاء إسماعيل باشا على سنار بغير حرب ودخول أهلها تحت الطاعة ، فضربت لتلك الأخبار مدافع من القلعة » .

نظام الحكم فى السودان

جعل محمد على باشا على السودان حاكما يسمى (حكمدار السودان) يجمع فى يده السلطة العسكرية والمدنية ويرجع فى إدارته إلى ديوان (وزارة) الداخلية بمصر ، ولبعد المسافة بين البلدين وصعوبة المواصلات كان لحكمدار السودان سلطة مطلقة فى إدارته ، وجعلت مدينة الخرطوم التى انشئت فى عهده عاصمة السودان ومقر الحاكم العام ؛ ومع الزمن قسمت البلاد إلى مديريات لكل منها مدير يحكمها تحت إدارة حكمدار السودان ويتولى قيادة الجند فيها ،



السودان المصري في عهد محمد علي
اسوان
الشلال الاول
كروسكو
وادي حلفا
الشلال الثاني
سكوت
الشلال الثالث
حدود مصر قبل الفتح الاول للسودان
صحراء ليبيا
ارقو
دنقله
دنقله القديمة
ابو حمد
الشلال الخامس
بربر
سواكن
مروي
كورتي
الدبه
صحراء بيوضه
المتمه
شندي
الشلال السادس
الحلفاية
ام درمان
الخرطوم
كسلا
مصوع
القضارف
ود مدني
الدويم
العيس
سنار
الفاشر
باره
الابيض
النهود
دارفور
كردفان
الحبشة
بحيرة تسانا
الروصيرص
فامكه
فازوغلي
الشلوك
النيل الابيض
النيل الأزرق
بحر الغزال
فاشوده
اديس ابابا
بحر سوباط
لادو
غندكرو
جزيرة جونكر (التي انتهت اليها حدود السودان المصري في عهد محمد علي)
اوغندة
٢٥°
٣٠°
٣٥°
٤٠°

وقسمت المديريات إلى أقسام لكل قسم ناظر ، وكانت الإدارة تتبع نظام الإدارة المصرية ، وصار عدد المديريات فى أواخر عهد محمد على سبعا ، وهى دنقلة ، وبربر ، والخرطوم ، وكردفان ، وكسله ، وسنار ، وفازوغلى .

وجعل لكل مدير وكيلا ، ومعاونين وكتابًا ، وبجانبه القاضى والمفتى ومجلس أهلى وضبطية ، وأبقى حكام البلاد الأقدمين من الأهلين فى مراكزهم كمشايخ النوبة ودنقلة وبربر والحلفاية والرصيرص وفازوغلى ، وملك سنار .

وكان المديرون ومن إليهم من الموظفين تحت رقابة الحكمدار (الحاكم العام) ، ومما لا نزاع فيه أن كثيراً من أولئك الموظفين كانوا ينزعون إلى الظلم والعسف ، مما أدى إلى تبرم الأهلين ، وقد ظهر عسفهم على الأخص فى جمايتهم لتجار الرقيق الذين كانوا ينتزعون الأهلين من قراهم ويبيعونهم فى أسواق النخاسة .

الجيش المصرى بالسودان

يقول المسيو دارنوا المهندس الفرنسى الذى أقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٢ ان الجيش المصرى المرابط هناك كان يبلغ (سنة ١٨٣٨) ٦٨٠٠ جندى ، منهم ٦٠٠٠ من الجنود النظامية يتألف منهم الأيان ، و ٤٠٠ من الشايقية من سكان البلاد المعروفة باسمهم و ٤٠٠ من المغاربة .

وقد زاد بعد تلك السنة حتى بلغ ١٨٠٠٠ إحصاؤهم كما يأتى :

١٦٠٠٠	خمس الايات من الجنود النظامية المصرية
١٠٠٠	فرسان من الترك
٤٠٠	مغاربة
٤٠٠	شايقية من أهل البلاد
٢٠٠	مدفعية
١٨٠٠٠	المجموع

ويقول الدكتور بيرون Berron إن الجيش المرابط بالسودان سنة ١٨٤٣ بلغ خمس الايات ، كل الاى مؤلف من ٣٠٠٠ مقاتل ، أى أن عددهم ١٥،٠٠٠ ، وهو قريب من

إحصاء المسيو دارنو .

وكانت وحدات الجيش المصرى موزعة على العواصم والمدن المهمة مثل الخرطوم والأبيض وبارة وود مدنى وسنار وكسلا .

وقد دخل فى هذا الجيش عدد كبير من السودانيين أخذ يزداد مع الزمن ، وأثبتت التجارب كفايتهم وولاءهم وحسن أدائهم للخدمة العسكرية ، وصار السودانيون ينتظمون فى الجيش المصرى كالمصريين ، تظلهم راية واحدة هى الراية المصرية ، ويدينون بالولاء لدولة واحدة هى الدولة المصرية .

حكمدارو السودان فى عهد محمد على

بقى محمد بك الدفتردار بعد مقتل إسماعيل باشا يتولى حكم السودان ، إلى أن جاءه الأمر فرجع إلى مصر ، وتعاقب بعده الحكمدارون الذين عهد إليهم محمد على حكم تلك البلاد ، واستمر ولاة السودان (الحكمدارون) فى عهده وعهد خلفائه يتولون حكمه على اعتبار أنه جزء لا يتجزأ من مصر إلى أن فصلته عنها السياسة الاستعمارية الإنجليزية سنة ١٨٨٤ بعد شبوب الثورة المهدية .

عثمان بك

ففى سنة ١٨٢٣ [١٦] جعل لأميرالاى عثمان بك حكمداراً للسودان ولم يكن عهده عهد إصلاح وعمران ، فإنه عسف الأهلين بما فرضه عليهم من الضرائب الفادحة ، وجرد عليهم الجنود لجبايتها ، فأسرفوا فى القسوة والقتل والتنكيل مما أدى إلى هجرة الكثير من الأهلين ونقص عدد السكان ، ومات عثمان بك قبل أن تمضى على ولايته سنتان فكان عهده وعهد الدفتردار من أسوأ أزمنة الحكم فى السودان .

---

(١٦) اعتمدنا فى بيان هذه السنة على ما ذكره اللواء المصرى محمد مختار باشا فى كتابه التوفيقات الإلهامية ص ٦١٩ مع مقارنته بما ورد فى « الوقائع المصرية » عدد ١٢ .

محو بك

وأقيم فى مكانه محو بك ، فكان عادلا رحيمًا ، أحسن السيرة بين الأهلين ، وكف اعتداء الجنود عليهم ، وحبب فيه مشايخ البلاد وأهلها لما اشتهر عنه من العدل ، وبنى بالخرطوم ثكنة لإقامة الجنود ، واحتفر فى الطرق البعيدة عن النيل آبارا يستق منها الناس والقوافل تعرف إلى عصرنا الحاضر بآبار محو بك (١٧) .

خورشد باشا

هو أعظم ولاة السودان شأنا ، وأنبههم ذكرًا ، وأحسنهم سيرة ، وأطولهم عهدًا ، خلف محو بك فى ولاية السودان سنة ١٨٢٦ ، فسار سيرة عدل واستقامة وعنى بإصلاح ما أفسده الدفتردار وعثمان بك ، فبذل همة فى تعمير البلاد وتأمين الأهالى على أموالهم وأرواحهم ، وأذاع منشورًا بالأمان إلى الفارين الذين هاجروا إلى دارفور وجبال النوبة ، فعادوا واطمأن الأهلون إلى حكمه ، وعمر مدينة الخرطوم كما سيجىء بيانه ، وهو الذى أدخل فى السودان صناعة بناء الدور بالطوب بعد أن كان الأهالى يقيمونها بالغاب والجلود ، وقد أمدهم بالطوب والأخشاب والألواح تيسيرًا عليهم وترغيبًا لهم فى العمران ، ونظم الدواوين ، ووطد الأمن فى البلاد وأنشأ مسجدًا فى الخرطوم وآخر فى سنار ، وعنى بالزراعة ، وطلب من محمد على مساعدته فى أسبابها ، فأرسل إليه طائفة من المزارعين المصريين منهم بعض مشايخ البلاد وبعض (الخولة) لتمرين الأهالى على الزراعة .

وقد وسع فتوحات مصر فاحتل (القلابات) شرقى السودان ، وكان موقعها هاما من الوجهة الحربية والاقتصادية لوقوعها بالقرب من حدود الحبشة ، فجعل بها حامية عسكرية ثابتة ، وأخضع جبال قلى وغزا قبائل الشلك وقبائل سبدرات .

وقد أثنى عليه محمد على وأنعم عليه برتبة الباشوية سنة ١٨٣٥ جزاء ما بذله من الهمة فى تنظيم شئون السودان وبقى فى منصبه إلى سنة ١٨٣٧ حيث اعتزله وخلفه أحمد باشا أبو ودان .

---

(١٧) السودان بين يدى غردون وكتشنر لإبراهيم باشا فوزى الجزء الأول ص ٦٥ .

أحمد باشا أبو ودان

حذا أحمد باشا أبو ودان حذو خورشد باشا فأحسن السيرة بين الأهالى ، وحبب فيه الأمراء ورؤساء القبائل من السودانيين ، وأتم عمل خورشد باشا فى تعمير مدينة الخرطوم وتنظيم المديريات ، وضم إليها العرب الرحل الضاربين فى أوديتها ، وبذلك انتظمت إدارتها ، وجلب من مصر كثيرًا من الحيوانات المستأنسة والنباتات النافعة وبذورها فتحسنت الزراعة وارتقت شئونها ونشطت الصناعة فى (ترسانة) الخرطوم ، واستكثر من السفن الأميرية فى النيل وزاد من طرق المواصلات ، فاتسعت حركة التجارة والمعاملات بين مصر والسودان والبلاد القاصية من أواسط أفريقية ، وصارت الخرطوم ملتقى المتاجر ، وكثر ورود التبر وريش النعام والعاج والصمغ إليها ، وفى عهده فتح إقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر سنة ١٨٤٠ ، وأسست مدينة (كسلا) وجعلت عاصمة له ، وتوفى ودفن بالخرطوم .

أحمد باشا المنكلى ثم خالد باشا

وأقيم فى مكانه أحمد باشا المنكلى فأخمد الثورة التى نشبت فى بلاد التاكا والتى أثارها سوء إدارة الموظفين ، وبقى حكمداراً للسودان إلى أن عاد إلى مصر سنة ١٨٤٥ وخلفه خالد باشا وهو آخر من عين حكمداراً للسودان فى عصر محمد على .

رحلة محمد على فى السودان

(١٥ أكتوبر سنة ١٨٣٨ – ١٥ مارس ١٨٣٩)

اعتزم محمد على أن يرود بنفسه أصقاع السودان ليتعهد شئون الإدارة المصرية فيها ، وليبحث عن مناجم الذهب ، فسار إليها فى أكتوبر سنة ١٨٣٨ [١٨] عن طريق دنقلة . ثم قصد الخرطوم ماراً بطريق صحراء بيوضة ، فبلغها يوم ٢٣ نوفمبر وأقام بها ٢٢ يومًا قابل فيها الأعيان وتفقد أحوال الإدارة وشئون البلاد ، ثم زار سنار وقصد إلى جبال فازوغلى للبحث عن معدن الذهب ، ولكن البحث لم يفض إلى نتيجة يرضاها ، فقفل إلى الخرطوم وأقام بها

---

(١٨) فى عهد حكمدارية أحمد باشا أبو ودان .

أياما قليلة ثم عاد إلى مصر عن طريق صحراء النوبة من (ابو أحمد) إلى وادى حلفا) مارس سنة ١٨٣٩) وقضى فى رحلته خمسة أشهر .

وكان يصحبه فى رحلته هذه طائفة من المهندسين والباحثين منهم المسيو ليففر Lefevre والمسيو دارنو D. Arnaud والمسيو لامبير Lambert ، وقد قضى الأول نحبه أثناء رحلته بحمى أصابته ، وظل الآخران يبحثان وينقبان .

ولمناسبة زيارة محمد على للسودان أمر بإلغاء تجارة الرقيق لما رآه من فظاعة النخاسين (تجار الرقيق) وما يرتكبونه من القسوة فى جلب الأرقاء وترحيلهم إلى مختلف الأمصار ، وأنفذ ارسلا يعلنون هذا الأمر فى جميع البلاد ، ولكن رغم هذه الأوامر بقى الاتجار بالرقيق ذائعا إلى أن أبطله الخديو إسماعيل .

عمران السودان فى ظل الحكم المصرى

يطيب لبعض الكتاب السياسيين دعاة الاستعمار الإنجليزى أن يرموا الحكم المصرى فى السودان بكل نقيصة ، وينسبوا الحضارة التى دخلت ربوعه إلى الإدارة الإنجليزية ، وهى دعوى باطلة تقوم على أساس الإرجاف وتشويه الحقائق .

وفى الحق أن الفضل فى حضارة السودان منذ الفتح الأول ثم الفتح الثانى يرجع إلى الحكم المصرى ، وإلى الدماء المصرية ، والسواعد المصرية والجهود والأموال المصرية .

فلنبين فى هذه العجالة ما أفاده السودان من الحكم المصرى فى عهد الفتح الأول ، أى عهد محمد على حيث يقتصر موضوع الفصل السادس .

ضحى المصريون بأرواحهم ودمائهم فى سبيل فتح السودان إقرار سلطة الأمن فى ربوعه ، فقد بلغ عدد من فقدهم الجيش المصرى فى الفتح الأول سواء ممن قتلوا فى المعارك أو الرحلات البعيدة الشاقة أو من اجتاحتهم الأمراض نحو ثلاثة آلاف رجل .

لقد حقق الفتح المصرى الوحدة القومية لمصر والسودان ، ثم أنه نشر لواء الحضارة والعمران فى أصقاعه ، فقد أسس فى البلاد حكومة منتظمة كان لها الفضل الكبير فى بسط رواق الأمن وإقامة قواعد العمران فى السودان ، ولم ينظر المصرى إلى السودان كمستعمرة للاستغلال ، بل نظر إليه كجزء لا يتجزأ من مصر ، فعنى بعمرانه كما يعنى بعمران الغربية أو الدقهلية وسائر مديريات القطر المصرى .

تأسيس المدن

كان تأسيس المدن من أول ما عنى به الحكم المصرى فى السودان ، فأنشأ مدنا زاهرة صارت مبعث الحضارة والتقدم فى أنحائه .

الخرطوم

يقول المسيو ديهيران فى كتابه[١٩] : إن المصرين حينما فتحوا السودان لم يختاروا بلدة من بلاده القائمة مثل بربر أو سنار أو الأبيض عاصمة لأملاكهم ، بل أنشأوا عاصمة جديدة وهى (الخرطوم) ، ولم يكن فى مكانها قبل الفتح المصرى سوى محلة صغيرة للصيادين ، فى سنة ١٨٢٢ أسس بها معسكر ثابت للجنود ، وفى سنة ١٨٣٠ اتخذها خورشد باشا حكمدار السودان مقراً للحكم ، فصارت الخرطوم من ذلك الحين عاصمة السودان ، وقد اختار لها المصريون هذا الموقع لأهميته حيث يلتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض وسميت الخرطوم لأن ملتقى النيلين يشبه رأس خرطوم الفيل . قال وقد أقيمت فيها المبانى والعمائر منذ إنشائها ، وأهمها سراى الحكومة وكانت مبنية بالطوب الأحمر ، ومؤلفة من دورين ، وكان منظرها فخما ، وسراى مديرية الخرطوم مقر مدير المديرية والموظفين ؛ ومسجدان أحدهما كبير بناه خورشد باشا ، والآخر صغير أقيم من بعده ، ودار لإحدى البعثات الدينية المسيحية أنشئت سنة ١٨٤٨ أى فى أواخر عهد محمد على[٢٠] وأنشئت بها أيضا ثكنة كبيرة للجنود شرقى المدينة ، ومستشفى[٢١] ، ومعمل للبارود تصنع فيه ذخائر الجيش ، ومخازن للمؤن والمهمات ، ثم ترسانة كبيرة كانت تشمل مسبكًا للحديد ومعملا للنجارة ، وفيها بنيت السفن النيلية التى أخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل ، ويتخلل تلك العمائر الكبيرة بيوت للسكن ، وقد أكسب المدينة موقعها على النيل روعة وجمالا ، وزادتها الحدائق التى أنشأها المصريون حواليها رونقا ونضرة ، وكانت هذه الحدائق تشغل مساحات واسعة من الأراضى كما أنها موضع عناية القائمين بها ، ولها منظر بديع ، وكان معظمها يحاذى النيل الأزرق ولا يفصلها عنه إلا رصيف

(١٩) السودان المصرى فى عهد محمد على ص ١١٧ .

(٢٠) هى التى اتخذها غردون باشا مستودعًا للذخائر أثناء حصار المهدى للخرطوم .

(٢١) ذكره ما لجان ج ٣ ص ٤٩٦ .

ضيق ، وفيها كل ما تنبت الأرض من الخضر والتين والبرتقال والليمون والموز والنخيل والدوم ، ويتألف من مجموعها منظر بهيج يدخل السرور فى نفوس القادمين[٢٢] .

وبعد أن أسست المدينة صارت ملتقى المتاجر القادمة من أنحاء السودان وباطن أفريقية أو الواردة إليها من مصر والخارج ، فازدهر العمران فيها . وصارت محطة من أعظم المدن التجارية فى أفريقية ، كما أنها صارت مركزًا للرحلات والاكتشافات الجغرافية والعلمية ، ومرسى للسفن النيلية التى تنتقل فى أنحاء النيل الأزرق والنيل الأبيض .

وتزايد مع الزمن عدد سكانها ، فقد جاءها الناس من مختلف أنحاء السودان كسنار وبربر ودنقلة وشندى وغيرها ، وقدموا إليها للمتاجرة ، وأقام فيها الموظفون ورجال الجهادية ، فبلغ عدد سكانها فى عصر محمد على ثلاثين ألف نسمة كما قدرهم المسيو مالجان فى كتابه[٢٣] واستمر عددهم يطرد فى عهد خلفائه ، فبلغوا أربعين ألفا سنة ١٨٥٤ وخمسين ألفا سنة ١٨٥٦ ، وقدرهم الكولونيل ستوارت من ٥٠ إلى ٥٥ ألفا سنة ١٨٨٣ ، ثم جاءت الفتنة المهدية فدكت معالم العمران فيها وفى أنحاء السودان .

مدينة كسلا

وأنشئت أيضا مدينة كسلا التى صارت عاصمة إقليم التاكا من أهم أقاليم السودان بل عاصمة السودان الشرقى ، ذكر إبراهيم باشا فوزى فى كتابه[٢٤] أن أحمد باشا أبو ودان حكمدار السودان أسس مدينة (كسلا) وحصنها ، وقال فى موضع آخر أن كسله اسم مدينة هى عاصمة إقليم التاكا الذى بين محافظتى مصوع وسواكن وحدود الحبشة ، وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان[٢٥] وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة ، وفيه أبراج ، ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت فى أملاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد على باشا[٢٦] .

---

(٢٢) ديهران ، السودان المصرى فى عهد محمد على ص ١٢٠ .

(٢٣) تاريخ مصر فى حكم محمد على جزء ٣ ص ١٠٨ .

(٢٤) السودان بين يدى غوردون وكتشنر جزء ١ ص ٦٥ .

(٢٥) وضع فوزى باشا كتابه بعد استرجاع السودان الأخير وطبع سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م) .

(٢٦) جزء ٢ ص ٨٦ .

ويقول المسيو ديهيران أن مدينة كسلا أنشئت على عهد أحمد باشا أبو ودان ، وذلك أنه أثناء فتح التاكا اتخذ معسكره على نهر (الجاش) بسفح جبل كسلا ، ولما غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود ، فأقبل عليها الأهالى المجاورون واتخذوها موطنا لهم ، وبذلك تأسست كسلا التى صارت من أهم مدن السودان(٢٧) .

فامكه

وكذلك أنشئت مدينة فامكه على النيل الأزرق سنة ١٨٤٠ فى اقليم سنار على بعد ٢٥ ميلا من الرصيرص جنوبًا ، وجعلت عاصمة مديرية فازوغلى ، وقد بنى محمد على باشا على نحو خمسة أميال منها جنوبًا قصراً ومعملا لاستخراج الذهب بقيت آثارهما إلى عصرنا الحاضر.

توطيد دعائم الأمن

مهما اختلف الكتاب الإفرنج فى تقديرهم للحكم المصرى فى السودان على عهد محمد على فإنهم مجمعون على امتداحه والاعتراف له بالفضل فى بسط رواق الأمن فى أصقاعه النائية ، كانت الرحلة إليه قبل الفتح المصرى محفوفة بالأخطار إذ كانت الطرق مقطوعة ، والأمن فيها مضطرب ، وسلطة الرؤساء ضعيفة ، وكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف فى كل وقت للسلب والنهب ، ولكن الحكم المصرى قد قضى على الفوضى الضاربة أطنابها فى البلاد وبسط رواق الأمن عليها .

قال المسيو ديهيران فى هذا الصدد : إن ما قام به محمد على من بسط رواق الأمن فى مصر هو من أجل أعماله كما يرى المستر بورنج (٢٨) فى تقريره عن مصر ، وهذا الرأى يجب تعميمه ليشمل كل بلد حكمها محمد على ؛ فحيثما بسط نفوذه وحكمه نهض بالأمن ووطد دعائمه وصانه بعين رعايته ، وعلى العكس إذا تقلص نفوذه عادت البلاد إلى الفوضى واختل الأمن فيها ، خذ لذلك مثلا أنه لما انسحبت قواته من الحجاز سنة ١٨٤١ واستردها سلطان تركيا شعر التجار بأنهم لم يعودوا آمنين على متاجرهم هناك ، وكذلك لما جلا إبراهيم باشا عن سورية اضطرب فيها حبل الأمن وعادت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ، أما البلاد التى يسود فيها

(٢٧) كتاب السودان فى عهد محمد على ص ١٠٩ .

(٢٨) سياسى إنجليزى ساح فى مصر على عهد محمد على وله عنها تقرير واف .

حكم محمد على فإن الإنسان يأمن على نفسه أن يذهب إلى أى ناحية بها ، ويقول الكونت بنديتى Benedetti قنصل فرنسا فى مصر إن الأهالى والأجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا أن شاءوا فى البلاد التى يحكمها محمد على سواء أكان ذلك فى وادى النيل إلى أقاصى حدود السودان ، أم فى سورية وجزيرة العرب ، فإن صرامة العدل الذى أقام ميزانه فى كل ناحية لا تقبل هوادة ولا ضعفا ، فالسودان قد ساده الأمن كما ساده غيره من البلاد التى حكمها . ففى كردفان مثلا حيث لم يكن أى تاجر يأمن على نفسه أن يسير منفردًا استطاع الرحالة بالم Pallme [٢١] أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه إلا خادم واحد ، ولم يقع عليه أى اعتداء أو أذى ، كذلك ساح فيه الرحالة كوتشى Kotchy مطمئنا سنة ١٨٣٩ ، وساح الأمير الألمانى بكلر موسكو Muskau فى السودان إلى الخرطوم دون أن يناله سوء ، وجاءت عائلة المسيو ملى Melly إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهة كما لو ساحت فى ربوع إيطاليا[٢٩] .

وقد كان من نتائج بسط الأمن فى السودان وتأمين طرقه نشاط المعاملات التجارية فى أنحائه وبينه وبين مصر وباطن أفريقية .

ومن نتائجه تنظيم البريد ، وقد جعلت الخرطوم مركزًا له ، وكان ينقل فى السفن ثم يحمل على الهجن فيرسل إلى مصر وجميع مديريات السودان ، وله فى الطريق محطات تستريح فيها الهجن وتبدل ، وكانت الرسائل تصل من مصر إلى الخرطوم مرتين فى الشهر وتقطع المسافة بينهما فى خمسة وعشرين أو ثمانية وعشرين يومًا ، وكان البريد يروح ويغدو ويجتاز تلك المراحل الشاسعة دون أن تنقطع عليه الرحلة ، قال المسيو جومار فى هذا الصدد : « من ذا الذى كان يظن قبل أربعين عامًا قبل خمسة عشر عامًا فقط أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض إلى ضفاف السين (النهر الذى يمر بباريس) فى اثنين وثلاثين يومًا ، وتصلنا من فزنفور (جنوبى فازوغلى) عند الدرجة العاشرة من خط الاستواء فى خمسين يوما ؟ »[٣٠]

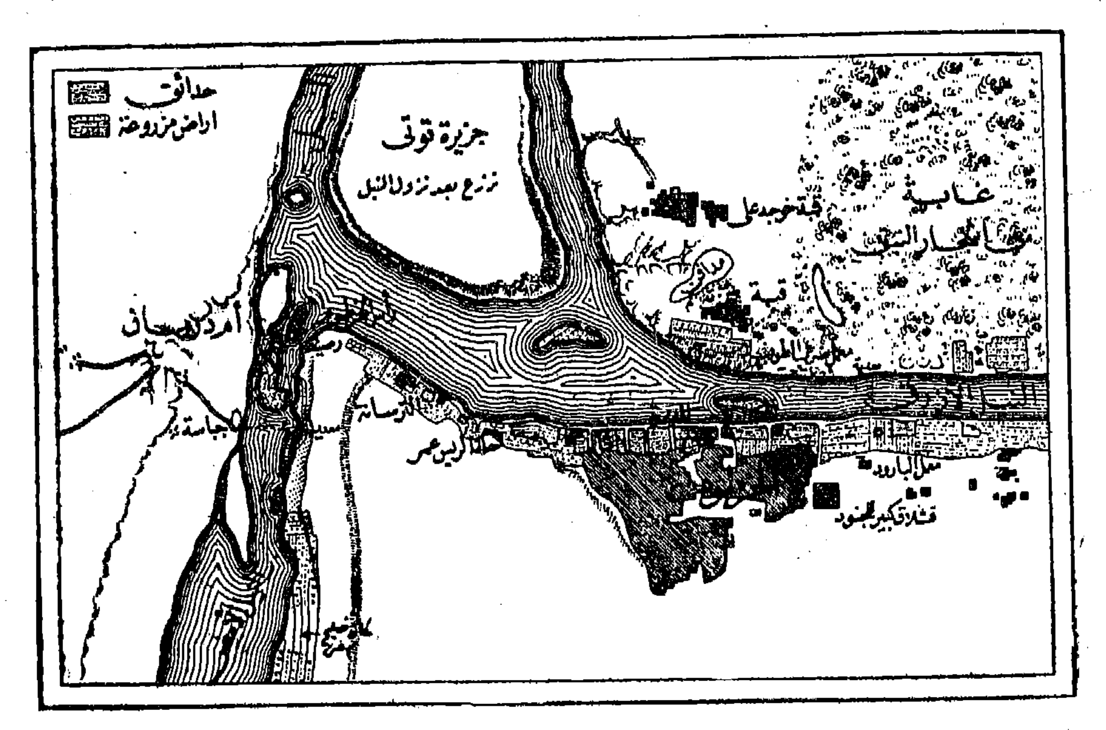
الزراعات وأعمال العمران الأخرى

وأدخل المصريون فى السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر ، وغرسوا فيها أشجار الفاكهة المختلفة أنواعها كالبرتقال والليمون والرمان والعنب ، ونسقوا الحدائق الغناء .

---

(٢٩) ديهران ص ٢١٥ .

(٣٠) مالجان الجزء الثالث ص ٤٨١ .



خريطة الخرطوم فى عهد محمد على باشا
كما رسمها المهندس الفرنسى دارنو الذى أقام بالسودان من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٢

قال الكولونيل ستوارت Stuart فى هذا الصدد : « إن المصرى يميل بطبعه ميلا شديداً إلى الزراعة ، ففى السودان ، وفى أى مكان يعسكر الجنود المصريون ، لا يمضى على إقامتهم ستة أشهر حتى يكون من المحقق أن ينبت فيه الزرع والخضر » .

ومن أعمال العمران التى تمت فى عهد محمد على بناء ديوان للمديرية فى مدينة (سنار) وثكنة للجنود وجامع بها ، وما قام به خورشد من أعمال الإصلاح التى تقدم الكلام عنها .

وقد أمر محمد على باحتفار الآبار فى الطريق بين كروسكو وأبو حمد ، وهو طريق شاق يخترق صحراء النوبة ويجتازه المسافر فى تسعة أيام ، فأمر بإصلاحه وحفر الآبار فيه تسهيلا للمواصلات بين مصر والسودان .

الحملات والبعثات الجغرافية

ان للفتح المصرى فضلا كبيرًا على العلم والعمران بما شجع العلماء ورواد الكشف والاستطلاع على الرحلات العلمية لاكتشاف أصقاع السودان النائية ، وخاصة منابع النيل ،

وقد كان لمحمد على عناية كبيرة بتعضيد الاكتشاف وتشجيع الباحثين والعلماء على الرحلة إليها ، وشملهم برعاية الحكومة وعهد إلى جنده حمايتهم فى رحلاتهم ، ولولا تلك المساعدات لما استطاعوا أن يسيروا خطوة فى تلك الجهات ، وقد صارت مدينة الخرطوم مركزا للرحلات الجغرافية التى سارت منها لاكتشاف منابع النيل وأواسط أفريقية ، ولعلك تلحظ دلائل عناية محمد على بأعمال الكشف والتنقيب مما رأيته من اصطحاب ابنه إسماعيل باشا بعض المهندسين مثل المسيو فردريك كايو أثناء فتح السودان كما تقدم بيانه ، ومن أن محمد على ذاته قد رحل إلى السودان يجوب أنحاءه ويتفقد معادنه ، وقد اصطحب فى رحلته بعض المهندسين والباحثين ، ثم أنه لما عاد من رحلته تولى بنفسه تنظيم البعثات والحملات الجغرافية البعيدة المدى للكشف عن منابع النيل ، فللحكم المصرى فى السودان فضل كبير على الاكتشافات الجغرافية التى تمت فى عهده وبإرادته ، وهذه الاكتشافات ذاتها قد مهدت السبيل للرحلات التى جاءت من بعده إلى أن تم اكتشاف منابع النيل بأكملها ، ولئن كان تمام اكتشافها فى سنة ١٨٥٨ و ١٨٦٠ و١٨٦٢ حينما انتهى الرحالتان (اسبيك) و (جرانت) إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا وشلالات ريبون ، فلا نزاع أن الرحلات والتجاريد فى عهد محمد على قد عبّدت الطريق للمكتشفين وأنارت لهم السُّبل وفتحت بلادا ومناطق لم يكن فى مقدروهم أن يجوبوها لو لم يبسط الحكم المصرى رواق الأمن فى أنحائها ، فالفتح المصرى فضلا عن نتائجه القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية ، وقد كان العامل الأول فى الرحلات التى تمت فى عهد محمد على اتجاه فكره وفكر أبنائه إلى اكتشاف منابعه التى كانت إلى ذلك العهد مجهولة لعلماء الجغرافية .

قال المسيو ديهران فى هذا الصدد : إن محمد على بإنفاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذى كان يطمح إليه علماء الجغرافية وكافة رجال العلم فى عصره[٣١] .

وقال عن إبراهيم باشا أنه كان شديد التطلع إلى تحقيق هذه الغاية ، وقد أفضى برنامجه إلى المسيو كايو حينما قابله يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٢١ فقال له : « إننا سنكشف النيل الأبيض فى حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى تستطيع أن تمضى فى النهر

(٣١) السودان المصرى فى عهد محمد على ص ١٢٨ .

بسهولة دون أن تعترضها الشلالات وستكون وجهة هذه العمارة النيلية أن تنحدر فى النهر ، وروافده حتى تصل إلى منابعه » .

وكان إسماعيل باشا إبن محمد على يطمح أيضا إلى ماكان بفكر فيه أخوه إبراهيم ، فقد قال للمسيو كايو حينما استأذنه فى العودة إلى مصر (٨ فبراير سنة ١٨٢٢) : « إذا ذهبت إلى فرنسا فانشر ما وصلت إليه من المعلومات ، ثم عد إلى مصر فإنك ستجد أبى لا يقنع بالاكتشافات الضئيلة التى وصلنا إليها ، بل سنبذل جهوداً أخرى ، وسأصحبك بنفسى إلى منابع النيل الأبيض » .

وقد شجع محمد على الرحلات الجغرافية فى حوض النيل من يوم أن بسط نفوذه فى السودان ، فساح فيه الرحالتان هاى Hay وهوشت Hocht ووصلا سنة ١٨٢٤ إلى مايلى رأس الخرطوم جنوبًا ، وفى سنة ١٨٢٧ انحدر المسيو لينان دى بلفون (لينان باشا) فى النيل إلى مايلى الخرطوم ، وفيما بين سنة ١٨٢٨ و ١٨٣١ ساح فيه إبراهيم كاشف ونزل النيل الأبيض ووصل إلى بلاد الشلوك والدنكا قريبًا من بحر الغزال .

حملات البكباشى سليم بك قبطان

ولما ساح محمد على فى السودان كان معتزمًا أن ينفذ الحملات والتجاريد لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، فعهد بهذه المهمة إلى البكباشى المصرى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب .

فاضطلع البكباشى سليم قبطان بهذه المهمة ، وقام بثلاث حملات متعاقبة كانت موضع إعجاب علماء الجغرافية ورواد الاكتشاف .

الحملة الأولى

تحركت الحملة الأولى من الخرطوم يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ برئاسة سليم بك قبطان يصحبه سليمان كاشف أحد ضباط الجيش المصرى ورجل فرنسى اسمه المسيو تيبو Thibaut كان يتسمى باسم إبراهيم أفندى ، وتتألف قوة الحملة من ٤٠٠ جندى اختيروا من جنود الآلاى والآلاى الثامن المرابطين وقتئذ فى سنار ، وكانت العمارة التى أقلت الحملة مؤلفة كما يقول سليم بك[٣٢] من ثمانى ذهبيات مسلحة كل واحدة بها مدفعان ،

(٣٢) مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية عدد يوليه سنة ١٨٤٢ ص ٨ رسالة البكباشى سليم بك .

ومركبين آخرين و ١٥ قاربا ، وبها من الذخائر والمؤونة ما يكفى الحملة لمدة ثمانية أشهر ، وقد وصلت الحملة إلى بلدة (العبس) جنوبى الخرطوم[٣٣] .

ثم حالت الموانع فى النهر دون تقدم العمارة ، فعادت إلى الخرطوم ، وفى عودتها عرجت بنهر سوباط أحد روافد النيل لاكتشافه وانحدرت فيه (١٦ فبراير — ٦ مارس سنة ١٨٤٠) إلى أن حالت قلة المياه دون تقدمها ، فرجعت إلى الخرطوم وبلغتها يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ بعد أن دامت رحلتها ١٣٥ يوما .

وقد وضع البكباشى سليم قبطان رسالة ضمّنها تفاصيل هذه الحملة ، وألحق بها جدولا بالأرصاد الجوية التى قيدها ، فكانت هذه الرسالة أول مرجع رجع إليه العلماء فى اكتشاف باطن أفريقية ، وقدمت هذه الرسالة إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية بباريس بواسطة المسيو جومار رئيس البعثة المصرية بفرنسا ، ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية (أعداد يوليه وأغسطس وسبتمبر سنة ١٨٤٢) ، فحازت إعجاب علماء الجغرافية بفرنسا ، ومهد لها المسيو جومار بمقدمة أثنى فيها على همة سليم بك قبطان وقال فيها :

« إن هذه الحملة المؤلفة من ٤٠٠ رجل بقيادة ضابط مصرى وغايتها الاكتشافات الجغرافية هى أول حملة من نوعها ، والتقرير المدون به يوميات الحملة محرر بالأوضاع التى يحررها الرحالة الأوربيون ، ولا جرم أن هذه الرحلة هى إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر منذ ربع قرن » .

الحملة الثانية

تحركت الحملة الثانية من الخرطوم يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ بقيادة سليم قبطان يصحبه أيضا سليمان كاشف قائد القوة البرية ، وصحبه من الأوروبيين المهندسان الفرنسيان دارنو Darnaud وساباتيه Sabatier والرحالة الألمانى فرن Verne والمسيو تيبو المتقدم ذكره .

وقد سارت الحملة فى النيل الأبيض ، وتخطت الجهة التى بلغتها الحملة الأولى ، ثم مضت فى سبيلها حتى بلغت يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ جزيرة (جونكر) الواقعة على الخط الخامس من خطوط العرض[٣٤] ، فتكون الحملة قد اجتازت نهاية الحملة الأولى بمراحل شاسعة ،

---

(٣٣) انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل .

(٣٤) انظر موقعها على الخريطة .

والمعلوم أن جزيرة (جونكر) تقع تجاه (غندكرو) التى تبعد عن الخرطوم نحو ١٠٨٠ ميلا جنوبًا ، فهى قريبة من البحيرات التى ينبع منها النيل ، وقد صارت غندكرو وقتًا ما عاصمة مديرية خط الأستواء فى عهد الخديو إسماعيل [٣٥] .

ولم يبق بين الحملة وبلغو منابع النيل إلا مرحلة وجيزة بالنسبة لما قطعته من المراحل ، ولكنها لم تستطع متابعة سيرها لهبوط مياه النيل جنوبى هذه الجهة ، ولوجود الجنادل والشلالات التى تحول دون تقدم السفن فى ذلك الجزء من النيل ، ولا تزال هده العقبات تعطل المواصلات النيلية فى هذه الجهة إلى عصرنا الحاضر ، فاستقر الرأى على العودة إلى الخرطوم ، وفى عودتها عرجت أيضا بنهر سوباط ، فسارت فيه إلى أن تعذر المسير فرجعت وتابعت سيرها إلى الخرطوم فبلغتها فى ١٨ أبريل سنة ١٨٤١ .

وللمسيو دارنو رسالة عن هذه الرحلة نشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية (عدد نوفمبر سنة ١٨٤٢) ثم طبعت على حدة .

الحملة الثالثة

تحركت الحملة الثالثة من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ بقيادة سليم قبطان ذاته وكان سيرها بطيئًا لمعاكسة الريح ، وأصيب بعض البحارة والجنود بالأمراض ومات بعضهم فى الطريق ، على أنها تابعت سيرها ، ولكنها لم تتجاوز النقطة التى بلغتها الحملة السابقة وعادت إلى الخرطوم يوم ٦ مارس سنة ١٨٤٢ .

وكان محمد على ماضياً فى إنفاذ فكرته معتزمًا أن يستأنف حملات الاستكشاف حتى يصل إلى منابع النيل ، ويبسط نفوذ مصر فى تلك الأصقاع ، ولكن المرض الذى انتابه فى أواخر عهده بالحكم حال دون إتمام قصده ، على أن هذه الحملات الثلاث قد أدركت نتائج عظيمة ، ولو أن البكباشى سليم قبطان قام بهذه الجهود فى بلد أوروبى ووصل إلى هذه النتائج لقدرت له أمته بطولته وخدماته حق قدرها ، ولشادت بذكره ، وعاونته ، وكافأته ، وشجعته بمختلف وسائل التعضيد ، وبذلك تشحذ الأمم عزائم أبنائها ويكثر فيهم العلماء والمكتشفون والنوابغ فى كل علم وفن ، أما فى مصر فقلما تحفل بهم الأمة والحكومة ، فلا جرم أن تضمحل العزائم ويتعثر التقدم القومى فى سيره .

---

(٣٥) قبل أن تصير مدينة (لادو) عاصمة لها .

اكتشفت هذه الحملات بلادا ومناطق كانت إلى ذلك الحين مجهولة ، ولم يطرقها من قبل سائح أو مكتشف ، ودرست جغرافيتها ، وعرفت أحوال سكانها ونباتها وأشجارها ومناخها وحيوانها ، فأفادت الحضارة والعلم فوائد جمة ، ثم إنها بسطت فى طريقها نفوذ مصر ، فخفقت الراية المصرية لأول مرة فى تلك الأصقاع النائية ، تحمل فى طياتها رمز الحضارة والتقدم ، فلا غرو أن كان لهذه الحملات فضل كبير من الوجهة القومية ، ولقد مهدت السبيل للحملات التى نظمها الخديو إسماعيل ، فأكمل العمل الذى قام به محمد على ، ووصل بحدود مصر إلى منابع النيل .

حدود السودان المصرى فى عهد محمد على

إن حدود مصر الجنوبية قبل الفتح الأول للسودان كانت تنتهى إلى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا ، فرقعة مصر كانت إذن أوسع مما تقرره الحدود الحالية ، تلك الحدود الباطلة التى تجعل حدها الجنوبى شمالى وادى حلفا (أنظر الخريطة ص ١٧١) .

وبفتح السودان فى عهد محمد على انضمت الأقاليم السودانية إلى حظيرة الوطن ، ووصلت حدود السودان المصرى شرقاً إلى البحر الأحمر ، فقد فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ إقليم التاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والبحر الأحمر أى السودان الشرقى ، وجعلت مدينة كسلا عاصمة له كما تقدم بيان ذلك ، وكان لفتح هذا الإقليم أهمية كبيرة لخصوبة أرضه وكثرة مراعيه ولكونه صلة الاتصال بين السودان وثغرى سواكن ومصوع .

وفتحت الجنود المصرية أيضًا (القضارف) بالقرب من حدود الحبشة و(القلابات) الواقعة على شاطىء نهر عطبرة بالقسم الجنوبى من إقليم التاكا فوصلت إلى حدود الحبشة شرقا .

وكذلك دخلت سواكن ومصوع فى حدود السودان المصرى ، فقد استأجرهما محمد على باشا من سلطان تركيا ، إذ كانتا من قبل من أملاك السلطنة العثمانية القديمة ، فلما رأى محمد على ضرورتهما للسودان لأنهما منفذاه على البحر الأحمر وخاصة لإقليم التاكا استأجرهما من السلطان إيجاراً دائمًا مقابل مبلغ سنوى قدره ٥٠٠٠ كيس أى ٢٥٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا تحت ظل الحكم المصرى منذ عهد محمد على .

أما من جهة الجنوب فقد بلغت الحملات والتجاريد التى أنفذها محمد على فى النيل الأبيض إلى جزيرة (جونكر) تجاه (غوندكرو) كما أسلفنا ، فإلى تلك النقطة ينتهى الفتح

الأول للسودان ، ولم يتعدَّها لعدم تخطى الاكتشافات الجغرافية هذه الجهة ، فالفتح الأول قد جعل من النيل نهراً مصرياً إلى آخر نقطة وصل إليها الاكتشاف الجغرافى فى ذلك العصر.

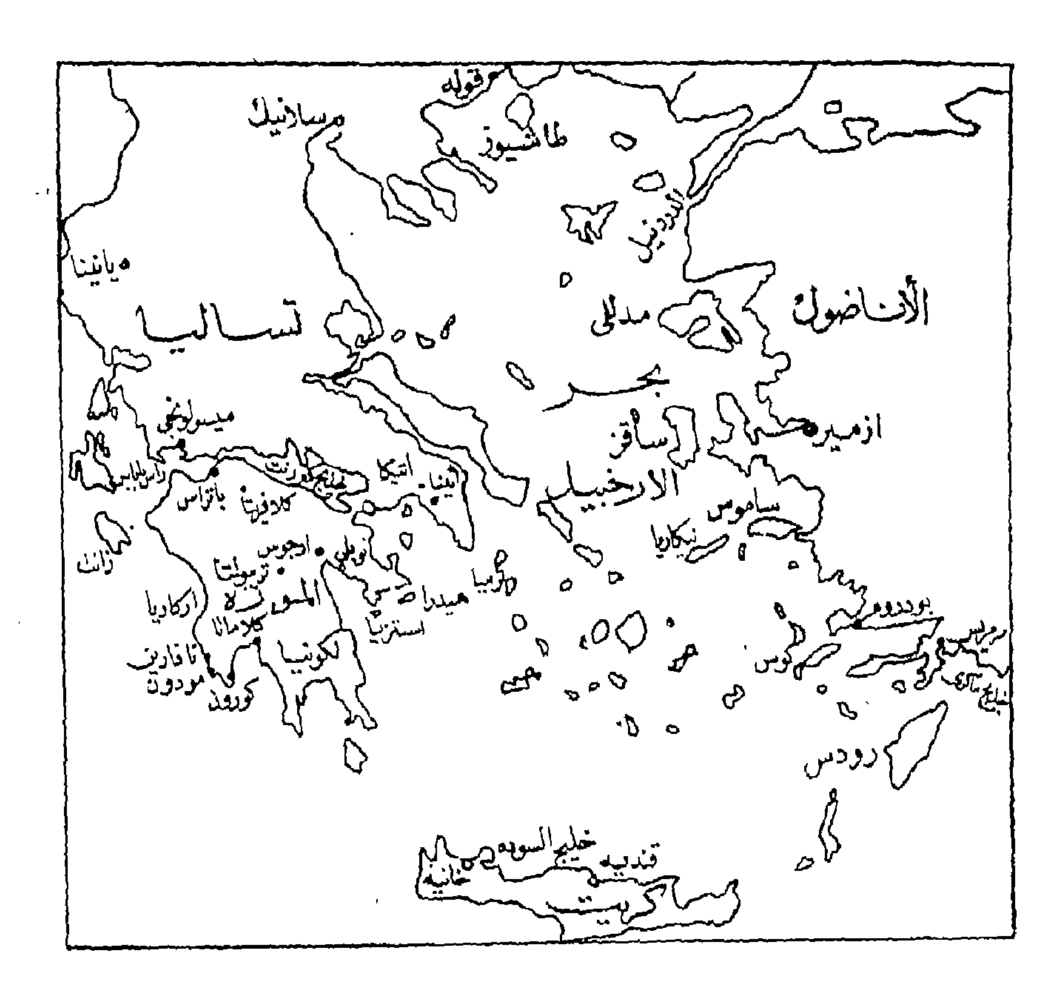
أما مايلى (جونكر) جنوبًا وهو الإقليم المعروف بمديرية خط الاستواء وأوغنده ويشمل منطقة البحيرات فقد فتحته مصر فى عهد الخديو إسماعيل .

ومن جهة الغرب قد شمل الحكم المصرى كردفان ، أما سلطنة (دارفور) فلم تفتح إلا فى عهد إسماعيل باشا ، ولكنها دخلت رسمياً فى أملاك مصر على عهد محمد على وذلك بمقتضى فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ الذى أسند إليه ولاية أقاليم السودان ، وهى كما وردت فى الفرمان المذكور : « النوبة ، ودارفور ، وكردفان ، وسنار وجميع توابعها وملحقاتها » .

ولم تكن دارفور قد فتحت بعد ، فإصرار محمد على باشا على دخولها فى الفرمان دليل على أنه يعدها من أملاك مصر الطبيعية ، وغير خاف أن هذا الفرمان قد صدر بتصديق الدول ، فامتلاك مصر للسودان قد حاز الصفة الرسمية والدولية فضلا عن الحق الطبيعى والصبغة القومية .

ولو كان محمد على ضاعف عنايته بإكمال فتح السودان إلى منابع النيل ، وبذل فى تثبيت ملكه ونشر لواء الحضارة والعمران فيه ما بذله فى حروب سورية والأناضول ، لوطد دعائم الوحدة القومية بالوصول إلى منابع النيل ، فإن الحدود الطبيعية لمصر والسودان هى وادى النيل وملحقاته من البحر الأبيض شمالا ، إلى البحر الأحمر شرقًا ، وصحراء ليبيا غربًا ، وإلى منابع النيل والأقيانوس الهندى جنوبًا .

* * *



خريطة حرب اليونان وفيها بيان المواقع التي ورد ذكرها في الفصل السابع

الفصل السابع

حرب اليونان

(سنة ١٨٢١ – ١٨٢٨)

انتهت حرب السودان ببسط نفوذ مصر فى ربوعه ، وانصرف محمد على وقتًا ما إلى توطيد دعائم الدولة المصرية العظيمة التى نشأت على ضفاف النيل ، وامتدت إلى شبه جزيرة العرب . وأخذ يعنى بإكمال تنظيم الجيش على الأساليب الحديثة ، وفتح المدارس وشق الترع وإقامة المصانع ، وتوفير أسباب العمران فى ذلك الملك الواسع ، وبينما هو ماض فى هذا السبيل إذا بالسلطان محمود يدعوه إلى حرب جديدة واسعة المدى كثيرة المتاعب ، ميدانها فى البر والبحر ، وهى حرب اليونان ، فكلفه إخماد الثورة الأهلية التى أثارها اليونانيون ورفعوا لواءها بغية تحرير بلادهم من النير التركى وتحقيق استقلالهم القومى .

الثورة اليونانية

كانت بلاد اليونان إلى أوائل القرن التاسع عشر جزءاً من السلطنة العثمانية ، يحكمها الولاة الأتراك الذين ترسلهم حكومة الاستانة ، وظلت على هذه الحال إلى أن ظهرت فيها بوادر الثورة الأهلية ، فألف أعيانها وشبابها الجمعيات الثورية لتنظيم الثورة وبث تعاليمها فى أنحاء البلاد واستمالة الرأى العام فى أوروبا ، واتخذوا مركز هذه الجمعيات فى الروسيا والنمسا لتكون على اتصال بالحكومات الأوروبية وبمنجاة من اضطهاد الحكام الأتراك ، وأهم هذه الجمعيات جمعية كبيرة تسمى (هيتريا) تألفت سنة ١٨١٥ لتحرير اليونان من الحكم التركى وبث روح الثورة فى النفوس ، وقد انضم إليها كل ذى مكانة فى اليونان من الأعيان والشبان ورجال الدين ، وعضدها كثير من أمراء أوروبا ووزرائها وسراتها وذوى الرأى فيها ، وساعدوها بأموالهم ونفوذهم ، وعضدها قيصر روسيا اسكندر الأول الذى كان يؤيد مطالب اليونان تأييداً كبيرًا ، وقرب إليه بعض زعمائهم ، فاستوزر منهم المسيو كابو دستريا

Capo Distria وجعله موضع ثقته ، واستخدم فى الجيش الروسى ضابطًا يونانيًا يسمى اسكندر ابسلنتى جعله ياوره وكان له شأن أيما شأن فى الثورة اليونانية .

وإلى هذه الجمعية يرجع الفضل الأكبر فى تعميم الدعوة إلى الثورة فى بلاد اليونان .

وقد ظلت حتى سنة ١٨٢١ تعمل فى السر وتدأب فى خلال تلك المدة على دعوة الشعب اليونانى إلى تأييدها والاندماج فى صفوفها ، ثم تشعبت فروعها فى الأقاليم وفى عواصم ولايات البلقان حتى بلغ أعضاؤها سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين ألف عضو يحملون السلاح متهيئين للموت فى سبيل الاستقلال .

اتصلت هذه الجمعية بقيصر روسيا ، وكان سببها إليه وزيره (كابودستريا) والضابط ابسلنتى ، فاعتزت بهذه الصلة وبتعضيد أنصارها ، ووضعت بادئ الأمر برنامجًا واسع النطاق مؤداه استقلال أمارات البلقان كلها وطرد الأتراك من أوروبا وإحياء الدولة البيزانطية القديمة ، وعهدت برياستها إلى الضابط اسكندر ابسلنتى المتقدم الذكر .

فشبت الثورة بزعامته فى (ياسى) من أعمال ولايتى البغدان والأفلاق (رومانيا) فى شهر مارس سنة ١٨٢١ ، واختارت الجمعية تلك الجهة لقربها من الروسيا حتى تمدها بجيوشها .

لكن الثورة لم تصادف فى دورها الأول تعضيدًا حربيًا من الروسيا ، لأنها قامت فى الوقت الذى كان ملوك أوروبا المستبدون ومنهم قيصر الروسيا يأتمرون بالحركات القومية ويتألبون عليها لقمعها ، وكان (مترنيخ) وزير النمسا الأكبر قوام هذه المؤامرة وله الكلمة النافذة على الحكومات المؤتمرة ، فالثورة التى تولى زعامتها (ابسلنتى) قامت وقيصر الروسيا يتفاوض فى مؤتمر (ليباخ) لإخضاع الثوار فى مملكة نابولى ، فكان من التناقض أن يأتمر بالثورات القومية ثم يشد أزر الثورة فى البلقان ، ومع أن الثورة إنما قامت بتحريض قيصر الروسيا فإنه اضطر إلى انكارها وتخلى عن ابسلنتى وأعوانه ، وتركهم وجهًا لوجه أمام تركيا فجردت عليهم جيشًا عبر الدنواب وهزمهم ، ففر ابسلنتى إلى المجر حيث اعتقلته الحكومة النمسوية (يونية سنة ١٨٢١) ففشلت بذلك الثورة اليونانية شمالى البلقان .

إعلان الثورة فى الموره

(٢٥ مارس سنة ١٨٢١)

على أن الثورة لم تكن قاصرة على شمال البلقان ، بل كانت جذورها متأصلة فى بلاد

اليونان نفسها ، أى فى شبه جزيرة الموره ، فهبت الثورة فيها ، وكان لها طابع دينى ، فلا غرو أن كان أول من أعلنها ونادى بها على رءوس الأشهاد هو القس جرمانوس أسقف باتراس (شمالى الموره) ، فقد غادر باتراس وسار إلى كلافريتا Klavarita يتبعه الأنصار والأعوان ، وهناك فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ ، نادى بالثورة ودعا قومه إليها ، واتخذ شعارها : الإيمان ، والحرية ، والوطن .

فلبى اليونانيون الدعوة ورفعوا علم الجهاد فى البر والبحر ، ففى البحر أخذت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على المراكب التركية ببحر الأرخبيل وتأسرها أو تدمرها ، وتوقع بركابها قتلاً وأسرًا ونهبًا ، وفى البر استولى الثوار على أهم مدن الموره ، وأحتلو (تريبولتسا) عاصمتها ، ونكلوا بالأتراك المقيمين بها تنكيلا فظيعًا ، ثم تألفت (جمعية وطنية) من ستين نائبا يمثلون المقاطعات الثائرة ، وانعقدت فى يناير سنة ١٨٢٢ [١] وأعلنت استقلال الأمة اليونانية ، ووضعت لليونان دستورًا قوميًا .

ثم اتخذت الحكومة الثورية منذ سنة ١٨٢٣ مدينة (نوبلى) عاصمة ومقرا لها ، وقد ساعد الثورة فى بداءة عهدها أن الجنود التركية بقيادة خورشد باشا [٢] كانت مشغولة بمقاتلة على باشا الثائر الشهير فى يانينا ، فلما أخمدت ثورة على باشا وانتهت بقتله زحفت الجنود التركية على الموره ، وكانت لها الغلبة فى بدء القتال ، ثم دارت عليها الدائرة وتضعضع الجيش التركى وظهر عليه الثوار ، وازداد الثوار جرأة بما نالوه من الفوز فى بحر الأرخبيل حيث أحرقوا كثيرا من السفن التركية ، وعاثوا فى البحر فسادًا ، وأحيوا عهد القرصنة .

استعانة تركيا بالأسطول المصرى

ولما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر أرسل السلطان محمود إلى محمد على يعهد إليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من قرصنة هذه السفن ، وكان ذلك سنة ١٨٢١ ، أى قبل الحملة المصرية على الموره .

---

(١) بمدينة ابيدور Epidaure برآسة اسكندر مافرو كروداتو

(٢) هو الذى كان واليا على مصر سنة ١٨٠٤ وثار عليه الشعب وخلعه وأجلس محمد على باشا مكانه سنة ١٨٠٥ كما بينا ذلك بالجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣٥٧ (الطبعة الأولى) .

ذكر المسيو مانجان[٣] أن محمد على أعد الأسطول فى الإسكندرية حيث أقلع منها فى ١٠ يوليه سنة ١٨٢١ بقيادة الأميرال إسماعيل جبل طارق[٤] وكان مؤلفا من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوزأوغلى فاتجه الأسطول إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة إلى جزيرة كريت .

رواية الجبرتى

أشار الجبرتى إلى بعض هذه الوقائع فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ أغسطس سنة ١٨٢١) (وهو آخر ما دونه فى كتابه) قال :

« وفى منتصفه سافر الباشا إلى الإسكندرية لداعى حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ، ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر ، وقطعهم الطريق على المسافرين ، واستئصالهم بالذبح والقتل ، حتى أنهم أخذوا المراكب الخارجة من استانبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر ومن بها أيضا من السفار والحجاج ، فقتلوهم ذبحًا عن آخرهم ومعهم القاضى وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك ، وشاع ذلك بالنواحى ، وانقطعت السبل ، فنزل الباشا إلى الإسكندرية وشرع فى تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة السلطانية ، وسيأتى تتمة هذه الحادثة »[٥] .

---

(٣) فى كتابه تاريخ مصر فى حكم محمد على ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) تذكره بعض المراجع الفرنسية باسم إسماعيل جبل طارق وبعضها باسم إسماعيل الجبل الأخضر ، مما يجعلنا نشك فى هذا اللقب الذى ليس من الأعلام المألوفة فى ذلك العصر ، فالاسم الموثوق به أنه الأميرال إسماعيل بك ، ويقول إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ج ٢ ص ٢٣٨ أن الأسطول الذى أقلع لتأديب الثوار اليونان فى ذلك العهد كان بقيادة محرم بك ، ويورد أمرا من محمد على إليه فى هذا الصدد تاريخه ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ (يوافق ٢٥ يونيه سنة ١٨٢١) وهذا نصه : « قد علم لكم أنه أحيل تأديب وتربية الأروام الثائرين على الدولة العلية على عهدتى ، وبما أن السفن الحربية التى جرى استعدادها لغاية الآن قد بلغت أربع عشرة سفينة . ولو أن قيادتها عائدة علىّ ، إلا أنه لكثرة أشغالى قد عينتكم بدلا عنى لقيادتها ، فتوكلوا على الله واسرعوا بالإقلاع بها للجهة المقصودة وأدوا الخدمة اللازمة عليكم فى هذه المأمورية بحسب ما تقضى عليكم حقوقها المقدسة ، وقد تحررت صورة من هذا الأمر إلى مطوش قبودان الذى تعينت سفينته بمعيتكم » .

نقول وهذا لا يمنعنا أن نرجح رواية المسيو مانجان لأنه عاصر الحوادث التى كتب عنها ، وروايته تؤيدها المراجع الفرنسية الأخرى ، ويجوز أن محمد على عهد إلى الأميرال محرم بك بقيادة الأسطول نيابة عنه كما جاء فى الأمر لكن الذى سافر فعلا وقاد الأسطول هو اسماعيل بك كما يقول مانجان .

(٥) لم يرد ذكر لهذه التتمة لأن كتاب العلامة الجبرتى ينتهى بحوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٦ (سبتمبر سنة ١٨٢١) .

الحملة المصرية على كريت

شبت الثورة فى جزيرة كريت سنة ١٨٢١ كما شبت فى بلاد الموره نفسها وفى جزر الأرخبيل ، وظهر الثوار على الحاميات التركية التى اضطرت إلى الامتناع فى بعض القلاع بالجزيرة ، فعهد السلطان محمود إلى محمد على أخماد الثورة فيها ، فأعد محمد على حملة من ٥٠٠٠ جندى بقيادة حسن باشا وأقلعت بهم العمارة المصرية من الإسكندرية قاصدة إلى جزيرة كريت فنزل الجنود إلى البر فى يونيه سنة ١٨٢٢ ، واستمرت الحرب سجالا إلى سنة ١٨٢٣ ، وقاتل المصريون الثوار قتالا شديدا وأنقذوا الحاميات التركية المحصورة فى القلاع ، ومات حسن باشا خلال الفتح فخلفه حسين بك فى قيادة الجند ، ودامت الحرب إلى أن ظفر المصريون بالثوار وضيقوا عليهم وحصروهم فى جهة من الساحل وشتتوا شملهم وفر الكثير منهم إلى الجزر اليونانية الأخرى ، واستتبت السكينة فى الجزيرة .

وكذلك أخمد الجنود المصريون الثورة فى جزيرة قبرص .

الحملة على الموره

أما فى بلاد الموره ذاتها فقد استمرت الحرب سجالا بين الجيش التركى والثوار إلى سنة ١٨٢٣ ، وشعر السلطان العثمانى بعجزه عن إخماد الثورة وأدرك ما كبدته إياه من الخسائر الجسيمة ، ورأى فى الوقت نفسه أن محمد على باشا آخذ فى تنظيم جيشه على الطراز الحديث وتثبيت دعائم ملكه العظيم ، فخشى إذا استمر ماضيًا فى هذا السبيل أن يقوى على تركيا ويحقق فكرة الانفصال عنها وإعلان الاستقلال ، فأراد أن يشركه فى الحرب اليونانية ليحقق بذلك غرضين ، أولهما الاستعانة بالجيش المصرى على إخماد ثورة اليونان ، والثانى صرف محمد على باشا عن المضى فى تنظيم الجيش ومضاعفة قوته ، فعهد إليه تجريد جيشه على الثوار فى بلاد اليونان وأصدر له فرمانًا يدعوه إلى ذلك ويخوله ولاية الموره .

كان هذا الفرمان بمثابة توسيع لنطاق الدولة المصرية وبسط لنفوذها فيما وراء البحار ، وبالتالى يرفع من شأن محمد على ويزيد من مكانته ، ولم يكن محمد على ليرفض أن يعلو شأنه ويتسع ملكه ، كما أن استنجاد تركيا بجيشه كلما قصرت يدها وعجزت عن مقاومة الثورات سواء فى الحجاز أو فى اليونان مما يزيده فخراً ويوطد مركز الدولة المصرية التى أسسها ، فلم يكن

هناك بد من تلبية دعوة تركيا ، هذا فضلا عن إنه إذا رفض ما عرضه عليه السلطان من التكريم والتكليف فإن رفضه يكون حجة فى يد الساعين إلى خلعه عن عرشه وإظهاره بمظهر الخارج على إرادة السلطان ، وهو لم يكن قد توصل بعد إلى تقرير مركز مصر السياسى حيال تركيا ، فقد كان لم يزل (واليًا) ، وللسلطان (رسميًا) أن يعزله .

وقد وازن محمد على بين هذه الاعتبارات واستشار أعضاء أسرته وكبار رجال حكومته ، فاستقر رأيه على أن يجيب دعوة الباب العالى .

معدات الحملة

بذل محمد على همة كبرى فى تجهيز معدات الحملة على الموره ، فأعد جيشًا بريًا من الجيش النظامى الجديد بقيادة نجله الأكبر (إبراهيم) بطل الحجاز وقاهر الوهابيين ، يتألف فى بدء الحملة من ١٧٠٠٠ مقاتل من المشاة ، وأربع بلوكات من المدفعية ، وسبعمائة من الفرسان ، وجهزهم بالمدافع والبنادق والذخائر ، وأعد عمارة بحرية مصرية لنقل الحملة ومهماتها يحرسها الأسطول المصرى بقيادة الاميرال إسماعيل جبل طارق ، وكانت القيادة العليا لإبراهيم باشا .

تألفت العمارة من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل[٦] واجتمعت فى ميناء الاسكندرية ، فكان منظرها يأخذ بالألباب ، قال المسيو دريو فى هذا الصدد : قد اشترى محمد على من أوروبا كثيرًا من السفن بحيث صار عنده عمارة ضخمة تشبه الأرمادا[٧] ، ولم ير الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت ، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابًا على حملة أوروبا عليه ، وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ[٨] .

الحرب البحرية على شواطئ الأناضول

أقلعت العمارة المصرية من ثغر الإسكندرية فى شهر يوليه سنة ١٨٢٤ ، ولم تقصد إلى شبه جزيرة الموره رأسا ، بل اتجهت إلى مياه رودس ، ومنها إلى خليج (ماكرى) على شاطئ

---

(٦) اعتمدنا فى هذا البيان على إحصاء للمسيو دروفتى قنصل فرنسا الذى رأى العمارة فى الإسكندرية وكتب عنها إلى وزير الخارجية الفرنسية فى رسالة وردت ضمن وثائق الموره التى نشرتها الجمعية الجغرافية وثيقة رقم ١٤ .

(٧) هى العمارة الكبيرة التى أعدها فيليب الثانى ملك إسبانيا لمحاربة انجلترا فى القرن السادس عشر .

(٨) دريو ، تاريخ اليونان السياسى ج ١ ص ٢٥٧ .

الأناضول لتلتقى بالأسطول التركى الذى نيط به مطاردة السفن اليونانية فى مياه بحر الأرخبيل وتطهير البحر من قرصنتها وأخماد الثورة فى الجزر .

ولما وصلت العمارة إلى خليج (ماكرى) أنزل إبراهيم باشا جنوده إلى البر وتهيأ للإقلاع بأسطوله شمالا ليتصل بالأسطول التركى الذى جاء من الدردنيل بقيادة خسرو باشا ، فالتقى به فى ميناء بودروم (على شاطىء الأناضول) فى أواخر أغسطس ، ولما التقى الأسطولان ظهر الفرق جليًّا بين نظام الأسطول المصرى وفوضى الأسطول التركى ، وكان هذا الأسطول قد لاقى الأهوال من مهاجمة سفن الثوار اليونان ، فقد كان لهؤلاء مهارة كبيرة فى ركوب البحر وحولوا معظم مراكبهم التجارية إلى سفن مسلحة أعدوها لغزو السفن التركية ، وكان أشدها فتكًا السفن المعروفة بالحراقات فإنها كانت تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها ، وقد اشتبكت بأسطول خسرو باشا واعترضت طريقه فى مياه جزيرة ساموس فأحرقت بارجة الأميرال وسفينتين أخريين ، وتراجعت العمارة التركية جنوبًا حتى التقت بالعمارة المصرية فى مياه (بودروم) كما أسلفنا .

هاجمت السفن اليونانية العمارتين بالقرب من بودروم ودارت رحى القتال بين الفريقين ، فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان ، أما إبراهيم باشا فقد صمد للسفن اليونانية حتى اضطرها إلى التقهقر (سبتمبر سنة ١٨٢٤) .

واتصلت العمارتان المصرية والتركية ثانيًا وسارتا إلى مياه جزيرة (مدللى) ثم تابعت العمارة التركية سيرها شمالا إلى الدردنيل .

ورجع الأسطول المصرى جنوبًا ، فاعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة (ساقز) واشتبكت به فى معركة شديدة أفضت إلى غرق سفينتين مصريتين (أكتوبر سنة ١٨٢٤) ثم عاد إبراهيم بأسطوله إلى ميناء (بودروم) .

أدرك إبراهيم باشا من هذه الوقائع أن هزيمة اليونان لا تكون على ظهر البحر حيث لهم السفن المنبثة فى نواحيه ، وأن خير وسيلة للغلبة عليهم هى القضاء عليهم برًّا فى شبه جزيرة المورة ، فرجع أدراجه إلى ميناء (مرمريس) جنوبًا ، ثم أقلع إلى جزيرة كريت فى ديسمبر سنة ١٨٢٤ ورسا بالعمارة فى خليج السوده حيث أخذ يتحين الوقت المناسب للإقلاع إلى ساحل المورة .

ولقد برهن إبراهيم باشا خلال هذه الوقائع البحرية على شجاعته التى امتاز بها فى حروب

البر ، فإنه صمد عدة أشهر لقتال السفن اليونانية التى اشتهرت بعظيم قدرتها فى خوض غمار البحار ومهارتها فى مهاجمة السفن الحربية ، ولولا عزيمته ورباطة جأشه فى مواجهتة المخاطر لتشتت العمارة المصرية وتبددت أمام هجمات السفن اليونانية ، قال المسيو (دوان) فى هذا الصدد[٩] :

« مضت خمسة أشهر على مغادرة العمارة المصرية ثغر الإسكندرية ، خمسة أشهر تقضت فى جهود شاقة ، ومتاعب لا هوادة فيها ، ومخاطر تجدد كل يوم ، وإن ما أبداه إبراهيم باشا فى هذه الظروف من الثبات ورباطة الجأش لما يسترعى النظر ، فإن قيادة أسطول بحرى تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التى لا يسهل الاضطلاع بها ، وإن إبراهيم باشا فى قيادته عمارة من مائة سفينة تقل نحو عشرين ألف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابرت من قبل ، مع حفظ النسبة بين الموقفين ، حينما اجتاز البحر الأبيض فى أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨,٠٠٠ مقاتل ، وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين أسطول منتظم ، ولا تقاليد بحرية ، ولا هيئة من الضباط البحريين الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على إبراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ، ورجال وعتاد ، وأن يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين أمواجه وأهواله ، إذ تذكرنا كل ذلك ، فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى حشدها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضعة نقالات . لا شك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة إبراهيم باشا وعلو همته ، وتطالعنا بما تحتويه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة ، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لا يسع أى إنسان إلا أن يبادر بالإعجاب بها » .

النزول إلى برّ الموره

قلنا إن ابراهيم باشا مضى بعمارته إلى جزيرة كريت وأخذ يتحين خلو البحر من السفن

---

(٩) فى كتابه « لوقاطات محمد على الأولى » ص ١٢ .

اليونانية ليقلع إلى شواطىء الموره ، وقد تهيأت له الفرصة إذ وقع اضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر عطائهم وتنازع زعمائهم من رؤساء الحكومة الثورية ، فأبى البحارة الاستمرار فى القتال فلما علم إبراهيم باشا بهذا النبأ انتهز الفرصة فأقلع بعمارته من (خانيه) إلى ميناء (مودون) جنوبى الموره وأنزل جنوده إلى البر فى فبراير سنة ١٨٢٥ وألفى القوات التركية فى أسوأ حال لغلبة الثوار عليهم بحراً وبرًّا ولم يبق تحت يد الترك من المواقع سوى (مودون) التى نزل بها إبراهيم باشا ، وميناء (كورون) التى كان يحاصرها اليونانيون .

حصار نافارين

أقام إبراهيم باشا فى (مودون) قليلا يدبر شئون جنده ويرسم خطة الزحف على داخل البلاد ، ثم سار منها مع نخبة من جيشه قاصدًا (كورون) لنجدتها ، فغلب اليونانيين وفكّ الحصار عنها وأدخل إلى الجنود المحصورة المدد والمؤن ، ثم أنفذ فرقة من جيشه لضرب الحصار على مدينة (نافرين) التى كان الثوار قد استولوا عليها وامتنعوا بها ، وكانت من أهم مواقع الموره ، فحاصرها برًّا وبحراً واشتدت مقاومة اليونانيين وتكبد المصريون الأهوال فى حصار المدينة ، فقام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودن) ليشدد الحصار على نافارين ، فهاجمته فى طريقه إليها فرقة من اليونانيين يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل أتوا لنجدة حامية (نافارين) فهزمهم ابراهيم باشا وأسر قائدهم وبدد شملهم وشدد الحصار على المدينة برًّا وبحراً وكادت تشرف على التسليم لولا قدوم جيش من متطوعى اليونانيين يبلغ تسعة آلاف مقاتل جاءوا لرفع الحصار عن المدينة وقهر الجيش المصرى .

لكن إبراهيم باشا قابل هذا الجيش بشجاعة ونظام بديع ، فصف جنوده على ترتيب محكم ، ولما أصبح الأعداء على عشرة أميال ركب المدافع القوية حول المدينة وترك جزءًا من جيشه يتولى حصارها وقام ببقية والتقى باليونانيين على مقربة من البلد ، فهجم هؤلاء بحماسة عظيمة ولكن من غير نظام ، أما إبراهيم باشا فقد أمر جنوده فى مواقعهم دون أن يطلقوا النار حتى تصدر إليهم الأوامر بذلك فلما صار العدو على مائة متر قابله الجنود المصريون بإطلاق النار ، دفعة واحدة ، فحصد الرصاص الصفوف المتقدمة حصدًا وألقى الرعب فى قلوب المهاجمين واختلت صفوفهم ، ولم يمض قليل حتى قتل معظم جنود اليونانيين وتشتت الباقون فى الجبال وفى أنحاء اليونان .

كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى أصابت اليونانيين وفتّت فى عضدهم وزلزلت آمالهم ، كما أنها كانت نصرًا مبينًا للجيش المصرى ، انتهت بسحق الجيش اليونانى وغنم المصريون فيها غنائم كثيرة وأسروا عددًا عظيمًا من الأسرى فيهم عدة من الضباط ورؤساء الجند الذين عليهم اعتماد اليونانيين فى تنظيم حركاتهم الحربية .

وقد رفعت هذه الواقعة من شأن الجيش المصرى ، فإنها أول معركة خاضها فى القارة الأوروبية بعد حروبه السابقة فى آسيا وأفريقية ، وكانت فاتحة انتصاراته فى حرب المورة ، وقد شهد الجميع للجيش المصرى بالنظام والشجاعة والثبات ، وكان مسلك الجنود فيها حيال أعدائهم مسلكًا إنسانيًّا رائعا ، فلم يرتكبوا شيئًا من الفظائع ، وكانوا يحسنون معاملة الأسرى اليونانيين ، كما أن أطباء الجيش المصرى كانوا يعنون بتضميد جراحهم إنفاذًا لأوامر إبراهيم باشا .

تمكن الجيش المصرى بعد هذه الواقعة من تشديد الحصار على (نافرين) برًّا ، ولكن المدينة لوقوعها على البحر كان يأتيها المدد والمؤن ، فرأى ابراهيم باشا أن لا سبيل إلى منع وصول المدد إليها إلا إذا استولى على جزيرة اسفاختريا التى تحجب المرفأ ليتمكن من تركيب المدافع بها وإقفال مدخل الميناء ومنع دخول المدد إليها ، وكان اليونانيون يعرفون ما لهذه الجزيرة من الأهمية ، فحصنوها ووضعوا فيها عدة بطاريات من المدافع ، فكان استيلاء عليها من أشق الأمور ، على أن ابراهيم باشا بعد أن شاور أركان حربه رأى أم فتح (نافارين) مستحيل بغير الاستيلاء على هذه الجزيرة فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى سليمان بك (باشا) الفرنساوى[١٠] (مايو سنة ١٨٢٥) .

فاختار سليمان بك نخبة من الجنود ممن مهروا فى النظام الجديد وسار بهم من (مودون) بحراً قاصداً (نافارين) ، ولما علم اليونانيون بأن هذه القوة آتية لاحتلال الجزيرة عززوا حاميتها بقوة من شبانهم ومقاتلتهم .

فلما صارت السفن المصرية على مرمى المدفع أطلقت قلاع العدو المدافع عليها فلم تتزلزل قلوب المصريين ، وأجابوا بضرب المدافع من السفن ، ونزلت العساكر البرية منهم فى الزوارق وقصدوا الجزيرة تحت وابل من القنابل ، فتمكنوا من الوصول إلى البر وترامى الفريقان بإطلاق البنادق ، ثم هجم المصريون هجوم الأبطال وكان عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، واحتلوا

(١٠) فولابل ، مصر الحديثة جزء ٢ ص ٣٢١ .

الجزيرة عنوة بعد أن دافع اليونانيون دفاعا شديدًا عنها ، ولكن المصريين غلبوهم بحسن نظامهم وشجاعتهم ورفعوا العلم المصرى على استحكامات الجزيرة .

استيلاء المصريين على نافرين
(مايو سنة ١٨٢٥)

كانت نتيجة هذه الواقعة أن شدد الجيش المصرى الحصار على نافرين برًّا وبحرًا ، وقد حاول اليونانيون أن يمدوا المدينة المحصورة بالرجال والعتاد ، فكان إبراهيم باشا يفسد كل محاولة من هذا القبيل ، فلما يئس الجنود المحصورون من وصول المدد إليهم طلبوا من إبراهيم باشا أن تسلم إليه المدينة بقلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة بشرط أن يؤمنهم على حياتهم ، فاستجاب لهذا الطلب (١٨ مايو سنة ١٨٢٥) ودخل المدينة فكان دخول الجيش المصرى إليها من أعظم الانتصارات التى تزين تاريخه الحربى ، وكان لسقوطها أثر بالغ فى الموقف الحربى جعل اليأس يدب فى صفوف اليونانيين ، ووطد مركز الجيش المصرى ، لأن (نافرين) و (مودون) و (كورون) هى قواعد حربية هامة يتسلط منها الجيش على المورە .

نشاط السفن اليونانية

وفى خلال القتال تمكنت السفن اليونانية التى بميناء نافرين من الإفلات من الحصار إلا سفينتين وقعتا فى أسر المصريين ، وانضمت إلى السفن اليونانية التى تمخر فى بحر الأرخبيل ، فأخذت تنشط لمحاربة العمارة المصرية ، وتمكن الأميرال اليونانى (موليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التى كانت العمارة المصرية راسية بها[١١] واستطاعت الحراقات اليونانية أن تشعل النار فى السفن المصرية الراسية خارج الميناء ، وكانت الريح شديدة ، فاندلعت النار إلى باقى السفن ، فتعذر إطفاؤها ، ولم ينج بحارتها بأنفسهم إلا بعد عناء شديد ، وذهب كثير من السفن ، فى هذا الحريق ، وامتدت النار إلى المدينة فالتهمت جزءًا منها ، وتناولت مخازن البارود فنسفتها وتهدم بنيانها وهدمت الأماكن المجاورة لها ، وقد وقعت هذه الحادثة أثناء حصار نافرين ، فلم تفت فى عضد إبراهيم باشا ولم تثنه عن عزمه ، ودأب فى القتال إلى ان استولى على المدينة .

---

(١١) ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ .

مهاجمة السفن اليونانية سواحل مصر

وفى غضون الحرب استهدفت السواحل المصرية لقرصنة السفن اليونانية التى أحفظها اشتراك مصر فى الحرب ، فأقبلت ثلاث من حراقات اليونان إلى بوغاز الإسكندرية ودخلت واحدة منها إلى الميناء ووصلت أمام طابية صالح وأشعلت نارها تريد إحراق الأسطول المصرى الذى كان راسياً أمامها وهى الطريقة التى اشتهرت بها الحراقات اليونانية ودمرت بها كثيراً من السفن العثمانية ، ولكن حراس القلعة بادروا إلى إطلاق المدافع على السفينة اليونانية ، وبادرت السفن الحربية المصرية إلى إرسال بعض زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمتها وأخمدت نارها ، وبرهنت فى تلك الحركة على مهارتها ويقظتها ، فلما رأت السفينتان اليونانيتان الأخريان ما حل بالأولى لاذتا بالفرار .

ولما علم محمد على باشا بهذه المحاولة الجريئة أصدر أمره إلى محرم بك أميرال الأسطول المصرى ووكيله بلال أغا بالخروج مع خمس سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين ، وخرج محمد على صحبة هذه الحملة على ظهر السفينة الحربية (جناح بحرى) ، ولكن الحملة لم تستطع اللحاق بالحراقتين ، وقد تابع محرم بك تجواله بالأسطول حتى بلغ مياه رودس حيث كانت السفن اليونانية ، فلما أبصرت الأسطول المصرى لاذت بالفرار وأقلعت إلى مياه الأرخبيل .

فتح كلاماتا Kalamata

لما سقطت (نافرين) اعتصم الثوار اليونانيون وعددهم نحو خمسة آلاف بقيادة (بترو بك) فى ميناء (كلاماتا) وكانوا من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة وشدة البأس وأجمعوا الاستبسال فى مقاومة الجيش المصرى ، فمضى إليهم إبراهيم باشا ، ولما وصل إلى (كلاماتا) اشتد القتال بين الجيش المصرى والثوار اليونانيين وانتهى بهزيمة اليونانيين ودخول الجيش المصرى المدينة ، واحتل ابراهيم باشا كذلك القلاع والقرى الصغيرة القريبة من كلماتا بعد مقاومات محلية قتل فيها حاميات تلك القرى أو وقعت فى الأسر وفتح كذلك (اركاديا) الواقعة على البحر غرب الموره (انظر مواقع هذه البلاد بالخريطة ص ١٨٨) .

فتح مدينة تريبولتسا Tripoltza
(يونيه سنة ١٨٢٥)

كانت (تريبولتسا) عاصمة الموره والواقعة فى قلب شبه الجزيرة معقلًا منيعًا للثوار ، اختاروها وجعلوها بمثابة للمقاومة الأهلية لمنعة موقعها وصعوبة الوصول إليها ، فقرر إبراهيم باشا الزحف عليها للقضاء على الثورة فى معقلها فشرع فى اجتياز جبل (تايجنت) .

وكان اجتياز مضايق هذا الجبل الوعر من أشق الأمور لوعورة الطرق واستهداف من يجتازها للأخطار ، وقد هزم إبراهيم باشا عند مضيق كورشيكا قوات الثوار التى كان يقودها الثائران الشهيران (كولوكترونى) و (بتراكو) وكان غرضهما أن يسدا الطريق أمام ابراهيم باشا ويحميا بمجموعهما موقع (تريبولتسا) ولكن الجيش المصري قهر هذه القوات وقتل فى هذه المعركة نحو خمسمائة من اليونانيين ودخل مدينة ترتيبولتسا فوجدها خالية من السكان إذ أخلاها أهلها بعد أن أضرموا فيها النار قبل رحيلهم وأووا إلى الجبال .

وبعد أن تم لإبراهيم باشا فتح مدينة (تريبولتسا) تابع زحفه لمطاردة القوات اليونانية فقصد وادى أرجوس Argos وقهر حشدًا من الثوار بقيادة إبسلانتى ، وفى ٢٧ يوليه سنة ١٨٢٥ عرج بوادى (لكونيا) حيث كان الثوار يرابطون فى معاقله فهزمهم واستولى على استحكاماتهم ، وكذلك احتل باتراس ، وبذلك صار شبه جزيرة (موره) فى قبضة الجيش المصرى عدا مدينة (نوبلى) عاصمة الحكومة الثورية فأخذ يتأهب لحصارها .

فتح مدينة ميسولونجى
(٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦)

بينما كان ابراهيم باشا يتأهب لحصار (نوبلى) جاءه نبأ من رشيد باشا قائد الجيوش التركية يطلب منه النجدة والمدد ليعاونه فى حصار ميسولونجى ، فعدل مؤقتا عن حصار (نوبلى) وولى وجهه شطر (ميسولونجى) .

كان رشيد باشا يحاصر هذه المدينة منذ مدة طويلة دون أن ينال منها منالا ، وكان موقعها ذا منعة لوقوعها على خليج (باتراس) واتصالها بالبحر حيث كان يجيئها المدد من طريقه ولم

تستطع العمارة التركية أن تحصرها من هذه الناحية لوجود السفن والحراقات اليونانية بقيادة الاميرال (ميوليس) تمنعها الدنو من المدينة .

فلما عجز رشيد باشا عن متابعة حصار ميسولونجى ، واستعصت عليه ، بعث يستنجد بالجيش المصرى ، فأرسل إبراهيم باشا لوالده ينبئه بذلك ، ويطلب منه أن يوافيه بالمدد ، فأرسل له مدداً كبيرًا من الجند والعتاد .

فلما تلقى إبراهيم باشا ذلك المد ترك ببلاد (موره) ما يكفيها من الحاميات وعهد إلى الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) قيادة القوات المصرية فى تريبولتسا وسائر بلاد الموره ، وقام من فوره فى عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان إلى باتراس ثم عبر الخليج وسار (بحرا) قاصدًا مدينة ميسولونجى (فبراير سنة ١٨٢٦) فاشترك مع رشيد باشا فى الحصار واتبع أولا خطة رشيد باشا فأخفقت ورجع عنها منهزمًا ، فطرح جانبًا خطط رشيد باشا ، ورسم لنفسه الخطة التى نجحت فى حصار (نافارين) وشدد الحصار عليها برًا وبحرًا ، وكانت العمارة المصرية البحرية يقودها الأميرال محرم بك ، واحتل الجزر الواقعة على مدخل الميناء وحصنها ليمنع ورود المدد بحرًا إلى (ميسولونجى) كما فعل فى نافارين .

وقد أراد إبراهيم باشا بادىء الأمر أن يتفادى أهوال القتال وسفك الدماء فطلب من المدينة التسليم فأبى أهلها أن يسلموا وأجمعوا أمرهم على المقاومة إلى النهاية مهما كلفهم من الضحايا ، وأرسلوا إلى القائد اليونانى (كرايسكاكى) وكان على مقربة من المدينة ينبئونه بأنهم عزموا على الخروج جميعا فى ليلة ١٢ أبريل سنة ١٨٢٦ [١٢] وطلبوا إليه أن يهاجم الجيش المصرى فى ميعاد حددوه ، فلما خرجوا فى الوقت المعلوم فى هدوء وسكون مستترين فى جنح الظلام قابلهم الجيش المصرى بنار كالصواعق حصدت صفوفهم حصدًا ، فارتدوا إلى المدينة من غير نظام ، وتعقبهم المصريون حتى دخلوا المدينة فى أعقابهم ، وأعملوا فيهم السيف والنار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

ولما ضاقت السبل بالبقية الباقية من المدافعين اجتمعوا فى مستودع الذخائر وكان عددهم نحو ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء واتفقت كلمتهم على أن يؤثروا الموت على التسليم ، فوضعوا البارود وأشعل فيه رئيسهم النار فانفجر وخرَّ المكان على من فيه وقتلوا جميعًا ، وقد

(١٢) فولابل . مصر الحديثة ٢ ص ٣٥١ .

احتمل المصريون فى فتح المدينة خسائر جسيمة فقد بلغ عدد قتلاهم فى الهجمة الأخيرة نحو ألفى قتيل .

حصار أثينا

انفصل الجيش التركى عن الجيش المصرى بعد فتح (ميسولونجى) فعاد إبراهيم باشا إلى (موره) وقصد الجيش التركى إلى مدينة (أثينا) لفتحها ولم يكن بها من القوة ما يكفى لصد هجماته فبادر القائد اليونانى (كرايسكاكى) والكولونل (فافييه) الفرنسى إلى نجدة المدينة ولكن رشيد باشا أحكم حصارها ومازال يشدد الحصار حتى سلمت (يونيه سنة ١٨٢٧) .

إعداد محمد على حملة جديدة

كانت حالة الثورة اليونانية فى أوائل سنة ١٨٢٧ تدعو إلى اليأس ، فلم يكن بقى فى أيدى الثوار سوى مدينة (نوبلى) فى بلاد الموره ، وأثينا فى الأتيك ، وتمركزت قوة الثوار فى جزيرة (هيدرا) و (اسبتزيا) من جزر بحر الأرخبيل ، وقد عاث الثوار فى البحر فساداً ، وازدادت قرصنتهم ، وكثر انتهابهم للمتاجر التى تحملها السفن .

فاعتزم محمد على بعد سقوط ميسو لونجى تجريد حملة جديدة بالاشتراك مع تركيا للقضاء على آخر معقل للثورة اليونانية .

فأعد مدداً من عدة آلاف من الجنود حشدهم فى الإسكندرية كى يرسلهم إلى إبراهيم باشا ، واجتمع بمينائها معظم الأسطول المصرى وكان قد عاد من ميناء اليونان لإصلاح ما عطب من سفنه ، والعمارة التركية التى جاءت للغرض نفسه ، وانضم إليهما من السفن الحربية الجديدة التى كان محمد على أوصى بها من قبل فى ثغور مرسيليا وليفورن وفينسيا (البندقية) ، فكانت الإسكندرية فى أبريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية تستعد للإقلاع إلى مياه اليونان للقضاء على آخر معقل للثورة فى جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء نوبلى .

تدخل الدول

وفى غضون ذلك كانت الدول الأوروبية لا تفتأ تتفاوض لإنقاذ الثورة اليونانية ، وترجع

مفاوضتها إلى ما قبل سقوط ميسولونجى ، ذلك أن الجمعيات اليونانية المنبثة فى بعض العواصم الأوروبية كانت تحرك الرأى العام الأوروبى وتستصرخه للأخذ بناصر اليونان ، وقد تحرك أيضًا نصراء الثورة اليونانية من رجال السيف والقلم فى الروسيا والجلترا وفرنسا لدعوة الدول إلى التدخل لإنقاذ الثورة ، ونهض منذ ابتداء الحرب جماعة من أقطاب الشعراء والأدباء أمثال اللورد بايرون وفيكتور هيجو وشاتوبريان وغيرهم يستصرخون الرأى العام الأوروبى ، ويضربون على الوتر الدينى الحساس لتوجيه ميول الأمم والحكومات فى أوروبا إلى نجدة اليونانيين ، وبلغ باللورد بايرون انتصاره لهم أن تطوع فى صفوفهم ومات فى مسيولونجى سنة ١٨٢٤ ، وجاشت العداوة القديمة بين تركيا والروسيا ، فكانت الحكومة الروسية أسبق الدول إلى الرغبة فى التدخل ، وخاصة بعد أن تولى عرشها القيصر نقولا الأول خلفا للإسكندر (ديسمبر سنة ١٨٢٥) فإنه كان أقوى شكيمة من سلفه ، فاعتزمت الروسيا أن تتدخل بمفردها لصالح اليونان ، لكن الجلترا خشيت أن تنفرد الروسيا بالتدخل فيقوى نفوذها فى البلقان والشرق ، ويعلو على نفوذ الجلترا ، فأوفدت إليها الدوق ولنجتون سفيرًا لديها لتوحيد أغراض الدولتين ، وعقدتا اتفاقًا مبدئيًّا فى (٤ أبريل سنة ١٨٢٦) يرمى إلى تخويل اليونان استقلالها الداخلى مع بقاء السيادة التركية ، ولما سقطت مسيولونجى كان لسقوطها تأثير كبير فى الرأى العام الأوروبى لأن البطولة التى أظهرها أهلها فى الدفاع عنها زادت من عطف الأوروبيين عليهم ، وتجددت المفاوضات بين الدول ثم أسفرت عن إبرام معاهدة لندرة (٦ يوليه سنة ١٨٢٧) ، وهى المعاهدة التى اتفقت فيها كل من الجلترا وفرنسا والروسيا على التدخل بين تركيا واليونان لتقرير مصير المسألة اليونانية على قاعدة استقلال اليونان الداخلى مع بقاء السيادة التركية عليها ، وقضت بأن تطلب الدول من الجانبين وقف حركات القتال تمهيدًا للوساطة بينهما ، واتفقن فيما بينهن على أن يعرضن على الباب العالى هذه الوساطة ، فإذا لم يقبلها فى مدة شهر من إبلاغه نبأها يلجأن إلى القوة فى تنفيذ مطالبهن .

أما النمسا فلم تشترك فى المعاهدة ولا فى التدخل اتباعا لمبدأ وزيرها الأكبر مترنيخ وهو إلا يعضد أية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية .

كانت هذه المعاهدة إنقاذًا للثورة اليونانية لأنها أبرمت فى الوقت الذى أشرفت فيه الثورة على الاحتضار وكانت تلفظ النفس الأخير ، وقد تخاذل زعماؤها وسرى اليأس إلى نفوس أنصارها ، فلما أبرمت المعاهدة ابتهج لها اليونانيون ابتهاجًا عظيمًا ، وعاودهم الأمل فى تحقيق

مطالبهم بمعونة الدول الأوروبية .

وكان الحلفاء يعلمون إصرار تركيا على رفض طلباتهم ، فاتفقوا على إرسال أساطيلهم إلى مياه اليونان لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى شواطىء اليونان وإرسال المدد إلى الجيش المصرى والتركى بها .

فأنفذت انجلترا إلى بحر الأرخبيل أسطولا مؤلفاً من ١٢ سفينة بقيادة الأميرال كودرنجتون Cordrington وجاء بعده الأسطول الفرنسى وعدده سبع سفن بقيادة الأميرال رينى Rigny أما الأسطول الروسى وعدده ثمانى سفن فقد جاء متأخراً من طريق بحر البلطيق بقيادة الأميرال هيدن ، فانضم إلى الأسطول الإنجليزى والفرنسى ، وتولى القيادة العامة للأساطيل الثلاثة الأميرال الانجليزى كودرنجتون .

إقلاع الحملة المصرية إلى مياه نافارين

وأتم محمد على تجهيز الحملة التى أعدها لإمداد إبراهيم باشا ، فأقلعت العمارة البحرية من الإسكندرية فى أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ بقيادة الأميرال محرم بك ، وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية ، و ١٦ سفينة تركية ، وأربع سفن تونسية ، وست حراقات وأربعين مركبًا لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ مقاتل ، وكان الغرض الأول من الحملة محاصرة جزيرة (هيدرا) التى كانت أهم معقل للثورة اليونانية .

رست العمارة بميناء نافارين فى ٩ سبتمبر ١٨٢٧ ، وانضمت إلى أسطول تركى آخر جاء من الاستانة بقيادة الأميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينة ، وتولى إبراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر ، وأخذ يتأهب لحملة بحرية على جزيرة (هيدرا) وحملة برية ينفذها إلى شمالى (المورة) .

أما أساطيل الحلفاء فقد اتخذت مكانها بادىء الأمر بين جزيرتى هيدرا وترميا .

وكان الأميرال كودرنجتون لا يفتأ يتجسس أخبار العمارتين المصرية والتركية لمنعها من الوصول إلى سواحل اليونان ، وإنزال المدد بالبر ، ولكنهما وصلتا ثغر نافارين دون أن يشعر بهما الحلفاء ، فلم يجدوا سبيلا لمنعها من دخول الميناء أو إنزال المدد ، وبذلك أخفقوا فى خطتهم الأولى .

وأخذت السفن المصرية والتركية مكانها فى الميناء ، وبدا الفرق جليًّا بين الأسطولين ، فقد

تفوقت السفن المصرية بحسن نظامها وترتيبها وجودة سلاحها ، وفى هذا الصدد يقول الكابتن فيلوز أحد ضباط الأسطول الإنجليزى الذى جاء يستطلع أخبار العمارتين فى نافارين : « إن السفن الحربية المصرية كانت تبدو فى حالة جيدة جدًا » .

مقدمات واقعة نافارين البحرية

ساء الحلفاء وصول العمارة المصرية التركية إلى نافارين وإيواؤها إلى مكان حصين ، فتحركت سفنهم وقصدت إلى تلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا ، وكان الأسطول الإنجليزى أسبق الأساطيل المتحالفة إلى الحضور . فقد وصل قبالة نافارين يوم ١٢ سبتمبر ، ثم أعقبه الأسطول الفرنسى فجاء يوم ٢١ منه ، أما الأسطول الروسى فلم يجىء إلا فى أوائل أكتوبر .

وقد بادر الأميرال كودرنجتون بفتح باب الشر ، فأرسل إلى إبراهيم باشا رسولا (يوم ١٩ سبتمبر ١٨٢٧) يبلغه مطالب الحلفاء طبقًا لمعاهدة لوندره ، ومضمونها وقف حركات القتال برًا وبحراً ، وأبلغه أن الحلفاء أرسلوا أساطيلهم لمنع وصول السفن الحربية أو القوات البرية إلى أى جهة من اليونان أو إلى جزائر بحر الأرخبيل ، ومعنى هذا البلاغ إنذار إبراهيم باشا بالكف عن إرسال الحملة البحرية إلى جزيرة (هيدرا) أو تحرك جنود البر داخل شبه جزيرة الموره .

ولما جاء الأسطول الفرنسى قابل قومندانه الأميرال رينى إبراهيم باشا ، وكرر عليه مطالب الحلفاء ، ثم قابله مرة أخرى لهذا الغرض يصحبه الأميرال كودرنجتون وكان القصد من هذه البلاغات والمقابلات إرهاب إبراهيم باشا وتهديده كى يعود بأسطوله إلى الإسكندرية ، لكن البطل إبراهيم قابل تهديد الحلفاء بالثبات ورباطة الجأش ، وكان جوابه أنه سيرسل إلى والده بالاسكندرية وإلى الباب العالى بالاستانة يطلب تعليماتهما فى الموقف الذى يتخذه ، وإلى أن يتلقى هذه التعليمات فإنه يتعهد ببقاء الأسطول فى نافارين .

لم يكن الحلفاء صادقين فى مسلكهم ، لأن المعاهدة كانت تقضى بوقف حركات القتال من الجانبين ، لكن خطة الحلفاء الحقيقية كانت ترمى إلى فرض هذا الشرط على الجانب المصرى والتركى فقط ، مع ترك اليونانيين أحرارًا فى حركاتهم البحرية والبرية داخل شبه جزيرة الموره أو فى بحر الأرخبيل ، وبذلك يقوى جانبهم ويتسنى لهم أن يجمعوا صفوفهم من جديد وأن يتلقوا المدد ويهاجموا الحاميات المصرية ويوقعوا بها

ولم يفت نظر إبراهيم باشا الثاقب إدراك هذه الخطة ، فقد فطن إليها وتحققها ، ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد أنه قال للاميرال رينى خلال حديثه معه : « أنكم تطلبون منى وقف كل حركات القتال ، وفى الوقت نفسه تتركون الأروام يفعلون ما يشاءون ، إن هذا ليس من الإنصاف فى شىء » .

فسوء النية من ناحية الحلفاء كان أمرًا ثابتًا لا نزاع فيه ، وهو الذى أدى إلى معركة نافارين البحرية ، على أن ابراهيم باشا أراد أن يتفادى مسئولية القتال لأن العلاقات بين تركيا والحلفاء كانت فى الظاهر ودية حتى ذلك الحين ، فتعهد ببقاء أسطوله فى نافارين إلى أن ترد التعليمات من محمد على والباب العالى ، ورضى بهذا العهد مع أنه كان على تمام الأهبة لإنفاذ الأسطول إلى جزيرة هيدرا ، ولو هو سار إليها لسحق آخر معقل لليونان ، ولكن سياسة الحلفاء أبت عليه ذلك .

عقدت إذن هدنة وقتية بين إبراهيم باشا والحلفاء ، ولكن اليونانيين انتهزوها فرصة وقاموا بحركات عدائية فى خليج كورنث واعتزموا مهاجمة (باتراس) شمالى المورہ بمعاونة الحلفاء ، وكان الجيش المصرى يحتلها ، فأبلغ إبراهيم باشا الخبر إلى الأميرال كودرنجتون كى يمنع هذه الأعمال المنافية للهدنة ، فلم يلق جوابًا مقنعًا ، فاعتزم إمداد (باتراس) وسار بحراً فى عمارة من بعض السفن الحربية .

فثارت ثائرة الحلفاء ، وعدوا هذا العمل نقضا للهدنة ، على حين أن إبراهيم باشا إنما تعهد بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا ، ولم يتعهد بالامتناع عن نجدة الحاميات المصرية فى المورہ ، وكان مفروضا أن يحترم الأروام الهدنة ولكنهم نقضوها بحركاتهم الحربية ، فاضطر إبراهيم باشا إلى معاونة الحامية المصرية فى باتراس ، لكن الأميرال كودرنجتون لم يكن يصغى لحكم المنطق ، بل كانت لديه خطة مدبرة ينفذها ، فتعقب العمارة المصرية بأسطوله ، ولحق بها تجاه رأس (باباس) شمالى المورہ وتهددها بالحرب إذا لم ترجع عن سيرها ، فاضطرب أن تعود أدراجها إلى نافارين .

ثم جاء إبراهيم باشا جواب محمد على بأنه عرض الأمر على الباب العالى ، وسيرسل إليه تعليماته النهائية إذا ورد الرد ، وفى انتظار هذه التعليمات يوصيه بالتزام خطة السلم وتجنب الاصطدام مع الدول أو التحرش بها حتى ولو طلب إليه الباب العالى ذلك .

ذلك أن محمد على رأى بعين حكمته أن محاربة الحلفاء أمر لا تحمد عاقبته ، لأنهم أقوى

عدداً واستعداداً ، وخاصة لأنهم مالكون ناصية البحار ، فالتحرش بهم يعرض الأسطول المصرى للدمار .

وقد عمل إبراهيم باشا بهذه الوصية ، والتزم فى نافارين خطة الدفاع ، وكان إبراهيم يقدر أساطيل الحلفاء ومبلغها من القوة ويعلم أنها وان كانت أقل عددا من العمارة المصرية التركية ، إلا أنها أرقى منها نظاما ، وبوارجها أقوى سلاحا ، ومدافعها أشد فتكا وأبعد مرمى ، وقوادها وضباطها أكثر علما وكفاءة ، فكان يرى الحكمة فى تجنب الاصطدام بأساطيل الحلفاء ، ووافق رأيه فى هذا الصدد رأى محمد على .

لكن قواد الحلفاء أنفسهم لم يقنعوا بخطة الدفاع ، بل بيّتوا الشر للأسطول المصرى والتركى ، واتفقوا فيما بينهم على تدميره مهما كان مسلك ابراهيم باشا ، ومن هنا وقعت كارثة نافارين ، وهذه المؤامرة قد دبرتها السياسة الإنجليزية وأوعزت بها إلى الحلفاء ، وغايتها منها أن تقضى على العمارة المصرية التى أنشأها محمد على ، فلا تعود مصر تنافسها السيادة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهكذا كانت انجلترا ولم تزل تتربص بمصر وتدبر لها المكايد فى كل ناحية وتحول دون أخذها بأسباب القوة والمنعة فى البر والبحر .

واقعة نافارين

(٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)

غادر ابراهيم باشا نافارين فى منتصف أكتوبر ، وزحف بجزء من جيشه داخل الموره لإنجاد الحاميات المصرية ، وأوصى الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصرى والأميرال طاهر باشا قائد الأسطول التركى بألا يتحرشا بالأساطيل الدولية ولا يخرجا إزاءها عن قواعد المودة والمجاملة ، لأن العلاقات بين الحلفاء وتركيا ومصر لم تكن قطعت ولا أعلنت الحرب بين الفريقين .

وبعد أن بارح نافارين أرسل إليه قواد أساطيل الحلفاء إنذاراً يبلغونه فيه أنه نقض الهدنة ، ويلقون عليه تبعة هذا العمل وعواقبه الخطيرة ، جاء الرسول إلى نافرين حاملا هذا الإنذار يوم ١٨ أكتوبر ، أى قبل الواقعة بيومين ، فلم يلق إبراهيم باشا ، فعاد بالرسالة إلى الأميرال كودرنجتون ، ولم تكن هذه الرسالة إلا ذريعة لإنفاذ الخطة التى اتفق عليها الحلفاء ، وهى القضاء على أسطول إبراهيم باشا .

فاجتمع قواد الحلفاء فى ذلك اليوم وتداولوا فى الأمر ، فاستقر رأيهم على الدخول بأساطيلهم ميناء نافارين ليكون ذلك ، فى نظرهم ، أدعى إلى إجبار إبراهيم باشا على تنفيذ مطالبهم . وتظاهروا بأنهم يعملون فى حدود معاهدة لوندره ، وأنهم لا يقصدون إلا المحافظة على السلم ، ومنع وقوع الحرب ، وهكذا تكذب السياسة فى لغتها وأساليبها ، فهى تبيّت الشر والحرب ، وتهيىء وسائل الخراب والدمار ، وتتظاهر فى الوقت نفسه بالمحافظة على الصلح والسلام .

كانت السفن المصرية والتركية مصطفة داخل الميناء على ثلاثة صفوف شبه متوازية ، كل صف فى شكل نصف دائرة ، يمتد طرفاها من نافارين الجديدة الواقعة على يمين البوغاز إلى جزيرة اسفاختريا التى تحجب عن الميناء أمواج البحر ، ووقفت البوارج والفرقاطات الكبيرة فى الصف الأول ، وفى الصف الثانى سفن الكورفيت ، ويليها سفن الابريق وغيرها ، وتجد على الخريطة (ص ٢١١) موقع السفن .

وكان يحمى مدخل الميناء استحكامات قلعة نافارين وبطاريات من المدافع فى طرف جزيرة اسفاختريا ، يعاونها أيضًا سفن خفيفة من الحراقات ، وهى مراكب تندفع والنار مشتعلة فيها على بوارج الأعداء لتحرقها بنارها ، وكان على ظهر بعض السفن المصرية طائفة من الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد على لإصلاح البحرية ، فأرسل إليهم الأميرال ريني[١٣] قومندان الأسطول الفرنسى يدعوهم إلى الانسحاب من الدونانمة المصرية حتى لا يحاربوا أخوانهم ومواطنيهم ، فلبوا الدعوة واستأذنوا من الأميرال محرم بك فى مغادرة الأسطول ، فلم يسعه إلا الإذن لهم بما طلبوا ، وتركوا الأسطول المصرى يوم ١٨ أكتوبر فى أشد الأوقات حرجًا .

وفى صبيحة ١٩ أكتوبر جمع الأميرال كودرنجتون قباطين الحلفاء على ظهر بارجته (آسيا) وأصدر إليهم تعلياته فيا يجب عليهم عمله عند بدء القتال .

وأحكم قواد الحلفاء تدابيرهم فى الوقت الذى كان الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا مطمئنين إلى الموقف موقنين أن ليس ثمة حرب ولا قتال .

وانقضى يوم ١٩ أكتوبر والحلفاء معتزمون اقتحام البوغاز وتدمير العمارتين المصرية والتركية ، وكانوا يزمعون إنفاذ خطتهم ذلك اليوم ، ولكن الريح لم تساعد السفن على دخول

(١٣) يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٢٧ .

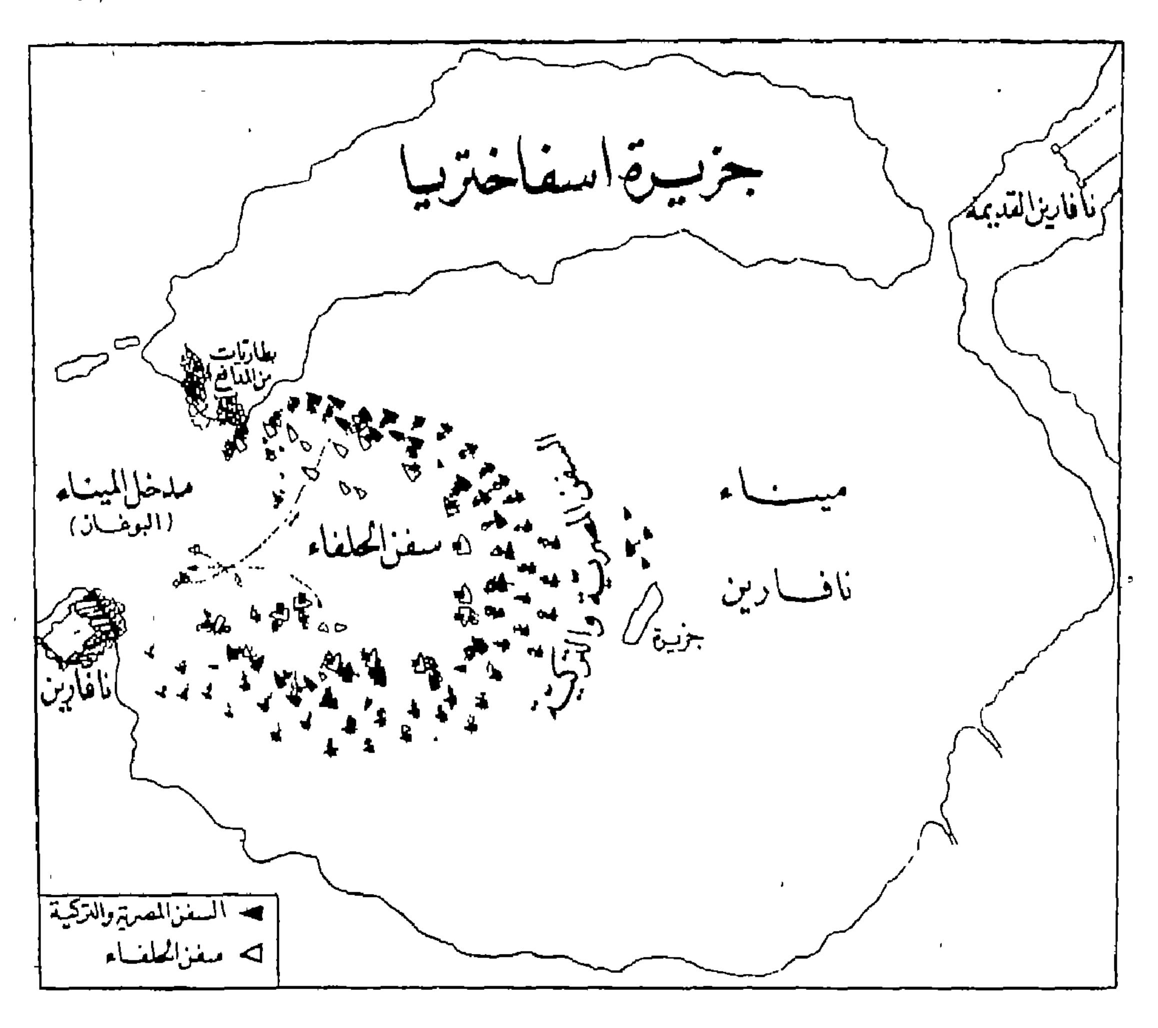
الميناء (وكانت السفن الحربية إلى ذلك الحين تسير بالشراع لا بالبخار) فارجأوا هجومهم إلى اليوم التالى .

ففى نحو الساعة العاشرة من صبيحة ٢٠ أكتوبر بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند إول اشارة تصدر إليها ، ففى ساعة الظهر أخذت البارجة (آسيا) التى تقل الأميرال كودرنتجون تتجه على سَمْت من الخليج ، تحيط بها بقية السفن الإنجليزية ، تتبعها العمارتان الفرنسية والروسية .

وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر كودرنجتون أمره إلى أساطيل الحلفاء بالتأهب للقتال ، وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز .

فأرسل الأميرال محرم بك قائد الأسطول المصرى رسولا إلى البارجة آسيا يطلب إلى كودرنجتون أن يمنع عمارة الحلفاء من الرسو فى نافرين ، فأجاب الأميرال الإنجليزى الرسول فى لهجة جافة بأنه لم يجىء ليتلقى أمرًا ، بل جاء يملى أوامره ، وكان هذا الجواب دليلا على نية الشر والعدوان التى تختلج فى نفوس الأميرال الإنجليزى وزملائه ، واستمرت البارجة (آسيا) فى طريقها يتبعها بقية الأسطول وأخذت سفن الحلفاء مكانها الذى رسم لها من قبل ، فاصطفت تقريبًا على شكل نصف دائرة فى مواجهة أسطول إبراهيم باشا ، واقتربت معظم السفن حتى صارت أمام السفن المصرية والتركية وجها لوجه (أنظر الخريطة) وصار بعضها على مرمى المسدس منها ، فلم يكن ثمة شك فى أنها جاءت تتحداها للقتال .

ووقفت البارجة الإنجليزية دارتموث على رأس الصف لتعطل عمل الحراقات المصرية الراسية فى مدخل الميناء ، وطلب قومندانها إلى إحدى هذه الحراقات أن يغادرها بحارتها وجنودها ، أو أن تنسحب من موقعها ، وكان هذا الطلب ذريعة إلى إشعال نار القتال ، فإن الرسول الذى حمل هذا الطلب إلى السفينة المصرية ذهب إليها فى قارب مسلح متحفزاً متحدياً للقتال ، وقد زعم مؤرخو الحلفاء ، أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية أصابت أحد جنود الحلفاء وكانت السبب فى إضرام نار القتال ، وذلك زعم لا يخفى حقيقة الواقع ، وهو أن الحلفاء اقتحموا الميناء بسفنهم مضمرين الشروالعدوان ، سواء أطلقت تلك الرصاصة أم لم تطلق فإنهم جاءوا عازمين على تدمير الأسطول المصرى التركى وأخذه غيلة وغدرًا ، ولو لم تطلق تلك الرصاصة ، إن صح أنها أطلقت ، لما عدموا سيلة أخرى يتذرعون بها إلى إطلاق النار .



ميناء نافارين والواقعة البحرية
(٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)

كانت العمارة المصرية التركية عند ابتداء القتال تتألف من ٦٢ سفينة حربية وأساطيل الحلفاء ٢٧ سفينة ، فهى أقل منها عددًا ، ولكن كفة الحلفاء كانت أرجح ، لأن لديهم من البوارج الكبرى عشر بوارج ، فى حين أن المصريين والترك لم يكن لديهم منها سوى ثلاث فقط ، ومعلوم أن البوارج هى قوام الأساطيل البحرية ، لأنها عبارة عن قلاع كبيرة متحركة تحطم السفن الحربية الأخرى ، دون أن تتمكن هذه من أن تنالها بسوء ، وخاصة قبل اختراع المدمرات الحديثة والغواصات ، أضف إلى ذلك أن الحلفاء جاءوا مستعدين للضرب ، على حين أن الترك والمصريين لم يكونوا متوقعين حربًا ولا قتالاً ، فلم تطلق مدافع القلاع قنابلها على سفن الحلفاء أثناء اجتيازها البوغاز ، ودخلت آمنة سالمة ، هذا فضلا عن أن سفن الحلفاء

كانت أشد بأساً وأقوى سلاحا وأكثر استعدادا وأرقى قيادة من سفن الترك والمصريين ، وكانت هذه داخل المرفأ ، فحصرتها سفن الحلفاء فى مكان ضيق لا يسهل عليها فيه الحركة ، ولم تمض برهة على دخول الأساطيل الدولية الميناء حتى ابتدأ القتال ، وأطلقت بوارج الحلفاء مدافعها على السفن المصرية والتركية ، وتجاوب الأسطولان الضرب ، واستعرت نار الحرب والهيجاء ، فانقلب المرفأ بركانًا من الجحيم ، واجتمعت بين جوانبه أسباب الهلاك والدمار ، وصمّت الآذان من قصف آلاف المدافع التى كانت تطلق من الجانبين ، ومن دوىّ انفجار السفن التى كانت تنسفها قنابل الحلفاء أثناء المعركة ، وغشيت ميدان القتال طبقات متصاعدة من الدخان المتكاثف ، تتخللها النيران المشتعلة ، فكان المشهد رهيبًا مروّعا ، ولم تعد السفن يميز بعضها بعضا إلا على ضوء اللهب الذى كان يتصاعد بين آونة وأخرى من السفن المحترقة ، ولم تستطع القيادة العامة متابعة حركات القتال ، فأخذت أساطيل الحلفاء تتبارى فى الفتك بالسفن المصرية والتركية .

لم تقصر السفن المصرية والتركية فى الضرب ، وأبدى رجالها بسالة فى القيام بواجبهم ، ولم يسلموا فى أية سفينة من سفنهم ، واشتركت مدافع القلاع فى القتال قدر ما استطاعت ، ولكن ضرب الحلفاء كان أشد فتكًا وأقوى أثرًا ، فدمر معظم السفن المصرية والتركية .

ابتدأت الواقعة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر ، واستمرت إلى نحو الساعة الخامسة مساء ، وانتهت بالقضاء على العمارة المصرية ، التركية ، فقد هلك معظمها نسفا وغرقا ، وجنحت البقية الباقية على السواحل ، فأحرق البحارة أغلبها حتى لا تقع فى أيدى الأعداء ، وبلغ عدد قتلى المصريين والترك ثلاثة آلاف ، فى حين لم يخسر الحلفاء سوى ١٤٠ من القتلى و ٣٠٠ من الجرحى .

تعدو واقعة نافارين من الوقائع القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق ، فإنها وقعت من غير أن تعلن حرب بين تركيا والدول المتحالفة ، وأخذ الحلفاء السفن المصرية والتركية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال ، وكل ذلك مناف لأبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدنة .

وقد فقدت مصر فى هذه الواقعة أسطولها الذى قضى محمد على السنين الطوال يبذل الجهود العظيمة وينفق الأموال الجسيمة فى إنشائه ، فكان معظم الخسارة فى هذه المعركة واقعًا

على مصر وبحريتها ، وهكذا شاءت السياسة الإنجليزية أن تبيت الشر لمصر وأسطولها حتى أوقعت به فى كارثة نافارين .

لم يشهد إبراهيم باشا واقعة نافارين ، إذ كان أثناء وقوعها داخل بلاد (موره) يعمل على إخضاعها ، فلما بلغه تدمير العمارة المصرية عاد إلى (نافارين) وشهد بنفسه آثار الواقعة ، فحزن لها حزنا شديدًا ، ثم أمر بإعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتعويم بعض التى غرقت وأنفذها إلى الإسكندرية ، ثم رأى أن يلزم خطة الدفاع ، فأخلى مدن الموره وامتنع بمعظم جنوده فى ثغرى (كورون) و (مودون) حتى يأتيه أمر أبيه .

اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد الواقعة

اختلفت وجهة نظر تركيا ومصر بعد معركة نافارين .

أما تركيا فإنها رغم تدمير أسطولها فى المعركة قد أصرت على رفض مطالب الدول المتحالفة ، وطالبتها بتعويض عما لحق أسطولها من الدمار ووقفت موقف الصلابة والعناد بإزاء الحلفاء .

فأعلنت الروسيا الحرب عليها واحتلت (ادرنه) وأرسلت فرنسا إلى بلاد اليونان جيشًا مؤلفا من ١٨٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال (ميزون) لإجلاء المصريين والترك عنها .

وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنه (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول فى معاهدة لوندره ، فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا والا يكون لها عليها سوى حق السيادة الإسمية ، ثم اتفقت الدول على تخويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠) .

أما مصر فقد رأى محمد على أن لا فائدة تنالها من مواصلة القتال بعد أن فقدت أسطولها فى واقعة نافارين وانقطعت مواصلاتها البحرية مع جيوشها فى بلاد اليونان ، فلا سبيل إلى إمدادها ولأن فرنسا أنفذت إلى الموره جيشًا عهدت إليه تحقيق ما اتفقت عليه الدول بقوة السيف ، وتعجل جلاء الجيش المصرى ، فأدرك محمد على باشا أن ليس من مصلحة مصر مشايعة تركيا فى عنادها ، وخاصة بعد أن تكبدت خسائر جسيمة فى الأرواح والأنفس واحتملت نفقات فادحة تنوء بها خزانتها ، وتحقق أيضًا أن محاولة استرجاع اليونان عبثٌ لا يجدى ، فرأى من الحكمة ألا يجعل سياسة مصر مقيدة بسياسة تركيا وأن يتفق مع الحلفاء على

وقف القتال وجلاء الجيش المصرى عن الموره

وقد جنح به إلى سلوك هذه الخطة ما تلقاه من قناصل الدول فى مصر عن تصميم الحلفاء على تحرير اليونان ، واستهداف مصر لكوارث الحرب إذا هى استمرت على اتباع سياسة تركيا ، وفى غضون ذلك جاء الأميرال كودرنجتون قائد العمارة الإنجليزية إلى مياه الإسكندرية وأنذر بتخريب المدينة إذا لم يبادر محمد على إلى استدعاء إبراهيم باشا من الموره ، وسعى المستر باركر قنصل انجلترا فى مصر إلى إقناع محمد على بالكف عن القتال ، فاستمع لهذه النصائح والتهديدات وعقد[١٤] اتفاقا مع الحلفاء ، على إخلاء الجيش المصرى لبلاد الموره على شروط وهى :

أولا : يتعهد محمد على بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر[١٥] .

ثانيا : يتعهد الأميرال الإنجليزى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التى أسرت أثناء القتال .

ثالثا : أن تخلى الجنود المصرية الموره وينقلهم محمد على باشا على سفنه .

رابعا : ألا يكره اليونانيون المقيمون بمصر على الرحيل عنها ولا يجبرون على البقاء فيها ، وكذلك يسمح لمن يشاء من اليونانيين أن يصحبوا الجيش المصرى فى عودته لمصر .

خامسا : يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى (موره) عددا من العساكر لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على (مودرن) و(كورون) و(نافارين) و(باتراس) و(كستل توريزه) ، أما المواقع الأخرى فتخلى فورًا .

وقد أبلغ إبراهيم باشا هذه الشروط وهو فى اليونان فقابلها بالسخط الشديد لما رأى أن جهود جيشه قد ضاعت فضلا عن الخسائر التى تكبدها وخاصة ضياع العمارة المصرية ، ولكنه اضطر للإذعان ، فأصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية والسير إلى الثغور ، ثم أقلعت بهم السفن إلى مصر (أكتوبر سنة ١٨٢٨) .

وهكذا رجع الجيش المصرى من اليونان إلى الإسكندرية بعد أن أنهكته الحروب والأمراض ، وتكبدت مصر فى هذه الحملة متاعب وضحايا هائلة ونفقات جسيمة ، وحسبك

---

(١٤) فى أغسطس سنة ١٨٢٨ .

(١٥) يقول المستر باركر قنصل انجلترا فى مصر وقتئذ إن عدد هؤلاء الأسرى ٥٥٠٠ وزعوا على بيوت الكبراء فى الاسكندرية والقاهرة ، ولما ابرم هذا الاتفاق لم يقبل منهم العتق سوى أربعمائة وأما الباقون ففضلوا البقاء فى مصر .

أن تعرف أن الجيش الذى جردته فى حرب اليونان بلغ اثنين وأربعين ألفًا خسرت منه ثلاثين ألفاً ، وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ ألف جنيه ، وفقدت أسطولها الحربى فى واقعة نافارين ، فكانت خسائرها فى الحملة فادحة وتضحياتها بالغة .

نتائج الحرب اليونانية

إن مصر لم تنل من الحرب اليونانية من الوجهة المادية شيئاً سوى ضم جزيرة كريت إليها ، فقد عهد السلطان محمود إلى محمد على ولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته فى حرب الموره ، فإذا صح القول بأن مصر لم تكسب من ناحية التوسع والفتح ، فما لا نزاع فيه أن هذه الحرب قد أكسبتها منزلة معنوية كبيرة ، لأن هذه أول حرب أوروبية خاض الجيش المصرى غمارها ، ولقد برهن فيها على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوروبية فى ميادين القتال ، فلا غرو أن ارتفع شأن مصر ونال جيشها شهرة عالمية ، وهذه المكانة تعد من أركان عظمة مصر الحديثة ومن عوامل مجدها الخالد ، والأمم الحية تقدر مجدها الحربى تقديراً كبيرًا وتبذل فى سبيله الجهود والتضحيات .

هذا فضلا عن أن الجيش المصرى قد اكتسب فى تلك المواقع مرانًا على الكفاح ، وممارسة لفنون الحرب وخططها وأساليبها الحديثة ، ولا ريب أن خوض الجنود والضباط والقواد غمار المعارك المتوالية مما يغرس فى نفوسهم الفضائل والأخلاق الحربية ، ويعظم هممهم ويزيدهم شجاعة وإقدامًا ، ويبصرهم بمواقع الحروب ويزيدهم علماً وتجربة .

ولا يخفى من جهة أخرى أن الحرب اليونانية كانت خير إعلان عن قوة الجيش المصرى ، وحسن نظامه ، وكفاءة قواده ، وشجاعة جنوده ، ولقد ظهر فى تلك الحرب أرفع شأنًا وأشد بأسا من الجيش التركى ، فكان لهذه الميزة أثرها فى توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا ، بحيث لم يعد يسهل على السلطان أن ينظر إلى محمد على كوال من ولاة السلطنة العثمانية ، بل جعلته الحرب ندًا له وملكًا مهيب الجانب ، قوى البأس والسلطان ، فلاً غرو أن قويت فى نفس محمد على بعد تلك الحرب فكرة إعلان الاستقلال ، تلك الفكرة التى ساورته منذ رسخت قدمه فى الحكم وكان يعمل لها بثبات وحكمة وينتهز الفرص ويهيىء الوسائل ويرسم الخطط لتحقيقها ، فكانت الحرب اليونانية مرحلة شجعته على تحقيق تلك الفكرة الجليلة .

وكان من نتائج الحرب اليونانية أن أخذت مصر تكسب مركزًا دوليًا ، لأن الدول الأوروبية قد فاوضت محمد على رأسا دون وساطة تركيا ، فكسبت بالفعل مركزًا ممتازًا بين الدول ؛ وهكذا كانت الحرب اليونانية وسيلة لظهور شخصية مصر الدولية ، وقد كان لحسن نظام الجيش المصرى وما أبداه من المهارة والشجاعة والكفاية الفضل الأكبر فى ما نالته مصر من المكانة ، إذ خاطبت الدول محمد على لا كما تخاطب واليًا من ولاة السلطنة العثمانية ، بل مخاطبة الند للند ، وأرسلت إليه الحكومة الإنجليزية تبدى شديد أسفها على ما لحق بالأسطول المصرى فى واقعة نافارين ، وتظهر رغبتها فى جعل علاقتها بالباشا علاقة ودية ، وفاوضته فيما يكون مركز انجلترا حيال مصر اذا نشبت الحرب بين الإنجليز والترك ، فتعهدت له بأن يكون موقفها حيال مصر موقف حياد .

فالحرب اليونانية قد جعلت من مصر دولة مستقلة فعلا عن تركيا . وبذلك نالت مركزًا ممتازًا ، وكان من مظاهر هذا المركز أن عقدت الدول اتفاق (أغسطس سنة ١٨٢٨) رأسًا مع مصر ، ووقع هذا الاتفاق بوغوص بك وزير خارجية مصر ، وهذا أول وثيقة سياسية أبرمها وزير خارجية مصر مع دولة أجنبية فى عصر محمد على .

ويتبين لك مبلغ تصميم محمد على باشا على إنفاذ فكرة الاستقلال والانفصال عن تركيا من امتناعه عن مديد المساعدة لها فى حربها مع الروسيا ، فلقد ألح عليه السلطان فى إرسال المدد ، لكنه أصر على الامتناع ، واعتذر ببعد المسافة بطريق البر وعدم توافر السفن التى تنقل الجنود بطريق البحر ، واعتذر أيضًا بتفشى الوباء فى مصر والشام ، وكل هذه أعذار ظاهرة ، أما السبب الحقيق لخطته الجديدة فهو طموحه إلى الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر ، ولذلك لم تكد تنتهى الحرب اليونانية وينفض الجيش المصرى غبار المعارك التى خاضها حتى بدأت مقدمات الحرب ضد تركيا ، إذ أخذ محمد على يتأهب لمنازلتها فى ميادين القتال كى يؤلف الدولة المصرية المستقلة بقوة السيف والمدفع .

* * *

الفصل الثامن

الحرب فى سورية والأناضول

خرجت مصر من الحرب اليونانية دون أن تظفر بفتوحات جديدة ، ففى حين أن الحرب الوهابية قد انتهت ببسط نفوذها فى جزير العرب ، وضم إليها فتح السودان الشطر المكمل للدولة المصرية ، فإن الحرب اليونانية لم تكسبها فتحًا جديدًا ، بل انتهت بجلاء الجيش المصرى عن بلاد الموره وعودته إلى مصر.

وقد أرادت تركيا أن تعوض محمد على باشا بعض ما فقده فى الحرب اليونانية ، فأسندت إليه جزيرة كريت ، لكن هذا العوض لم يكن ذا قيمة إذ لم يكن من السهل أن تحكم مصر تلك الجزيرة أو تبسط سيادتها عليها أو تستفيد منها لنزوع أهلها إلى العصيان ولأنها كانت أرض فتن وثورات .

فلا غرو أن طمح محمد على إلى ضم سورية إلى مصر ، ولم يكتم نيته عن الحكومة التركية ، فإنه طلبها منها تعويضًا عما تكبده الجيش المصرى من الخسائر فى حرب الموره ، ولكن السلطان لم يجبه إلى طلبه ، فاعتزم أن يناله بحد السيف ، ورأى ضرورة ضم سورية إلى مصر لأنها كحاجز حصين بين الدولة المصرية والدولة العثمانية ، وبها تتقى مصر شر تركيا إذا حدثتها نفسها بغزو مصر.

أسباب الحملة على سورية

إن حرب الشام يصح اعتبارها حربًا دفاعية ، وحربًا هجومية . أما كونها حربًا دفاعية فلأن محمد على يعلم أن تركيا لا تفتأ تسعى لاسترداد مركزها فى مصر ما وجدت سبيلا إلى ذلك ، وأن السلطان محمود لم يكن خالص النية نحوه ، بل كان ينظر بعين الحسد إلى تقدم مصر وما كسبته من المكانة العالية ، ولم ينس كذلك أن مصر امتنعت عن مساعدته فى حربه مع الروسيا (سنة ١٨٢٨) . فاضطغن السلطان على محمد على باشا ، وأخذ يتربص به لينتقم

منه وينتزع منه حكم مصر ، ولم يكن يحول بينه وبين ذلك سوى ارتباك أحوال الدولة العثمانية وضعفها ، فإذا ما سنحت الفرصة فإنه لا يتردد فى التخلص من خصمه ، فطموح محمد على إلى فتح سورية كان الغرض منه أن يدافع عن مصر وعن مركزه فيها .

وإذا تأملت فيما كتبه الدكتور كلوت بك فى هذا الصدد رأيت أنه يعبر عن وجهة نظر محمد على فى الحملة على سورية إذ يقول : « إن ضم سورية إلى مصر كان ضروريًّا لصيانة ممتلكات الباشا ، فمنذ تقرر فى الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر ، وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصاً عن طريق برزخ السويس ، فإذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابرت نجد أن سائر الغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس فى عهد قمبيز وغزوة الإسكندر والفتح الإسلامى وغزوتى الأيوبيين والأتراك ، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس » .

فالحرب السورية من هذه الوجهة كانت إذن حربًا دفاعية .

لكنها كانت أيضا حربا هجومية وكان الغرض منها التوسع فى الفتح والسلطان ، فإن محمد على كان يطمح إلى ضم سورية منذ سنة ١٨١٠ ، وكان يأمل أن يصل إلى حكمها بموافقة السلطان ، كتب المسيو دروفتى قنصل فرنسا فى مصر ، وكان من أكبر أعوان محمد على ، رسالة إلى حكومته سنة ١٨١١ يقول فيها : « إن محمد على يطمع فى ولاية سورية ، وقد قال لى يوما أنه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال سبعة أو ثمانية ملايين قرش يدفعها لخزانة السلطان ، وقد أخذت فكرة الاستقلال تزداد رسوخًا عنده منذ استظهاره على أعدائه وقمعه فتنة الجند وتخلصه من الارتباكات المالية » .

وقد أشار المسيو دروفتى فى رسالة أخرى لحكومته إلى معدات الحملة المصرية على الوهابيين فأظهر الشك فيما أضمر محمد على منها ، وهل يقصد بها الحجاز أم سورية ، قال فى هذا الصدد :

« إن جميع الاستعدادات التى يعدها الباشا تدل على أن الحملة تخترق الصحراء وتصل منها إلى سوريه ، ولاتزال غايتها الحقيقية سرًّا مكتومًا فى ضميره ، وخطته فى هذا الصدد لم تتغير » وهى التأنى ثم التصرف مع الأحوال بحسبها » .

وقد طلب فعلا من السلطان خلال الحرب الوهابية أن يعهد إليه بولاية الشام وكانت حجته فى ذلك أنه فى حاجة إلى مدد منها لمعاونته على قتال الوهابيين.

ففكرة ضم سوريه إلى مصر كانت إذن تختلج فى نفس محمد على باشا منذ سنة ١٨١٠ ، ولقد صرفه عنها انهماكه فى الحرب الوهابية ، ثم فتح السودان ، ثم الحرب اليونانية ، فلما انتهى من هذه الأخيرة أخذ يفكر فى إنفاذ فكرته القديمة.

ومن الراجح الذى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم إليها البلاد العربية فى أفريقية وآسيا ، ففى أفريقية قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفى آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سورية أراد أن يؤسس الدولة المصرية الكبيرة.

ويؤيد هذه الفكرة رجحانًا بعض تصريحات فاه بها إبراهيم باشا خلال الحرب السورية ، فقد ذكر المسيو كادلفين وبارو فى كتابهما أنه بينما كان الحصار مضروبًا على (عكا) سئل إبراهيم باشا إلى أى مدى تصل فتوحاته إذا تم له الاستيلاء على عكا فقال ، ما معناه إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى[١] وقد قابله البارون (لبو الكونت) بالقرب من طرسوس بالأناضول سنة ١٨٢٣ بعد عودته من كوتاهيه ، وكان له معه حديث طويل ، فذكر عنه « إن إبراهيم باشا يجاهر علنًا بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم ، وإسناد المناصب إليهم سواء أفى الإدارة أم فى الجيش ، وأن يجعل منهم شعبًا مستقلاً ويشركهم فى إدارة الشئون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه ، وتتجلى فكرته هذه فى منشوراته ومخاطباته لجنوده فى الحرب الأخيرة بسوريه ، فإنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد ، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه ، وقد قال لى أن أباه يحكم مصر والسودان وسوريه ، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه ، وان جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو فى صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربيًّا ، ولذلك لا ينفك يطعن فى الأتراك ، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم ، فأجابه إبراهيم باشا على الفور : « أنا لست تركيًّا ،

---

(١) كادفلين وبارو. حرب مصر ضد الباب العالى فى سوريا والأناضول سنة ١٨٣١ – ١٨٣٣ ص ٤١٢.

فإنى جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دمًا عربيًّا [٢] » .

فهذه البينات تدلك على ما اتجه إليه فكر إبراهيم باشا من تأسيس دولة عربية مصرية تجمع شمل الناطقين بالضاد وتحيى عهد الفاطميين والأيوبيين والسلاطين البحرية والبرجية حين كانت مصر تضم إلى رقعتها سوريه وجزيرة العرب .

وكان لمحمد على فى فتح سورية أغراض اقتصادية ، فإنه أراد استغلال مواردها من الخشب والفحم والنحاس ، تلك الموارد التى كانت مصر مفتقرة إليها ، فهى فى حاجة إلى الأخشاب للوقود ولبناء السفن الحربية والتجارية ، وإلى الفحم والنحاس والحديد لترقية صناعتها وخاصة بعد أن أنشأ محمد على المصانع الكبرى « الفابريقات » التى تحتاج إدارتها إلى الفحم والحديد والنحاس .

وكذلك كان يرمى إذا بسط نفوذ مصر فى سورية أن يجند من سكانها فى الجيش المصرى فيزداد الجيش عددًا وقوة .

تلك هى الأسباب الحقيقية التى نزعت بمحمد على باشا أن يطمح إلى فتح سوريه .

وقد كانت الظروف فى سنة ١٨٣١ ملائمة لإنفاذ مشروعه ، فإن تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية ، ثم من الحرب الروسية سنة ١٨٢٩ ، مضعضعة منهوكة القوى ، وزاد فى ضعفها كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية فيها ، وقد ألغى السلطان محمود سنة ١٨٢٦ فرقة الانكشارية التى كانت قوام الجيش العثمانى ، وذلك لما كانت عليه من الفوضى ، وأبادهم ، ولكنه لم يجد متسعا من الوقت لينشىء بدلا منهم جيشا جديدًا نظاميًا ، بل كانت القلاقل والاضطرابات تحول دون إنفاذ عزمه ، فى حين أن محمد على كان على تمام الأهبة للدخول فى حومة الوغى ، معتمدا على الجيش النظامى الذى قضى سنوات عدة فى إنشائه وتدريبه ، وعلى الأسطول الذى أنشأه فى ترسانة الإسكندرية ، ولم يكن السوريون متعلقين بالحكم العثمانى لكثرة ما عانوا من مساوئه ومظالمه ، فلم يكن متوقعًا أن يلقى الجيش المصرى فى زحفه على سورية مقاومة من الأهالى ، وخاصة لأن محمد على باشا قد اجتذب إليه الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان منذ سنة ١٨٢٢ وتوثقت بينهما العلاقات من ذلك الحين ، إذ كانت الحكومة العثمانية قد عزلته من إمارة الجبل ، فلجأ إلى محمد على فى مصر فتشفع له لدى الدولة

---

(٢) كتاب مهمة البارون لبو الكونت ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

فأصدرت عفوها عنه وحفظ له هذا الجميل ، فكان له عضدًا كبيرًا فى الحملة السورية ، واستمال أيضا الشيخ حسين عبد الهادى من زعماء نابلس ومصطفى أغا بربر[٣] الذى عينه ابراهيم باشا أثناء الفتح متسلمًا لطرابلس ، فكان الثلاثة من أعوانه فى الفتح .

فمحمد على لم يكن يخشى مقاومة من جانب الأهالى ، أما الجيش العثمانى فكان يأمل أن يظهر عليه لتفوق الجيش المصرى عليه بحسن النظام والتدريب وكفاية القيادة .

الأسباب المباشرة للحملة

تلك هى البواعث الحقيقية للحملة السورية ، والآن فلنعقب عليها بالأسباب المباشرة التى تذرع بها محمد على باشا للزحف على الشام .

وبيان ذلك أن كثيرًا من الفلاحين المصريين قد فدحتهم أعباء السخرة والضرائب التى فرضها محمد على باشا ، فهاجروا جماعات إلى الأقطار السورية المتاخمة لمصر فرارًا من هذه المكاره ، وتخلصا من الخدمة العسكرية ، وقد طمّ سيل المهاجرين حتى بلغ عددهم ستة آلاف من الفلاحين ، وخشى محمد على من عواقب هذه الهجرة وما تفضى إليه من المضار الاقتصادية ، فطلب من عبد الله باشا والى صيدا[٤] أن يرجع المهاجرين المصريين إلى بلادهم ، فرفض عبد الله باشا طلبه محتجًا بأن المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق أن يقيموا أنى شاءوا ، فغضب محمد على من هذا الجواب ، وكتب إليه يتوعده وينبئه أنه قادم ليعيدهم جميعا يزيدون واحدا ، وهو عبد الله باشا ذاته .

وكان عبد الله باشا ذا نفوذ كبير فى ولايته ، فهو حاكم شبه مستقل فيها ، وتمتد سلطته إلى بلاد فلسطين وقسم من الشام .

وكان هذا المركز مما جعل لمحمد على باشا مندوحة فى تجريد الحملة عليه ، فلم يكن فى الظاهر محاربًا لتركيا ولا مجاهرًا بعصيانها . وما فتئ خلال الدور الأول من الحملة يتظاهر بإخلاصه ويزعم أنه إنما يحارب حاكما شبه مستقل خارجًا على الدولة ، ومما يجدر ذكره أن محمد على باشا كانت له يد سابقة على عبد الله باشا هذا ، فقد عزلته الحكومة التركية من ولاية

(٣) ذكرهما مع الأمير بشير الشهابى البارون لبوا لكونت فى رسالته عن سورية فى عهد الفتح المصرى ، ص ٢٢٨ من كتاب (مهمة البارون لبوا لكونت) .

(٤) ولاية صيدا قاعدتها عكا ولذلك تسمى أحيانا ولاية عكا .

صيدا سنة ١٨٢٢ ، فتشفع له محمد على فعفت عنه وأبقته فى ولايته ، ولكن عبد الله باشا لم يحفظ هذه اليد لمحمد على إذ كان من الباشوات الكثيرى المطامع ، فقد استأثر بالسلطة فى ولاية صيدا وطمع كذلك فى ضم ولاية الشام إليه وكان يخشى على سلطته من امتداد نفوذ محمد على ، فلم يراع جانبه ولم يكترث لغضبه ، وكان فضلا عن إيوائه المهاجرين المصريين يساعد قوافل التجارة على تهريب المتاجر من الجمارك المصرية وتفويتها من طريق صحراء سوريا فأضر ذلك بالخزانة المصرية .

فلما امتنع عن إرجاع المهاجرين المصريين صمم محمد على أن ينفذ الحملة على سورية

تأليف الحملة

كانت الحملة المصرية على سورية مؤلفة فى بداءتها من ٦ ألايات من المشاة وأربعة من الفرسان ، وعدتهم ٣٠٠٠٠ مقاتل بقيادة إبراهيم باشا ، مجهزين بأربعين مدفعا من مدافع الميدان وعدة من مدافع الحصار ، وما يكفيهم من الذخائر والمؤن ، واحتشد جنود الحملة ، فريق فى ضواحى القاهرة (بالخانكة) وفريق فى الإسكندرية .

واشتركت العمارة المصرية فى الحملة ، فنقلت جزءا من الجيش بطريق البحر ، وحملت المدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة ، وخاضت فى بعض المواطن غمار القتال ، وكانت مؤلفة من ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقل معقودًا لواؤها للأميرال عثمان نور الدين بك (باشا) وهو من خريجى البعثات المصرية التى أرسلها محمد على إلى فرنسا ونبغ فى الفنون الحربية والبحرية وكان ناظراً للمدرسة الحربية التى أنشأها ثم جعله محمد على أميرالا للأسطول المصرى لما عهد فيه من الكفاية والإخلاص ، وسنعود إلى الكلام عنه .

تمت معدات الحملة فى أوائل سنة ١٨٣١ ، وكان موعد زحفها فى صيف تلك السنة ، ولكن وقوع الوباء (الكوليرا) فى مصر وقتئذ أخر زحف الحملة ، فقد فتك بالأهالى فتكا ذريعا ، ودام فتكه أربعة وثلاثين يومًا ، ومات به نحو ١٥٠ ألف نسمة ، واستطار فى الجيش ، فأودى بحياة خمسة آلاف من الجنود[٥] ، فتوقفت الحملة عن السير حتى تكافح الحكومة هذا الوباء .

---

(٥) كان عدد الجيش يبلغ وقتئذ نحو ٩٠ ألفا .

سير الحملة

ولما جاء شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ أصدر محمد على أوامره بتحرك الحملة ، وكان خط سيرها أن يسير معظم الجيش برًّا عن طريق العريش إلى حدود سوريه ، وأن تقلّ العمارة إبراهيم باشا القائد العام وأركان حربه وجزءاً من الجيش والمدافع الضخمة والذخيرة والمؤونة من الإسكندرية إلى يافا

ففى اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ [٦] بدأ الجيش البرى يتحرك من معسكر (الخانكة) بقيادة إبراهيم باشا يكن [٧] قاصدًا الحدود السورية مارًّا ببلبيس ، فالقرين ، فالصالحية ، فقطية ، فبئر العبد ، فمسعودية ، فالعريش حيث استراح بها يومًا ، ثم دخل التخوم السورية فاحتل خان يونس .

احتلال غزة ويافا وحيفا

واحتل (غزة) بعد أن فرت منها الجنود العثمانية ، ثم زحف على (يافا) فأخلتها الحامية التركية واحتلها الجيش المصرى ، وفى غضون ذلك أقلعت العمارة المصرية من الإسكندرية تحمل باقى الجيش وتقلّ القائد العام إبراهيم باشا يصحبه أركان حربه ومنهم الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى وكان لم يزل بك) وعباس حلمى باشا [٨] .

وصلت العمارة إلى يافا ثم إلى حيفا حيث ألقت مراسيها وأنزلت بها الذخائر والمدافع ، والتقت القوات التى جاءت برًّا بالقوات الآتية بحراً ، واتخذ إبراهيم باشا (حيفا) قاعدة للحركات العسكرية وجمع فيها الذخائر والمؤونة وشرع فى مهاجمة عكا .

حصار عكا

(نوفمبر سنة ١٨٣١)

كانت عكا على جانب عظيم من المنعة ، ولا غرو فهى التى أعجزت نابليون منذ نيف

(٦) كما ورد فى كادلفين وبارو ص ٦٢ .

(٧) هو الذى تعبر عنه المراجع الفرنسية بإبراهيم باشا الصغير تمييزا له عن إبراهيم باشا بن محمد على .

(٨) هو عباس باشا الأول الذى تولى الحكم عقب وفاة إبراهيم باشا .

وثلاثين سنة عن فتحها ، وقد زاد أحمد باشا الجزار فى استحكاماتها القديمة بعد انسحاب الفرنسيين من سورية فصارت أمنع مما كانت ، فكان عبد الله باشا مطمئنًا إلى امتناعه بها ، واثقًا من عجز الجيش المصرى عن اقتحامها ، وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل ، فاعتزم أن يدافع عنها دفاع المستميت .

زحف الجيش المصرى على عكا وضرب عليها الحصار منذ يوم ٢٦ نوفمبر واشتركت العمارة المصرية فى حصارها من البحر ، فكان الحصار مضروبًا عليها برًّا وبحراً ، وأطلقت مدافع البر والبحر قنابلها على أسوار عكا وحصونها ، ولكن الحصون جاوبتها بنار حامية وأحدثت أضراراً ببعض السفن المصرية مما اضطرها إلى الرجوع للإسكندرية لإصلاح ما أصابها من العطب ، فاستعصت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر دون أن ينال منها منالا ، وأخذ إبراهيم باشا فى خلال هذه المدة يحتل المواقع المهمة فى ولاية صيدا وما حولها ، فاحتلت فرقة من الجنود المصرية بقيادة حسن بك المناسترلى صور وصيدا وبيروت وطرابلس واحتلت كتيبة أخرى مدينة (القدس) وكان الجيش كلما نزل ببلدة سلمت له بدون قتال .

موقف تركيا

اضطربت تركيا أمام زحف الجيش المصرى ، وبادرت فى بادىء الأمر إلى إرسال مندوب عنها إلى محمد على باشا يطلب إليه الكف عن القتال ، وكان الباشا يعلم بارتباك أحوال تركيا وعجزها عن حشد جيش يصد زحف الحملة المصرية ، فأخذ يماطل فى الجواب ، وتظاهر بالإخلاص للدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه أرسل إلى إبراهيم باشا يأمره بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يفتحها قبل أن يصل الجيش التركى لنجدتها إذا فكرت تركيا فى إمدادها .

وقد حشد الباب العالى نحو عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وعهد إليه رفع الحصار .

فزحف الجيش العثمانى برمى إليها ، وضم إليه كل من لقيهم فى طريقه من جموع الأكراد والعرب .

علم ابراهيم باشا بتحرك هذا الجيش ، فعقد مجلسًا حربيًّا من نخبة ضباطه وأركان حربه ليتدبر فى الأمر ، فاستقر رأيه على أن يترك حول عكا القوة الكافية لمتابعة الحصار ، وأن يتحرك

بالجزء الآخر من جيشه ليصادم الجيش التركى فى الطريق ، ويتغلب عليه قبل أن يصل إلى عكا .

تقدم عثمان باشا يقود بضعة آلاف من جنوده وانتهز فرصة اشتغال إبراهيم باشا فى حصار عكا فهاجم طرابلس التى كانت تحتلها حامية مصرية فلدخل المدينة ، ولكن جنود الحامية ردوا المهاجمين على أعقابهم ، على أن مركزهم لم يلبث أن تحرج بازدياد قوات الأعداء ، وصارت طرابلس مهددة بسقوطها فى يد الترك ، فبادر إبراهيم باشا إلى نجدتها وسار إليها بطريق الساحل فلما اقترب منها ارتد عنها عثمان باشا .

انتصار المصريين فى الزّراعة

(١٤ ابريل سنة ١٨٣٢)

تعقب إبراهيم باشا الترك إلى حمص ، ثم رأى أن يرجع إلى (بعلبك) ليمتار منها بالذخيرة الكافية قبل أن يمضى فى مطاردة الجيش العثمانى ، فوصل إلى سهل الزراعة[٩] .

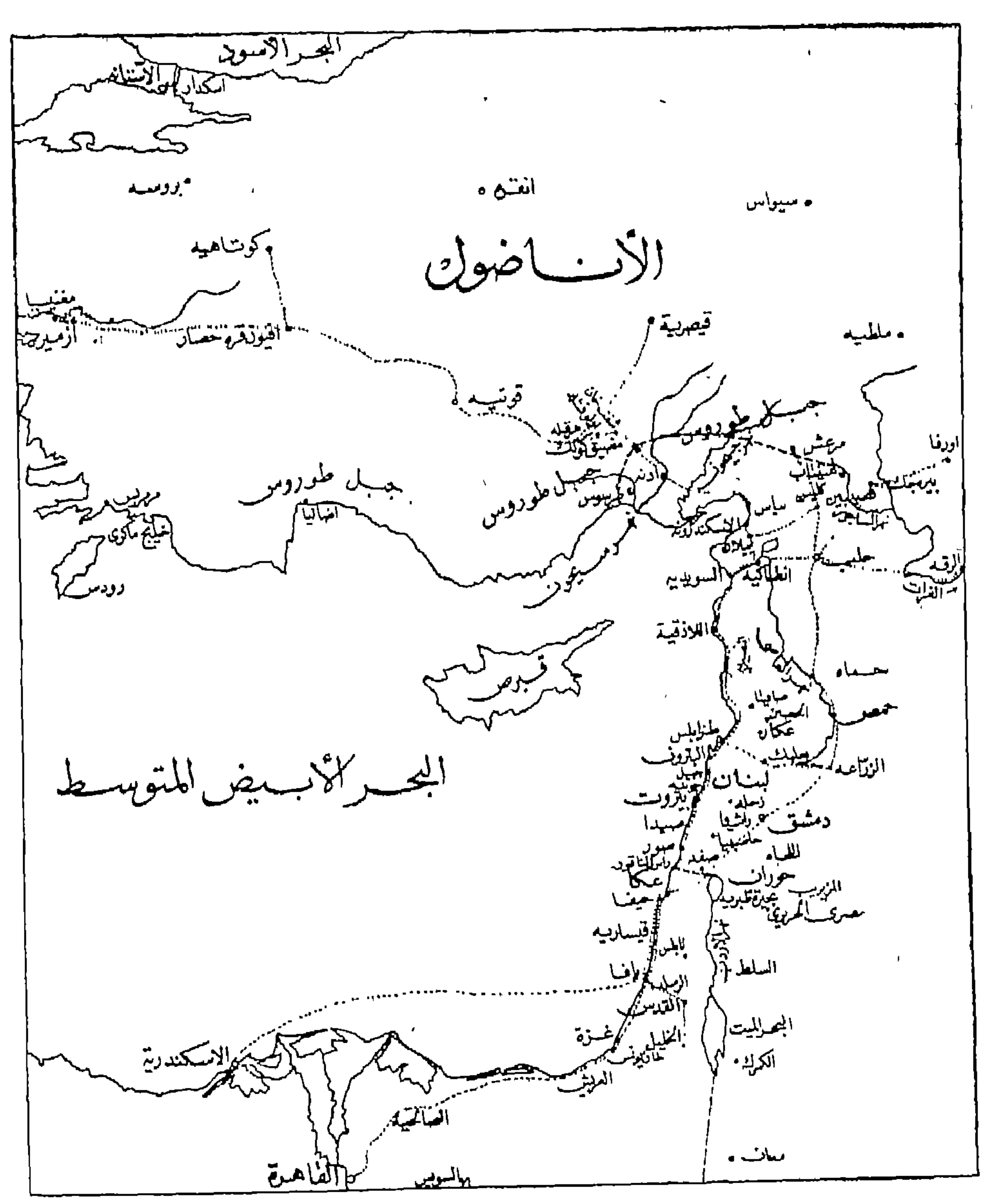
وقد توهم عثمان باشا أن هذا التراجع علامة الضعف ، فتقدم لمهاجمة الجيش المصرى ، فالتقى به فى سهل (الزراعة) ، ومع أن الجيش العثمانى كان أكبر عدداً إلا أنه دون الجيش المصرى فى النظام وكفاية القيادة .

كان جيش عثمان باشا مؤلفًا من فرسان العرب والأكراد ، فهجموا على الجيش المصرى وأحاطوا به من كل جانب ، وخيل لهم أنه أصبح فى قبضة يدهم ، لكن إبراهيم باشا بمعاونة سليمان بك (باشا) الفرنساوى رتب الجنود المصرية على هيئة صفوف منتظمة متراصة ووضع وراءها المدافع حتى لا يراها المهاجرون ، فانخدع القائد التركى بهذه الحيلة وهجم بكل قواته على الصفوف المصرية ، فلبثت هذه ساكنة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون وراء المدافع وانفجرت هذه بقنابلها فحصدت المهاجمين مشاة وركبانًا ، فوقعت بهم الخسائر الفادحة واختل نظامهم وتفرق جمعهم ونكصوا إلى الوراء فسار المصريون فى أعقابهم حتى دفعوا بهم إلى نهر العاصى[١٠] حيث غرق الكثير منهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش

---

(٩) قرية جنوبى حمص ، انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

(١٠) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماه وانطاكية ويصب عند السويدية ، انظر موقعه على الخريطة الملحقة بهذا الفصل



خريطة الحرب فى سورية والأناضول

وفيها بيان المواقع والبلاد التى ورد ذكرها فى الفصل الثامن ، وقد بينا على الخريطة خط سير الحملة العصرية برًا وبحرًا ، ورسمنا بها حدود مصر الشمالية (التقريبية) طبقا لاتفاق (كوتاهيه) سنة ١٨٣٣ ، وكانت هذه الحدود تبدأ من مجرى نهر الساجور أحد روافد الفرات وتمتد شمالا بغرب إلى نضيق (كولك) بجبال طوروس ثم تنحدر جنوباً إلى البحر الأبيض .

ورسمنا أيضًا حدودها الشمالية التى قررتها الدول فى معاهدة لندره سنة ١٨٤٠ ولم يقبلها محمد على كما سيجئ بيانه ، وكانت تشمل فلسطين وتبدأ من رأس الناقورة شمالى عكا إلى مصب نهر السيسبان فى شمالى بحيرة طبرية ، ثم تتبع الشاطئ الغربى لتلك البحيرة ، فالضفة اليمنى لنهر الأردن ، فالشاطئ الغربى للبحر الميت ، ومن نهايته تمتد الحدود جنوبا على خط مستقيم إلى رأس خليج العقبة على البحر الأحمر ، ثم تتبع الشاطئ الغربى لخليج العقبة ثم الشاطئ الشرقى لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها .

التركى وارتد عثمان باشا وجنوده إلى مدينة (حماه) ومكث بها كى يتلقى المدد ، أما إبراهيم باشا فقد عاد بعد واقعة (الزراعة) إلى بعلبك يتأهب لاستئناف الزحف .

وفى خلال ذلك اغتنم عبد الله باشا فرصة نقص القوات المحاصرة لعكا إذ هبطت إلى عشرة آلاف فخرج من معاقله ، وهاجمهم وظهر عليهم ، واستولى على الكثير من مدافعهم ، على أن إبراهيم باشا لم يعبأ بهذا النصر الذى ناله عبد الله باشا لوثوقه أن النصر الحاسم هو فوزه على جيش عثمان باشا .

فتح عكا

(٢٧ مايو سنة ١٨٣٢)

ومكث إبراهيم باشا فى بعلبك يرقب حركات الجيش العثمانى مخافة أن يعاود كرّة الهجوم ، ولكنه ما لبث أن علم أن عثمان باشا أنفذ يطلب المدد من الاستانة ، وهذا دليل على ضعف مركزه ، ولما كان المدد لا يمكن أن يصل إلا بعد شهرين إذا أعجله الباب العالى ، فقد اطمأن ابراهيم باشا من هذه الناحية ، وعاد إلى (عكا) وشدد الحصار عليها من البر والبحر ، وساعده فى ذلك العرب والدروز والموارنة الذين أتوه طائعين .

حمل ابراهيم باشا على المدينة وأخذ يرمى سورها بالمدافع القوية ، ومازال الضرب مستمرا حتى تصدع السور وفتحت فيه ثغرتان كبيرتان وأخرى صغيرة ، وعندئذ صمم إبراهيم باشا على مهاجمة المدينة بجيشه وحدد للهجوم يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ .

ففى صباح ذلك اليوم حملت الجنود المصرية على الثغرات الثلاث ، فاستولوا على اثنتين منها ، وتردد الجنود الذين قصدوا الاستيلاء على الثغرة الثالثة ولقوا مقاومة شديدة ، فارتدوا إلى الوراء ، فلما أبصر ابراهيم باشا ارتدادهم بادر إلى نجدتهم بجزء من الاحتياطى وتقدم هو الجنود شاهرا سيفه ، فدبت الحمية فى نفوسهم وعادوا إلى الثغرة فاقتحموها ، ودار قتال استمر حتى المساء ، ودافعت الحامية دفاعًا مجيدًا ، وأبدى الفريقان شجاعة كبيرة إلى أن عظمت خسائر الحامية وكلت عن مواصلة الحرب ، فطلب عبد الله باشا التسليم وسلم المدينة فى مساء ذلك اليوم .

وبذلك انتهى حصار عكا بتسليمها للجيش المصرى بعد أن استمر ستة أشهر ، وقد وقعت بالفريقين خسائر فادحة ، فبلغت خسائر الجيش المصرى أربعة آلاف وخمسمائة قتيل ،

وخسرت الحامية ١٤٠ قتيل ، وهى خسارة تدل على شدة ما احتمله الفريقان ، فلا غرو أن كان لفتح عكا دوىٌّ عظيم تجاوب فى الخافقين ، فإن عكا هى التى امتنعت على نابليون منذ نيف وثلاثين سنة وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبًا ، فانتصار إبراهيم باشا فى فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصرى .

ومن الواجب تقديرًا للحقيقة أن ننوه بأن العقبات التى اعترضت نابليون فى حصار عكا كانت أشد وأبلغ مما اعترض الجيش المصرى ، فإن نابليون حاصر عكا من البر ، وكان الأسطول الإنجليزى يدافع عنها من البحر ويمنع مواصلات الجيش الفرنسى من هذه الناحية ، ولم يجد نابليون أمامه سوى طريق الصحراء الشاق ، فانقطع عنه المدد ، بينما كان الجزار يتلقى المدد والمؤونة والذخيرة بحرًا ، أما الجيش المصرى فقد عاونته العمارة المصرية من البحر ، فكانت المدينة فى حصار محكم برًّا وبحراً ، فضلا عن أن إبراهيم باشا كان على اتصال مستمر بثغور مصر وسواحلها بواسطة العمارة المصرية ، واستطاع أن يتابع الحصار ستة أشهر كاملة ، فإبراهيم باشا كان من هذه الوجهة أكثر توفيقًا من نابليون ، على أنه لا يغرب عن البال أن ما أبداه الجنود المصريون ، من الجلد والصبر على مكاره القتال ، وما امتازت به قيادتهم من الدربة والكفاية ، كل ذلك كان له الفضل الأكبر فى ذلك الفتح المبين .

وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم فى مصر فأقيمت الزينات فى القاهرة ثلاثة أيام متواليات .

أما عبد الله باشا والى عكا بعد أن سلم نفسه تلقاه إبراهيم باشا بالحفاوة والإجلال ، وأرسله إلى الاسكندرية حيث أحسن محمد على مثواه وأسكنه فى قصر خصص له ، وحفه بالرعاية والإكرام[١١]

فتح دمشق

(١٦ يونيه سنة ١٨٣٢)

اعتزم إبراهيم باشا بعد أن أراح جنوده ورتب شؤنه فى عكا أن يمضى شمالا قاصدًا فتح دمشق ، فغادر عكا فى يوم ٩ يونيه سنة ١٨٣٢ فى جيش مؤلف من ١٨٠٠٠ من المقاتلة ،

(١١) يقول الدكتور مشاقة فى كتابه (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) ص ١٠٤ إن عبد الله باشا طلب أن يأذن له محمد على بالذهاب إلى الحجاز فذهب إليه ومات هناك .

منهم ٩٠٠٠ من الجنود النظامية و ٩٠٠٠ من العربان المصريين والبدو السوريين والدروز ، فلما اقترب من دمشق وقعت مصادمة خارج المدينة بين الجيش المصرى والجيش العثمانى انهزم فيها الترك ، وفرّ والى الشام بجنوده .

ولم يكن الأهالى معتزمين مقاومة الجيش المصرى لأن مساوىء الحكام الأتراك جعلتهم لا يميلون إلى المقاومة بل كانوا أقرب إلى الرغبة فى تغيير حكامهم .

فخرج وفد من أعيان المدينة وقابلوا إبراهيم باشا وقدموا طاعتهم ، فدخل المدينة يوم ١٦ يونيه ونصب الجيش خيامه خارج البلد ، واحترم الجنود المصريون أملاك الأهالى وأموالهم ، فكان سلوكهم مدعاة للإعجاب مما حبب الحكم المصرى إلى نفوس السوريين وخاصة حينما قابلوا هذا المسلك بما اعتاده الجيش العثمانى من أنواع الاعتداء المنكرة .

وأقام ابراهيم باشا فى دمشق ثمانية عشر يوماً ، وحضر صلاة الجمعة فى الجامع الأموى ، ورتب الإدارة فيها على نظام جديد فعين أحمد بك اليوسف أحد أعيانها متسلما عليها ، وأنشأ (ديوانا) مؤلفاً من عشرين من أعيان المدينة سماه (ديوان المشورة) يختص بنظر دعاوى الرعية والحكومة .

واقعة حمص

(٨ يوليه سنة ١٨٣٢)

جزع الباب العالى لسقوط (عكا) فى يد الجيش المصرى ، وكان يظن أنها ترده خائبا كما ردت نابليون من قبل ، فلما واجهته الحقائق خشى على مركزه أن يتزعزع أمام انتصارات المصريين ، وكان قد أعلن عصيان محمد على[١٢] أثناء حصار عكا وحشد جيشاً مؤلفاً من ستين ألف جندى لقتاله ، وأعد أسطولا من خمس وعشرين سفينة للإقلاع من الدردنيل ومحاربة الأسطول المصرى .

وعهد بقيادة جيش البر إلى السرعسكر حسين باشا قاهر الانكشارية ومنحه لقب (سردار أكرم) ، وكان من أكفأ قواد تركيا ، ووهب له ولاية مصر وكريت إذا هو قهر الجيش المصرى ، فلو كتب له الفوز لوقعت مصر فى وهدة الفوضى التى كانت تتردى فيها فى عصر الولاة الأتراك ، ولقضى على الاستقلال المصرى فى مهده ، ولكن بطولة الجيش المصرى

(١٢) فى أوائل مايو سنة ١٨٣٢ .

حالت دون وقوع الكارثة ومنعت عودة مصر إلى فوضى الحكم التركى .

تقدم جيش حسين باشا ببطء ، فلم يصل إلى مضايق جبال (طوروس) إلا فى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٣٢ ، ولم يشأ قائده أن يتقدم بمجموع جيشه لملاقاة الجيش المصرى ، بل ظل على مقربة من (انطاكيه) وأنفذ محمد باشا والى حلب وتحت امرته مقدمة الجيش وأمره بالتحصن فى (حمص) .

كان هذا التدبير خطأ حربيًّا كبيراً ، لأن انفصال المقدمة عن باقى قوات الجيش وتورطها فى مقاتلة الجيش المصرى يعرضها للهلاك المحتوم ، فلما علم إبراهيم باشا بهذا الخطأ عزم على مواجهة مقدمة الجيش التركى وسحقها . ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك ، فتقدم من دمشق زاحفاً على (حمص) ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بقية جنده الذين كانوا بقيادة عباس حلمى باشا وحسن بك المناسترلى فصارت قوة الجيش عندما بلغ (حمص) نحو ثلاثين ألف مقاتل(١٣) وصار أمام معسكر محمد باشا والى حلب ، وهناك وقعت الواقعة المشهورة بمعركة حمص (٨ يوليه ١٨٣٢) .

تقع مدينة (حمص) على الشاطئ الأيمن من نهر العاصى ، وموقعها غاية فى الأهمية ، لأنها ملتقى عدة طرق ، فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوباً ، وطريق أنطاكية وحلب شمالا .

وقد عسكر محمد باشا قائد الجيش التركى بجنوده على نهر العاصى ، جنوبى حمص وتحت أسوارها ، ورتب جيشه على صفوف ثلاثة ، فوقف المشاة فى الصف الأول ، تمتد ميسرتهم على مقربة من ضيعة متهدمة على مسافة نصف فرسخ ، والصف الثانى من خلفهم ، ويتألف من ألايين من المشاة ، وعن يمينهم وشمالهم ألايان من الفرسان ، ويليهم الصف الثالث ، ومعظمه من الجنود غير النظامية (الباشبوزق) ، وتحمى المدفعية جناحه الأيمن ، أما الصف الأول والثانى فلم يكن يسندهما سوى عدد ضئيل من المدافع ، وهذا من سوء التدبير .

أما الجيش المصرى فقد رابط فى مواجهة الجيش التركى على ثلاثة صفوف ، فوقف فى الصف الأول فريق من المشاة يبلغ عددهم ثلاثة ألايات ، وعن يمينهم وشمالهم ألايان من الفرسان ، وفى الصف الثانى وقف جنود الحرس والمشاة ، يشد أزرهم من الجانبين ألايان آخران من الفرسان ورابط الاحتياطى من الفرسان والمشاة فى الصف الثالث .

(١٣) إحصاء مانجان ج ٣ ص ٤٢ .

ونصب إبراهيم باشا مدافعه على ترتيب بديع ، فجعل أمام الصف الأول ثلاث بطاريات ، واحدة فى القلب ، وأخرى على اليمين ، والثالثة على اليسار ، ووضع بين الصف الثانى والصف الثالث ثلاث بطاريات أخرى ، وفيها المدافع الثقيلة ، وبينها وبين الاحتياطى مهمات الجيش وأمتعته ، وعلى جانبى الصف الثالث فرسان البدو من العرب الهنادى وغيرهم .

يدل هذا الترتيب وحده على دقة فى التدبير وكفاية فى القيادة ، ولو تأملت فى خريطة الواقعة (ص ٢٣٣) لتبينت بداءة ذى بدء مبلغ الفرق بين قيادة الجيش المصرى وقيادة الجيش التركى .

ولقد كان ابراهيم باشا أسرع من خصمه إلى رسم خطط القتال ، فبينما كان محمد باشا قائد الجيش العثمانى متردداً فى أى طريق يأخذه ، استقر رأى إبراهيم باشا بعد أن استشار خاصة أركان حربه على أن يكون البادئ بالهجوم .

فأمر كتائب الفرسان التى ترابط على ميمنة الصفوف الثلاثة بالزحف شرقاً لتقوم بحركة التفاف حول ميسرة الترك ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، لأن على نجاحها يدور مصير المعركة .

فتحرك الفرسان وفقا لهذه الخطة ، واجتازوا الضيعة المتهدمة المتقدم ذكرها بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف خطوة ، وتقدموا لمهاجمة فرسان الترك من الجنود غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة ، وكان الهجوم شديداً محكم الوضع ، فتراجع الترك أمام قوة الهجمة وشدة الضرب ، وتفرقوا بدداً ، واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص ، ثم تقدم الفرسان الترك النظاميون الذين كانوا يرابطون فى ميسرة الصف الثالث لصد هجمة المصريين ، فأمدّ إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة والمدافع ، فأطلق المصريون مدافعهم وبنادقهم على فرسان الترك فأوقعوا بهم وفرقوا جمعهم ، وتراجع هؤلاء إلى حدائق حمص ، وهجم المشاة المصريون من القلب هجمة صادقة فتقلقل الترك عن مراكزهم وتقهقروا إلى الوراء وبذلك انهزم الجناح الأيسر من الجيش التركى بأكمله وتخلى عن مواقعه .

وقامت ميسرة الجيش المصرى بحركة بديعة ، ذلك أن فرقة منها زحفت غرباً واجتازت القناة التى تتفرع عن نهر العاصى ، تتبعها المدافع ، واحتلت شاطئ القناة الأيسر ، وبذلك سدت الطريق أمام ميمنة الترك ، وصار من المتعذر عليهم أن يهمّوا بالهجوم من هذه الناحية .

تحرج مركز الجيش التركى أمام هجمات المصريين ، وزاد مركزه حرجاً أن المدافع المصرية كانت تطلق قنابلها بمهارة وإحكام ، فتصيب الهدف وتحصد صفوف الترك حصد النبات ، فى حين أن المدافع التركية كانت منصوبة على غير هدى ، وفى مواضع لا تصيب منها الهدف ، فضلا عن قلة الخبرة والدربة فى رماتها ، وقد بقى الكثير منها منصوباً فى مؤخرة الصف الثالث فلم يعمل عملا فى صد هجمات المصريين .

ولما رأى محمد باشا قائد الجيش التركى حرج مركزه أمر صفوفه بالهجوم ، ولكن المشاة المصريين من جنود الصف الأول قابلوهم برصاص بنادقهم ففتكت بهم النيران فتكاً ذريعاً وارتدوا على أعقابهم ، فوقع الذعر فى صفوف الترك وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد كان مظنوناً أن يعود الترك للقتال بعد أن يلموا شملهم ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم ، ومرت لحظة توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال ، وزاد هذا الظن رجحاناً أن مدافع القلعة كانت تطلق قنابلها ، ولكن هذا الظن ما لبث أن تبدد ، ولم يقوَ الترك بل لم يفكروا فى معاودة القتال ، وتقدم إبراهيم باشا بجيشه الظافر ، فاحتل المواقع التى كان الترك يرابطون بها ، وصفّ جيشه على شكل مربع ، ووضع المدافع على زواياه الأربع ، فازداد مركزه قوة ومنعة ، فتابع الترك تقهقرهم منهزمين ، وبذلك انتهت واقعة حمص بانتصار الجيش المصرى بعد أن دام القتال نحو أربع ساعات ، إذ بدأت وقت العصر وانتهت عندما أرخى الليل سدوله ، وبادر ابراهيم باشا فأرسل إلى أبيه ينبئه بهذا النصر المبين .

بلغت خسائر الجيش العثمانى فى واقعة حمص ٢٠٠٠ من القتلى و ٢٥٠٠ من الأسرى ، واستولى الجيش المصرى على عشرين من مدافعه وعلى ذخائره وأمتعته ، وأما خسائر المصريين فلم تزد عن ١٠٢ من القتلى و١٦٢ من الجرحى ؛ ودخل المصريون فى اليوم التالى مدينة (حمص) .

وتُعد هذه الواقعة من أهم المعارك التى خاضها الجيش المصرى ، فقد كانت أول معركة كبيرة اقتتل فيها الجيشان المصرى والتركي وجهاً لوجه[14] ، وكلاهما يتبع بقدر استطاعته النظام الحربى الحديث ، وكانت قوات الجيشين متعادلة ، فكلاهما مؤلف من نحو ثلاثين ألف مقاتل ، ولكن الجيش المصرى امتاز ببراعة القيادة وحسن النظام وبسالة جنوده والتفوق فى المران

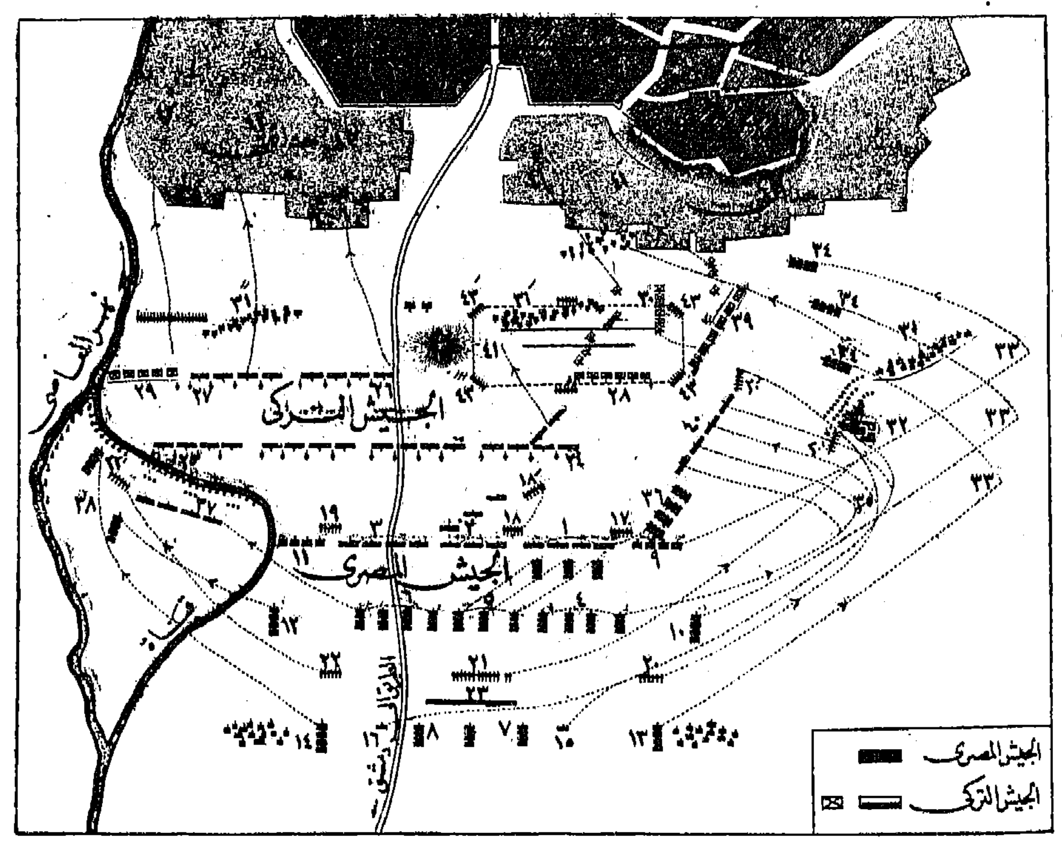
---

(١٤) إن حصار عكا وإن كان أسبق من واقعة حمص إلا أنه لا يعد معركة ، والمقصود من المعركة اصطدام جيشين فى ميدان مكشوف . أما واقعة (الزراعة) فهى وأن كانت أيضا أسبق من معركة حمص إلا أنها لا تعد من المعارك الكبيرة بالنسبة لوقائع حمص وبيلان وقونيه ونصيبين .

العسكرى ، فلا غرو أن كسب المعركة .

وكان لترتيب الخطط الحربية فضل كبير فى انتصاره ، وهنا تبدو كفاية إبراهيم باشا فى القيادة ومهارته فى الفنون الحربية .

وقد دلت معركة حمص على تفوق الجيش المصرى على الجيش التركى فى ميادين القتال ، فكان لهذه الدلالة تأثير كبير فى الأذهان ، لأن أحداً لم يكن يتصور أن جيش السلطان يهزم أمام الجيش المصرى الذى كان معدودًا إلى ذلك الحين جزءًا من الجيش « الشاهانى » ، وتلك أول مرة ظهر فيها الجيش المصرى على الجيش التركى فى معركة كبيرة ، فمحت هذه المعركة ذكرى هزيمة الجيش المصرى فى معركة (الريدانية) أمام جيوش السلطان سليم فى بدء الفتح العثمانى لمصر ، أى منذ نيف وثلاثة قرون ، وغسلت الذلة التى لحقتها فى تلك الهزيمة ، وإذا كانت معركة (الريدانية) قد قضت على استقلال مصر وجعلتها ولاية تركية فلا ريب أن معركة (حمص) والوقائع التى تلتها أرجعت لمصر استقلالها وقضت على الحكم العثمانى فيها ، فلم تقم له بعد ذلك قائمة .



خريطة واقعة حمص (٨ يولية سنة ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية :

موقع الجيش المصرى

١و٢و٣	الصف الأول من المشاة مؤلفا من الألاى الثانى عشر (نمرة ١) والألاى الثالث عشر (نمرة ٢) ، والألاى الثامن عشر (نمرة ٣) .
٤و٥و٦	الصف الثانى من المشاة مؤلفا من ألاى الحرس (نمرة ٤) ، والألاى الخامس من المشاة (نمرة ٥) والألاى الحادى عشر (نمرة ٦) .
٧و٨	الصف الثالث (الاحتياطى) مؤلفا من الألاى الثامن من المشاة .
٩	ألاى من الفرسان عن يمين الصف الأول .
١٠	ألاى من الفرسان عن يمين الصف الثانى .
١١	ألاى من الفرسان عن يسار الصف الأول .
١٢	ألاى من الفرسان عن يسار الصف الثانى .
١٣و١٤	الفرسان على جانبى الصف الثالث .
١٥و١٦	كتيبتان من الرماة على جانبى الصف الثالث .
١٧و١٨و١٩و٢٠و٢١و٢٢	المدافع موزعة أمام الصف الأول وبين الثانى والثالث .
٢٣	مهمات الجيش وأمتعته .

موقع الجيش التركى

٢٤و٢٥	الصف الأول من المشاة .
٢٦و٢٧	الصف الثانى من المشاة .
٢٨و٢٩و٣٠	فرسان الترك النظاميون .
، ، ،	المدافع موزعة هنا وهناك .
٣١و٣١و٣١	الفرسان غير النظاميين (الباشبوزق) ومنهم يتألف معظم الصف الثالث .

حركات الجيشين

٣٢	الضيعة المتهدمة التى اتجهت فى طريقها ميمنة الجيش المصرى .
٣٣	الموقع الذى اتجه إليه الفرسان المصريون للالتفاف بميسرة الترك ومنه تقدموا وهاجموا الفرسان الباشبوزق (نمرة ٣١) قريباً من الضيعة .
٣٤	الموقع الذى وصلوا إليه بعد الهجوم المتقدم .
٣٥	الموقع الذى تقدمت إليه طوابير الحرس (نمرة ٤) .
٢٠	وصول البطارية ٢٠ إلى يسار الضيعة واحتلال الرماة المصريين ١٥ و ١٦ تلك الضيعة .
٣٦	الموقع الذى اتجه إليه الألاى نمرة ١ لشد أزر جنود الحرس .
١٨َ	الموقع الذى اتجهت إليه البطارية ١٨ لمعاونة الألاى نمرة ٢ فى هجومه على الترك وقد تقدم الألاى نمرة ٥ ليحل محل الألاى نمرة ١ وليشد أزر الألاى نمرة ٢ فى هجومه .
٣٧	الموقع الذى اتجه إليه الألاى نمرة ٦ لسد الطريق أمام ميمنة الترك .
٣٨	الموقع الذى اتجه إليه الألاى نمرة ١٢ ونمرة ١٤ (من الفرسان) لشد أزر الحركة المتقدمة .
٢٢َ	انتقال البطارية نمرة (٢٢) إلى موقعها الجديد للغرض نفسه .
٣٩	الموقع الذى تقدم إليه الفرسان الترك نمرة ٣٠َ بعد هزيمة الباشبوزق لصد هجمة الفرسان المصريين .
٤٠	الموقع الذى وصل إليه جنود الحرس المصريون وعن يمينهم البطارية ٢٠ وضربهم فرسان الترك يعاونهم الفرسان من الموقع ٣٤ .
٤١ و٤١َ و٤١ً	تقهقر ميسرة الترك بعد هزيمتهم .
٤٢ و٤٢َ و٤٢ً	تقهقر ميمنة الترك .
٤٣ و٤٣َ و٤٣ً و٤٣ٌ	المربع الذى احتله الجيش المصرى بعد هزيمة الترك .

الموقف الحربى بعد واقعة حمص

ارتد الجيش العثمانى بعد هزيمته فى واقعة (حمص) قاصداً حلب .

أما جيش حسين باشا فكان قد بلغ (أنطاكية) بينما كان جيش محمد باشا والى حلب والجيش المصرى على وشك اللقاء فى معركة حمص ، وهكذا يتبين لك أن انفصال الجيشين العثمانيين بعضهما عن بعض مكن الجيش المصرى من الانقضاض على كليهما واحداً بعد واحد ، ولو كانت القيادة التركية على شىء من الكفاية لما تقدم جيش محمد باشا وحده ، ولانتظر قدوم جيش حسين باشا قبل مواجهة الجيش المصرى ، ولكن عجز القيادة التركية وارتباك حكومة الاستانة كانا من الأسباب التى أفضت إلى هزيمة الجيش التركى .

بارح جيش حسين باشا أنطاكية قاصداً إلى حمص ، فالتقى فى طريقه بفلول الجنود المهزومة من جيش محمد باشا ، وعرف منهم نبأ هزيمة حمص ، فارتد الجميع إلى (حلب) ليتخذوها قاعدة حربية لقتال الجيش المصرى ، وطلب حسين باشا من أعيانها أن يمدوه بالمؤونة والرجال ، ولكن أهالى حلب كانوا كارهين للحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب إذا استهدفت للحرب ، فأبوا على الجيش التركى أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، وأغلقوا أبواب المدينة فى وجه الجيش التركى .

وفى خلال ذلك كان إبراهيم باشا يتقدم بالجيش المصرى نحو حلب ، ولم يجد حسين باشا مكاناً حصيناً يأوى إليه ، فانسحب شمالا إلى مضيق (بيلان) جنوبى الإسكندرونة ، وهو أحد مفاتيح سورية من الجهة الشمالية وحصن فيه مواقعه تحصيناً منيعاً وساعدته طبيعة تلك المواقع على الامتناع بها .

واقعة بيلان

(٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢ [١٥])

تقدم الجيش المصرى فاحتل من غير مقاومة (حماه) ثم (حلب) ومكث بها بضعة أيام استراح فيها ، وجاءته بها وفود من (اورفا) و (ديار بكر) تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد

(١٥) اعتمدنا فى بيان يوم الواقعة على رواية كادلفين وبارو ص ٢٠٦ .

على ، ثم تأهب لاستئناف الزحف وتابع زحفه حتى صار على مقربة من مواقع العدو فى بيلان .

كان الجيش العثمانى الذى يقوده حسين باشا مؤلفاً من نحو ٤٥ ألفاً من الجنود النظامية ، لديها السلاح الكافى ويعززها ١٦٠ مدفعا ، وهى قوة لا يستهان بها ترابط فى مواقع منيعة ، ولكن قيادتها تعوزها الكفاية والخبرة ، وحالة الجنود المعنوية لم تكن على ما يرام ، فإن ما حل بالجيش التركى من الهزائم المتوالية وما تعاقب عليه من تغيير القواد واندحارهم قد خذل روح الجند ، وعلى عكس ذلك كان موقف الجيش المصرى ، فإن ذكرى الانتصارات المتتابعة قد ملأت جنوده قوة وحماسة وجعلتهم يركنون إلى قائدهم الباسل ابراهيم باشا الذى سار بهم من نصر إلى نصر .

تقع مدينة بيلان جنوبى الإسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها ويصل إليها طريقان ، طريق من كليس ، وطريق من أنطاكية ، ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر ، ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان ، فيصبحان طريقاً واحدة يصل إلى المدينة ، وترى على الخريطة نقطة تلاقيهما .

وقد اتخذ الجيش التركى مواقعه على قمم جبال بيلان ، فاحتشد المشاة فوق هضبة على خط منكسر يصل طرفه الأيمن – حيث ميمنة الجيش – إلى طريق وعر يخترق الجبل آتياً من (خان قرموط) ذاهباً إلى بيلان ، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى الطريق الوسط الواصل إلى بيلان نفسها ، أما ميسرة الجيش فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلى هذا الطريق يشد أزرها بعض المدافع المنصوبة على أكمة قريبة من الطريق ، وأقام الترك أمام صفوف المشاة استحكامات نصبوا فيها مدافعهم ، وأمامها الفرسان .

أما الجيش المصرى فقد عسكر فى السهل المنبسط تحت المضيق غربى الطريق الواصل من كليس إلى أنطاكية ، وتجد موقعه بالخريطة (نمرة ١ – ٢) ، فاتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، والفرسان من ورائهم والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وأمتعته .

ذلك هو موقع الجيشين قبيل المعركة .

أنعم إبراهيم باشا النظر فى مواقع الترك على جبل بيلان ، فرآها منيعة يصعب على الجيش المرابط فى السهل المنبسط فى سفح الجبل أن ينال منها منالا ، فاجتمع وخاصة قواده

وضباطه ، وأخذ يتداول وإياهم الآراء فى الخطة التى تكفل الفوز ، فاستقر رأيه بعد دراسة الموقف ألا يهاجم الترك مواجهة ، لاستحالة ذلك ، ورأى الخطة المثلى أن يدور حول ميسرتهم من الجنب تمهيداً للإحاطة بها ، ثم يحتل أكمات تتسلط على القلب ، فيجعل المشاة الترك هدفاً لنيران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءا من قواته للإحاطة بميمنة الجيش التركى .

وعملا بهذه الخطة أنفذ جنود الحرس والألاى الثامن والثامن عشر من المشاة إلى طريق كليس — بيلان ، فساروا إليه واحتشدوا وراء أكمة تمتد إلى الطريق (نمرة ١٨) ووراءهم المدافع فى بطن الوادى غربى الطريق (نمرة ١٩ و ٢٠) ، ثم أخذت كتائبهم تتحرك شرقًا فى اتجاه ميسرة الجيش التركى ، تتبعهم المدافع الكافية .

وقد تولى إبراهيم باشا بنفسه قيادة هذه الحركة ، لأن عليها يدور مصير المعركة ، وأنفذ فى الوقت نفسه الألاى الثالث عشر من المشاة بقيادة حسن بك المناسترلى تصحبه بطارية من المدافع ، فزحف صوب الطريق الآخر الذاهب من أنطاكية إلى بيلان ، ووصل إلى الطريق واحتل الموقع الذى ينتهى إليه (نمرة ٢١) ، وتبعه الألاى الخامس من الفرسان لتتألف منه قوة احتياطية له فى هجومه على ميمنة الجيش التركى ، فاستقر وراءه (نمرة ٢٢) .

كانت هاتان الحركتان ، وخاصة حركة الميمنة التى تولى إبراهيم باشا قيادتها ، تكتنفها مصاعب جمة ، لأن المصريين اضطروا أن يسيروا صعدا فى طرق وعرة ، فاحتملوا فى اجتيازها المتاعب والشدائد الهائلة ، ولما لمح الترك تقدمهم صوّبوا إليهم مدافعهم وأطلقوا القنابل عليهم ، فأمر ابراهيم باشا بنصب المدافع وراء الأكمة التى احتشد فيها المشاة ، وأطلق القنابل على وجهة الجيش التركى بين القلب والميسرة ، وتبادل الفريقان إطلاق القنابل .

واستمر المصريون فى زحفهم شرقًا ، إلى أن تخطوا مواقع الجناح الأيسر من الجيش التركى ، فهاجموه من الأمام ومن الجنب هجومًا شديدًا ، فتقلقل الترك عن مواقعهم واضطروا إلى الارتداد شمالا ، فابتدأت هزيمتهم ، واستمر المصريون يتعقبونهم .

وفى خلال هذه الحركة استولى الرماة المصريون على المدافع المنصوبة على الأكمة التى تحمى الجناح الأيسر (نمرة ١٧) ، ووصل المصريون إلى مرتفعات (نمرة ٢٤) تشرف على مواقع الترك ، وعلى طريق بيلان ، وركبوا فيها المدافع ، فاستهدفت ميسرة الترك فى انسحابها

لنيران المدافع والبنادق المصرية ، فوقع فى صفوفها الاضطراب والفشل ، وحلت بها الخسائر الجسيمة .

وتقدم فريق من جنود الألاى الثامن عشر من مكانهم (نمرة ١٨) ، واقتربوا من فرسان الترك المحتشدين أمام قلب الجيش العثمانى ، وهاجموهم (بالموقع نمرة ٢٥) وقت إحاطة جنود الحرس والألاى الثامن بميسرة الترك .

فتحرج مركز الفرسان العثمانيين أمام هذا الهجوم الهائل ، وخاصة بعد أن احتل المصريون المرتفعات المشرفة على مواقعهم ، فلم يقاوموا طويلا ، وسارعوا إلى الارتداد شمالا نحو بيلان من غير نظام ، وتفرق شملهم وتبددت جموعهم .

ولما ارتدت ميسرة الترك ووصل المصريون فى تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه تحرج مركز قلب الجيش العثمانى ، إذ رأى ما حل بالميسرة ، وأدرك أن خط الرجعة إلى بيلان أصبح مقطوعًا بوصول المصريين إلى الطريق ، فلم تثبت جموعه أمام هجمة المصريين ولاذوا بالفرار وتخلوا عن موقعهم وتشتتوا فى الجبال .

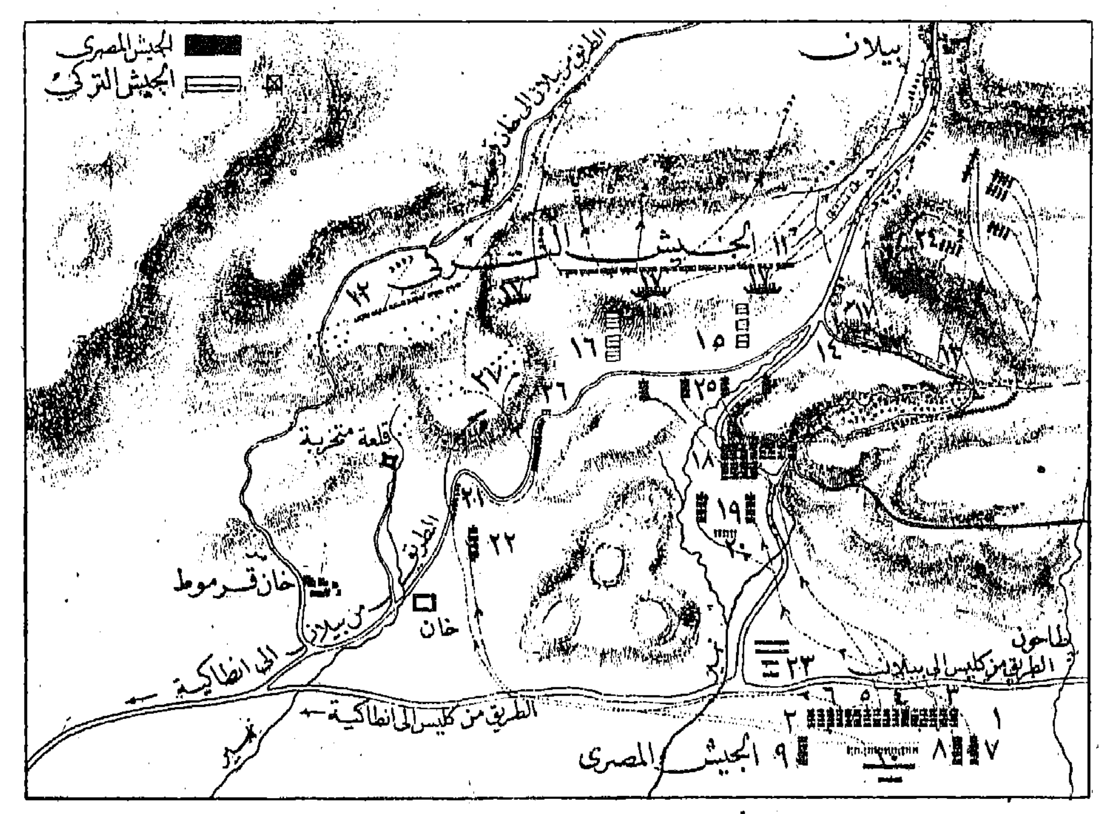
وأصاب الجناح الأيمن مثل ما أصاب القلب ، فقد تقدم المصريون من جنود الألاى الثالث عشر لمهاجمته ، ووصل رماتهم ومعهم المدافع إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة (نمرة ٢٧) ، على أن الترك لم يصمدوا للقتال بعدما علموا بما أصاب الميسرة ، وتخلوا عن مواقعهم وتقهقروا فى الجبال .

تخلى الترك إذن عن مواقعهم على طول الخط ، فاحتلها المصريون ، وبذلك انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركى بعد قتال دام ثلاث ساعات فقد فيه الترك من رجالهم نحو ٢٥٠٠ من قتيل وجريح ، وأسر منهم المصريون ٢٠٠٠ أسير وغنموا ٢٥ مدفعا وكثيرًا من الذخائر .

وبعد انتهاء الواقعة احتل المصريون بيلان تخفق على صفوفهم أعلام النصر والظفر .

أما الترك فقد فرت فلولهم إلى الإسكندرونة لتلجأ إلى العمارة التركية ، ولكنهم لم يدركوا العمارة لأنها أقلعت من الميناء بعد هزيمة بيلان ، فسار المصريون فى أعقابهم وأسروا الكثيرين منهم واحتلوا الإسكندرونة ، ثم تقدم فرسانهم وساروا حذاء الساحل واحتلوا (بياس) شمالى الاسكندرونة وأسروا فيها ١٩٠٠ مقاتل من الجيش التركى ، وسلمت أيضا (أنطاكية) و (اللاذقية) و (السويدية) .

كانت نكبة الجيش التركى فى هذه الواقعة نكبة ساحقة ، واختفى قائده العام على وجهه



خريطة واقعة بيلان (٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية

متنكرا خوفًا من الفضيحة ، ونجاةً بنفسه من القصاص الذى هو لابد ملاقيه إذا عاد إلى الاستانة وفى تبعته هذه الهزيمة .

موقع الجيش المصرى

١ – ٢ موقع الجيش المصرى قبل الواقعة على سفح مضيق بيلان ، غربى الطريق الذاهب من كليس إلى إنطاكية ، وقد اصطفت قواته بالترتيب الآتى :

٣ ألاى الحرس .

٤ الألاى الثامن من المشاة .

٥ الألاى الثامن عشر من المشاة .

٦ الألاى الثالث عشر من المشاة .

٧ الألاى الثانى من الفرسان .

٨ الألاى الرابع من الفرسان .

٩ الألاى الخامس من الفرسان .

١٠ المدافع ويليها مهمات الجيش وأمتعته تحرسها كتيبة من العرب المصريين .

موقع الجيش التركى (١١ – ١٢ – ١٣ – ١٤)

١١ – ١٢ المشاة الترك منتشرون فوق هضبة على خط منكسر ، تصل يسراه إلى طريق أنطاكية – بيلان ، ويمناه إلى أكمة تفضى إلى طريق جبلى يصل من خان قرموط إلى بيلان ، ومن هذا الخط يتألف الجناح الأيمن وقلب الجيش التركى .

١٣ – ١٤ الجناح الأيسر.

١٥ – ١٦ الفرسان الترك .

١٧ المدافع منصوبة أمام المشاة .

حركات الجيش المصرى قبيل بدء القتال

وقبل ابتداء الواقعة اتخذ إبراهيم باشا المواقع الآتية للجيش المصرى :

١٨ تحركت جنود الحرس والألاى الثامن من المشاة من مواقعها الأولى (نمرة ٣ و ٤) ووصلت إلى الموقع ١٨ وراء الأكمة .

١٩ اجتمعت كتائب من الفرسان ببطن الوادى غربى الطريق الذاهب إلى بيلان بالموقع نمرة ١٩ .

٢٠ المدفعية الاحتياطية وراء الفرسان ، الألاى الثامن عشر (نمرة ٥) يتبع الألاى الثامن والحرس .

٢١ الألاى الثالث عشر من المشاة (نمرة ٦) يتجه نحو الطريق الذاهب من انطاكية إلى بيلان ويحتل الموقع نمرة ٢١ على الطريق .

٢٢ الألاى الخامس من الفرسان (نمرة ٩) يتبع الألاى الثالث عشر ويحتشد خلف الموقع (٢١) ليكون له بمثابة الاحتياطى فى هجومه على ميمنة الترك . بطارية من المدافع تتبع الألاى الثالث عشر إلى الموقع ٢١ .

٢٣ نقلت مهمات الجيش إلى الموقع ٢٣ تحميها فصيلتان من العرب .

حركات القتال

زحف جنود الحرس والألاى الثامن من الموقع نمرة ١٨ إلى منبع نهر صغير للإحاطة بميسرة الترك ١٣ – ١٤ ، وهاجموا الميسرة من الأمام ومن الجنب واستولى الرماة المصريون على المدافع التركية المنصوبة على الأكمة ١٧ ، ووصل المصريون إلى المرتفعات نمرة ٢٤ ، وتحت تأثير الهجوم ارتدت ميسرة الترك بغير نظام إلى بيلان ، وكانت فى انسحابها هدفاً لنيران المصريين ، فحلت بها الخسائر الجسيمة .

وترى على الخريطة تقدم الألاى الثامن عشر وفريق من الألاى الثامن من الموقع ١٨ إلى الموقع ٢٥ لمهاجمة قلب الجيش التركى مع فرسانه وقت إحاطة جنود الحرس والألاى الثامن بميسرتهم ، وانسحاب الفرسان الترك من الموقع ١٥ و ١٦ وتشتت شملهم ، ثم ارتداد قلب الجيش التركى بغير نظام وتشتته فى الجبال .

وترى زحف الألاى الثالث عشر من المشاه على ميمنة الترك ، فقد تحرك ومعه عدد من المدافع إلى الموقع ٢٦ ، ووصل الرماة إلى الأكمة ٢٧ تمهيدا لزحف بقية الجند ، ولكن الترك لم يصمدوا للقتال بعد ما علموا بما حل بالميسرة ، فتقهقروا فى الجبال وتخلوا عن معاقلهم كما تخلى بقية الترك عن مواقعهم على طول الخط وبذلك انتهت الواقعة .

زحف الجيش المصرى فى الأناضول

اجتاز المصريون بعد واقعة (بيلان) حدود سوريه الشمالية ، ودخلوا ولاية (ادنه) من بلاد الأناضول ، وعبروا نهرى (جيحون) و (سيحون) واحتلوا (ادنه) وطرسوس ، وأخذ ابراهيم باشا يوطد مركزه وينظم الولايات التى فتحها قبل أن يزحف بجيشه إلى الأمام ، واحتشد معظم الجيش فى مدينة (ادنه) إذ كانت مفتاح الزحف على الاناضول وكانت أيضاً صلة المواصلات بطريق البحر بين مصر والجيش المصرى ، وأنفذ ابراهيم باشا كتائب من جنده فاحتلوا (أورفا) وعينتاب ومرعش وقيصرية .

لم تنكسر عزيمة السلطان محمود أمام الهزائم التى حاقت بجيشه ، وأعد جيشاً جديداً عهد

بقيادته إلى الصدر الأعظم محمد رشيد باشا[١٦] ، كان هذا الجيش مؤلفًا من ٥٣ ألف مقاتل[١٧] ، هم خليط من أجناس السلطنة العثمانية لا تربطهم رابطة ولا تجمعهم غاية ، فلا غرور أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية وخاصة إذا كان الجيش الذى يقاتله قويًّا بوحدته متماسك الصفوف معتزًّا بقيادته .

كان رشيد باشا من خيرة قواد تركيا ، لكنه دون إبراهيم باشا فى الكفاية والمران ، وقد اشترك معه من قبل فى حروب (الموره) وخاصة أمام مدينة (ميسولونجى) ، ومن تهكم الأقدار أن هذين القائدين اللذين اشتركا معًا فى ميدان القتال زمناً ما وكانا يدافعان عن غاية واحدة ، صارا عدوين لدودين يعمل كل منهما ليسحق الآخر .

احتشد الجيش التركى فى الاستانة ، وعرضه السلطان محمود بنفسه ليبث فى قلوب رجاله روح الشجاعة والإقدام ، وزوده ببعض الألايات المشاة النظاميين وعدد وافر من المدافع .

ثم تقدم رشيد باشا بهذا الجيش العرمرم فى بطاح الأناضول ، ليلتقى بالجيش المصرى ، وكان إبراهيم باشا يواصل زحفه فى الأناضول ، فأنفذ قوة من الجند احتلت مضيق (كولك) من مضايق جبال طوروس ، وأقصت عنه الترك ، وباحتلال هذا المضيق ذللت عقبة من أكبر العقبات التى تعترض الجيش المصرى فى زحفه على الأناضول ، ثم اعترضتهم عقبة أخرى وهى واد منيع يلى المضيق كان الترك ممتنعين فيه بالقرب من مدينة (شفت خان) فأنفذ إبراهيم باشا قوة أخرى من الجند بقيادة سليم بك الحجازى وإبراهيم أغا الجوخدار[١٨] فهاجموا الترك فى الوادى ونشبت معركة انتهت بانسحاب الترك بعد أن فقدوا ٢٠٠ قتيل وثلثمائة أسير ، وكذلك أمتنع الترك فى (أولو قشلاق) وهاجمهم فيها المصريون وأجلوهم عنها ، وبعد هزيمة الترك فى أولو قشلاق جلوا أيضا عن هرقلة (أركلى) فانفتح الطريق أمام الجيش المصرى ومضى فى زحفه حتى بلغ (قونيه) التى أخلاها الأتراك من غير قتال ، فاتخذها إبراهيم باشا قاعدة عسكرية وأخذ يتأهب لملاقاة الجيش التركى ويدرب جنوده على التمرينات فى المواقع التى توقع نشوب القتال فيها ، فكان ذلك دليلا على نفاذ بصيرته وبعد نظره وبراعته فى القيادة ، ولئن كان

---

(١٦) هو غير مصطفى رشيد باشا الصدر الأعظم فى عهد السلطان عبد المجيد وصاحب الإصلاحات المشهورة .

(١٧) إحصاء كادلفين ص ٢٩٥ .

(١٨) كادلفين وبارو ص ٢٤٤ .

جيشه أقل عددًا من الجيش التركى إذ بلغ نحو ألف مقاتل[١٩] منهم ألف من العرب (البدو) المصريين إلا أنه يمتاز بحسن النظام وكفاية القيادة والمران على القتال فى المعارك العديدة التى خاض غمارها ، ولا غرو أن بعثت الانتصارات التى أحرزها فى نفوس الجنود روح الأمل والثقة ، فكانت هذه الروح من أقوى أسباب النصر والظفر.

واقعة قونيه
(٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢)

فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ وصلت طلائع الجيش التركى بقيادة رءوف باشا إلى شمالى (قونيه) وكانت مؤلفة فى الغالب من الجنود غير النظامية ، فناوشهم إبراهيم باشا ليتحقق مبلغ قوتهم ، ولما آنس منهم ضعفًا أراد أن يكرههم على القتال ، لكن رءوف باشا تجنب الدخول فى معركة ، فانقضى يوما ١٨ و ١٩ ديسمبر فى مناوشات حربية استولى فيها المصريون على كثير من الأسرى وغنموا فيها بعض المدافع .

وفى صبيحة يوم ٢٠ ديسمبر تقدمت جيوش رشيد باشا إلى قونيه ، وأخذ كل من القائدين يرتب مواقع جنوده .

وفى اليوم التالى ، يوم الواقعة ، كان الضباب يخيّم على ميدان القتال من الصباح فحال دون اكتشاف كل من القائدين موقع الجيش الآخر ، على أن إبراهيم باشا كان يمتاز على رشيد باشا بأنه درس الجهة التى دار فيها القتال دراسة دقيقة ، ومرن جنوده على المناورات فيها قبل اشتباك الجيش .

وقد رابط الجيش المصرى شمالى (قونيه) ، وعلى مقربة من ميمنته شمالا بشرق مستنقعات من المياه ، وعلى مسيرة فرسخ من ميسرته تقع مدينة سيله ، وأمامه الجبال ، وعلى سفحها يرابط الجيش التركى الذى كان الضباب يحجبه عن أنظار المصريين .

وكان البرد قارسًا ، ولا غرو فالمعركة وقعت فى شهر ديسمبر فى أشد أيام الشتاء ، فنزلت درجة البرد يوم الواقعة إلى ١١ فوق الصفر .

واصطف الجيشان فى مواقعها ، يفصل بينهما نحو ثلاثة آلاف متر ، ومرت لحظة خفت فيها وطأة الضباب قليلا ، فأمكن إبراهيم باشا أن يلمح موقع الجيش التركى ، وقد رتب خطة

(١٩) إحصاء ماجان ج ٣ ص ٥١ وابكاريوس ص ٧٨

الهجوم ترتيبًا محكمًا ، فرأى أن الهجوم على ميمنة الترك أمر لا تحمد عواقبه ، لأنها مرابطة على سفح الجبل فى مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التى كانت تستند إلى مستنقعات مكشوفة .

وقبل أن يبدأ إبراهيم باشا بالهجوم تقدمت صفوف الترك حتى صارت على بعد نحو ستمائة متر من مواقع المصريين ، وأخذت المدافع التركية تطلق القنابل عليهم ، فلم يجب المصريون على الضرب بضرب مثله ، إلى أن تعرف إبراهيم باشا على صوت الضرب مواقع الترك ، وتقدم الصف الثانى من المصريين حتى اقترب من الصف الأول تفاديًا من فتك القنابل التركية التى كانت تنصب عليه .

واتجه إبراهيم باشا إلى بئر (نمرة ٢٣ على الخريطة ص ٢٤٧) تقع على يمين الصف الثانى من الجيش المصرى ليزداد علمًا بمواقع الترك ، وكان يصحبه من خاصة أركان حربه مصطفى مختار بك[٢٠] وكانى بك ، وأحمد أفندى[٢١] ، ومعه قوة من ألف وخمسمائة من العرب .

وهناك لمح مواقع الترك ، وعرف بثاقب نظره نقطة الضعف التى يصيب منها الهدف ، ذلك أن قوة الفرسان كانت تؤلف ميسرة الجيش التركى ، وقد أخطأت القيادة التركية فى أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة أثناء التقدم ، فحدثت بينهما ثغرة يبلغ طولها نحو ألف خطوة جعلت الميسرة فى شبه عزلة عن بقية الجيش (كما تراه على الخريطة) .

فانتهز إبراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الدخول بقوات الحرس والفرسان فى هذه الثغرة ليخترق صفوف الترك ، وبادر فعلا فأصدر تعليماته لتحرك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان واجتازت البئر بقليل ، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجومًا شديدًا ، وشدت المدفعية أزرها ، فصبت قنابلها على الترك وأخذتهم من الجنب ، وكان الهجوم شديداً ، والضرب محكمًا ، فتقلقل الترك من مراكزهم لشدة الهجوم وتقهقروا شمالا من غير نظام فى المستنقعات ، وبذلك انهزمت ميسرة الجيش التركى .

ثم تابع المصريون تقدمهم وتوسطوا ميدان المعركة حيث واجهوا الصف الثالث من مشاة الترك الذين اقتحموا الميدان ووصلوا إلى تلك الناحية (نمرة ١٧) فأصلتهم المدافع نارا حامية ،

---

(٢٠) من خريجى البعثات المصرية وقد درس الفنون الحربية بفرنسا ، وهو الذى تولى فيما بعد رياسة ديوان المدارس أى وزارة المعارف العمومية .

(٢١) من خريجى البعثات أيضا .

وأحاط بهم المصريون وضربوهم ضربًا شديدًا وأوقعوا بهم حتى سلموا سلاحهم .

ولما أدرك الصدر الأعظم أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل أراد أن يلم شعثها ويبث الحمية فى نفوس رجاله ، فنزل إلى حيث مواقع الجند ، لكنه لم يفز بطائل ، وضل الطريق لكثرة تكاثف الضباب ، وبينما هو يسير على غير هدى وقع فى أيدى العرب المصريين ، فأحاطوا به وجردوه من سلاحه ، واقتادوه أسيرًا إلى إبراهيم باشا ، وكان قد مضى على نشوب القتال نحو الساعتين .

وتابع المصريون من المشاة والفرسان تقدمهم شمالا ، واستأنفوا معهم بعض المدافع ، وهاجموا الصف الرابع من مشاة الترك ، فحاقت به الهزيمة وسلم وتمزق شمله ، وبذلك تم للجيش المصرى الفوز على ميسرة الترك والصف الثالث والرابع من مشاتهم .

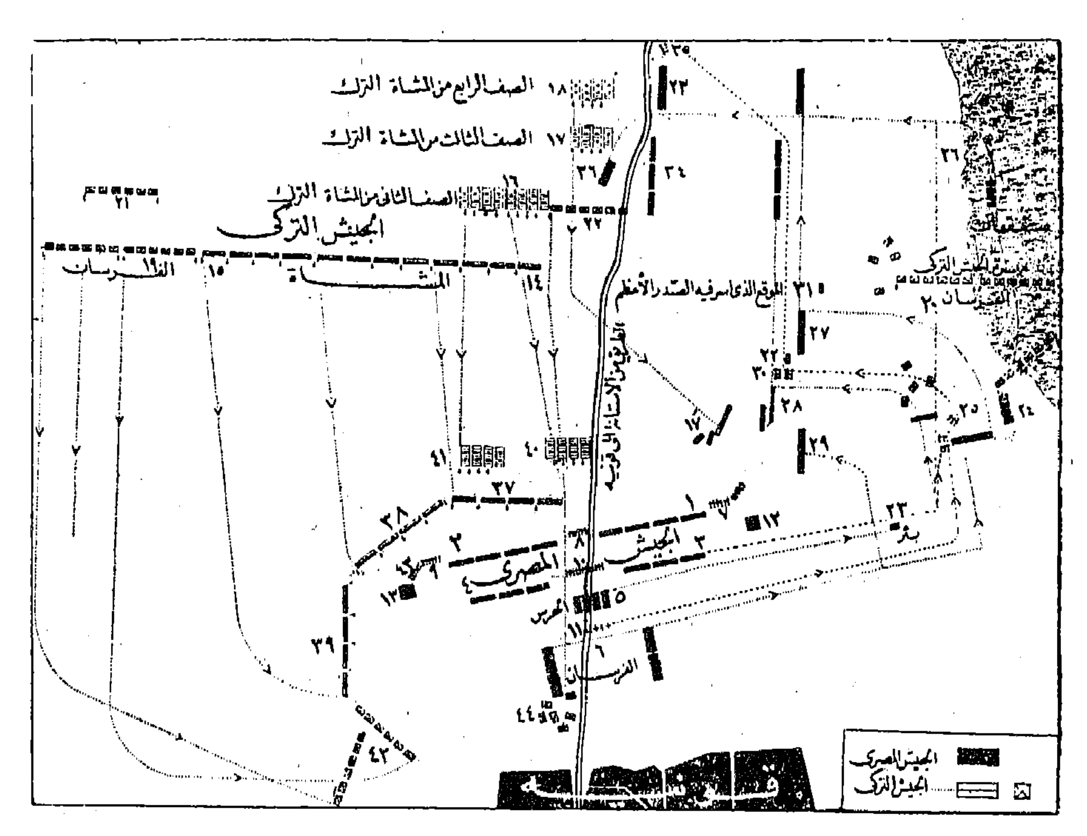
وبينما كانت قوات الحرس والفرسان تقوم بهذه الحركات والهجمات الموفقة تقدم الصف الأول من صفوف الأعداء نحو ميسرة الجيش المصرى واتخذوا مواقعهم حولها فى خط منكسر بقصد الإحاطة بها ، واشترك فى هذه الحركة الصف الثانى من صفوفهم ، وعاونهم فرسانهم ، فكانت الهجمة هائلة ، عنيفة فى شدتها ، خطيرة فى عواقبها ، ولكن ميسرة الجيش المصرى تلقتها بثبات وشجاعة وتحركت مدافع الاحتياطى فشدت أزر المدفعية التى تحمى الميسرة ، وصبت المدافع المصرية قنابلها على صفوف الترك ، فحصدت صفوفهم حصدًا ، واستبسلت الميسرة فى الضرب والقتال ، وكان على دفاعها يتوقف مصير المعركة ، واستمرت الملحمة ثلاثة أرباع ساعة ، ثم أسفرت عن كسر هجمة الترك وهزيمتهم وتشتيت شملهم فى الجبال .

وكأنما أراد الترك أن يبذلوا آخر جهد فى المعركة ، فتحركت قوة من الفرسان ووصلت تجاه الصف الأول من الجيش المصرى ، فلم يحفل بها المصريون لأنها كانت سائرة نحو الفشل المحقق ، فمازالت تتقدم حتى وصلت إلى ما وراء صفوف الجيش المصرى ، وهناك تشتت شملها وولت الأدبار .

انتهت الواقعة بهزيمة الجيش التركى ، ودام القتال فيها سبع ساعات ، إذ بدأت فى الظهر وانتهت بعد غروب الشمس بساعتين ، ولم تزد خسارة المصريين عن ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحًا ، أما الجيش التركى فقد أسر قائده ونحو خمسة آلاف إلى ستة آلاف من رجاله ، من بينهم عدد كبير من الضباط والقواد ، وقتل من جنوده نحو ثلاثة آلاف ، وغنم المصريون منه نحو ٤٦ مدفعًا وعددًا كثيرًا من الرايات .

فلا غرو كانت معركة قونيه نصرًا مبينًا للجيش المصرى ، وصفحة فخار فى تاريخ مصر الحربى .

ولقد كانت من المعارك الفاصلة فى حروب مصر ، لأنها فتحت أمام الجيش طريق الاستانة ، إذ أصبح على مسيرة ستة أيام من البوسفور ، وكانت الطريق مخلاة لا يعترضه فيها جيش ولا معقل ، فلا جرم أن ارتعدت فرائض السلطان محمود بعد هذه الواقعة إذ رأى قوائم عرشه تتزلزل أمام ضربات الجيش المصرى وانتصاراته المتوالية .



خريطة واقعة قونيه (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) وفيها البيانات الآتية

مواقع المصريين

١ – ٢	الصف الأول من صفوف الجيش المصرى يقوده سليم بك المناسترلى .
٣ – ٤	الصف الثانى بقيادة سليمان بك (باشا) الفرنساوى على بعد ثلثمائة خطوة فقط من الخط الأول ، وقد اقترب منه إلى هذا الحد بسبب تكاثف الضباب صبيحة يوم الواقعة وتساقط قنابل الترك عليه .
٥	جنود الحرس يقودهم سليم بك الحجازى [٢٢] ويتألف منهم الصف الثالث .
٦	الفرسان يقودهم أحمد بك (باشا) المنكلى وأحمد بك الاستانبولى .
٧و٨و٩	المدافع وقد نصبت فى الميمنة والقلب والميسرة بقيادة سليم بك قائد الطوبجية .
١٠	بطاريتان من مدافع الاحتياطى .
١١	بطارية من مدافع الاحتياطى مع الحرس .
١٢ و ١٣	أورطتان فى هيئة مربعين لحماية الجناحين .

مواقع الترك

١٤ – ١٥	الصف الأول من المشاة .
١٦	الصف الثانى من المشاة .
١٧	الصف الثالث من المشاة .
١٨	الصف الرابع من المشاة .
١٩	ألايان من الفرسان على يمين الصف الأول من المشاة .
٢٠	ألايان من الفرسان على يسار الصف الأول من المشاة .
٢١	ألاى من الفرسان خلف ١٩ .
٢٢	ألاى من الفرسان عن يسار الصف الثانى من المشاة .

(٢٢) ذكره كادلفين وبارو باسم سليم بك فقط ، ولكن ابكاريوس بك ذكره فى كتابه (المناقب الابراهيمية) ص ٧٦ يلقبه بالحجازى .

،/، مدافع الترك موزعة أمام صفوف المشاة والفرسان .

٢٣ موقع البئر التى اتجه إليها إبراهيم باشا ليستطلع مواقع الترك .

٢٤ الموقع الذى وصل إليه الفرسان المصريون لمهاجمة الجناح الأيسر للجيش التركى بمعاونة جنود الحرس .

٢٥ الموقع الذى وصلت إليه المدافع المصرية لشد أزر هذه الهجمة .

٢٦ النقطة التى أرتد إليها الجناح الأيسر للجيش التركى فى المستنقعات بعد هزيمته أمام هجمة الفرسان المصريين .

٢٧و٢٨و٢٩ المواقع التى وصل إليها المصريون من الفرسان والحرس فى تقدمهم وأحاطوا بالصف الثالث من المشاة الترك نمرة ١٧ الذى زحف من موقعة الأصلى إلى حيث سلم سلاحه فى الموقع نمرة ١٧ .

٣٠ الموقع الذى تقدمت إليه المدافع المصرية الآتية من ٢٦ لتشترك فى الحركة السابقة .

٣١ المكان الذى أسر فيه الصدر الأعظم محمد رشيد باشا قائد الجيش التركى .

٣٢ المكان الذى كان به ابراهيم باشا حينما وقع الصدر الأعظم أسيرا .

٣٣ و ٣٤ المواقع التى وصل إليها المصريون فى تقدمهم شمالا .

٣٥ الموقع الذى تقدمت إليه المدافع المصرية آتية من الموقع ٣٠ .

٣٦ الموقع الذى هزم فيه الألاى التركى نمرة ١٨ أمام هجوم المصريين .

٣٧و٣٨و٣٩ المواقع التى تقدم إليها الصف الأول من مشاة الترك نمرة ١٤ — ١٥ للإحاطة بميسرة الجيش المصرى .

٤٠ و ٤١ المواقع التى تقدم إليها الصف الثانى من مشاة الترك نمرة ١٦ للاشتراك فى الحركة السابقة .

٤٢ المواقع التى تقدم إليها الفرسان الترك نمرة ١٩ و ٢١ للاشتراك فى الحركة السابقة .

٤٣ انتقال المدفعية المصرية من الموقع ١٠ وانضمامها إلى مدافع الجناح الأيسر حيث اشتركت فى كسر هجمة الترك وتشتيت شملهم .

٤٤ المواقع التى تقدم إليها الفرسان الترك نمرة ٢٢ حيث تشتت شملهم .

حركات الأسطول المصرى

كان للأسطول المصرى فضل كبير فى معاونة الجيش خلال الحرب السورية من مبدئها إلى منتهاها ، فإن هذه الحرب لم تقتصر على البر . بل تعدته إلى البحر ، وإنا ذاكرون هنا ما قام به الأسطول من الأعمال الجليلة التى ساعدت الجيش على بلوغ النصر.

اشترك قسم من الأسطول فى حصار عكا كما قدمنا ، فقد أصدر إبراهيم باشا تعليماته إلى سر عسكر الدونمة المصرية الأميرال عثمان نور الدين بك بضرب قلاع عكا من البحر فتقدم الأسطول (ديسمبر سنة ١٨٣١) واصطفت سفنه أمام حصون المدينة ، وأخذت تضربها بالمدافع .

كان عدد هذه السفن تسع بوارج تقل ٣٨١٠ من البحارة ، وسلاحها ٤٨٤ مدفعًا ، وهذه أسماؤها كما ذكرها إسماعيل باشا سرهنك[٢٣] ، وهى : الفرقاطة (كفر الشيخ) وعليها القومندان برسيك الإنجليزى ، والفرقاطة (الجعفرية) وقومندانها برغمه لى أحمد قبودان وعليها علم الأميرال الأول قائد الأسطول ، والفرقاطة (البحيرة) وقومندانها عبد اللطيف قبودان (الذى صار باشا وتولى نظارة البحيرة فيما بعد) وتحمل علم الأميرال الثانى مصطفى مطوش باشا ، والفرقاطة (رشيد) وعليها السيد على قبودان ، والفرقاطة (شير جهاد) وعليها نورى قبودان والفرقاطة (دمياط) وعليها هدايت محمد قبودان ، والفرقاطة (بمفتاح جهاد) وعليها مصطفى قبودان الجزائرى ، والسفينة (بومبه) وعليها بيجان قبودان ، والسفينة (رهبر جهاد) وعليها على رشيد قبودان .

أخذت هذه البوارج تطلق مدافعها على حصون عكا طول النهار ، ولكنها لم تصبها بضرر يذكر لمتانتها ، ثم رست مع باقى سفن الأسطول التى لم تشترك فى الضرب ، وأصيبت بعض السفن المصرية بأضرار اضطرتها إلى العودة للإسكندرية .

وكان للأسطول المصرى جولات مهمة على ظهر البحار خلال الحرب ، فقد تلقى محمد على باشا من إحدى سفن العمارة المصرية فى شهر يونيه سنة ١٨٣٢ نبأ خروج الأسطول التركى من الدردنيل بقيادة الأميرال خليل باشا رفعت ليشترك فى القتال ، وكان مؤلفًا من خمس

(٢٣) فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ج ٢ ص ٢٤٥ .

وثلاثين سفينة حربية ، فأصدر تعليماته إلى العمارة المصرية بالإقلاع إلى بحر الأرخبيل لتبحث عن الأسطول العثمانى وتقاتله ، فسارت إلى مياه رودس وكان الأسطول العثمانى قد اتجه فى ذلك الحين إلى ثغر الإسكندرية لإمداد الجيش التركى بالرجال والمؤونة والعتاد .

فلما وصل إلى الإسكندرية كانت الهزيمة قد حلت بالجيش التركى فى حمص ، ثم وقعت هزيمة (بيلان) ، فعاد أدراجه وأقلعت سفنه إلى جزيرة رودس تاركة كميات كبيرة من المؤونة لم يستطع الترك حملها لما كانوا فيه من العجلة .

أما العمارة المصرية فكانت مؤلفة من سبع وعشرين سفينة حربية معقودًا لواؤها للأميرال عثمان نور الدين باشا ، فسارت تمخر العباب باحثة عن الأسطول العثمانى ، واجتمع الأسطولان بعد واقعة (بيلان) فى مياه قبرص ، ومع أن الأسطول التركى كان أكثر عددا وعُددًا من العمارة المصرية فإن قبودانه تجنب الاشتباك فى قتال مع الأسطول المصرى ، وخشى أن يلحقه البوار إذا اصطدم به ، فآثر أن يلزم خطة الدفاع ، وأخذ الأميرال عثمان نور الدين باشا من ناحيته يرقب حركات الأسطول العثمانى ، دون أن يسعى لمهاجمته ، وبقى الأسطولان طويلا فى هذا الموقف ، إلى أن سار أميرال الأسطول التركى إلى ميناء (مرمريس) من ثغور الأناضول ليأوى إليها ، فتعقبته العمارة المصرية ، وحاصرت الميناء ، ولكن هياج البحر واشتداد الأنواء فى ذلك الفصل من الشتاء حالا دون استمرار الحصار ، فاتجه نور الدين باشا بالعمارة المصرية إلى خليج السودة بجزيرة كريت ، وبعد أن بقى الأسطول التركى فى ثغر مرمريس عشرين يومًا أقلع إلى مياه الدردنيل ثم رجعت العمارة المصرية إلى الإسكندرية .

وقد كان للأسطول المصرى عامة فضل كبير فى تسهيل المواصلات البحرية بين مصر وسورية ، ولولاه لما وجدت مصر من سبيل إلى إمداد جيشها إلا بطريق البر المحفوف بالمتاعب والأخطار ، ولتعذر عليها الاتصال به وبالبلاد التى فتحتها ، فللأسطول المصرى فضل كبير فى نجاح الحملة على سورية .

المسألة المصرية وتدخل الدول

استرعت انتصارات الجيش المصرى أنظار الدول الأوروبية ، وفتحت باب المسألة المصرية على مصراعيه .

إن للمسألة السياسية العالمية المعروفة بالمسألة المصرية بدأت تظهر — فى تاريخ مصر الحديث

منذ الحملة الفرنسية ، فمن ذلك العهد اتجهت المطامع السياسية الدولية إلى مصر ، وتعددت المنازع فى شأن مصيرها ، فالحملة الفرنسية أول مثار للمسألة المصرية إذ أنها كانت صراعا بين فرنسا وانجلترا على فتح مصر واستعمارها ، أما قبل ذلك فإن التنافس بشأنها كان فى الغالب تنافسا اقتصاديا ، فلما جرَّ نابليون حملته على مصر تحول إلى صراع سياسى ، وأخذت مطامع انجلترا تتجه نحو فتح مصر والسيطرة السياسية عليها ، ولقد رأيتَ مما فصلناه فى الجزأين الأول والثانى من « تاريخ الحركة القومية » إن الصراع بين فرنسا وانجلترا بشأن المسألة المصرية استمر طوال الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، وإن انجلترا لم تكن تحارب فرنسا لإجلائها عن مصر فحسب ، بل لتحل فيها محلها ولكى تحقق مطامعها السياسية والاستعمارية فى وادى النيل [٢٤] .

واستمرت المسألة المصرية مثارا للمطامع الإنجليزية منذ أسس محمد على الدولة المصرية الحديثة ، فلما اشتبكت مصر وتركيا فى الحرب السورية اقترنت المسألة المصرية بالمسألة الشرقية ، فاشتدت المنازعات الدولية بشأنها وانبعثت المطامع القديمة التى كانت تسعى لها كل دولة حيال السلطنة العثمانية .

فالروسيا نظرت بعين الخوف والوجل إلى تقدم الجيش المصرى واقترابه عن عاصمة تركيا ، وخشيت إذا أطرد هذا التقدم أن يستولى محمد على باشا على عرش السلطنة ويمد نفوذ الدولة المصرية إلى ضفاف البوسفور والدردنيل والبحر الأسود فيؤسس دولة قوية تقوم على أنقاض السلطنة العثمانية المتداعية الأركان المختلة النظام ، وليس مما يوافق سياسة الروسيا أن يقع هذا الانقلاب لأنه يحول دون تحقيق أطماعها فى الوصول إلى البواغيز والبحر الأبيض المتوسط ، فبادرت إلى التدخل لمعاونة تركيا ، وأوفدت الجنرال مورافييف Mourawief إلى السلطان محمود ليعرض عليه استعدادها للدفاع بقواتها البرية والبحرية عن السلطنة العثمانية ، ومعنى هذا الدفاع من الروسيا بسط حمايتها الفعلية على تركيا ، فهال فرنسا وانجلترا أمر هذا التدخل وخشيتا على سياستها ومصالحها أن تستهدف للخطر إذا بسطت الروسيا حمايتها أو نفوذها فى تركيا ، واتقاء لهذا الخطر بذلتا جهودهما لوقف تقدم الجيش المصرى حتى لا تجد الروسيا مسوغا لحماية تركيا ، ففرنسا وانجلترا لم تقصدا من تدخلها فى المسألة المصرية والمسألة الشرقية مصلحة مصر ولا مصلحة تركيا ، بل كانتا تعملان لتحقيق أغراضها الذاتية .

(٢٤) انظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ٦٣ والجزء الثانى ص ٢١٨ و ٤٣٤ (الطبعة الأولى) .

واستخدمت فرنسا علاقاتها الودية مع مصر لإقناع محمد علي بتسوية الخلاف بينه وبين السلطان ، وأوفدت إلى الاستانة الأميرال روسان Roussin سفيرا لها ليسعى فى فض الخلاف بين تركيا ومصر ويمنع التدخل الروسى .

وبذلك صارت مصر قبلة أنظار الدول الأوروبية ، إذ كان مناط آمالهن إقناع محمد على باشا بتسوية الخلاف مع تركيا حتى لا يؤدى تدخل الروسيا إلى أزمة أوروبية قد تنتهى بتحكيم السيف بينهن .

فعلى خطة مصر فى ذلك الحين كان يتوقف التوازن الأوروبى ، من أجل ذلك وفدت رسل التفاهم على محمد على باشا من كل صوب .

فجاء الجنرال مورافييف إلى الإسكندرية ، وقابله وعرض عليه الوساطة بينه وبين السلطان ، فأكرم محمد على وفادته وأحسن لقاءه ، ولكنه تمسك بوجهة نظره .

وكذلك أرسل السلطان بإيعاز من السفارة الفرنسية مندوبًا عنه وهو خليل باشا ليفاوض محمد على فى حسم الخلاف وديًا ، وأرسل الأميرال روسان إلى محمد على يطلب إليه ألا يشتط فى طلباته حقنًا للدماء ، وأن يكتفى من فتوحه بولايات صيدا (عكا) وطرابلس والقدس ونابلس .

فرفض هذه الشروط وأصر على ضم سورية وولاية أدنه إلى مصر ، وقد أصر على الاحتفاظ بإقليم أدنه وهو من صميم الأناضول لما اشتهر عنه من كثرة مناجمه ووفرة أخشابه ، ولأنه ينتهى بجبال طوروس التى أراد محمد على جعلها الحد الفاصل بين مصر وتركيا ، أما تركيا فقد ازدادت خضوعًا للروسيا ورضيت أن تحميها بقواتها البحرية والبرية ، فجاء أسطول روسى ورسا فى مياه البوسفور ، ونزلت قوة من الجنود الروس إلى الشواطىء التركية الأسيوية لتدفع غزوة الجيش المصرى .

وقد رأى محمد على باشا أن الدول إنما تسعى إلى هضم حقوق مصر إرضاء لتركيا ، فوقف تجاهها موقفًا مشرفًا استمسك فيه بحقوق مصر ، وبعث فى هذا الصدد برسائل عدة تدل على قوة يقينه ومضاء عزيمته ، وأهمها الخطاب الذى أرسله إلى الأميرال روسان سفير فرنسا فى الاستانة بتاريخ ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ردًا على رسالته إليه ، قال فيه :

« تلقيت رسالتكم المؤرخة ٢٢ فبراير التى تسلمتها من ياوركم والتى تعترضون فيها علىّ وتعلنوننى بأن لاحق لى فى المطالبة بما عدا بلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام ، وأن

الواجب عليّ أن أسحب جيشي فوراً ، وتنذروننى بأنى فى حالة الرفض أستهدف لأخطر العواقب ، وقد أضاف ياوركم شفويا بناء على تعليماتكم بأنى إذا بقيت متمسكًا بمطالبى فسيجىء الأسطول الإنجليزى والروسى إلى سواحل مصر.

« على أنى يا جناب السفير أتساءل بأى حق تطلبون منى هذه التضحية ؟ أن أمتى بأجمعها تؤيدنى فى موقفى ، وأن فى استطاعتى بكلمة منى أن أحرض شعوب الروملى والأناضول على الثورة فيلبوا ندائى ، ويمكننى بتأييد أمتى أن أفعل أكثر من ذلك ، لقد امتدت سيطرتى على أقطار عدة ، والنصر حليفى فى كل الميادين ، ومع أن الرأى العام يؤيدنى فى امتلاك سورية بأكملها فإنى قد وقفت زحف جنودى رغبة منى فى حقن الدماء ولكى يتسع الوقت أمامى لأتعرف ميول الدول الأوروبية ، ومقابل هذا الاعتدال وحسن النية وتلك التضحيات العديدة التى بذلتها أمتى ، والتى نلت الانتصارات الباهرة بفضلها وبفضل تأييدها لى ، تطلبون منى أن أتخلى عن البلاد التى فتحتها وأن أنسحب بجنودى إلى منطقة صغيرة تسمونها ولاية ! أليس فى هذا حكم عليّ بالإعدام السياسى ؟

« على أن لى ملء الثقة إلا تأبى فرنسا وانجلترا الاعتراف بحقوقى ومعاملتى بالإنصاف فإن ذلك مرتبط بشرفها ، وإذا خاب أملى فليس أمامى إلا أن أذعن لقضاء الله ، وهنالك أوثر الموت التشريف على احتمال الذل والعار ، وسأبذل نفسى بكل ابتهاج فداءاً لقضية أمتى ، مغتبطا بخدمة بلادى حتى آخر نسمة من حياتى ، ذلك ما صممت عزمى عليه ، وقد روى التاريخ أمثلة عديدة لمثل هذا الإخلاص ، ومهما يكن فإن لى وطيد الأمل فى أنكم ستقدرون عدالة مطالبى وتؤيدون اقتراحاتى الأخيرة التى قدمتها إلى خليل باشا ، وفى انتظار تحقيق هذا الأمل قد كتبت لكم هذا الخطاب الودى الذى تسلمه منى ياوركم يداً بيد » [٢٥]

الإسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٨٣٣ — محمد على
والى مصر

---

(٢٥) كادلفين وبارو ص ٣٧٥.

احتلال كوتاهية ومغنيسيا وإقامة الحكم المصرى فى أزمير

وفى غضون ذلك تقدم إبراهيم باشا بجيشه فاحتل (كوتاهية) وصار على مسافة خمسين فرسخا من الاستانة ، ثم أنفذ كتيبة من الجنود احتلت (مغنيسيا) بالقرب من أزمير (انظر الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، وأنفذ رسولا إلى أزمير ليقيم الحكم المصرى بها ، وقد وصل الرسول إليها ولم يلق بها مقاومة ، وعزل حاكم المدينة (طاهر بك) وأقام بدلا منه أحد أعيانها منصور زاده (فبراير سنة ١٨٣٣) ، ورحبت المدينة بهذا الانقلاب ، ولكن الأميرال روسان سفير فرنسا فى الاستانة تدخل فى الأمر حتى لا يستفحل النزاع وتتخذ الروسيا احتلال أزمير ذريعة إلى حماية تركيا ، فأرسل إلى إبراهيم باشا يعترض على ما فعله رسوله فى أزمير وينذره بقطع العلاقات ، فلم يسع إبراهيم باشا إلا الإجابة بأنه لا يقصد احتلال أزمير ، وبذلك انتهى الخلاف وعاد الحاكم القديم إلى منصبه (مارس سنة ١٨٣٣) .

اتفاق كوتاهيه
(أبريل – مايو سنة ١٨٣٣)

بذلت فرنسا جهدها لحسم الخلاف بين محمد على وتركيا، وجددت مسعاها بين الفريقين ، وكان ابراهيم باشا يتهدد تركيا بالزحف على الاستانة إذا لم تجب مطالبه ، فاضطر الباب العالى إلى الإذعان وأرسل إلى كوتاهية ، حيث كان إبراهيم باشا يقيم بها ، مندوبا عنه يدعى رشيد بك [٢٦] يصحبه البارون دى فارين سكرتير السفارة الفرنسية ليقوم بالوساطة بين الطرفين . وبعد مفاوضة دامت أربعة أيام تم الاتفاق على الصلح فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ ، وهو المعروف باتفاق كوتاهية ، ويقضى بأن يتخلى السلطان لمحمد على عن سورية وإقليم أدنه ، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز مقابل أن يجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول .

وقد صدرت «التوجيهات» السلطانية بمضمون هذا الصلح ، وأرسل الصدر الأعظم إلى محمد على وثيقة مكتوبة [٢٧] بفحوى هذه التوجيهات ، وفيها إسناد ولاية سوريه إليه وإلحاقها

---

(٢٦) هو الذى صار فيما بعد الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا صاحب الإصلاحات المشهورة فى عهد السلطان عبد المجيد .

(٢٧) منشورة صورتها الفوتوغرافية باللغة التركية فى كتاب (خلاصة الوثائق التركية فى مصر) للمسيو جان دينى Deny لوحة نمرة ٢٣ .

بولاية مصر وكريت .

ولكن هذه التوجيهات كان ينقصها إقليم ادنه ، فبان من ذلك أن الباب العالى أراد الرجوع عن اتفاق كوتاهية بالنسبة لهذا الإقليم ، وقد بقيت المسألة موضع خلاف بين الطرفين ووقف إبراهيم باشا جلاء الجيش حتى ينفذ الباب العالى ما تم الاتفاق عليه ، فلم يسع السلطان إلا أن يسلم بالتنازل عن ادنه ، وأصدر فرمانًا فى ٦ مايو سنة ١٨٣٣ بمضمون الاتفاق بتمامه ، أعلن فيه تثبيت محمد على باشا على مصر وكريت وإسناد ولايات سوريه إليه ، وتجديد ولاية إبراهيم باشا على جدة مع مشيخة الحرم المكى ، أى إسناد إدارة الحجاز إلى عهدته ، وتخويله إدارة إقليم ادنه [٢٨] .

وبمقتضى اتفاق (كوتاهية) صارت حدود مصر الشمالية تنتهى عند مضيق (كولك) بجبال طوروس ، ويسمى بوغاز كولك تبعاً التسمية الترك المضايق بالبواغيز (وترى موقعه على الخريطة) .

وبذلك انتهت الحرب السورية بتوسيع نطاق الدولة المصرية وبسط نفوذها على سوريه وادنه وتأييد سلطنها على كريت وجزيرة العرب .

ولا يغرب عن البال أن السلطان لم يقبل اتفاق كوتاهية إلا مرغما ، وكان يضمر السعى لنقضه إذا تهيأت له الفرصة فى المستقبل ، يدلك على ذلك أنه لم يكد يقر صلح (كوتاهيه) حتى عقد سرًا مع الروسيا المعاهدة المعروفة بمعاهدة هنكار أسكله سى (٨ يوليه سنة ١٨٣٣) وهى معاهدة دفاعية هجومية التزمت كل دولة بمقتضاها أن تساعد الدولة الأخرى إذا استهدفت لخطر خارجى أو داخلى ، وتعهدت تركيا بأن تأذن للأسطول الروسى بالمرور من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتسد البواغيز فى وجه جميع السفن التابعة للدول الأخرى ، ومؤدى هذه المعاهدة تخويل الروسيا مد يدها فى شئون تركيا وبسط حمايتها الفعلية عليها ، وهذه المعاهدة لم يبرمها السلطان على ما فيها من مهانة لتركيا إلا ليسعى فى نقض اتفاق

---

(٢٨) فى الفرمان أنه خول تحصيل أموال الجباية فيها ، ومعنى هذا إدارة الولاية فعلا كما يستفاد من المخابرات الدولية التى تبودلت فى هذا الصدد ، فقد أورد البارون دى تستا فى كتابه (مجموعة معاهدات الباب العالى ج ٢ ص ٣٧٧) رسالة المستر ماندفيل سفير انجلترا فى الاستانة إلى اللورد بالمرستون وزير خارجيتها بتاريخ ٤ مايو سنة ١٨٣٣ ينبئه فيها « بأن السلطان خول إبراهيم باشا ادارة ولاية ادنه بإسناد « تحصيل أموال الجباية فيها إلى عهدته » ، وكذلك رسالة إبراهيم باشا إلى السلطان يشكره فيها على إسناد حكومة أدنه اليه ، ولذلك كان الحكم المصرى فى إقليم ادنه لا يختلف فى حدوده ومظاهره عن مثيله فى الأقاليم السورية .

كوتاهيه ، لأن تركيا لم تكن مهددة فى ذلك الوقت بخطر خارجى أو داخلى إلا من ناحية مصر . فإبرام معاهدة (هنكار اسكله سى) غداة اتفاق كوتاهيه معناه أن تركيا لم تكن خالصة النية فى إبرام هذا الاتفاق ولا فى إقراره .

الحكم المصرى فى سورية

دخلت الشام فى حكم الدولة المصرية بعد صلح (كوتاهيه) الذى توج انتصارات الجيش المصرى ، وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام ، وصار إبراهيم باشا حاكمًا عامًّا للبلاد السورية وقائداً للجيش المصرى .

نظام الحكم المصرى فيها

وأخذ إبراهيم باشا فى تنظيم سورية وتدبير أمورها الإدارية والسياسية والحربية ، فعنى بإقرار الأمن والنظام فى ربوعها ، وأمّن الطرق ، ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالى وأملاكهم وأرواحهم .

وأخذ من الوجهة الحربية يعنى بتوطيد مركز مصر فى سورية ، فأمن حدودها الشمالية وعنى بتحصين مضايق جبال طوروس لصد هجوم الترك إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام ، ورمم حصون عكا وأسوارها ، وشيد الثكنات والمستشفيات ، وخطط الطرق الحربية ، واستقرت الحاميات المصرية فى أهم المدن السورية .

ويلغ عدد الجيش المرابط فى سورية نحو سبعين ألف مقاتل رابط معظمه فى الجهات الشمالية القريبة من الحدود التركية .

واتخذ إبراهيم باشا مقره العام فى (إنطاكيه) لموقعها الحربى وقربها من التخوم الشمالية وعين محمد شريف بك (باشا)[٢٩] حاكمًا عامًّا على سورية سنة ١٨٣٢ [٣٠] .ولقب « حكمدار عربستان » ، وظل فى معظم سنوات الحكم المصرى يتولى إدارة الايالات السورية جميعا .

---

(٢٩) هو الذى صار وزير مالية مصر فى أواخر عهد محمد على ، وهو غير شريف باشا الكبير رئيس الوزارة فى عهد توفيق باشا وصاحب المواقف المشهودة فى التمسك بالسودان .

(٣٠) العدد ٤٥٥ من (الوقائع المصرية) الصادر فى ٢٤ جمادى الثانية سنة ٢٤٨ (نوفمبر سنة ١٨٣٢) .

وجعل سليمان باشا الفرنساوى على إيالة صيدا (عكا) ، وعين إسماعيل بك سنة ١٨٣٨ حاكما لولاية حلب ، وعين محمود نامى بك أحد خريجى البعثات المصرية محافظًا لبيروت وبقى فى هذا المنصب من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٤٠ .

وجعل على إدارة الشئون المالية حنا بك بحرى أحد أعيان السوريين ، فصار صاحب النفوذ الأكبر فى إدارة شئون الحكومة وأحوالها المالية ، وقد ذكر المسيو جومار أن تعيين أحد السوريين الأكفاء فى هذا المنصب الكبير دليل على رغبة إبراهيم باشا فى إسناد كبار المناصب إلى أبناء البلاد ، وهو مالم يكن مألوفاً فى عهد الإدارة التركية ، وقال الدكتور مشاقة [٣١] ، وهو معاصر للحكم المصرى :

« لم يمض على حصار عكا زمان حتى أرسل محمد على تفويضًا إلى حنا البحرى فى سن النظامات لحكومة سورية على النمط الحديث ، وكان حنا البحرى على جانب عظيم من أصالة الرأى ، وله القدح المعلى فى السياسة المدنية ، وكان العدل والأنصاف شأنه والنزاهة زمامه ، لا فرق عنده بين القوى المثرى والضعيف الفقير أو المسلم والذمى ، وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد على باشا الذى كان عارفًا أن لا قيام للدولة إلا بالعدل والإنصاف » .

وعين إبراهيم باشا لكل بلد متسلما أى حاكمًا يتولى إدارتها .

وألف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلسًا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و ٢١ عضوًا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلد وتجارها ، وتنظر هذه المجالس فى مصالح كل بلدة ومطلوبات الميرى وإليها ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها .

ووحد الإدارة ووطد سلطة الحكومة المركزية ، وأبطل سلطة الأمراء والرؤساء الإقطاعيين وخضد شوكتهم ، وضرب على أيدى الأشقياء وقطاع الطرق وبسط رواق الأمن فى البلاد ، ونظم طرق الجباية ، وعامل الأهلين بالعدل والمساواة من غير تفريق بين الطبقات والمذاهب والأديان ، وكان ذلك أجلّ أعمال الإدارة المصرية فى سورية .

ونشطت التجارة والزراعة فى عهد الحكم المصرى ، فعمم إبراهيم باشا تربية دود القز (الحرير) ، وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض ، وغرس فى ضواحى أنطاكية أشجار

---

(٣١) فى كتابه (مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان) ص ١٠٢ .

الزيتون ، وأزدهرت زراعة العنب ، وعنى باستخراج بعض المعادن ولا سيما الفحم الحجرى فى لبنان ، وراجت التجارة واتسع نطاقها ، وكثرت المعاملات بين سوريه والبلاد الأوروبية .

وقد كان دخل الولايات السورية أقل من الخرج أى أن غلاتها تقل عن نفقاتها ، وخاصة لما يقتضيه الإنفاق على الجيش الموزع على المدن من المال ، فكانت الخزانة المصرية توازن بينهما فتسد عجز الميزانية وتحتمل مصر هذا الغرم فى مالها .

كانت الإدارة المصرية فى سوريه رغم ما بها من عيوب أصلح من الحكم التركى السابق ، وحسب هذه الإدارة فضلا أنها أقرت الأمن فى البلاد واستنقذتها من الفوضى .

ويكفيك لتتحقق مبلغ تقدم الإدارة السورية فى ظل الحكم المصرى أن تقرأ ما كتبه مؤرخو سوريه فى هذا الصدد .

قال الأستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق[٣٢] خلال كلامه عن الفتح المصرى :

«كان من أول أعمال إبراهيم باشا الجليلة فى بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجالس الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية ، فجعل نظامًا لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، لا تفاوت فى طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ أن استثقلوا ظل الدولة المصرية . وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء ، وينالهم من ذلك مصة الوشل ، مع أن البلاد رأت فى أيام ابراهيم باشا إبطال المصادرات وتقرير حق التملك ، وتوطد الأمن فى ربوعها ، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعممت تربية دود القز (الحرير) ، واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجرى فى قرنايل (لبنان) ، وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيسًا يتقاضى الأمير ضعفيها ويدخل فى خزانته الخاصة المال الزائدة على المفروض .

« وأكد كثيرون أن بعمله هذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من أعمال الشام عمرانها القديم ، وأخربت بعض القلاع التى كان يعتصم فيها الثائرون أحيانا مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ، ورخص للأجانب فى إرسال معتمديهم إلى دمشق ، وكانوا يمنعون من دخولها قبله ، فينزل وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس ، ويقال على الجملة إن الناس حمدوا دولة محمد على فى

---

(٣٢) فى كتابه خطط الشام ج ٣ ص ٥٧ .

الشام ، ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه إبراهيم عملا بإيعاز أبيه بتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الأهلين بالضرائب ، وأقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشا وأعظمها خمسمائة قرش ، فإن هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولاسيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل أهل حلب وأهل دمشق » .

وقال الدكتور أسد رستم أحد أساتذة التاريخ بجامعة بيروت الأمريكية لمناسبة الكلام عن محمود نامى بك محافظ بيروت فى عهد إبراهيم باشا :

« لما عزم عزيز مصر على إرسال بعض ضباط بحريته إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم وممارسة الفنون الحربية انتخب حسن أفندى الإسكندرانى وشنان أفندى والأمير محمود نامى وأرسلهم إلى فرنسا ، فتلقى محمود علومه العالية وتخصص فى الرياضيات ، ولما رجع من فرنسا ، عينه محمد على باشا محافظًا على بيروت ، وأبقاه فى هذا المنصب سبع سنوات (١٨٣٣ – ١٨٤٠) تنشقت بيروت فى خلالها نسيمًا منعشًا من الغرب المتمدن ، فاستيقظت من سبات العصور الوسطى ، وخطت خطوتها الأولى فى سبيل رقيها الحديث ، وكان محمد على باشا وابنه إبراهيم وعامله الأمير محمود نامى لبيروت أول العثمانيين الذين أخذوا الأفكار الحديثة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة وهم أول من وضعها ، وضع الإجراء والتنفيذ ، نعم إن سلطتهم فى بيروت كانت مطلقة ، ولكنهم أحكموا التدبير وأحجموا عن الحكم الاستبدادى ، فشكلوا فى هذه المدينة من سكانها مجالس تباحثوا مع أعضائها فى جميع أعمالهم المتعلقة فكان هناك مجلس للمشورة يدعى مجلس شورى بيروت وديوان للصحة وآخر للتجارة[٣٣] » .

وقال سليمان بك أبو عز الدين أحد أدباء سوريه[٣٤] :

« على أنه لا يسع المنصف إلا الاعتراف بأن المبادىء التى شاء محمد على أن يؤسس عليها الإدارة والقضاء فى سوريا كانت صحيحة بوجه عام ، لأنها كانت ترمى إلى تنظيم الأعمال وتوزيع الاختصاص بين هيئات مختلفة ومنع الاستبداد بتقييد الحكام وغيرهم من الموظفين بالنصوص القانونية ، وتدريب الأهلين على إدارة شئونهم المحلية ، غير أن جهل الحكام كيفية تطبيق القوانين وفطرتهم الاستبدادية وعدم وجود مراقبة فعالة على أعمالهم وعدم مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها وكثرة الاضطرابات فى البلاد حالت دون بلوغ الغاية التى وضعت تلك القوانين

---

(٣٣) مجلة الكلية (التى تصدر عن جامعة بيروت) مجلد ١٣ ص ١٣٠ .

(٣٤) فى كتابه (إبراهيم باشا فى سوريا) .

من أجلها ، ولابراهيم باشا فضل خاص فى السنين الأولى بعد الفتح فى ضبط الأحكام وشدة مراقبة الحكام وإجراء العدل بين الأهلين ، وقد كان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرين منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة أو غير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة ، فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم الحكيم لملكت قلوب السوريين »[٣٥] .

وقال فى موضع آخر : « من التغييرات الاجتماعية التى نشأت عن حكم محمد على فى سوريا إطلاق الحرية الدينية ، ونشر روح الديموقراطية بالضرب على أيدى الزعماء والمتغلبين ، ونزع السلطة من أيديهم ، وإنشاء العلاقة ما بين أفراد الشعب وحكامه مباشرة ، وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ولها حق النظر فى الشئون المحلية بعد أن كان النظر فى جميع الشئون منوطًا بحكام مستبدين » (ص ٣١١) .

ثم قال فى موضع آخر : « لم تقم حكومة محمد على فى سوريا بأعمال علمية وأدبية ذات شأن ، فالمدارس التى أنشأتها كانت قليلة العدد والتأثير ، وكانت فى معظم الأوقات مشتغلة بالفتح وتسكين الاضطرابات وإخماد الثورات ومقاومة الدسائس والاعتداءات الداخلية والخارجية ، على أن قيامها فى سورية مهدّ السبيل لنهضة علمية أدبية ، لأن تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لإدارة الأحكام والقيام بالأعمال القضائية والمالية والكتابية ، وسهلت قدوم الإفرنج من مرسلين دينيين وتجار وغيرهم ، فأنشئت بواسطتهم المدارس ، كما أن إرسال بعض الشبان لدرس الطب فى القطر المصرى واستخدام بعض السوريين فى حكومة محمد على باشا أنشأ صلة أدبية دائمة بين القطرين ، فامتدت تلك الصلة ونتائجها إلى وقتنا الحاضر ، وأدخلت حكومة محمد على روحًا علمية إلى البلاد فى أعمالها ، فأنشأت محجراً صحياً فى بيروت وبذلت اهتمامًا يذكر فى الأمور الصحية ، وكانت تجرى فيها حسب مشورة الأطباء الصحيحة كما فعلت فى دمشق بإنشاء مصارف للمياه الراكدة ، واستخدام المهندسين فى ذلك وفى الإنشاءات التى تحتاج إلى معرفة فنية »[٣٦] .

هذا ، وقد زار المارشال مارمون (الدوق دى راجوز) ، سورية سنة ١٨٣٤ فأعجب بما رآه من إقرار السكينة والأمن فيها ، وكتب فى رحلته يقول :

(٣٥) (كتاب إبراهيم باشا فى سوريا) لسليمان بك أبو عز الدين ص ١٣٩ .

(٣٦) ص ٣١٥ .

« إذا بقيت أعمال محمد على ويق الأمن الذى بسطه فيما فتحه من البلاد كما صار إليه الآن من الاستقرار الذى يدعو إلى الإعجاب فإن حالة هذه البلاد سينبه شأنها وستتطور تطورًا كبيرًا [٣٧] .

ويقول المسيو لويس بلان المؤرخ الفرنسى فى كتابه (تاريخ عشر سنوات) :

« إذا أردنا أن نعرف ما أفادته سوريه من انتقالها من الحكم التركى إلى حكم المصريين فما علينا إلا أن نلق نظرة على سهول أنطاكية التى اكتست بأشجار الزيتون وضواحى بيروت التى كثر فيها الكروم ، والنشاط الذى انبعث فى حلب ودمشق ، صحيحٌ أن محمد على أظهر جنفًا وقسوة فى حكم سورية ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزامًا حيث سادت الفوضى فى تلك البلاد ، قد نالت سورية النظام والعمران » [٣٨] .

الثورات فى الشام

لكن الإدارة المصرية فى سورية لم تلبث أن أصطدمت بثورات محلية نشبت فى مختلف الجهات ورزأت مصر بضحايا كثيرة ، وحملتها متاعب وجهودًا كبيرة لإخمادها .

فلنتكلم عن أسباب هذه الثورات .

وعد إبراهيم باشا السوريين بأن يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الأموال الأميرية ، وقد برَّ بوعده فى السنوات الأولى من حكمه ، فخفف عنهم بعض الأعباء المالية ، وأخذ فى تنشيط الزراعة والتجارة ، فشعر السوريون بالاطمئنان إلى الحكم المصرى وركنوا إليه .

ولكن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت لما أصدره محمد على باشا إلى ابنه فى أواخر سنة ١٨٣٣ وأوائل سنة ١٨٣٤ من الأوامر التى أثقلت كاهل الأهلين بأعباء فادحة وهى :

أولا : احتكار الحرير فى البلاد السورية .

ثانيا : أخذ ضريبة الرءوس من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم .

ثالثا : تجنيد الأهالى .

رابعا : نزع السلاح من أيديهم .

---

(٣٧) رحلة المارشال الدوق دى راجوز ج ٣ ص ٢٨ .

(٣٨) تاريخ عشر سنوات الجزء الخامس ص ٤٢١ .

وقد تبرم الأهالى بهذه المحدثات وتذمروا منها ، لأن احتكار الحكومة للحرير من شأنه إلحاق الضرر بمنتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين مكاسبهم منه .

وقد نفروا كذلك من ضريبة الرءوس وخاصة المسلمين لأنهم ما كانوا ملزمين بها من قبل ، وزاد فى تذمرهم تسخير الحكومة للأهالى فى الأعمال العامة .

وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التى أفضت إلى الثورة ، فقد نفذ التجنيد بطريقة قاسية تثير الخواطر ، وكان كثير من المجندين يرسلون إلى جهات لا يقع إلى أهلهم شىء من أخبارهم فيها ، وجاء نزع السلاح ثالثة الأثافى ، لأن معظم الأهالى كانوا يحملون السلاح ليدفعوا به سطوات البدو والرحل وعدوانهم ، فانتزاع السلاح من أيديهم أمر لا تقبله نفوسهم عن طاعة واختيار ، ومن هنا نشأت الثورات والفتن .

وقد كان للدسائس التركية والانجليزية عمل كبير فى تحريك تلك الثورات ، فإن الترك والانجليز ما فتئوا يستفزون السوريين إلى الثورة ويوزعون عليهم الأسلحة ويحرضونهم على القتال ويستميلون إليهم رؤساء العشائر والعصبيات ، تارة بالمال وطوراً بالوعود ، حتى أفلحوا فى تهيئة البلاد للثورة ، كما أن بعض إصلاحات إبراهيم باشا كانت من أسبابها ، فقد مرَّ بك أنه أبطل سلطة الرؤساء الإقطاعيين وضرب على أيدى الأشقياء وقطاع الطرق الذين كانت لهم سطوة كبيرة فى بعض البلاد ، فهؤلاء وأولئك قد ساءهم انتزاع السلطة من أيديهم ، فكانوا مدفوعين بوازع المنافع الشخصية إلى تحريض الأهلين على الثورة بالحكم المصرى ، قال الدكتور مشاقة فى هذا الصدد خلال كلامه عن نظام الحكم المصرى فى سورية :

« هذا النظام وإن يكن عادلاً وشريفاً قد كان باعثاً قويًا على كره الأمراء والمشايخ للمصريين حيث كفَّ يدهم وأوقف مطامعهم عند حد لا يمكن اجتيازه ، وأمات استبدادهم بالشعب ، وجعلهم أمام الشريعة سواء لا امتياز ولا فرق بينهم وبين أفراد الرعية ، فحنقوا على الدولة المصرية وودوا إزالتها وإرجاع الحكومة التركية [٣٩] » .

(٣٩) مشهد العيان ص ١٠٣ .

وقائع الثورة

ثورة فلسطين

وصلت أوامر محمد على بالمحدثات الجديدة إلى إبراهيم باشا وكان فى (يافا) ؛ فبادر من فوره إلى إذاعتها بين القبائل وفى أنحاء البلاد ، فثقلت هذه الأوامر على الناس وطلبوا رفعها ، فلم يجابوا إلى طلبهم ، فظهرت بوادر الاضطرابات فى فلسطين.

ابتدأت الثورة على شواطىء نهر الأردن بالقرب من (بيت المقدس) فى شهر أبريل سنة ١٨٣٤ ، وتواطأت القبائل فى هذه الجهات على ألا يذعنوا لتلك الأوامر ، وفى هذا إعلانٌ للثورة .

فلما علم إبراهيم باشا بنبأ هذا العصيان سار بالجيش من يافا إلى بيت المقدس ، وقد كان لمبادرته تأثير كبير أضعف عزيمة الثوار ، وهناك جمع نبهاء القوم وأكابرهم (أبريل سنة ١٨٣٤) فاستوضحهم مقصدهم ؛ فأجابوه بأنهم لا يعارضون فى احتكار الحكومة للحرير ، لكنهم يعارضون أشدَّ المعارضة فى نزع السلاح وفى تجنيد شبان البلاد فى الجيش ، وأنهم تلقاء ذلك يؤدون الضريبة ضعفين ويقدمون بعض أولاد المشايخ رهينة لضمان طاعتهم وإخلاصهم ، غير أن إبراهيم باشا أبى أن يتهاون فى تنفيذ أوامر أبيه ، فاستمهلوه مدة يراجعون قومهم وعشيرتهم ، وانفضّ الاجتماع على غير طائل ، وعاد إبراهيم باشا إلى يافا ينتظر الجواب الأخير الذى وعد المجتمعون بإبلاغه إياه بعد مشاورة الأهالى ، ولكى ينتظر ورود النجدات والتعليمات من مصر ، وكان انتشار الوباء فى هذه الجهات مما دعاه إلى التعجيل بمغادرة بيت المقدس فآثر البقاء فى يافا إذ لم يكن الوباء وقع فيها .

أخذت الثورة تستفحل ، وخاصة لما ذاع بين الأهالى من أن تركيا تتأهب بجيش جديد لاسترجاع الشام من محمد على ، فجنح البدنو الضاريون بجوار (البحر الميت) إلى العصيان ، وامتدت الثورة إلى نابلس .

قمع العصيان

كان زعماء العصيان فى تلك الجهات حاكم (نابلس) المسمى الشيخ قاسم الأحمد ، وهو من رؤساء العشائر ذوى العصبيات القوية ، وكان منهم زعيم آخر لا يقل عنه نفوذاً ومكانة وهو (أبو غوش) صاحب قرية العنب الواقعة بين بيت المقدس ويافا .

هاجمت جماعة (أبو غوش) المخافر المصرية المعهود إليها تأمين السبل بين يافا وبيت المقدس من سطو قطاع الطرق ، فقفلت الحامية راجعة إلى يافا لقلة عددهم إزاء المهاجمين .

وكذلك هاجم العصاة حامية (بيت المقدس) ، وكانت تبلغ ألف مقاتل ، فقتل منهم خمسون جنديًا واضطر القائد إلى الامتناع فى قلعة المدينة حتى يأتيها المدد .

فلما علم إبراهيم باشا بهذه الواقعة أنفذ ألايا من الفرسان بقيادة الميرلاى حسن بك لنجدة الحامية وللتنكيل بقبيلة (أبى غوش) ، ولكن النجدة المصرية لم تقوَ على مقاومة العصاة ، ورجعت مهزومة مضعضعة بعد أن قتل قائدها ونحو ثلاثين من جنودها ، وتكاثر الثوار على القدس واقتحموا باب داود (من أبواب المدينة) ودخلوا منه ٢ ووقع قتال شديد بينهم وبين الحامية المحصورة فى القلعة ، ونهبوا حوانيت المدينة وبعض بيوت لليهود ، كذلك هاجم العصاة (الخليل) وقتلوا حاميتها وكان عددها ٢٠٠ جندى .

فلما علم إبراهيم باشا باستفحال الثورة جمع جيشًا من ستة آلاف جندى وقام على رأس هذا الجيش . فسار من يافا فى شهر يونية سنة ١٨٣٤ . وزحف على معقل العصاة فى قرية (العنب) التى امتنع بها جماعة (أبى غوش) ، وكانت محصنة تحصينًا منيعًا ، فحاصرها الجيش المصرى واستمر القتال حولها ثلاثة أيام متوالية ، وفى اليوم الثالث دخل المصريون القرية ، فكان سقوطها فى يدهم سببًا فى تشتت العصاة ، واحتل المصريون الطرق المفضية إلى (بيت المقدس) وفرق الجيش جموع العصاة ودخل المدينة بعد أن فر كثير من أهلها ممن انضموا إلى الثوار ، ووقعت ثلاث معارك بين الجيش المصرى والعصاة كان النصر فيها للمصريين .

على أن هذا القتال قد حمّل الجيش خسائر جسيمة ومتاعب هائلة ، فتحصن إبراهيم باشا فى بيت المقدس .

وفى غضون ذلك عمل على التفريق بين القبائل وضرب بعضها ببعض على الطريقة التى

اتبعها فى حرب الحجاز ، وأفلح فى استمالة بعض القبائل فتفككت عراها ، وعقد سليمان باشا الفرنساوى اتفاقًا مع أولاد (أبى غوش) تعهدوا فيه أن يؤمنوه على اجتياز معاقلهم وأن يوالوا الحكومة المصرية على أن تطلق سراح أبيهم الذى كان سجينًا فى عكا ، وعلى العفو عنهم ، وبذلك أمنت الطريق بين يافا وبيت المقدس .

وفى أثناء ذلك عرض الشيخ قاسم حاكم نابلس على إبراهيم باشا أن يقدم طاعته على أن يعفى النابلسيون من الخدمة العسكرية ، وجرت بينهما فى هذا الصدد مفاوضات ، فلما تم الاتفاق مع جماعة (أبى غوش) واستوثق إبراهيم باشا من ولائهم قطع تلك المفاوضات .

حضور محمد على باشا

لما استفحل أمر الثورة اعتزم محمد على باشا المجئ إلى فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على حركات القتال التى كان الغرض منها قمع العصيان ، فحضر إلى يافا يصحبه عدد كبير من الجند ، وكان إبراهيم باشا وقتئذ فى القدس ، فذهب لاستقباله فى يافا .

وكان العصيان قد امتد إلى (صفد) ، فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود ، فعهد محمد على إلى الأمير بشير الشهابى حاكم جبل لبنان ، وكان على ولاء تام للحكومة المصرية ، أن يخمد هذا العصيان ، فصار بالأمر وزحف على (صفد) وحاصرها وسلمت من غير قتال وأعاد العصاة ما نهبوه من اليهود .

وقد برَّ إبراهيم باشا بوعده لآل أبى غوش فأطلق سراح زعيمهم وعين أحد أبنائه متسلمًا (حاكمًا) للقدس .

إخماد الثورة

وجرد جيشًا لمحاربة (الشيخ قاسم) حاكم نابلس ، فدار قتال شديد بينهما انتهى بهزيمة الشيخ قاسم وفراره مع أتباعه إلى (الخليل) .

وفى غضون ذلك عاد محمد على باشا إلى الإسكندرية بعد أن اطمأن من ناحية الجيش المصرى ومركزه ، فوصل إلى الإسكندرية فى يوليه سنة ١٨٣٤ .

احتل الجيش المصرى قرى (نابلس) : ثم تعقَّب الشيخ قاسم ورجاله الأشداء إلى (الخليل) ، وتطاحن الفريقان ثلاث ساعات انكسر بعدها الثوار ، فدخل الجيش (الخليل)

وانسحب المنهزمون إلى (الكرك) و (السلط) فتعقبهم إبراهيم باشا إلى (الكرك) ولقى جنوده مشقات هائلة فى هذه الحملة لاشتداد القيظ والعطش ، وسقط منهم نحو ثلثمائة مصابين بالرعن (ضربة الشمس) ، واحتل الجيش المصرى الكرك ، وحمى القتال حول قلعتها التى اعتصم بها الثوار ، وتكبد المصريون خسائر جسيمة فى هجومهم على القلعة وارتدوا عنها قليلا ريثما تبلغهم المدفعية ، فانتهز الثوار هذه الفرصة وأخلوا القلعة وانسلُّوا منها إلى (السلط) ، وتقدم ابراهيم باشا إلى السلط فسلم أهلها من غير قتال .

وفر الشيخ قاسم ومن معه من زعماء العصيان إلى البادية ، ونزلوا على عرب عنزة ، ولكن ابراهيم باشا تعقبهم وما زال بهم حتى أخذهم جميعا وقتلهم ، وبذلك تم إخماد الثورة فى فلسطين ، وأذعنت القبائل لسطوة إبراهيم باشا وشدة بأسه .

اضطرابات أخرى

وقد هاجت الخواطر فى دمشق لما أوقع التجنيد من الحزن فى نفوس أهالى المجندين ، وفر عدد كبير من الناس إلى البادية وإلى الجبال ، وخشى شريف باشا وإلى إيالات الشام أن يعم الهياج ، وخاصة بعد ورود أنباء ثورة فلسطين ، فكف عن التجنيد ، لكنه جمع السلاح من أيدى الأهالى .

وكذلك وقعت اضطرابات فى طرابلس (سنة ١٨٢٤) وائتمر الأهلون بالحامية ، فاضطرت أن تنسحب إلى الميناء ، فأرسل إبراهيم باشا المدد إلى طرابلس ، وعاقب مثيرى الفتنة بإعدام ثلاثة عشر منهم وثارت الفتن فى (عكار) و (صافيتا) و (الحصن) . فأخمدتها القوة المسلحة ، ووقعت كذلك اضطرابات أقل شأناً منها فى (حلب) و (أنطاكية) وبعلبك وبيروت .

ثورة النصيرية

وشبت الثورة فى بلاد (النصيرية) شرق اللاذقية فى أكتوبر سنة ١٨٣٤ ، وكانت أهم ثورة بعد ثورة فلسطين ، وهاجم الثوار (اللاذقية) فأمدها إبراهيم باشا ، وزحفت قواته على بلاد (النصيرية) ونشبت معارك عدة بينها وبين الثوار انتهت بانتصار الجيش المصرى ونزع السلاح من أيدى الثوار وتجنيد نحو أربعة آلاف من أهل تلك البلاد .

وقد نفذ إبراهيم باشا قاعدة نزع السلاح والتجنيد فى البلاد التى أخمد الثورة فيها ، واستتب الأمن فى ربوعها ، وكان اللبنانيون يعاونون الجيش المصرى فى إخماد تلك الثورات فترك لهم سلاحهم إلى سنة ١٨٣٥ ثم عمد إلى تجريدهم منه وبدأ بالدروز وخادع المسيحيين أنه لا يريد نزع أسلحتهم ، فعاونوه على تجريد الدروز ، وبعد أن تم له ذلك عاد إلى أولئك فجردهم من سلاحهم ، واستتبت السكينة فى سوريه ولبنان ، فعمدت الحكومة إلى تجنيد الأهالى من البلاد كافة ، وترتب على ذلك فرار الكثير من الشبان إلى البادية مما أضر بالحالة الاقتصادية ضرراً بليغاً .

ثورة حوران

كان إبراهيم باشا قد أعفى دروز حوران من التجنيد ، ثم تراءى له أن يطبق عليهم نظام التجنيد ، وحجته أنه فى حاجة إلى زيادة عدد الجيش استعداداً لمقاومة هجوم العثمانيين الذى جاءت الأخبار بقرب وقوعه .

فتمرد الدروز على طلب حكومة دمشق ، وكان من ذلك نشوب ثورة خطيرة فى حوران (نوفمبر سنة ١٨٣٧) وهى أشد ثورة عاناها الحكم المصرى فى سورية .

أنفذ إبراهيم باشا ثلاث حملات لكفاح تلك الثورة وإخمادها ، فالحملة الأولى ألفها من ٤٥٠ من فرسان الهوارة[٤٠] ، ففازت فى بدء القتال على الثوار فى (بصرى) ولكن الثوار استدرجوها إلى الجهات الجبلية الوعرة فى بلاد اللجاة[٤١] ، وأمر قائد الحملة بالزحف عليها ، حتى إذا بلغ الوعر وانحصر فيه ، انقضّ عليه الدروز ، فدارت بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية ، فقتل قائدها وبادت الحملة قتلا وأسراً وتشريداً .

ولما أبلغ إبراهيم باشا نبأ هذه الواقعة وكان فى (إنطاكيه) أجمع لحملة جديدة يقودها بنفسه ، لكنه علم باحتمال تقدم الترك نحو الحدود الشمالية ، فاضطر إلى البقاء فى (حلب) وأرسل إلى أبيه يستمده . وطلب منه أن ينفذ إليه أحمد باشا المنكلى وزير الحربية المصرية لقيادة الحملة ، فجاء هذا على جناح السرعة ، وقاد الحملة الجديدة وكان فيها ٦٠٠٠[٤٢] مقاتل ، وزحف على حوران ، فأخذ الثوار يستدرجونها كما استدرجوا الحملة الأولى من قبل

---

(٤٠) إحصاء الدكتور مشاقة فى كتابه مشهد العيان ص ١٦ .

(٤١) على حدود حوران جنوبى دمشق بشرق .

(٤٢) احصاء مشاقة ص ١١٧ .

إلى أن أوغلت فى الجهات الوعرة ، فقاتلها الثوار فى معركة انتهت بهزيمة الحملة ، وخسرت من رجالها نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح ، وجرح قائدها أحمد باشا المنكلى جراحًا بالغة .

تصدّعت هيبة الجيش المصرى بانتصارات الدروز ، واستشْرت الثورة من حوران إلى (وادى التيم) فثار الدروز فيها بقيادة (شبلى العريان) وقطعوا مواصلات الجيش .

وجهز إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل أطبق بها على ثوار حوران ووادى التيم .

ونشبت الحرب وكانت سجالا . إلى أن انتهت بتسليم دروز (وادى التيم) ، ثم تسليم شبلى العريان والحصار الثورة فى (اللجاة) ثم انتهت بإخماد ثورة اللجاة (أغسطس سنة ١٨٣٨) .

وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر تكبد فيها الجيش المصرى خسائر فادحة ، ولقى فيها من الأهوال مالم يلقه فى إخماد الثورات السورية الأخرى .

وغنىٌّ عن البيان أنه كان فى إمكان مصر أن تتفادى هذه التضحيات الأليمة والخسائر الفادحة لو لم يتشدد محمد على باشا فى تجنيد السوريين ونزع أسلحتهم ، إذ لم يكن من الحكمة ولا من حسن السياسة أن تبادر دولة فاتحة إلى تجنيد الأهالى فى بلاد حديثة عهد بفتحها ولما يستقر بعد حكمها فيها ، وخاصة إذا كان أهلها قد اعتادوا من قديم الزمن حمل أسلحتهم ولم يألفوا نظام التجنيد الإجبارى ، ولو أن محمد على جرى على الهُوَيْنَا فى كلا الأمرين ، وترك الزمن تحقيقهما تدريجًا ، لما استهدف الجيش المصرى لهذه الثورات التى أودت بحياة عشرة آلاف مقاتل ونيف ، وذلك أكثر من العدد الذى استطاع تجنيده من السوريين ، وأكثر مما خسرته مصر فى المعارك الحربية بسورية والأناضول . هذا فضلا عن أن إخماد الثورات بالقوة والجبروت قد أوغر صدور السوريين على الحكم المصرى ، فبعد أن استقبلوه فى بدء الفتح بقبول حسن وفضلوه على الحكم التركى جنحوا بعد ذلك إلى قديمهم ولقيت الدعاية التركية بينهم مرعى ومأوى .

على أنه يجب ألا يغرب عن البال ما كان للدسائس الإنجليزية والتركية من الأثر الكبير فى تحريض السوريين على الثورة كما قدمنا ، ولكن مما لا نزاع فيه أن هذه الدسائس ما كانت لتفلح لو لم تلجأ الحكومة المصرية إلى إثارة الخواطر بنزع سلاح الأهلين وتجنيدهم جبرًا ، ومن جهة أخرى فإن الحكومة المصرية رغبة منها فى منع ورود الأسلحة إلى البلاد أمرت بمنع دخول السفن التركية إلى الثغور السورية ، وصدت ورود القوافل من جهات الأناضول ، فأصاب

التجارة من هذه وتلك ضرر كبير ، وقد كان للدسائس الإنجليزية وسوء الحالة الاقتصادية فى أواخر عهد الإدارة المصرية أثر كبير فى الحرب السورية التى شبت بين مصر وتركيا وحلفائها عقب إبرام معاهدة لوندره ، فإن الجيش المصرى قد لقى فيها من مقاومة السوريين ما زاد مركزه حرجًا كما سيجىء بيانه .

الحرب السورية الثانية وواقعة نصيبين
(٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩)

ما فتئت تركيا بعد هزيمتها فى معركة (قونيه) وإبرامها اتفاق (كوتاهيه) تعد المعدات وتبذل الوسائل لاسترجاع سورية وإقليم أدنه إلى حوزتها ، فحشدت منذ سنة ١٨٣٤ جيشًا فى (سيواس) تأهبًا للزحف على سورية عند سنوح الفرصة ، وعهدت بقيادته إلى رشيد باشا قائد الجيش العثمانى الذى أسر فى واقعة قونيه ، فأخذ يستعد للزحف آملا أن يظفر بالجيش المصرى فيمحو ما لحقه من العار والهزيمة فى واقعة (قونيه)

فتصميم تركيا على القتال واعتزامها استرجاع سوريه بدأ عقب هزيمتها فى (قونيه) ، ولم يؤخرها عن امتشاق الحسام حتى سنة ١٨٣٩ إلا شعورها بأنها أضعف جنداً من مصر ، فأخذت تتحين الفرصة المناسبة للثأر . على أنها ما فتئت طول هذه المدة تدس الدسائس لمصر فى سورية وتحرض أهلها على الثورات وخلع أيديهم من الطاعة .

ثم توفى رشيد باشا سنة ١٨٣٦ ، فخلفه فى قيادة الجيش العثمانى محمد حافظ باشا أحد قواد تركيا المشهورين فى ذلك العصر.

وفى خلال ذلك حدثت مفاوضات بين تركيا ومصر لتسوية الخلاف بينهما بطريقة ودية ، فأوفد السلطان محمود سنة ١٨٣٧ مندوبه (صارم أفندى) ليفاوض فى ذلك محمد على ، لكن هذه المفاوضة أخفقت إذ لم يتفق الطرفان على شروط يقبلانها .

محمد على وإعلان الاستقلال

ولما أخفقت تلك المفاوضات ورأى محمد على دسائس الاستانة تزداد فى سورية اعتزم إعلان الاستقلال ليقطع آخر سبب يربط مصر بتركيا ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وأعلنهم بعزمه هذا (مايو سنة ١٨٣٨) .

وهذه هى المرة الثانية التى اعتزم فيها محمد على إعلان الاستقلال ، فالمرة الأولى سنة ١٨٣٤ عقب الحرب السورية الأولى إذ صارح وكلاء الدول بما صمم عليه ، فرفضت الدول طلبه ، وحذرته من العاقبة [٤٣] ثم جدد عزمه سنة ١٨٣٨ [٤٤] معتمدًا على حق مصر ، ولأن استقلالها هو خير ضمانة لاستتاب السلام فى الشرق .

وكان محمد على يعتقد أن الدول لا تعارضه فى إعلان الاستقلال أسوة بما فعلته حيال اليونان ، إذ عضدتها فى تحقيق استقلالها وانفصالها عن تركيا وتأييدها فى مطالبها القومية ، ولكن الدول الأوروبية تنظر إلى مصر بغير العين التى تنظر بها إلى اليونان ، فاعترضت على ما عزم عليه محمد على ، وحذرته من جديد عواقب عمله ، وبدأ تحيزها لتركيا جليًّا ، وظهر تحاملها على مصر ، مما جرأ السلطان محمود على التحرش بمحمد على ، فأدى ذلك إلى وقوع الحرب السورية الثانية .

مقدمات الحرب السورية الثانية

كان سفير انجلترا فى الاستانة (اللورد بونسونبى) يحرض الباب العالى على التشدد فى شروطه ، مما أدى إلى إخفاق المفاوضة ، وكانت انجلترا لا تفتأ تضع العراقيل أمام سياسة محمد على وتؤلب تركيا والدول الأوروبية على مصر .

فمن ذلك أنها توصلت فى سنة ١٨٣٨ إلى عقد معاهدة تجارية مع تركيا ، من شروطها إلغاء الاحتكار فى جميع أنحاء السلطنة العثمانية ، وكان المفهوم أن هذه المعاهدة تسرى على مصر لأنها كانت إلى ذلك الحين جزءا من السلطنة ، وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة (نوفمبر سنة ١٨٣٨) لأن ظاهرها يوافق المبادىء الإنسانية ، ولم يكن من سبيل إلى رفض مثل هذه المعاهدة .

وقد فطن محمد على باشا إلى أن المقصود من وضعها هو إحراجه . فلم يعلن اعتراضه عليها ولا قبوله إياها ، وتغيب عن مصر ذاهبًا إلى السودان فى رحلة طويلة ، وأظهر أنه ماض للبحث عن مناجم الذهب فى فازوغلى وتنظيم حكومة السودان ، ولكنه كان يقصد الغياب حتى لا يواجه طلبات وكلاء الدول .

---

(٤٣) و (٤٤) كادلفين وبارو . ستتان من تاريخ الشرق ج ١ ص ٢٢ و ٤٦ .

وكانت تركيا تزداد تحفزاً لتجريد جيشها على سورية ، ولم يكن غرضها استرجاع سورية فحسب ، بل كانت ترمى إذا ما ظفرت بالجيش المصرى أن تستمر فى زحفها حتى تغزو مصر ، وأخذت حركات الجيش العثمانى تزداد نشاطا بالقرب من التخوم السورية .

وفى غضون ذلك بذلت الدول الأوروبية مساعى عدة لحل الخلاف بالطرق الودية بين الدولتين (مصر وتركيا) فأخفقت فى مساعيها لأن انجلترا كانت من وراء تركيا تحرضها على القتال .

خطة الترك فى الزحف على الشام

حصّن المصريون مضيق (كولك) من مضايق جبال (طوروس) تحصينًا منيعاً ، إذ هو طريق الزحف على سوريا من ناحية الأناضول ، فشيدوا فيه القلاع المحكمة . وركبوا فيها المدافع الضخمة على الأساليب الهندسية الحديثة ، وبلغ عدد المدافع التى ركبها المصريون فى قلاع المضيق ونواحيه ١١٥ مدفعا[٤٥] .

وبلغت الحاميات المصرية فى ولاية ادنة عشرة آلاف مقاتل ، وأصبحت مواقع المصريين من المناعة بحيث صار من المتعذر أن يهاجمها الجيش التركى ، فاعتزم قائده حافظ باشا أن يدع اجتياز هذه المضايق ويزحف على الشام من جهات (اورفه) وديار بكر ، حيث لا تفصلها عن الشام جبال وعرة كجبال طوروس .

فلما علم إبراهيم باشا بهذه الخطة حشد معظم جنوده حول مدينة (حلب) ليرقب حركات الجيش التركى ويصد هجماته من كل طريق يجىء منه ، وكانت طلائعه ترابط فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية .

عبور الترك نهر الفرات

ولما أتم حافظ باشا استعداده اعتزم عبور الفرات ليزحف على الشام ، فعهد إلى إسماعيل باشا أحد قواده اجتياز هذا النهر عند بيرة جك[٤٦] إلى عدوته اليمنى ، فانتقل إسماعيل باشا إلى

---

(٤٥) إحصاء للمسيو أوديفير فى مباحثه عن (الحكم المصرى فى بلاد القرمان) التى نشرت بمجلة الشرق الفرنسية سنة ١٨٦٨ ص ٥٩٠ .

(٤٦) وتسمى البير ، وهى واقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات .

الشاطىء الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ ، ووصل هذا النبأ إلى إبراهيم باشا ، فأرسل إلى والده بمصر يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك كما تدل الدلائل ، وأخذ فى الوقت نفسه يحشد الجنود فى حلب ويزد موقفه مناعة فى المدينة وما حولها ، وأرسل الطلائع من العربان لاكتشاف حركات الجيش التركى .

إرسال محمد على المدد إلى الشام

وكان محمد على قد بلغه تقدم الجنود التركية نحو الحدود ، فعلم أنها الحرب لا محالة ، وأمر بجمع الجند وإنفاذهم إلى الشام ومعهم الذخائر ، وعهد إلى وزير الحربية أحمد باشا المنكلى أن يلحق بابراهيم باشا ليعاونه فى الحرب المنتظرة ، فكان سفر المنكلى باشا إعلانًا بقرب وقوع القتال ، وقد علم وكلاء الدول بعزم المنكلى باشا على السفر فتدخل قنصل فرنسا العام[٤٧] لدى محمد على لوقف سفر وزير الحربية حتى لا تستعر نار الحرب ثانية بين تركيا ومصر ، فطلب إليه محمد على أن تعطيه الدول موثقًا ألا يزحف الجيش التركى على الشام ، وفى مقابل ذلك يمنع سفر وزير حربيته بل ويستقدم إبراهيم باشا أيضًا ، فضمن له القنصل الفرنسى ذلك ، وارتكن على خطاب بهذا المعنى جاءه من سفير فرنسا بالاستانة ، وكان الحديث بحضور قنصل النمسا ، فالتفت إليه محمد على وسأله : أتؤيد الرسائل الواردة له من السفير النمسوى ما يقوله قنصل فرنسا ؟ فأجاب بالنفى ، فلم يسع محمد على إلا أن صارح القنصلين بأنه إزاء هذا التضارب يرى من واجبه أن يتخذ وسائل الأهبة والاحتياط ، وأنفذ من فوره وزير الحربية إلى حلب ، فوصل إليها بعد تسعة أيام من مغادرته مصر ، وكانت الحرب قاب قوسين أو أدنى .

حركات الجيش التركى قبيل واقعة نصيبين

احتشدت طلائع الجيش التركى فى قرية (نصيبين) وحولها ، وهى بلدة واقعة فى الأراضى العثمانية ، لكنها على مسيرة ساعات قليلة من الحدود التركية السورية[٤٨] .

وأخذ حافظ باشا يستعد للزحف ، فاحتلت طلائعه من القرى ما حول مدينة (عينتاب)

---

(٤٧) المسيو كوشليه .

(٤٨) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جك والإسكندرونة ، وموقعها غربى بيرة جك القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، وهى غير (نصيبين) التى بالجزيرة .

واجتازت سرية من الجيش التركى نهر الساجور[٤٩] وهو الحد الفاصل بين سوريا وتركيا ، فتخطت بذلك الحدود المرسومة فى اتفاق (كوتاهيه) ، وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية (تل باشر) بعد أن قتلوا وأسروا فريقًا من حاميتها التى كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى .

وفى غضون ذلك كان إبراهيم باشا قد أرسل إلى أبيه نبأ تخطى الأتراك حدود اتفاق (كوتاهيه) وسأله ما يأمر به حيال هذا الاعتداء ، ولم ينتظر ورود جواب أبيه ، بل قام بجيشه من حلب لإجبار الأتراك على أخلاء (تل باشر) ، ولكن هؤلاء اخلوا البلدة أثر وصول الجنود المصرية (٣ يونية سنة ١٨٣٩) ثم احتل الترك مدينة (عينتاب) وأخلتها الحامية المصرية .

وفى منتصف يونيه ورد جواب محمد على باشا يعهد إلى ابنه بألا يكتفى بإرجاع الأتراك إلى الحدود ، بل عليه حربهم وسحق جيشهم ماداموا لم يراعوا العهود والمواثيق ، فلما تلا إبراهيم باشا الجواب اطمأن إليه ، فأصدر أوامره إلى قواده بالاستعداد لمهاجمة الجيش التركى الذى احتشد فى (نصيبين) .

قوات الطرفين

كان الجيش التركى يتألف من ٣٨ ألف مقاتل ويحتل مواقع حصينة ، ولم يكن ينقصه القواد الأكفاء لأن فريقًا من الضباط الألمان وعلى رأسهم القائد الشهير البارون (دى مولتك)

— (هامش الطبعة الثالثة) — جرى نقاش حول اسم هذه الواقعة ، هل هو (نصيبين) كما هو معروف ومشهور ، أم هو (تزيب) كما تفش سنة ١٩٤٨ على قاعدة تمثال إبراهيم باشا ، لأجل أن نتبين وجه الحقيقة فى هذه المسألة ، يجب بداءة ذى بدء أن نتعرف موقع المعركة . فهى قد وقعت فى قرية شمالى حلب على الطريق الواصل بين (بيرة جك) على نهر الفرات والإسكندرونة على البحر الأبيض المتوسط انظر الخريطة. وهذه القرية بهذا التحديد هى (نصيبين) . ووجه اللبس فى هذا الصدد ان اسم نصيبين يطلق على بلدة مشهورة فى الجزيرة فظن بعضهم أنها ليست البلدة التى وقعت فيها المعركة لأنها لم تقع حقًا فى الجزيرة ولكن هذا اللبس يزول إذا تحققنا أن هذا الاسم (نصيبين) يطلق على ثلاثة بلدان كما جاء فى (معجم البلدان) لياقوت الحموى (جزء ثان من ص ٩٢ — ٢٩٤) فهو يقول تحت كلمة (نصيبين) أنها مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . وأنها أيضا قرية من قرى حلب . وأنها أيضا مدينة على شاطئ الفرات تعرف بنصيبين الروم .

فالاسم الصحيح لهذه البلدان الثلاثة هو (نصيبين) ولا محل لأن نستبدل به اسم تزيب الذى هو اسم افرنجى أو تركى محرف عن نصيبين ولم يرد فى أى معجم من المعاجم والعربية . ولا مبرر لأن نترك الاسم الأصلى العربى إلى الاسم المحرف .

(٤٩) نهر الساجور ينبع بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب فى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين أملاك مصر وتركيا « أنظر موقعه على الخريطة » .

الذى انتصر فيما بعد على الفرنسيين فى الحرب السبعينية كانوا يرافقون القواد الترك ، وهم الذين تولوا تحصين نصيبين حتى جعلوها من أمنع المواقع الحربية ، ولو أن الأمر ترك كله للقواد الألمان لكان الحظ فى معركة نصيبين متراوحًا بين الجيش المصرى والتركى ، ولكن القواد الأتراك وعلى رأسهم حافظ باشا لم يعملوا بنصائح (دى مولتك) وزملائه أثناء القتال ، فدارت الدائرة على الجيش التركى .

أما الجيش المصرى فكان عدده أربعين ألف مقاتل[٥٠] ، فالجيشان كانا متقاربين من جهة العدد ، لكن الجيش المصرى كان يفوق جيش الترك فى النظام وبراعة القيادة ، ودربة جنوده ، ومرانهم على القتال ، وثقتهم بأنفسهم وبقوادهم الذين خاضوا وإياهم المعارك ورفعوا معًا علم النصر من قبل ، فكان لهذه الميزة تأثير معنوى كبير فى نفوس الجنود ، هذا فضلا عن أن الجيش المصرى كان مؤلفًا من جنس واحد وهم المصريون ، أما الجيش التركى فكان أخلاطًا من الأتراك والأكراد وسائر عناصر السلطنة العثمانية .

واقعة نصيبين

(٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩)

اعتزم ابراهيم باشا أن يتبع خطة الهجوم فى واقعة (نصيبين) ، فحشد الجيش مشاةً وركباناً على ضفاف نهر (الساجور) الذى كان يفصل الحدود المصرية والتركية .

وتحرك يوم ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٩ صوب قرية (مزار) ليتخذها قاعدة للهجوم .

وتقع هذه القرية جنوبى (نصيبين) بغرب ، وهى على ساعتين من معسكر الجيش التركى (انظر خريطة الواقعة ص ٢٧٩) .

لم يلق المصريون مقاومة تذكر فى احتلال (مزار) فقد أخلتها الحامية التركية وانسحبت منها إلى معسكر الجيش فى نصيبين ، ورتب ابراهيم باشا مواقع جيشه فى ضواحى (مزار) بالعدوة اليسرى من النهر المسمى باسمها .

وفى اليوم التالى (٢١ يونيه) استقر رأى إبراهيم باشا على اكتشاف مواقع الأتراك أولا لمعرفة الجهة الضعيفة فيهاجمهم فيها ، فسار يصحبه سليمان باشا لارتياد هذا الاكتشاف ومعهما قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة من العرب وأربعة ألايات من الفرسان وبطاريتان من

---

(٥٠) إحصاء كادلفين وبارو فى كتابهما (ستتان من تاريخ الشرق) ج ١ ص ٢٥٩ .

المدافع [٥١] ، واقتربوا من مواقع الأتراك ، فأنفذت القيادة التركية بعض كتائب من الفرسان النظاميين ومن الجنود غير النظامية (الباشبوزق) فاشتبكوا مع طلائع الجيش المصرى فى مناوشة ارتدوا على أثرها إلى مواقعهم ، وتعقبهم المصريون ، فأمكنهم اكتشاف التحصينات المنيعة التى أقامها الأتراك أمام (نصيبين) ، فأدرك إبراهيم باشا أنه يتعذر بل يستحيل على الجيش المصرى أن يستولى على معسكر الجيش التركى مواجهة ، وعاد يجهد الفكر فى الخطة التى تكفل له الفوز على خصمه ، فرأى أن خير وسيلة يتبعها هى الدوران حول مواقع الترك ليهاجمهم من الخلف .

وغداة هذا اليوم (٢٢ يونية) شرع إبراهيم باشا ينفذ هذه الخطة وأخذ ينسحب من مواقعه الأولى استعداداً لحركة الالتفاف .

أما حافظ باشا فقد جمع مجلسا حربيا ليقرر الخطة الواجب اتباعها حيال هذه المناورة ، فكان رأى البارون (دى مولتك) وزملائه الألمان أن يهاجموا المصريين أثناء حركة الالتفاف وقبل أن ترسخ قدمهم فى المواقع الجديدة ، لكن حافظ باشا وزملاءه الأتراك لم يقبلوا هذا الرأى السديد ، وأبو أن يغادروا مواقعهم واستحكاماتهم المنيعة ويغامروا بقواتهم فى مهاجمة الجيش المصرى فى العراء وفى سهل مكشوف خال من الاستحكامات التى تحميهم ، واستقر رأيهم على البقاء فى معاقلهم بنصيبين .

أنفذ إبراهيم باشا حركة الالتفاف ، فترك مواقعه الأولى ، وسار مشرقًا ، محاذيًا نهر مزار ثم نهر كرزين [٥٢] بعد أن يلتقى هو ونهر مزار ، ثم انعطف شمالا حتى بلغ الطريق الموصل من حلب إلى بيرة جك والمفضى إلى ما وراء مواقع العدو فى نصيبين ، فسار فى ذلك الطريق إلى أن بلغ قنطرة (هركون) القائمة على نهر كرزين وأمر الجيش بعبور النهر على هذه القنطرة ، ولو أن حافظ باشا فكر فى مفاجأة الجيش المصرى أثناء هذا العبور حيث كانت قواته موزعة على جانبى النهر لكان محتملا أن تتغير مصاير الواقعة ، لكن القيادة التركية كانت فى غفلة من الجمود وعدم الكفاية ، فتركت هذه الفرصة تفلت من يدها ، وعبر الجيش المصرى بأجمعه نهر (كرزين) ليلا واحتشد على الضفة اليسرى خلف معسكر الجيش التركى ، وبذلك واجهه من الجهة الضعيفة ، فاضطر حافظ باشا أن يدير وجه جيشه ليواجه الجيش المصرى فى مواقعه

---

(٥١) احصاء كادلفين وبارو فى كتابهما (ستتان من تاريخ الشرق) ج ١ ص ٢٤٧ .

(٥٢) نهر كرزين هو نهير يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى .

الجديدة ، وأقام استحكامات على عجل بدلا من الاستحكامات القديمة التى كانت أمام وجهته القديمة ولم يعد لها بعد أن تغير موقف الجيشين وانقضى يوم ٢٣ يونيه والجيشان يتأهبان للقتال .

وفى ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ هاجم حافظ باشا المصريين فى جنح الليل آملا أن يأخذهم على غرة ويوقع الفشل فى صفوفهم ، ولكنه ارتدّ بعد أن فتكت نيران المدافع المصرية بعدد كبير من جنوده ، واستمر إبراهيم باشا تلك الليلة يتأهب لمهاجمة الأتراك فى صبيحة الغد .

الواقعة

فنى صبيحة ذلك اليوم ، ٢٤ يونيه ، بدأت المعركة طبقًا لخطة الهجوم التى رسمها إبراهيم باشا ، وكان الجناح الأيمن للجيش التركى يرتكز على أخوار عميقة لا سبيل إلى اجتيازها ، والقلب تحميه الاستحكامات التى أقامها الترك ، أما الجناح الأيسر فكان يمتدّ إلى نصيبين ويتجاوزها قليلا مرتكزاً إلى غابة من أشجار الزيتون ، فرأى إبراهيم باشا أن نقطة الضعف إنما هى فى هذه الناحية ، فقرر مهاجمة الجناح الأيسر ، وأمر بتقدم الصفوف المصرية لإنفاذ هذه الخطة .

كان فى هذه الحركة خطر كبير على الجيش المصرى ، إذ لم يكن له من سبيل إلى مهاجمة الجيش التركى من هذه الناحية إلا إذا سار أمام جناحه الأيمن ، ثم أمام القلب ، وبذلك تتلقفه نيران الترك أثناء مسيره ، ولكن القيادة التركية لم تغتنم هذه الفرصة ، وبقى حافظ باشا غارًا فى معاقله لا يبدى حراكًا ، وصمم على أن يدخر قوته إلى أن يهاجمه المصريون ، وترك الجيش المصرى ينتقل إلى مواقعه الجديدة ، ولقد رتب إبراهيم باشا خطة الانتقال والهجوم بإحكام ودقة وفطنة استرعت إعجاب الضباط الأوروبيين الذين كانوا فى معسكر الجيش التركى ، فقد شهدوا بأن حركات الجيش المصرى كانت تسير طبقًا لخطط الجيوش الأوروبية المدربة على أرقى فنون القتال العلمية .

ومما دل على براعة إبراهيم باشا فى وضع الخطط الحربية أنه رأى أكمة عالية (نمرة ٢٢ على الخريطة ص ٢٧٩) تجاه ميسرة الأتراك وقد أهملوا احتلالها ، فأمر لفوره سليمان باشا الفرنساوى الذى كان على ميمنة الجيش المصرى باحتلال تلك الأكمة ، فبادرها ومعه فريق

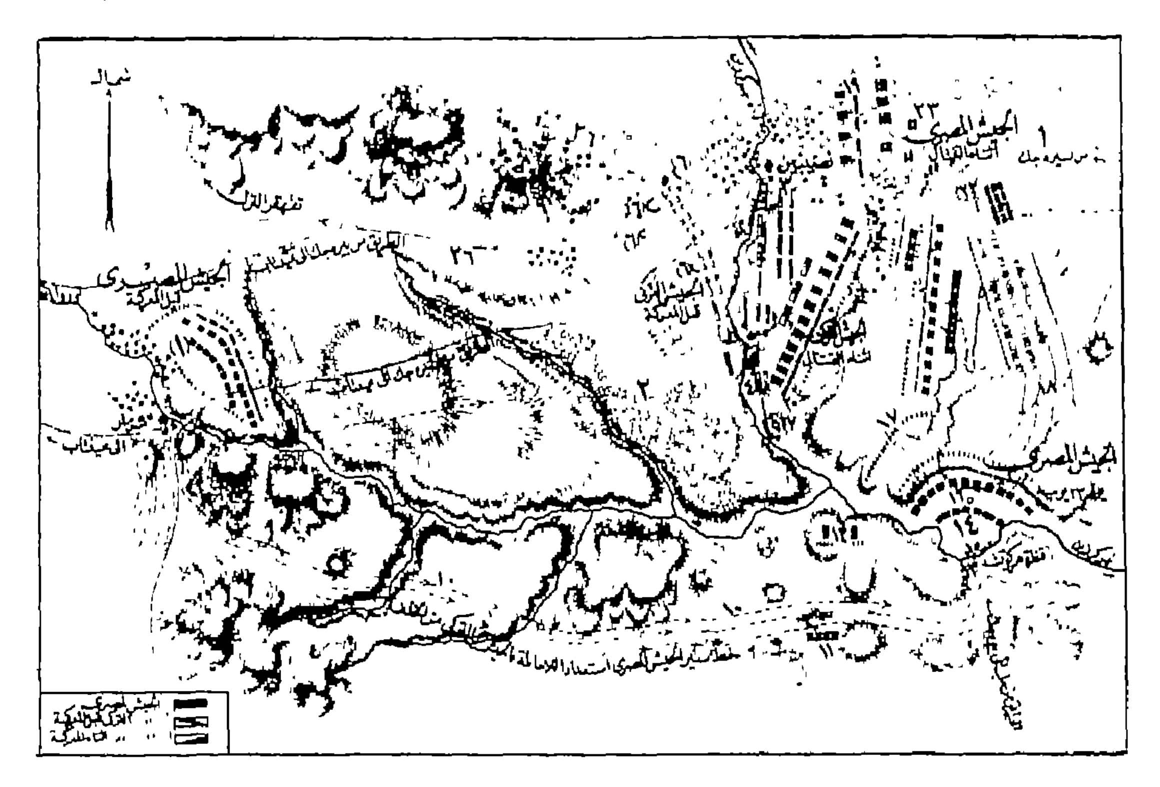
من الفرسان والمدفعية ونصبوا عليها المدافع ، فانكشفت أمام نيرانها مواقع الترك ، وكانت هذه الحركة مفتاح النصر فى واقعة نصيبين .

وقد تنبه الترك إلى خطئهم فى إهمال تلك الأكمة ، وحاولوا أن يحتلوها ، ورماها حافظ باشا بقوة من فرسانه لإقصاء المصريين عنها ، ولكنهم عجزوا عن مقابلة النيران التى سلطها عليهم حماة الأكمة وأبطالها ، فارتدوا عنها إلى مواقعهم الأولى .

ولما اكتمل الجيش المصرى تجاه الجناح الأيسر أمر إبراهيم باشا بإطلاق المدافع على ميسرة الأتراك والهجوم عليهم ، فتلقى الترك الهجوم بثبات وشجاعة ، واشتد الضرب بالمدافع والبنادق بين الفريقين ، واستمر نحو ساعة ونصف حمى فيها وطيس القتال واستحرّت ناره .

وفى أثناء ذلك فرغت ذخيرة الجيش المصرى ، فانتظر جنود المدفعية وهدموا ريثما ترد إليهم الذخيرة ، بينما كان الترك يصبون عليهم ناراً حامية ، فتقلقل المشاة من الجناح الأيمن المصرى ، وارتدوا إلى الوراء ، فصدر الأمر إلى الفرسان بالهجوم ، فأقدموا ، لكنهم اضطروا إلى الارتداد أمام رصاص الترك ، وتقهقروا هم والمشاة ، ولكن إبراهيم باشا تمكن بعد جهد شديد من وقف تيار التقهقر .

وفى غضون ذلك وردت الذخائر للمدفعية ، فصبت نيرانها على الترك ، واشترك المشاة والفرسان والمدفعية فى الضرب ، إلى أن تزلزلت صفوف الجيش التركى والتوت أمام هجمات المصريين ، وظهر الضعف فى إطلاق مدافعهم ، فأخذ الأكراد يفرون متقهقرين ، فشدد إبراهيم باشا الهجوم على الميسرة ، فلم يقوَ الترك على صد هذا الهجوم ، ولجأوا إلى الفرار تاركين بنادقهم وذخيرتهم ، فاحتل الجيش المصرى مواقعهم ، وغنم جميع مدافعهم وذخائرهم وخيامهم وكل ما فيها من العتاد والميرة إذ لم يتمكن الترك من حمل شىء منها أثناء هزيمتهم ، حتى أن حافظ باشا ترك خيمته المزخرفة ، وفيها أوراقه وأوسمته ؛ فكانت معركة نصيبين نصراً مبينًا للجيش المصرى .



خريطة واقعة نصيبين (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩) وفيها البيانات الآتية

١ موقع الجيش المصرى يومى ٢٠ و ٢١ يونيه (على نهر مزار).

٢ حركة الاستطلاع التى قام بها إبراهيم باشا لاكتشاف مواقع الترك يوم ٢١ يونيه.

٣-٤-٥ موقع الجيش التركى قبل المعركة (على شكل مثلث).

٦ استحكامات لحماية وجهة الجيش التركى.

٧ استحكامات لحماية ميسرة الجيش التركى.

٨ ألاى من المشاة الترك فى أكمة محصنة تحمى الجناح الأيمن.

٩ بطارية من المدافع بالأكمة المذكورة.

١٠ خط سير الجيش المصرى يوم ٢٢ يونيه وانتقاله من موقعه الأول على نهر مزار إلى موقعه الأخير استعداداً للإحاطة بالجيش التركى من الخلف.

١١ ألايان من المشاة المصريين احتشدا على يمين الجيش المصرى ومعهما بطاريتان من المدافع لحمايته أثناء انتقاله إلى موقعه الجديد.

١٢ ألايان من المشاة والفرسان المصرية احتشدا على يسار الجيش للغرض المتقدم.

١٣ قنطرة هركون التى عبر عليها الجيش المصرى نهر كرزين.

١٤	موقع الجيش المصرى يوم ٢٣ يونيه على الضفة اليسرى لنهر كرزين بعد اجتيازه قنطرة هركون .
١٥	خيمة إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى .
١٦	خيمة سليمان باشا الفرنساوى .
١٧	موقع المدافع التركية ليلة ٢٤ يونيه بعد عبور الجيش المصرى نهر كرزين .
١٨	خط سير الجيش المصرى يوم ٢٤ يونيه للإحاطة بالجيش التركى .
١٩ — ٢٠	موقع الجيش التركى عند بدء القتال بعد أن أدار وجهه إلى الخلف استعداداً لملاقاة الجيش المصرى فى موقعه الجديد .
٢١	استحكامات أقامها الترك أمام وجهة جيشهم .
٢٢	الأكمة التى قصد إليها المصريون للتسلط على مواقع الترك ونصبوا فيها المدافع الثقيلة .
٢٣	ألايان من المشاة المصريين ، وأربع ألايات من الفرسان ، وأربع بطاريات من المدافع الخفيفة فى أقصى الميمنة لحماية هجوم الجناح الأيمن على مواقع الترك .
٢٤ — ٢٥	موقع الاحتياطى المصرى من المشاة والمدفعية الذين احتلوا الآكام أثناء تقهقر الترك .
٢٦	اتجاه تقهقر الترك .

نتائج الواقعة

بلغت خسائر الترك فى معركة نصيبين نحو أربعة آلاف قتيل وجريح ، وكان من قتلاهم بعض القواد والضباط ، وأسر منهم بين اثنى عشر ألف إلى خمسة عشر ألف أسير ، واستولى المصريون على نحو عشرين ألف بندقية و ٤٤ مدفعًا ، واستولوا فى اليوم التالى على ٣٠ مدفعا فى حصن (بيرة جك) وكذلك استولوا على خزانة الجيش التى لم يتمكن الترك من أخذها عند الهزيمة ، وكان بها من النقد ما قيمته ستة ملايين فرنك .

أما الجيش المصرى فقد بلغت خسائره نحو أربعة آلاف بين قتيل وجريح ، وهى خسارة عظيمة ، ولكنها كانت فداء للنصر المبين الذى نالته مصر فى هذه الواقعة .

قضت هذه الواقعة على قوة تركيا الحربية ، وأنقذت مصر من الخطر الذى كان يتهددها من

ناحية تركيا ، وكان فيها أكبر انتصار حازه الجيش المصرى فى حروبه مع تركيا ، وهى أعظم الوقائع التى خاض غمارها من جهة أهميتها الحربية ونتائجها السياسية ، أما من الوجهة الحربية فقد رأيت أنها تفوق المعارك الأخرى فى عظم الجهود والخسائر التى بذلت فيها ، وأما من الوجهة السياسية فلأنها حفظت استقلال مصر ، وكانت له بمثابة السياج الذى صانه من الخطر ، فلو أن تركيا فازت فى هذه المعركة لاستمرت فى زحفها على سورية ثم على مصر ، ولقضت على استقلال مصر وردتها ولاية تركية لا تمتاز عن سائر ولايات السلطنة العثمانية فى شىء .

وهذه الواقعة تشبه أن تكون كواقعة (جماب) التى فازت فيها جيوش الثورة الفرنسية على الجيش النمسوى وأنقذت فرنسا من خطر الغارة عليها وصانت كيانها ، وكذلك كان شأن واقعة (نصيبين) بالنسبة لمصر .

وكان وقع هذه المعركة أليمًا شديد المضض على تركيا لأنها خاتمة الهزائم التى حاقت بجيوشها فى معاركها المتعاقبة مع الجيش المصرى .

وفاة السلطان محمود

توفى السلطان محمود فى أول يوليه سنة ١٨٣٩ قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه ، إذ كان على فراش الموت ، فأسلم الروح دون أن يعلم بالطامّة التى حلت بالجيش التركى فى تلك الواقعة الفاصلة ، وخلف بعده السلطان عبد المجيد فى الوقت الذى تزلزلت فيه قوائم السلطنة من ضربات مصر ، ولم تكن سنّ السلطان الجديد تتجاوز السابعة عشرة ، فلم يدر كيف يأخذ فى أمره ولا كيف يتجه بين العواصف التى هبت على عرشه .

تقدم إبراهيم باشا

أما إبراهيم باشا فإنه استمر فى تقدمه عقب انتصاره ، واحتل (بيرة جك) على ضفة نهر الفرات اليسرى (ثم عينتاب) و (مرعش) و (أورفه) .

تسليم الأسطول التركى

وأعقب هذه الواقعة كارثة أخرى أصابت تركيا فى أسطولها ، وذلك أنه لما بدأت الحركات العدائية الأخيرة بين مصر وتركيا صدرت الأوامر للأسطول التركى بالتحرك من بوغاز الدردنيل بقيادة القبودان أحمد باشا فوزى لمنازلة العمارة المصرية ، ولكن فرنسا وانجلترا أرسلتا بعض السفن لمنع التصادم بين الأسطولين تنفيذاً للخطة التى كان عليها العمل بينهما من الحيلولة بين تصادم مصر وتركيا .

ولما هزم الجيش التركى فى واقعة (نصيبين) وتولى السلطان عبد المجيد ورأى دعائم عرشه تتزلزل أمام فتوحات الجيش المصرى ، جنح للسلم ، فبعث برسول يدعى (عاكف أفندى) إلى مصر يعرض على محمد على باشا عقد هدنة يمكن فى خلالها إجراء المفاوضات للاتفاق على حل يرضى الطرفين ، وعهد إليه أن يأمر فوزى باشا قائد العمارة التركية أن يعود إلى الاستانة ، ولكن فوزى باشا كان قلقاً على مركزه بعد موت السلطان محمود ، إذ كان مقربًا لديه وله اختصاص به ، فلما خلفه السلطان عبد المجيد عين خسرو باشا[٥٣] صدرا أعظم ، وكان بينه وبين فوزى باشا عداء قديم ، فعظمت وساوس فوزى باشا ، وظن أن استدعاءه إلى الاستانة لم يكن إلا لعزله أو لقتله ، وزين له وكيله عثمان باشا أن يلتجئ إلى محمد على باشا خصم خسرو باشا القديم ويسلمه الأسطول التركى بأكمله هدية خالصة ، فينال منه المكافأة وحسن الجزاء ، فأصغى فوزى باشا لهذه المشورة التى تنطوى فى ذاتها على الخيانة والدناءة ، وأقلع بالعمارة التركية وخرج بها من الدردنيل ومضى إلى الإسكندرية ، وكانت هذه العمارة على شأن من القوة ، مؤلفة من تسع بوارج كبيرة (غلايين) وإحدى عشرة سفينة من نوع الفرقاطة ، وخمس من نوع الكورفت ، وعلى ظهرها ١٦١٠٧ من الملاحين ، وألايان من الجنود يبلغ عددهم ٥,٠٠٠ فيكون الجميع ٢١,١٠٧ .

فلما وصل فوزى باشا على رأس هذه العمارة إلى رودس أرسل وكيله إلى محمد على باشا بمصر يخبره بعزمه ، فابتهج محمد على بهذه الفرصة السعيدة ابتهاجًا عظيمًا ، وأنفذ رسولا على السفينة البخارية (النيل) ليبلغه سروره مما أقدم عليه ، ثم أقلعت الدوننمة العثمانية من رودس

---

(٥٣) هو الذى كان واليا لمصر سنة ١٨٠٣ واشتهر بعدائه لمحمد على .

بقيادة فوزى باشا وبلغت الإسكندرية ، وكانت الدونمة المصرية خارج البوغاز لإجراء التمرينات البحرية بقيادة الأميرال مصطفى مطوش باشا ، فدخلت الدونمتان إلى الميناء معًا ، وعدد سفنهما نحو خمسين سفينة حربية تقل نحو ثلاثين ألف مقاتل ، وعليها نحو ثلاثة آلاف مدفع ، فكان منظر دخول تلك العمارة الضخمة إلى ميناء الإسكندرية يملأ القلب جلالا وروعة ، وصارت مصر بهذه القوة البحرية المزدوجة أقوى دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط .

ولما علم جنود الأسطول العثمانى بالأمر ، وكان مكتومًا عنهم إلى ذلك اليوم ، هرب بعضهم على الصنادل وعادوا إلى الاستانة .

وتسلم محمد على باشا هذا الأسطول الضخم ، فكان لهذا الحادث تأثير كبير فى سير المسألة المصرية ، لأن تسليم الأسطول التركى إلى مصر بعد انتصارها فى معركة نصيبين جعل كفتها الراجحة على تركيا فى البر والبحر ، وبلغت مصر فى ذلك الحين أوج قوتها على عهد محمد على .

* * *

الفصل التاسع

معاهدة لندره ومركز مصر الدولى

تدخل الدول بعد معركة نصيبين

إن انتصار الجيش المصرى فى معركة (نصيبين) قد وضع المسألة المصرية والمسألة الشرقية ومسألة التوازن الأوروبى عامةً موضع البحث والنظر ، وهذه هى المرة الثانية التى استرعت فيها انتصارات مصر أنظار الدول الأوروبية وأوقعتهن فى الحيرة والارتباك ، فالمرة الأولى كما تذكر كانت عقب انتصارات حمص وبيلان وقونيه ، وهذه المرة الثانية بعد نصيبين ، وهذا يدلك على مدى تأثير تلك الانتصارات الباهرة ، وحسبك دليلا على عظمها أنها هزّت كيان التوازن الأوروبى هزّا ، وتداعت لها أركان السلطنة العثمانية ، وفتحت باب المسألة الشرقية ، فتجددت أطماع الدول المختلفة بشأنها ، مما جعل السلام مهدداً فى أوروبا ، وإذا تأملت صحائف تاريخنا الحديث لم تجد لمصر من التأثير البالغ فى السياسة الدولية الأوروبية مثلما كان لها عقب معركة نصيبين ، ولا يغيبنّ عنك أن هذا يرجع أول وهلة إلى انتصاراتها الحربية فى ميادين القتال . تلك الانتصارات التى هى صفحة فخار لمصر وجيشها وقائدها العظيم إبراهيم باشا ، وإنك لتلمح عظمة إبراهيم من كونه قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر إلى حيث جعل تركيا والدول الأوروبية تقف مبهوتةً مضطربةً أمام وثبات ذلك الفتح الكبير ، كأنما هى أمام القَدَر .

إن النتيجة المنطقية لمعركة نصيبين كان يجب أن تكون إقرار مصر فى حدودها التى نالتها بمقتضى اتفاق (كوتاهيه) أى أن تشمل سورية وجزيرة العرب وإقليم أدنه وجزيرة كريت .

ذلك ما يقضى به الإنصاف ، لأن اتفاق (كوتاهيه) الذى تقدم ذكره قد أبرمته تركيا سنة ١٨٣٣ ، وأقرته الدول الأوروبية ، وكان أساسًا للحالة الحاضرة Statuquo التى ما فتئت الدول تنادى بوجوب المحافظة عليها ، وقد أرادت تركيا أن تنقض هذا الاتفاق بحد السيف ، فتحرشت بالجيش المصرى وتحدّته إلى القتال ، وهاجمت حدود مصر الشمالية التى رسمها اتفاق كوتاهيه ، وأجبرت مصر على خوض غمار القتال ، فوقعت معركة (نصيبين) التى انتهت بهزيمة

الجيش التركى ، فالنتيجة العادلة لهذه الهزيمة أن يبقى اتفاق كوتاهيه مرعياً من تركيا ومن الدول وخاصة ، لأن سورية أقرب إلى الدولة المصرية منها إلى تركيا ، إذ هى جزء من البلاد العربية التى جعل محمد على غرضه أن يؤسس منها الدولة المصرية ، فالعدالة والمصلحة السياسية والاجتماعية ، والنتيجة المنطقية للمعركة ، كل أولئك يقضى بالاعتراف باستقلال مصر التام وانفصالها عن تركيا وانضمام سورية إليها .

ولو أن الدول الأوروبية عاملت مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان ، فى ثورتها على تركيا ، لما كان هناك شك فى إقرار تلك النتيجة ، لا بل إن مصر أولى بإقرارها على مطالبها العادلة ، لأنها فازت على تركيا بقوة جيشها وحده ، أما اليونان فقد انهزمت أمام تركيا ولم ينجها من آثار الهزيمة سوى مظاهرة الدول الأوروبية وتحالفهن على تركيا ، ومع ذلك فإن السياسة الدولية الأوروبية قضت لليونان باستقلالها التام ، أما مصر فقد حكمت عليها أن تبقى تحت السيادة التركية ، وأن تتخلى عن سورية وجزيرة العرب وأدنه وكريت ، وائتمرت بها الدول وحاربتها وقصّت أجنحتها ، وقضت عليها بإضعاف قوتها البرية والبحرية كما سيجىء بيانه ، وهذه المقارنة تصور لك الفرق بين معاملة أوروبا لأمة غربية ومعاملتها للأمم الشرقية ، وتريك المكيال الواحد يكبر ويصغر ، كأن فيه روح شيطان ...

موقف الدول

قلنا إن انتصار الجيش المصرى فى (نصيبين) حرّك مسألة التوازن الأوروبى والمسألة الشرقية ، فوقفت الدول الأوروبية مواقف مختلفة تبعًا لاختلاف أطماعها ونزعاتها .

موقف الروسيا

أما الروسيا فقد انتهزت هذه الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا بحجة الدفاع عنها .

موقف فرنسا

وفرنسا كانت تميل إلى إقرار محمد على باشا على سوريه وجزيرة العرب طبقًا لاتفاق كوتاهيه ولما أدت إليه معركة (نصيبين) .

موقف انجلترا

وأما انجلترا فإنها جاهرت بعدائها لمصر ، وأعلنت وجهة نظرها فى وجوب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية ، وإن هذا الكيان لا يقوم إلا بردّ سورية إلى تركيا ، وإخضاع محمد على بالقوة ، وأخذت تؤلب الدول الأخرى على مصر ليشتركن معها فى إخضاعها ، ولم تكن المحافظة على كيان السلطنة العثمانية هى وجهة نظرها الحقيقية ، بل غايتها الجوهرية هى إضعاف الدولة المصرية لأنها ترى فيها إذا قويت مزاحمًا لها فى سيادتها بالبحر الأبيض المتوسط ورقيبًا عليها فى طريقها إلى الهند ، ومن هنا كانت انجلترا تتمسك بكل عزم وقوة بوجوب ردّ سورية إلى تركيا ، لأن امتداد نفوذ مصر فى البلاد السورية يجعلها دولة بحرية قوية من دول البحر الأبيض المتوسط ، ويجعل لها الإشراف على طريق الهند من ناحية الفرات والعراق ، فضلا عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس .

وكانت تتمسك أيضًا برد الأسطول التركى إلى الدولة العثمانية لأن اندماجه فى الأسطول المصرى يجعل لمصر قوة بحرية كبيرة تخيف انجلترا .

إن عداء انجلترا لمصر من القواعد الأساسية لسياستها الاستعمارية ، فمنذ أخفقت فى احتلالها البلاد سنة ١٨٠٧ ، رأت محمد على يعترضها فى طريق مطامعها الاستعمارية ، فينشئ على ضفاف النيل دولة مصرية قوية ، ويمد نفوذها إلى شبه جزيرة العرب ، ويصل إلى نهر الفرات وشاطئ الخليج الفارسى ، وسواحل اليمن ، وهذه البلاد كلها واقعة فى طريق الهند ، فلا جرم أن تحنق انجلترا على مصر الفتية القوية ، وتبغيها الغوائل وتدس لها الدسائس ، فالسياسة الإنجليزية هى التى سعت جهدها لتقليم أظفار مصر وقصّ أجنحتها ، وإبقائها تحت السيادة التركية ، وإنقاص قوتها البرية والبحرية ، ترمى من ذلك إلى إضعافها طبقًا لمبدئها القديم وهو ألا تقوم فى مصر دولة قوية تعترض طريقها إلى الهند ، كأن استعمارها للهند يقتضى استعباد جميع البلاد التى فى طريقها إليها ، وهذا من أغرب ما يقضى به الجشع الاستعمارى .

وكان لها من إضعاف مصر غاية أخرى هى التمهيد لامتلاكها ووضع يدها عليها عندما تحين الفرصة ، ولو بقيت قوة مصر الحربية على ما كانت عليه فى عهد محمد على لتعذر على انجلترا تحقيق هذه الغاية ، فإضعاف قوة مصر هو من أغراض انجلترا الاستعمارية ، وقد ظلت هذه الغاية من قواعد السياسة الإنجليزية طوال القرن التاسع عشر وإلى اليوم ، وأيدت الحوادث

سوء نيتها نحو البلاد ، فإنها أخذت تتحين الفرص وتخلق المشاكل حتى احتلتها سنة ١٨٨٢ .

كانت انجلترا إذن قوام المؤامرة الدولية على مصر فى عهد محمد على ، وقد تولى وزارة خارجيتها فى ذلك العصر سياسى داهية من أكبر ساسة الإنجليز ، وهو اللورد بالمرستون ، وكان مشبعًا بروح العداء لمصر عاملا على إضعاف مكانتها وتقليم أظفارها تنفيذًا للسياسة التى أوضحناها ، فأخذ يبث مبادئه وأفكاره بين الدول الأوروبية ويعمل على انحيازها إلى صف انجلترا فى الوقيعة بمصر ، وكان يتولى السفارة الإنجليزية بالآستانة فى ذلك الحين سياسى أشد كراهية لمصر من اللورد بالمرستون ، وهو اللورد بونسونبى ، كان يجاهر بعدائه لمحمد على باشا ، وما فتىء يدس الدسائس للإدارة المصرية فى سورية ويبذل المساعى المختلفة لإحداث الثورات والفتن فيها وتحريض سكانها على الانتقاض على الحكم المصرى ، ويحرض دولته على محاربة محمد على باشا ، فكان لهذين الرجلين ، بالمرستون وبونسونبى ، أثر بالغ فى تدبير المؤامرة الدولية وتأليب الدول على مصر.

موقف النمسا وبروسيا

أما النمسا فكان وزيرها المشهور مترنيخ يميل إلى تعزيز مركز تركيا لغرضين ، أولهما ألا يجعل للروسيا ذريعة للتدخل فى شئون تركيا وبسط حمايتها عليها ، فإن فى ذلك خطراً على النمسا ، و (الثانى) أنه كان ينظر إلى قيام محمد على ضد تركيا كثورة على الحاكم الرسمى ، ومبدأ مترنيخ مقاومة الثورات القومية التى يراد منها الخروج على سلطة الحكومات الرسمية .

ولم يكن لبروسيا أطماع خاصة فى هذه الأزمة ، بل كانت ترمى إلى المحافظة على السلم اتقاء للأخطار التى تنجم عن حرب أوروبية ، وكان ملكها يكره فرنسا من ناحية أخرى لأسباب قومية ويميل إلى السياسة المناقضة لسياسة فرنسا .

موقف تركيا

تولى السلطان عبد المجيد عرش السلطنة بعد وفاة السلطان محمود الثانى ، وسنه كما قدمنا لا تتجاوز السابعة عشرة ، خلف السلطان محمود والسلطنة تتداعى أركانها تحت ضربات الجيش المصرى ، وتولى زمام الحكم والدولة لا جيش لها ولا أسطول فرأى من الحكمة أن يجنح إلى السلم والمفاوضة رأسًا مع محمد على لحسم الخلاف بين الدولتين بالحسنى ، ومع أنه استوزر

خسرو باشا المشهور بعدائه القديم لمحمد على وجعله صدراً أعظم إلا أنه هو ووزيره أبديا رغبتهما فى إحلال الصفاء والسلام بين الدولتين محل الجفاء والخصام ، ولم يكد السلطان عبد المجيد يعتلى عرش السلطنة حتى أرسل إلى محمد على مندوبًا خاصًا وهو (عاكف أفندى) يحمل كتابًا من خسرو باشا يعرب فيه عن عواطف السلطان الودية نحو محمد على ونسيانه ما وقع منه فى الماضى ، ويخوله ملك مصر الوراثى ، ومع أن محمد على كان لا يثق بحسن نية خسرو باشا ولا يفتأ يطلب عزله إلا أن من المحقق أنه لو ترك الأمر للحكومة التركية وحدها لرضيت بإبرام الصلح مع محمد على باشا على قاعدة الاعتراف باستقلال مصر وإقرار سلطتها فى سورية وجزيرة العرب .

مذكرة الدول إلى الباب العالى

(٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩)

لكن مطامع الدول أبت على مصر أن تجنى ثمار تضحياتها وانتصاراتها ، فقدم سفراؤها فى الاستانة مذكرة إلى الباب العالى فى ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ يطلبون إليه باسم الدول الخمس ، النمسا ، والروسيا ، وانجلترا ، وفرنسا ، وبروسيا ، أن لا يبرم أمرًا فى شأن المسألة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم ، وكان الكونت مترنيخ وزير النمسا الأكبر هو المقترح لهذه المذكرة ، ووجهة نظره أن يحول دون انفراد روسيا بالتدخل فى المسألة الشرقية .

وقد يبدو غريبا أن تشترك فرنسا فى هذه المذكرة ، وهى التى كانت تنادى بتأييد مصر فى تلك الأزمة ، ولكن السياسة الفرنسية كانت فى مسلكها غير مستقرة ولا آخذة بالحزم وأصالة الرأى وبعد النظر ، فقد كانت تأمل عبثًا من تدخل الدول أن تصل إلى التوفيق بين وجهتى نظر مصر وتركيا بطريق الوساطة ، وكانت تقصد من جهة أخرى إلى أن تدخل الدول فى حل الأزمة يمنع انفراد الروسيا بحماية تركيا ، ولكنها بتخبطها واضطرابها تركت الميدان للسياسة الإنجليزية تملى فيه إرادتها على الدول الأخرى .

كانت مذكرة الدول إلى الباب العالى بمثابة إلغاء لنتائج معركة نصيبين ، وكانت من هذه الناحية انتصاراً لوجهة نظر انجلترا ، أما تركيا فقد وضعتها المذكرة تحت وصاية الدول الأوروبية ، ففقدت بذلك استقلالها الفعلى .

وقد انقضت أشهر فى تبادل الآراء بين الدول الأوروبية بقصد التوفيق بين وجهات

نظرها ، ولو سلكت فرنسا فى خلال تلك الأشهر خطة الحكمة والحزم لوفرت على مصر كثيراً من الأعباء والخسائر التى احتملتها فيما بعد ، فقد عرض اللورد بالمرستون حلا وسطاً للتوفيق بين وجهة نظر انجلترا وفرنسا ، وهو أن يُعطى محمد على الحكم الوراثى بمصر وولاية عكا ماعدا مدينة عكا ذاتها أى جنوبى سورية ، فرفضت فرنسا هذا العرض وتمسكت بوجهة نظرها ، وكان هذا منها خطأ كبيراً تحملت مصر عواقبه ، فلو أنها قبلته لانتهت الأزمة بخير مما انتهت به بعد ذلك ، إذ أدى رفض فرنسا إلى انفراد انجلترا بالعمل وتأليبها الدول الأوروبية لإذلال مصر كما سيجىء بيانه .

وانتهزت الروسيا فرصة الخلاف بين فرنسا وانجلترا فى المسألة المصرية فتوددت إلى الحكومة الإنجليزية ووافقتها على وجهة نظرها فى المسألة ، وأوفدت البارون برينوف Brunow إلى لندره لتوكيد العلاقات بين الدولتين ، وأصبح سهلا على انجلترا وقد انضمت الروسيا إليها أن تكسب إلى صفها النمسا وبروسيا .

تولى المسيو تييرس Thiers رياسة الوزارة الفرنسية ووزارة خارجيتها فى مارس سنة ١٨٤٠ ، وكان متمسكا بوجهة نظر فرنسا فى المسألة المصرية ، وهى ضم سورية إلى مصر ، وسعى فى أن تنتهى هذه المسألة بالاتفاق رأساً بين الباب العالى ومحمد على ، وعلم اللورد بالمرستون بهذه المساعى ، فأخذ فى إحباطها ، وعارضها بالمفاوضة مع الدول الأخرى : الروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، لتقرير الحل النهائى بمعاهدة تضع بها مصر وفرنسا أمام الأمر الواقع .

إبرام معاهدة لندره وشروطها

(١٥ يوليه سنة ١٨٤٠)

كانت نتيجة هذه المفاوضات إبرام المعاهدة الشهيرة بمعاهدة لندره فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ بين انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، وللمعاهدة ملحق يتضمن الامتيازات التى تعهد السلطان بتخويلها محمد على ، ويعتبر هذا الملحق جزءاً من المعاهدة ، وهاك خلاصة شروط المعاهدة والملحق :

أولا : أن يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى ، ويكون له مدة حياته حكم

المنطقة الجنوبية من سورية[١] المعروفة بولاية عكا (فلسطين) بما فيها مدينة عكا ذاتها وقلعتها ، بشرط أن يقبل ذلك فى مدة لا تتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه هذا القرار ، وان يشفع قبوله بإخلاء جنوده جزيرة كريت وبلاد العرب وإقليم ادنه وسائر البلاد العثمانية عدا ولاية عكا ، وأن يعيد إلى تركيا أسطولها .

ثانيا : إذا لم يقبل هذا القرار فى مدة عشرة أيام يحرم الحكم على ولاية عكا ، ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثى لمصر وسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وإرجاع الأسطول العثمانى ، فإذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان السلطان فى حل من حرمانه ولاية مصر .

ثالثا : يدفع محمد على باشا جزية سنوية للباب العالى تتبع فى نسبتها البلاد التى تعهد إليه إدارتها .

رابعا : تسرى فى مصر وفى ولاية عكا المعاهدة التى أبرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها (الأساسية) ، ويتولى محمد على وخلفاؤه جباية الضرائب باسم السلطان على أن يؤدوا الجزية ، ويتولون الإنفاق على الإدارة العسكرية والمدنية فى البلاد التى يحكمونها .

خامسا : تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءاً من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها .

سادسا : يتكفل الحلفاء فى حالة رفض محمد على باشا لتلك الشروط أن يلجأوا إلى وسائل القوة لتنفيذها ، وتتعهد انجلترا والنمسا فى خلال ذلك أن تتخذ باسم الحلفاء بناء على طلب السلطان كل الوسائل لقطع المواصلات بين مصر وسورية ومنع وصول المدد من إحداهما للأخرى ، وتعضيد الرعايا العثمانيين الذين يريدون خلع طاعة الحكومة المصرية والرجوع إلى الحكم العثمانى وإمدادهم بكل ما لديهم من المساعدات[٢]

سابعا : إذا لم يذعن محمد على للشروط المتقدمة وجرد قواته البرية والبحرية على الاستانة

---

(١) حددت هذه المنطقة فى ملحق المعاهدة كما يأتى : يبدأ الحد من رأس الناقورة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط (شمال عكا) إلى مصب نهر السيسبان فى شمال بحيرة طبرية ، ثم يتبع الشاطئ الغربى لتلك البحيرة ، فالضفة اليمنى لنهر الأردن ، فالشاطئ الغربى للبحر الميت ، ومن نهايته يمتد على خط مستقيم إلى رأس خليج العقبة على البحر الأحمر ، ثم يتبع الشاطئ الغربى لخليج العقبة . ثم الشاطئ الشرقى لخليج السويس حتى مدينة السويس ذاتها (أنظر الخريطة) .

(٢) ومعنى ذلك تحريضهم على العصيان لمناوأة الجنود المصرية داخل البلاد كى لا تتفرغ لمقاومة القوات الانجليزية والنمسوية البحرية والبرية التى اعتزمت الدولتان تعبئتها لمحاربة مصر.

فيتعهد الحلفاء بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحماية عرشه وجعل الاستانة والبواغيز بمأمن من كل اعتداء

* * *

تم إبرام هذه المعاهدة بأن وقع عليها كل من اللورد بالمرستون عن انجلترا ، والبارون نومان السفير النمسوى فى انجلترا عن النمسا ، والبارون بيلوف عن بروسيا ، والبارون برينوف عن الروسيا ، وشكيب أفندى وزير تركيا المفوض فى لندره عن الباب العالى ، وقد أبرمت المعاهدة بغير علم مصر وفرنسا ، فقد فوجئت الحكومة الفرنسية بخبرها مفاجأة ، فلما أذيع نبأ إبرامها أدرك المسيو تييرس ما فى هذا العمل من التحدى لفرنسا والغض منها ، وكان من نتائجها أن هاجت الخواطر فيها وتوترت العلاقات بينها وبين انجلترا ، وكادت تقع الحرب ، فأرغت فرنسا وأزبدت ، وأخذت تستعد وتحرض محمد على باشا على نبذ قرارات الدول ، لكنها أدركت آخر الأمر أن استعداداتها لا تغير من موقف الدول المؤتمرة ، وأنها لا قبل لها بأن تخوض غمار حرب أوروبية ، فتراجعت وتركت مصر وحدها أمام الدول المؤتمرة ، فاحتملت مصر نتائج سياسة فرنسا الخرقاء .

إن معاهدة لندره تقضى بجعل حكم مصر وراثياً فى أسرة محمد على ، أى باستقلال مصر الداخلى التام ، وإرجاع مصر إلى حدودها الأصلية قبل حروبها الأخيرة ، وحرمانها حكم جزيرة العرب وسورية وكريت وإقليم أدنه ، وتخويل محمد على مدة حياته حكم سوريه الجنوبية .

ولعلك تلاحظ فى هذه المعاهدة تعهد الدول باتخاذ وسائل العنف والقوة لتنفيذ شروطها فى حالة رفض محمد على قبولها ، وتلاحظ أيضًا تعهدها بحماية عرش آل عثمان والدفاع عن السلطنة العثمانية والبواغيز فى حالة مهاجمة قوات محمد على البرية والبحرية لها ، وهذا يصور لك ما بلغته مصر فى ذلك العصر من القوة والبأس ، مما دعا الحلفاء إلى التكاتف والتعاون لإجبارها على احترام معاهدة لندره وحماية تركيا من بأسها .

دسائس انجلترا فى سورية

أرادت انجلترا كما قلنا أن تضع مصر بهذه المعاهدة أمام الأمر الواقع ، وأرادت أيضا أن تؤيد المعاهدة بالفعل ، فأخذت قبل إمضائها تحرض سكان لبنان على خلع طاعة مصر ، ومما

بدلته من الوسائل لهذا الغرض أن اللورد (بونسونبى) سفيرها فى الاستانة أرسل المستر (ريتشارد وود) ترجمان السفارة الإنجليزية إلى لبنان ، وكان قد تعلم اللغة العربية وجاب أنحاء البلاد من قبل ، فأثار اللبنانيين واستمال إليه أمراءهم ومشايخهم وكانوا ينقمون على الحكومة المصرية إيثارها الأمير بشير الشهابى حاكم الجبل واختصاصه بالسلطة ، فأيدوا الثورة ، واتسع بهم مداها ، فعمت أنحاء لبنان .

فالثورة على الحكم المصرى فى سورية كانت كما ترى من عمل الدسائس الإنجليزية ، قال الدكتور مشاقة وهو من معاصرى تلك الحوادث فى هذا الصدد ما خلاصته :

« دخلت سنة ١٨٣٩ والأمور فى سورية على ما رويناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال شاء ربك تغييرًا فى البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية (الإنجليزية) ونزل فى كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ، دخل الرجل الذى سميناه جاسوسًا واسمه الحقيقى وود ، وكان ترجمانًا لقنصل دولته بالاستانة ، وأظهر فى بادى الأمر ميلا غريبًا إلى تعلم اللغة العربية وتغلب على أمياله لدرس أحوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحًا أعماها عن معرفة غرضه الرئيسى ، ولا مشاحة أن دولة الانجليز أكثر الدول استعمارًا ، وكأنها أوجست خيفة من الدولة المصرية التى مع حداثة نشأتها أصبحت فى مصاف الدول المرتقية ، وكأنها لحظت أن محمد على باشا يطمع بعد ضم البلاد فى إحياء الدولة العربية القديمة وإرجاع دولة إسلامية عربية هذا شأنها فى تنظيم أحوال الرعية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتمدنة ولم تغفل بطلها إبراهيم باشا — نابليون مصر — بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها فى الاستعمار ، فرامت مقاومتها ولذلك أرسلت رجلها الذى ذكرناه فأخذ يلقى بذور الشقاق فى قلوب الأهالى ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية وجعل مركزه جبل كسروان »[٣] .

أخذ الثوار يناوشون الحاميات المصرية وقتلوا بعض الحكام المصريين ، وأعلنوا الامتناع عن أداء الضرائب والمؤن العسكرية ، ولكن إبراهيم باشا بادر بقمع هذا العصيان بما لديه من القوات ، وجاءه المدد من مصر بقيادة عباس باشا فأمكنه إخماد العصيان وأحرق بعض القرى وقبض على رؤساء الفتنة وعددهم ٥٧ رجلا ، وأبعدهم إلى الإسكندرية ومنها إلى (سنار) بأقصى السودان حيث بقوا بها إلى أن انتهت الحرب وأعيدوا إلى بلادهم .

(٣) مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ١٢٦ .

ولم تنقطع الفتن فى لبنان وسورية ، بل ظلت مستمرة خلال الحرب ، وكان لها أثر كبير فى إحراج مركز الجيش ، وأخذ سليمان باشا فى تحصين (بيروت) وغيرها من الثغور السورية توقعاً لمجىء السفن الإنجليزية .

ورأت انجلترا فى محمد على عزيمة على المقاومة ، فقررت تجريد مصر من عمارتها البحرية لكيلا يستطيع محمد على إمداد قواته فى الشام بطريق البحر فيعجزه ذلك عن إمدادها برًّا بطريق الصحراء المقفرة التى تفصل مصر وفلسطين ، فأصدرت أوامرها إلى الكومودور نابييه Napier قبل إمضاء المعاهدة بالإقلاع بأسطوله إلى مياه مصر والشام ، وعهدت إليه إجبار محمد على تسليم العمارة التركية وكلفته أسر العمارة المصرية أو تدميرها ، وكان بعض السفن الحربية المصرية وقتئذ فى مياه بيروت ، فلما علمت فرنسا بهذا النبأ بادرت بإرسال إحدى سفنها إلى بيروت لإبلاغ إبراهيم باشا الخبر ، فعادت السفن المصرية من فورها إلى الإسكندرية وجاء الكومودور (نابييه) إلى بيروت فلم يجدها وظل فى عرض البحر يرقب الفرصة السانحة لأخذها .

وأخذ محمد على من ناحيته يرصد الأهبة للمقاومة والدفاع ، وأصدر أوامره إلى الأسطول بالمرابطة فى ميناء الاسكندرية وعدم الخروج إلى عرض البحر كيلا يستهدف للأساطيل الانجليزية ، لأن حكومة انجلترا كانت ممضية عزمها على تجريد مصر من قوتها البحرية .

وفى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ استفاضت أنباء معاهدة لندره فى الشام ومصر ، وأصدرت الحكومة الإنجليزية أوامرها للأسطول الإنجليزى بمحاصرة سواحل الشام ومصر وأسر السفن المصرية حربية كانت أو تجارية ، فرجع الكومودور (نابييه) إلى بيروت واستولى فى طريقه على كل ما صادفه من المراكب وأعلن الجيش المصرى بإخلاء بيروت وعكا فى أقرب وقت ، ونشر بين سكان سورية ولبنان منشورات أنبأهم فيها بما تم عليه اتفاق الدول فى معاهدة لندره ، وخاصة إرجاع سورية إلى الدولة العثمانية ، ودعاهم إلى العصيان ونزع أيديهم من طاعة الحكومة المصرية ، فثار اللبنانيون على الحكم المصرى عوداً على بدء .

رفض محمد على باشا شروط المعاهدة

(أغسطس سنة ١٨٤٠)

كان محمد على مصممًا على التمسك بالبلاد التى فتحتها الجيوش المصرية وأقرته عليها

معاهدة كوتاهيه ، وصمم ألا ينزل عن أى جزء من هذه البلاد ، وهو يعلم قبل إبرام معاهدة لندره أن الدول تأتمر به وأنها لا تحجم عن مهاجمة مصر ذاتها لإكراهها على التسليم ، وتنوى نزع سورية من أملاك مصر ، فأخذ فى الاستعداد للدفاع ، وحشد الجنود فى ثغور مصر ، ووزع السلاح على عمال المصانع (الفابريقات) وطلبة المدارس الحربية ، وعهد إلى إبراهيم باشا أن يكون على أهبة القتال وأن يتفقد ثغور الشام وحصونها وخاصة عكا وبيروت ، وأمد الجيش المصرى فى سورية بالرجال والعتاد .

لم تغير المعاهدة إذن من موقفه .واعتزم الا يعمل بها والا يقرّ شروطها . وكانت فرنسا تحرضه على رفضها وتعده الا تتخلى عنه ، وتمنيه بانها تدافع عنه بقوة جيوشها وأساطيلها . فازداد تمسكا بموقفه . ولو لم تعده الحكومة الفرنسية بمعاونته إذا حزب الأمر . لكان له موقف غير موقفه هذا . لان محمد على كان مشهورا عنه الحكمة وبعد النظر . وهو لا يفوته ان من وراء الطاقة ومن المتعذر على مصر محاربة دول خمس مجتمعات متالبات عليها . ولكنه كان مطمئنا إلى معاونة فرنسا الحربية . فركب الشطط وارتدف العناد . وخسرت مصر من جراء ذلك حقوقا ومزايا وتضحيات جسيمة ، ويتبين لك مبلغ هذه الخسائر من المقابلة بين ما أقرته معاهدة لندره ، وما اضطرت مصر لقبوله بعد حرب شاقة تكبدت فيها متاعب وأهوالا .

ارسلت تركيا مندوبها (رفعت بك) إلى الإسكندرية لابلاغ محمد على شروط المعاهدة ، فوصل يوم ١١ اغسطس ، والتقى بوكلاء الدول المتحالفة ، واتفقوا على الخطة التى يتخذونها لتنفيذ ما تامر به الدول .

فبدا رفعت بك بمقابلة محمد على فى سراى راس التين يوم ١٦ أغسطس ، وأبلغه نبأ المعاهدة ، وطلب إليه العمل بها ، فغضب محمد على وأغلظ له فى الجواب ، وأقسم ألا ينزل عن شبر ارض من املاكه .

فلما راى رفعت بك ان بلاغه لم يصنع شيئا طلب إلى وكلاء الدول أن يقوموا من ناحيتهم بتبليغ محمد على شروط المعاهدة ، فجاءه قناصل انجلترا والروسيا والنمسا يوم ١٧ أغسطس ، وابلغوه الشروط ، وعرضوا عليه أن تكون مصر له ولورثته من بعده ، وأن تكون له ولاية عكا اى فلسطين مدة حياته ، وأمهلوه عشرة أيام يتهيأ فيها للقبول ، ودونوا له مذكرة عليها توقيعاتهم ، كتبوا فيها ما قالوه ، وحذروه عواقب الامتناع عن تنفيذ المعاهدة

ولما انقضى الموعد ذهب إليه رفعت بك مصحوباً بوكلاء الدول ليتعرفوا ما استقر عليه ،

فألفوه على رفضه ، وكان أشد تمسكًا بموقفه السابق ، فاعتزم رفعت بك مغادرة الإسكندرية والسفر إلى الاستانة ، ولكن وكلاء الدول طلبوا إليه البقاء حتى يتموا الإجراءات التى تقضى بها المعاهدة .

وفى اليوم التالى ذهبوا إلى محمد على ، وأبلغوه الإنذار الثانى ، فاستشاط غضبًا وأجابهم بأنه سيزحف على الاستانة إذا تجددت الحرب .

وإذ قد علم بعزم رفعت بك على السفر التفت إلى وكلاء الدول الأربع وقال لهم : « أتعتشم أن ترحلوا معه » .

فأجابوه بأن ليس لديهم تعليمات بمغادرة مراكزهم ، فقال لهم : « ولكنى لم يعد لى ثقة فيكم ، والعوائد المرعية تقضى فى حالة الحرب أن يرحل وكلاء أعدائنا عن البلاد ، فبقاؤكم لا يتفق مع هذه الحالة » .

فانصرف الوكلاء من حضرته بعد أن أمهلوه العشرة الأيام الثانية المذكورة فى المعاهدة ليراجع رأيه ، وأبلغوه أنه لم يعد له حق فى ولاية عكا ، ولا تسمح له الدول إلا بولاية مصر له ولذريته .

وفى خلال هذه المهلة استدعى محمد على باشا رفعت بك وعرض عليه إنهاء الخلاف بينه وبين تركيا دون تدخل الدول الأجنبية ، على أن يتنزل عن ولاية أدنه وجزيرة كريت وشبه جزيرة العرب ، وأن يكتفى بملك مصر الوراثى وحكم سورية مدة حياته ، وسلمه كتاباً بهذا المعنى برسم السلطان ، ولعله أراد أن يتفادى بهذه الوسيلة التقيد بميعاد العشرة الأيام التى تقضى بها المعاهدة ، فإن كتابه إلى السلطان قد يفتح باب المفاوضة ، ثم هو لا يعد رفضًا صريحًا .

ولكن رفعت بك ووكلاء الدول جاءوا فى نهاية المعاهدة ، وطلبوا مقابلة محمد على ، فلم يقابلهم ، واستقبلهم بوغوص بك وزير الخارجية ، وسامى بك سكرتير الباشا ، وأبلغاهم بنبأ الخطاب الذى كتبه الباشا إلى السلطان ، وإن هذا الجواب يعد قبولا للمعاهدة ، فأجاب القناصل : وإذا لم يقبل السلطان أن يخول الباشا حكم سورية فماذا يكون موقفه بعد ؟ فقال بوغوص بك وسامى بك . انه ليست لديهما تعليمات للرد على هذا السؤال ، فاعتبر القناصل ان هذا الجواب معناه رفض المعاهدة ، وحرروا محضرًا بذلك .

وغادر رفعت بك الإسكندرية ذاهبا إلى الاستانة ليبلغ الباب العالى ما حدث ، وحمل

معه خطاب محمد على إلى السلطان ، فتشاور الصدر الأعظم مع سفراء الدول فى الاستانة ، واستقر رأيهم على خلع محمد على من ولاية مصر ، وأصدر السلطان فرمانًا بذلك ، أرسل من فوره إلى الإسكندرية ، فوصل يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ، وبُلغ إلى محمد على .

وفى اليوم التالى غادر وكلاء الدول الأراضى المصرية ، فأصبحت مصر فى حالة حرب مع تركيا وحلفائها .

وأخذ محمد على يتأهب للحرب ، وبادر إلى تقوية استحكامات الإسكندرية ، وعهد بذلك إلى لجنة مؤلفة من نجله سعيد بك (باشا) ، وسليم باشا ، والمسيو موجيل ، والمسيو هو سار ، ومظهر أفندى (باشا) .

الحرب بين مصر والدول المتحالفة وثورة السوريين على الحكم المصرى

انتهزت انجلترا فرصة إبرام معاهدة لندره وأخذت فى تنفيذها بالقوة ، فأمرت عمارتها البحرية بضرب الثغور السورية والاشتراك مع الجنود التركية فى احتلالها ، وكان إبراهيم باشا قد استعد للدفاع عنها فجاء إلى بيروت وعسكر فى ضواحيها .

وفى خلال سبتمبر سنة ١٨٤٠ جاءت العمارة الإنجليزية إلى بيروت بقيادة الأميرال (استوبفورد) Stopford للاشتراك مع الكومودور (نابييه) فى ضرب بيروت بالمدافع ، واشترك معها بعض السفن الحربية النمسوية والتركية ، وفى ١٠ منه جاءت الحملة البرية ، وكانت مؤلفة من ١٥٠٠ من الجنود الإنجليز و ٥٥٠٠ من العثمانيين ، ونزلت هذه القوة فى ميناء جونيه[٤] تحت حماية العمارة الإنجليزية .

وأرسل الأميرال الإنجليزى انذاراً إلى سليمان باشا بإخلاء بيروت فورًا ، فطلب سليمان باشا ميعاد أربع وعشرين ساعة كى يراجع إبراهيم باشا فى الأمر ، فلم يُقبل طلبه ، وبدأ ضرب المدينة بالمدافع ، واستمر فى اليوم التالى حتى تهدم أكثر مبانيها ، ولكن الحلفاء لم ينزلوا فى ذلك اليوم جنودهم إلى المدينة خوفا من أن يظهر عليهم الجيش المصرى .

---

(٤) شمالى بيروت وتبعد عنها نحو عشرين كيلومتراً .

قلنا إن إبراهيم باشا كان على أهبة الدفاع عن سورية ، وكان لديه من المقاتلة نحو تسعين ألف جندى ، ولم يكن لدى الحلفاء فى بدء القتال سوى عشرة آلاف مقاتل على الأكثر ، ولذلك تردد قوادهم فى احتلال بيروت رغم ضربها بالمدافع ، وبقيت وقتًا ما فى يد الجيش المصرى ، ولكن جدَّ فى الموقف عامل جديد كان له تأثير سيىء فى مركز الجيش المصرى ، ذلك أن الإنجليز قد بذروا بذور الثورة فى نفوس السوريين واللبنانيين وألقوا فى روعهم أن الدول المتحالفة مصممة على طرد الجيش المصرى من الشام ، فانضموا إليهم وخاصة بعد أن وزع عليهم عمال الإنجليز الأسلحة والذخائر ، وبلغ عدد ما وزعوه عليهم من البنادق نحو ثلاثين ألف بندقية ، فتحرج مركز الجيش المصرى وأدرك أنه صار هدفًا لنارين ، نار الحلفاء ونار الثورة ، وهذه كانت أشد وطأة من قوات الحلفاء ، فأثرت تلك الحالة فى نفوس الجنود تأثيراً سيئاً نال من قوتهم ، وتقطّعت مواصلات الجيش بين مختلف المدن .

استيلاء الحلفاء على الثغور السورية

اشتبكت القوات المصرية المبعثرة مع قوات الحلفاء فى بعض المواقع ، واستولى الحلفاء على (جبيل) شمالى بيروت ، ثم على البترون ، وكذلك احتلوا حيفا وصور وصيدا ، ثم سقطت بيروت فى يد الحلفاء (أكتوبر سنة ١٨٤٠) بعد أن التقى المصريون والحلفاء فى واقعة (بحر صاف) وكانت الغلبة فيها للحلفاء .

وكذلك جلا المصريون عن طرابلس واللاذقية وأدنه من غير قتال ، فصار معظم الثغور فى يد الحلفاء .

سقوط عكا

(نوفمبر سنة ١٨٤٠)

اعتزم الإنجليز احتلال عكا لأنها مفتاح فلسطين والشام . وكان لاحتلالها من الأهمية أكثر مما لبيروت ، فجاءت العمارة الإنجليزية وأخذت تضربها بالمدافع يومى أول و ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، ولكن ذهب الضرب عبثًا وقاومتها الحصون والحامية المصرية مقاومة شديدة ، ثم جاءها مدد من السفن البريطانية ، فاعتزم الأميرال استوبفورد استئناف الضرب يوم ٣ نوفمبر ، فاصطفت السفن الإنجليزية فى ذلك اليوم ، وكان عددها نحو عشرين سفينة حربية ، وصبّت

قنابلها على الحصون وعلى المدينة ، فأجابت الحصون ضربًا بضرب مثله ، ولكن حدث أن اصابت القنابل الإنجليزية مستودع الذخائر فنسفته وانفجر انفجاراً مروعًا ، وهدم الانفجار نحو ثلث مبانى المدينة ، وقضى على طابور بأكمله من المشاة ، فرأى طابور الحامية المصرية أن استمرار المقاومة لا يجدى ، فأخلى المدينة واحتلها الإنجليز والترك فى صبيحة اليوم التالى .

وعلى أثر تسليم عكا سلمت يافا ونابلس ، فتزلزل مركز الجيش المصرى فى الداخل ، لما اجتمع عليه من تقدم الحلفاء واحتلالهم الثغور ، وقطعهم المواصلات البحرية ، وثورة الأهلين ، وانفصل عنه الأمير بشير حاكم لبنان لما رأى نجمه آخذاً فى الأفول ، وعرض على الحلفاء انضمامه إليهم واستأسر لهم ، فلم يطمئنوا له ، ونفوه إلى مالطة (أول نوفمبر سنة ١٨٥٠) .

انسحاب فرنسا من الميدان

وفى غضون هذه الحرب تغير مسلك فرنسا حيال مصر تغيرا عظيما ، فبعد أن كان المسيو تيرس رئيس الوزارة الفرنسية يشجع محمد على ويطوع له رفض مطالب الحلفاء ويعده بمعاضدة فرنسا له ، تراجع ونكص على عقبيه ، وتبين لمحمد على عدم استعداد فرنسا للحرب وانها لا تتم تأهبها إلا بعد انقضاء ستة أشهر ، وظهر كذلك أن المسيو تييرس لم يكن جاداًّ فى وعده ، ولو كان جاداًّ لبادر بنجدة اليه فى سورية يتماسك بها الجيش المصرى ، لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، وعمد المسيو تييرس إلى سياسة التسويف ، فلم يعمل ولكنه سيعمل ! ! ، ثم أخذ يتراجع فى خطته ، فأوفد رسولا وهو المسيو والسكى إلى محمد على باشا ليشير عليه بفتح باب المساومة مع الباب العالى فى مطالبه ، فاتبع محمد على مشورته وعرض الصلح على قاعدة تخويله حكم مصر الوراثى فى اسرته وحكم سورية مدة حياته ، ونزوله عن كريت وأدنه وجزيرة العرب ، ولكن الباب العالى رفض هذا الصلح .

فحبط سعى المسيو تييرس وأمعن فى تراجعه ، فاستدعى الأسطول الفرنسى الذى كان يراقب الأحوال فى مياه الشرق ، وأمره بالعودة إلى فرنسا ، وهكذا أخفقت سياسة تييرس وتخبط من فشل . إلى فشل وعرض كرامة بلاده للامتهان ، وجنى على مصر بأن ورّطها فى رفض شروط معاهدة لندره وسوّل لها ثم تخلى عنها وتركها وحدها إزاء الدول المتألبة عليها ، فأذعنت واضطرت إلى قبول شروط أسوأ مما عرض عليها فى المعاهدة ، فلم يجد المسيو تييرس

تلقاء هذا الفشل إلا أن يقدم استقالته ، فاستقالت وزارته فى أكتوبر سنة ١٨٤٠ ، وليته كان من الممكن أن يستقيل عمله ...

وألف المارشال Soult الوزارة الجديدة ، فنفضت يدها من المسألة المصرية البتة .

وهكذا انسحبت فرنسا من الميدان ، وتركت مصر وجهًا لوجه أمام الدول الأوروبية بعد أن ورطتها فى مقاومة قرار الدول المؤتمرة ، وكانت هذه السياسة الخرقاء من فرنسا سببًا فى ازدياد ضغط الدول على محمد على وإنقاص المزايا التى سوغتها معاهدة لندره لمصر ، ولو لم تحرضه فرنسا وتعده وتغرّه لقبل شروط المعاهدة فكان لا يضطر بعد ذلك إلى قبول شروط أكثر ضررا على مصر وأشد نكاية .

ولقد حاول بعض المؤرخين الفرنسيين أن يبرروا مسلك فرنسا فى أزمة سنة ١٨٤٠ ، فزعموا أن الحكومة الفرنسية أفهمت محمد على من مبدأ الأزمة أنها لا تحارب أوروبا تأييدًا لمطالبه وأن رسلها طلبوا إليه أن ينزل عن طرسوس وأدنه ، وأن الملك لويس فيليب وعده تلقاء ذلك أن يسعى لتخويله ولاية مصر والشام له ولورثته من بعده ، ولكن محمد على رفض ما عرضه لويس فيليب ، وسلك خطة الانتظار والتردد ، فتارة كان يعد قناصل الدول بالخضوع للسلطان ، وطورًا كان يبدى الرفض أن ينزل عن شىء .

ويلوح لنا أن هذا الدفاع لا يستند إلى وقائع صحيحة ، فإن الثابت أن الحكومة الفرنسية هى التى أغرت محمد على بسلوك مسلك التشدد ثم تخلت عنه فى آخر لحظة ، وهكذا كان انسحاب فرنسا من الميدان سنة ١٨٤٠ شبيهًا بانسحابها من المسألة المصرية سنة ١٨٨٢ ، أى بعد نيف وأربعين سنة ، فإنها تركت انجلترا فى آخر لحظة تعمل وحدها على تحقيق مطامعها فى مصر .

مهمة الكومودور (نابييه)

ولما تم للحلفاء احتلال الثغور السورية وقطعت مواصلات الجيش المصرى بحرًا أنفذ القائد العام لقوات الحلفاء الأميرال استوبفورد Stopford بعض السفن الحربية الإنجليزية بقيادة الكومودور السير شارل نابييه Napier إلى مياه الإسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية أمام الثغر لتهديد محمد على باشا وإجباره على الإذعان لمطالب الحلفاء .

جاء السير شارل نابييه يقود العمارة الإنجليزية ، وكان الشتاء قد أقبل ، فرأى أن التظاهر لا

يصنع شيئا ، وأنه لابد لإكراه محمد على على التسليم من قوة برية تحتل السواحل المصرية ، ولم يكن على ظهر العمارة الإنجليزية جنود بريون ، فضلا عن أن فصل الشتاء يحول دون مرابطة السفن الحربية على مقربة من الشاطىء ، ولم يكن لدى الإنجليز وحلفائهم من القوات البرية ما يكفى للنزول إلى البر والاستظهار على الجيش المصرى ، لأن الجيش كان على تمام الأهبة لرد عادية المعتدين ، ولولا ذلك لما ترددت انجلترا فى اغتنام تلك الفرصة لتحقيق أطماعها القديمة واحتلال البلاد ، كما فعلت سنة ١٨٠٧ ، ثم سنة ١٨٨٢ ، فالقوة التى أعدتها مصر للدفاع عن كيانها هى التى حالت دون مخاطرة الإنجليز بإنزال جنودهم إلى الأراضى المصرية ، وهذا ما جعل محمد على مطمئنًا على مركزه ، ومما يذكر عنه فى هذا الصدد أن قنصل انجلترا[٥] فى مصر جاءه بعد التوقيع على معاهدة لندره وقابله بالإسكندرية وتهدده بأن الدول مستعدة لإجباره بالقوة على الإذعان لشروطها ، وان انجلترا وحدها كفيلة بذلك ، ففهم محمد على أن القنصل يرمى إلى التهديد باحتلال مصر ، فأجابه فى لهجة الحزم : « إذا كانت الدول المتحالفة تريد أن تكرهنى بالقوة على الإذعان فلتتفضل بالمجىء ، فإنى على استعداد لمقابلتها ، وإذا كانت انجلترا تريد ذلك وحدها فإنى أكثر استعداداً لمقابلتها ، إنى لا أهاجم أحداً ، ولكنى مستعد للدفاع عن البلاد حتى آخر نسمة من حياتى » .

وقد تأثر محمد على من هذه المناقشة ، وقال لمن حوله : « إن الإنجليز يتهددوننى بالنزول إلى بر مصر ، فليجرّبوا ! ولينفذوا وعيدهم ! فسيرون أننا على استعداد لملاقاتهم ، وأن الأجنة فى بطون أمهاتهم ستشترك فى قتالهم[٦] » .

يتبين مما تقدم أن محمد على كان على تمام الأهبة للدفاع عن البلاد ، ولقد أدرك الكومودور نابييه أن لا سبيل إلى إخضاعه بالقوة ، فرأى أن يجرب معه خطة المفاوضة والمسالمة ، فأوفد له رسولا يحمل إليه خطابًا[٧] يعرض عليه فيه رغبة الدول فى أن تكفل له ملك مصر الوراثى على أن يرد الأسطول التركى إلى الباب العالى ، وأن يسحب جنوده من سوريه ، وأعرب له فى الخطاب عن مقاصده الودية نحوه ، وأنه إنما يبغى إبداء النصح إليه حقنا للدماء ، ولم يفته فى كتابه أن ينبهه إلى الخطر الذى يستهدف له إذا هو أصر على الحرب ،

---

(٥) الكولونل هودج Hodges .

(٦) موربيه . تاريخ محمد على ج ٤ ص ٢٥٣ .

(٧) بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ .

وأن مصر ليست فى المناعة التى يعتقدها محمد على ، وأن الإسكندرية يمكن أن تسقط كما سقطت عكا من قبل .

كانت هذه الرسالة كلمة من سلم وكلمة من حرب ، ثم أعقبتها خطوة أخرى من الكومودور ، ذلك أنه جاء بنفسه وطلب مقابلة محمد على ، فأذن له فيها ، فعرض عليه الإذعان لمطالب الحلفاء ، وكانت عباراته فى المقابلة أشد من أسلوبه فى الرسالة فأصر محمد على باشا على الرفض ، فتهدده نابييه بإحراق المدينة ، فلم يعبأ بوعيده ، وأجابه فى هدوء وسكينة : « هيا فاحرقوها » . فانسحب نابييه ، وأمهل محمد على أربعًا وعشرين ساعة ليقرر رأيه الذى سيستقر عليه .

فكر محمد على فى الموقف مليا ، فرأى من الحكمة السياسية أن يجنح إلى السلم ويقبل العرض الذى عرضه الكومودور نابييه ، إذ لا طاقة لمصر بمحاربة الحلفاء مجتمعين ، وخاصة بعد تخلى فرنسا وانسحابها من الميدان ، كما أن أنباء الحرب فى سورية تدل على حرج مركز الجيش المصرى هناك ، فإن سقوط الثغور وخاصة عكا فى يد الحلفاء وانسحاب الحاميات المصرية منها ، وقيام الثورات والفتن فى مختلف النواحى ، مما رجح عنده فكرة الانسحاب من سورية ، فتبادل والكومودور نابييه المفاوضة فى سبيل الصلح ، وانتهت بعقد اتفاق وقعه بوغوص بك وزير خارجية مصر والكومودور نابييه [٨] .

وهذا الاتفاق يقضى بان يجلو الجيش المصرى عن سورية ، ويرد محمد على الأسطول التركى إلى الباب العالى . مقابل تخويله ملك مصر الوراثى بضمانة الدول .

وقد رفض الاميرال استوبفورد قائد القوات البريطانية الاعتراف بهذا الاتفاق بحجة أن الكومودور نابييه لا يملك عقده ، ولم يكن منوطا به إجراء المفاوضة فيه ، وكذلك رفضه السلطان وتشبث بعزل محمد على ، واعترض عليه اللورد بونسنبى سفير انجلترا فى الاستانة واعلن بطلانه ، لكن اللورد بالمرستون رأى فيه فضا لأزمة خطيرة لم يكن معلوما مدى عواقبها ، فاعلن باسم الحكومة إجازته للاتفاق ، وحمل الدول على قبوله ، فأرسلت انجلترا والنمسا وبروسيا والروسيا إلى الباب العالى مذكرة (فى ٣٠ يناير سنة ١٨٤١) تطلب فيها إليه الرجوع عن قرار العزل ، وتخويل محمد على حكم مصر الوراثى ، فاستجاب السلطان إلى

---

(٨) بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ، وقد نشرناه فى قسم الوثائق التاريخية .

طلبات الدول كم سيجيء بيانه ، وفى غضون ذلك أرسل محمد على باشا إلى ابنه إبراهيم يأمره بالجلاء عن سورية والعودة إلى مصر تنفيذًا لاتفاقه مع نابييه .

إخلاء الجيش المصرى سوريه

أذعن إبراهيم باشا للأمر ، وأخذ يتأهب لإخلاء البلاد ، فبدأ رجوع الجيش المصرى فى أواسط ديسمبر سنة ١٨٤٠ واحتشد بالقرب من دمشق تمهيدًا للانسحاب جنوبًا ، فأخلاها فى ديسمبر سنة ١٨٤٠ ، وكان عدد الجيش المصرى وقتئذ نحو سبعين ألف مقاتل يتبعهم عدة آلاف من أفراد الأسر والبيوت المصاحبة للجيش من الموظفين وغيرهم ، ولاقى الجنود والملكيون متاعب هائلة فى انسحابهم لما أصابهم من الأعياء والجوع والعطش والتعب فى قطع المسافات الشاسعة ، وما تحملوه من نقل المهمات والمدافع ، وما استهدفوا له من مناوشات العرب ، فمات كثير منهم فى الطريق ، وسار الجيش فى انسحابه إلى (المزيريب) شرقى بحيرة طبرية ، ومن هناك توزع إلى ثلاثة فيالق أخذ كل فيلق طريقًا إلى مصر ، فالفيلق الأول وهو مؤلف من المشاة والخيالة النظاميين أخذ سبيله بطريق غزة فالعريش وكان يتولى قيادته أحمد المنكلى باشا ، والفيلق الثانى بقيادة سليمان باشا الفرنساوى وكان مؤلفًا من المدفعية ، سار بطريق الحج إلى معان ومنها إلى العقبة فالنخل فالسويس ، والفيلق الثالث وكان مؤلفًا من جنود الحرس وفرسان الهنادى والباشبوزق بقيادة إبراهيم باشا . اتخذ سبيله إلى غزة ومنها بحرًا إلى مصر .

وقد لقى فيلق المنكلى باشا الأهوال فى طريقه ، وفقد عددًا كبيرًا من رجاله بسبب الجوع والعطش والاعياء ووعورة المسالك ومناوشات العربان ، وخسر هذا الفيلق نحو نصف رجاله ، وسار فيلق سليمان باشا من طريق معان والعقبة ، وكابد كذلك المتاعب المهلكة ، غير أنه لم يلق ما لقيه الفيلق الأول وفقد من رجاله نحو ألف وخمسمائة .

ووصل الفيلق الثالث بقيادة إبراهيم باشا إلى غزة بعد ما لقى من الأهوال فى طريقه ، ومات عدد كبير من جنوده ومن الموظفين والنساء والأطفال الذين صحبوه فى الانسحاب .

ولما وصل غزة أرسل إبراهيم باشا إلى أبيه يطلب إليه إمداده بالمؤن والملابس والسفن لتنقل الجيش بحرًا إلى الإسكندرية ، وأخلى غزة يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٤١ وبذلك تم إخلاء الجنود المصرية لسورية .

وقد بلغ عدد الجنود الذين عادوا إلى مصر نحو أربعين ألف مقاتل ، أى أن ما فقده الجيش خلال الانسحاب بلغ نحو ثلاثين ألفاً ، أما الخسائر من الملكيين فلم يتناولها إحصاء دقيق ، وقد أورد المسيو موريه Mouriez [٩] إحصاء مروعًا قد يكون فيه ثمة مبالغة لكنه يدل على هول الخسائر التى حاقت بالمصريين فى انسحابهم من سورية . فقد ذكر أن عدد أفراد الجيش والملحقين بهم من الملكيين والموظفين وعائلاتهم وحاشيتهم كان قبل الانسحاب ٢٠٠ ألف نسمة ، فلم يرجع منهم سوى ستين ألفًا ، وقال تعليقًا على هذا الإحصاء أن هذا الانسحاب وما اقترن به من الأهوال والضحايا يعد من أفظع ما روى عن فجائع تقهقر الجيوش فى التاريخ .

رأى مؤرخى سورية فى الحكم المصرى

طويت صحيفة الحكم المصرى فى سورية بجلاء الجيش المصرى عنها ، وصار ماله وما عليه ملكًا للتاريخ ، ولعلك لاحظت مما فصلناه فيما تقدم أن انتقاض السوريين على الجيش المصرى كان من أهم البواعث التى حملت محمد على على تقرير الجلاء عن سوريه ، ويجمل بنا فى هذا المقام أن نثبت ما ذكره مؤرخو سوريه عن الحكم المصرى لمناسبة انقضاء عهده والمقارنة بينه وبين الحكم التركى ، وما أخذوه على السوريين واللبنانيين من الاستجابة لدسائس الإنجليز والترك . وقيامهم فى وجه الإدارة المصرية والجيش المصرى ، واعتبار هذا المسلك من غلطات سياستهم القومية ، وفى هذا القول شهادة إنصاف للحكم المصرى .

قال الأستاذ محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى فى كتابه خطط الشام[١٠] مايلى :

« كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام أكثر من سيئاتها ، لأنها وضعت أصول الإدارة والجباية ورفعت أيدى أرباب الإقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك إلا الأمير بشير الشهابى والى لبنان ، فإنه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر وظل يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والأمراء المستبدين قال مشاقة[١١] : وكانت الدولة التركية خبيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية

---

(٩) فى كتابه تاريخ محمد على جزء ٤ ص ٣٧٦ . (١٠) ج ٣ ص ٦٦ .

(١١) هو الدكتور ميخائيل مشاقة مؤلف كتاب (مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان) .

فبعثت تدس الدسائس إلى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة طمعًا بإرجاع نفوذهم ، وكان النصيرية أول من شق عصا الطاعة وتبعهم الدروز فى حوران ووادى التيم ، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام فى الحروب والقلاقل .

« ومن مآثر الحكومة المصرية التى عددها مشاقة تخفيفها المستنقعات وتصريف الأقذار فى مجار خاصة ، وتحديد أسعار اللحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ، لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ، وإنفاق كل مال فى وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحساب لأنه اعتاد أن يكون محكومًا لا حاكم نفسه ، عبدًا لا حرًا » .

وقال فى موضع آخر :

« أثبتت حكومة محمد على فى فتوحها أن المصرى بل العربى إذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن الغربيين فى سيرته وجلادته ، وأنه لم يضره فى القرون الماضية إلا فناؤه فى الحكومة التركية . وكانت حكومة محمد على من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، بل ان الشام فى القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها ، فضلا عما يماثلها ، كتب المستر برانت قنصل بريطانيا فى دمشق إلى سفير دولته فى الاستانة سنة ١٨٥٨م . ما تعريبه : لما كانت الايالة تحت حكم محمد على باشا عاد كثير إلى سكنى المدن والقرى المهجورة ، وإلى حراثة الأراضى المهملة ، وهذا ما حدث خاصة فى حوران وفى الأرجاء الواقعة حوالى حمص وفى كل الجهات الواقعة على حدود البادية ، وفى هذه الأماكن أكره العرب على احترام سلطة الحكومة ، وجعل السكان بمأمن من اعتدائهم ، وكان الشام بأسره تحت إدارة شريف باشا وقيادة الجيش الذى يبلغ عدده زهاء ٤٠ ألف جندى من منظم وغير منظم بإمرة إبراهيم باشا ، فبحسن إدارة الأول تضاعف نجاح الأهلين وحسنت المالية فى هذه النواحى ، كما أن نشاط ابراهيم وحزمه وطد الأمن ، ومد رواق الثقة ، وقد عدت الحكومة ظالمة لكنها فى الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ، إذ كان عليها أن تصلح عدة أمور مختلة وأن تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التى كانت سائدة بالعدل .

« فأصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات (رؤساء الجند) امتعضوا كثيرًا من ذلك لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . . وقد سر هؤلاء كثيرا لخلاصهم من الظلم الذى أنوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا

لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق ، ولم يكن الفلاحون أقل سرورًا منهم لأنه وأن كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شىء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالا لإصلاح بيوتهم وتمويها ، وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .

« وقصارى القول أن جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات ، وكم من مرة ذهبت الجنود بأمر إبراهيم باشا لإتلاف بيوض الجراد وما نفق منها ، وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى فى مدارج النجاح والنماء ، فلو طال عليها الحكم المصرى لاستعادت الشام قسمًا عظيمًا من وفرة سكانها القدماء وأصابت شطرًا كبيرًا من الثروة التى كانت فى الماضى وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان فى القرى والمدن العديدة فى جهات حوران ، وفيما وجد فى البادية حيث ترى فيها الطرق التى اختطها الرومانيون .

قال : « ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقلص ظل سطوتهم – وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد – حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة ، وخلفت الرشوة والتدبذير فى إدارة المالية النزاهة والاقتصاد ، ومنيت المداخيل بالنقص ، وستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة جديدًا بالتدريج ، حتى أمكن القول أنه لا يوجد ثمّ ظل للأمن على الحياة والأملاك وكل شىء يدل على عودة حالة الفوضى إلى هذه البلاد التى تركها المصريون » .

ونقل الأستاذ محمد كرد على بك نبذة عن كتاب (بربيه) وما كتبه إطراء للحكم المصرى ، ثم قال تعليقًا عليه [١٢] :

« هذا هو الإنصاف فى الحكم على حكومة إبراهيم باشا ، وما هى فى الحقيقة إلا روح محمد على الكبير الذى كان يستمد منه ابنه ، ولا يصدر إلا عنه فى الخطوب ، ولا يقطع أمرًا دون الرجوع إلى راية حتى جاءت أحكام المصريين نموذجًا فى الإدارة ، ولو أرادت الدولة العثمانية أن تستفيد من هذا الدرس لأرادت عمالها على تطبيق خطط إبراهيم باشا فى

(١٢) خطط الشام ج ٣ ص ٧٠ .

الإصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالإهمال والغرور ، لا يعمدون إلى حسن الإدارة ولا يتظاهرون بالإحسان إلا يوم الشدائد ، فإذا زالت عادوا إلى طبائعهم في إعنات الرعية وإلقاء الحبل على الغارب ، ونسوا ما أعطوا من عهود وما وضعوا من القوانين ، وهذا ما دعا إلى ظهور الفروق الكثيرة بين الإدارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش إبراهيم باشا عن هذه الديار ، وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام ، لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتساهمها سياستها أحيانًا ، وما مصر والشام إلا طريق الهند الأقرب بل مفتاحها من البحر المتوسط ، وإذا أردنا أن ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على أماني محمد على بل أماني العرب من إنشاء دولة عربية » .

وقال في موضع آخر :

« ولم يلتو القصد على إبراهيم باشا إلا لما دخلت أصابع الأجانب وأخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، وأما المدن والسواد الأعظم من الناس فقد استقبلوه وأخلصوا له وشعروا بحسن إدارته » إلى أن قال :

« ولقد تجلى في وقائع محمد على في الشام تجليا لا مجال للريب فيه ، إن اختلاف المذاهب وتباين التربية كان من العوامل القوية في إبقاء الفتنة بين أبناء هذا الوطن وأن دول أوروبا عند أغراضها تستحل بث بذور الشقاق بين المتآلفين ، وتستخدم وسائط غريبة في تكدير صفاء الآمنين ، وتعبث بعقول السذج المساكين ، وأنها قلما اهتمت لمصلحة أمة من أمم الشرق ، بل تهمها مصلحتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد ويرقى بحكم محمد على الذي كان بإقرار رجالها من أرقى ما عهدته البلاد منذ قرون ، ولعل أبناء الشام أيقنوا بخطأهم في الانتقاض على الحكومة المصرية التي هي مثلهم عنصرًا ولغة وعادات وأنهم كانوا على ضلال في الحنين إلى حكم العثمانيين ، وما كان من حقهم أن ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون في الإثم والعدوان » ، وقال في موضع آخر :

« تبين الفرق بين الإدارتين المصرية والعثمانية ، ولو طال عهد المصريين أكثر — وكانوا في صدر الفتح يتخوفون بادرة العثمانيين كل حين — لسعدت البلاد حقيقة وأيقن حتى من كانوا

ينعمون من دماء الأمة على العهد العثمانى أن طريقة المصريين فى المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة . والشدة فى إنفاذ القوانين ، وتقليد الغرب فى كل أمر جوهرى ، أفضل طريقة لراحة البلاد ، وكان يرجى أن يألفوا فى مدة قصيرة ما تأصل فى فطرهم على توالى القرون وتعودوه من حكم أرباب الإقطاعات الذين صدهم المصريون عن تجارتهم الشائنة التى ألفوها زمن العثمانيين ، وهى الإتجار بالجباية يجبونها أضعافاً ويسلبون الباقى من دم الأمة بمرأى من الحكومة ومسمع ، ولم تكد تخلى الجنود المصرية بلاد الشام حتى رجعت إلى حالتها قبل المصريين وثارت العداوات القديمة فى الصدور وزادت الدسائس الأجنبية » .

هذه الشهادة ناطقة بحسنات الحكم المصرى فى سورية ، وبما كان له من الفضل فى نشر لواء الحضارة والعدل والعمران فيها ، وإنه لقول حق ما ذكره الأستاذ محمد كرد على بك من أن الدسائس الأجنبية وخاصة الإنجليزية هى التى خلقت العراقيل أمام الإدارة المصرية فى سوريه ، فلولا تلك الدسائس لسعدت سوريه بانضمامها إلى مصر ولتألفت منهما الدولة المصرية العربية التى كانت على عهد الفاطميين والأيوبيين والدولتين البحرية والبرجية ، ولكن المطامع الاستعمارية أحاطت مصر الفتية بالدسائس والفتن . وهذه الدسائس هى التى اعترضت مصر فى طريق تقدمها ، وناهضتها فى سورية . وفى كل ناحية ، داخل مصر وخارجها ، وحالت دون تأليف الدولة المصرية الكبرى التى كان محمد على يعمل لها . وما فتئت انجلترا تدبر المكايد وتخلق المشاكل طوال القرن التاسع عشر حتى أوقعت مصر فى أزمة سنة ١٨٨٢ .

فالسياسة التى رسمتها انجلترا إزاء مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر هى التى أملت عليها خططها فى مناهضتها والكيد لها فى الداخل والخارج ، ولم تنل منها فى عهد محمد على بمقدار ما نالته فى عهد خلفائه ، ذلك لما كانت عليه مصر على عهده من القوة والمنعة ، فلما تراخت القوة ، وتفرقت الكلمة ، وانفتحت الثغرات ، تربصت انجلترا البلاد حتى احتلتها سنة ١٨٨٢ ، ذلك الاحتلال الذى لا نزال نعانيه إلى اليوم (١٩٤٩ تاريخ الطبعة السابقة) .

لم أكن من جناتها علم اللـــــــه وإنى بحرها اليوم صالى

إخلاء جزيرة العرب

كان محمد على يحرص قبل معاهدة لندره على استبقاء نفوذه وسلطته فى الحجاز لما فى ذلك من إعلاء هيبته فى أنحاء العالم الإسلامى باعتباره حامياً للحرمين ، ولذلك ما فتئ يعمل منذ

الحرب الوهابية على توطيد مركزه فى ربوع الحجاز وفى شبه جزيرة العرب ، وبإسناد تركيا ولاية جدة إلى إبراهيم باشا قد خولته حقوق السيادة التى كانت لها فى شبه جزيرة العرب ، واتصل إمام « مسقط » بمحمد على بروابط الود والصداقة والولاء .

على أن القوات الحربية المصرية التى استقرت هناك كانت دائمًا عرضة لتوثب القبائل ، وقد نازعه فى بسط نفوذه عامل آخر وهو السياسة البريطانية الاستعمارية ، فإن انجلترا بعد أن وضعت يدها على عدن كانت تنظر متوجسة إلى القوات المصرية المجاورة لها فى اليمن ، واحتجت بأن هذا الجوار مما يثير فى نفوس الأهالى روح التعصب الدينى ، على أن محمد على ظل محافظًا على سلطة مصر فى جزيرة العرب رغم ما يقتضيه ذلك من النفقات الطائلة ، إلى أن تحرجت الحالة فى ختام سنة ١٨٤٠ ورأى ملك مصر مهددًا فى سوريه ، فاسترجع قواته من الجزيرة .

فالقوات المصرية بقيت محتلة الحجاز ومعظم جزيرة العرب مدى عشرين عاما تخللتها ثورات عدة احتملت مصر فى سبيل إخمادها متاعب هائلة ونفقات طائلة ، وإنا ذاكرون هنا لمعة من تاريخ الحكم المصرى بها وما اعترضه من العقبات .

ففى سنة ١٨٢٤ ثار الوهابيون فى بعض البلدان فاشتبكوا فى مناوشات مع القوات المصرية حتى ظهرت عليهم .

وفى سنة ١٨٢٧ نشبت ثورة فى مكة حيث قتل الشريف يحيى ابن أخيه لاتهامه بالائتمار به والتواطؤ عليه مع أحمد باشا يكن والى الحجاز من قِبَل محمد على ، ولما كان يتوقعه الشريف من عواقب انتفاضه غادر مكة ولاذ بقبيلة حرب واستصرخها ، فثارت فى وجه السلطة المصرية .

فقام أحمد باشا يكن لمحاربتها وقصاصها . لكنه انهزم بالقرب من جبل عرفات واشتد بذلك ساعد الثوار وانضمت إليهم القبائل ، فلما علم محمد على بنبأ هذه الثورة أنفذ إلى الحجاز مددًا من خمس أورط من الجنود النظامية وألف من الفرسان ، وعين الشريف محمد بن عون الذى كان نزيل القاهرة شريفاً لمكة بدلا من الشريف يحيى الثائر . فذهب ابن عون صحبة المدد المصرى إلى الحجاز ، فتشجع أحمد باشا يكن بهذا المدد واستظهر به ، وضرب الحصار على (الطائف) حيث امتنع الشريف الثائر وأتباعه ، ثم توقع الشريف سقوط المدينة فى يد الجيش المصرى ، ففر منها فتعقبه الفرسان ومازالوا على أثره حتى أخذوه هو وثلاثة من أشراف

مكة الذين ناصروه فى ثورته ، فجىء بهم إلى القاهرة واستبقاهم محمد على رهائن فى يده ليضمن استقرار الأمن فى الحجاز.

وفى سنة ١٨٢٩ ثارت هناك بعض القبائل وامتنعت عن أداء ما كان مضروبًا عليها سنويًّا من البن ، ومقداره ١٢٠٠ قنطار ، فأنفذ محمد على إلى جدة قوة جديدة لإعادة النظام وإقراره .

وفى سنة ١٨٣٢ شبت فى جدة فتنة عسكرية قوامها بعض الضباط من العناصر غير النظامية من بقايا الجيش القديم . وكان والى الحجاز وقتئذ خورشد بك ، فطالبه الضباط والجنود ومعظمهم من الأرناءود والترك بما تأخر من عطائهم ، وساروا بجموعهم إلى مكة يتبعون زعيميهم (زنار أغا) و (تركى بيلمز) ، فتوسط شريف مكة بين خورشد بك والمتمردين واتفقوا على أن يعود هؤلاء إلى جدة ويوافيهم بها خورشد بك ، فذهب إليهم ولكنهم أسروه ، ونادوا بتركى بيلمز واليًا على الحجاز ، وكان هذا العمل هو المجاهرة الصارخة بالتمرد والفوضى ، وانضم أهالى مكة إلى المتمردين نكاية بالمصريين ، فشبت نار القتال بين الجنود المتمردة والحامية المصرية ، ولكن الحامية ردَّتهم على أعقابهم .

وفى خلال هذه الفتنة ورد إلى مكة نبأ استيلاء الجيش المصرى على عكا ، وكانت الحرب السورية الأولى مستعرة ، فأخمد هذا النبأ جذوة المتمردين ، ولما علم الباب العالى بالفتنة ابتهج بها وأرسل فرمانًا إلى (تركى بيلمز) يقره واليًا على الحجاز نكاية بمحمد على وتشغيباً عليه .

وصل نبأ هذه الفتنة إلى مصر ، فبادر محمد على إلى إنفاذ الألاى السابع من الجنود النظامية و ١,٥٠٠ من الفرسان ، فبلغت عدتها نحو ٤,٠٠٠ مقاتل ، وعقد لواؤها لأحمد باشا يكن [١٣] وجعله رئيسًا لعسكر الحجاز ، وناط به إخماد الفتنة ، وكان محمد على عظيم الاهتمام بتوطيد نفوذ الحكومة المصرية فى الحجاز واليمن لما للحرمين الشريفين من الأهمية السياسية والدينية ، ولأن ثغور الحجاز واليمن هى العقد الوثيقة فى خيط الاتصال بين مصر ومتاجر الهند وجزيرة العرب .

وصلت الحملة المصرية بقيادة أحمد باشا يكن إلى ينبع ، وسارت منها إلى جدة فاحتلتها بعد أن انسحب منها تركى بيلمز إلى (قنفذة) وكانت بها حامية مصرية ، فلما امتنعت عليه

---

(١٣) كان قد انفصل عن ولاية الحجاز إلى وقت ، ثم أعيد إلى منصبه ثانيًا وقلده محمد على رئاسة عسكر الأقطار الحجازية .

استمر فى انسحابه إلى (الحديدة) من ثغور اليمن ، ثم استقر فى (مخا) ولم يقو إمام (صنعاء) على رده ، فعهد محمد على إلى أحمد باشا يكن والى الحجاز بمطاردته ، فنى سنة ١٨٣٣ سار إليه فى خمسة عشر ألف مقاتل ، وكان شيخ العسير مواليًا للجيش المصرى ، فحاصر (مخا) حتى فتحها عنوة ، وهرب تركى بيلمز والتجأ إلى إحدى السفن البريطانية ، وبذلك انتهت الفتنة ، ولكن شيخ العسير نهب مخا نهباً مدمراً وكانت مستودعًا لمتاجر الهند ، فبارت التجارة الهندية بسبب هذا النهب سنين عدداً[١٤]

وقد أجمع محمد على أن يجتث جذور الثورة فى جزيرة العرب ويستولى على اليمن ، وكانت الحملات والأمراض قد ثغرت فى صفوف الجيش المصرى فنقصتها وكذلك وزعت الحاميات العسكرية فى قنفذة والحديدة وبعض بلاد اليمن ، فنقصت قوة الوحدات المتحركة من الجيش ، وقد علم محمد على بهذه الحالة ، فأنفذ قوة جديدة من ثلاثة آلايات من المشاة وألفين من الفرسان بقيادة إبراهيم باشا يكن الذى جعله سر عسكر اليمن (سنة ١٨٣٦) ، فبلغ عدد الجيش المصرى فى جزيرة العرب ثمانية عشر ألف مقاتل ، فمضى إبراهيم باشا يكن يزحف على اليمن يعاونه الشريف عون .

سارت الحملة إلى بلاد العسير ، وهناك احتمل الجنود مشقات هائلة من وعورة الطرق وسوء المناخ وقلة الماء وفداحة المتاعب ، ووقعت المصادفات والمناوشات بينها وبين القبائل ، فاندحر الجيش المصرى أمام البدو وحلت به الخسائر الجسيمة ، ورجع إبراهيم باشا أدراجه إلى الحجاز بعد أن فدحته الخسائر ثم استأنف زحفه على اليمن فاحتل الثغور وبعض المواقع فى الداخل .

ولما علم محمد على بالأنباء الأولى عن حملة اليمن عهد بقيادة جنود الحجاز إلى خورشد بك الوالى السابق الذى وقعت فى عهده فتنة تركى بلمز ، وكانت الهزائم التى حاقت بالجيش المصرى قد شجعت الوهابيين على الانتقاض فى نجد ، فاتجه خورشد بزحفه شمالا ووصل إلى الدرعية ، وتخطى فتوحات إبراهيم باشا ، وزحف على الأحساء ووصل إلى شاطئ الخليج الفارسى . وجمع عدة من السفن واحتل جزائر البحرين فى الخليج ، ولما رأت القبائل سرعة زحف الجيش المصرى أقبلت تقدم الطاعة له وامتدت سلطة مصر إلى الخليج الفارسى ، ولكن السياسة الإنجليزية هالها تقدم نفوذ مصر إلى مصب دجلة والفرات وإلى مياه الخليج الفارسى

(١٤) مانجان ج ٣ ص ٦٤ .

القريب من الهند ، وخشيت على سلطانها هناك أن يزعزعه امتداد نفوذ مصر إلى حيث بلغ ، كما أنها خشيت من نفوذها فى بلاد اليمن لأنها على طريقها للهند ، فاحتلت (عدن) وأرسخت قدمها فيها ، وبذلت مساعيها السياسية ومنها تهديد محمد على بأن تثير عليه تركيا والدول الأوروبية ، فاضطر إلى مجاملة انجلترا اتقاء لشرها ، فأصدر أمره إلى خورشد بك بإخلاء (البحرين) ، أما فى اليمن فقد أعلن إمام (صنعاء) ولاءه لإبراهيم باشا يكن يتقى بولائه بطش الإنجليز بعد أن احتلوا عدن .

ولما أوشكت على نهايتها سنة ١٨٤٠ رأى محمد على أن بقاء الجيوش المصرية فى جزيرة العرب يحمل الخزانة نفقات لا قبل لها بها ، وأنه فى حاجة إلى حشد جنود حشداً واحداً حينما تألبت عليه الدول المتحالفة مع تركيا بعد معركة (نصيبين) ، فاستقر عزمه على استدعاء الجند من جزيرة العرب ، ثم أخلاها إلى غير رجعة سنة ١٨٤١ تنفيذاً لمعاهدة لندره ، وبذلك طويت صحيفة الحكم المصرى فى الجزيرة .

مركز مصر الدولى بعد معاهدة لندره

إن معاهدة لندره هى الوثيقة الأساسية لمركز مصر الدولى من سنة ١٨٤٠ إلى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فهى التى حددت هذا المركز وجعلت لمصر شخصية دولية مستقلة ، ورفعت مركزها من ولاية كغيرها لا تختلف عن سائر ولايات السلطنة العثمانية إلى دولة مستقلة استقلالا مقيدًا بقيود السيادة التركية .

إن مصر قد حققت استقلالها بالفعل فى الحرب السورية الأولى التى انتهت باتفاق كوتاهيه (سنة ١٨٣٣) ، لكنها فى نظر القانون الدولى لم تكن سوى ولاية ليس لها (رسميا) من امتياز عن الولايات العثمانية الأخرى . لكن معاهدة لندره وإن تكن حرمت مصر ثمرة انتصاراتها وقيدت استقلالها بقيود شتى ، إلا أنها قد اعترفت بأن لمصر مركزًا دوليًا مستقلا عن تركيا ، إذ جعلت حكومتها وراثية فى أسرة محمد على ، ومعلوم أن ولاية الحكم ، وخاصة فى ذلك العهد ، هى مظهر السيادة والاستقلال ، ومعنى ذلك أن معاهدة لندره اعترفت لمصر بالاستقلال مقيداً بالسيادة العثمانية ، ولم يعد لتركيا ، ولا لغيرها من الدول ، أن تعبث بهذا الاستقلال الذى أصبح مكفولا بمعاهدة دولية .

ولم يرد فى معاهدة لندره من القيود العملية التى تحد ذلك الاستقلال سوى دفع جزية

سنوية للباب العالى ، وسريان معاهدات تركيا فى مصر ، واعتبار قواتها الحربية جزءاً من قوات السلطنة العثمانية .

فهذه القيود هى مظاهر السيادة العثمانية التى فرضتها الدول على مصر فى معاهدة لندره .

ومن الواجب أن نوضح إبهامًا ورد فى أحد بنود المعاهدة وهو البند (٥) من الملحق الذى ينص على أن « معاهدات السلطنة العثمانية وقوانينها تسرى فى مصر » فقد يتبادر إلى الذهن أن تركيا كان لها بمقتضى المعاهدة حق التدخل فى التشريع بالنسبة لمصر ، وإن قوانينها تسرى فيها ، وهذا ليس من الواقع فى شىء ، فإن هذا الإبهام قد أوضحه فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وفرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ الصادر كلاهما لمحمد على ، وفرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ الصادر للخديوى إسماعيل ، فالفرمان الأول عبّر عن هذه القوانين بالخط الشريف المعروف بالكلخانة والقوانين الإدارية للدولة العثمانية ، أى القوانين الأساسية المماثلة له ، وخط الكلخانة هو القانون الأساسى المعروف بالتنظيمات[١٥] الذى أصدره السلطان عبد المجيد بتقرير حقوق الأفراد فى السلطنة العثمانية وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم وشرفهم ومساواتهم أمام القانون وإلغاء المصادرة والسخرة ، فالمراد من هذا النص فى المعاهدة أن تكفل حقوق الأفراد فى مصر كما تكفل فى تركيا طبقاً للقانون الأساسى المعروف بالكلخانة .

ويؤيد هذا المعنى ما ورد فى فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ المكرر والمفسر لأحكام فرمان ١٣ فبراير ، فقد جاء فيه صراحة « إن القواعد المتضمنة لأمنية الأشخاص والأموال ؛ وصون الشرف والعرض ، هى من المبادىء التى قدستها أحكام ونصوص خطنا الشريف الهايونى الصادر عن كلخانة ، وكافة المعاهدات المبرمة والتى ستبرم بين الباب العالى والدول المتحابة يقتضى أن تكون جميعها نافذة بكامل أحكامها فى مصر ، وكل النظامات التى سنها وسيسنها الباب العالى تكون أيضًا مرعية فى ولاية مصر مع ملاحظة الظروف المحلية المختصة بالعدل والحقانية » .

وفرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ الصادر للخديوى اسماعيل صريح أيضًا فى أن المراد بالقوانين الأساسية الواردة فى فرمانات سنة ١٨٤١ هو خط الكلخانة دون سواه ، فقد جاء فيه :

« إن فرمانى الهمايونى الذى منح نيابة مملكة مصر امتياز التوارث اشترط خلاف ما ذكر وهو

---

(١٥) سمى خط كلخانة لأنه قرىء فى الكلخانة ، ومعناها دار الورد ، وهى إحدى دوائر السراى القديمة (طوب قبو) بالآستانة .

أن تكون القوانين الأساسية الجارى العمل بموجبها فى كافة أنحاء الممالك العثمانية مرعية الإجراء ونافذة أيضًا فى مصر بما يوافق الحق والعدل مع مراعاة عادات الأهلين وأخلاقهم أما القوانين الأساسية المذكورة فليكن معلومًا أنها إن هى إلا المبادىء العمومية المنشورة فى تنظيمات «كلخانة» أعنى تأمين الأرواح والأموال والشرف».

هذا هو المعنى الرسمى لكلمة القوانين الواردة فى معاهدة لندره ، فهى تشبه أن تكون كالتزام دولة إزاء دولة أخرى بأن تنفذ تشريع منه الرقيق مثلا . وليس فى ذكره هذه الكلمة مايؤخذ منه لا صراحة ولا ضمنًا أن لتركيا حق التدخل فى التشريع بمصر أيًا كان نوعه ، وهذا ما جرى عليه العمل منذ صدور معاهدة لندره فإن حكومة مصر فى عهد محمد على وخلفائه لم تنازعها تركيا يومًا ما فى حقها المطلق فى التشريع والتقنين بكافة أنواعه ، ولم تتدخل البتة فى هذا الصدد اطلاقًا .

قيود الفرمانات

ذكرنا القيود التى كانت تحد استقلال مصر فى معاهدة لندره ، ولكن الفرمانات التى أصدرتها تركيا تنفيذًا للمعاهدة قد جاوزت فى بعض المواطن القيود الواردة بها ، وظاهر أن السلطان العثمانى اغتنم فرصة تألب الدول الأوروبية فى مصر ، فاشتطَّ فى الفرمانات التى أصدرها لمحمد على وغللها بالقيود الثقيلة الوطأة ، وخاصة فى الفرمان الأول المؤرخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، مما دعا محمد على إلى الاعتراض لدى الدول على تلك الشروط وأدى اعتراضه إلى تعديل فيها كما سيجىء بيانه .

فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

وهاك خلاصة الأحكام التى تضمنها فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ :

١ — إذا خلا مركز السدّة المصرية يختار له السلطان من يشاء من أولاد محمد على الذكور أو أولاد أولادهم الذكور ، فإذا انقرض نسل الذكور كان للباب العالى أن يختار من يشاء للولاية دون أن يكون لأولاد الإناث حق فيها .

٢ — يلزم من يختار للولاية خلفًا لمحمد على بالذهاب إلى الاستانة ليتلقى فرمان التقليد .

٣ – إن ولاة مصر بالرغم من حقهم الوراثى تكون مرتبتهم مماثلة لمرتبة وزراء الدولة فى المخاطبات والمقابلات السلطانية .

٤ – المعاهدات التى أبرمها أو سيبرمها الباب العالى وكذلك الخط الشريف المعروف بخط الكلخانة والقوانين الأساسية للدول العثمانية تنفذ فى مصر.

٥ – تكون جباية الضرائب ودخل الحكومة باسم السلطان ويتبع فيها النظام المعمول به فى تركيا لكيلا يقع الضيم بأهالى مصر.

٦ – يرسل ربع إيرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج والضرائب إلى خزانة الباب العالى ، ويخصص الثلاثة الأرباع الأخرى لشئون مصر من نفقات الجباية والإدارة العسكرية والمدنية ، وحاجات الحكومة والغلال التى ترسل سنويا إلى مكة والمدينة ، وطريقة أداء نصيب الباب العالى من إيراد الحكومة المصرية يعمل بها لمدة خمس سنوات ابتداء من أول عام سنة ١٢٥٧ (٢٣ فبراير سنة ١٨٤١) ، ويجوز استئناف نظرها بالتعديل تبعاً للظروف والأحوال فى مصر.

٧ – لما كان من المقتضى تحقق الباب العالى من مقدار دخل الحكومة المصرية فيلزم تعيين لجنة لمراقبة هذا الدخل تؤلف طبقًا للأوضاع التى يقررها السلطان فيما بعد بإرادة شاهانية .

٨ – تكون السكة (النقود) فى مصر باسم السلطان ، ولا تختلف النقود الذهبية والفضية التى تضرب فى مصر عن نقْدَى الاستانة فى القيمة والنوع والعيار.

٩ – لا يزيد عدد الجيش المصرى فى زمن السلم عن ١٨٠٠٠ ألف جندى ، وللباب العالى أن يرفعه إلى ما شاء فى زمن الحرب ، ويتبع فى مصر نظام التجنيد المعمول به فى تركيا ، وهو يقضى بجعل مدة الخدمة خمس سنوات . وعلى ذلك يكتفى من مقترعى الخدمة الموجودين الآن بعشرين يبقى منهم ١٨٠٠٠ فى مصر ويرسل ٢٠٠٠ إلى الاستانة ، ثم يسرح خمس عدد الجيش (أربعة آلاف جندى) كل سنة بطريق القرعة ، ويقترع بدلهم أربعة آلاف مستجدون يبقى من هؤلاء بالقطر المصرى ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ إلى الاستانة . والذين يتمون خدمتهم العسكرية يعودون إلى بلادهم ولا يجوز اقتراعهم من بعد .

١٠ – لا يختلف شوار الجنود والضباط المصريين وملابسهم وأعلامهم وأوسمتهم عن مثلها فى الجيش التركى ، وكذلك ملابس البحارة والجنود والضباط فى الأسطول المصرى وأعلام السفن الحربية المصرية .

١١ – لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية لضباط البر والبحر لغاية رتبة صاغ قول أغاسى ، أما الرتب العليا فيرسم بها من السلطان .

١٢ – ليس لمصر أن تبنى سفنًا حربية إلا بإذن صريح من الباب العالى .

١٣ – لما كان امتياز حكم مصر الوراثى المخول لمحمد على وأسرته مقرونًا بالشروط السابقة فالإخلال بأى منها يؤدى إلى سقوط حقهم فى هذا الامتياز[١٦] .

هذه خلاصة شروط فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ ، ومن التأمل فيها يتبين مبلغ تجاوزها لأحكام معاهدة لندره ، فليس فى المعاهدة كما قدمنا قيود عملية تحد استقلال مصر التام فيما عدا الجزية السنوية وسريان معاهدات تركيا واعتبار قوات مصر جزءًا من قوات السلطنة العثمانية ، ولكن الفرمان مغللٌ بالقيود الثقيلة التى لم ترد فى المعاهدة ، فليس فيها مثلا نصوص تقيد عدد الجيش المصرى وتحدده بـ ١٨٠٠٠ أو تحظر على مصر بناء سفن حربية إلا بإذن الباب العالى ، أو تقيد حق الحكومة المصرية فى منح الرتب العسكرية ، أو تقضى بمراقبة مالية مصر ، فهذه القيود قد فرضها السلطان فى فرمانه دون أن يكون لها سند فى المعاهدة ، وكذلك مما لا يتفق مع روح المعاهدة تقويم الجزية بربع إيرادات الحكومة المصرية ، لأن ذلك فضلا عما فيه من الإرهاق والاعتساف فإنه يستتبع تدخل تركيا فى شئون مصر الداخلية ومراقبة أحوالها المالية بحجة تعرّف مقدار دخلها والتحقق من نصيبها فيه ، وكذلك لا يتفق مع روح المعاهدة انتحال السلطان حق اختيار من يشاء من أولاد محمد على أو أحفاده لتولى أريكة مصر ، فإن جعل حكم مصر الوراثى فى سلالة محمد على ليس معناه تحكم الباب العالى فى اختيار من يشاء منهم ، لأن هذا التحكم يضيع قيمة هذا الحق ويطلق يد السلطان العثمانى فى اختيار من يأنس فيه الضعف والخضوع لإرادته من تلك السلالة ، وقد اعترض محمد على لدى الدول على ما ورد فى ذلك الفرمان من الشروط الثقيلة الوطأة ، وطلب تعديله فى نظام وراثة الحكم ومقدار الجزية السنوية وحق منح الرتب العسكرية .

فقبلت الدول طلبه وأرسلت إلى الباب العالى مذكرة طلبت إليه فيها أن يعامل محمد على طبقًا للشروط المدونة فى ملحق معاهدة لندره .

---

(١٦) وأصدر السلطان فرمانًا آخر فى ذلك اليوم (١٣ فبراير) بإسناد أقاليم السودان (النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها) إلى محمد على وهو الذى تكلمنا عنه فى الفصل السادس .

لائحة ١٩ أبريل سنة ١٨٤١

فأجاب الباب العالى الدول بمذكرة فى ١٩ أبريل سنة ١٨٤١ بتعديل شروط الفرمان السابق ، وهاك أهم ما قرره من التعديلات الجوهرية :

أولا : إنه نظم وراثة عرش مصر بأن جعل حق الوراثة للأكبر سنًّا من سلالة محمد على الذكور .

ثانيا : عدل عن تقويم الجزية بربع إيراد الحكومة وجعلها تبعاً لتقديره فيما بعد مع النظر لحالة الحكومة .

ثالثا : أن يكون لوالى مصر حق منح الرتب إلى رتبة أميرالاى ، أما ما يعلوها من الرتب كدرجة أمير لواء وفريق فجعل حق منحها بعد استئذان الباب العالى .

فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١

ثم أصدر الباب العالى فى أول يونيه سنة ١٨٤١ فرمانًا جامعًا يحتوى أحكام فرمان ١٣ فبراير ، مع التعديلات المتقدمة ، وأصدر فرمانا آخر بتحديد الجزية السنوية بثمانين ألف كيس أى ٤٠٠٠٠٠ جنيه .

ومما يجدر ملاحظته أن القيود التى وردت فى فرمانات الباب العالى مما لا تنص عليه معاهدة لندره لم تكن قيودًا دولية ولا شرعية ، بل كانت ذات صبغة داخلية بين تركيا ومصر ، بمعنى أنها لا ترتكز على سند دولى من معاهدة أو اتفاق ، والتحلل منها يكون فيما بين مصر وتركيا ويتم صحيحًا بعمل يصدر من جانب إحداهما ، لأن هذه القيود أساسها فرمان صدر من جانب واحد وهو تركيا .

ولذلك لم تتقيد مصر بمعظم تلك القيود ، وخاصة فيما يتعلق بعدد الجيش ، فقد ترك هذا العدد لمقدرة الحكومة المصرية وإرادتها ، ولم يكن ثمة مراقبة على عدد الجيش المصرى .

وتتبين هذه الحقيقة من التأمل فى إحصاء الجيش المصرى ومقدار قوته من أواخر عهد محمد على إلى عهد خلفائه لغاية الاحتلال الإنجليزى ، وهاك البيان :

السنة	قوة الجيش
سنة ١٨٤٧ (فى أواخر عهد محمد على)	٩٤٠٠٠
سنة ١٨٥٠ (فى عهد عباس باشا الأول)	١٠١٠٠٠
سنة ١٨٥٩ (فى عهد سعيد باشا)	٨٥٠٠٠
سنة ١٨٧٣ (فى عهد الخديو إسماعيل باشا)	٩٢٠٠٠
سنة ١٨٧٩ (فى أوائل عهد توفيق باشا)	٨٩٠٠٠ [١٧]

فيتبين من هذا الإحصاء أن مصر لم تتقيد فى عدد جيشها بالفرمانات السلطانية بل كان لها مطلق الحرية فى تحديد عدده .

وكذلك استطاع الخديو إسماعيل أن يحرر مصر من معظم القيود الأخرى بفرمانات استصدرها رأسا من السلطان من غير مخابرات دولية .

وغنىٌ عن البيان أيضًا أن الباب العالى كان له بمقتضى فرمانات أن يتنازل عن الحقوق التى خولتها له معاهدة لندره ، والعكس لا يجوز ، أى ليس له أن ينتقص حقوق مصر بفرمانات ، لأن هذه الحقوق مكفولة بمعاهدة دولية ، فليس للباب العالى ولا لأى دولة أخرى أن تعبث بها ، وهذا ما قال به المسيو دى مارتانس الأستاذ بجامعة سان بطرسبرج إذ يقول : « إن فرمانات خاصة قد وسعت الحقوق والمزايا التى نالها نائب الملك (الخديو) بإزاء الباب العالى ، ولكن من البديهى أن هذه الفرمانات ليس لها قوة إلغاء أو انتقاص المركز الدولى المستقل الذى أوجده مؤتمر سنة ١٨٤٠ » [١٨]

النتيجة

فمركز مصر الدولى قد حددته فى سنة ١٨٤٠ معاهدة لندره التى قضت بإرجاع الجيوش المصرية إلى حدود مصر القديمة ، وضمان استقلالها مقيدًا ومشوبًا بالسيادة العثمانية ، ومصر طبقا لهذه المعاهدة أصبحت دولة مستقلة غير مستكملة السيادة ، والاستقلال الذى نالته منذ

(١٧) رجعنا فى بيان قوة الجيش الى الإحصاءات الواردة فى كتاب تقويم النيل لأمين سامى باشا الجزء ٢ ص ٥٦٩ ، وهى احصاءات مستمدة من الدفتر خانة المصرية ، وقد استخرجتها الدفتر خانة من دفاتر وكشوفات المعية السنية وديوان الجهادية (الحربية) من سنة ١٨٠٣ إلى سنة ١٨٨٢ وهى السنة التى ألغى فيها الجيش المصرى القديم عقب الاحتلال بإيعاز من الإنجليز .

(١٨) دى مارتانس ، المسألة المصرية والقانون الدولى سنة ١٨٨٢ ، ص ٥ .

سنة ١٨٤٠ هو استقلال داخلى تام بكل مظاهره مضافاً إليه بعض مظاهر الاستقلال الخارجى ، مثل حق مصر فى قبول ممثلى الدول الاجنبية كالقناصل والوكلاء ، وهو من مظاهر السيادة الخارجية .

ولا نزاع فى ان قيود السيادة العثمانية التى قيدتها بها معاهدة لندره هى نتيجة تامر الدول الأوروبية على مصر وانحيازها إلى تركيا ، فإذا كانت مصر لم تحقق فى ذلك العصر كل أمانيها وحقوقها الشرعية فى الاستقلال المطلق من كل قيد فإنما يرجع ذلك إلى الاضطهاد الذى وقع عليها من الدول المتحالفة . فالاضطهاد الاوروبى هو الذى حرم مصر ثمرة انتصاراتها ووقف كحجر العثرة فى سبيل تحقيق استقلالها التام . ولو عاملتها الدول الأوروبية سنة ١٨٤٠ كما عاملت اليونان سنة ١٨٢٦ — ١٨٣٠ لما وقع ذلك الاضطهاد ، فمصر واليونان كلتاهما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ثارت ضد السلطان فى أوقات متقاربة ، والفرق بينهما أن اليونان هزمت فى ميدان الحرب ، أما مصر فقد فازت وقهرت الجيوش العثمانية ، ومع ذلك كانت النتيجة أن ساعدت الدول الأوروبية اليونان على تحريرها ، أما مصر فقد حالت أوروبا دون استقلالها التام ، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض الظلم الدولى ، ولا يخفى أن قوام الاضطهاد الذى وقع على مصر إنما هو أطماع إنجلترا وأهواؤها ، فإن الحكومة الإنجليزية كما فصلنا ذلك هى التى أملت سياستها على الدول الأوروبية تحقيقاً لأطماعها الاستعمارية فى الشرق .

ومن الواجب ان نقول انه لولا حروب مصر المتواصلة وانتصاراتها فى عصر محمد على لما رضيت اوروبا ولا تركيا باستقلال مصر المقيد بالسيادة العثمانية . بل لرجعت بها ولاية كسائر ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الترك كل سنة أو سنتين . فلولا تلك الحروب وما أظهرته مصر من القوة والمنعة لما احتفظت باستقلالها الذى نالته فى ميادين القتال . فالجهود التى بذلتها ، والدماء التى جادت بها ، والتضحيات التى احتملتها ، هى التى حفظت ذلك الاستقلال وصانته من الضياع . فلم يعد فى استطاعة تركيا ولا الدول الأوروبية أن تعيدها إلى حالتها القديمة . ولئن حرمت مصر كل ما تصبو إليه من نتائج انتصاراتها وتضحياتها ، فقد أدركت غايتين من اعظم المقاصد القومية . فلقد وطدت دعائم استقلالها وحققت وحدتها بضم السودان إلى رقعتها ، ثم نالت مركزا دوليا وطيدا لم يكن لها من قبل ، ومركزاً معنوياً رفع من شأنها بين الأمم ، وإذا كانت الأمة الفرنسية تفخر بمعارك نابليون وحروبه العظيمة مع أنها لم

تنل من ورائها سوى الخسران والتراجع إلى ما وراء حدودها الأصلية ، وتعدها مع ذلك صفحات مجد زاهية فى تاريخها القومى ، فأجدر بمصر أن تفخر بحروبها فى عصر محمد على ، تلك الحروب التى رفعت ذكرها فى الخافقين ، وسارت باسمها مسير الشمس ، فضلا عما أنتجته من تحقيق استقلالها وتوطيد دعائمه .

فهذه الحروب هى إذن من أقوى دعائم الدولة المصرية المستقلة . ومن أعظم أركان القومية المصرية ، وبخاصة فتح السودان وحروب سوريه والأناضول ، فإن فتح السودان قد أتم الوحدة القومية ، وحروب سوريه والأناضول كانت من أقوى المقومات المصرية ، إذ لا يخفى أنها فتحت أذهان المصريين إلى أن لمصر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن القومية التركية ، وجاء قيام محمد على فى وجه تركيا وهى وقتئذ دولة الخلافة الإسلامية تحطيمًا لفكرة اندماج مصر فى السلطنة العثمانية ، وعملا بعيد المدى كان له أثر كبير فى تشييد صرح القومية المصرية .

الفصل العاشر

دعائم الاستقلال

الجيش

إن الجيش هو الدعامة الأولى التى شاد عليها محمد على كيان مصر المستقلة . ولولاه لما تكونت الدولة المصرية ولا تحقق استقلالها ، وهو الذى كفل هذا الاستقلال وصانه نيفاً وستين سنة ، فلا غرو ان خصّه محمد على بأعظم قسط من عنايته ومضاء عزيمته . وليس فى منشآت محمد على ما نال عنايته مثل الجيش المصرى ، ويكفيك دليلا على مبلغ تلك العناية أن منشآته الاخرى متفرعة عنه ، والفكرة فى تأسيسها أو استحداثها إنما هى استكمال حاجات الجيش ، فهو الأصل وهى التّبع . فتقرير محمد على باشا إنشاء مدرسة الطب مثلا يرجع فى الأصل إلى تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش ، وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج ، كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والكساء ، واقتضى إعداد الأماكن اللازمة لإقامة الجنود بناء الثكنات والمعسكرات والمستشفيات ، واستلزم تخريج الضباط إنشاء المدارس الحربية على اختلاف أنواعها ، وكذلك المدارس الملكية كان الغرض الأول منها تثقيف التلاميذ لإعدادهم على الأخص لأن يكونوا ضباطاً ومهندسين ، وإرسال البعثات إلى أوروبا كان الغرض الأول منه توفير العدد الكافى من الضباط ومن الأساتذة والعلماء والمهندسين ممن يتصلون عن بعد أو قرب بالأداة الحربية ، صحيحٌ إن هذه المنشآت وغيرها كان لها أغراض عمرانية أخرى ، لكن خدمة الجيش كانت أول ما فكر فيه محمد على .

فالجيش إذن فضلا عن مهمته الأولى من الدفاع عن استقلال البلاد كان أداة لتقدم العمران فى مصر ، فهو من هذه الوجهة من أجل أعمال محمد على باشا .

وكل ما بذل من الجهود والنفقات فى سبيله قد أصاب حقه وموضعه ، فلم يكن عبثاً ولم يضع سدى ، إذ من المحقق أنه لولا قوة هذا الجيش لضاع الاستقلال الذى نالته مصر فى عهده ، ولاستردت تركيا امتيازاتها القديمة فى البلاد واتخذتها ولاية تحكمها مباشرة كما تحكم

سائر ولايات السلطنة العثمانية ، أو لاحتلتها انجلترا بجيوشها عندما ألبت عليها الدول الأوروبية وجردت عليها قواتها البحرية والبرية فى سورية وعلى السواحل المصرية ، ولو لم يكن هذا الجيش متأهبًا للقتال ذائداً عن الوطن لاستطاعت انجلترا أن ترمى الكنانة بجنودها ، ولاحتلتها كما فعلت سنة ١٨٨٢ ، حين لم يكن ثمة جيش ولا دفاع ، ولا معاقل لحماية الذمار .

مشروع تأسيس الجيش النظامى

أخذ محمد على باشا يؤسس الجيش المصرى النظامى منذ سنة ١٨٢٠ ، وكان الجيش قبل ذلك العهد أخلاطاً من العناصر المفطورة على التمرد والفوضى يطلق عليهم لفظة (باشبوزق) أى الجنود غير النظاميين ، ومثل هذا الجيش لم يكن جديرًا بالاعتماد عليه فى رفع هيبة مصر والدفاع عن كيانها وتوسيع حدودها ، لذلك ما فتىء محمد على منذ تبوأ عرش مصر يفكر فى إنشاء جيش على النظام الجديد .

ولكن الظروف لم تكن تؤاتيه ، فكان يؤجل إنفاذ فكرته إلى أن تحين الفرصة المناسبة ، وقد لاقى صعوبات كبيرة فى تحقيقها ، لأن الجنود غير النظاميين الذين كان يتألف منهم الجيش القديم كانوا معتادين الفوضى والعصيان ، ويكرهون كل نظام .

المحاولة الأولى لتنفيذ المشروع وإخفاقها
(سنة ١٨١٥)

وقد حاول لأول مرة إنفاذ فكرته سنة ١٨١٥ بعد عودته من حرب الوهابيين ، ولكن هذه المحاولة اخفقت وكادت تودى بمركزه لولا أن عدل عنها وأرجأها إلى وقت آخر .

ذلك أنه لما عاد من الحجاز أمر بتدريب فرقة من جنود ابنه إسماعيل باشا على النظام الحديث ، وذهب هو لهذا الغرض إلى بولاق (أغسطس سنة ١٨١٥) وأعلن رغبته فى إدخال النظام الجديد فى صفوفهم ، وصارحهم بأن من لم يذعن لهذا النظام يعاقب على تمرده ، ولما عاد إلى شبرا تذمر الجند من هذه الأوامر وأرجفوا بها ، فانتهز بعض رؤسائهم هذه الفرصة ليأتمروا بمحمد على ، ويسعوا فى خلعه ، وكادت تفلح المؤامرة لولا أن القوم أفضوا باتفاقهم إلى عابدين بك احد رؤساء الأرناءود وكان قد عاد من الحجاز مريضًا ، فتوسم فيه المتآمرون الموافقة على مؤامرتهم وأجمعوا على أن يهاجموا محمد على فى قصره بالأزبكية ، فأفضى عابدين

بك إلى محمد على بهذا السر، فبارح قصره وذهب إلى القلعة فى منتصف الليل ، ودخلها من طريق باب الجبل ، وبالرغم من ذلك توافى المتمردون إلى ميدان الأزبكية وتبادلوا وحرس السراى إطلاق الرصاص ، فوقعت فتنة تشبه فتنة الجند سنة ١٨٠٧ ، غير أنها كانت أوسع مدى وأعظم خطراً ، فلما لم يجدوا بغيتهم ذهبوا إلى ميدان الرميلة .. ومن هناك انحطوا على الأسواق ينهبون ويسلبون (٣ أغسطس سنة ١٨١٥) ، وقد تذرع محمد على بالحزم والحكمة فى معالجة هذه الفتنة حتى أخمدها ، وأرجأ النظام الجديد فى الجيش إلى وقت حتى يهيىء له وسائله ويبتغى ذرائعه .

رواية الجبرتى

ذكر الجبرتى نبأ محاولة محمد على إدخال النظام الجديد فى الجيش فى رواية طويلة نوردها لما فيها من تأييد لما قلناه ، وتفصيل لما أجملناه ، قال فى حوادث ٢٥ شعبان سنة ١٢٣٠ (٣ أغسطس سنة ١٨١٥) :

« أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر حيث قبة العزب ، فخرجوا من ثلث الليل الأخير . وأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ، على طريقة الإفرنج ، وذلك من قبيل الفجر إلى الضحوة ، ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين إلى المدينة فى كبكبة عظيمة ، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية ، وداسوا أشخاصًا من الناس بخيولهم ، بل وحميراً أيضًا ، وأشيع أن الباشا قصده إحصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الإفرنج ، ويلبسهم الملابس المقمطة ، ويغير شكلهم ، وركب فى ثانى يوم إلى بولاق وجمع عساكر ابنه إسماعيل باشا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد ، وعرفهم قصده ، وفعل ذلك بجميع العساكر ، ومن أبى ذلك قابله بالضرب والطرد والنفى بعد سلبه حتى ثيابه ، ثم ركب من بولاق وذهب إلى شبرا ، وحصل فى العسكر قلقلة ولغط ، وتناجوا فيما بينهم ، وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم وأكابرهم ، ووافقهم على النفور بعض أعيانهم ، واتفقوا على غدر الباشا ، ثم إن الباشا ركب من قصر شبرا وحضر إلى بيت الأزبكية ليلة الجمعة ثامن عشرينه ، وقد اجتمع عند عابدين بك بداره جماعة من أكابرهم فى وليمة وفيهم حجو بك وعبد الله أغا صارى ، وحسن أغا الأزرجانلى ، فتفاوضوا بينهم فى أمر الباشا وما هو شارع فيه ، واتفقوا على الهجوم على داره بالأزبكية فى

الفجر ، ثم إن عابدين بك غافلهم وتركهم فى أنسهم ، وخرج متنكراً مسرعاً إلى الباشا ، وأخبره ورجع إلى أصحابه ، فأسرع الباشا فى الحال إلى الركوب فى سادس ساعة من الليل ، وطلب عساكر طاهر باشا فركبوا معه ، وأحاط المنزل بالعساكر ، ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية الناصرية ومرمى النشاب ، وصعد إلى القلعة ، وتبعه من يثق به من العساكر ، وانخزم أمر المتوافقين ، ولم يسعهم الرجوع عن عزيمتهم ، فساروا إلى بيت الباشا يريدون نهبه ، فمانعهم المرابطون وتضاربوا بالرصاص والبنادق وقتل بينهم أشخاص ولم ينالوا غرضًا فساروا إلى ناحية القلعة واجتمعوا بالرميلة وقراميدان » .

ثم ذكر الجبرتى تفاصيل تمرد الجند وانسيابهم فى الأسواق ونهبهم الدكاكين والمتاجر وإحداثهم من الشغب والاعتداء على أموال الناس وبضائعهم وإخلالهم بالنظام ماجعل سكان العاصمة يضجون من مساوئهم .

موقف محمد على إزاء الجيش القديم

قلنا إن محمد على باشا قابل هذه الحركة بالحلم والأناة ورجاحة العقل ، وقد استغلها لخدمة مشروعه فى إنشاء جيش على الطراز الحديث قوامه النظام والطاعة ، ذلك أنه بادر إلى إظهار استيائه مما أحدثه الجنود المتمردون ، وقرر دفع تعويض لجميع التجار الذين نهبت دكاكينهم ، وعهد بتقدير ذلك إلى السيد محمد المحروقى كبير التجار ، ودفعت الحكومة فعلا التعويضات [١] لمن وقع بهم النهب والاعتداء ، فلهج الشعب بالثناء على محمد على باشا وسخطوا على الجنود المتمردين ، وكان فى هذا العمل أكبر دعاية للنظام الجديد ، وأخذ الباشا يهيىء الوسائل لإدخال ذلك النظام ، ولكنه لم يبدأ به إلا سنة ١٨٢٠ ، وهذا يدلك على أناته وبعد نظره ، وقد مهد لذلك بتشتيت الجنود غير النظامية وإخراجهم من العاصمة حتى لا يكون احتشادهم فيها مدعاة لتمردهم وتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور الواقعة على البحر الأبيض المتوسط كرشيد ودمياط ، وبعض البلاد القائمة على فرعى النيل ، ولكيلا يسبق إلى قلوبهم أنه يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم أمر بأن يرافقهم فى معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه كطوسون باشا واسماعيل باشا ، ورؤساء جنده مثل محو بك وغيره ، وأمر بإقامة ثكنات فى البلاد التى أعدها لإقامتهم .

(١) يقول مختار باشا فى كتابه التوفيقات الإلهامية ص ٦١٥ أنها بلغت نيفا و ١٥٠٠٠ جنيه .

رواية الجبرتى

قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى عاشر محرم سنة ١٢٣١ – ١٢ ديسمبر سنة ١٨١٥ – رجع الباشا من غيبته من الإسكندرية ، وأول ما بدأ به إخراج العساكر مع كبرائهم إلى ناحية بحرى وجهة البحيرة والثغور ، فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية ، وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودًا وآلات الحرب ، واستمر خروجهم فى كل يوم ، وذلك من مكايده معهم ، وإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة ، فخرجوا أرسالا ، واستهل شهر ربيع الأول سنة ١٢٣١ وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا إلى ناحية رشيد ، ونصبوا عرضيهما عند الحماد وناحية أبى منصور[٢] ، وحسين بك دالى باشا وخلافه مثل حسن أغا أزرجنلى ومحو بك وصارى جله وحجو بك جهة البحيرة ، وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه أخرج حتى أولاده العزاز للمحافظة ، وكذلك الكثير من كبرائهم إلى جهة البحر الشرقى ودمياط » .

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد على بالأقاليم : « إن الباشا أمر ببناء مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلات بكل جهة من أقاليم الأرياف لكن العساكر المقيمين بالنواحى لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام فى الحر والبرد واحتياج الخيام فى كل حين إلى تجديد وترقيع وكثير خدمة ، وهى جمع قشلة بكسر القاف وسكون الشين ، وهى فى اللغة التركية المكان الشتوى ، لأن الشتاء فى لغتهم يسمى قش بكسر القاف وسكون الشين ، فكتب مراسيم إلى النواحى بسائر القرى بالأمر لهم بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله إلى محل البناء ، وفرضوا على كل بلد وقرية فرضًا وعددًا معينًا فيفرض على القرية مثلا خمسمائة ألف لبنة أو أكثر بحسب كبر القرية وصغرها ، فيجمع كاشف الناحية مشايخ القرى ، ثم يفرض على كل شيخ قدرًا وعددًا من اللبن عشرين ألفا أو ثلاثين ألفاً أو أكثر أو أقل ، ويلزم بضربها وحرقها ورفعها ، وأجلهم مدة ثلاثين يومًا وفرضوا على كل قرية أيضًا مقادير من أفلاق النخل ومقادير من الجريد ثم فرضوا عليهم أيضًا أشخاصًا من الرجال لحمل الأشغال والعمائر يستعملونهم فى نقل أدوات العمارة فى النواحى حتى الإسكندرية وخلافها ، ولهم أجرة أعمالهم فى كل يوم لكل شخص سبعة أنصاف فضة لا غير ، ولمن يعمل اللبن أجرة أيضًا ، ولثمن الأفلاق والجريد قدر معلوم لكنه قليل » .

---

(٢) هى التى يقال لها اليوم أبو منضور من أعمال مركز دسوق والتى كان لها شأن فى وقائع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

البدء فى تنفيذ المشروع

(سنة ١٨٢٠)

عاد محمد على إلى تحقيق مشروعه سنة ١٨٢٠ ، فاعتزم فتح مدرسة حربية فى (أسوان) لتخريج ضباط الجيش ، وكان من الضرورى لإدخال النظام الجديد أن يختار ضباطًا ومعلمين على بَصَرٍ بأساليب ذلك النظام ، ولا مندوحة أن يكونوا من الأوروبيين ، لأن هذه الأساليب كانت مجهولة فى الشرق إلى ذلك الحين ، وقد وجد محمد على عضدًا كبيرًا فى ضابط فرنسى عظيم من ضباط الامبراطورية النابليونية وهب نفسه لخدمة مصر وتقدمها ، وهو الكولونل سيف Seves الذى عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوى ، فإليه يرجع الفضل الأكبر فى معاونة محمد على ومؤازرته فى تأسيس الجيش المصرى على النظام الجديد ، بحيث صار يضارع أرقى الجيوش الأوروبية . وبرهن فى ميادين القتال على أنه لا يقل عنها دربة وكفاية

سليمان باشا الفرنساوى

(سنة ١٧٨٧ – ١٨٦٠)

هو الكولونل سيف Seves ، وهو فرنسى الأصل ولد فى ليون سنة ١٧٨٧ [٣] ، وكان أبوه صاحب مصنع فى المدينة ، ودخل فى مهمة البحرية وحضر واقعة الطرف الأغر ثم انتظم فى سلك الجيش البرى وقاتل فى حروب نابليون وارتقى فى المراتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونل (أميرالاى) ، ولما انتهى عهد نابليون قضى على الكولونل سيف بالخروج من الجندية وانقطع للتجارة والزراعة ، ثم طلب إلى صديق له وهو الكونت دى سيجور السعى لدى شاه العجم فى أن يعهد إليه تنظيم جيشه ، فنصحه بالذهاب إلى مصر ، فجاءها سنة ١٨١٩ . وقابل محمد على فأعجب به وعهد إليه تنظيم الجيش المصرى على الأساليب الحديثة فكان له الفضل الكبير فى الاضطلاع بهذه المهمة كما تراه مفصلا فى سياق الكلام ، وقد اعتنق الإسلام فى مصر واختار لنفسه اسم سليمان فصار يعرف بسليمان بك .

واشترك فى حرب المورة ثم فى حرب الشام والأناضول كما فصلناه فى موضعه وأنعم عليه

---

(٣) كادلفين وبارو – ستتان من تاريخ الشرق (سنة ١٨٣٩ – ١٨٤١) ج ١ ص ١٦٨ .

محمد على سنة ١٨٣٤ بالباشوية عقب الحرب السورية الأولى فعرف من ذلك الحين بسليمان باشا الفرنساوى ، واشترك فى الحرب السورية الثانية ، وقد عين رئيسا عاما لرجال الجهادية أى للجيش المصرى واحتفظ بهذا المنصب فى عهد ابراهيم وعباس إلى سعيد باشا ، وتوفى فى سنة ١٨٦٠ ، وهو المقام له تمثال فى ميدان سليمان باشا بالقاهرة .

المدرسة الحربية الأولى بأسوان

جاء الكولونل سيف إلى مصر كما قدمنا ، فلما انس منه محمد على باشا الكفاءة لتحقيق مشروعه أنفذه سنة ١٨٢٠ إلى أسوان لتكوين النواة الأولى من الجيش ، وبدأ فى العمل بأن قدم إليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدربهم على أن يكونوا ضباطًا فى النظام الحديث ، وطلب إلى بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك ، فاجتمع لدى الكولونل (سيف) ألف من هؤلاء وأولئك أخذ يدربهم مدة ثلاث سنوات على فنون الحرب وأساليبها الحديثة ، فصاروا نواة الجيش النظامى إذ تكونت منهم الطائفة الأولى من الضباط .
قد اختار محمد على (أسوان) لتخريج الطائفة الأولى من ضباط الجيش رجاةً أن ينفذ مشروعه بعيدًا عن الدسائس والأنظار معًا ، ولكى يتم فى رهينة وسرٍ دون أن يلتفت إليه الناس ، فإذا نجح فالنجاح ، وان خفق لا يكون لاخفاقه رد فعل يزعزع مركز محمد على ، وكان ذلك من دلائل بعد نظره وفراسته ، ومما رغبه أيضا عن القاهرة خشيته أن يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط أوروبى مثاراً لهياج الخواطر فيها ، وخاصة بين الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد ، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من أسباب اللهو بعيدين عن أماكنه فلا يفسد عليهم الأخلاق الحربية ، فاختار لهم كما قلنا مدينة (أسوان) ، وأنشأ بها أربع ثكنات فسيحة لإقامتهم ولتكون مدرسة لهم ، وقد عنى محمد على بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والأسباب ، فهى أول مدرسة حربية أنشأها لتكوين الجيش المصرى النظامى .

وقد ذكر المسيو فولابل [٤] وكلوت بك [٥] أن الكولونل (سيف) لقى صعوبات كبيرة فى

---

(٤) فى كتابه مصر الحديثة جزء ٢ ص ٢٤٩ .

(٥) فى كتابه (لمحة عامة إلى مصر) ج ٢ ص ٣١٩ .

تدريب أولئك الشبان على الأساليب الحديثة ، لأن قوام هذه الأساليب النظام والطاعة المطلقة للرؤساء ، والمماليك اعتادوا الصخب والضوضاء والإخلال بالنظام ، ولم يألفوا من الحركات العسكرية سوى الكر والفر ، فكان النظام والسكون اللذان لا مندوحة عنهما أثناء المناورات والتمرينات العسكرية مما لا يروق لهم ، أضف إلى ذلك أنهم لم يعتادوا أن يتعلموا فنون الحرب على ضباط أوروبيين (مسيحيين) ، فجاشت نفوسهم بفكرة التمرد والعصيان ، ودبروا المؤامرات للفتك بالكولونل سيف على مثال مؤامرات المماليك لاغتيال بكواتهم القدماء ، فبينما كان ذات يوم يمرن أولئك الشبان على ضرب النار إذا بأحدهم قد رماه برصاصة كادت ترديه ، لولا أنها انحرفت ومرت بجانب أذنه ، وسمع صفيرها ، فلم يتزعزع ولم يفقد شيئاً من شجاعته ورباطة جأشه ، بل استمر فى عمله وأمر التلاميذ بإطلاق النار كرّة جديدة .

وحدث مرة أخرى أن نزع تلاميذه إلى العصيان وتهددوه بالقتل ، فطلب إليهم أن يبارزوه متعاقبين واحداً تلو الآخر حتى لا يدنسوا أنفسهم بالخيانة والغيلة ، فكان لهذه الشجاعة والبطولة وسعة الصدر تأثير سحرى فى نفوس أولئك الفتيان الذين مهما يكن ما اتصفوا به من الغدر فإنهم يقدرون الشجاعة حق قدرها ، فبعد أن كانوا ناقمين عليه صاروا من خاصة أوليائه يحيطونه بإعجابهم وإجلالهم ، فتمكن الكولونل (سيف) من إتمام تعليمهم فى مدى ثلاث سنوات .

واستمر على هذا النحو إلى أن تكونت من تلاميذه الهيئات الأولى من الضباط .

وقد كان إبراهيم باشا يصحب أحيانا الكولونل سيف فى أسوان ، وكان لوجوده تأثير كبير فى حمل الشبان على الطاعة واتباع النظام الجديد .

يؤخذ من البيانات المتقدمة أن أول مدرسة حربية للجيش النظامى هى مدرسة أسوان ، وقد ذكر العلامة على باشا مبارك[٦] ضمن كلامه عن مدينة أسوان مايلى : « وعلى نحو ثلثى ساعة من جهتها البحرية قصر وبستان من إنشاء محمد بك لاظ اوغلى سنة ١٢٣٨ هـ مدة إقامته بها من العساكر الجهادية الذين جعل العزيز محمد على عليهم سليمان باشا الفرنساوى لتعليمهم القوانين الافرنجية العسكرية ، وكان يقرب ذلك البستان قشلاق لإقامة ضباط العساكر ، ثم جعل مكتبا للتلامذة على طرف الميرى » .

(٦) الخطط التوفيقية الجزء ٨ ص ٦٧ .

فالقشلاق الذى ذكره على باشا مبارك هو المدرسة الحربية بأسوان التى تكونت فيها نواة الجيش النظامى .

التجنيد

وبعد أن توفر العدد الكافى من الضباط أخذ محمد على يفكر فى حشد الجنود وتنظيم صفوفهم ، وهنا نشأت صعوبة جديدة ، وهى طريقة اختيار الجنود ومن أى الطبقات يحشدهم .

لم يشأ فى المبدأ أن يجند الأتراك ولا الأرناءود فى النظام الجديد ، لما فطروا عليه من حب الشغب والنفور من النظام ، والرغبة عن الطاعة ، فأعرض عنهم ، ولم يشأ أيضًا أن يفاجىء المصريين بتجنيدهم حتى لا يثير الهياج فى البلاد لأنهم لم يعتادوا التجنيد من عهد المماليك ، فخشى إذا هو عجل بحشدهم أن يعدوا ذلك عبئاً جديدًا يثقل كاهلهم فوق أعباء الضرائب والإتاوات التى كانوا ينوءون بها ، وخشى من جهة أخرى أن يؤدى تجنيدهم إلى حرمان مصر من قيامهم على الزراعة فتسوء حالة البلاد الاقتصادية وتزداد ضنكًا على ضنك ، ففكر أولا فى تجنيد السودانيين من سكان كردفان وسنار ، وقد تقدم القول بأن من بواعث فتح السودان تجنيد أهله فى الجيش المصرى ، ولقد عهد إلى ابنه اسماعيل باشا وصهره الدفتردار أن يرسلا إليه حشدا من السوادنيين يجمعان له ما وسعها الجمع ، فجاءه منهم نحو عشرين ألفا وأنفذهم إلى بنى عدى[7] حيث بدىء فى تدريبهم هناك على النظام الحديث على يد الضباط المماليك الذين تخرجوا من مدرسة أسوان ، وأعدت الحكومة لإقامتهم وتدريبهم الثكنات الكافية والمؤن والمستشفيات والأسلحة والملابس ، وبذل محمد على فى هذا السبيل كل ما أوتى من قوة العزيمة والقدرة على التنظيم .

وقد أشار على باشا مبارك إلى هذه الثكنات فى كلامه عن بنى عدى[8] بقوله : « وبها أثر قصر كان بناه محمد لاظ اوغلى مدة إقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية أسوان ، فلابد أن يكون هذا القصر الذى بقى أثره إلى حين تأليف الخطط التوفيقية

---

(٧) بالقرب من منفلوط وهى التى ذكرناها فى الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ٤٢٠ (الطبعة الأولى) وتسمى الآن بنى عديات .

(٨) الخطط التوفيقية جزء ٨ ص ٩٤ .

(١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧) أحد المبانى التى أقيمت فى بنى عدى حينما شرع محمد على فى اتخاذها مكانا لتدريب الجنود على النظام الحديث ، ومحمد لاظ أوغلى الذى يذكره على باشا مبارك هو كتخدا (وكيل) محمد على باشا ، فهو إذن قد أقام هذا القصر بأمر من مولاه .

على أن تجربة تجنيد السودانيين لم تصادف النجاح المرغوب ، فإن معظمهم وقع فيهم الموتان لعدم موافقة جو مصر لمزاجهم وصحتهم ، ولأنهم لم يطيقوا أعباء الخدمة العسكرية ، فأخذ محمد على يفكر فى الالتجاء إلى تجنيد المصريين ، وأنشأ ثكنات لتمرين المجندين منهم فى فرشوط عدا ما أنشأه فى أسوان وبنى عدى .

وفى يناير سنة ١٨٢٣ تألفت الأورط الست الأولى من الجيش النظامى ، وجعل المماليك الذين تخرجوا من مدرسة أسوان ضباطًا ، ومضت سنة ١٨٢٣ ثم الأشهر التالية إلى يونيه سنة ١٨٢٤ فى إتقان تدريب تلك الأورط ، فاغتبط محمد على بهذه النتيجة الأولى ، وأراد أن يشهد بنفسه مبلغ نجاح مشروعه فأمر بنزول الأورط النظامية إلى القاهرة وعرضها فى (الخانكة) وكانوا عدة آلاف من المشاة (البيادة) شاكى السلاح كاملى العدة قاموا بمناورات حربية أثبتوا فيها دربتهم وحسن نظامهم ، فأعجب بهم محمد على واغتبط بنجاح مسعاه ، وأنشأ معسكراً عامًّا للجيش فى (الخانكة)[٩] كان يحتوى دوامًا من ٢٠ إلى ٢٥ ألفا من الجنود النظاميين ، وصارت الخانكة وأبو زعبل مباءة للتعليم العسكرى وما إليه ، ففى أبى زعبل أنشىء المستشفى العسكرى الأول ، ثم مدرسة الطب ، وأنشئت المدرسة الحربية للمشاة ومدرسة أركان الحرب فى الخانكة .

واعتزم تجربة جنوده النظاميين فى ميادين القتال ، فأنفذ الأورطة الأولى إلى الحجاز حيث كانت الثورات لا تخمد جذوتها ، والثانية إلى السودان ، والأربع الأخرى إلى بلاد (المورة) لمحاربة اليونانيين تحت قيادة ابنه إبراهيم باشا .

ومن الحق أن نعترف أن محمد على لاقى صعوبات جمة فى تجنيد الأهلين ، وحدث بسبب تذمرهم من التجنيد فتن تغلب عليها بالحزم والحكمة ، ففى سنة ١٨٢٤ (١٢٤٠ هجرية) جاء القصير مغربى يسمى أحمد فتن أدريس قادمًا من الحجاز فوقعت مشادة بينه وبين عمال الجمرك على مكوس فرضوها على أمتعته ، فسار إلى قنا ثم إلى إسنا ، وحرض الأهالى هناك على الفتنة وكانوا مستعدين للهياج لتذمرهم من التجنيد ، وانضمت إليه الجموع الصاخبة وسار بهم إلى

(٩) ويسمى معسكر (جهاد أباد) وموقعه بجوار الخانكة - هامش الطبعة الثالثة .

فرشوط ، وكادت تستفحل الفتنة لولا أن الحكومة جردت عليهم القوات الكافية فشتت جموعهم وطاردتهم إلى الجهات الصحراوية .

وترجع المصاعب فى تجنيد الأهالى إلى أنهم كما قدمنا لم يألفوا الخدمة العسكرية ولم يكونوا مكلفين بها فى عهد المماليك ، وهذا نقص كبير فى أخلاق الشعب الحربية ، فإنه ما من أمة تنزع إلى الاستقلال وتقدس الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية فرضًا حتمًا على أبنائها فى طبقاتهم كافة ، فلما شرع محمد على فى تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط ، ولم ينتظموا فى صفوف الجندية إلا مكرهين ، فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرًا إلى المعسكرات ، ومن الأسف أنه مازالت كراهية التجنيد باقية فى نفوس معظم طبقات الشعب إلى عصرنا هذا (١٩٣٠) ، فالمتعلمون يكرهون التجنيد ويفرون منه ، والسواد الأعظم من الأمة يتحاماه ويمقته ، وكل من يطلب للتجنيد يود أن يفتدى نفسه بما يستطيع من المال ، ولا يمكن تدارك هذا النقص إلا إذا تقدمت الطبقات المتعلمة وأعطت المثال للطبقات الأخرى فى احترام التجنيد والإقبال عليه باعتبار أنه واجب وطنى عام ، ومالم يتقدم المتعلمون والموسرون إلى الانتظام فى سلك التجنيد فلا يجمل بنا أن نلوم الفلاحين على نفورهم منه ، لأنهم إذ يرون المتعلمين يترفعون عن الخدمة العسكرية فلهم العذر أن يتوهموا أنها سخرة تبتلى بها الطبقات الفقيرة ، وهذا الوهم يفسد الروح القومية والحربية فى طبقات الشعب .

ولا يغيبنّ عنك أن نجاح تجربة تجنيد المصريين فى عهد محمد على وما برهن عليه الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلغ استعداد الأمة المصرية لأن تكون أمة حربية ، ويكفيك أن تتأمل فى ما كان عليه الجيش من الفوضى والتأخر حينما كان مؤلفًا من الأرناءوط وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية ، وكيف استعصى على محمد على أن ينشىء من تلك العناصر جيشا نظاميا ، وكيف انقاد له ذلك حينما اعتمد على المصريين دون سواهم ، فألف منهم الجيش الذى تردد ذكره فى الخافقين لما ناله من الانتصارات الباهرة فى ميادين القتال .

وجد إذن محمد على صعوبة كبيرة فى تطبيع المصريين على نظام التجنيد ، على أنه وفق فى مسعاه بفضل المثابرة وقوة العزيمة ، لأن الفلاحين بعد أن كانوا متهيبين من التجنيد رأوا الحياة العسكرية أرفه وأحسن حالا من معيشتهم فى القرى طعاماً ولباساً ومظهراً ، فأخذوا يألفونها ويعتزون بها .

قال المسيو مورييه Mouriez فى هذا الصدد : « لما انتظم الفلاحون فى صفوف الجيش

النظامى ألفوا بسرعة حياتهم الجديدة ، وبعد أن كانوا معتادين الذل والمسكنة فى قراهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الإنسانية ، وأخذوا يفخرون بأنهم جنود محمد على ويقابلون غطرسة الترك بمثلها ، ولم يقبلوا أن يسموا فلاحين وعدوها تصغيراً لشأنهم لأن هذه التسمية كانت تشعر (وقتئذ) بشىء من المهانة ، ونالوا من الحكومة أمراً أن لا ينبزهم أحد بكلمة فلاحين » .

ولما اتسعت دائرة التجنيد استدعى محمد على من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصرى ، فتكونت طوائف الضباط المصريين على يد المعلمين الأوروبيين ، وأرسل طائفة من الشبان إلى أوروبا لإتمام دروسهم الحربية هناك ، فعادوا إلى مصر بعد أن حذقوا العلوم والفنون العسكرية ، وحلوا فى المدارس الحربية محل المعلمين الأجانب ، وإذا تأملت فى البعثات التى أوفدها محمد على إلى أوروبا وجدت معظم أفرادها قد تخصصوا للفنون الحربية وما إليها من الهندسة والرياضيات .

المدارس الحربية

مدرسة أسوان

قلنا ان مدرسة (أسوان) هى أول مدرسة حربية أسسها محمد على باشا على النظام الحديث ، وقد أسست مدرسة حربية أخرى فى فرشوط ، ومثلها فى النخيلة وأخرى فى أبار (جرجا) .

مدرسة قصر العينى

وأنشئت سنة ١٨٢٥ مدرسة إعدادية للتعليم الحربى بقصر العينى ، كانت تعرف بالمدرسة التجهيزية الحربية ، وعدد طلبتها نحو ٥٠٠ تلميذ يعدون لدخول المدارس الحربية والمدرسة البحرية ثم للمدارس العالية الأخرى » ونقلت إلى أبى زعبل بعد أن خصص قصر العينى لمدرسة الطب ، وقد زارها المارشال مارمون سنة ١٨٣٤ ، فألفى بها من التلاميذ ١٢٠٠ تلميذ[١٠] .

---

(١٠) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٣١٢ .

ويقول المسيو مانجان[١١] إن بهذه المدرسة مكتبة كانت تحوى (سنة ١٨٣٧) ١٥٠٠٠ مجلد .

مدرسة المشاة بالخانكة ثم بدمياط ثم بأبى زعبل

وجه محمد على عنايته لتنظيم فرق المشاة (البيادة) فى الجيش المصرى ، وأنشأ لتخريج ضباط هذه الفرق مدرسة حربية فى (الخانكة) على احدث نظام . بلغ تلاميدها ٤٠٠ تلميذ قسموا إلى ثلاثة بلوكات ، يتعلمون فيها التمرينات والإدارة الحربية . واللغات العربية والتركية والفارسية ، ثم نقلت المدرسة إلى دمياط سنة ١٨٣٤ وكان ناظرها ضابطاً من مقاطعة البيمونت بإيطاليا واسمه المسيو بولونينى Bolognini كان من ضباط الإمبراطورية النابليونية فاستخدمه محمد على ورقاه إلى رتبة قائمقام . ثم نقلت المدرسة إلى ابى زعبل سنة ١٨٤١ .

مدرسة الفرسان بالجيزة

ذكر كلوت بك فى كتابه[١٢] أن تشكيل فرق الفرسان فى الجيش المصرى لم يبدأ بحسب النظام الجديد إلا بعد عودة الجيش من حرب المورة ، ذلك أن إبراهيم باشا قد شاهد فى خلال هذه الحرب حسن نظام الخيالة الفرنسيين فأدرك أهمية تنظيم الفرسان ، وعلى أثر عودته إلى مصر شرع فى تشكيل فرق الخيالة على النظام الأوروبى واستدعى لهذا الغرض عدداً من المعلمين الأوروبيين .

أنشئت المدرسة الحربية للفرسان بالجيزة فى قصر مراد بك[١٣] فحول إلى ثكنة جميلة للفرسان ، وتولى تنظيم المدرسة المسيو فاران Varin من ضباط الأمبراطورية النابليونية ياور المارشال جوفيون سانسير Gouvoin Saint Cyr ، وتلاميذها من الشبان يتعلمون مناورات الفرسان وحركات المشاة ويلبسون أكسية تطابق ملابس الفرسان الفرنسيين ما عدا القبعة ،

(١١) ج ٣ ص ١٣١ .

(١٢) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣٣٤ .

(١٣) انظر ما كتبناه عن هذا القصر بالجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ١٤٦ و ٢١٨ و ٣١١ .

ويتولى التدريس فى هذه المدرسة ضباط لقيادتهم ومدرسون يدرسون لهم اللغتين العربية والتركية .

وكانت المدرسة تتبع نظام مدرسة سومور Saumur الحربية بفرنسا إلا بعض تعديلات طفيفة استلزمتها الظروف المحلية ، وفيها أساتذة لتعليم اللغة الفرنسية والرسم والمبارزة وترويض الخيل ، وفيها رئيس للإدارة الحربية ، ويتعلم فيها الطلبة فوق ما تقدم استعمال النفير وسائر ضروب الموسيقى المستعملة فى فرق الفرسان ، وطلبتها خليط من الشبان المصريين والترك يتخرجون منها ضباطًا لفرق الفرسان ، وكان لهذه المدرسة ناظر يقوم على النظام فيها ، وله توقيع الجزاءات على من يستحقون العقاب من مرؤوسيه ، وتوزيع الأغذية والعلف ، ويتصل بناظر الحربية ويتبع أوامره .

وقد زار المارشال مارمون هذه المدرسة سنة ١٨٣٤ وكان بها إذ ذاك ٣٦٠ تلميذًا فأعجب بها وكتب عنها فى رحلته مايلى : (١٤)

« عندما شاهدت هؤلاء الطلبة فى الميدان يقومون بالمناورات خيّل لى أنى أمام طابور من أرق ألايات الخيالة عندنا . ولئن كان ينقص المدرسة لتصل إلى درجة الكمال بعض دروس فى اللغة والرسم وغير ذلك ولكن مما لا نزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقصها شىء ، فالطلبة يجيدون ركوب الخيل ، والمناورات التى يقومون بها تجرى بخفة ودقة وإحكام ، ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون ، والروح المعنوية فيهم على ما يرام ، فهم جنود بكل معانى الكلمة ، وحملة الأبواق يؤدون عملهم بإتقان » .

مدرسة المدفعية بطره

شكلت المدفعية النظامية فى الوقت الذى نظمت فيه المشاة على الطراز الحديث ، وتولى تنظيمها جماعة من الضباط الفرنسيين ، وعاونهم فى العمل ضباط من المصريين وفى مقدمتهم الضابط القدير أدهم بك (باشا) الذى أسس ترسانة القلعة وتولى إدارة المهمات الحربية ثم رئاسة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) .

وأنشئت فى (طره) مدرسة حربية للطوبجية (المدفعية) تولى إدارتها ضابط إسبانى يدعى الكولونل (الميرالاى) الدون انطونيو دى سيجرا Seguera ، وهو الذى عرض على محمد

(١٤) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٨ .

على إنشاءها لتخريج ضباط المدفعية للجيش المصرى ، وعرض مشروعه أيضًا على إبراهيم باشا قائد الجيش العام فنال تأييده ، ومن ثم أنشئت المدرسة على الوضع الذى اقترحه الميرالاى سيجيرا ، وقد ذكر العلامة على باشا مبارك هذه المدرسة فى كلامه عن (طره) فقال : « وكان بطره مدرسة الطوبجية وهى مدرسة جليلة من إنشاءات العزيز محمد على تربى بها جملة من الأمراء برعوا فى فنون الطوبجية »[١٥] ، ثم نقل ما كتبه الدوق دى راجوز (المارشال مارمون) عنها مما سنذكره فى موضعه .

وقد اختير لهذه المدرسة من التلاميذ ثلثمائة من خريجى مدرسة قصر العينى الإعدادية أخذوا يتلقون فيها الدروس الحربية ، واللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات ، ويتمرنون على المرمى بالمدافع على يد معلمين حربيين ، وكان الكولونل سيجيرا نفسه يعلمهم دروس الرياضة والرسم ، وقد تقدموا فى علومهم وبرهنوا على كفايتهم فى الحرب السورية[١٦] ، وتبارت المدفعية الثقيلة والمدفعية الخفيفة فى النشاط والجدارة ، قال مانجان : وضباط المدفعية المتخرجون من هذه المدرسة متعلمون مثقفون .

ولم يغرب عن بال محمد على باشا أهمية هذه المدرسة فأراد أن يرى بنفسه سير التعليم فيها فزارها واختبر شئونها فأبدى ارتياحه وسروره من أساتذتها وتلاميذها ومعداتها ، وكافأ الكولونل سيجيرا بالانعام عليه برتبة البكوية مع لقب لواء ، وألحق بالمدرسة أورطة للمدفعية المشاة وأورطة أخرى للمدفعية الركبان ، وأنشىء لها ميدان لضرب النار للجنود والتلاميذ ، وضع به أربع وعشرون بطارية من المدافع للتمرين عليها .

وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب يساعده صيدلى لمعالجة المرضى .

مدرسة أركان الحرب بالخانكه

أنشئت هذه المدرسة بالخانكة بناء على اقتراح عثمان نور الدين باشا بالقرب من المعسكر العام للجيش[١٧]

(١٥) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٣٢ .

(١٦) مانجان ج ٣ ص ١٢٩ .

(١٧) هامش الطبعة الثالثة – معسكر (جهاد أباد) بجوار الخانكة .

وقد ذكرها المسيو دور فى كتابه عن التعليم العام بمصر[١٨] وكلوت بك[١٩] ، ولم يذكرا تفصيلات عنها ، ويسميها رفاعة بك رافع[٢٠] مكتب الرجال بالخانقاه .

مدرسة الموسيقى العسكرية

قرر محمد على تنظيم الجيش المصرى على مثال الجيوش الأوروبية من كل وجه ، فأمر بإعداد طائفة من الموسيقين لكل ألاى . وأحضر من أوروبا ما يلزم الجيش من آلات الموسيقى ، وكذلك أحضر المدرسين الأوروبيين لتعليم المصريين الموسيقى الإفرنجية الحربية ، فأنشأ فى (الخانكه) معهدًا لتعليم الموسيقى يسع ١٣٠ تلميذًا تولى التدريس فيه أربعة من الموسيقيين الفنيين ، وعين المسيو كاريه Carre مديرًا له ، وكانت تدرس فيه أيضا اللغة العربية على يد أساتذة مصريين .

وقد أبدى التلاميذ المصريون إتقانًا وبراعةً ونبوغًا فى فنون الموسيقى شهد بها الإفرنج ، قال المسيو مانجان فى هذا الصدد : « إن أولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة فى توقيع الألحان الصعبة من النوتات ما أدهش العارفين بالفن وخاصة الافرنج الذين اجتذبتهم إلى وادى النيل شهرة محمد على »[٢١] .

وهذه المدرسة كانت تخرج الموسيقيين الذين يحتاج إليهم الجيش المصرى ، ولكن الدكتور كلوت بك لاحظ فى كتابه[٢٢] أن برنامج المدرسة قام على قاعدة خاطئة ، ذلك أنه تضمن نقل الموسيقى الأوروبية بنغماتها وأناشيدها الأوروبية إلى نغمة شرقية لم تتعود الألحان الأوروبية ، فلم تؤثر فى نفوس التلاميذ التأثير الفنى المطلوب ولم تتحرك لها قلوبهم ، وأن الواجب كان يقضى بإحضار فنانين عارفين بالموسيقى العربية ليؤلفوا منها ومن الألحان الأوروبية موسيقى خاصة تتأثر لها نفوس المصريين ، ويقول إن الحكومة فى عهد محمد على ذاته قد ألغت معهد الموسيقى بالخانكه مع أنه خرّج عدداً لا بأس به من الموسيقيين القادرين واستعاضوا عنه بأن جعلوا لكل

---

(١٨) ص ٢١١ .

(١٩) ج ٢ ص ٥١٠ ، لمحة عامة إلى مصر.

(٢٠) فى كتابه مناهج الألباب المصرية ص ٢٤٧ طبعة ثانية .

(٢١) مانجان ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢٢) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ١٢٤ .

ألاى من الجيش معلماً أوروبيًّا ، ولكن لم يكن من الميسور لمعلم واحد أن يضطلع بهذه المهمة ولذلك لم تصل الموسيقى الحربية فى مصر إلى مجاراة الموسيقى الأوروبية .

المدرسة البحرية بالإسكندرية

تكلمنا عنها فى الفصل الحادى عشر.

مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة

رأى محمد على بثاقب نظره أن إنشاء جيش يحمى الذمار أمرٌ لا قوام له إلا بأن يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمدافع فى داخل البلاد ، إذ الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطنى للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الأجنبية ، لذلك بذل جهده فى إنشاء مصانع الأسلحة فى مصر ، فأسس قائد المدفعية أدهم بك ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع ، وتولى إدارتها .

وقد حدث فى القلعة حريق هائل سنة ١٨٢٤ امتد إلى مخزن البارود فخرب معظم الترسانة وتخرب نحو خمسين منزلا من المنازل المجاورة للقلعة ومات فى هذه الكارثة نحو أربعة آلاف نفس [٢٣] .

ويقول المسيو مانجان [٢٤] إن ترهانة القلعة لم تكن شيئًا مذكوراً إلى سنة ١٨٢٧ ، ولكنها عظمت واتسعت أرجاؤها بمضى الزمن فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين إلى باب الانكشارية الذى يطل على ميدان الرميلة .

وكان بها ٩٠٠ من العمال لصنع الأسلحة ، ويصنع فيها كل شهر من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية ، تتكلف كل بندقية اثنى عشر قرشًا مصريًا ، ويدفع لرؤساء العمال مرتبات ثابتة ، أما العمال الآخرون فتدفع لهم أجور يومية .

وكان بها قسم خاص لصنع زناد البنادق ، والسيوف والرماح للفرسان ، وحقائب الجنود ، وحمائل السيوف ، وكل ما يلزم لتسليح الجنود من المشاة والفرسان وحلية الخيل من

---

(٢٣) رسالة المسيو دروفتى المؤرخة ٣٠ مارس سنة ١٨٢٤ الواردة فى وثائق حرب الموره وثيقة رقم ٦ .

(٢٤) مانجان ج ٣ ص ١٣٢ .

اللُّجُم والسروج وما إليها ، وفيها مصنع واسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق ، ومصنع آخر لصنع ألواح النحاس التى تستخدم لوقاية السفن الحربية .

معمل صب المدافع

وكان اهم مصانع الترسانة وأكثرها عملا وأولاها باسترعاء النظر معمل صب المدافع . تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أو أربعة من عيار أربعة وثمانية أرطال ، وتصنع فيه أحيانا مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة .

ولا يقلّ عمال هده الترسانة عن ١٥٠٠ عامل وتستهلك فيها كل شهر كمية عظيمة من الفحم والحديد[٢٥] .

مخازن البارود والقنابل

أما مخازن البارود والقنابل فقد أعد لها محمد على مكانا خاصًا على سفح المقطم[٢٦] .

رأى المارشال مارمون فى ترسانة القلعة

وقد زار المارشال مارمون ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤ وأعجب بنظامها وأعمالها ، وكتب عنها فى رحلته مايلى : « زرت دار الصناعة بالقلعة وعنيت بها فحصًا وتقصياً ، فألفيت البنادق التى تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع فى معاملنا ، وهى تصنع على الطراز الفرنسى ، وتتخذ فيها الاحتياطات والوسائل التى نستعملها نحن لضمان جودة الأسلحة ، وتتبع النظام نفسه الذى نتبعه نحن فى تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه ، وكل ما يصنع فيها يعمل قطعة قطعة ، ومعمل القلعة يضارع أحسن معامل الأسلحة فى فرنسا من حيث الإحكام والجودة والتدبير »[٢٧] .

---

(٢٥) مانجان ج ٣ ص ١٣٣ .

(٢٦) هامش الطبعة الثالثة – وعلى أثر انفجار وقع فى أحد هذه المخازن أنشأ شرقى (أثر النبى) بمصر القديمة مخازن أخرى للبارود (جبخانة) على سفح الجبل لايزال بناؤها قائمًا إلى الآن (١٩٥٠) .

(٢٧) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٣ .

إبراهيم أدهم باشا

تقدم القول بأن أدهم بك (باشا) كان فى مقدمة الضباط الأكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية ، وأنه تولى إدارة المهمات الحربية ، وأسس دار صناعة (ترسانة) القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع .

وأدهم بك هذا هو من خيرة رجال محمد على ومن أصدق من بذلوا جهودهم فى تأسيس الجيش النظامى ، وهو أيضًا ممن حملوا لواء نهضة التعليم فى مصر . فقد تولى إدارة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) عشر سنوات ونيفًا .

وقد ذكره العلامة على باشا مبارك فقال عنه أنه : «كان من أشهر رجال الحكومة ، صادقًا فى القيام بوظائفه مع الاجتهاد» .

وذكر عن ترجمته ما خلاصته[٢٨] ان أصله من الاستانة ثم استوطن مصر فى عصر محمد على باشا حين تأليف الجيش النظامى ، فجعله ضابطًا فى المدفعية ، وكان ملمًّا باللغات الفرنسية والعربية والتركية والتشكيلات العسكرية ، وتنظيم المهمات ، وقد جعله محمد على ناظرًا للمهمات الحربية[٢٩] « فبذل فيها جهده وحمدت مساعيه ، وأقام بهذه الوظيفة زمنًا ثم ترقى إلى رتبة أميرالاى ، وكان يتلقى عنه الهندسة جماعة من رجال الحكومة مثل إبراهيم بك رأفت وكيل ديوان المدارس ، ومصطفى راسم مدرس الهندسة بمدرسة القصر العينى ، وحسن أفندى الغورى مدرس الهندسة بمدرسة المدفعية بطره .

وقد وشى فى حقه أحد حساده سنة ١٢٤٩ هـ وأوغر عليه صدور رؤسائه ، ففصل عن وظيفته ، وأقيمت عليه قضية استمرت نحو ثمانية أشهر وظهرت براءته منها ، وكان خلال ذلك لا يفتأ يؤدى واجبه نحو البلاد ببذل النصح والإرشاد إلى من يقصدونه من محبى العلم .

قال على باشا مبارك فى هذا الصدد : « وكان المعلمون فى الورش يحضرون إليه فى منزله ويستفهمون منه عن العمل فى البنادق والمدافع ونحو ذلك وهو يفيدهم بجد واجتهاد رغبة منه فى خدمة الديار المصرية .

ولما عاد إبراهيم باشا من الحرب السورية سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) أثنى عليه عند محمد

---

(٢٨) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٥ .

(٢٩) جاء فى العدد ٤٣٢ من الوقائع المصرية أنه أمير اللواء أدهم بك مفتش المهات الحربية .

على باشا وذكر نصحه واجتهاده فى خدمته فأنعم عليه برتبة أمير لواء وأعيد إلى وظيفته ، وبعد وفاة مصطفى مختار بك أضيفت إليه شئون المدارس فصار مدير ديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) وتولى هذا المنصب نحو عشر سنوات (١٨٣٩ - ١٨٤٩) .

وفى زمن عباس باشا الأول تولى وزارة المعارف بضعة أشهر (أكتوبر سنة ١٨٤٩ - مايو سنة ١٨٥٠) ، ثم نقل مديراً للمهمات الحربية وجعل له نظر أوقاف الحرمين الشريفين ، وأنعمت عليه الحكومة جزاء خدماته بأرض مساحتها ٨٥٠ فداناً فى جهة (سبرباى) بمديرية الغربية .

وفى زمن سعيد باشا جعل (محافظ مصر) وأنعم عليه بالباشوية فصار يعرف بأدهم باشا وأحيل عليه قلم الهندسة مع المهمات الحربية .

وتولى من جديد فى عهد إسماعيل باشا وزارة المعارف العمومية عدة أشهر (يناير - يوليه سنة ١٨٦٣) ثم اعتزل الخدمة ، وكانت وفاته سنة ١٨٦٩ .

قال عنه على باشا مبارك : « وكان رقيق القلب ، رحيماً ، كثير الصدقة ، يباشر المصالح بنفسه بلا تعاظم ولا تكبر ، ويلاطف أصحاب الحاجات حتى يقف على حقيقة شكواهم ، ويقوم بنصرة المظلوم ، واعتنى بالمدارس واجتهد فى أسباب الرغبة فيها ، فكان يجلُّ المجدين من التلامذة والمعلمين ، ويسعى فى ترقيتهم ليجتهد غيرهم ، فظهرت النجابة فى جميعهم أو أكثرهم وحصلوا فى وقته تحصيلا جمًّا ، ومن إنشائه مكتب (مدرسة) السيدة زينب رضى الله عنها ، ومكتب بولاق ومكاتب أخرى ، وبالجملة فكان كالوالد لأبناء المدارس وله إصلاحات أيضا بالجامع الأزهر زمن نظارته على الأوقاف » .

وقد التقى به المارشال مارمون خلال زيارته لمصر وأعجب به وبكفاءته فقال عنه : « أنه تعلم اللغة الفرنسية بقوة إرادته على غير أستاذ ، وأنه يتكلمها بلهجة صحيحة ، وتبحر فى الرياضيات ، وفنون المدفعية ، وصار فى نظرى يضارع أحسن ضباط المدفعية وأكفأ مديرى مهماتها ، وهو من أقوى من عرفتهم فى حسن الإدارة ، وأن اختيار محمد على لمثل هذا الرجل لمعاونته لدليل على صدق نظره وفراسته وحسن توفيقه فى اختيار رجاله »[٣٠] .

---

(٣٠) رحلة الدوق دى راجوز (المارشال مارمون) ج ٣ ص ٢٨٣ .

مصنع البنادق فى الحوض المرصود

لم يكتف محمد على بمصنع البنادق فى القلعة بل أنشأ فى الحوض المرصود حوالى سنة ١٨٣١ معملا آخر لصنع البنادق ، وكان من قبل معدًّا للنسيج ، وقد تكلم عنه المسيو مانجان[٣١] ، فقال إن محمد على عهد بإدارته إلى رجل إيطالى من (جنوه) يسمى المسيو مارنجو ، وقد تسمى باسم على أفندى ، قال عنه : « وقد اكتسب خبرته بعمله فى ترسانة القلعة تحت إمرة أدهم بك ، وقد اشتغل بجد وعزيمة وتخرج على يديه طائفة من الصناع مهروا فى صنع البنادق على اختلاف طرازها » .

وبلغ عدد عمال الحوض المرصود (حوالى سنة ١٨٣٧) ١٢٠٠ بين صناع ورؤساء عمال يصنعون فى الشهر نحو ٩٠٠ بندقية من مختلف الأنواع والأشكال ، فمنها ما هو للمشاة ومنها ما هو للفرسان وللطوبجية على الطراز المتبع فى الجيش الفرنسى ، وكذلك الحال فى معامل القلعة .

ومتوسط ما تتكلفه البندقية أربعون قرشا أى بأزيد مما تتكلفه البندقية التى تصنع بترسانة القلعة بثمانية وعشرين قرشا ، وقد سأل المسيو مانجان عن سبب هذا الفرق ، فقيل له إن ذلك راجع إلى الفرق فى عدد العمال وكمية الفحم والحديد فى كلا المصنعين ، على أنه لم يقنع بهذا السبب .

وكانت تعمل تجربة للمدافع فى كل أسبوع ، وقد لاحظ المسيو مانجان أن الحديد الذى كانت تصبّ منه المدافع التى شاهدها سنة ١٨٣٧ من نوع غير جيد ، فكانت النتيجة أن يستغنى عن خمس عدد المدافع المصنعة لأنه لم يحتمل التجربة ، قال : وإذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله لا تتجاوز الكمية الملغاة منه السدس .

ويقول إن البنادق التى تصنع فى معامل القلعة والحوض المرصود كانت صناعتها جيدة ، ولا يستطيع الإنسان أن يلحظ عيبًا فى صناعتها إلا إذا كان على خبرة بسر الصنعة ، والعيوب آتية على الأرجح من نوع الحديد لا من عدم مهارة الصناع .

وقد ذكر المارشال مارمون فى رحلته[٣٢] أنه شاهد مصنعًا ثالثًا للأسلحة فى ضواحى القاهرة ، وأن المصانع الثلاثة تصنع فى السنة ٣٦ ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف .

---

(٣١) مانجان ج ٣ ص ١٢٣ .

(٣٢) ج ٣ ص ٢٨٤ .

معامل البارود

وأقيم معمل للبارود فى المقياس بطرف جزيرة الروضة ، وكان بناؤه فسيحًا ومناسبًا وبعيدًا عن المساكن ، وقد تولى إدارته المسيو مارتل Martel الذى كان من قبل مستخدمًا فى معمل البارود بمدينة سان شاماس Saint Chamas وتولى العمل تحت إدارته تسعون عاملا موزعين على أقسام المعمل ، منهم ١٨ عاملا كانوا يشتغلون فى خلط الكبريت والفحم وملح البارود و٢١ عاملا يشتغلون فى تقليب البارود فى الطواحين وعددها عشرة ، ولكل طاحون عشرون مدقة ، تحركها عشر آلات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال ، وأربعون عاملا يشتغلون فى صنع الرش ويصنع منه كل يوم ٣٥ قنطارًا .

وكان يصنع البارود بطريقة التبخير ، وهذه الطريقة أوفر من طريقة النار .

وقد تعددت معامل البارود فى مصر وكانت تسمى (كهرجالات) وهاك أسماءها ومقدار الناتج منها سنة ١٨٣٣ [٣٣] :

معمل القاهرة	٩٦٢١	قنطارًا
« البدرشين [٣٤]	١٦٨٩	«
« الأشمونيين	١٥٣٣	«
« الفيوم	١٢٧٩	«
« اهناس	١٢٥٠	«
« الطرانة	٤١٢	«
	١٥٧٨٤	الجملة

(٣٣) مانجان ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٣٤) ذكر العلامة على باشا مبارك بالجزء التاسع من الخطط التوفيقية ص ١٤ فى كلامه عن البدرشين مايأتى : « وفى جهتها البحرية معمل بارود من زمن العزيز محمد على مستعمل إلى قبيل تولية الخديوى محمد باشا توفيق كانت تجلب له الاسباخ من منية رهينة وتلول مصر العتيقة » .

ملابس الجند ومرتباتهم

وصف كلوت بك[٣٥] ملابس الجند فى عهد محمد على فقال إنها غاية فى البساطة ، تتألف بالنسبة للجنود من الطربوش الأحمر ، وصدار ، وبنطلون ، وهو يشبه السروال الواسع يشد بتكة على الوسط ، ويربط على الركبة برباط الساق (القلشين) ويتمنطق الجنود على خواصرهم بحزام ، وملابسهم فى الشتاء من الجوخ ، وفى الصيف من قماش القطن السميك ، أما الفرسان ورجال المدفعية والحرس فيلبسون فى الشتاء صدارًا أزرق اللون ، وغيرهم يلبس صدارًا أحمر ، ويرتدى رجال الجيش جميعهم فى الصيف الملابس البيضاء ، ويحتذون بأحذية من الجلد الأحمر (مراكيب) .

ولا يختلف رداء الضباط عن رداء العساكر ، إلا فى نوع الجوخ وما يزينه من التطريز ، واللون الأحمر يميز الضباط عن سواهم ، أما الشارات التى تميز بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ، فهى كما يلى :

يحمل الأونباشى شريطًا واحدًا على الصدر ، والجاويش شريطين ، والباشجاويش ثلاثة ، والملازم الأول يحمل على صدره من ناحية اليمن نجمة فضية ، واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين ، والصاغ هلالا من الذهب ونجمة فضية ، والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب ، والقائمقام هلالا من الذهب ونجمة من الماس ، والأميرالاى هلالا ونجمة من الماس ، وأمير اللواء نجمتين فى هلال كلها من الماس ، والفريق (الميرميران) ثلاث نجوم فى هلال كلها من الماس .

ويقول كلوت بك أيضًا أن عطاء (مرتب) الجندى البسيط ١٥ قرشاً فى الشهر ، ومرتب الأنباشى ٢٥ قرشا ، والجاويش ٣٠ قرشا ، والباشجاويش ٤٠ قرشا ، والصول ٦٠ قرشا والملازم الثانى ٢٥٠ قرشا ، والملازم الأول ٣٥٠ قرشا ، واليوزباشى ٥٠٠ قرش والصاغ ١٢٠٠ قرش (١٢ ج) ، والبكباشى ٢٥٠٠ قرش (٢٥ج) والقائمقام ٣٠٠٠ قرش (٣٠ج) والأميرالاى ٨٠٠٠ قرش (٨٠ج) وأمير اللواء ١١٠٠٠ قرش (١١٠ ج) والميرميران ١٢٥٠٠ قرش (١٢٥ج) .

ومرتبات كبار الضباط جسيمة كما ترى مما تقدم ، وقد لاحظ كلوت بك أن السبب فى

---

(٣٥) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣٣١ (٣٢٣ الأصل الفرنسى) .

ذلك أن محمد على باشا أراد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه ، فضلا عن أن الرؤساء فى الجيش تدعوهم طبيعة مراكزهم إلى بسْط اليد بالنفقة .

الإدارة الحربية

أنشأ محمد على نظارة للحربية كانت تعرف بديوان الجهادية ، عهد إليها قيادة الجيش وإدارة شئونه ، وناط بها جميع ما يجلب للجيش من سلاح ومهمات وثياب ، وهى التى تجلب من مخازن الحكومة ما يلزمه من الذخائر والمؤن والأدوية وما إليها .

وقد نظمت الجيوش المصرية على نمط الجيوش الفرنسية ، وكذلك إدارتها الصحية ، وبكل أورطة العدد اللازم من الموظفين والأدوات لاقامة المستشفيات الخاصة بالأورط .

الروح الحربية

إن تأليف الجيوش النظامية والمران على الحياة العسكرية وخوض غمار القتال كل ذلك مما قوّى الروح الحربية فى نفوس الشعب .

صحيح أن المصريين لم يعتادوا الانتظام فى سلك الجيش منذ الفتح العثمانى ، ولكنهم لم يفقدوا الروح الحربية فى عهد المماليك ، اعتبر ذلك بالمقاومة المستمرة البعيدة المدى التى قام بها المصريون قاطبة فى وجه الحملة الفرنسية ، مما بسطنا الكلام عنه فى الجزءين الأول والثانى من تاريخ الحركة القومية ، وهم وإن كانوا لم يألفوا الاندماج فى سلك الجيوش النظامية ولم يقبلوا على التجنيد الذى رسم محمد على قواعده طائعين ، بل سيقوا إليه مكرهين ، إلا أن الفلاحين الذين انتظموا فى سلك الجيش ما لبثوا كما قلنا أن رأوا فى حياة الجندية نظامًا أرقى من حياتهم الفردية ، فأخذوا يألفونه مع الزمن ، وقد أفادهم الفوائد العظيمة ، فلا يغرب عن البال أن تنظيم الجيش كان له آثار بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية والاجتماعية ، فإن تأليف جيش قومى خاض غمار الحروب فى ميادين عدة من شأنه أن يغرس فى النفوس فكرة القومية ، إذ هو نفسه جِسْم هذه الفكرة .

قال المسيو مانجان فى هذا الصدد : « إن محمد على بهدمه الجيش غير النظامى ، وتجنيده الفلاحين على النظام الأوروبى قد أكسب شعبه تقدمًا عظيمًا ، وردّ إلى مصر قوميتها » .

ويقول كادلفين وبارو فى كتابهما[٣٦] :

« إن العرب (يريد المصريين) من سكان وادى النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثمانى حق الانتظام فى الجيش ، ولكن محمد على قد أعاد إليهم هذا الحق ، وهو بتجنيدهم – ولو أن ذلك كان على كره منهم – قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التى نزلوا إليها ، وقد استردوا سمعتهم بما أظهروه من الشجاعة فى ميادين الحروب التى خاضوها » .

ولا شك فى أن انضواء الجنود والضباط تحت علم الجيش مما يعودهم حب النظام ، والنظام هو من العوامل الرئيسية لارتقاء الأمم وتقدمها ، فليس ثمة نهضة من غير أن يكون النظام رائدها . وكذلك من خصائص الحياة العسكرية أن تبث الشجاعة فى نفوس الأمة وتغرس فيها مبدأ افتداء الوطن بالنفس والنفيس ، ذلك المبدأ الذى هو من أقوى دعائم الاستقلال والحرية ، فالروح الحربية المصرية قد تجلت تحت راية الجيش النظامى وساعدت على تأليفه ، كما أن تكوين الجيش نفسه كان له أثر فعال فى نمو تلك الروح وبروزها واكتمالها .

هذا فضلا عما فطر عليه المصرى من الإيمان والقناعة والطاعة ، والصبر على المكاره ، والاطمئنان إلى قضاء الله وقدره ، كل هذه الصفات جعلت من الفيالق المصرية النظامية جيوشًا ضارعت أرقى الجيوش الأوروبية فى الدربة والكفاية والشجاعة ، ولقد برهنت على هذه المزايا فى ميادين القتال التى خاضت غمارها .

شهادة الثقات للجيش المصرى

ويكفيك أن تقرأ فى هذا الصدد شهادة الثقات لتزداد اعتقادًا بصحة هذه الحقائق .

رأى سليمان باشا الفرنساوى

فقد شهد البارون (بوالكونت) الجيش المصرى فى سورية سنة ١٨٣٣ وقابل الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) فقال له يصف الجنود المصريين :

« إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان ، وهم

(٣٦) حرب محمد على ضد الباب العالى ص ٥٦ .

بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشّد والغناء ، ولقد رأيتهم فى معركة (قونيه) يبقون سبع ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية »[٣٧] .

رأى كلوت بك

وقال كلوت بك فى كتابه[٣٨] :

« ربما يعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود[٣٩] ، لأنهم على الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة على العمل ، واحتمال المشاق ، ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر ، والشجاعة ، والثبات عند الخطر ، والتذرع بالصبر فى مقابلة الخطوب والمحن ، والإقدام على المخاطر ، والاتجاه إلى خط النار وتوسط معا مع القتال بلا وجل ولا تردد » .

وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييدًا لتلك الحقيقة ، وقال إنه يكتفى منها بالحوادث الآتية :

حدث فى معركة (حمص) أن جنديًا من الأورطة السابعة من الفرسان يدعى (منصور) فصلت ذراعه من جسمه بقنبلة ، فأبى وهو فى هذه الحالة التراجع عن ميدان القتال ، بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد البأس وأروع البسالة وظل يحارب إلى أن مات[٤٠] .

وحدث فى معركة (قونيه) أن ترك جميع الجرحى القادرين على حمل السلاح أسرتهم فى المستشفى ونفروا إلى ميدان القتال ليشاطروا إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت .

وفى تلك المعركة سقط جندى من الأورطة الرابعة من الفرسان عن ظهر جواده مجروحًا ، فلما شهده أمير لوائه أحمد المنكلى بك دفع إليه جواده ليرجع به إلى الساقة ، فأبى الجندى قائلا

---

(٣٧) رسائل البارون بوالكوت ص ٢٤٠ .

(٣٨) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٢٢٦ (الأصل الفرنسى) .

(٣٩) Les Arabes sont Peut être les hommes les plus propres à devenir de bons soldats

(٤٠) ذكر كادلفين وبارو هذه الحادثة فى كتابهما (حروب محمد على ضد الباب العالى) ص ١٨٩ ونقلها عنهما كلوت

أنه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين ولو لقى الموت[٤١]

وفى إحدى المعارك أصيب شاب يحمل النفير من جنود الأورطة الخامسة عشرة بجرح ، ورأى أن رفاقه فى فصيلته قد هزمهم العدو وشتتهم ، فعلى الرغم من خطورة جرحه واحتدام نار القتال لم يكف عن النفخ فى بوقة بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم ، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء ، ولما شاهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الخجل من رؤيته وهو فتى صغير يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة فحمى دمهم وتوافى بعضهم إلى بعض ، ثم كروا إلى القتال ليثأروا لشرفهم الذى ثلمه العدو لحظة من الزمن .

ثم ذكر كلوت بك حادثة أخرى قال عنها أنها من أهم الحوادث وأخصها بالذكر ، وهى أن سليمان باشا الفرنساوى كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت إليه حديثًا ، فوقع نظره على فتى ضاوٍ نحيل فى السادسة عشرة من عمره يدعى الحاج على ، فهم سليمان باشا أن يردُّه معترضًا بأنه لا يصلح أن يكون جنديًا كفئاً ، فأبى (الحاج على) إلا أن يبقى فى السلاح قائلا لسليمان باشا أن الحكم عليه إنما يكون فى عمله ومتى سنحت الفرصة تبّين الحكم ، فلما ضرب الجيش المصرى الحصار على (عكا) خرجت الحامية يوما فاستظهرت على المشاة المصريين وردت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة فى الجبهة على أعقابها ، فتقدمت الأورطة الثالثة من الفرسان التى كان (الحاج على) منتظمًا فى سلكها لتعزيز جانب أولئك الجنود ، وحملت حملة باهرة صدَّت فيها المحصورين وألجأتهم إلى مواقعهم ، ولم يكتف الحاج على أن شاطر رفاقه مجدَ فوزهم بل أنقذ بيده يوزباشيًا كان على وشك الوقوع فى أسر العدو ، ثم انقض على ضابط تركى فأسره ، وجاء بالضابطين المصرى والتركى إلى سليمان باشا وقال له : « أفترى أننى جندى لا أصلح لشىء ؟ » .

قال كلوت بك : وكان الأتراك لما يشعرون به من الغطرسة والكبرياء ينظرون بعين الزراية إلى المصريين ولا يكترثون بهم ويعتقدون فيهم العجز عن مجاراتهم ، ولكن حرب (الموره) اثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الحىّ المنكمش الذى أرهقه الضغط والعسف قدير على استردد مجده القديم وأهل لمنازعتهم فخر النجاح والفوز فى القتال ، ولقد أثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و (بيلان) و (قونيه)[٤٢] تفوقهم عليهم باعتبار كونهم

(٤١) ذكر كادلفين وبارو هذه الحادثة ص ٣١٣ .

(٤٢) ونصيبين .

أفرادًا ، كما أثبتت كفايتهم باعتبارهم مجموعًا إذا وجدوا القيادة الصالحة .

ولكن كلوت بك لاحظ أن المصريين لم يكن لهم نصيب فى القيادة ، ومع أنه أطراهم بوصف كونهم جنودًا فإنه يقول إنهم لم يضطلعوا بالمهام التى اقتضتها مراكز القيادة فى الجيش ، وبرّر عمل محمد على فى إقصائهم عن المراتب السامية فى الجندية وإسنادها إلى الأتراك والمماليك ، بقوله :

« إنهم فى المراتب العالية لا يقدرون كرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها ، فهم يغايرون العثمانيين والمماليك فى الأهلية للقبض على زمام القيادة ، وسرعان ما يتحولون إلى عاداتهم القديمة بما اضطر محمد على باشا وابنه إبراهيم على الرغم منهما إلى الكف عن ترقيتهم وترفيعهم إلى المراتب السامية فى الجندية ، ومن هذا النقص ، أسندت إلى المماليك والأتراك فى الجيش المناصب العليا » .

هذا ما قاله كلوت بك ، ولم يذكر لنا تفصيل التجربة التى جربها محمد على باشا فى إسناد المراتب العالية فى الجيش للمصريين والتى ظهر فيها عدم أهليتهم ، وأغلب الظن أنه لم يجربها أصلا حتى يقام لهذا الرأى وزن ، ولو أنه عوّد المصريين تقلد المناصب الرئيسية فى الجيش لاضطلعوا بها ولظهرت فيها كفايتهم ومقدرتهم مع الزمن والممارسة ، هذا فضلا عن أن رأى كلوت بك فى هذه المسألة ليس له كبير اعتبار لأن المماليك والأتراك قد اندمجوا فى الكتلة الوطنية كما سيجىء بيانه .

رأى المارشال مارمون

على أن المارشال مارمون يبدى فى رحلته رأياً يتعارض ورأى الدكتور كلوت بك فى هذا الصدد ، فقد ذكر أن مناصب ضباط الجيش كانت فى مدى سنوات عدة تسند إلى الترك والمماليك لأن محمد على لم يشأ بادئ الأمر أن يستسلم للأهلين ويجعل نفسه تحت رحمتهم ، ولكن لما رسخت سلطته واطمأن إلى إخلاص الجيش بدأ يسند مناصب الضباط إلى العرب فبرهنوا على ذكاء وافر ونشاط كبير ، والذين ارتقوا من بينهم إلى سلك الضباط صاروا أحسن وأكفأ من الترك ، والآن – سنة ١٨٣٤ – لم يعد يعترض تقدمهم فى المناصب العسكرية أى مانع وانفتح أمامهم سبيل المراتب العالية[٤٣] .

(٤٣) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٩٣ .

وقد شهد المارشال سنة ١٨٣٤ فيالق الجيش المصرى على اختلاف وحداتها وأطنب فى صفاتها الحربية وأعجب بكفاءتها وحسن نظامها ، فقال عن المشاة[٤٤] :

« كان لواء المشاة المؤلف من الألاى التاسع والألاى العشرين فى طريقه إلى السويس للإبحار منها إلى الحجاز لنجدة الجيش المصرى فيه ، وعرضت بنفسى هذا اللواء ، فقام أمامى بمناورات دامت ثلاث ساعات فى سهل (القبة) ، فأعجبت به أيما إعجاب ، وإذ كان عساكره فى مقتبل السن وحديثى عهد بالانتظام فى صفوفه فقد لاحظت مبلغ تأثير القائد الأعلى للجيش فى تشكيله ونظامه ، والحق أن العساكر الذين عرضتهم يجمعون إلى الدقة والنظام ، الدراية بالفنون العسكرية ، وقد رأيت فى قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة ، وشهدت أيضا الألاى السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنوده فى الخدمة أكثر من عشرة أشهر ومع ذلك رأيتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستحقون كل الثناء »[٤٥] .

وقال عن جنود المدفعية الذين يتمرنون فى مدرسة المدفعية بطره : « قامت أورطة المدفعية الراكبة أمامى بمناورات تدل على المهارة والنشاط والنظام والدقة وكانت مؤلفة من ستة بلوكات رجالها على ما يرام من الجمال والتعليم ونظام الحركات العسكرية ، كما أن مركبات المدافع متقنة منتظمة رغم كون الجياد التى تجرها صغيرة الجسم شأن خيل القطر المصرى ، ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزًا حسنًا ، أكفأ فى الرماية ، يصيبون الهدف بدقة وسرعة ، فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكفاية ، تضارع مدفعيات الجيوش الأوروبية ، وأميرالايها رجل كفء ممتلئ نشاطًا وغيرة .

أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ١٨ بلوكًا ، وقد قامت بمناوراتها فكانت مدافعها تصيب الهدف بإحكام ، أما مدافع الهاون فهى أقل ضبطًا وإحكامًا ، ولا يسع المشاهد لهذه المدفعية إلا الإعجاب بالقوة التى حولت الفلاحين إلى جنود على جانب عظيم من الكفاءة »[٤٦] .

---

(٤٤) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٤٥) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٤٦) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٥ .

رأى المسيو مريو

وقد احتفظ الجيش المصرى بسمعته بعد انقضاء عصر محمد على وبعد أن تناقص عدده ، فقد أحسن المسيو مريو[٤٧] الذى جاء مصر فى عهد سعيد باشا الشهادة فى حقه بقوله :

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى واتباعه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء كل هذه الميزات قد قامت عليها البيّنات لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسورية فى عصر محمد على فحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا فى حرب القرم الأخيرة » .

القلاع والاستحكامات

عنى محمد على عناية كبيرة بإقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن ثغور البلاد وعاصمتها ، فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وشحنها بالمدافع ، وبنى على مقربة منها قلعة أخرى على ذروة المقطم تعرف بقلعة (محمد على) وتشرف على الأولى ، وأصلح قلاع الإسكندرية وأنشأ غيرها ، واستدعى من فرنسا لهذا الغرض مهندسًا حربيًا فى فن الاستحكامات يسمى المسيو جليس Galice وأنعم عليه برتبة البكوية فصار يعرف بجليس بك ، وعهد إليه اختبار سواحل مصر ووضع مشروع لحصونها واستحكاماتها ، وجعله باشمهندس الاستحكامات .

ولكى تعرف مبلغ عناية محمد على بالدفاع عن مصر نورد هنا إحصاء ذكره إسماعيل باشا سرهنك[٤٨] عن كشف قديم من أوراق حسن باشا الإسكندرانى مدير ترسانة الإسكندرية ، يتضمن عدد قلاع الاسكندرية وأبو قير والبرلس ورشيد ودمياط وعدد ما بها من المدافع سنة ١٨٤٨ أى السنة التى تولى فيها إبراهيم باشا حكم مصر.

---

(٤٧) فى كتابه «مصر الحديثة من سنة ١٨٤٠ إلى ١٨٥٧» .

(٤٨) فى كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٥٩ .

حصون الاسكندرية

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
طابية قايتباى (أو قلعة برج الظفر)	١١٠	٦	١
« الأطة	٥٧	٧	٢
« الفنار	٥٧	٦	٢
« الفنار الصغيرة	١		١
« التراب (وتسمى الهلالية)(٤٩)	٦١	١٢	٣
« الاسبتالية الجديدة	١٣	١٠	١
« الاسبتالية القديمة	٢٥		١
« ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦	١
« المفحمة	٨		١
« مسلة فرعون(٥٠)	٩	١	
« قبور اليهود القديمة	١٠		١
« قبور اليهود الجديدة	٢٠		١
« برج السلسلة	١٨	١	١
« باب شرقى (٥١)	٦		
« كوم الناضورة	١٠	١	١
« الدخيلة	٣		١
« السلمية(٥٢)	٢٠	٢	١
« المكس	٤٠	٩	١
« القمرية (٥٣)	٩	١	١

---

(٤٩) محلها الآن (سنة ١٩٣٠ سنة الطبعة الأولى) حلقة السمك بالأنفوشى .

(٥٠) مكانها الآن المستشفى الأميرى .

(٥١) موجود بعض آثارها إلى اليوم فى شارع باب رشيد .

(٥٢) بين المكس والدخيلة .

(٥٣) بالقبارى .

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
طابية أم قبيبة (كبيبة)[٥٤]	٥٦	٤	٢
« الملاحة القديمة	١٤	١	١
« الملاحة الجديدة	٣٤	١	١
« صالح أغا[٥٥]	١٣		٢
« باب سدرة	٨		١
« كوم الدماس[٥٦]	٩	٢	١

حصون أبو قير

قلعة أبو قير	٤٨	٣	٢
طابية كوم الشوشة	٤٧	٣	١
« كوم العجوز	٢٤	٢	١
« السد نمرة (١)	١٠		١
« السد نمرة (٢)	١٠		١
« السد نمرة (٣)	١٠		١
« السد نمرة (٤)	١٠		١

حصون رشيد

طابية التنى	٦		١
« العباسى	٦		١
« الطوبجنية	٥		١
« المترلاوى	٣		

(٥٤) بالقبارى .

(٥٥) المعروفة الآن بطابية صالح بالقبارى .

(٥٦) بجوار مسجد النبي دانيال ، وتضاف إلى حصون الإسكندرية طابية العجمى بجزيرة العجمي فقد كانت موجودة فى عهد محمد على .

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
طابية محل الشركة	١		
« برج رشيد	١٤		
« قلعة البوغاز	١٨		١
الطابية الشرقية	١٠		١
« الغربية	١٠		١

البرلس

قلعة البرلس	٦		١

حصون دمياط

القعة القديمة	٢٠		١
الطابية الشرقية	١٠		١
« الغربية	١٠		١

إحصاء الجيش المصرى فى عهد محمد على

كان الجيش المصرى مؤلفًا فى أوائل حكم محمد على من نحو ٢٠٠٠٠ من المقاتلة جميعهم من الجنود غير النظاميين (باشبوزق) ، فلما أدخل النظام الحديث فى الجيش واتبع طريقة التجنيد على ما مر بك بيانه تألف الجيش النظامى وصار يضارع فى قوته وعدده وكفايته أحدث الجيوش الأوروبية .

إحصاء سنة ١٨٣٣

جاء البارون بوالكونت Boislecomte إلى مصر منتدبًا من الحكومة الفرنسية فى مهمة سياسية لدى محمد على باشا ، وله عن مهمته رسائل مطولة طبعت أخيرا فى كتاب

مستقل[٥٧] ، وقد استقصى أحوال مصر فى ذلك العصر ، فذكر عن الجيش أنه تلقى بيانا من محمد على نفسه عن عدده فى تلك السنة (١٨٣٣) ، ومن هذا البيان الرسمى يتضح أنه يتألف من ١٩٤٠٣٢ من المقاتلة ، بما فيهم ٢٥,١٤٣ من البحارة وعمال الترسانات البحرية .

فيكون مجموع جنود البر ١٦٨٨٨٩ جندى موزعين بحسب الإحصاء الآتى :

٢٢ ألايا من المشاة وعددهم	٧٠٣٣٧	جندى
ألايات من الطوبجية	٦٣٥٧	»
١٣ ألايا من الفرسان النظاميين	٧٩٦٢	»
فرقة الهندسة	٣٩٤٢	»
الفرسان غير النظاميين	٣٤٣٥	»
البدو	٥٣٧٠	»
طلبة المدارس الحربية	٣٤٨٨	»
الرديف ورجال الشرطة	٦٧٩٩٨	»
مجموع جنود البر سنة ١٨٣٣	١٦٨,٨٨٩ [٥٨]	

إحصاء سنة ١٨٣٩

وقد بلغ الجيش المصرى أوجه من جهة العدد سنة ١٨٣٩ وقد اعتمدنا فى إحصاء هذه السنة على ما أورده الدكتور كلوت بك فى كتابه (لمحة عامة إلى مصر) ، وهو وإن اختلف عن إحصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٣٧ [٥٩] وزاد عنه ، إلا أننا نعتقد أن كلوت بك لمكانته فى الحكومة قد توفر له من وسائل التحقيق والتمحيص أكثر مما توافر للمسيو مانجان .

ونتيجة إحصاء الدكتور كلوت بك [٦٠] أن الجيش المصرى يتألف من الجنود الآتية :

---

(٥٧) مهمة البارون بوالكونت ، من مطبوعات الجمعية الجغرافية .

(٥٨) مهمة البارون (بوالكونت) ص ١١٣ ، وهذا الاحصاء يختلف قليلا عن إحصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٣٣ فى كتابه ج ٣ ص ١٣٦ ، على أنه قريب منه .

(٥٩) بحسب إحصاء مانجان (ج ٣ ص ١٤٠) عن سنة ١٨٣٧ يكون العدد ١٥٩٣٠٠ مقاتل .

(٦٠) ج ٢ ص ٣٥١ .

١ – جنود نظامية من مشاة وفرسان وملفعية	١٣٠,٢٠٢	جندى
٢ – جنود غير نظامية أو باشبوزق	٤١,٦٧٨	»
٣ – الرديف	٤٧,٨٠٠	»
٤ – عمال (الفابريقات) المدربون على القتال وكانوا يقومون بالتمرينات العسكرية	١٥,٠٠٠	»
٦ – طلبة المدارس الحربية المستعدون منهم للقتال	١,٢٠٠	»
مجموع جنود البر سنة ١٨٣٩	٢٣٥٨٨٠	

تفصيل للإحصاء المتقدم

١ – الجنود النظامية

وهاك عدد الجنود النظامية مع بيان الجهات التى يقيمون فيها :

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الألاى الأول من طوبجية الحرس	حماه	١٣٧٢
الألاى الثانى من طوبجية المشاة	الإسكندرية	٢٣٤٩
الألاى الثالث من طوبجية المشاة	حلب	١٩٤٩
الألاى الأول من طوبجية الفرسان	حمص	٠٩٨٢
الألاى الثانى من طوبجية الفرسان	دمشق	١٠٠٧
أربع فصائل من طوبجية متفرقة	عكا	٣٣٧
الأورطة الأولى من المدفعية	الحجاز	٣٧٩
الألاى الأول من مشاة الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
الألاى الثانى من مشاة الحرس	مرعش	٢٦٤٥
الألاى الثالث من مشاة الحرس	حلب	٢٤٣٥
الألاى الأول من المشاة. (الأورطة الخامسة)	السودان	٤٥٤٧

بيان الجيوش		محل الإقامة	عدد الجنود
الألاى الثانى	من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
» الثالث	»	اليمن	١٥٢٦
» الرابع	»	مرعش	٢٥٩٣
» الخامس	»	إدنه (الأناضول)	٢٦٢٩
» السادس	»	كليس	٢٣٦٢
» السابع	»	الحجاز	٢١٩٢
» الثامن	»	السودان	٣٣٩٦
» التاسع	»	حلب	٢٣٠٤
» العاشر	»	»	٢٠٥٤
» الحادى عشر	»	أورفا	٢٣٣٨
» الثانى عشر	»	عينتاب	٢٣٢٦
» الثالث عشر	»	الحجاز	١٢٢٥
» الرابع عشر	»	حلب	١٩٨٨
» الخامس عشر	»	الدرعية (نجد)	٢٥٥٥
» السادس عشر	»	قنديا (كريت)	٣١٤٩
» السابع عشر	»	أورفا	٢٣٦٩
» الثامن عشر	»	عكا	٢٠٤٩
» التاسع عشر	»	الحجاز	٢٣٤٩
» العشرون	»	اليمن	٢٦٧٧
» الحادى والعشرون	»	الحجاز	٢٣٦٣
» الثانى و العشرون	»	أورفا	٢٢١٢
» الثالث والعشرون	»	ينبع	٢٣٤٢
» الرابع والعشرون	»	أنطاكية	٣١٣١
» الخامس والعشرون	»	بيت المقدس	١٧٥٥
» السادس والعشرون	»	القاهرة	٣٣١٨

	بيان الجيوش		محل الإقامة	عدد الجنود
الألاى	السابع والعشرون	من المشاة	الحديدة(اليمن)	٢١٢٩
»	الثامن والعشرون	»	»	٢٤٤٦
»	التاسع والعشرون	»	أدنه	٣١٧٢
»	الثلاثون	»	حماه	٢٩٢٥
»	الحادى والثلاثون	»	حلب	٢٤٠١
»	الثانى والثلاثون	»	القاهرة	٣٣١٨
»	الثالث والثلاثون	»	الإسكندرية	٢٦٠٤
»	الرابع والثلاثون	»	كليس	٢٥٦٤
»	الخامس والثلاثون	»	القاهرة	٢٣١٨
»	الأول من فرسان الحرس		اللاذقية	٧٩٦
»	الثانى من الحرس المدرعين		بيسان	٨٤٤
»	الأول من الفرسان		أورفا	٨٢٥
»	الثانى من الفرسان		زانبه	٨٣٠
»	الثالث من الفرسان			
	فى الطريق إلى		الإسكندرية	٨٤٧
»	الرابع من الفرسان		أدنه	٦٧٨
»	الخامس من الفرسان			
	فى الطريق إلى		الإسكندرية	٨٣٢
»	السادس من الفرسان		دمشق	٧٧٠
»	السابع من الفرسان		طرسوس	٧٤٢
»	الثامن من الفرسان		دمشق	٧١٢
»	التاسع من الفرسان			
	فى الطريق إلى		الإسكندرية	٨١٦
»	العاشر من الفرسان		عكا	٧٦٨
»	الحادى عشر من الفرسان		كليس	٧٥٦

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الألاى الثانى عشر من الفرسان	طرسوس	٦٦٢
الألاى الثالث عشر من الفرسان	أورفا	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
الألاى الأول من البلطجية	عكا	٨١٢
الأورطة الأولى من المتقاعدين	الإسكندرية	٧٩١
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
أورطة من المتقاعدين	دنقلة	٨٥٥
أورطة من فرقة المهندسين	أدليب	٧٥٨
أورطة من البلطجية	إسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الأساس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الألعاب النارية والسواريخ	مصر العتيقة	١٨٥
ألاى من حملة القرابينات حرس القائد إبراهيم باشا		١١٥٢
فصيلة من حملة القرابينات	الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين		٢٠٠
مجموع الجنود النظامية		١٣٠٢٠٢ (٦١)

(٦١) صححنا بهذا الرقم عملية الحساب الواردة فى كلوت بك ج ٢ ص ٢٣٢ (الأصل الفرنسى) كما صححنا عملية الحساب الواردة فى كتاب البارون (بوالكونت).

٢ - الجنود غير النظامية

فى الحجاز

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٤	١٥٨٠
مشاة أتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعية	—	٧٨٧
المجموع	١٩	٤٠٤٦

فى القطر المصرى

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	١٠	٢٧٨٥
مشاة أتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعية	—	١٢٩٩
المجموع	٢٤	٨٥١٩

فى اليمن

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٥	١٩٧٠
مشاة أتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	—	٢٠٠
المجموع	١٤	٢٩٣٠

فى قنديا (جزيرة كريت)

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٢	٤٥٠
مشاة أتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعية	—	٢٨٠
المجموع	٨	٣١٣٥

فى المدينة المنورة

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة أتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	—	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
المجموع	٢٩	٨٠٢٠

فى السودان

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	١٧	١١٧٠
فرسان مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠
مدفعية	—	٠١٨٦
المجموع	٣١	٣٥٨٦

فى سورية

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	١٤	٤١٢٥
مشاة أتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
المجموع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجنود غير النظامية كما يأتى :

ضباط	٢٠٧
عساكر	٤١٤٧١
	٤١٦٧٨

وكانت قبائل العربان فى القطر المصرى كقبائل أولاد على والجمعيات والجوادى والهنادى وولد سليمان والزوفة وجهينة والهوارة والعبابدة والمعازة وغيرهم كالمدد المدخَر فى الرجال والخيل والجمال وأسباب القتال ، وكل ذلك تقدمه لأول إشارة من الحكومة .

٣ – الرديف

الإسكندرية	ألايان	٦٨٠٠	جندى
البرلس ورشيد	ألاى واحد	٣٤٠٠	»
دمياط	»	٣٤٠٠	»
القاهرة	ثمانية ألايات	٢٧٤٠٠	»
مصر القديمة	ألاى واحد	٣٤٠٠	»
بولاق	»	٣٤٠٠	»
		٤٧٨٠٠	»

خلاصة الإحصاء المتقدم

جنود نظامية	١٣٠٢٠٢
جنود غير نظامية	٤١٦٧٨
رديف	٤٧٨٠٠
عمال الفابريقات	١٥٠٠٠
طلبة المدارس الحربية	١٢٠٠
مجموع جنود الجيش البرى سنة ١٨٣٩	٢٣٥٨٨٠

* * *

الفصل الحادى عشر

الأسطول

النواة الأولى للأسطول سنة ١٨١٠

بدأت عناية محمد على بإحياء البحرية المصرية منذ شرع فى خوض غمار الحرب الوهابية فقد رأى أن إنفاذ الجنود إلى الحجاز يقتضى إعداد السفن لنقلهم عن طريق البحر الأحمر ، فبادر إلى إنشاء ما استطاع من السفن فى دار صناعة (ترسانة) بولاق بعد أن عمر هذه الترسانة ، فأمر بتجهيز القطع اللازمة من الخشب فيها ثم بنقلها على ظهور الإبل إلى السويس لتركب هناك وتنزل إلى البحر ، فكانت هذه السفن هى النواة الأولى للأسطول المصرى فى عهد محمد على .

فالبحرية المصرية ابتدأ ظهورها وتكوينها فى تاريخ مصر الحديث أوائلَ سنة ١٨١٠ . ولقد كان لهذه العمارة فضل كبير فى نجاح الحملة الوهابية لأنها صلة الاتصال بين مصر وجنود الحملة فى الحجاز ، وهى التى مكنت مصر من السيطرة على البحر الأحمر وثغوره .

ويقول المسيو (مانجان) إن محمد على عندما اعتزم إنشاء بحرية فى خليج السويس جلب إلى بولاق الأخشاب اللازمة لصنع السفن من ثغور الأناضول[1] وكذلك المهمات والأمراس (الحبال) ، واستحضر العمال فأعد الأخشاب وهيأ المواد اللازمة لتركيب السفن ونقل كل ذلك إلى السويس على ظهور الإبل ، وكان هذا العمل شاقا وطويل المدى ، وقد استخدم فى ذلك عشرة آلاف من الإبل ، ومات كثير منها فى الطريق من ثقل ما حملت وطول ما أرهقت ، فكان لا يهلك بعير إلا جاء بغيره ، وبذلك تيسر له إنشاء ثمانى عشرة سفينة كبيرة كاملة العدة وإنزالها إلى الماء فى مدة عشرة أشهر .

---

(١) ومن القطر المصرى أيضا .

رواية الجبرتى

وهاك ما قاله الجبرتى فى هذا الصدد : « واستهل شهر ذى الحجة بيوم الأحد سنة (٧ يناير سنة ١٨١٠) وفيه شرع الباشا فى إنشاء مراكب لبحر القلزم (البحر الأـ فطلب الأخشاب الصالحة لذلك ، وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق مز المصرى القبلى والبحرى وغيرها من الأخشاب المجلوبة من الروم (الأناضول) ، وجعل بولاق ترسخانة وورشات ، وجمعوا الصناع والنجارين والنشارين فيهيئونها وتحمل أخـ الجمال ويركبها الصناع بالسويس سفينة ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر ، أربع سفائن كباراً إحداها يسمى الإبريق[٢] وخلاف ذلك (داوات) لحمل والبضائع » .

ترسانة بولاق وإنشاء السفن

أنشئت إذن العمارة البحرية الأولى فى ترسانة بولاق ، وهى الترسانة التى اعتمد عليـ على في صنع السفن الكبيرة إلى أن أسس ترسانة الإسكندرية الحديثة التى سيرد الكلام

فترسانة بولاق كان لها فضل كبير على البحرية المصرية ، وفيها أنشئت السفـ استخدمتها مصر فى الحملة الوهابية ، وأنشئت بها أيضا السفن التجارية التى استـ الحكومة لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطئ البحر الأبيض .

وقد ذكر الجبرتى هذه الترسانة غير مرة فى تاريخه مما يدل على عظم شأنها وذكر ما بـ من السفن .

فقال فى حوادث سنة ١٢٢٧[٣] : « ومنها أن الباشا عمل ترسخانة عظيمة بـ بولاق ، واتخذ عدة مراكب بالإسكندرية لجلب الأخشاب المتنوعة وكذلك الحطب من أماكنها على ذمته ويبيعه على الحطابين بما حدده عليهم من الثمن ، ويُحمل فى المر المختصة به بأجرة محددة أيضا ، واستمر ينشئ المراكب الكبار والصغار التى تسرح فى النيـ

(٢) سميت كذلك لأنها شبه الإبريق ويسميها الافرنج بريك وهى سفينة بساريتين وقلوع مربعة .

(٣) هذه السنة توافق سنة ١٨١٢ ميلادية ، وقوله سنة ١٢٢٧ فيه نظر ، لأن العمل فى الترسانة بدأ سنة (١٢٢٤هـ) عند ابتداء الحرب الوهابية كما ذكره الجبرتى نفسه فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٢٤ ، فلزم التصـ

قبلى إلى بحرى ومن بحرى إلى قبلى ولا يبطل الإنشاء والأعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته ، ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها بأجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان فى السابق ، ولهم قومة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار » .

وذكر أيضا من حوادث تلك السنة : « أن الباشا أرسل لقطع الأشجار المحتاج إليها فى عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية ، فانبث المعينون لذلك فى البلاد فلم يبقوا من ذلك إلا القليل لمصانعة أصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون ، فيجتمع بترسخانة الأخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم إليها من الأخشاب الرومية شىء عظيم جدًا يتعجب منه الناظر من كثرته ، وكلما نقص منه شىء فى العمل اجتمع خلافه أكثر منه » .

وقال فى حوادث سنة ١٢٣١ (سنة ١٨١٦) : « والعمل والإنشاء مستمر بالترسخانة على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالأجرة ، وعمارة خللها وأحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة ، ولذلك مباشرون وكتاب وأمناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد ، وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الأخشاب الكثيرة والمتنوعة وما يصلح للعمائر والمراكب ، ويأتى إليها المجلوب من البلاد الرومية (التركية) والشامية ، فإذا ورد شىء من أنواع الأخشاب سمحوا للخشابة بشىء يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقى إلى الترسخانة » .

الدونمة المصرية فى البحر الأبيض المتوسط

منذ بنى محمد على العمارة المصرية الأولى فى البحر الأحمر وتبين له مزايا الأساطيل البحرية اعتزم إنشاء أسطول قوى يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ هذا المشروع .

وقد رأى أنه وإن كانت مصر مستعدة لبناء السفن عامة إلى أنها لم تكن على تمام الأهبة لصنع السفن الحربية ، وكان يرى بثاقب نظره أن قوة مصر لا تكون كافية للدفاع عن استقلال مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا إذا عاونها على ظهر البحار أسطول حربى قوى ، لذلك جاء تنظيم البحرية المصرية عقب تشكيل الجيش المصرى النظامى بزمن يسير .

أخذ محمد على ينشئ الدونمة المصرية بشرائه بعض السفن الحربية أو توصيته بإنشائها فى الثغور الأوروبية ، كمرسيليا وليفورن وتريستا ، وقد سلحها بالمدافع وعهد بقيادتها إلى قباطين

السفن الجارية من الإسكندريين والأتراك ، وجعل ملاحيها ونوتيتها من المتطوعين ، وجعل بها بعض الضباط من فرنسيين وإيطاليين لتعليم البحارة وتدريبهم .

وكان بالإسكندرية ترسانة تبنى فيها بعض السفن على الطراز القديم وقد عهد برئاسة الهندسة فيها إلى رجل يدعى شاكر أفندى الاسكندرى يعاونه فى ذلك مهندس بارع من أهالى الإسكندرية اسمه (الحاج عمر) ، وهو من مشاهير المعلمين فى فن بناء السفن ، فجعله محمد على رئيسا للإنشاء وعمارة السفن ، وجعل على مناظرة بناء السفن موظفا يدعى الحاج أحمد أغا ، وحضر فى ذلك الحين – سنة ١٨٢١ – قبطان فرنسى يسمى المسيو بيسون Besson كان من ضباط السفن الحربية الفرنسية ، فعرض على الحكومة المصرية خدماته فجعلته ملاحظا للسفن التى أمرت بصنعها فى ترسانات أوروبا ، وقد نال ثقة محمد على وأخذ يرتقى إلى أن نال رتبة البكوية فصار يعرف بالفيس أميرال بيسون بك .

فتكونت الدونننمة المصرية الأولى فى البحر الأبيض ، وأنشأ محمد على إدارة خاصة للأساطيل المصرية جعل على رئاستها صهره محرم بك مع بقائه محافظ الإسكندرية .

وقد اشتركت تلك الدونننمة فى حرب (الموره) وعاونت الجيش المصرى على محاربة اليونانيين كما بيناه فى الفصل السابع .

تجديد الأسطول بعد واقعة نافارين

(سنة ١٨٢٩)

ولكن هذه الدونننمة قضى عليها بالدمار فى واقعة نافارين البحرية[٤] وقد حزن محمد على حزناً شديداً على ضياعها غدرا فى تلك الواقعة ، لكنه لم يدع لليأس سبيلا إلى قلبه ، بل عزم على إنشاء أسطول جديد يعوض مصر اسطولها القديم ، وشرع فى تكوينه من السفن الحربية التى كان أمر بصنعها فى الثغور الأوروبية .

إنشاء دار الصناعة الكبرى بالإسكندرية

ثم اعتزم أن ينشئ أسطولا جديدا بأيد مصرية ، لكيلا تكون مصر عالة على البلاد الأوروبية فى إنشاء تلك السفن ، فوجه همته إلى تأسيس دار صناعة (ترسانة) كبرى

(٤) ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ – انظر تفصيل ذلك بالفصل السابع .

بالإسكندرية لبناء السفن الحربية ، وقد استعان لتحقيق هذا المشروع بمهندس فرنسى على جانب عظيم من المهارة والصدق يدعى المسيو سريزى Cerisy ، وهو مهندس بحرى فرنسى من ثغر طولون اشتهر بالكفاية والخبرة فى فنون البحرية ، وخاصة فى فن بناء السفن والأحواض والترسانات ، وقد كان عهد إليه من قبل بإنشاء سفينتين حربيتين فى مرسيليا ، فعرض عليه أن يحضر إلى مصر ليستعين به فى إحياء البحرية المصرية .

سريزى بك

قدم المسيو دى سريزى بك إلى مصر فى أبريل سنة ١٨٢٩ ، وكانت إذ ذاك بالإسكندرية سفن قليلة العدد وهى البقية الباقية من العمارة المصرية التى نجت من واقعة نافارين ، ذكر منها كلوت بك سفينة من نوع الفرقاطة بها ستون مدفعا أنشئت بثغر البندقية ، وأخرى أنشئت فى ثغر ليفورن ، وجملة سفن من طراز الكورفيت والإبريق ، وكانت هذه السفن مفتقرة إلى مهمات القتال ومعداته لأنها منشأة فى ثغور تجارية لا حربية فجهزها المسيو سريزى بجهازها وأنشأ فيها مخازن للبارود لجعلها صالحة للقتال .

فطلب محمد على إلى المسيو سريزى أن يضع له تصميما لإقامة ترسانة كبرى .

ولم يكن بالإسكندرية وقتئذ سوى الترسانة القديمة وكانت تصلح أن تكون نواة لها ، وهى مظلات من الخشب فى مكان قريب من البحر ، وقد بنيت فى تلك الترسانة سفينة من طراز (الكورفيت) ، وأخرى من طراز الإبريق ، وثالثة ذات حجم كبير حولت فيما بعد إلى فرقاطة .

الحاج عمر

قلنا إن محمد على عهد برئاسة هندسة السفن وبنائها فى الترسانة القديمة إلى الحاج عمر ، وهو من أهالى الإسكندرية ، وقد تردد اسمه كثيراً فى المراجع الأفرنجية والعربية وفى جريدة الوقائع المصرية ، إذ كان مهندسا بارعا فى فن بناء السفن ، فلما أنشئت الترسانة الجديدة كان نعم المساعد للمسيو دى سريزى فى إنشاء السفن الحربية الجديدة .

وقد ذكره الدكتور كلوت بك فى كتابه (٥) فقال عنه : كان يرأس أشغال بناء الأساطيل

---

(٥) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣٥٤ (٢٣٧ من الأصل الفرنسى) .

وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر ، وهو رجل يجمع بين الشهامة والكفاءة فى بناء السفن ، فأعجب المسيو سريزى به وبكفاءته وجعله عضده الأيمن فى تحقيق برنامجه ، وكان يصحبه رجل تركى الجنس (وهو شاكر أفندى المتقدم ذكره) يقول عنه كلوت بك أنه يزعم العلم بالهندسة ولكنه خلو منها ، فاستغنى عنه المسيو سريزى وفصله من وظيفته وبقى الحاج عمر يعاون سريزى بك فى عمله خير معاونة .

وقال على باشا مبارك[٦] : « وقبل حضور المهندس سريزى بك المذكور كان الرئيس على إنشاء وعمارة السفن بتلك الميناء رجلا من الأهلين يسمى الحاج عمر وكان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية ، وأقدم على هذه الأعمال مع الإصابة ، فلما حضر المسيو سريزى بك اتحد معه وساعده فى جميع أعماله » .

وكان للحاج عمر المذكور شخصية محبوبة بين معاصريه ، فقد تضمنت (الوقائع المصرية) ثناء عليه[٧] لمناسبة بنائه إحدى السفن الحربية وقالت عنه مايلى :

« الحاج عمر يوزباشى من أهالى الإسكندرية رئيس المعمارين فى ترسانة الإسكندرية ، لم يكن له نصيب من علم الهندسة ، ومع ذلك زاول أعمال سفن التجارة مدة ، وصار كأنه مهندس رياضى بكثرة المزاولة فى الأعمال وبسبب قوة ذكائه وفطانته ، والآن تم إنشاء سفينة الفركطون الذى شرع فى إنشائه بمعرفة المرقوم ، وطولها من قرينتها ١٣٢ قدما ، ومن كوزتها ١٤٧ قدما وعرضها ٣٧ قدما ، وعمقها ٣١ قدما ، وبطاريتها الأولى تسع ٢٨ مدفعا ، وكذلك بطاريتها الثانية ، ودواردتها تسع مدفعين ، فنزلت فى يوم الاثنين الموافق ١٥ شعبان المعظم ، ولما رآها موسيو سريزى الذى جاء من فرنسا وهو مهندس ماهر فى إنشاء السفن المنصورة تعجب من حال المعمار المرقوم حيث أنشأ تلك السفن من دون علم الهندسة وأكمل جميع ما يحسن لها » .

كيف أسست الترسانة

درس المسيو سريزى مشروع إنشاء ترسانة كبيرة بدل الترسانة القديمة ، وبعد أن تم دراسته وضع تصميمها وقدم الرسوم اللازمة لإنفاذ المشروع إلى محمد على فى ٩ يونيه سنة ١٨٢٩ ،

(٦) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٢ .

(٧) العدد ١١٢ الصادر فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٤٥ (فبراير سنة ١٨٣٠) .

فأمعن النظر فيها ثم وافق عليها ، وشرع من فوره يخرج المشروع إلى حيز العمل ، ولم تمض هنيهة على إقراره حتى كان عدة آلاف من الجند يحفرون الأساس للمبانى اللازمة واشترى بعض أماكن على شاطئ الميناء بخط (الصيادين) من أصحابها وألحقها بمشروع الترسانة ، واستدعى من سائر أنحاء القطر الشبان والعمال الذين يعهد إليهم العمل فى إتمام الترسانة والتوفر على الأعمال البحرية ، فكان منهم النجارون والحدادون والقلافطة والسباكون والميكانيكيون ، وتألفت هذه الفرق تدريجا ، واخذ المسيو سريزى هو والحاج عمر فى تدريب الشبان على التعليم البحرى حتى تخرج منهم الأونباشية والجاويشية والضباط ممن امتازوا بالهمة والنشاط والذكاء وصاروا تحت ملاحظة الحاج عمر المذكور ، وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١ ، ووجد المسيو سريزى من ذكاء المصريين وحسن استعدادهم وحذقهم الصناعات من قبل بيئة صالحة لإتمام بناء الترسانة وإنشاء السفن الحربية فيها وقد جعله محمد على باشمهندس الترسانة ورقاه إلى رتبة البكوية فصار يعرف بسريزى بك ، ثم رقاه إلى درجة لواء ، وتولى تدريب العمال على مباشرة الأعمال ، كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها ، وبذلك سار العمل فى إقامة المبانى وتدريب العمال على مختلف الصناعات سيرا مطردا .

وكان محمد على لا يألو جهدًا فى تنشيط العمل وتشجيع العمال فكان كثيراً ما يحضر بنفسه إلى دار الصناعة ويستحث الصناع على العمل ويعطيهم المثل فى الجد والمثابرة ، وكذلك كان يفعل إبراهيم باشا ، فكان لعملهما تأثير كبير فى تقدم العمل حتى تم فى يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ إنشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع نزلت إلى البحر تتهادى ، فابتهج محمد على باشا لهذه النتيجة العظيمة ، ورأى أن مشروعه فى إحياء البحرية المصرية بعد واقعة نافارين قد خطا الخطوة الأولى فى النجاح ، واطرد العمل ونما حتى صار لمصر فى عدة من السنين أسطول حربى عوضها ما فقدته فى (نافارين) وزادت قوتها على ما كانت عليه .

أقسام الترسانة

وصارت ترسانة الإسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية ، كما كانت معهدا لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها وما يلزمها من الآلات ، فكانوا يوزعون على أقسامها ليتخصص كل جماعة فى فرع من فروع هذه الصناعة ، ويكفيك لتتبين مبلغ عظمها إلقاء نظرة

على أقسامها والمصانع (الورش) التى تتألف منها ، فقد ذكر المرحوم إسماعيل باشا سرهنك (٨) أنها تتألف من الأقسام الآتية :

١ – ورشة الحبالة أو التيالة لعمل الحبال .

٢ – ورشة الحدادين لصناعة الحديد .

٣ – ورشة القلوع لعمل أشرعة السفن .

٤ – ورشة السوارى لعمل ساريات السفن .

٥ – ورشة البوصلات والنظارات .

٦ – ورشة الدكمخانة لصب الآلات وسبك الحديد .

٧ – ورشة البوية لصنع الدهانات .

٨ – ورشة المخرطة لعمل البكرات وغيرها وأعمال النشر والخرط .

٩ – ورشة الترزية لعمل الأعلام والرايات .

١٠ – ورشة الفلائك لصنع الزوارق .

١١ – ورشة النجارين لعمل النجارة اللازمة للسفن .

١٢ – ورشة الطلومبات .

١٣ – ورشة القلافطية لقلفطة السفن .

١٤ – ورشة البور غوجية لثقب الأخشاب .

١٥ – مخازن الذخائر والمهمات (٩) .

وأنشئ بالترسانة خمسة مزلقانات لبناء السفن عليها ، واهتم المسيو سريزى بك والحاج عمر بتعميق البحر من ناحية الترسانة الجديدة حتى جعلاه فى عمق كاف لرسو أكبر السفن الحربية .

واتسعت أعمال الترسانة وكثر عمالها حتى بلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ عامل من الأهالى حذق منهم ١٦٠٠ صناعة بناء السفن فاستغنت مصر عن ابتياع السفن من الخارج .

---

(٨) فى كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٩) ذكر الدكتور كلوت بك فى كتابه ج ٢ ص ٣٧٠ أقسام الترسانة بما لا يخرج فى مجموعها عما ذكره إسماعيل باشا شرهنك غير أن بيان سرهنك باشا جاء أوفى وأكثر تفصيلا ، ولا غرو فكتابه ظهر بعد كتاب كلوت بك بنيف وخمسين سنة ، وفى كتاب كلوت بك أنه أنشئت برشيد فابريقة لنسج قماش الأشرعة ومصانع أخرى للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة لتكملة أعمال ترسانة الاسكندرية ، وكانت فابريقات القاهرة ومعاملها تشتغل أحيانا لهذا الغرض ، قال وكان للمسيو سريزى لا يميل إلى حصر الصنائع فى مكان واحد ، فدرب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ، ثم أعادهم إلى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها .

أخشاب السفن

وإذ كان محمد على راغبا فى الاستكثار من إنشاء السفن الحربية ، فكر فى وسيلة فعالة لجلب الأخشاب من الخارج ليكمل بها ما تنتجه أشجار القطر المصرى من الخشب الذى يصلح لبناء السفن ، فحصل على إذن من حكومة الآستانة يجيز له قطع الأخشاب اللازمة من غابات الأناضول ، وعهد بذلك إلى طائفة من العمال والصناع برئاسة كل من الحاج حسن بك كبير نجّارى الترسانة ، والسيد أحمد أحد عمالها ، وبذلك أخذت الأخشاب ترد إلى الإسكندرية لتصنع منها السفن فى الترسانة .

تذليل العقبات

وقد لقى المسيو سريزى عقبات شتى فى المضى فى عمله ، ذكرها كلوت بك فى كتابه [١٠]، من ذلك أنه استعان فى بدء الأمر بجماعة من الصناع الأوروبيين الفنيين للقيام بالأعمال الفنية التى لم يكن المصريون قد حذقوا فيها بعد ، وكان إقدامه على إنشاء الترسانة قد أزعج بعض البيوت التجارية الأوروبية التى كانت تربح الأرباح الوفيرة من وساطتها فى التوصية فى الخارج على بناء السفن الحربية لمصر ، فأخذت تدس الدسائس للمسيو سريزى وتثبط العزائم وتذيع إشاعات السوء عن فشل مشروعه بين العمال الأوروبيين الذين يتولون رياسة الأقسام الصناعية فى الترسانة ويدربون العمال المصريين ، وسعت إلى تحريضهم على الشغب والعصيان ، ووقعت فى بعض الورش والمعامل بالترسانة بسبب ذلك فتن أفضت إلى الارتباك والخلل فى العمل حتى لقد حدث عند الشروع فى دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة إلى البحر ، أن انقطعت حبائلها المثبتة لها فى مكانها قبل الأجل المعين ، وكان ذلك بفعل فاعل يقصد إتلافها ، وكان العمال المالطيون والليفورنيون يحرضون زملاءهم من عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الإسكندرية ويحضونهم على التمرد ، وكان المسيو سريزى قد جاء بهم فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رئاسة الأقسام المختلفة ، لكن هذه العقبات لم تدخل اليأس إلى قلب المسيو سريزى ، ولم ينزعج لها ، بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجأش ثبْت وإرادة قوية ، أما محمد على باشا وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن فقد أهمل الوشايات التى أحيط بها المسيو

---

(١٠) ج ٢ ص ٣٦٤ (٢٤١ من الأصل الفرنسى) .

سريزى فمهد له بذلك سبيل التفرغ لأعماله والاهتمام بإنجازها من غير توان ولا إمهال ، ومن الصعب أن نتصور مبلغ العقبات التى اضطر ذلك المهندس الخبير إلى مكافحتها ليتمكن من إنجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات ، وكانت ظروف الأحوال قد ألجأته فى بادئ الأمر إلى استخدام الجم الغفير من الأوروبيين لتسليح السفن التى كانت تبنى بسرعة مدهشة ، فأدت معالجته هذا الأمر إلى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته ، وما انفك يهتم أيضا بمنع السرقات وبحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين ، ومعاقبة المقصرين فى أداء أعمالهم ، سواء أكان هذا التقصير عن إهمال أو خطأ ، أم سوء نية ، وقد وفق إلى تعليم المصريين تدريجاً الصناعات التى حذقوها حتى ضارعوا الأوروبيين فيها ، فاستطاع محمد على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث إن الأعمال صار ينجز الشطر الأوفى منها بأيدى العمال الوطنيين ، ولم يحتفظ من الأوروبيين إلا بفئة صغيرة من المعلمين الفرنسيين ، قصد ببقائهم فى الخدمة الإشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن ، قال ومما هو جدير بالذكر أن امتثال المصريين للأوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان كبيرتان عاونتا المسيو سريزى على أداء المهمة التى وكلت إليه على خير ما يرام .

ولم تنقطع دسائس التجار الأوروبيين بعد انتظام العمل فى الترسانة ، فإنه بعد أن صارت تخرج السفن الحربية وبعد أن استغنت الحكومة عن ابتياع السفن من الخارج كانت مع ذلك مضطرة إلى جلب المهمات والأدوات التى تدخل فى إنشائها من الخارج ، كالأخشاب والحديد والنحاس ، فكان التجار الأفرنج يتغالون فى أثمانها ويوردون الأصناف الرديئة منها ، فالخشب مثلا كانوا يستوردونه من الأناضول وإيطاليا غير مستوف شرائط الجودة والمتانة ، ولذلك كثيرا ما سرى العطب إلى السفن التى كانت تصنع منه فتحتاج إلى الإصلاح والترميم بعد زمن قليل ، على أن محمد على لم تفتر عزيمته عن مغالبة تلك العقبات ومتابعة إنشاء السفن بهمة لا تعرف الملل ، وألف مجلسا ناط به كل ما يلزم لأعمال السفن وجعل المسيو سريزى رئيساً له .

السفن التى أنشئت أو رممت فى ترسانة الإسكندرية

أورد كلوت بك فى كتابه [١١] بيانا عن السفن التى أنشئت أو رممت فى ترسانة الإسكندرية أثناء وجود سريزى بك على رأسها ، وهذا البيان يعطينا فكرة عن عظمتها وضخامة العمل

---

(١١) ج ٢ ص ٢٧٣ (٢٤٣ من الأصل الفرنسى) .

الذى قامت به .

فقد بنيت بها البارجتان (مصر) و (عكا) وهما بحجم إلسفن الفرنسية ذات الثلاثة السطوح المعروفة فى ذلك العصرإلا أنهما لم توضع بهما البطارية الرابعة . والسطح الأول لكل منهما يحمل ٣٢ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ والسطحان الآخر يحملان ٦٨ مدفعاً قصيراً من عيار ٣٠ .

وأربع بوارج من ذات مائة مدفع ، وهى المعروفة بأسماء (المحلة الكبرى) (والمنصورة) و (الإسكندرية) و (حمص) ، وفى كل من هذه السفن ٣٢ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و ٣٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ فى البطارية الثانية ، و ٣٤ مدفعا من الزهر (كاروناد) من عيار ٣٠ فى مقدم السفينة ومؤخرها والبارجة (أبو قير) ذات ٧٨ مدفعا ، منها ٢٨ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و ٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية ، و ٢٠ مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ فى مقدمة السفينة ومؤخرها .

والكورفيت (طنطا) وفيها ٢٤ مدفعا قصيرا من عيار ٣٢ إنجليزى والجوليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤ ، وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤ وسفينة لمدافع الهاون . وسفينة نقالة لحمل أخشاب الساريات .

وقد تولت الترسانة تسليح البارجة (بيلان) ذات ٨٦ مدفعا ، فركب فيها ٢٨ مدفعا طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى ، و ٣٠ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية ، و ٢٨ مدفعا من الزهر فى المقدمة والمؤخرة .

وكان العمل جاريا[١٢] فى بارجتين من البوارج الضخمة ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ . وهما (حلب) و (دمشق) وفى فرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠ .

واستنتج كلوت بك من البيان المتقدم أن المسيو سريزى قدعنى بالتوحيد بين عيارات السفن الحربية الكبرى ، وهو الأمر الذى كثيرا ما طالب به الخبراء البحريون فى أوروبا على ذلك العهد .

أما سفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدها فى الترسانة من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثا ، فهى الفرقاطة (الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ إنجليزى وكان إنشاؤها بميناء (ليفورون) بإيطاليا .

---

(١٢) وقت تأليف كتاب كلوت بك سنة ١٨٣٩ .

والفرقاطة (البحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان إنشاؤها فى ثغر مرسيليا .

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ ، و٢٨ مدفعاً من الزهر من عيار ٢٦ ، وكان إنشاؤها بمدينة البندقية (فينسيا) و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ إنجليزى ، وأربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ وقد أنشئت فى ثغر (أركانجل) بالروسيا للنقل وأكمل إنشاؤها فى (لندره) كفرقاطة حربية ، (وشير جهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ ، وكان إنشاؤها فى ثغر ليفورن ثم عدلت فى الإسكندرية تعديلا يعد إنشاء جديدا .

و (دمياط) وهى ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ ، وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨ ، وكانت سفينة كبيرة وحولت فى ترسانة الإسكندرية إلى فرقاطة حربية .

و (موستا جهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٨ ، وثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢ ، وكانت فرقاطة جزائرية أهدتها فرنسا لمصر .

والسفن (جناح بحرى) وأصلها من ثغر جنوه بإيطاليا و (جهاد بيكر) وأصلها من جنوه أيضا و (فوه) وأصلها من الإسكندرية و (بلنك جهاد) وأصلها من مرسيليا ، وكلها من طراز الكورفيت ذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤ و (واشنطون) وأصلها من بوردو ، و (فولمينان) وأصلها من (ليفورن) و (الفشن) وأصلها من الإسكندرية و (شاهين دريا) وأصلها من تركيا ، وكلها سفن من طراز الإبريق الكبير ، وتحمل كل منها اثنين وعشرين مدفعا من الزهر ، و (سمند جهاد) وأصلها من مرسيليا و (شهباز جهاد) وأصلها من سيوتا و (والتمساح) وأصلها من مرسيليا و (بادىء جهاد) وأصلها من الإسكندرية و (أمريكان) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز الإبريق الصغير ، وتحمل كل منها من ستة عشر مدفعا إلى ثمانية عشر مدفعا من مدافع الزهر . وأربع سفن نقالة حمولة كل منها ٤٠٠ طن وفرقاطة وابريق وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت أثناء الحرب السورية وكذا جملة سفن صغيرة ، وباخرة تسمى (النيل) أصلها من لندره تسير بالبخار ، وقد راعى الميسو سريزى فى بنائه السفن الحربية الإصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بإدخالها على السفن الفرنسية وكذا الإصلاحات التى اهتدى إليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فرنسا ، والملاحظات التى لاحظها فى انجلترا ورأى من الأفضل العمل بها لفائدة البحرية ، ولذلك بنيت السفن التى أنشئت فى ترسانة الإسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه .

وختم كلوت بك بيانه بقوله : من المستطاع التحقق بأن قسما عظيما من التنسيقات

والترتيبات المرعية فى بناية السفن الحربية الفرنسية وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فى فرنسا بزمان طويل ، أى أن ترسانة الإسكندرية سبقت ترسانات فرنسا إلى الوسائل الحديثة فى بناء السفن .

ولما ظهر استعمال البخار أمر محمد على دار الصناعة بإنشاء سفن حربية بخارية (وكانت السفن الحربية قبل ذلك تسير بالشراع) فصنعت عدة بواخر ، منها وابور (النيل) الذى ذكره كلوت بك و (أسيوط) و (رشيد) و (جيلان) خصصها لحمل البريد وجعل لها إدارة خاصة سماها القومبانية المصرية .

سفن النقل

وشيدت فى الترسانة عدا السفن الحربية سفن عديدة للنقل جعل لها إدارة خاصة تولى رئاستها محمد قرافيش قبودان ثم خلفه محمد راشد بك ثم خلفه أوزون أحمد قبودان .

حفلات نزول السفن الحربية إلى البحر

وكانت السفن التى يتم إنشاؤها تقام لها حفلات فخمة ابتهاجا بنزولها إلى البحر كالحفلات التى تقيمها الحكومات الأوروبية فى ثغورها البحرية لمناسبة إنشاء البوارج الجديدة . وكان محمد على باشا يحضر بنفسه معظم هذه الحفلات تقديراً لها وإعلاء لشأن الأسطول ، قال رفاعة بك رافع فى هذا الصدد :

« وكان محمد على يديم النظر فى السفن عند صناعتها ، ويصور الغرض منها ، وكلما شارفت الإتمام ازداد فرحا وسرورا ، وإذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار أن يظهر أمارة السرور فلهذا أكملت عنده دوننمة ملوكية طبق مرامه ، وطقمها بالمدافع والعساكر ، ونظمها على نسق نظام العساكر البرية وأنشأ مدرسة بحرية بثغر الإسكندرية ليخرج منها من الضباط ما تحتاج إليه هذه الدوننمة ، وترجم العلوم البحرية وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الأخرى »[١٣] .

وإنا ذاكرون هنا ما جاء بالوقائع المصرية[١٤] فى وصف إحدى تلك الحفلات ننقله بنصه

(١٣) مناهج الألباب المصرية للعلامة رفاعة بك رافع ص ٢٤٦ طبعة ثانية .

(١٤) عدد ٣٤٠ الصادر فى ١١ شعبان سنة ١٢٤٧ (يناير سنة ١٨٣٢) .

لتعرف منه تفاصيل الحفلة ، ولتطلع على نموذج من لغة الجريدة الرسمية فى ذلك العصر.

« إن الغليون[١٥] ذا الهيئة السنية ، المحلًّى باسم الإسكندرية ، تعريف إنشاء آلاته البهية وعمل أدواته الحربية ، ووصف أبعاده الثلاثية ، قد تقدم ذكره الشائع ، واندرج فى سلك السطور والوقائع ، والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البرى ، ليطير بأجنحة العنقاء إلى العالم البحرى ، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم فى الساعة الرابعة من النهار ، حيث تجلت مشاهد الأنوار ، وكان ذلك بحضرة جميع الأمراء والعظماء ، وزمرة الصلحاء والعلماء ، وقناصل الدول المستأمنين ، وقاطبة الأهلين ، مع جملة أولادهم الكبار ، وعيالهم الصغار ، وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الأرجاء ، منتشرين كنجوم السماء ، وأما سعادة أفندينا ولى النعم فإنه ركب الفلك بحرا ، وهلم جرا ، واستصحب بمعيته أحد رجال الدولة العلية ، المأمور بتشريف الديار المصرية ، أعنى به مصطفى أفندى نظيف ، حتى وضع لدى موضع الترسانة قدمه الشريف ، وكان الغليون إذ ذاك قد بادر إلى قطع أكثر العلائق ، ووداع الخلائق ، بحضور المهندس الذى هو لكل منقبة حاوى ، الخواجة سريزى الفرنساوى ، فتقدم الموما إليه لدى ساحة مكارم ولى النعم ، وأشار إلى أن هذا هو وقت الدعاء من زمرة العلماء ، فتقدموا إلى جهة الغليون الرسى كالطود المتين ، ولدى دعائهم قال الحاضرون آمين ، فتلا حينئذ لسان حال الغليون ، عمَّ يتساءلون .

ثم نبذ باقى العلائق ، وأنشد بمحضر الخلائق .

لست أخشى عسف الرياح إذا ما بِنتُ من ساحل ووسَّطت بحراً »

استقالة سريزى بك

خلا مكان سريزى بك فى دار الصناعة باستقالته من منصبه ، وترجع استقالته إلى التجار الأوروبيين به كما قدمنا ، فما زالوا يحرجونه حتى استقال ، على أن أعمال الترسانة سارت بعد استقالته فى تقدم مستمر بفضل إدارة مهندسيها المصريين ، وبذل حسن بك السعران ومحمد بك راغب من خريجى البعثة البحرية همة كبرى فى تنظيم العمل حتى بلغت العمارة الحربية المصرية درجة تفوق كثيرا من الدول الأوروبية .

(١٥) المركب الحربى .

المعسكر البحرى للتعليم برأس التين

وأنشأ محمد على باشا معسكرا لتعليم البحارة من الجنود الأعمال البحرية ليكونوا بحارة الأسطول وجنوده ، انتقاهم من كل المديريات وأعد لإقامتهم وتدريبهم الجهة الشمالية الشرقية من رأس التين بحيث تسع عشرة آلاف نفس ، وأعد لهم مركبا فوق البر بسواريها وقلوعها لتعليمهم استعمال الشراعات ، ولما تم تدريب البحارة ، وزعوا على السفن الحربية ، فانتظمت طوائف الجنود والبحارة ، وصار نظامهم يضارع النظامات البحرية بالأساطيل الأوروبية ، ونقل من كان بتلك السفن من النوتية غير النظامية إلى سفن النقل .

وانشأ محمد على مستشفى للبحرية فى شبه جزيرة رأس التين ، وآخر فى الترسانة

مدرسة بحرية على ظهر البحر

وكذلك أنشأ مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين على ظهر إحدى السفن الحربية ، ولما اتسع نطاقها قسمت إلى فرقتين كل واحدة بسفينة ، وكان ناظرها حسن بك القبرسلى ، وبعد وفاته جعل مكانة كنج عثمان بك ، ويشرف عليها ناظر البحرية ، وقد نبغ من هذه المدرسة كثير من الضباط البحريين الذين اشتهروا فى الأعمال والحروب البحرية ورفعوا علم مصر عاليا فوق ظهر البحار أو تولوا الإدارات البحرية فى مصر ، ذكر إسماعيل باشا سرهنك [١٦] بعض من عثر على أسمائهم فآثرنا أن نثبتهم هنا لنتعرف ببعض ضباط البحر ممن ازدان بهم تاريخ الأسطول المصرى :

خير الدين قبودان ، عبد اللطيف قبودان ، أحمد نورى قبودان الملقب بالجوخدار ، حسين شرين قبودان [١٧] ، جعفر مظهر قبودان ، حافظ خليل قبودان (وهؤلاء ترقوا إلى رتبة الباشوية) .

حافظ قبودان مصطفى ، برغمه لى أحمد قبودان ، مصطفى قبودان الكريلى ، حاجو قبودان ، حافظ قبودان الشيرازى ، بودرملى أحمد خوجة قبودان ، عارف قبودان ، إسماعيل

---

(١٦) حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٤٣ .

(١٧) هو حسين شرين باشا من مشاهير قواد البحر فى عهد محمد على وإسماعيل ووكيل وزارة البحرية فى أوائل عهد توفيق باشا ، وهو جد صديقينا النبيلين المرحومين اسماعيل شرين بك وحسين شرين بك

قبودان ، أمين قبودان الملقب بالطويل ، بوزجه اطه لى خليل قبودان ، خورشد قبودان ، هدايت محمد قبودان ، بابا سليم قبودان ، أحمد شاهين قبودان ، خورشد قبودان الملقب بأبى فصادة ، محمد راشد قبودان ، سليم قبودان مرجان قبودان ، وسيل قبودان ، إبراهيم قبودان الملقب بكره كوز ، عثمان قبودان الملقب بقاح ، عثمان قبودان الملقب بالبوتى ، سليمان قبودان الملقب بالبير قدار ، مصطفى قبودان الملقب بالبلاوجى ، بوغجه اطه لى آمين قبودان ، بوغجه اطه لى سليمان قبودان ، مطوش قبودان .

البعثات البحرية

لم يكتف محمد على باشا بإنشاء المدرسة البحرية بل كان يختار بعض الضباط البحريين ويرسلهم إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم بها وممارسة الفنون البحرية على ظهر السفن الحربية الأوروبية ، فمن هؤلاء عثمان نور الدين أفندى (باشا) الذى سنترجم له فيما يلى ، وحسن أفندى الإسكندرانى (باشا) ، وشنان أفندى ، ومحمود أفندى نامى [١٨] ، وهؤلاء أرسلوا إلى فرنسا ضمن البعثة الأولى .

وعبد الحميد أفندى ، ويوسف اكاه أفندى ، وعبد الكريم أفندى ، وهؤلاء أرسلوا إلى إنجلترا ضمن البعثة العلمية الثالثة .

ولما أتموا علومهم وتجاربهم عادوا إلى مصر ووزعوا على السفن الحربية المصرية .

ومن الذين أرسلهم محمد على باشا كذلك إلى أوروبا تلميذان آخران لتعلم فن إنشاء السفن ، وهما حسن أفندى (بك) السعران ، وهذا سافر إلى فرنسا ، ومحمد راغب أفندى (بك) [١٩] ، وهذا سافر إلى إنجلترا ، وبعد أن أتقن التلميذان المذكوران فن الهندسة البحرية عادا إلى مصر وعينا رئيسين لقسم الهندسة وإنشاء السفن بترسانة الاسكندرية ، وتوليا العمل الذى كان يقوم به سريزى بك فى دار الصناعة .

وقد أدّى خريجو المدرسة والبعثات البحرية خدمات جليلة للبحرية المصرية ، فعين بعضهم قباطين للسفن الحربية لقيادتها وتدريب بحارتها على الأعمال البحرية ، وترجم بعضهم مؤلفات عدة عن البحرية ذكرها إسماعيل باشا سرهنك [٢٠] فترجم جركس محمود نامى قبودان

(١٨) تجد ترجمتهم فى فصل البعثات .

(١٩) ضمن البعثة العلمية الثالثة ، انظر الفصل الثانى عشر .

(٢٠) ح ٢ ص ٤٧ .

كتابا فى فن الحرب البحرية ، وترجم عبد الحميد بك الديار بكر لى مؤلفا فى مقاس السفائن ، وترجم محمد شنان أفندى قانون البحرية .

وترجم عثمان نور الدين باشا كتاب القواعد واللوائح البحرية المتبعة فى فرنسا وآخر فى قانون العقوبات البحرية .

وترجم أحمد خليل أفندى المهندس قانون البحرية وكتابا فى فن الطوبجية البحرية ، وترجم هؤلاء أيضا وغيرهم كثيراً من القوانين واللوائح والنظامات البحرية المستعملة فى سفن أساطيل فرنسا وإنجلترا ، ونشرت هذه المؤلفات بين ضباط البحرية ، واتبعت أحكامها فى الدونمة المصرية ، فازدادت نظاما وقوة وصارت فى زمن قليل تحاكى أعظم بحريات أوروبا .

إصلاح الميناء

بذل محمد على جهداً كبيراً فى توسيع ميناء الإسكندرية وتعميقها واستحضر لهذا الغرض الكراكات من أوروبا حتى صارت السفن ترسو على الشاطىء بعد أن كانت ترسو بعيدة عنه ، وأذن للسفن الأوروبية التجارية والحربية بالدخول فى الميناء الغربية بعد أن كان غير مباح لها من عهد المماليك أن ترسو إلا فى الميناء الشرقية ، فلما أذن لها محمد على بالرسو فى الميناء الغربية أخذت السفن الأجنبية تتوافد إلى الإسكندرية واتسعت حركة التجارة فيها ، وأنشأ رصيفا داخل الميناء لرسو السفن عليها ، وملأ المتخلف بين الأرصفة والشاطئ بالأحجار والأتربة فاتسع الشاطىء وأنشأ فى ذلك الفضاء ما تحتاج إليه الميناء من المخازن وأبنية الجمرك ومساكن الموظفين[٢١] وكان المباشر لذلك شاكر أفندى المتقدم ذكره إلى أن توفى فخلفه مظهر باشا المهندس الماهر الذى تخرج من البعثة العلمية ، وكذلك وضع علامات فى بوغاز الإسكندرية كى يهتدى بها ربابين السفن فى دخولهم إلى الميناء وخروجهم منها .

إنشاء حوض لترميم السفن

وأنشأ محمد على فى الميناء حوضا لترميم السفن ، مما لا تستغنى عنه الثغور الكبيرة فجاء وفق المرام وقد تم إنشاؤه على يد موجيل بك المهندس الفرنسى سنة ١٨٤٤ واشترك فى إنشائه مظهر

---

(٢١) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٢ .

باشا وبهجت باشا المهندسان المصريان اللذان تخرجا من بعثات فرنسا .

وبعد أن أنشأ رصيفا للشحن فى الميناء مدَّ سكة حديدية تصل مستودعات البضائع والغلال بالرصيف لتسهيل نقلها إلى السفن .

فنار الإسكندرية

أنشأه المهندس مظهر باشا أحد خريجى البعثات بشبه جزيرة رأس التين لإرشاد السفن القادمة إلى الميناء والخارجة منها ، وهو من أجلّ أعمال العمران التى تمت فى عصر محمد على ، وقد كتب عنه كلوت بك [٢٢] مايلى :

« لقد أحرزت هذه البناية الجليلة وجزئياتها إعجاب من شاهدوها من السياح وهو مما يكلل بالفخر المهندس المصرى مظهر أفندى الذى تلقى العلم فى فرنسا ويوجب مدحه والثناء عليه » .

البحرية المصرية كما وصفها شهود العيان

زيارة المارشال مارمون للترسانة

زار المارشال (مارمون) ترسانة الإسكندرية سنة ١٨٣٤ فأعجب بنظامها وضخامتها ، وبهرته دقة أعمالها وكفاءة عمالها المصريين ، وكتب عنها ما يلى [٢٣] :

« زرت الترسانة والأسطول ، وكنت شديد اللهفة لزيارة هذه المنشآت المدهشة التى لم يكن يتصور العقل تأسيسها ، ففى سنة ١٨٢٨ لم يكن بالإسكندرية إلا ساحل مقفر ، ولكن هذا الساحل أصبح فى سنة ١٨٣٤ مغطى بترسانة كاملة بنيت على مساحة واسعة ، وأحواض للسفن ، ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع ، ومما استوقف نظرى ورشة الحبال التى يبلغ طولها ١٠٤٠ قدما أى فى طول ورشة الحبال بثغر طولون ، وقد شاهدت فى الترسانة عمالا يعملون فى مختلف معاملها ، ولهم مهارة فى كل ما يعهد إليهم من الأعمال البحرية ، وهم جميعاً من المصريين ويسود بينهم النظام والعمل والنشاط ، وهذه الترسانة التى لم يمض على إنشائها أكثر من ست سنوات قد صنع فيها عشر بوارج ، سلاح كل منها مائة مدفع ، وقد تم تسليح سبع

---

(٢٢) ج ٢ ص ٧٥٣ .

(٢٣) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ١٧١ .

منها تمخر العباب الآن ، أما الثلاث الأخرى فلا تزال بالحوض على وشك نزولها إلى الماء ، هذا عدا السفن التى من نوع الفرقاطة والكورفت والإبريق ، مما جعل عدد الأسطول يزيد عن ثلاثين سفينة حربية ، وقد تمت هذه المنشآت ووصلت البحرية المصرية إلى هذه النتائج المدهشة فى ذلك الزمن القصير فى بلاد ليس فيها أخشاب ولا حديد ولا نحاس ، ولم يكن فيها عمال ولا بحارة ولا ضباط مجربون ، أى أنها كانت مفتقرة إلى كل العناصر اللازمة لإنشاء أسطول ، وهذه همة لا نظير لها فى التاريخ ، والفضل فى هذا العمل الجليل راجع إلى كفاية المسيو سريزى والى عزيمة محمد على الحديدية التى تغلبت على كل الصعاب ، وقد كان العمل يتولاه الرجال الفنيون ، ولكن محمد على كان يقضى أياما بأكملها وسط العمال ، فكان حضوره يبعث فى نفوسهم روح النشاط والهمة ، ويذلل العقبات التى تعترض العمل ويحمل كل واحد من العمال على بذل كل ما فى طاقته من الجهود » .

رأيه فى كفاءة المصريين

وقال المارشال مارمون يصف كفاية المصرى :

« إن العربى — يريد المصرى — له حظ عظيم من المقدرة على التقليد تبلغ درجة النبوغ وهو متصف بالاستقامة والنشاط والغيرة مع المرونة والطاعة ، وبهذه الصفات يمكن الوصول إلى تحقيق كل ما يريده الإنسان ، وبفضل هذه المزايا صار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين أخصائيين فى الفروع والفنون التى توفروا عليها ، كلٌّ فيما خصص له .

« ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على أعمال الخشابين والنجارين والحدادين بل تخصص منهم كثيرون لأعمال بلغت غاية الدقة فنجحوا فى صنع آلات البحرية كالبوصلات والنظارات .

« وقد شاهدت بنفسى المعامل التى تصنع فيها هذه الآلات ، والعمال الذين يصنعونها ، ورأيت الإتقان فى صنعها ، والعمال الفنيون الذين يصنعونها لم يمض عليهم سنتان فى التمرن على تلك الأعمال ، ومن الحق أنه يقال أنه لا ينتظر الوصول إلى هذه النتيجة بمثل هذه السرعة من عمال أوروبيين يؤخذون من صفوف الفلاحين مهما كانت الأمة التى يختارون منها » [٢٤].

---

(٢٤) رحلة المارشال مارمون ج ٣ ص ١٧٣ .

زيارته للأسطول

وقال يصف زيارته للأسطول المصرى سنة ١٨٣٤[٢٥] .

« نزلت إلى الميناء لزيارة البوارج المصرية الراسية بها ، وكان عددها سبعا عادت حديثا من جولة فوق ظهر البحار على سواحل آسيا (سوريا والأناضول) قضت فيها ستة أشهر ، وكل بارجة منها مسلحة بمائة مدفع ، ومدافعها كلها من عيار واحد ، وقذائفها من حجم واحد ، ولا شك أن وحدة العيار لها فائدة كبرى عندما تشتبك البوارج فى القتال ، ومن المدهش أن هذه الميزة السهلة فى ذاتها لم تلتفت لها الدول البحرية الكبرى وأن ابتكارها يجىء على يد دولة حديثة تبدأ عهدها بالحضارة » .

وقال عن زيارته لبارجة الأميرال مصطفى مطوش باشا قائد الدوننمة :

« استقبلنى مطوش باشا بالتعظيم المعتاد وعلى قصف المدافع فوق ظهر بارجته (عكا) التى كان يركبها ، وكان يصحبنى الأميرال بيسون . Besson ، وقد تفقدت البارجة ، وأمعنت النظر فيها بعناية خاصة ، فلم أر إلا ما يستوجب الإعجاب بنظامها وترتيبها وهذه البارجة كغيرها من البوارج الكبرى هى المنشآت البديعة التى أخرجتها ترسانة الإسكندرية ، وقد اشتركت فى الحرب مرتين على ظهر البحر » .

رأى كلوت بك

وانظر ما كتبه كلوت بك عما بلغته البحرية المصرية من القوة والتقدم[٢٦] : « مما لا ريب فيه أن إيجاد ترسانة وإنشاء أسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقضى بالعجب ، ويدل على قوة العبقرية ، فقد كان شاطىء البحر بالإسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن ، فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسانة كاملة الأدوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات ، من قواعد منحدرة لإنشاء السفن عليها وتزليجها إلى البحر ، وورش ومخازن ، ومصنع للحبال تمتد بنايته طولا ألفاً وأربعين قدما أى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون ، وأنشئت خلال تلك المدة دوننمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال ،

(٢٥) ص ١٧٨ .

(٢٦) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣٨٤ (٢٥١ من الأصل الفرنسى) .

وجربت للمرة الأولى من إنشائها فى مطاردة أحد الأساطيل العثمانية .

« وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحارة وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم ، وقد أصبح المصريون ، وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال ، كأنهم خلقوا لممارسة البحر ، ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ، ونقول الآن إنه بالنظر إلى سكناهم شواطىء النيل وهو النهر الذى بلغ من السعة فى نظرهم إلى تسميتهم إياه بالبحر ، كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم إلى معاناة فنون الملاحة ، ومن المناقب التى توافرت فيهم غير ما تقدم تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم ألا يحرز قصب السبق سواهم ، ومعلوم أن ثغر الإسكندرية تتردد عليه باسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعلام دول مختلفة ، فكان منظر هذه السفن يبعث فى نفوس الشبان المنتظمين منهم فى سلك البحرية روح الغيرة والحماسة ويستفزهم إلى الرغبة فى إطلاع الخبيرين فى الفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات فى المناورات ، ونما بذلك فى نفوسهم إحساس الشمم ، وتنبه الشعور بالكرامة ، فكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم فى إحراز أوفر قسط من العلوم والفنون ، ويؤخذ من آراء الإخصائيين فى حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبين بحرية الآستانة كالفرق بين جيوش محمد على البرية وجيوش الباب العالى .

« وامتازت بحرية محمد على أول وهلة بالتفوق فى شبه جزيرة (موره) ، وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التى طالما هلعت لمرآها قلوب أهل الآستانة وقبعت بسببها أساطيلهم ، لم تخش بأسها السفن المصرية التى كان يقوم على أمرها فى ذلك العهد ربان السفينة الفرنسى المسيو لوتلليه ، ولقد شرف الأسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام ، إذ قامت سفنه بمراقبة سواحل الشام ومنعت الأتراك من النزول إليها ، وقبضت فى أنحائها على بعض السفن العثمانية ، وساعدت المصريين على حصار عكا ، واقتفت أثر الدونتمة العثمانية التى كانت أكثر منها عدداً وأوفر مددا حتى حصرتها فى مرسى (مرمريس) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل التى أشرفت أن تجتازه لولا مداخلة الدول الأوروبية التى حالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة » .

كفاية عمال الترسانة المصريين

وذكر كلوت بك[٢٧] عن كفاءة العمال المصريين ومهارتهم وحسن استعدادهم مايأتى :

« إن العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون أعمال إنشاء السفن ، وقد أظهروا فيها من الأهلية والدراية ما يوجب الدهش ، وكان يشتغل منهم بالترسانة من ستة آلاف عامل إلى ثمانية آلاف ، أما العمال الأتراك فلم يبد ما يستوجب ارتياح المسيو سريزى ورضاه عنهم ، لأنهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع إلى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لإجادة ما يناط بهم من الأعمال ، فكانوا من هذا الوجه على نقيض المصريين الذين كانوا يدركون بسهولة سر الصنعة مما كان ينجز أمامهم من الأعمال ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الأخلاق والامتثال للرؤساء ، هذا فضلا عن أنهم فطروا فى فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر أكثر منه على الذكاء والعقل ، حتى ان الرسم البسيط يرشدهم إلى فهم حقائق الأشياء بمجرد النظر إليه قبل إمعان الفكر والروية فيه ، إلا أن المصرى مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن أنه إذا بلغ من التعلم درجة ما ، لا يرغب فى تجاوزها إلى ما بعدها ، وهذا النقص يحول بلا ريب دون سعيه إلى الكمال .

« وهم أميل إلى مزاولة هذه الصناعات التى أساسها تقليد الأشكال والنماذج الثابتة ، ومن ثمّ تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الأشرعة والحبال ، والبراميل والنجارة الدقيقة ، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب ، وإنما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها إذا مست الحاجة إلى تغيير الأحجام واستنباط أشكال تخالف ما عهدوه عليه من المثل ، كما يتفق أحياناً فى مصانع الآلات والحدادة والسبك ، مالم يراقبهم أثناء أدائهم إياها الرؤساء الأوروبيون ، فإنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير ما يرام .

« وترسانة الإسكندرية التى يصنع فيها كل شىء بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا ، دليلٌ ناطق على مبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ، ويقينى أن عامة الشعب فى أوروبا لا يستطيعون أن يؤدوا من جلائل الأعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه » .

---

(٢٧) ج ٢ ص ٣٧٨ (٢٤٦من الأصل الفرنسى) .

قواد الأسطول المصرى

نأتى هنا على لمعة من تاريخ القواد الذين تولوا رئاسة الأسطول المصرى فى عهد محمد على تخليداً لذكراهم وتبياناً لما قاموا به من جلائل الأعمال .

الأميرال إسماعيل بك

هو الذى قاد العمارة المصرية فى أوائل الحرب اليونانية كما بينا ذلك فى الفصل السابع[٢٨] وهو الذى تسميه المراجع الفرنسية إسماعيل جبل طارق ، وبعضها يسميه إسماعيل الجبل الأخضر ، وقد توفى أثناء الحرب اليونانية .

الأميرال محرم بك

أصله من قوله ثم أخذ مصروطنا له ، فاتصل بمحمد على باشا واستخدمه فى كثير من مهام الحكومة ، ورأى فيه من الصدق والإخلاص وحميد الصفات ما جعله يقربه إليه ، وزوجه بكريمته تفيده هانم ، وجعله حاكما للجيزة ، ثم محافظا للإسكندرية فأحسن إدارتها ، وبعد أن أنشأ الأسطول المصرى الأول جعل محرم بك أميرالا له سنة ١٨٢٦ وتولى قيادته فى الدور الثانى من حرب اليونان ، وحضر واقعة نافارين البحرية ، وشهد نكبة الأسطول فيها كما فصلنا فى ذلك فى الفصل السابع [٢٩] .

ولما عاد إلى مصر بقى فى وظيفته الأولى محافظا للإسكندرية وانفرد بهذا المنصب إلى أن توفى بها فى ١٢ محرم سنة ١٢٦٤[٣٠] (٢٠ ديسمبر سنة ١٨٤٧) .

فأسف عليه الناس أسفا كبيرا لجميل سيرته وحبه للخير ، وباسمه سمى الحى المشهور فى الاسكندرية بحى « محرم بك » .

---

(٢٨) ص ٢١٣ و ٢١٦ (الطبعة السابقة) .

(٢٩) ص ٢١٦ و ٢٢٦ و ٢٢٩ وما بعدها (الطبعة السابقة) .

(٣٠) عدد ٢٧ محرم سنة ١٢٦٤ من الوقائع المصرية .

الأميرال عثمان نور الدين باشا

أصله من جزيرة مدللى[٣١] ولحق بمصر واتخذها وطنه وخدمها خدمات جليلة ، دخل فى مدارسها الحربية ثم ألحق بالبعثة التى أرسلها محمد على إلى أوروبا وأتقن فيها العلوم الحربية والبحرية ، ولما عاد صار له شأن كبير فى المهمات التى أسندت إليه وفى تنظيم البعثات الكبرى التى تدفقت نحو فرنسا ، فقد كان عضوا عاملا من أعضاء اللجنة التى ألفت سنة ١٨٢٢ لوضع برنامج التعليم العسكرى بالمدارس الحربية المصرية على النظام الحديث ، فكان ثالث الثلاثة الذين تألفت منهم تلك اللجنة ، وزميلاه فيها هما الكولونل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) وأحمد أفندى المهندس ، وهو الذى أسس المدرسة الإعدادية الحربية بقصر العينى ومدرسة أركان حرب بالخانكة ، وقد أثنى عليه كلوت بك فى كتابه وجعله فى مقدمة من أشاد بذكرهم من خريجى البعثات .

وقد نال منزلة كبيرة لدى محمد على باشا لما آنسه فيه من الإخلاص والكفاءة ووصل إلى رتبة « سرعسكر » وجعل رئيسا للأسطول المصرى سنة ١٨٢٧ بدلا من محرم بك ، وأنعم عليه برتبة الباشوية وبنى له محمد على باشا منزلا على ساحل الميناء غربى سراى رأس التين ليكون قريبا من السراى الخديوية ومن سفن الأسطول بالميناء . وجعله رئيس الجهادية فى البر والبحر ، ووصل من المنزلة والمكانة إلى أن صار ثالث رجل فى الدولة بعد محمد على وإبراهيم .

وقد كان له فضل كبير فى إيفاد البعثات الكبرى إلى فرنسا ، ذلك أنه أثناء تلقيه العلوم بها تعرف بالمسيو جومار Jomard أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين أصطحبهم نابليون فى مصر أثناء الحملة الفرنسية[٣٢] . وكان وقتئذ مكلفا من قبل الحكومة الفرنسية إخراج كتاب (تخطيط مصر) الذى وضعه علماء الحملة . فنال لديه عثمان نور الدين مكانة سامية واقترح عليه وهو فى فرنسا أن يرغب إلى محمد على باشا عند عودته لمصر إرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا لتلقى مختلف العلوم والفنون فيها ، وعرض أن يتعهد هذه البعثات بعنايته وإشرافه ، وأن يبذل قصاوى جهده فى تخريج تلاميذها دون مقابل .

فلما عاد عثمان أفندى نور الدين إلى مصر سنة ١٨٢٠ ، رأى محمد على باشا من كفاءته

---

(٣١) انظر موقعها بالخريطة (الطبعة الأولى) .

(٣٢) انظر ترجمته بالجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ص ١٢٦ (الطبعة الأولى) .

ونبوغه ما رغبه فى إرسال طائفة من الشبان إلى أوروبا وعرض عليه هو فكرة المسيو جومار فتلقاها بالقبول والارتياح . وشرع فعلا فى إيفاد البعثات إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ كما سيجىء بيانه

وقد تولى قيادة الأسطول المصرى فى الحرب السورية الأولى ، وخاصة فى حصار عكا كما سبق بيان ذلك فى موضعه (ص ٢٥١ و ٢٨٥ الطبعة السابقة) .

وكان له فضل كبير فى ترقية شأن الأسطول المصرى بما كان يعنى به من تطبيق النظم البحرية الحديثة على شؤونه وحثّ قباطين السفن على تنفيذ أوامره بالدقة حتى ساد النظام فى سفن الأسطول ، وكان يخرج بالسفن الحربية فى الصيف من الميناء لإجراء المناورات وتدريب الجنود والبحارة على الحركات البحرية ، ويتجول مدة ثلاثة أشهر رافعاً عَلم مصر فوق ظهر البحار .

وفى سنة ١٨٣٣ ارتحل محمد على إلى جزيرة كريت لتنظيم الحكم المصرى بها ، وكان فى معيته عثمان نور الدين أميرال الأسطول ، فأقر بالجزيرة عدة إصلاحات إدارية واجتماعية ولكنه اعتزم تجنيد أهلها ، وكان ينوى اتخاذ ميناء (السودة) ثغراً حربياً ليكون قاعدة للأسطول المصرى فى جولاته بالبحر الأبيض . فلم يكد يعود إلى مصر ويذاع فى الجزيرة نبأ العزم على تجنيد الكريتيين حتى شبَّت الثورة بينهم ، وحمل السلاح نحو ستة آلاف من الفلاحين ، وقصدوا إلى حيث كانت الحامية المصرية ترابط فى ثكناتها ، فامتنعت الحامية فى معاقلها وأرسل حاكم الجزيرة (مصطفى باشا الارناؤطى) نبأ الثورة إلى محمد على ، فأنفذ قوة من الجند برئاسة عثمان نور الدين باشا لإخماد الفتنة ، فلجأ عثمان باشا إلى أخذ الثوار باللين ولكنهم أصروا على عنادهم ، فاشتبكوا مع الحامية فى قتال فرقتهم فيه نيران المدافع ، ووقع ثلاثون منهم فى أسر الجيش المصرى ، فارتأى عثمان باشا أن يعفو عنهم أملا فى أن يكسب الثوار ويفلَّ من حدهم ووعدهم بالعفو ، وأرسل يطلب إلى محمد على باشا تعليماته فى هذا الصدد ، ولكن الباشا رفض العفو عنهم وأمر بقتلهم ، فكبر على عثمان باشا أن لا يؤبه لرأيه ويرفض العمل به ، ولم يجد وسيلة يخرج بها من هذا الموقف سوى الاستقالة من خدمة الحكومة ، فارتحل من الجزيرة فى أواخر سنة ١٨٣٣ وكتب إلى بوغوص بك ناظر خارجية مصر ينبئه أنه اعتزل خدمة الباشا ، وذهب إلى جزيرة مدللى ومنها إلى الإستانة ، حيث مات بها بعد قليل ، وقد أرسل محمد على باشا يأمر بإعدام زعماء الفتنة فى كريت وإدخال الشبان من أهلها قهرا فى الخدمة

العسكرية ، فاشتعلت فيها نيران الفتنة ثانيا ، ثم أخمدت سنة ١٨٣٤ ، وبقى الحكم المصرى قائما فيها إلى أن أعيدت الجزيرة للدولة العثمانية بمقتضى معاهدة لندره سنة ١٨٤٠ .

الأميرال مصطفى مطوش باشا

أصله من قوله ، وكان قبودانا فى السفن التجارية ، ولما قدم إلى الديار المصرية استخدمه محمد على باشا فى الدوننمة المصرية ، وكان يثق به ويعرف مقدار معارفه البحرية فجعله وكيلا للدوننمة (فيس أميرال) التى بعث بها لمساعدة الدولة العثمانية فى حرب اليونان ، وحضر واقعة نافارين البحرية ثم عين أميرالا ثانيا للعمارة التى أرسلت لضرب عكا تحت قيادة الأميرال عثمان نور الدين باشا فى الحرب السورية الأولى ، وعين وزيراً للبحرية ، وكان يسمى (ناظر السفائن) ، ثم جعله محمد على باشا قائدا عاما للدوننمة المصرية بدلا من عثمان نور الدين سنة ١٨٣٣ ، وجعل بيسون بك Besson الفرنسى وكيلا له ، وعين مصطفى بك الكريدلى فى وظيفة رياله (أى كنتر أميرال) وقد بقى مطوش باشا رئيسا للدوننمة المصرية إلى أن توفى سنة ١٨٤٣ ، وكان من خيرة قواد البحر الذين زانوا تاريخ البحرية المصرية .

محمد سعيد باشا

ابن محمد على باشا ، وهو الذى ارتقى عرش مصر خلفا لعباس باشا الأول ، وقد خصصه أبوه لتعلم الفنون البحرية ، وهذا يدلك على مبلغ عنايته بالأسطول ، فلما نال حظا من الفنون البحرية (وكان وقتئذ سعيد بك) عينه أبوه معاونا لمطوش باشا « سر عسكر » الدوننمة وناظر البحر ، وأصدر أمره إليه بأن يمتثل لأوامره ويؤدى له التعظيم العسكرى بوصف كونه رئيسا له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على باشا إذ عود أبنائه على احترام النظام الذى هو أساس التقدم والعمران ، وقد جعله أبوه قبودانا للسفينة الحربية (دمنهور) برتبة صاغقول أغاسى ، وجعل فى معيته المسيو كوتليك واليوزباشية عرفان قبودان الذى صار عرفان باشا ، وذو الفقار قبودان (الذى صار ذو الفقار باشا ناظر الخارجية) وسرهنك قبودان والد إسماعيل باشا سرهنك صاحب كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار ، وما زال يرتقى حتى صار قائدا عاما للدوننمة المصرية (سر عسكر) بعد مصطفى مطوش باشا ، وكان فى الوقت نفسه قومندانا

للبارجة (بنى سويف) واحتفظ بمنصب رئاسة الدوننمة فى عهد عباس باشا الأول ، ولكن البحرية المصرية أهمل شأنها وبدأ تقهقرها فى عهد عباس .

إحصاء الأسطول المصرى فى عهد محمد على

لدينا ثلاثة إحصاءات عن سفن الأسطول المصرى تختلف باختلاف مصادرها ، والسنين التى عملت فيها ، وقد رأينا أن نضع أمام القارىء صورة من هذه الإحصاءات الثلاثة لأنها مع تقاربها تدل على التقدم المحسوس فى قوة الأسطول على مرّ السنين .

إحصاء سنة ١٨٣٧ للمسيو مانجان

قال المسيو مانجان[٣٢] إن عدد السفن الحربية المصرية بلغ سنة ١٨٣٧ : ٢٨ سفينة حربية ، منها ١٠ بوارج كبيرة و ٦ فرقاطات و ٤ سفن من نوع الكورفيت و ٨ من نوع الأبريق ، وهاك أسماء السفن التى وردت فى هذا الإحصاء[٣٣] وعددها ٢٤ أما البقية وعددها أربعة فكان العمل لا يزال جاريا لإتمامها وتسليحها .

اسم السفينة	ضباط أركان الحرب	عدد الضباط والجنود والبحارة	عدد المدافع
١ – مصر	٣٣	١١٧٢	١٣٦
٢ – عكا	٣٤	١٢٠٨	١٠٠
٣ – المحلة الكبرى	٣٣	١١٠٢	١٠٠
٤ – المنصورة	٣٣	١١٠٢	١٠٠
٥ – إسكندرية	٣٣	١١٠٢	١٠٠
٦ – أبو قير	٣٢	٨٠٣	٨٤
٧ – رشيد	١٧	٥٢٩	٦٠
٨ – البحيرة	١٧	٥٢٩	٦٠

(٣٢) ج ٣ ص ١٤٤ .

(٣٣) مانجون ج ٣ ص ١٤٤ .

اسم السفينة	ضباط أركان الحرب	عدد الضباط والجنود والبحارة	عدد المدافع
٩ – شير جهاد	١٧	٥٢٩	٦٠
١٠ – كفر الشيخ	١٧	٥٢٩	٦٠
١١ – واسطة جهاد	١٧	٥٢٩	٦٠
١٢ – دمياط	١٧	٥٠٠	٥٢
١٣ – سمندجهاد	١٣	٢٤٢	٢٤
١٤ – طنطا	١٣	٢٥٢	٢٤
١٥ – جناح بحرى	١٣	٢٤٢	٢٢
١٦ – جهاد بيكر	١٢	٢٠٠	٢٠
١٧ – واشنطن	١١	١٧٧	٢٠
١٨ – شاهين دريا	١١	١٧٧	٢٠
١٩ – الصاعقة	١١	١٧٧	٢٠
٢٠ – تمساح	١١	١٧٧	٢٠
٢١ – شاهد جهاد	١١	١٣٨	١٦
٢٢ – شهباز جهاد	١١	١٣٨	١٦
٢٣ – بادئ جهاد	١١	١٣٨	١٦
٢٤ – أمريكان	١١	١٣٨	١٤
	٤٣٩	١١٨٢٠	١٢٠٤

إحصاء سنة ١٨٣٩ للدكتور كلوت بك

وقد أحصى الدكتور كلوت بك عدد السفن الحربية سنة ١٨٣٩ وهى السنة التى وضع فيها كتابه [٣٤] ، وإحصاؤه يختلف قليلا عن إحصاء المسيو مانجان ، وفيه زيادة ظاهرة فى عدد السفن .

(٣٤) طبع الكتاب سنة ١٨٤٠ ، لكن لابد أن يكون قد انتهى المؤلف من تأليفه سنة ١٨٣٩ .

إحصاء إجمالى

فقد ذكر أن الدونَنمة المصرية تتألف من السفن الآتية[٣٥]

١١ بارجة كبيرة

٧ فرقاطات

٥ سفن من طراز الكورفت

٩ من طراز الإبريق

٣٢ قطعة

وأن مجموع جنودها بلغ ١٦٠٠٠ رجل ، وهذا بيان إحصائه لأسماء السفن وعدد رجالها

اسم السفينة	عدد رجالها
١ – مصر	١٠٩٧
٢ – عكا	١١٤٨
٣ – المحلة الكبرى	١٠٣٤
٤ – المنصورة	١٠٣٤
٥ – الإسكندرية	١٠٣٤
٦ – أبو قير	٧٣٦
٧ – رشيد	٥١٠
٨ – البحيرة	٥١٠
٩ – شير جهاد	٥١٠

(كفر الشيخ) غير موجودة فى إحصاء كلوت بك لأنها أسرت أثناء حرب الأناضول سنة ١٨٣٩ إذ أسرتها العمارة التركية فى مياه قبرص .

(واسطةجهاد) غير موجودة فى إحصاء كلوت بك .

اسم السفينة	عدد رجالها
١٠ – دمياط	٤٧٠
١١ – سمندجهاد	٩٧
١٢ – طنطا	١٨٣

---

(٣٥) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣٧٦ (٢٥٢ من الأصل الفرنسى) .

اسم السفينة	عدد رجالها
١٣ – جناح بحرى	١٥٩
١٤ – جهاد بيكر	١٥٩
١٥ – واشنطن	١١٥
١٦ – شاهين دريا	١١٥
١٧ – الصاعقة	١١٥
١٨ – تمساح	٩٧
شاهد جهاد (غير موجودة فى إحصاء كلوت بك)	
١٩ – شهباز جهاد	٩٧
٢٠ – بلنك جهاد	١٥٩
أمريكان (غير موجودة فى إحصاء كلوت بك)	

بيان السفن الواردة فى إحصاء كلوت بك ولم ترد فى إحصاء المسيو مانجان :

٢١ – حمص	١٠٣٤
٢٢ – بيلان	٩٠٠
٢٣ – حلب	١٠٣٤
٢٤ – الفيوم	١٠٣٤
٢٥ – بنى سويف	١٠٣٤
٢٦ – المنوفية	٥٥٨
٢٧ – وابور النيل	١٥٢
٣٨ – دمنهور	٢٦٢
٢٩ – وابور الجوكا	٥٢
٣٠ – الوابور الجديد	٢٧
٣١ – وابور بولاق	١٧
٣٢ – قوطر نمرة ١	٢٩
٣٣ – قوطرة نمرة ٢	٣١
	١٥٥٤٣

إحصاء سنة ١٨٤٣ لإسماعيل باشا سرهنك

وأورد إسماعيل باشا سرهنك (ج ٢ ص ٢٥٣) إحصاء أوفى من الإحصائين المتقدمين يتضمن بيان السفن الحربية فى عهد سرعسكرية سعيد باشا أى سنة ١٨٤٣ ، ومحل إنشائها وتاريخه وأسماء قباطينها وعدد رجالها وعدد مدافعها ومقاساتها وأبعادها ، وقد ذكر أنه أخذ هذا البيان من وثيقة مكتوبة بيد المرحوم حسن باشا الإسكندرانى ناظر ترسانة الإسكندرية وجدها عند ابنه محسن باشا ، وهاك إحصاءه وقد رتبنا أسماء السفن بحسب ترتيب إحصاء مانجان وكلوت بك لسهولة المقابلة .

اسم السفينة	محل إنشائها	اسم قبودانها فى زمن أميرالية سعيد باشا	عدد المدافع	عدد رجالها
١ – مصر	الإسكندرية	شنان قبودان[٣٦]	١٠٦	١٠٩٧
٢ – عكا	»	عثمان بك قاح .	١٠٦	١١٤٨
٣ – المحلة الكبرى	»	بوزجه طه خليل بك	١٠٠	١٠٣٤
٤ – المنصورة	»	طاهر قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٥ – الاسكندرية	الاسكندرية	جركس محمود[٣٧] قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٦ – أبو قير	»	حافظ خليل قبودان	٨٤	٧٣٦
٧ – رشيد	تريستا	السيد على قبودان	٦٠	٥١٠
٨ – البحيرة	»	كاور خورشد قبودان	٦٠	٥١٠
٩ – شير جهاد	ليفورن	نورى قبودان بك	٦٠	٥١٠
(كفر الشيخ (لم ترد فى إحصاء إسماعيل باشا سرهنك لأنها أسرت كما أسلفنا)				
١٠ – واسطة جهاد	جزائر الغرب	دلى محمد خورشد قبودان	٢٨	١٨٦
١١ – دمياط	إسكندرية	محمد هدايت قبودان	٥٦	٤٧٠
١٢ – سمند جهاد	مرسيليا	أحمد شاهين قبودان	٨	٨٩

(٣٦) أحد خريجى البعثات .

(٣٧) لعله محمود نامى بك أحد خريجى البعثات لأنه كان يلقب بجركس وقد ذكرنا فى الفصل الثانى عشر أنه كان محافظا لبيروت سنة ١٨٤٠ فى عهد الحكم المصرى .

اسم السفينة	محل إنشائها	اسم قبودانها فى زمن أميرالية سعيد باشا	عدد المدافع	عدد رجالها
١٣ – طنطا	إسكندرية	دلى خسرو قبودان	٢٨	١٨٦
١٤ – جناح بحرى[٣٨]	جنوه	زينل قبودان	٢٤	١٨٥
١٥ – جهاد بيكر	جنوه	حسن أباظه قبودان	٢٤	١٨٥
واشنطن (غير موجودة فى إحصاء إسماعيل باشا سرهنك)				
١٦ – شاهين دريا (غير موجودة فى إحصاء سرهنك باشا)				
١٧ – صاعقة	ليفورن	طاهر قبودان	٢٤	٧٨
١٨ – تمساح	مارسيليا	غير معروف	١٦	٨٨
١٩ – شاهد جهاد	إسكندرية	ابراهيم قبودان	٢٤	١٨١
٢٠ – شهباز جهاد	مارسيليا	حسن الأرناءود قبودان	١٨	٨٨
٢١ – بادئ جهاد	أمريكا	غير معروف	٢٤	٧٩
أمريكا (غير واردة فى إحصاء إسماعيل باشا).				

السفن الواردة فى إحصاء سرهنك باشا ولم ترد فى إحصاء مانجان ووردت فى إحصاء كلوت بك :

اسم السفينة	محل إنشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجالها
٢٢ – حمص	إسكندرية	عثمان بوتى بك	١٠٠	١٠٣٤
٢٣ – بيلان	»	حسين شرين بك	٨٦	٩٠٠
٢٤ – حلب	»	ازميرلى محمد قبودان	١٠٠	١٠٣٤
٢٥ – الفيوم	»	عبد اللطيف بك	١٠٠	١٠٣٤
٢٦ – بنى سويف	»	الأمير محمد سعيد باشا	١٠٢	١٠٣٤
٢٧ – منوف	»	عثمان بوتى قبودان[٣٩]	٦٤	٥٥٨

(٣٨) كانت معدة لتعليم تلاميذ البحرية .

(٣٩) اسم مكرر فقد ورد أنه قبودان البارحة حمص ، ولعله اسم لعلمين لأنه مذكور بلقب بك بالنسبة لحمص ومن غير هذا اللقب بالنسبة لمنوف .

اسم السفينة	محل إنشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجالها
٢٨ – النيل	إنجلترا	غير معروف	٦	٥٢
٢٩ – دمنهور	إسكندرية	مرجان قبودان	٢٦	١٨٦
٣٠ – غولت جديد (قوطر٢)		سرهنك قبودان	١٢	٥٢
			٥٩٦	٥٨٨٤

السفن الواردة فى إحصاء سرهنك باشا ولم ترد فى إحصاء مانجان ولاڤى كلوت بك :

اسم السفينة	محل إنشائها	اسم قبودانها	عدد المدافع	عدد رجالها
٣١ – الجعفرية	ليفورن	برغمه لى أحمد قبودان	٦٠	٥١٠
٣٢ – رهبر جهاد	مارسيليا	على رشيد قبودان	٣٠	٢٠٠
٣٣ – بومبة	تريستا	بيجان قبودان	٤٥	٣٠٠
٣٤ – بلنك جهاد	مارسيليا	(غير معروف)	٢٤	١٨٥
٣٥ – فوه	إسكندرية	مرجان قبوان	٢٤	١٨٥
٣٦ – ابريق نمرة ٢	أمريكا	الياس قبودان	١٨	٨٩
		المجموع	١٨٥٧	١٦٨٠١

ويتبع هذا الإحصاء ثلاث بواخر وهى الوابور (برواز بحرى) ، والوابور (أسيوط) والوابور (جيلان) .

* * *

الفصل الثانى عشر

التعليم والنهضة العلمية

إذا ذكرت حسنات محمد على كان من أجلّ أعماله توجيهه جزءا كبيرا من جهوده إلى إحياء العلوم والآداب فى مصر، وذلك بنشر المدارس على اختلاف درجاتها، وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، وقد اتبع فى هذا السبيل تلك الفكرة التى اتبعها فى إنشاء الجيش والأسطول، ذلك أنه اقتبس النظم الأوروبية الحديثة فى نشر لواء العلم والعرفان، فأسس المدارس الحديثة، وأخذ من الحضارة الأوروبية خير ما أنتجته العلوم والقرائح، فنهض بالأفكار والعلوم فى مصر نهضة كبرى كانت أساس تقدم مصر العلمى الحديث.

عنى محمد على بنشر التعليم على اختلاف درجاته من عال وثانوى وابتدائى، ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية أنه عنى أولا بتأسيس المدارس العالية وإيفاد البعثات، ثم وجه نظره إلى التعليم الابتدائى، ونعم ما فعل، لأن الأمم إنما تنهض أولا بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية.

وقد أراد بادئ الأمر أن يكوّن طبقة من المتعلمين تعلما عاليا يستعين بهم فى القيام بأعمال الحكومة والعمران فى البلاد، وفى نشر التعليم بين طبقات الشعب، وهذا هو التدبير الذى برهنت التجارب على أنه خير ما تنهض به الأمم، وقد ساعد على تكوين طبقة تعلمت تعلما عاليا قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطاً يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية فى مصر أو فى أوروبا، فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالى.

مدرسة الهندسة بالقلعة

ويبدو لنا أن أول ما فكر فيه محمد على من بين المدارس العالية مدرسة الهندسة، وهذا يدلك على الجانب العملى من تفكيره، فإنه رأى البلاد فى حاجة إلى مهندسين لتعهد أعمال العمران فيها، فبدأ بتعليم الهندسة.

وظاهرٌ مما ذكره الجبرتى فى حوادث ١٢٣١هـ (١٨١٦م) أن أول مدرسة للهندسة بمصر يرجع عهد تأسيسها إلى تلك السنة ، وذلك أن أحد « أبناء البلد » على حد تعبير الجبرتى واسمه حسين شلبى عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدم نموذجها إلى محمد على ، فأعجب بها وأنعم على مخترعها بمكافأة ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة فى دمياط ، وأخرى فى رشيد ، فكان هذا الاختراع باعثا لتوجيه فكره إلى إنشاء مدرسة للهندسة ، فأنشأها فى القلعة .

رواية الجبرتى

قال الجبرتى : « إن الباشا لما رأى هذه « النكتة » من حسين شلبى هذا قال إن فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية (بالقلعة) ورتب فيه جملة من أولاد البلد ، ومماليك الباشا ، وجعل معلمهم حسن أفندى المعروف بالدرويش الموصلى ، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات ، والارتفاعات . واستخرج المجهولات مع مشاركة شخص رومى (تركى) يقال له روح الدين أفندى ، بل وأشخاصا من الأفرنج ، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة ، ورتب لهم شهريات وكساوى فى السنة ، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب ، وسموه مهندسخانة ، فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة ، ثم ينزلون إلى بيوتهم ويخرجون فى بعض الأيام إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضى وقياساتها بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا » .

فهذه بعينها هى مدرسة الهندسة أو المهندسخانة بما فيها من دروس الرياضة والهندسة وما إليها ، وتلاميذها يتعلمون مجانا وترتب لهم رواتب شهرية وكساوى ولها أساتذة من أمثال حسن أفندى الدرويش الموصلى وروح الدين أفندى « بل وأشخاص من الإفرنج » كما يعبر الجبرتى .

وقد دعا الجبرتى إلى الكلام عن هذه المدرسة فى ترجمة حسن أفندى الدرويش المتوفى سنة ١٢٣١ هـ فقال :

« لما رغب الباشا فى إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة تعين المترجم رئيسا ومعلما لمن يكون متعلما بذلك المكتب ، وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك ، ورتب له خروجا وشهرية ونجب تحت يده المماليك فى معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكانا للتعليم ، ويضم إلى مماليكه

من يريد التعلم من أولاد الناس ، فأمر بإنشاء ذلك المكتب وأحضر إليه أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الانجليز وغيرهم ، واستجلب من أولاد البلد ماينيف على الثمانين شخصا من الشبان الذين فيهم قابلية للتعلم ، ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة فى آخر السنة ، فكان يسعى فى تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين أقرانه ، ويواسى من يستحق المواساة ، ويشترى لهم الحمير مساعدة لطلوعهم ونزولهم إلى القلعة ، فيجتمعون للتعليم فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهر ، وأضيف إليه آخر حضر من اسلامبول له معرفة بالحسابيات والهندسيات لتعليم من يكون أعجميا لا يعرف العربية مساعدا للمترجم فى التعليم يسمى روح الدين أفندى ، فاستمر نحوا من تسعة أشهر ومات المترجم وانفرد برياسة المكتب روح الدين أفندى » .

هذا ما ذكره الجبرتى ، ومنه يؤخذ قطعا أن أول مدرسة للهندسة أنشئت سنة ١٨١٦ بالقلعة ، وبذلك تكون هذه المدرسة أول مدرسة عالية أنشئت فى عصر محمد على ، لأن المدارس الأخرى أنشئت بعد ذلك التاريخ ، ويؤخذ من كلام الجبرتى أن التعليم فيها كان مجانيا ، وكانت الحكومة تؤدى رواتب شهرية لتلاميذها ، وكذلك كان شأنها فى كل المدارس التى أنشأتها ، ويفهم أيضاً من كلام الجبرتى أن إنشاء هذه المدرسة راجع إلى ما ظهر من المصريين من المواهب فى الكفاءة والابتكار ، فإن ما رآه محمد على من حسين شلبى إذ وفق إلى هذا الاختراع ، أو « النكتة » كما يقول الجبرتى ، جعله يفكر فى إنشاء المدرسة ، فحسن استعداد المصريين وذكاؤهم الفطرى كانا من أعظم ما حفز همة محمد على إلى إنشاء المدارس فى مصر .

ويحصل من رواية الجبرتى أن مدرسة الهندسة كان بها مدرسون من الإفرنج ، ولعل هذه المدرسة هى التى يشير إليها الأمر الصادر من محمد على باشا بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٠) إلى كتخدا بك بتعيين أحد القسس لإعطاء دروس فى اللغة الطليانية والهندسة لبعض تلامذتها وأن يخصص له محل للتدريس فى القلعة ، وإليها أيضاً يشير الأمر الصادر بتاريخ ١٦ سبتمبر من تلك السنة بتعيين الخواجة قسطى مدرسا بمدرسة المهندسخانة لتدريس الرياضة والرسم بها .

مدرسة المهندسخانة ببولاق

والظاهر أن مدرسة القلعة لم تف على مر السنين بحاجات البلاد إلى المهندسين ، أو أن برنامجها لم يكن وافيا بالمرام ، فأنشأ محمد على فى سنة ١٨٣٤ مدرسة أخرى للمهندسخانة فى بولاق ، وعين أرتين أفندى أحد خريجى البعثات العلمية وكيلا لها ، ثم تولى نظارتها يوسف حاككيان أفندى أحد خريجى البعثات أيضاً ، وفى سنة ١٨٣٨ أسندت نظارتها إلى المسيو لامبير بك لغاية سنة ١٨٤٩ إذ تولاها على مبارك بك (باشا) ، وهذه المدرسة من أجل وأنفع المدارس التى أنشأها محمد على باشا ، ومنها تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة ، ومن أشهر أساتذتها فى ذلك العهد طائل أفندى ، ومحمد بيومى أفندى ، ومحمد بك أبو سن ، ومحمود باشا الفلكى ، ودقلة بك ، وإبراهيم بك رمضان ، وأحمد بك فايد وسلامة باشا .

مدرسة الطب

أسس محمد على مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ إجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك ، وكان مقرها فى أول عهدها بأبى زعبل لوجود المستشفى العسكرى بها من قبل ، فأنشئت المدرسة بالمستشفى إذ كان أليق مكان فى ذلك الحين لإيواء المدرسة لتوافر وسائل التعليم الطبى والتمرين ، والغرض منها تخريج الأطباء المصريين للجيش ، ثم صار الغرض عاما بأن صار الأطباء يؤدون الأعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة .

واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر ، وتولى إدارتها وإدارة المستشفى الدكتور كلوت بك ، فاختار لها طائفة من خيرة الأساتذة الأوروبيين ومعظمهم من الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة ، والأمراض الباطنية ، والمادة الطبية ، وعلم الصحة ، والصيدلة ، والطب الشرعى ، والطبيعة ، والكيمياء ، والنبات ، وكان فيها أساتذة آخرون لتدريس اللغة الفرنسية للتلاميذ الأزهريين .

وقد بذل كلوت بك جهودا صادقة للنهوض بالمدرسة والسير بها إلى ذروة النجاح ، واعترضته صعوبات جمة وأهمها لغة التعليم ، فقد كان المقرر جعل التعليم باللغة العربية ، ولكن الأساتذة كانوا يجهلون تلك اللغة ، فاختير لهم مترجمون يجيدون اللغتين الفرنسية

والعربية ، فكان المدرس يأتى إلى الفرقة ومعه المترجم فيلقى الدرس بالفرنسية وينقله المترجم إلى العربية ، ويكتبه التلاميذ بخطوطهم فى كراريسهم .

ثم صار المترجمون يختارون من بين أوائل تلاميذ المدرسة الذين تعلموا اللغة الفرنسية فى ساعات فراغهم وفى معهد ألحق خصيصا بالمدرسة لتعلم تلك اللغة ، لكن هذا المعهد لم يلبث أن ألغى .

وألحق بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ما تنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة .

وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى من تلاميذها ، فوزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش ، واختير من بينهم المتفوقون على أقرانهم وهم عشرون ، فأبقى منهم ثمانية فى المدرسة فى وظيفة معيدين للدروس ، وأرسل الأثنا عشر الباقون إلى باريس لإتقان علومهم وإتمامها ، فلما عادوا عينوا أساتذة فى المدرسة ، وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة كما سيجىء بيانه .

ذكر المسيو (مالجان) أن عدد تلاميذ مدرسة الطب بلغ (سنة ١٨٣٧) ١٤٠ طالبا و ٥٠ طالبا فى مدرسة الصيدلة ، ووصف مستشفى أبى زعبل ، فقال إنه احتوى ٧٢٠ سريرا ، وأن غرفة منسقة تنسيقا بديعا ، يتخللها الهواء الطلق ، وتسودها النظافة حيث عهد إلى مدرسى مدرسة الطب ملاحظة خدمة المستشفى فجمعوا بين التدريس وملاحظة المستشفى .

ثم نقلت المدرسة ونقل معها المستشفى إلى مصر سنة ١٨٣٧ ، واختير لها (قصر العينى) فصارت المدرسة والمستشفى أقرب إلى القاهرة وأدعى إلى نشر التعليم الطبى ومعالجة المرضى .

مدرسة الصيدلة ومدرسة الولادة

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة ، ثم مدرسة للقابلات والولادة واختيرت لهذه الأخيرة طائفة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن الولادة وألحق بمدرستهن مستشفى صغير للنساء ثم نقلت المدرسة من أبى زعبل إلى القاهرة .

كلوت بك

هو كما ترى صاحب الفضل الكبير على النهضة الطبية الحديثة فى مصر ، ولد فى مدينة جرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين ، ولما ترعرع أكب على الدرس على ما كان فيه من

عوز وفاقة ، وتعلم الطب واضطر أن يشتغل صبيا عند حلاق بمرسيليا ليتابع دروسه ، ولم يزل مكبا على تعلم الطب إلى أن أخذ أجازته وعين طبيبا ثانيا فى مستشفى الصدقة بمرسيليا ، ثم انفصل عن هذا المنصب ، ومارس مهنة الطب فى تلك المدينة إلى أن تعرف إلى تاجر فرنسى كان محمد على عهد إليه بأن يختار له طبيبا للجيش المصرى ، فرغب إليه قبول هذه المهمة فرضى بها وجاء مصر سنة ١٨٢٥ ، وكان على أخلاق فاضلة وعزيمة صادقة ، فعهد إليه محمد على تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصرى المنشأة حوالى سنة ١٨٢٠ [1] ، وجعله رئيس أطباء الجيش ، فعنى بتنظيم هذه الإدارة عناية تامة ، ولما كانت (الخانكة) حين مجيئه إلى مصر مقراً للمعسكر العام للجيش أشار على محمد على باشا بإنشاء مستشفى عسكرى بأبى زعبل بجوار المعسكر العام ، فأنفذ محمد على اقتراحه وأنشأ المستشفى الذى صار فيما بعد مستشفى عاما لمعالجة الجنود وغيرهم ونموذجا للمستشفيات التى أنشئت من بعده ، ثم خطر له أن ينشىء بجوار المستشفى المذكور مدرسة لتخريج الأطباء من أبناء البلاد ، فعمل محمد على باقتراحه وأنشأ بأبى زعبل سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب التى صارت مبعث النهضة الطبية فى مصر ، وتولى كلوت بك إدارتها ثم نقلت المدرسة ومعها المستشفى إلى قصر العينى سنة ١٨٣٧ كما رأيت فى سياق الكلام ، ولكلوت بك كثير من المؤلفات الطبية ترجم معظمها خريجو مدرسة الطب ، وقد أسس مجلسا للصحة على النظام الفرنسى كان له فضل كبير فى النهوض بالحالة الصحية للبلاد وعنى بتنظيم المستشفيات وأنشأ مجلس الصحة البحرى فى الإسكندرية .

وقد بذل جهوداً صادقة فى ترقية حالة البلاد الصحية ومقاومة الأمراض ، وهو الذى أشار باستعمال تطعيم الجدرى لمقاومة انتشار هذا المرض فى القطر المصرى بعد أن كان يودى بحياة نحو ستين ألفا من الأطفال كل عام ، وكافح هو وتلاميذه وباء الكوليرا الذى وقع بمصر سنة ١٨٣٠ ، وقد سر محمد على لما بذله من جهود فى مقاومة هذا الوباء فأنعم عليه بالبكوية فصار يعرف بكلوت بك .

وبذل أيضاً جهوداً كبيرة فى مقاومة الطاعون الذى حل بالبلاد سنة ١٨٣٥ وأنعم عليه لهذه المناسبة برتبة أمير لواء .

ولما تولى عباس باشا الأول اضمحلت مدرسة الطب وعاد كلوت بك إلى فرنسا ، ثم

---

(١) كما ذكر ذلك الدكتور نيرتسوس بك Neroutsous Bey فى كتابه (نظرة تاريخية فى تنظيم الإدارة الصحية بمصر) طبع سنة ١٨٨٠ ص ٣ .

أقفلت المدرسة فى عهد سعيد باشا وانتظم تلاميذها فى سلك الجيش ، غير أن سعيد باشا عاد واعتزم فتحها فاستدعى كلوت بك من فرنسا وأعيد فتح المدرسة سنة ١٨٥٦ باحتفال فخم ، غير أن كلوت بك قد ضعفت صحته فارتحل إلى فرنسا سنة ١٨٥٨ وأقام بها إلى أن وافته منيته فى أغسطس سنة ١٨٦٨ .

مدرسة الألسن

أنشئت سنة ١٨٣٦ مدرسة (الألسن) بالأزبكية (مكان فندق شبرد الآن ١٩٣٠ تاريخ الطبعة الأولى) وهى التى تولى نظارتها رفاعة بك رافع وسيجىء الكلام عنها فى ترجمته

بقية المدارس العالية والخصوصية

مدرسة المعادن بمصر القديمة أسست سنة ١٨٣٤

مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب أسست سنة ١٨٣٧ .

مدرسة الفنون والصنائع (وتسمى مدرسة العمليات) أسست سنة ١٨٣٩ وتولى نظارتها يوسف حككيان بك .

مدرسة الصيدلة بالقلعة أسست سنة ١٨٢٩ .

مدرسة الزراعة بنبروه ، ثم نقلت إلى (شبرا) سنة ١٨٣٦ ، ثم ألغيت سنة ١٨٣٩ .

مدرسة الطب البيطرى ، أنشئت أولا برشيد ثم نقلت إلى أبى زعبل بالقرب من مدرسة الطب ، ثم إلى شبرا وتولى إدارتها المسيو هامون .

المدرسة التجهيزية (الثانوية) بأبى زعبل ، ثم نقلت إلى الأزبكية .

المدرسة التجهيزية بالإسكندرية .

المدارس الحربية والبحرية

تكلمنا عنها فى الفصل العاشر والحادى عشر.

ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية)

لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التى أنشأها محمد على ، واتسع نطاقها رأى أن

ينشىء لها إدارة خاصة سميت (ديوان المدارس) سنة ١٨٣٧ ، وكان موجودا من قبل باسم (مجلس شورى المدارس) ، وقد ساعد على تنظيم هذه الإدارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلى مصر ، فرأى محمد على أن يهيىء لهم الفرصة للانتفاع بمواهبهم فى تنظيم نهضة التعليم فأسس (ديوان المدارس) ، وأسند رياسته إلى أمير اللواء (مصطفى مختار بك) أحد خريجى البعثة الأولى ، فكان هذا الديوان أول وزارة للمعارف فى مصر ، وقد توفى مختار بك سنة ١٨٣٨ وخلفه سنة ١٨٣٩ أمير اللواء أدهم بك (باشا) وهو ذلك الضابط القدير الذى كان مديرا لترسانة القلعة ، وتكلمنا عنه آنفا ، وبقى يتولى هذا المنصب إلى سنة ١٨٤٩ .

وكان لديوان المدارس مجلس مؤلف من مصطفى مختار بك رئيسا ، ومن الأعضاء الآتية أسماؤهم : كلوت بك ، كيانى بك ، أرتين بك ، اسطفان بك ، حككيان بك ، فارين بك ، رفاعة رافع بك ، محمد بيومى أفندى ، لامبير بك ، هامون بك ، دوزول ، وبعض هؤلاء الأعضاء من خريجى البعثات المصرية .

وقد قرر هذا المجلس تنظيم التعليم بالمدارس ، ووضع لائحة لنشر التعليم الابتدائى تشمل ٢٧ مادة ذكر فيها ضرورة إنشاء خمسين مدرسة ابتدائية ، منها ٤ بالقاهرة ، وواحدة بالإسكندرية ، والباقى فى أنحاء القطر المصرى لنشر التعليم بين طبقات الأمة ، وقضت هذه اللائحة بأن يكون عدد التلاميذ بكل مدرسة بمصر والإسكندرية ٢٠٠ تلميذ ، وبكل مدرسة من مدارس الأقاليم ١٠٠ تلميذ .

فديوان المدارس إذن هو مبتكر نظام التعليم الابتدائى فى مصر ، ولذلك يلاحظ أن معظم المدارس الابتدائية (وتسمى مكاتب) أنشئت سنة ١٨٣٧ أو بعدها .

المدارس الابتدائية

وهاك أسماء المدارس الابتدائية التى أنشئت فى عصر محمد على مرتبة بحسب المديريات [٢]

---

(٢) راجع كتاب (التعليم العام فى مصر) ليعقوب أرتين باشا (بالفرنسية) ص ١٧٦ طبعة سنة ١٨٩٠ ، وكتاب (التعليم فى مصر) لأمين سامى باشا ص ٤ ملحق ٥ .

البحيرة

مدرسة الرحمانية ، مدرسة النجيلة وشبراخيت ، مدرسة دمنهور (ثم أحيلت على مدرسة الرحمانية) .

الغربية

مدرسة إبيار ، مدرسة المحلة الكبرى ، مدرسة زفتى ، مدرسة شربين ، مدرسة طنطا ، مدرسة فوه ، مدرسة الجعفرية ، مدرسة نبروه .

المنوفية

مدرسة أشمون جريس ، مدرسة شبين الكوم ، مدرسة منوف (ثم أحيلت على مدرسة أشمون جريس) .

الدقهلية

مدرسة المنصورة ، مدرسة ميت غمر ، مدرسة المنزلة ، مدرسة صهرجت ، مدرسة فارسكور ، مدرسة محلة دمنه .

الشرقية

مدرسة الزقازيق ، مدرسة العزيزية ، مدرسة بلبيس ، مدرسة كفور نجم ، مدرسة ميت العز .

القليوبية

مدرسة بنها ، مدرسة قليوب ، مدرسة الخانكة (ثم نقلت إلى السيدة زينب) مدرسة أبي زعبل ، مدرسة طوخ .

الجيزة

مدرسة حلوان

الفيوم

مدرسة الفيوم

بنى سويف

مدرسة بنى سويف ، مدرسة بوش

المنيا

مدرسة المنيا ، مدرسة الفشن ، مدرسة بنى مزار

أسيوط

مدرسة أسيوط ، مدرسة أبو تيج ، مدرسة الساحل ، مدرسة ساقية موسى ، مدرسة سنبو ، مدرسة ملوى ، مدرسة منفلوط

جرجا

مدرسة أخميم ، مدرسة جرجا ، مدرسة سوهاج ، مدرسة طهطا

قنا وإسنا

مدرسة قامول ، مدرسة قنا ، مدرسة فرشوط ، مدرسة إسنا .

ويلاحظ أن معظم المدارس الابتدائية قد ألغيت فى أواخر عهد محمد على .

وكان التعليم فى المدارس كافة عالية وتجهيزيه وابتدائية مجانيا ، والحكومة تنفق على التلاميذ من مسكن وغذاء وملبس ، وتجرى على كثير منهم الأرزاق والمرتبات ، ولكن لم يكن الأهالى فى بدء افتتاح المدارس راضين عن إدخال أبنائهم فيها ، بل كانوا نافرين منها نفوورهم من الجندية ، فكانت الحكومة تدخلهم المدارس فى غالب الأحيان بالقوة ، ولكن ما لبث الأهلون أن رأوا ثمرات التعليم فكفوا عن المعارضة فى تعليم أبنائهم فى المدارس وأقبلوا عليها .

وذكر كلوت بك [٣] أن عدد التلاميذ بمدارس القطر المصرى قاطبة بلغ على عهد محمد

(٣) ج ٢ ص ٥١٩ .

على ٩٠٠٠ تلميذ ، تتولى الحكومة الإنفاق على تعليمهم وسكناهم وغذائهم وملبسهم ، وتؤدى لهم رواتب ضئيلة .

البعثات العلمية

وجّه محمد على همته إلى إيفاد البعثات المدرسية إلى أوروبا ليتم الشبان المصريون دراستهم فى معاهدها العلمية ، وهذه الفكرة تدل على ناحية من نواحى عبقرية محمد على باشا ، فهو لم يكتف بأن يؤسس المدارس والمعاهد العلمية بمصر ليتلقى فيها المصريون العلوم التى تنهض بالمجتمع المصرى ، بل اعتزم أن ينقل إلى مصر معارف أوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصنائع والفنون فيها ، وأراد أن تضارع مصر أوروبا فى مضمار التقدم العلمى والاجتماعى ، فقصد من إرسال البعثات تكوين فئة من المصريين المثقفين لا يقلون عن أرقى طبقة مهذبة فى أوروبا .

وأراد من جهة أخرى أن تجد مصر من خريجى هذه البعثات كفايتها من المعلمين فى مدارسها العالية ، والقواد والضباط لجيشها وبحريتها ، ومهندسيها والقائمين على شؤون العمران فيها وإدارة حكومتها لكى لا تكون مع الزمن عالة على أوروبا من هذه الناحية .

ولو تأملت مليا فى العصر الذى نشأت فيه هذه الفكرة واختلجت فى نفس محمد على ، لعجبت لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع ، ففى ذلك العصر لم يفكر حاكم شرقى ولا حكومة شرقية فى إيفاد مثل هذه البعثات ، وهذه تركيا وسلطانها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد على ، لم تفكر حينذاك أصلا فى إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوروبية ، فصدور هذه الفكرة فى ذلك العصر وفى الوقت الذى كان محمد على مشغولا فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس يدل حقيقة على عبقرية نادرة وهمة عالية .

الإرساليات الأولى

ابتدأ محمد على يرسل الطلبة المصريين إلى أوروبا حوالى سنة ١٨١٣ وما بعدها ، وأول بلاد اتجه إليها فكره إيطاليا ، فأوفد إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما وغيرها من المدن الايطالية طائفة من الطلبة لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك من الفنون .

وأفراد هذه الرسالة لم يتناولهم الإحصاء الدقيق ، وإنما يعرف منهم (نقولا مسابكى) أفندى الذى أوفده إلى روما وميلانو سنة ١٨١٦ بواسطة المسيو روستى قنصل النمسا فى مصر ليتعلم فن الطباعة وما إليها من سبك الحروف وصنع قوالبها ، فأقام أربع سنوات ثم عاد إلى مصر فتولى إدارة مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ وبقى مديرا لها إلى أن توفى سنة ١٨٣١ .

ثم اتجه نظر الباشا إلى فرنسا فأرسل إليها طائفة من الطلبة

وكذلك أرسل إلى إنجلترا بعض التلاميذ لتلقى فن بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه ، والميكانيكا .

وبلغ عدد هؤلاء جميعا ٢٨ طالبا ، ولم يعرف أفراد هذه الإرساليات ، وإنما عرف من أفراد بعثة فرنسا شاب كان له شأن كبير فى تنظيم البعثات الكبرى التى أخذت تتدفق نحو فرنسا ، وهو عثمان نور الدين أفندى الذى صار أميرالا للأسطول المصرى ، وترجمنا له فى الفصل السابق .

البعثات الكبرى

أرسل محمد على أول بعثة من البعثات الكبرى سنة ١٨٢٦ ، وهى مؤلفة من أربعين تلميذا ، ولحق بهم أربعة تلاميذ آخرون ، فصار عددهم سنة ١٨٢٨ أربعة وأربعين طالبا ، واستمر يرسل الطلاب إلى فرنسا فيضمون إلى البعثة الأولى .

وفى سنة ١٨٤٤ أوفد بعثة كبرى من الطلبة لتلقى العلوم والفنون الحربية مؤلفة من سبعين تلميذا اختارهم القائد سليمان باشا الفرنساوى من بين تلاميذ المدارس المصرية ، ثم لحق بهم غيرهم ، وكان بينهم أربعة من الأمراء ، منهم اثنان من أبناء محمد على وهما الأمير عبد الحليم والأمير حسين ، واثنان من أبناء إبراهيم باشا وهما (الخديوية) إسماعيل والأمير أحمد ، ولهذه البعثة الأخيرة أنشئت المدرسة المصرية المصرية التى تولى إدارتها اسطفان بك واستمرت تؤدى عملها وهو تأهيل الطلبة لإتقان اللغة الفرنسية ومماشاة المدارس العليا بفرنسا ، إلى أن أقفلت سنة ١٨٤٨ (٤) ، وقد أوفد بعثة صغيرة سنة ١٨٤٧ إلى فرنسا من طلبة الأزهر لتلقى علم الحقوق فتعلم هؤلاء جميعا بإرشاد المسيو جومار (٥) وتحت رقابته ، وأرسل غير هؤلاء بعض التلاميذ إلى

(٤) أعيدت فى عهد إسماعيل باشا ثم أقفلت لمناسبة الحرب السبعينية .

(٥) راجع ترجمته بالجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ١٢٦ (الطبعة الأولى) .

إنجلترا والنمسا .

قلنا إن الرسالات الثلاث الأولى لم يتناول الإحصاء الدقيق بيان أعضائها ، ولذلك صار مألوفا تعداد البعثات ابتداء من بعثة سنة ١٨٢٦ ، ويعد العلامة على باشا مبارك بعثة تلك السنة « أول رسالة أرسلت إلى أوروبا من الديار المصرية فى زمن المرحوم العزيز محمد على »(٦) .

عدد طلبة البعثات وما أنفق عليهم

وقد بلغ عدد الطلبة جميعا الذين أوفدهم محمد على إلى أوروبا من سنة ١٨١٣ إلى سنة ١٨٤٧ — ٣١٩ تلميذا ، منهم ٢٨ فى الرسالات الثلاث الأولى ابتداء من سنة ١٨١٣ إلى سنة ١٨٢٥ و ٢٩١ فى البعثات الكبرى ابتداء من سنة ١٨٢٦ ، فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذا وهو عدد عظيمٌ إذا قيس بدرجة الثقافة التى بلغتها مصر فى ذلك العصر ، وعظيم فى نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط فى نهضة مصر الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية .

وكما أن عدد تلاميذ هذه البعثات مما يسترعى النظر فإنه مما يحسن معرفته مبلغ النفقات التى تكلفتها ، فقد دل الإحصاء على أنها بلغت ٣٠٣٣٦٠ من الجنيهات . من ذلك ٣٠٠٠٠ قيمة ما أنفق على الرسالات الأولى و ٢٧٣٣٦٠ قيمة ما أنفق على البعثات الكبرى التى أرسلت من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٤٧ ، بما فى ذلك نفقة الأمراء أنجال محمد على باشا وأحفاده ممن التحقوا بالبعثة الخامسة ، وهو مبلغ ضئيل بالنسبة للخيرات التى نالتها مصر على أيدى خريجى تلك البعثات .

عناية محمد على بأعضاء البعثات ونموذج من رسائله إليهم

وكان محمد على شديد العناية والاهتمام بأعضاء البعثات ، يتقصّى أنباءهم ويتتبع أحوالهم ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد وينبههم إلى واجباتهم ، وقد أورد رفاعة بك رافع نموذجا من رسائله ، وهو كتاب بعثه إلى طلبة البعثة الأولى فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ يدلك على مبلغ عنايته بشأنهم وحثه إياهم على الجهد والاجتهاد ، قال فيه ما نصه حرفيا(٧) :

(٦) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٨ .

(٧) نقلا عن « تخليص الأبريز » ص ١٥١ .

« قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ننهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمَّنا غمًّا كثيرا ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته ، فإذا لم تغيروا هذه الباطلة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلوهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة . وتركتم أنفسكم للسفاهة ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ولم يجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم ، فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شهر ما يتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو إما من عدم اعتنائكم ، أو من تشويشكم ، وأى تشويش لكم ، هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرءوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الارادة ، وقد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى إسكندرية بمنه تعالى ، فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه » (٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٥) .

البعثة الأولى

(سنة ١٨٢٦)

أرسلت هذه البعثة إلى فرنسا فى يولية سنة ١٨٢٦ ، وأخذ أعضاؤها ينتظمون فى سلك

المدارس الفرنسية ويتلقون العلوم والفنون بإشراف المسيو جومار ، وكان عدد البعثة أول ما أرسلت أربعين تلميذا ، ثم لحق بهم أربعة آخرون فصار عددهم ٤٤ طالبا .

رجع منهم خمسة قبل إتمام دروسهم لضعف صحتهم أو نقص كفاءتهم ، ووزع الباقون على مختلف العلوم والفنون ، وقد أحصاهم المسيو جومار فى رسالته المنشورة بالمجلة الآسيوية Journal Asiatique [٨] وعنه نقلنا أسماءهم .

وسنذكر هنا عددهم وبيان أسمائهم والفروع التى تخصصوا فيها والألقاب التى حازوها فى المناصب التى تقلدوها بعد تخرجهم من البعثات .

٤ – لدراسة الإدارة الملكية أو الحقوق

عبدى شكرى (باشا)*	أرتين (بك)*
سليم أفندى	محمد خسرو أفندى

٤ – لدراسة الفنون الحربية والإدارة العسكرية

مصطفى مختار (بك)*	راشد أفندى
أحمد (بك)*	سليمان أفندى

٢ – للعلوم السياسية

اسطفان (بك)*	خسرو أفندى

٣ – للملاحة والفنون البحرية

حسن (باشا) الإسكندرانى*	محمود نامى (بك)*
محمد شنان (بك)*	

(٨) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩ .

* هذه العلامة تدل على أنه سيرد الكلام عن ترجمة صاحب الاسم

٣ – للهندسة الحربية

محمد مظهر (باشا) * سليمان أفندى البحيرى
على أفندى

٢ – للمدفعية

عمر أفندى سليمان لاظ أفندى

٢ – للطب والجراحة

على هيبة * الشيخ محمد الدشطوطى

٢ – للزراعة

يوسف أفندى * خليل محمود أفندى

٣ – للتاريخ الطبيعى والمعادن

على حسين أفندى وأحمد النجدلى أفندى وأحمد أفندى

٢ – لهندسة الرى

مصطفى بهجت (باشا) المعروف أصلا بمصطفى محرمجى أفندى * محمد بيومى أفندى *

١ – للميكانيكا

الشيخ أحمد العطار

١ – إمام البعثة

الشيخ رفاعة (بك) رافع الذى صار أنبه رجال البعثة ذكرا وأرفعهم شأنا

٢ – لصنع الأسلحة وصب المدافع

أمين (بك) الكرجى * أحمد حسن حنفى

٢ – للطباعة والحفر

حسن أفندى الوردانى * محمد أسعد أفندى

٤ – للكيمياء

عمر الكومى أحمد يوسف * أحمد شعبان يوسف العياضى

٢ – بدون تخصيص

أمين أفندى أحمد أفندى

٢ – سافروا إلى مرسيليا وطولون

حسين أفندى قاسم الجندى

٣ – عادوا لمصر لأسباب صحية، أو لعدم أهليتهم

الشيخ محمد الرقيق إبراهيم وهبه الشيخ العلوى[٩]

البعثة الثانية

(سنة ١٨٢٨)

أرسلتها الحكومة إلى فرنسا أواخر سنة ١٨٢٨ ، وكانت مؤلفة من ٢٤ تلميذا تخصص معظمهم فى الهندسة والرياضيات ، وتخصص بعضهم فى الطبيعيات وبعضهم فى الحربية أو العلوم السياسية أو الطب .

وهاك أسماء من تناولهم الإحصاء :

(٩) كما وردت أسماؤهم فى رسالة للمسيو جومار ص ١١٢ عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ من المجلة الآسيوية .

٤ – للهندسة والرياضيات

إبراهيم رمضان (بك) * أحمد دقلة (بك) * أحمد طائل أفندى
أحمد فايد (باشا) *

١ – للطبيعيات

حسنين أفندى على البقلى *

٢ – للإدارة الملكية

حسن جركس أفندى حسين جركس أفندى

٢ – للحربية

خليل جراكيان أفندى (عين وكيلا للمدرسة المصرية التى أنشئت للبعثة الخامسة بباريس) . عثمان نورى أفندى .

١ – للعلوم السياسية

عابدين أفندى (توفى أثناء تعلمه)

١ – للطب والترجمة

محمد أفندى عبد الفتاح *

٢ – واحد من الأحباش وهو واوى بن كلهو ، وواحد من أمراء السودان وهو سلطان أبو مدين .

البعثة الثالثة

(سنة ١٨٢٩)

هذه البعثة تغلب عليها الصبغة الصناعية ، فمعظم أفرادها أرسلوا للتخصص فى مختلف

الصناعات ، ذلك حين اتجهت عزيمة محمد على إلى إنشاء الصناعات الكبرى واقتباس العلوم والفنون الخاصة بالصناعة من المعاهد الأوروبية .

أرسلت الحكومة هذه البعثة سنة ١٨٢٩ ، وهى مؤلفة من ثمانية وخمسين تلميذا ، أرسلوا إلى فرنسا والنمسا والجلترا ، وهاك توزيعهم بحسب الفروع التى تخصصوا لها كما ورد فى (الوقائع المصرية) عدد ٧٣[١٠] :

التلاميذ الذين أرسلوا إلى فرنسا وعددهم ٣٤

٢ – لتعلم صناعة بصم الشيت .
٢ – لتعلم الرىّ .
٢ – لتعلم صناعة الصياغة والجواهر .
٢ – لتعلم صناعة نسيج الأقمشة الحريرية .
٢ – لتعلم صناعة صبغ الأجواخ .
٢ – لتعلم صناعة صنع السيوف .
٢ – لتعلم صناعة البنادق والطبنجات .
٢ – لتعلم صناعة إنشاء السفن .
٢ – لتعلم صناعة الأجواخ .
٢ – لتعلم صناعة الآلات الجراحية .
٢ – لتعلم صناعة الساعات .
٢ – لتعلم صناعة شمع العسل .
٢ – لتعلم صناعة النقش والدهان[١١] .
٢ – لتعلم صناعة السراجة (السروجية) .
٢ – لتعلم صناعة الشيلان .
٢ – لتعلم صناعة الأحذية .
٢ – لتعلم صناعة شمع الأختام .

التلاميذ الذين أرسلوا إلى فينا وعددهم ٤

٤ – لتعلم صناعة نسيج الأجواخ والأكسية المعروفة بالعباءات .

التلاميذ الذين أرسلوا إلى الجلترا وعددهم ٢٠

٢ – لتعلم صناعة آلات البوصلة وميزان الهواء والنظارات ومقاييس الأبعاد وآلات الدوائر المنعكسة وغير ذلك من الآلات الفلكية .

٢ – لتعلم صناعة الآلات الهندسية .
٢ – لتعلم صناعة التنجيد والفراشة .

---

(١٠) الصادر فى ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ (١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٩) ولم تذكر أسماؤهم فيه .

(١١) هما محمد أفندى مراد ومحمد أفندى إسماعيل وقد تكلمنا عنهما فى تراجم نوابغ البعثات .

١٠ – لتعلم صناعة الميكانيكا .   ٢ – لتعلم صناعة الصينى والفخار .

٢ – لتعلم صناعة صب المدافع والقنابل وما يتبعها .

٨٥

وقد أرسل طلبة هذه البعثة إلى أوروبا بمعرفة بوغوص بك وزير التجارة والشئون الخارجية .

وقد لحق بالتلاميذ العشرين الذين أرسلوا من هذه البعثة إلى انجلترا طلبة آخرون منهم :

٣ – لتعلم الفنون البحرية وهم :

عبد الحميد (بك) الديار بكرى * يوسف اكاه أفندى * عبد الكريم أفندى *

١ – لتعلم صناعة بناء السفن وهو :

محمد راغب (بك) *

١ – للهندسة وهو :

يوسف حككيان (بك) .

١ – لتعلم صناعة السجاجيد وهو :   إسماعيل حنفى أفندى

البعثة الرابعة أو البعثة الطبية الكبرى

(سنة ١٨٣٢)

عدد أعضائها اثنا عشر تلميذا ، وقد نبغ معظمهم وخلدوا أسماءهم بما قاموا به من جلائل الأعمال ، وتجلى نبوغهم فى نشر العلوم الطبية فى مصر ، وخاصة بمدرسة الطب تدريسا وترجمة وتأليفا ، وفى الاضطلاع بالأعمال الصحية فى البلاد .

وهم من أوائل خريجى مدرسة الطب المصرية بأبى زعبل ، فكانوا باكورة ثمرتها ، واختارهم الدكتور كلوت بك ليتمموا علومهم فى باريس ، حتى إذا عادوا عينوا أساتذة فى مدرسة الطب ، قال كلوت بك فى هذا الصدد :

« وكان هذا هو الغرض الذى أقصده ، إذ كان من الواجب لإقامة علم الطب فى مصر على دعائم ثابتة وطيدة من صبغه بالصبغة المصرية ، وهو مالم يكن متيسرا إلا بتكوين أساتذة من المصريين يلقون الدروس من غير حاجة إلى مساعدة المترجمين ثم أننى أردت بإرسال الاثنى عشر طالبا إلى باريس لإتمام علومهم فيها أن أبين الدرجة التى وصلوا إليها من التعلم فى مدرسة أبى زعبل ، وأن أدحض ما تذرع به الوشاة والقادحون من الأكاذيب والتخرصات لذم هذه المدرسة والحط من قدرها ، وقد كان من حسن الحظ أن أقام أولئك التلاميذ فى امتحانهم فى اللغة الفرنسية أمام الأكاديمية الباريسية الدليل على حذقهم وتفوقهم حتى استحقوا أن ينالوا لقب الدكتوراه من جامعة الطب بباريس »(١٢) .

وهاك أسماءهم ، وسنترجم لبعض النابغين فيمايلى :

١ – محمد على (باشا) البقلى *	٢ – إبراهيم النبراوى (بك) *
٣ – محمد الشافعى (بك)	٤ – محمد الشباسى (بك) *
٥ – مصطفى السبكى (بك) *	٦ – أحمد حسن الرشيدى (بك) .
٧ – عيسوى أفندى النحراوى *	٨ – الشيخ حسين غانم الرشيدى *
٩ – محمد أفندى السكرى	١٠ – حسين الهياوى أفندى
١١ – محمد منصور أفندى	١٢ – أحمد نجيب أفندى

البعثة الخامسة

(سنة ١٨٤٤)

هى أكبر البعثات التى أرسلت إلى فرنسا وأعظمها شأنا ، وهى آخر بعثة كبرى أوفدها محمد على باشا ، وكان فيها بعض أنجاله وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك فى بعض المواطن (بعثة الأنجال) .

وقد انتخب القائد سليمان باشا الفرنساوى تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية بمصر ، وانتظم فى سلكها بعض المعلمين والموظفين .

قال على باشا مبارك – وكان أحد أعضاء هذه البعثة – يصف تأليفها وسفرها وابتداء عهدها بالدراسة فى فرنسا :

(١٢) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٢٣ .

« وفى سنة ١٢٦٠ انتخب سبعة من متقدمى الفرقة الأولى من مدرسة المهندسخانة ببولاق للسفر مع أنجال العزيز محمد على باشا إلى بلاد فرنسا لتعلم العلوم العسكرية ، فكنت أنا من جملتهم ، وكذلك أخذ من غير هذه المدرسة كمدرسة الطوبجية بطره ، ومدرسة السوارى (الفرسان) بالجيزة ، والمكتب العالى بالخانقاه ، ومدرسة الألسن بالأزبكية ، غير من طلب التوجه برغبته من الدواوين (موظفى الحكومة) وخلافها ، فسافرنا ، وأفرد لنا محل مخصوص بباريس ومن يلزم من الضباط والمعلمين ، فأقمنا فيه جميعا ، وبعد سنتين انتقل المتقدمون منا فى العلوم إلى المدارس الخصوصية »[13]

وقال فى موضع آخر : « فى سنة ١٢٦٠ عزم العزيز (محمد على) على إرسال أنجاله الكرام إلى مملكة فرنسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم ، وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنساوى إلى المهندسخانة فانتخب عدة من تلامذتها ، فكنت فيهم ، وكان ناظرها يومئذ لامبير بك ، فسافرنا إلى تلك البلاد ، وجعل مرتبى كل شهر مائتين وخمسين قرشا ماهية كرفقتى ، فجعلت نصفها لأهلى يصرف لهم من مصر كل شهر ، وكانت هذه سنّتى معهم منذ دخلت المدارس ، فأقمنا جميعا بباريس سنتين فى بيت واحد مختص بنا ، ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس ، والضباط والناظر من جهادية الفرنساوية لأن رسالتنا كانت عسكرية ، وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم[14] » .

فالبعثة كما ترى كان الغرض منها تخصيص أعضائها فى العلوم الحربية ، وعددهم فى مبدئها ٧٠ تلميذا ثم لحق بهم غيرهم ، وقد بلغت نفقات أعضائها ٩٤٦١٥ جنيها وهاك أسماء أنبههم شأنا :

من أنجال محمد على

١ - الأمير عبد الحليم .　　　　الأمير حسين (توفى أثناء تعلمه) .

(١٣) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٠ .

(١٤) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٤٠ .

من أنجال إبراهيم باشا

٣ - الأمير أحمد [١٥]　　٤ - الأمير إسماعيل (الخديو إسماعيل باشا) *

٥ - الشيخ نصر أبو الوفا (إمام البعثة) وصاحب كتاب (المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية) وكتاب (تسلية المصاب على فراق الأحباب).

بقية من تخصصوا للفنون الحربية :

٦ - محمد شريف (باشا).　　٧ - على مبارك (باشا) *

٨ - على إبراهيم (باشا) *　　٩ - حماد عبد العاطى (باشا) *

١٠ - حسن أفلاطون (باشا)، وكيل وزارة الحربية فى عهد توفيق باشا.

١١ - عثمان صبرى (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٨٩.

١٢ - على شريف (باشا) رئيس مجلس شورى القوانين.

١٣ - أباظة مراد حلمى (باشا)　　١٤ - محمد عارف (باشا).

١٥ - محمد راشد (باشا).　　١٦ - حسن نور الدين (بك) *

١٧ - مصطفى مصطفى مختار أفندى.　　١٨ - عبد الفتاح أفندى.

١٩ - حسين كوجك (باشا) *　　٢٠ - ولى حلمى (بك).

٢١ - سليمان نجاتى (بك) مأمور المدارس الحربية ثم قاض بمحكمة إسكندرية المختلطة ثم وكيل محكمة الإستئناف الأهلية سنة ١٨٨٣.

٢٢ - محمد أفندى.　　٢٣ - محمد شاكر أفندى.

٢٤ - أحمد عجيلة (بك).　　٢٥ - شافعى رحمى (بك).

٢٦ - أحمد راسخ (بك) مدير الوقائع المصرية ثم مستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٦ وتوفى سنة ١٨٨٥.

٢٧ - أحمد أسعد أفندى　　٢٨ - منصور عطيه أفندى

٢٩ - قيصر لى أحمد أفندى　　٣٠ - خليل أفندى

٣٣ - أحمد نجيب (باشا)　　٣٤ - حنفى خند (بك)

---

(١٥) هو أحمد باشا الذى غرق فى حادثة كفر الزيات المشهورة وكان ولى عهد سعيد باشا.

٣٥–شحاته عيسى (بك) ناظر مدرسة أركان الحرب فى عهد اسماعيل باشا

٣٦–فريد أفندى ٣٧–محمد اسماعيل أفندى

٣٨–خورشد أفندى ٣٩–صالح أفندى

٤٠–محمد خفاجى (بك) ٤١–حسين سليمان أفندى

٤٢–كوجك على أفندى ٤٣–حسن شكيب أفندى

٤٤–صادق سليم (بك) ناظر المهندسخانة فى عهد اسماعيل وتوفيق

٤٥–خورشد برتو أفندى

٤٦–أحمد بك السبكى * ٤٧–مصطفى حليم أفندى

٤٨–محمد شوقى أفندى ٤٩–لطفى أفندى

٥٠–سعيد نصر (باشا) رئيس محكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٩٠٣

٥١–أباظه راشد أفندى ٥٢–أحمد حلمى أفندى

٥٣–على فهمى (بك) ٥٤–محمد مصطفى أفندى

٥٥–أحمد خير الله (بك) فيما بعد قاض بالمحكمة المختلطة

٥٦–شاكر أفندى ٥٧–محمد حسن أفندى

من تخصصوا للطب والطبعيات :

٥٨–أحمد ندا (بك) *

٥٩–عبد العزيز الهراوى (باشا) مدير دار الضرب فى عهد إسماعيل باشا .

٦٠–عبد الرحمن الهراوى (بك) مدرس بمدرسة الطب

٦١–إبراهيم السبكى أفندى ٦٢–محمد الفحام أفندى

٦٣–مصطفى الواطى (بك) تخصص لطب الأسنان وبعد عودته ترأس قسم ترجمة الطبيعيات بفروعها فى قلم الترجمة وصار وكيل مدرسة الطب .

٦٤–عثمان إبراهيم أفندى تخصص لطب الأسنان وعهد إلى الاثنين تدريس طب الأسنان فى مدرسة الطب ومعالجة المرضى فى المستشفى

٦٥–محمد أفندى يونس ٦٦–محمد أفندى الشرقاوى

٦٧–بدوى سالم أفندى مدرس الكيمياء والصيدلة بمدرسة الطب

٦٨–حسن بك هاشم
٦٩–محمد إبراهيم أفندى تخصص فى التعدين
٧٠–على عيسى أفندى تخصص فى التعدين
٧١–إبراهيم جركس (بك) مدرس بمدرسة الطب البيطرى
٧٢–عبد الهادى إسماعيل أفندى ناظر مدرسة الطب البيطرى فى عهد الخديوى إسماعيل
٧٣–بترو أفندى

علوم أخرى

٧٤–محمد صادق (باشا) *
٧٥–عبد الله السيد بك *
٧٦–نوبار أفندى (هو غير نوبار باشا الوزير المشهور)
٧٧–بولص لابى أفندى
٧٨–أسطفان خشادور أفندى[١٦]
٧٩–أوهان اسطفان أفندى
٨٠–يوسف اسطفان أفندى
٨١–أرتين خشادور أفندى[١٧]
٨٢–عبد الرحمن محو أفندى
٨٣–حسن الشاذلى أفندى

البعثة السادسة

أرسلت إلى النمسا سنة ١٨٤٥

طب العيون

حسين عوف (باشا) *
إبراهيم دسوقى أفندى *

الكيمياء الصناعية

مصطفى المجدلى (بك) مدرس بمدرسة قصر العينى

(١٦) و(١٧) عين أحدهما مستشارًا لمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٥ وتوفى سنة ١٨٧٦ كما ورد فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة.

البعثة السابعة

(سنة ١٨٤٧)

هى بعثة مؤلفة من خمسة من طلبة الأزهر ، أرسلت إلى فرنسا لتعلم الحقوق والوكالة فى الدعاوى (المحاماة) وقد ذكرت هذه البعثة فى الوقائع المصرية دون بيان أسماء أعضائها .

البعثة الثامنة

(سنة ١٨٤٧)

هى بعثة مؤلفة من واحد وعشرين نجارا أرسلوا إلى إنجلترا على ظهر السفينة الحربية المسماة (الشرقية) التى تم إنشاؤها فى ترسانة الإسكندرية صحبة محمد راغب بك ناظر الترسانة لإتقان فن بناء السفن الحربية ، وقد ذكر إسماعيل باشا سرهنك عن هذه البعثة مايلى[١٨] : « إنه لما أتمت دار الصناعة المصرية بناء الفرقاطة المسماة (الشرقية) سنة ١٨٤٧ صدر أمر الباشا إلى محمد بك راغب الاستانبولى مدير بناء السفن بدار الصناعة بالإسكندرية أن يسافر عليها إلى انجلترا لتصفيحها وتركيب آلاتها البخارية ، وأرسل معه واحدا وعشرين نجارا من نجارى دار الصناعة ليتقنوا فن النجارة هناك مدة وجود الفراطة المذكورة بإنجلترا ثم عادت وعاد معها هو والنجارون فى السنة المذكورة ، وقد ركبت لها آلات بخارية قوة خمسمائة وخمسين حصانا » .

البعثة التاسعة

(سنة ١٨٤٧)

عدد أعضاء هذه البعثة ٢٥ طالبا اختيروا من طلبة مدرسة المهندسخانة المتقدمين لإرسالهم إلى إنجلترا للتخصص فى الميكانيكا وبعضهم إلى فرنسا وإليك أسماءهم :

حسن أفندى ذو الفقار . إسماعيل أرناءوط .

أحمد أفندى المهدى . على صادق (باشا) فيما بعد وزير المالية .

عثمان عرفى (باشا) فيما بعد قاض بمحكمة الإسكندرية المختلطة ثم محافظ الإسكندرية

على أفندى حسن الإسكندرانى . عبد الله أفندى بيروز .

---

(١٨) ج ٢ ص ٥٢٦ .

غانم عبد الرحمن .
إبراهيم سامى (باشا) فيما بعد عضو بقومسيون السكة الحديد .

أحمد طلعت أفندى .
سليمان أفندى سليمان .

عثمان يوسف أفندى .
إسماعيل بوشناق أفندى

سلامه أفندى الباز .
عمر على أفندى .

عثمان القاضى أفندى .
عثمان دكرورى (بك)

على أفندى صالح .
جوده عوض (بك) .

سليمان موسى (بك)

كلاهما تعلم بإنجلترا ووصل الخط التلغرافى على يدهما إلى السودان .

عباس عبد العزيز .
على الفداوى أفندى .

سليمان طه أفندى .
خطاب عبد المغيث أفندى .

عيسى جاهين أفندى .

* * *

تراجم طائفة من أعضاء البعثات
وما أدوا لمصر من خدمات

نذكر هنا تراجم طائفة من أعضاء البعثات ليكون لدينا فكرة عامة عن تاريخهم وشخصياتهم وما أدوا لمصر من جليل الخدمات ، ولسهولة التبويب رتبناهم طوائف بحسب العلوم والفنون التى تخصصوا لها لا بحسب ترتيب البعثات .



رفاعة بك رافع الطهطاوى

زعيم نهضة العالم والأدب فى عصر محمد على

(١٨٠١ - ١٨٧٣)

التاريخ والجغرافيا والأدب :

رفاعة بك رافع الطهطاوى

زعيم نهضة العلم والأدب فى عصر محمد على

(ولد سنة ١٨٠١ وتوفى سنة ١٨٧٣)

مصرىٌّ صميم ، من أقصى الصعيد ، نشأ نشأة عادية من أبوين فقيرين ، قرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم فى عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائه كما صار الكثيرون ، لكنه بذَّ الأقران ، وتفرد بالسبق عليهم ، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب ، ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية ، وروحا متوثبة ، وعزيمة ماضية ، وذكاء حادا ، وشغفا بالعلم ، وإخلاصا للوطن وبنيه ، تهيأت له أسباب الجد والنبوغ فاستوفى علوم الأزهر فى ذلك العصر ، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد على ، وارتحل إلى معاهد العلم فى باريس ، واستروح نسيم الثقافة الأوروبية ، فزادت معارفه ، واتسعت مداركه ، ونفذت بصيرته ، لكنه احتفظ بشخصيته ، واستمسك بدينه وقوميته ، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها ، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة ، مهذب الفؤاد ، ماضى العزيمة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم ، فبرَّ بوعده ووفىٌّ بعهده ، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفا وترجمة وتعليما وتربية ، فملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته ، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر ، وحمل مصباح العلم والعرفان يضىء به أرجاء البلاد ، وينير به البصائر والأذهان ، وظل يحمله نيفا وأربعين سنة ، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية فى عصر محمد على ، وامتدت زعامته إلى عصر إسماعيل ، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى .

فلنستعرض تاريخ تلك الشخصية الكبيرة التى ازدان بها عصر محمد على ، والتى لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية فى تاريخنا الحديث .

نشأته الأولى

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على بن محمد على بن رافع ، يتصل نسبه بمحمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، فهو من نسل الحسين ، وأمه يتصل نسبها بالأنصار .

ولد فى طهطا بمديرية جرجا ، ولذلك سمى الطهطاوى ، وكانت ولادته سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١ ميلادية) .

كان أجداده من ذوى اليسار ، ثم أخنى عليهم الدهر ، فلما ولد المترجم كانت عائلته فى عسر ، فسار به والده إلى (منشأة النيدة) بالقرب من مدينة جرجا ، وأقاما فى بيت قوم كرام من أقاربه يقال لهم بيت أبى قطنة من ذوى اليسار والمجد ، فأقاما هناك ، ثم انتقلا إلى قنا ، ثم إلى فرشوط ، وفى خلال ذلك كان المترجم يحفظ القرآن ، ولما عاد إلى طهطا أتم حفظه ، وأخذ يتلق مبادئ العلوم الفقهية ، فقرأ كثيرا من المتون المتداولة فى ذلك العصر على أخواله وهم بيت علم من الأنصار الخزرجية ، وفيهم جماعة من أفاضل العلماء كالشيخ عبد الصمد الأنصارى والشيخ أبى الحسن الأنصارى ، والشيخ فراج الأنصارى ، والشيخ محمد الأنصارى .

ثم توفى والده فجاء رفاعة إلى القاهرة ، وانتظم فى سلك طلبة الأزهر سنة ١٨١٧م (١٢٣٢هـ) [١٩]

دراسته بالأزهر وميله إلى الأدب

بدت عليه مخايل الذكاء والنباهة من صباه ، وكان محباً للعلم والتحصيل ، ذا عزيمة قوية ، فجاهد فى المطالعة والدرس ، وأخذ العلم عن شيوخ عصره ، وفى جملة من تلق عنهم المترجم الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، فقد أحبه لما آنسه فيه من الذكاء والإكباب

---

(١٩) رجعنا فى هذه البيانات إلى (حلية الزمن) للسيد صالح مجدى بك وهى فى مجموعها لا تختلف عما ذكره على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٣ .

على العلم ، وقربه إليه ، وحفّه برعايته ، وكان الشيخ رفاعه يتردد عليه كثيراً فى منزله ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ .

وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الأعلام ، وامتاز بالتضلع فى الأدب وفنونه والتقدم فى العلوم العصرية [٢٠] ، وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر ، فاقتبس منه المترجم روح العلم والأدب ، فكانت تلك الميزة من أسباب نبوغه ، ذلك أن الأدب قد فتح ذهنه إلى البحث والتفكير وهداه إلى سداد الرأى وحسن الديباجة وسلامة المنطق .

من هنا نشأت ميول رفاعة بك منذ نشأته العلمية إلى العلوم العصرية ، وإلى الأدب والإنشاء ، ويتبين من ذلك فضل الشيخ حسن العطار على المترجم ، فإنه أول من وجّه الفقيد إلى الاغتراف من ينبوع الأدب الفياض ، وقد بادر الشيخ رفاعة إلى الارتواء من منهله العذب ، وهو بعد فى الأزهر ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، ومهر فى فنونه ، وإذا تأملت فى رحلته (تخليص الابريز) وهى أول كتاب ألفه فى باريس ، شهدت فيها ما يدلك على سعة مادته من بدائع الأدب العربى فى النثر والنظم .

والشيخ العطار كما يقول رفاعة بك [٢١] هو الذى أشار عليه قبل رحيله إلى فرنسا أن يدون رحلته فى تلك الأقطار ، فكانت هذه الرحلة (تخليص الإبريز) باكورة مؤلفاته ، فالشيخ العطار كما ترى له يد طولى فى تكوين الفقيد وهو الذى اختاره إماما للبعثة كما سيجىء بيانه .

تدريسه فى الأزهر

لم يمض على المترجم بالأزهر بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء ، وتولى التدريس فيه سنتين ، وكان يتردد بين حين وآخر على طهطا ويلقى بعض الدروس بجامع جده أبى القاسم ، فامتازت دروسه بجاذبية كانت تحببه إلى المستمعين وترغبهم فى الاستزادة من بحر علمه ، وهنا ظهرت خاصية جديدة فى المترجم ، وهى مقدرته ونبوغه فى التعليم والتثقيف ،

---

(٢٠) يقول رفاعه بك عن الشيخ حسن العطار إنه كان له حظ فى العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية وأنه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء ، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع على الكتب المعربة وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية وله بعض تآليف فى الطب وغيره (عن مناهج الألباب المصرية لرفاعة بك ص ٣٧٦ طبعة ثانية) .

(٢١) تخليص الإبريز ص ٣ .

وليس كل عالم ينال هذه الموهبة ، بل هى ميزة تحتاج إلى جاذبية معنوية ، وكفاءة ممتازة ، ومما يذكر عنه أن علماء طهطا شهدوا له بالسبق فى هذا المضمار ، وكانت دروسه تحفل بالسامعين وطلبة العلم .

قال صالح مجدى بك فى هذا الصدد [٢٢] : « وكان رحمه الله حسن الإلقاء ، بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصا بالجم الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب ، سهل التعبير ، مدققا محققا ، قادرا على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب » .

اتصاله بالجيش

قضى الشيخ رفاعة ثمانى سنوات فى الأزهر ، وصنف وألف ودرس وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، وكان إلى ذلك الحين فقيرا رقيق الحال إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من الحلى والعقار ، وكان يستعين على معاشه بإعطاء دروس لحسين بك نجل المرحوم طبوزاوغلى ، وكان كذلك يلقى بعض الدروس بالمدرسة التى أنشأها محمد لاظ اوغلى .

وفى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) عين واعظا وإماما فى أحد ألايات الجيش المصرى النظامى الذى أسسه محمد على ، فانتظم فى سلك ألاى حسن بك المناسترلى ثم انتقل إلى ألاى أحمد بك المنكلى ، وكلاهما من أعظم قواد الجيش المصرى فى عصر محمد على ، وظل الشيخ رفاعة مضطلعا بوظيفة الإمامة من سنة ١٢٤٠ إلى شعبان من السنة التالية .

بدأت حياة المترجم العملية بالتدريس فى الأزهر ، ثم بتقلده وظيفة الإمامة فى الجيش ، فانتقل بذلك من بيئة الأزهر إلى بيئة جديدة ، وهى الجيش النظامى ، ونعتقد أن هذا الانتقال قد أحدث تطورا فى حياته وفى سيرته وذهنيته ، لأنه بدأ يتصل بالحياة العسكرية ، ويألف نظاما لا عهد له به من قبل ، وعيشة فتحت ذهنه إلى نواح جديدة من الحياة

---

(٢٢) فى رسالته (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وهى ترجمة حياة رفاعة بك بقلم السيد صالح مجدى أحد تلاميذه .

والتفكير ، ولابد أن تكون الحياة العسكرية التى اتصل بها عن كثب قد أفادته بما فيها من احترام للنظام ، وتقدير لمزاياه وإيلاف لأوضاعه وإحساس بالدفاع عن الذمار والكفاح فى سبيل الوطن ، ومواجهة للأخطار ، مما يغرس فى النفس روح الوطنية والشجاعة والإقدام .

ويلوح لنا أن هذه المعانى قد انطبعت إلى حد كبير فى نفس المترجم ، فقد عاش طوال عمره ذا أنفة وإباء ، يكره الذل ، ولا يقيم على الضيم ، محبا لبلاده يبذل فى سبيلها راحته ووقته وعلمه وذكاءه ، وعاش كذلك محبا للنظام فى كل عمل تولاه ، فى تلقى العلوم ، وفى التأليف والتعريب ، وفى حسن تنظيم المعاهد التى تولى إدارتها .

انتظامه فى سلك البعثات وحياته فى باريس

ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن توفيق المترجم أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م .

ويقول على باشا مبارك[٢٣] : « إن محمد على باشا طلب إلى الشيخ العطار (شيخ الجامع الأزهر) أن ينتخب من علماء الأزهر إماما للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة » .

فهو إذن لم يكن مرسلا بصفته طالبا ، بل كان إماما للبعثة ، وتقرر له مرتب يوزباشى[٢٤] .

وهنا يبدأ عهد جديد من حياة المترجم ، بل قل إن باب النبوغ قد انفتح أمامه على مصراعيه ، فقد أخذ يستثمر المواهب الدفينة فى نفسه ، وأهمها الذكاء ومضاء العزيمة ، وقوة العارضة ، وسلامة المنطق ، وحب العلم والمثابرة فى الإكباب عليه ، فوصل بجده وذكائه إلى مكانة عالية من العلم والثقافة .

لم يكن مطلوبا من إمام البعثة أن يتعلم « علوم الفرنسيس » وأنظمتهم ، بل يكفيه أن يؤدى وظيفة الإمامة لأعضاء البعثة ، وما إليها من الوعظ والإرشاد .

ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحد منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم فى فرنسا ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاعة فكان ذا نفس طامحة

(٢٣) فى الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

(٢٤) كانت الرتب العسكرية سارية فى السلك المدنى .

إلى العلا ، فأخذ يدرس اللغة الفرنسية ، وعكف عليها من تلقاء نفسه رغبة منه فى تحصيل علومها وآدابها .

ويدلك على مضاء عزيمته وولعه بالدرس أنه – كما يقول عنه على باشا مبارك – « شرع عند ركوب الباخرة من الإسكندرية فى تعلم مبادىء اللغة الفرنسية بهمة عالية وعزيمة صادقة واتخذ له بعد وصوله إلى باريس معلماً خاصاً على نفقته » ، ولما استقر به المقام فى باريس أكبّ على العلوم يغترف من مناهلها ، وتعرف إلى العلماء يقتبس منهم الحكمة والمعرفة ، قال على باشا مبارك : « وما لبث فى هذه البلاد حتى عرفه أعاظم العلماء وأكابرهم ، وكان للعالم المشهور مسيو جوومار عليه فضل التعهد بالإرشاد والتعليم ، والمحبة الخصوصية ، وقد ساعده مساعدات جمة فى هذه البلاد ، وكذلك حاله مع العالم الشهير (المستشرق) البارون دى ساسى ، وفى مدة إقامته بباريز من سنة ١٢٤١ إلى سنة ١٢٤٦ (١٨٢٦ – ١٨٣١) نبغ فى العلوم والمعارف الأجنبية ، وعلى الخصوص فن الترجمة فى سائر العلوم على اختلاف اصطلاحها من حيث الاستعمال والمفردات ، وأكب كل الإكباب على إدامة النظر واستعمال الفكر والحرص على التحصيل والاستفادة »[٢٥] .

ويقول رفاعة بك عن نفسه[٢٦] إنه ابتدأ يتعلم مبادىء الفرنسية وهو فى مارسيليا واستمر فى دراستها بباريس إلى أن تعلمها فى ثلاث سنوات[٢٧] .

وقد اتجهت ميوله إلى دراسة التاريخ والجغرافية ، وكذلك درس الفلسفة والآداب الفرنسية ، فنال حظاً وافراً منها ، وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وراسين ، فاتسعت مداركه وارتقت أفكاره ، ومما ذكره عن مونتسكيو قوله : « وقرأت أيضا مع مسيو شواله جزأين من كتاب يسمى (روح الشرائع) ، مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الأفرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق ، أى منتسكيو الإسلام »[٢٨]

---

(٢٥) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

(٢٦) فى كتابه تخليص الإبريز ص ٣٦ .

(٢٧) تخليص الابريز ص ١٥٨ .

(٢٨) ص ١٦٠ .

وقرأ أيضا بعض الكتب فى علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات ، ومالت نفسه أثناء دراسته بباريس إلى التأليف والتعريب ، فكان ينتهز أوقات فراغه فيعرب ويؤلف ، فوضع رحلته وسماها « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، وعرّب نحو اثنتى عشرة رسالة وهى :

١ – نبذة فى تاريخ الإسكندر الأكبر مأخوذة من تاريخ القدماء .

٢ – كتاب أصول المعادن .

٣ – تقويم سنة ١٢٤٤ من الهجرة ألفه مسيو جومار لاستعمال مصر والشام متضمناً شذرات علمية وتدريبية .

٤ – كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها .

٥ – مقدمة جغرافية طبيعية .

٦ – قطعة من كتاب العلامة ملطبرون فى الجغرافية .

٧ – ثلاث مقالات من كتاب لجندر فى علم الهندسة .

٨ – نبذة فى علم الهيئة .

٩ – قطعة من عمليات الضباط .

١٠ – أصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم .

١١ – نبذة فى الميثولوجيا يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم .

١٢ – نبذة فى علم سياسة الصحة .

وترجم فى باريس كتابه « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » وقد بدأ يترجم جغرافية ملتبرون كما رأيت ضمن رسائله الاثنتى عشرة .

وكان يجتمع بطائفة من العلماء والمستشرقين ، فاقتبس منهم واتصل بهم بصلات الود والصداقة ، وبديهى أن اتصاله بهم يدل على ما جبل عليه من الميل إلى العلم والعلماء والرغبة فى الاستزادة من المعارف ، وقد نشر فى رحلته (تخليص الابريز) رسالتين من المستشرق المشهور البارون سلفستر دى ساسى تدلان على ما ناله من المكانة فى نفسه ، كتب الأولى لمناسبة إهداء المترجم رحلته إليه .

وكتب الثانية قبل أن يغادر رفاعة بك باريس عائدا إلى مصر قال فيها :

« بعد إهداء السلام إلى مسيو رفاعه ، يحصل لى حظ عظيم إذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى فى الساعة ٣ إن أمكنه أن يسرنى برؤيتى له لحظات لطيفة ، ويحصل لى أيضا غاية

الانبساط إذا بعث لى أخباره بعد وصوله إلى القاهرة ، فإذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره وأستنشق أخباره مع انجذاب قلب وانشراح صدر البارون سلفستر دى ساسى » .

فمثل هذه الرسالة لا تكتب للشيخ رفاعة إلا إذا كان قد نال فى نفوس علماء فرنسا مكانة سامية ، وهذه المكانة قد أحرزها بذكائه وإكبابه على العلم ومساجلته العلماء فى مجالسهم ومعاهدهم مما حببه إلى نفوسهم وجعل له عندهم ذلك المقام الممتاز .

مباحثه فى الدستور

قد تعجب أن يكون لرفاعة بك مباحث فى الدستور ، فالمعروف أن هذه المباحث حديثة العهد فى تاريخ مصر القومى ، لكن الواقع أن رفاعة بك هو فيما نعلم أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، ذلك أنه درس أثناء إقامته بباريس نظام الحكم فى فرنسا ، وعرّب فى كتابه (تخليص الابريز) دستور فرنسا فى ذلك الحين [٢٩] وما تضمنته من نظام المجلسين ، واختيار أعضائهما ، وحقوق الأمة أفرادا وجماعات ، وهذا يدلك على ميله الفطرى إلى العلوم السياسية ، ولا يتجه فكر المرء فى ذلك الحين إلى خوض هذه المباحث إلا إذا كان ذا رأس مفكر وقلب يخفق بحب الوطن .

وهو لا يكتفى بالتعريب فحسب ، بل له على مواد الدستور الفرنسى تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه ، وميل فطرى إلى النظم الحرة .

فقد قال تعليقا على نصوص الدستور [٣٠] :

« ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين (البرلمان) وأن ديوان البير [٣١] يمانع عن الملك ، وديوان رُسُل العمالات [٣٢]

(٢٩) هو دستور سنة ١٨١٤ الذى استمر معمولا به إلى سنة ١٨٣٠ .

(٣٠) تخليص الابريز ص ٧٢ .

(٣١) مجلس الشيوخ Chambre des Pairs وقد نقل كلمة بير Pairs الفرنساوية كما هى .

(٣٢) رسل جمع رسول أى نائب ، والعمالات جمع عمالة أى مديرية ، يريد مجلس النواب ويسميهم أحيانا « نواب الرعية » وأيضا « أمناء الرعية » .

يحامى عن الرغبة ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن (سنة ١٨٢٧) ويتخذونه أساساً لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم لويز الثامن عشر ، ولازال متبعاً عندهم ومرضيالهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل » .

وقال فى موضع آخر (ص ٨٠) : « قوله فى المادة الأولى أن سائر الفرنسيس متساوون قدام الشريعة معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع ، لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا إلى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحضرية » .

وقال تعليقا على المادة الثانية الخاصة بالمساواة فى الضرائب :

« وأما المادة الثانية فإنها محض سياسة ، ويمكن أن يقال إن الفِرَد (جمع فِرْدة أى ضريبة) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الإسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس خصوصا إذا كانت الزكوات والفىء والغنيمة لا تفى بحاجة بيت المال ، أوكانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذهب الإمام الأعظم ، ومن الحِكم المقررة عند قدماء الحكماء ، الخراج عمود الملك ، وفى مدة إقامتى بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس والفرد (الضرائب) والجبايات أبداً » .

وقال تعليقا على المادة الثامنة الخاصة بحرية الرأى والنشر : « وأما المادة الثامنة فإنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه ، وسائر ما يخطر بباله ، مما لا يضر غيره ، فيعلم الناس سائر ما فى نفس صاحبه » .

وامتدح الصحافة ، وهو يسمى الصحف (الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات »[٣٣] وقال عنها : « إن الإنسان يعرف فيها سائر الأخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب مالا يحصى إلا أنها ربما تتضمن أخبارا تتشوف نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل

(٣٣) جمع كازيطة مأخوذة من الكلمة الفرنسية Gazette

أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالايخطر ببال العظيم ، ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئاً وكان من الأمور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الإنسان مظلوما من إنسان كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فتعرف قصّية المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل إلى محل الحكم (المحكمة) ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر » .

وقال عن المادة التاسعة (الخاصة بحرمة الأملاك) : « وأما المادة التاسعة فإنها عين العدل والإنصاف ، وهى واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف » .

وقال تعليقا على المادة الخامسة عشرة (التى تنص على أن السلطة يتولاها الملك ومجلسا النواب والشيوخ) : « وفى المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة ، وهى أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الأولى للملك ووزرائه ، والثانية مرتبة البيرية الحامية للملك ، والثالثة مرتبة رسل العمالات ، الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم حتى لا يظلم أحد ، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها بنفسها ، وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة بالكلية » .

ثم ذكر تعديل الدستور الذى أعقب ثورة سنة ١٨٣٠ وأسهب فى الكلام عن تلك الثورة التى شهدها فى باريس ، وظاهر من كلامه مبلغ عطفه على الثورة وقضيتها ، ومما قاله فى هذا الصدد :

« فلما كانت سنة ١٨٣٠ وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، [٣٣] ، منها النهى عن أن يظهر الإنسان رأيه وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة خصوصا للكازيطات (الجرائد) اليومية فإنها لابد لطبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة [٣٤] فلا يظهر فيها إلا ما يريد إظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه عمله إلا بقانون ، والقانون لا يصنع إلا باجتماع آراء ثلاثة ، رأى الملك ، ورأى أهل ديوانى المشورة [٣٥] ، فصنَع الملك وحده مالا

---

(٣٣) هى الأوامر الشهيرة Ordonnances التى أصدرها الملك شارل العاشر وكانت سببا لقيام ثورة سنة ١٨٣٠

(٣٤) الرقيب على الصحف .

(٣٥) البرلمان .

ينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره » .

فهذا كلام يدل على أن صاحبه يفهم روح الدستور والنظم الدستورية حق الفهم ويعرف معنى سلطة الأمة ، ويؤمن بأن الأمة مصدر السلطات .

وأدلّ على ذلك ، رأيه فى موقف الملك شارل العاشر لما قامت الثورة فى باريس قال « فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء الفرنساوية ، مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ، فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحبابا له وللرعية غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكنه أراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قوله بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياة والرفق بـــــالمـذنب والإغضـــــاء
إن لم تُقِل من يُقالُ يُوشِك أن يصيبك الجُهالُ

« فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى إعطاء الحرية ، لأمة بهذه الصفة حَرِيّة ، لما وقع فى مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لاسيا وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها واعتادوا عليها ، وصارت عندهم من الصفات النفسية ، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد أَلِفُوا بها لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيل عندهم وبغيض »[٣٦]

فتأمل فى هذا الكلام ! وتدبر معانيه ، واذكر أنه كتب سنة ١٨٣٠ ، أى منذ مائة سنة ، تجد أنه كلامٌ عليه طابع المبادئ الدستورية العصرية ، تتمشى فيه روح الحرية والديمقراطية ، ولا يصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة والشعور بالحقوق القومية ، ولو لم يكن رفاعة بك بمثل هذه الصفات لما صدر عنه مثل هذا القول ، بل أغلب الظن أنه كان يضرب صفحا عما شاهده فى باريس من ثورة الشعب على الحكم الاستبدادى ، وما كانت هذه الثورة تترك فى

(٣٦) تخليص الابريز ص ١٧٢ .

نفسه من أثر سوى استنكار قيام الرعية على ولى الأمر ، ولكن روح رفاعة كانت روحا حرة متطلعة إلى المثل العليا ، فى العلم ، والأخلاق ، والسياسة ، فلا غرو أن صادفت مبادئ حقوق الشعب موضع الإقناع من نفسه .

وتأمل فيما ذكره المترجم عن الجنرال لافابيت أحد زعماء الثورة ، تجده يقول :

« وفى اليوم التاسع والعشرين فى الصباح ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا فى أيديهم قصر طويلرى ولوور فملكوهما ، ونشروا عليهما بيرق الحرية فلما سمع بذلك سر عسكر (قائد الجند) المأمور بإدخال أهل باريس فى طاعة السلطان (الملك شارل العاشر) رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى أن العساكر دخلت تحت بيرق الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت عسكر المسمى لافيته ، وهو الذى قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا[٣٧] ، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ، ويحامى عنها ويعظَّم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى البوليتيقة (السياسية) » .

فرفاعة بك يمجد فى الجنرال لافابيت دفاعه عن الحرية ، وثباته على مبدئه السياسى ، وعدم تقلبه مع الأهواء ، وهى محامد وصفات اشتهر بها لافابيت فى كل أدوار جهاده ، فوصل بذلك إلى المنزلة السامية التى نالها ، وصار كما يقول المترجم يكرم ويعظم كما يعظم الملوك ، وهذا من أبدع ما يقال فى تمجيد الوطنية الصادقة والجهاد الخالص لوجه الله والوطن .

وقد ظل رفاعة بك بعد عودته إلى مصر متأثراً بالتعاليم الدستورية التى تلقاها فى باريس ، وحسبك دليلا على بقائه محتفظا بتلك المبادئ السامية على مدى السنين أنه عدَّ أكبر عمل للخديو إسماعيل إنشاءه مجلس شورى النواب[٣٨] فقد قال عنه فى معرض الثناء عليه : « ولو لم يكن له من المآثر إلا كونه حمل الأهالى على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوى فكرة ألمعية ، ليتذاكروا فى شأن مصالحهم[٣٩] المرعية ، لكفاه ذلك شرفا ومجدا ، وعزا وسعدا حيث صار

---

(٣٧) يريد الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٩٨ .

(٣٨) سنة ١٨٦٦ .

(٣٩) أى مصالح الأهالى .

مستوليا على أمة حرة الرأى ، باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لأجلهم (٤٠)

عودته إلى مصر

عاد رفاعة بك إلى مصر سنة ١٨٣١ ، فكأنه قضى فى باريس نحو ست سنوات مكبا على الدرس والتحصيل ، يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ، ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ، وينعم النظر فى أحوال الشعوب الأوروبية وتاريخها وأسباب حضارتها وتقدمها ، واستقر عزمه وهو فى باريس على أن يخدم بلاده من طريق نقل علوم الإفرنج إلى مواطنيه ، فتتسع مداركهم ، وتسمو أفكارهم ، ويسلكون سبيل الشعوب التى هذبها العلم والعرفان ، ومالت نفسه إلى التعريب آخذا بنهج الدولة العباسية ، إذ بدأت نهضة العلوم والمعارف فى عهدها بترجمة كتب اليونان إلى اللغة العربية ، قال فى هذا الصدد وهو بعد فى باريس : « وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى وبهمة صاحب السعادة محب العلوم والفنون حتى تعد دولته من الأزمنة التى تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة فى مصر مثل تجددها فى زمن خلفاء بغداد » (٤١)

ولقد بر بوعده ، فملأ البلاد علما وحكمة ، وحمل لواء النهضة العلمية وخدمها بتآليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يده فى مدرسة الألسن وغيرها .

أعماله بعد عودته

كانت البلاد عند عودة رفاعة بك فى حاجة إلى التعريب لنقل العلوم الأوروبية إلى لغة البلاد ، فتولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب بأبى زعبل .

وفى سنة ١٨٣٣م (سنة ١٢٤٩هـ) انتقل من مدرسة الطب إلى المدفعية (الطوبجية) بطره ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ، وله فيها رسالة مترجمة فى الهندسة العادية ، وهى من الرسائل التى كانت تدرس فى المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا .

وفى غضون ذلك وقع وباء بالقاهرة سنة ١٢٠٠ فسافر إلى طهطا وترجم بها مجلدا من

(٤٠) مناهج الألباب المصرية ص ٣٢٣ طبعة ثانية .

(٤١) تخليص الابريز ص ٢٠١ .

جغرافية ملتبرون التى بدأ بتعريبها فى باريس ، ثم عاد به إلى القاهرة وقدمه إلى محمد على فنال إعجابه ، وأجزل له العطاء ، وأنعم عليه برتبة صاغ قول أغاسى واستمر بمدرسة طره إلى سنة ١٢٥١ .

مدرسة الألسن

ثم رأى المترجم أن البلاد فى حاجة إلى طبقة من العلماء الأكفاء فى الآداب العربية وفى آداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأفرنكية وخاصة الفرنسية وليكونوا صلة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وينهضوا بالأداة الحكومية فى المناصب التى تعهد إليهم ، فاقترح على محمد على باشا إنشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد على أنه يحسن تقدير الاقتراحات والآراء السديدة التى تعود على البلاد بالخير والتقدم ، فبادر إلى إنفاذ الاقتراح وأنشأ مدرسة الألسن بالقاهرة سنة ١٨٣٦ ، واختار لها سراى الألفى بالأزبكية بجوار قصر زينب هانم كريمة محمد على (حيث فندق شبرد) ، وهذا يدلك على مبلغ عنايته بشأنها ، وكانت تعرف حين إنشائها بمدرسة الترجمة ، ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن ، وعهد بنظارتها فى السنة التالية إلى الشيخ رفاعة ، وهنا تهيأت فرصة جديدة لظهور نبوغ المترجم كعالم محقق ، ورئيس قدير ، ومعلم كفء ، ومربٍّ لا يشق له غبار ، فلقد قام بإدارة تلك المدرسة خير قيام ، واختار لها التلاميذ من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر ، فبلغ عددهم فى بداءة عهدها خمسين تلميذا ، ثم زاد حتى صار ١٥٠ ، وعُنى بتثقيفهم وتنشئتهم النشأة الصالحة حتى تخرج منها نخبة من العلماء والشعراء والأدباء ممن ازدان بهم تاريخ النهضة العلمية والأدبية .

كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهى أشبه ما تكون بكلية للآداب والحقوق فلا غرو أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر .

وكان رفاعة بك يتولى التدريس فيها بنفسه ، يعاونه طائفة من خيرة المصريين والأجانب ، ذكر على باشا مبارك من أساتذتها الوطنيين الشيخ محمد الدمنهورى ، والشيخ على الفرغلى الأنصارى (ابن خال رفاعة بك) ، والشيخ حسنين حريز الغمراوى ، والشيخ محمد قطة

العدوى . والشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، والشيخ عبد المنعم الجرجاوى ، وكلهم من علماء ذلك العصر .

واشتهر رفاعة بك بغيرته على تثقيف تلاميذ المدرسة بلا كلل ولا هوادة ، وكان فى بعض الأحيان كما يقول على باشا مبارك « يمكث نحو ثلاث ساعات أو أربع ساعات يلقى الدروس واقفا على قدميه فى دروس اللغة أو فنون الإدارة أو الشرائع الإسلامية والأجنبية ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس فنون الآداب العالية » .

وأحيل عليه فى سنة ١٢٥٧هـ علاوة على نظارة مدرسة الألسن نظارة المدرسة التجهيزية التى كانت بأبى زعبل ثم نقلت إلى الأزبكية وألحقت بمدرسة الألسن ، وأساتذتها من تلاميذ هذه المدرسة ، ومعهد للفقه والشريعة الإسلامية ، ومدرسة محاسبة ، ومدرسة إدارة أفرنجية ، فكان رفاعه بك يدير هذه المعاهد مجتمعة ، أى أنه كان بمثابة مدير جامعة ، وأحيل عليه تفتيش مدارس الأقاليم ، وأسندت إليه وقتا ما رئاسة تحرير (الوقائع المصرية) .

وفى سنة ١٢٥٨هـ شكل قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن ونال المترجم بعد سنة ونصف من إنشاء هذا القلم رتبة القائمقام ، ونال سنة ١٢٦٢هـ رتبة أميرالاى لمناسبة انتهائه من ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون ، فصار يدعى رفاعة بك بعد أن كان الشيخ رفاعة ، وكانت هذه الرتب بمثابة مكافأة معنوية له على ما أداه من الخدمات فى المناصب التى عهدت إليه ، كما أنها دليل على حسن تقدير الحكومة فى ذلك العصر للعلماء العاملين ، وتشجيعهم على متابعة جهودهم وأبحاثهم ، ومن الحق أن نقول إن تنشيط الحكومة لرفاعة بك كان له دخل فى وفرة إنتاجه العلمى ، فقد كان موضع رعاية ولاة الأمور ومعاونتهم ، فأنعم عليه محمد على بـ ٢٥٠ فدانا ، وأقطعه إبراهيم باشا « حديقة نادرة المثال فى الخانقاه تبلغ ٣٦ فدانا » على ما يقول على باشا مبارك[٤٢] ، وأنعم عليه سعيد باشا بمائتى فدان ، وإسماعيل باشا بـ ٢٥٠ فدانا ، فيكون مجموع ذلك نحو ٧٠٠ فدان ، ولا شك أن هذه الإنعامات الكبيرة من الوسائل التى تنهض بدولة العلم والأدب .

رفاعة بك فى منفاه بالخرطوم

لم يزل رفاعة بك ناظرا لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة إلى أن أقفلت فى عهد عباس

(٤٢) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

باشا الأول سنة ١٨٥١ ، ولم يكتف عباس بإقفالها بل أمر بإرسال رفاعه بك إلى السودان بحجة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بإنشائها فى الخرطوم .

وغريب أن عباس باشا الذى يقفل المدارس فى القطر المصرى يعنى بإنشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، نعم إن فتح المدارس فى السودان قاطبة أمر مطلوب ومرغوب فيه لذاته ، لما السودان إلا جزء من مصر ، ونشر لواء العلم والمعارف فى أنحائه واجب على الحكومة ، ولكن إقفال المدارس فى مصر ينم على محاربة عباس باشا للعلم والتعليم ، فكيف هذه النزعة مع التفكير فى فتح مدرسة ابتدائية بالخرطوم يرسل إليها جماعة من أركان النهضة العلمية فى مصر وعلى رأسهم زعيم هذه النهضة رفاعة بك ، وفيهم محمد بيومى أفندى كبير أساتذة الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة ، وقد توفى فى منفاه بالخرطوم ، وأحمد طائل أفندى أستاذ الرياضيات ، وغيرهم ، ولا يقبل المنطق أن يكون الغرض من إرسال هؤلاء الأقطاب إلى السودان نشر العلم فى ربوعه ، إذ لو كان يقصد خدمة العلم بإنشاء « مدرسة ابتدائية بالخرطوم » لما كان معقولا أن يقع الاختيار على كبير علماء مصر فى ذلك العصر ليتولى نظارتها ، ولا أن يعهد بتدريس الحساب فيها إلى كبير علماء الرياضيات بين أساتذة مدرسة المهندسخانة ، فلابد أن يكون للأمر سر آخر غير الرغبة فى إنشاء المعاهد العلمية .

وقد يكون سره الحقيقى رغبة عباس باشا فى إقصاء علماء مصر إلى السودان ، فكما أنه أقفل مدارس مصر تراءى له أن يبعد عنها علماءها الأعلام ، وقد وشى له فى حق رفاعة بك فاتسع صدره للوشاية ، ولم ير وسيلة للتخلص من رفاعة بك إلا إرساله إلى السودان ، وكان الذهاب إلى السودان فى ذلك العصر يعد نفيا مقصودا به العقاب والقصاص ، وخاصة لمن كان فى منزلة رفاعة بك ، ولم أتبين ماهية هذه الوشاية من أقوال من ترجموا له[٤٣] ، أما رفاعة بك ذاته فلم يزد فى هذا الصدد عن قوله : « وفى سنة ١٢٦٧ كنت سافرت إلى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين[٤٤] » .

---

(٤٣) ترجم له من المتقدمين على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٣ ، وصالح مجدى بك فى رسالته حلية الزمن بمناقب خادم الوطن ، ومن المعاصرين جرجى زيدان بك فى كتابه (تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر) ج ٢ ص ١٩ ، ومحمد الصادق حسين بك فى مجلة السياسة الأسبوعية السنة ٢ عدد ٦٤ .

(٤٤) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ طبعة ثانية .

ويلوح لى أن لكتابه (تخليص الإبريز) سببا يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى أنه طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ هـ أى فى أوائل عهد عباس باشا ، والكتاب كما مر بك يحوى آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، وعباس باشا الأول كان فى طبعه مستبدا غشوما ، فلابد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى كتاب رفاعة بك مما لا يروق لعباس ، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ليكون السودان منفى له ، ولا غرابة فى ذلك فلو أن هذا الكتاب ظهر فى تركيا على عهد السلطان عبد الحميد لكان من المحقق أن يكون سببا فى هلاك صاحبه ، فمن الجائز أن يكون عباس باشا قد رأى نفى رفاعة وأمثال رفاعة إلى السودان ليبعدهم ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر ، واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهى إنشاء مدرسة بالخرطوم ، والله أعلم .

كان رفاعة بك يشعر فى الخرطوم بأنه فى منفى سحيق ، ويعلم أن الحكومة إنما أقصته إلى السودان لتتخلص منه ، لا لتفتتح مدرسة ابتدائية ، ولقد أحسّ بغضاضة النفى فى بدء عهده به ، ولكنه قابل المصاب بالصبر والجلد ، وعاودته عزيمته التى لا تعرف الكلل ، فأخذ يسرى عن نفسه همّ النفى والعزلة بتعريب كتاب تلماك[45] . وأنك لتلمح من مقدمة كتابه مبلغ تألمه مما جوزى به على جليل خدماته للعلم والنهضة العلمية ، والوطنىّ فى محنته يذكر ما أدّاه لوطنه من خدمات ، كأنما يراجع نفسه ويحاسبها ليتعرف أسباب محنته ، فلا يزداد يقينا إلا أنه جوزى جزاء سينمّار ، وقوبل على إحسانه بالإساءة والنكران ، وكذلك فعل رفاعة بك فقد جمع فى كلمات وجيزة ما فصّله التاريخ من خدماته الجليلة ، قال فى مقدمة كتاب تلماك :

« أما بعد فيقول المرتجى أن يكون لوطنه خير نافع ، رفاعة بدوى رافع ، ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية ، الفائقة على سائر الأمصار ، فى عصر المدة المحمدية العلوية ، السامى على سائر الأعصار ، بوظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة ، وسنين عديدة ، نظارة وتعليما ، وتعديلا وتقويما ، وترتيبا وتنظيما ، وتخرج من نظارات تعليمى من المتفنّنين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال ، وفى صناعة النثر والنظم أبهر بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال ، وحماة صفوف لا يُبارَوْن فى نضالٍ ولا سجال ، وعرّبت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمّة ، وصحّحْت لهم مترجمات الكتب المهمة ، من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها ، ومالت طباع الجميع إلى مطبوع ذوقها وطبعها ، وسارت بها الركبان فى سائر البلدان ، وحدا بها الحادى فى كل واد ،

---

(٤٥) مواقع الأفلاك فى أخبار تلماك .

وقصدها القصّاد كأنها قصائد حسان ، وكان زمنى إلى ذلك مصروفا ، وديدنى بذلك معروفا ، مجاراةً لأمير الزمن [٤٦] ، على تحسين حال الوطن ، الذى حبُّه من شُعَب الإيمان ، وفى مدة نحو ثلاثين سنة لم يحصل لهمتى غتور ولا قصور .

فإذا ملكتَ فجُدْ فإن لم تستطع   فاجهدْ بوسعك كله أن تَنْفَعا

« وإنما فقط لما توجهتُ بالقضاء والقدر ، إلى بلاد السودان وليس فيما قضاه الله مفرّ ، مكثتُ برهةً خامدَ الهمة ، جامد القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد يتلفنى سعير الإقليم الفائر بحَرِّه وسمومه ، ويبلغنى فيل السودان الكاسر بخرطومه ، ومع ذلك فكنت فى الوقت الحاضر مصداق قول الشاعر :

فما أنا للأيام غير محارب   أصحابها مستبشرا متهللا
فإن كان حظى راجحا كنت راجحا   وإن كان حظى أعزلا كنت أعزلا

فكيف وأن لى نصيبا فى السعود المقبلة ، والعهود المستقبلة ، وحظا من الأوقات المفيدة ، وسهما من العدالة أباعد به عنى وجوه هذه البلاد البعيدة ، فما تسليت إلا بتعريب تلماك ، وتقريب الرجاء بدور الأفلاك » .

أقول ، ولرفاعة بك بعض العذر فى تبرمه من الإقامة فى السودان ، فإنه فضلا عن شعوره بأنه لم يذهب إليه بإرادته واختياره وأنه إنما كان مضطهدا منفيا على غير ذنب جناه ، فقد شهد فى منفاه مصرع زميله محمد بيومى كبير علماء الرياضيات فى عصره ، والظاهر أن صحته وبنيته لم تحتملا غضاضة النفى وسوء المناخ فعاجلته منيته فى الخرطوم ، فهذا الحادث الأليم كان له أثر عميق فى نفس رفاعة بك جعله يشكو ويتململ من طول إقامته فى منفاه ، ولولا ذلك لما أفاض فى الإعراب عن ألمه إلى الحد الذى أخرجه عن جادة الصبر والاعتدال ، فما ذنب « وجوه تلك البلاد البعيدة » التى يطلب إلى العدالة أن تباعد به عنها ؟ أنه لا شك كان فى شدة المحنة حتى ضاق صدره بما يعانيه من الألم ، على أنه ما لبث أن استمسك بخصاله الحميدة من الصبر على المكاره ، ومغالبة الشدائد ، فراض نفسه على احتمالها ، والصبر على آلامها ، وإنك لتتبين نفسيته وما جبل عليه من قوة العزيمة وصدق الإيمان فى قوله « فما أنا للأيام غير محارب

(٤٦) يريد محمد على .

إلخ » فإن هذا القول يدل على قوة نفس كبيرة ارتضت مغالبة الأيام ومقاومة المحن ، ويتصل بهذا المعنى قوله عن نفسه :

رفاعةٌ خمَّس المنظوم مرتجلاً   قَرِيضَه وهو بالخرطوم قد وَجِلا
قالت هَوَاتِفه بالله كُن رجلا   فإن جَدَّك (طه) للخطوب جلا

فأمر خطبك هذا الحد يحسمه

والحق أن رفاعة بك كان فى منفاه رجلا بكل معانى الرجولة ، فلم يستسلم لليأس ، ولم تفتر عزيمته ، ولا جمدت قريحته ، وحسبك دليلا على قوة إرادته أنه ترجم فى منفاه كتاب تلماك ، وهو يقع فى نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، كما أنه رتب مدرسة الخرطوم أحسن ترتيب وأدارها أحسن إدارة وتخرج منها طائفة من الشبان تولوا مهمة التدريس فى المدارس التى أنشأتها الحكومة فى السودان على عهد الخديو إسماعيل ، وقد امتدح رفاعة بك أخلاق السودانيين فأشار بقابليتهم « للتمدين الحقيق لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية لا سيما الجعليين والشايقية وغيرهم ، واشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية هو عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم ، حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين (الطلبة) على البيوت بحسب الاستطاعة فكل إنسان من الأهالى يخصه الواحد أو الاثنان فيقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم »[٤٧]

رجوعه من منفاه والمناصب التى تولاها

ولما توفى عباس الأول سنة ١٨٥٤ ، وتولى سعيد باشا الحكم عاد رفاعة بك من السودان ، فأسندت إليه المناصب المختلفة ، فجعل ناظرا للقلم الأفرنجى بمحافظة مصر تحت رئاسة إبراهيم أدهم باشا ، ثم عهد إليه سعيد باشا سنة ١٨٥٥ وكالة المدرسة الحربية بالحوض المرصود التى كان يتولى نظارتها سليمان باشا الفرنساوى رئيس رجال الجهادية ، وبعد قليل تولى نظارة المدرسة الحربية التى أنشأها سعيد باشا بالقلعة ، وجمع بين هذا المنصب ونظارة قلم الترجمة ، ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية ومدرسة العمارة ، ونال رتبة المتمايز .

---

(٤٧) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٢ طبعة ثانية .

وفى سنة ١٨٦٠ ألغيت هذه المدارس كما ألغى قلم الترجمة ، فبقى رفاعة بك بغير منصب إلى عهد إسماعيل باشا ، إذ هبت على العلم والتعليم نسمة الحياة ، فأعيد قلم الترجمة بوزارة المعارف العمومية وعهد إلى رفاعة بك برياسته سنة ١٨٦٣ وعين عضوا فى (قومسيون المدارس) الذى يشبه أن يكون مجلس المعارف الأعلى والذى كان له فضل كبير فى تنظيم التعليم على عهد إسماعيل .

وكان له فضل كبير فى نشر العلوم بحثه الحكومة على طبع طائفة من أمهات الكتب العربية على نفقتها كتفسير الفخر الرازى ومعاهد التنصيص وخزانة الأدب والمقامات الحريرية وغير ذلك .

فضل رفاعة بك فى نهضة المرأة

إن رفاعة بك هو أول من دعا إلى نهضة المرأة وإلى تعليم البنات وتثقيفهن أسوة بالبنين ، وتتجلى لك فكرته من كونه وضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء وسماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) وهو كتاب فى الأخلاق والتربية والآداب وضعه كما يقول فى مقدمته بحيث « يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » .

ودعا فى هذا الكتاب إلى وجوب تعليم البنات وإعدادهن من طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن فى المجتمع ، قال فى هذا الصدد :

« ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء » .

فالدعوة إلى نهضة المرأة فى مصر ترجع كما ترى إلى رفاعة بك ، ثم جاء من بعده المرحوم

قاسم بك أمين فجددها ووسع نطاقها ، وكتاب رفاعة بك طبع لأول مرة سنة ١٢٨٩هـ أى سنة ١٨٧٢ ميلادية ، وقد أسست أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر سنة ١٨٧٣م وهى المدرسة التى أنشأتها جشم آفت هانم إحدى زوجات إسماعيل بالسيوفية ، على أن دعوة رفاعة بك ترجع إلى ما قبل ظهور كتابه ، فإنه كما تعلم كان عضوا فى مجلس ديوان المدارس سنة ١٨٣٧ ، وقد ذكر يعقوب أرتين باشا[٤٨] أن هذا المجلس قدر ما لتعليم المرأة من الفضل فى النهوض بالمجتمع المصرى فاقترح إدخال تعليم البنات فى مصر ، ولكن الاقتراح لم يخرج إلى حيز العمل فى عهد محمد على باشا لأن المجتمع كما يقول أرتين باشا لم يكن يألف تعليم البنات فى المدارس فاكتفى محمد على بمدرسة الولادة التى أنشأها لتخريج طائفة من القابلات المتعلمات .

على أن فكرة تعليم المرأة لاقت من ذلك الحين تقديرا من الطبقات العالية فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها فى البيوت على يد أساتذة من معلمين ومعلمات فظهرت طبقة من سلالة البيوت الكبيرة نالت حظا وافرا من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة نبغت الكاتبة الشاعرة عائشة هانم تيمور[٤٩] كريمة إسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام فى عصر عباس وسعيد وإسماعيل ، وقد بقيت فكرة تعليم البنات قاصرة على البيوت إلى أن أنشئت مدرسة البنات بالسيوفية كما قدمنا .

فضله فى نهضة القضاء والقانون

ولرفاعة بك فضل كبير فى نهضة القضاء ، فإن الحكومة حينما فكرت فى إصلاح النظام القضائى على عهد إسماعيل مهدت إلى ذلك بتعريب القوانين الفرنسية المعروفة بالكود (قانون نابليون) وهى مهمة شاقة تحتاج إلى اطلاع واسع فى القوانين الفرنسية وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها فى القانون الفرنسى ، وتحتاج أيضا إلى علم غزير وصبر على العمل وإلمام تام بأسرار اللغتين الفرنسية والعربية ، فلم تجد الحكومة من يضطلع بهذه المهمة سوى رفاعة بك وتلاميذه ، فعرب هو وعبد الله بك السيد[٥٠] القانون المدنى الفرنسى واشترك معهما عبد السلام أفندى أحمد ، وأحمد أفندى حلمى ، وإذا

(٤٨) فى كتاب التعليم العام فى مصر (بالفرنسية) ص ١٢٨ .

(٤٩) ولدت سنة ١٨٤٠ وتوفيت سنة ١٩٠٢ ، راجع ديوانها (حلية الطراز) وانظر ترجمتها المسهبة للآنسة (مى) .

(٥٠) من تلاميذ مدرسة الألسن وقد ترجمنا له فيمايلى .

لاحظت أن هذا القانون أوسع مدى من القانون المدنى المصرى المقتبس منه لأنه يشمل عدا المعاملات المدنية أحكام الأحوال الشخصية عرفت مبلغ الجهد الذى بذله رفاعة بك ومساعدوه فى تعريبه ، وحسبك أنه يقع فى ٢٢٨١ مادة طبعت[٥١] فى مجلدين كبيرين ، يقع الأول فى نيف وثلثمائة صفحة ، والثانى فى مائتى صفحة من الورق الكبير ، وعرّب قانون المرافعات عبد الله أبو السعود أفندى ، وحسن أفندى فهمى ، وعرّب محمد قدرى باشا قانون العقوبات ، وصالح بك مجدى قانون تحقيق الجنايات ، وهم من تلاميذ رفاعة بك ، ومن هذه القوانين قد استمد الشارع المصرى معظم أحكام قوانين المعاملات المدنية والمرافعات والعقوبات ، تلك القوانين التى بُنى على أساسها النظام القضائى الحديث ، ومن ذلك يتبين فضل رفاعة بك وتلاميذه فى إقامة صرح العدالة فى مصر.

روضة المدارس

ومن أجلّ أعماله أنه تولى رئاسة تحرير مجلة (روضة المدارس) التى أنشأها العلامة على باشا مبارك سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف العمومية فى عهد إسماعيل ، وهى مجلة علمية أدبية اجتماعية ، أنشأتها وزارة المعارف كما قدمنا لإحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، وتولى رئاستها رفاعة بك ويباشر تحريرها ابنه على بك فهمى رفاعة مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن وقتئذ .

وكان المترجم يتولى تحرير أبواب المجلة ، يعاونه فى ذلك نخبة من العلماء والأدباء أمثال على باشا مبارك ، وعبد الله بك (باشا) فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، والمسيو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، وإسماعيل بك (باشا) الفلكى ، ومحمد قدرى بك (باشا) ومحمود باشا الفلكى ، والدكتور محمد بك بدر ، وأحمد بك ندا العالم النباتى الشهير ، والشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى ، وصالح مجدى بك ، وأبو السعود أفندى محرر جريدة وادى النيل ، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية ، ورأيت فيها بعض المباحث الفقهية للشيخ حسونة النواوى ، وبعض شذرات لغوية للشيخ حمزة فتح الله « من أفاضل الإسكندرية » ، فكانت المجلة ميدانا يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر ، وفيها المباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والرياضيات ،

(٥١) سنة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ ميلادية .

وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧هـ (سنة ١٨٧٠) واستمرت تصدر بانتظام ، فأدت الثقافة فائدة كبرى ، وقد ذكرها المسيو دور مفتش التعليم العام على عهد إسماعيل فى كتابه [٥٢] فقال عنها : وهذه المجلة كانت توزع مجانا على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر أبحاثهم القيمة ، فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم » .

وقد أصاب المسيو دور فى قوله ، فإن المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ ، وقد رأيتُ فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم إسماعيل باشا صبرى تتجلى فيها روح الشعر الحديث ، وكان وقتئذ « الشباب النجيب إسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الإدارة » .

فمنها قصيدة فى مدح الخديو إسماعيل بالعدد ٢٠ من السنة الأولى [٥٣] قال فى مطلعها :

سفَرت فلاح لنا هلالُ سعود ونمى الغرام بقلبىَ المعمودِ

وقصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية [٥٤] يقول فى مطلعها .

أغُرّتك الغراء أم طلعةُ البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليلٌ تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من درّ

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية [٥٥] استهلها بقوله .

لا والهوى العذرىِّ والوجْدِ عَذْلُ عذولى فيك لا يُجْدِى
إنى مع الصدّ وطولِ الجَفَا باقٍ على الميثاقِ والعهدِ

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت باكورتها تظهر فى روضة المدارس على عهد رفاعة بك .

---

(٥٢) التعليم العام فى مصر ص ٢٥٣ .
(٥٣) غاية شوال سنة ١٢٨٧ .
(٥٤) ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ .
(٥٥) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ .

وفاة رفاعة بك

واستمر رفاعة بك يشرف على تحرير المجلة ويكتب فيها ويتولى نظارة قلم الترجمة مع مـ
على التأليف إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣م (سنة١٢٩٠) وله من العمر ٧٥ سنة ، ،
نعيه فى الوقائع المصرية ، وفى روضة المدارس بالعدد ٧ من السنة الرابعة[٥٦] وكتب لمجله
بك فهمى رفاعة [٥٧] مباشر تحرير المجلة عن نعيه الكلمة الآتية :

« إنه ليحزننى أن أنقل من عدد الوقائع المصرية الأخير ، ما كتبه حضرة محررها الأ
الشهير[٥٨] إيذانا بوفاة والدى رفاعة بك رافع طاب ثراه ، وجعل الجنة متقلبه ومثو
وحيث كانت دموع الأسف على فقده ، شاغلة لى عن القيام بحقوقه الواجبة على من بعد
فليس فى وسعى الآن ، إلا الدعاء له بالرحمة والرضوان » ، وكانت المجلة تنشر تباعا
مؤلفات المترجم وهو كتاب (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) فى تاريخ الرسول
الصلاة والسلام ، فاستمرت تنشر تتمة الكتاب بعد وفاة المترجم .

صفاته وأخلاقه

وصف صالح مجدى بك أستاذه رفاعة بك بقوله :

«كان قصير القامة ، عظيم الهامة ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمر اللون ، ؛
الكون ، وكان فيه دهاء وحزم ، وجرأة وثبات وعزم ، وإقدام ورياسة ، ووقوف تام
أحوال السياسة ، وتفرس فى الأمور ، وكان حميد السيرة ، حسن السريرة » .

هذا ما كتبه أقرب الناس إليه وأعرفهم بأخلاقه وصفاته ، ويلوح لنا أن من أخص صـ
المترجم الصبر على المكاره ، وقوة العزيمة والإباء والشهامة ، أما الصبر فقد برهن عليـ
احتمل من مضض النفى فى الخرطوم بشجاعة وثبات ، وتتجلى لك قوة عزيمته من مثابرته
حياته على التأليف والترجمة على ما يقتضيه ذلك من الجهد والعناء ، ومن كونه عرب كتابـ
خيرة كتبه وهو فى منفاه ، فالنفس التى لا يحول النفى دون مثابرتها على العمل هى نفس .

---

(٥٦) ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ .

(٥٧) الذى صار على باشا رفاعة وكيل نظارة للمعارف العمومية .

(٥٨) الشيخ أحمد عبد الرحيم .

الإيمان ومضاء العزيمة ، ورفاعة بك فى عمله بمنفاه يشبه الفيلسوف الفرنسى (كوندورسيه) الذى ألف وهو مطارَد كتابا من خيرة مؤلفاته .

ومن أخص مزايا الفقيد كما قلنا الشمم والإباء الشهامة ، وقد تكون هذه المزايا مما عرقل تقدمه فى مناصب الحكومة ، إذ أنه على ما عرف به من عظيم الكفاءة لم يتجاوز « نظارة قلم الترجمة » بوزارة المعارف العمومية ، و « نظارة قلم الترجمة » على مالها من المكانة العلمية أقل مما يستحقه رفاعة بك من رفيع المناصب ، وكذلك يلاحظ أنه لم ينل رتبة الباشوية مع أن أقرانه ومن هم دونه مرتبة ومنزلة نالوها ، ولا يمكن تعليل كل ذلك من ناحية الكفاءة والجدارة ، فإن كفاءة رفاعة بك كانت منقطعة النظير ، وجدارته معترف بها من الجميع ، فبقاؤه فى « نظارة قلم الترجمة » ، وعدم بلوغه مرتبة الوزارة وهى النهاية التى يتطلع إليها من ينتظمون فى سلك المناصب الحكومية ، لابد أن يكون ذلك راجعا إلى ما اتصف به رفاعة بك من الشمم والإباء ، فإن هذه الصفات على كونها من أسمى الفضائل ليست محببة إلى الرؤساء وولاة الأمر ولا ترغبهم كثيراً فى أصحابها ولا تميل بهم إلى إسناد المناصب الرفيعة إليهم .

واشتهر رفاعة بك أيضاً بالكرم والجود ، والزهد فى الفخفخة والخيلاء ، وفى ذلك يقول تلميذه صالح بك مجدى : « وكان فيه زيادة كرم وسماحة ، ومزيد بلاغة وفصاحة ، كثير التواضع جم الأدب ، محبا للخير ، وكان كلما ارتقى إلى أسنى المناصب ، وجلس على أسمى المراتب ازداد تواضعه للرفيع والوضيع ، وتضاعف سعيه فى قضاء حوائج الجميع ، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها ، وكان قليل النوم كثير الانهماك فى التأليف والتراجم حتى إنه ما كان يعتنى بملابسه » ..

وطنيته

لقد أشربت نفس رفاعة بك الوطنية منذ نعومة أظفاره ، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان) ومن فطرته السليمة وحبه للخير ، وقد استثار رحيله عن الديار تلك العاطفة الشريفة ، فحركت الغربة فى نفسه الحنين إلى الوطن وجادت قريحته بأشعار تدل على وطنية عميقة ، ولا غرو فالعواطف الإنسانية تنشأ فى قرارة النفس ، ثم تبدو وتظهر كلما استثارتها الحوادث والمناسبات .

وكان لإقامة رفاعة بك فى باريس أثر كبير فى تكوين وطنيته ، فقد رأى فى تلك الديار

مظاهر إخلاص الفرنسيين لوطنهم ، وشهد ثورة الشعب سنة ١٨٣٠ ، ورأى مفاداة الناس للوطن وبذلهم أرواحهم ودماءهم فى سبيله ، فأثرت هذه المشاهد الرائعة فى نفسه الحساسة وصادفت منها موضع الإعجاب والإقناع ، وغرست فى قلبه الفضائل والمبادئ الوطنية التى كان يميل إليها بفطرته الطيبة ، وإنك لتلمح ضوء الوطنية الساطع من قصيدة له بباريس قالها فى الحنين إلى مصر وأهلها والإشادة بذكرها ، قال فيها :

ناح الحمام على غصون البان ... فأباح شيمةَ مغرمٍ ولْهان
ما خلتُه مذ صاح إلا أنه ... أضحى فقيدَ أليفه ومُعانى
وكأنه يلقى ، إلىَّ إشارة ... كيف اصطبارى مُذ نأى خلانى
مع أننى والله مذ فارقتهم ... ما طاب لى عيشى وصفو زمانى
لكننى صَبٌّ أصون تَلَهُّفى ... حتى كأنى لست باللهفان
وبباطن الأحشاء نارٌ لو بدت ... جمراتها ما طاقها الثقلان
أبكى دَماً من مهجتى لفراقهم ... وأود ألاَّ تشعر العينان
لى مذهب فى عشقهم وارَيْته ... ومذاهب العشَّاق فى إعلان
ماذا علىَّ إذا كتمتُ صبابتى ... حتى لو أن الموت فى الكتمان

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها فقال :

هذا لعمرى أن فيها سادةً ... قد زُيِّنوا بالحسنِ والإحسان
يا أيها الخافى عليكَ فخارها ... فاليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حَلَفت بأنَّ مصر لجَنة ... وقطوفها للفائزين دوانى
والنيل كوثرها الشهىّ شرابه ... لأبرُّ كلَّ البر فى أيمانى
دارٌ يحق لها التفاخر سيما ... بعزيزها جَدوى بنى عثمان

وامتدح محمد على وإبراهيم بأشعار نهج فيها منهج الإشادة بالمفاخر القومية قال :

من كل مثل أميرنا فقرينه ... إسكندرٌ أو كسْرَ نوشيروانِ
فى وجهه النصرُ المبينُ على العدا ... لاحت بشائرُه لكل معانى
فى كفِّه سيفان سيف عنايةٍ ... والشَّهمُ إبراهيم سيفٌ ثانى [٥٩]

---

(٥٩) تخليص الابريز ص ٤٨ .

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة ، فتأملْ هذه القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش فى نفسه من أنبل العواطف ، وقد قدمها هو للقارئ بقوله « وقلت أيضاً وطنيةً » .

مذهب

يا صاح حبُّ الوطن حلية كل فطن

دور

محبة الأوطان من شُعَب الإيمان
فى أفخر الأديان آية كل مؤمن

مذهب

يا صاح حبُّ الوطن حلية كل فطن

دور

مساقط الرءوس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنّا وكل حزن

دور

ومصر أبهى مولد لنا وأزهى محتد
ومربعٍ ومعهدٍ للروح أو للبدن
شُدَّت بها العزائمُ نيطت بها التمائمُ
لِطَبعنا تلائم فى السر أو فى العلن
مصرُ لهَا أيادى عُليا على البلاد
وفخرُها ينادى ما المجد إلا ديدنى
الكونُ من مصر إقتبسْ نوراً وما عنه احتبس
وما فخارها التبسْ إلا على وَغْدٍ دَنِى
فخرٌ قديمٌ يؤثر عن سادة ويُنشر
زهور مجد تنشرَ منها العقول تجتنى
دارُ نعيمٍ زاهية ومعدن الرفاهية
آمرةٌ وناهية قِدْماً لكل المدن

تحنو على القريب تحلو لدى الغريب
ترنو إلى الرقيب شرراً بسهم الأعين
طولَ المدى وَلودٌ وللهدى ودود
ما أمّها جحود إلا انثنى بالوهن
قوة مصر القاهرة على سواها ظاهره
وبالعمار زاهره خُصَّت بذكرٍ حسَن
منازل رحيبة وبالمنى خَصيبة
وللهنا مجيبة وهى أعز موطن
عُلومُها خقائق فهومها دقائق
رموزها رقائق تحلو لأهل الفِطَن
أما ترى الأهالى ترقى ذرا المعالى
هم سادةٌ موالى جمال وجه الزمن
أبناؤها رجال لم يثنهم مجال
ولا بهم أجاول فى ليل وقع دجن
وذوقهم مطبوع وقدرهم مرفوع
وصيتهم مسموع بِشَرَف التمدن
وجندهم صنديد وقلبه حديد
وخصمه طريد بل ملرج فى كفن
كل فتى جليل يعشق وادى النيل
كم فيه من نزيل يقول مصر وطنى
فإن ترم اسعادا يا سعد دع سَعادا
ولذ بمن أعادا لمصر فخرها السنى
صادق وعدٍ محسن [٦٠] وذكره يُستحسنُ
ولا تزال الألسنُ تشدو بذكرى المحسن
رَبُّ علا وَحَسب عن جده وعن أب

(٦٠) الاشارة هنا إلى الخديو إسماعيل.

فقل لمصر انتسبى إلى جزيل المنن
أدامه رب العلا أميرَ عز وَوَلا
بجاه طه من علا بالعدل جور الفتن[٦١]

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد مفاخره :

تُنَظِّمُ جُندَنا نَظْمًا عجيبا يُعجز الفهما
بأسْدٍ تُرعب الخصما فمن يقوى يناضلنا

* * *

رجالٌ مالها عددُ كمال نظامها العُددُ
حُلاها الدرع والزردُ سنان الرمح عاملنا

* * *

وهل لخيولنا شُبَهٌ كرائم ما بها شُبَهٌ
إليها الكل منتبهٌ وهل تخفى أصائلنا
لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللّقا شان
وفى الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا

* * *

فها الميدان والشقرا شقت أذْن العدا وقْرا
كأنّا نرسل الصقرا فمن يبغى يراسلنا

* * *

مدافعنا القضا فيها وحكم الحتف فى فيها
وأهونها وجافيها تجود به معاملنا

* * *

لنا الرؤساء أبطال رجالٌ أينما جالوا
بصولة عيلم صالوا يفوق الحد صائلنا

* * *

(٦١) مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ص ١٢ .

لنا في المُدْن تحصينٌ وتنظيمٌ وتحسينُ
وتأييدٌ وتمكين منيعات معاقلنا

* * *

ولعمرى أن هذه الأبيات لمن خير ما قيل فى وصف الجيش المصرى ، ولا شك أن رفاعة بك قد استلهم شعره من مفاخر الجيش فى عصر محمد على ، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرا صحيحا لا مبالغة فيه ولا إغراق ، وإن قصيدته لتشبه أن تكون صورة يخيل للقارئ أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب تحف بها أعلام النصر والظفر ، وتخوض غمار القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام ، وتجابه الأخطار قوية الإيمان ، ثابتة الجنان ، مجهزة بالسلاح والمدافع « تجود بها معاملنا » تلك التى كانت قائمة فى عصر محمد على ، ولو لم يشهد رفاعة بك مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر لما جادت قريحته بهذا الشعر ، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذى يعيش فيه والبيئة التى تحيط به ، ويصور الحياة على عهده ، فكأنما هو قطعة من عصره ، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ومظاهر الحالة الفكرية والخلقية .

وإنك لتلمح أيضا عظمة الجيش المصرى من قول رفاعة بك فى قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود :

يا أيها الجنودُ والقادة الأسودُ
إن أمَّكم حسود يعود هامى المدمع
فكم لكم حُروبُ بنصركم تؤوب
لم تثنكم خطوب ولا اقتحام مَعْمع
وكم شهدتم من وغى وكم هزمتم من بَغى
فمن تعدَّى وطغى على حماكم يُصْرَع

وتتجلى لك روحه الوطنية فى تعريبه نشيد فرنسا القومى (المارسليز) ، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها ، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة بك حتى مالت نفسه إلى تعريبه وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حُلة عربية قشيبة ، وتتبين أيضا وطنيته من أنك تراه يكثر من عبارات الوطن وخدمة الوطن والوطنية فى مؤلفاته وهو أول من استعمل هذه الكلمات فى نثره ونظمه ، فتأملْ فى فصول كتابه الممتع (مناهج الألباب

المصرية) تجد أنه جعل عنوان مقدمته (فى ذكر هذا الوطن وما قاله فى شأن تمدينه أرباب الفطن) وتجده يقول عن سبب تأليف الكتاب أنه القيام بواجبه نحو الوطن (ص ٤) ويتكلم عن الترغيب فى حب الوطن (ص ٧) ويشيد بمفاخر مصر فى فصول متعددة ، على أنه لا يتملق الجماهير فيما يكتب بل يخلص النصح والإرشاد لبنى وطنه ، وبذلك برهن على وطنية صادقة خالية من شوائب التغرير والتضليل .

وأفرد فى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) فصلا بعنوان (فى أبناء الوطن وما يجب عليهم) وتكلم عن لزوم اتحاد الكلمة بين أهل الوطن « لأن الله سبحانه وتعالى إنما أعدهم للتعاون على إصلاح وطنهم ، وأن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة ، فكأن الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم فليكن أيضا محلا للسعادة المشتركة بينهم . وقال أيضا : « فالوطنى المخلص فى حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر كما يدفع الوالد عن والده الشر ، فينبغى أن تكون نية أبناء الوطن دائما متوجهة فى حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئا مما يخل بحقوق أوطانهم واخوانهم فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح ، كما أن الوطن نفسه يحمى عن ابنه جميع ما يضر به » .

وضرب المثل بما بلغته الأمة الرومانية من العظمة حينما كان أبناؤها مستمسكين بأهداب الوطنية وقال (ص ٩٥) : « فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها ، تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها ، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة وفسد حالها وانحل عقد نظامها » .

أسلوبه

من التأمل فيما نقلناه من شعر رفاعة بك ونثره نستطيع أن نتبين مبلغ تقدم اللغة والأسلوب فى إنشائه تقدما نسبيا عن العصر الذى سبقه ، وخاصة إذا قارناه بأسلوب رجال المدرسة القديمة كالجبرتى والمهدى والخشاب وغيرهم ، وهذا التقدم هو نتيجة النهضة الأدبية والعلمية التى ظهرت فى عصر محمد على باشا وأعقبت حركة الركود التى أصيبت بها العلوم والآداب فى عصر المماليك[٦٢] » .

(٦٢) انظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ٤٤ (الطبعة الأولى) .

فأسلوب رفاعة بك قد تحلل من قيود الركاكة القديمة ، وامتاز بصحة العبارة والتأثر من الثقافة الأوروبية ، وهو وإن كان قد تقيد فى بعض المواطن بقيود السجع المتكلف والبديعيات اللفظية إلا أنه خطا باللغة والإنشاء خطوة فى طريق التقدم ، وفى بعض شعره ونثره تلمح روح البلاغة ونسيم الترسل والسهل الممتنع .

فرفاعة بك هو أول من نهض بالشعر والأدب فى العصر الحديث ، ويعدّ شعره دور الانتقال إلى دولة الأدب الجديد التى حمل لواءها البارودى وإسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ومطران وغيرهم من أعلام الأدب ، نعم إننا إذا وضعنا شعره إلى جانب « شوقيات » أمير الشعراء « ووطنياته » لجاء فى المرتبة الثالثة أو الرابعة من جهة الروح والأسلوب والبلاغة وابتكار المعانى ، ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة بك نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها ، فله على النهضة الأدبية والعلمية فضلٌ لا ينكر ، وأغلب الظن أنه لو تفرغ للأدب والشعر دون التعريب والتأليف العلمى لبلغ فى دولة الأدب شأوا أعظم مما أدركه .

تلاميذ رفاعة بك

إن الكلام عن رفاعة بك يستتبع الكلام عن تلاميذه الذين تخرجوا على يده فى مدرسة الألسن ، لأنهم ثمرة هذه المدرسة وأثرها الخالد ، على أن من الواجب أن ننوه بأنه من يوم أن تولى منصب الترجمة فى مدرسة الطب ، ثم فى مدرسة المدفعية بطره ، صار له تلاميذ ومريدون ، وممن تلقوا عنه فى مدرسة الطب : الدكتور محمد على البقلى باشا ، فقد نقل عنه صالح مجدى بك[٦٣] أنه أخذ هو وزملاؤه عن رفاعة بك بعض العلوم الأولية بمدرسة الطب بأبى زعبل سنة ١٢٤٧ هـ وأنه شهد له شهادة أوجبت اختياره ضمن أعضاء البعثة الطبية الأولى التى أرسلت إلى فرنسا ، ومعلوم أن البقلى باشا هو من أعلام الطب فى عهد محمد على وعهد إسماعيل ، ولم يفتأ بعد عودته وإسناد كبرى المناصب إليه يذكر لرفاعة بك فضله عليه .

ثم جاء عهد مدرسة الألسن ، فكثر عدد تلاميذه وتخرج على يديه نخبة من العلماء والأدباء ممن اضطلعوا بمهمة التعريب والترجمة والإنشاء سواء فى الأدب والتأليف أو فى دواوين الحكومة .

---

(٦٣) فى رسالة حلية الزمن ص ١١ .

وقد ذكر السيد صالح مجدى بك أسماء النوابغ والنابهين منهم ورتبهم إلى ثلاث طبقات بحسب دخولهم المدرسة .

فذكر من الطبقة الأولى عبد الله أبو السعود أفندى ، وهو العالم الناثر محرر جريدة وادى النيل أول صحيفة سياسية حرة ظهرت فى مصر على عهد إسماعيل ، وأكبر رجال قلم الترجمة ثم ناظره ، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم ، وصاحب المباحث الشيّقة فى مجلة روضة المدارس .

وخليفة أفندى محمود مترجم كتاب (إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوروبا) وكتاب (إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان) فى ثلاثة مجلدات ، ومحمد أفندى مصطفى البياع الموظف بالتحريرات الأفرنجية ، ومحمد أفندى عبد الرازق مترجم كتاب (غاية الأدب فى خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو ، وعبد الجليل بك من كبار موظفى المعية السنية ، وشحاته عيسى بك من نوابغ البعثات العلمية وناظر مدرسة أركان حرب فى عهد إسماعيل ، وإبراهيم بك مرزوق الشاعر الأديب ، وحنفى أفندى هند من نوابغ من تخصصوا فى الفنون الحربية بفرنسا ، وحسن بك فهمى المصرى وكيل سكك الحديد بالوجه القبلى ثم القاضى بالمحكمة المختلطة .

وأحمد بك عبيد وكيل المحكمة التجارية بالقاهرة ثم قاض بمحكمة الإسكندرية المختلطة وله تراجم فى القوانين العسكرية وترجم تاريخ بطرس الأكبر .

ورمضان أفندى عبد القادر مترجم بديوان البحرية وله تراجم عسكرية عديدة ، ومحمد أفندى الحلوانى ، وعبد الرحمن أفندى أحمد وله تراجم طبية وتاريخية لم تطبع ، وحسن أفندى الجبيلى مترجم بديوان الأوقاف وله تراجم فى التاريخ وسعد أفندى مجدى ، ومحمد أفندى السمسار مترجم ضبطية مصر وله تراجم غير مطبوعة ، ومحمد أفندى على القوصى مأمور التذاكر الأفرنجية باسكندرية ، وحسين أفندى على الديك مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة وله كتاب قيم فى مسلك الدفاتر ، والسيد عثمان أفندى الدويني قاضى محكمة الواسطة الشرعية ، وحسن أفندى الشاذلى من خريجى البعثات ، وأحمد أفندى عياد المترجم باسكندرية ، وعطية أفندى رضوان ، ومصطفى أفندى رضوان كاتب المجلس الصحى ومدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب ، ومحمد أفندى زهران مدرس بمدرسة الطب .

ومن الطبقة الثانية وهى التى دخلت المدرسة سنة ١٢٥٢ هـ عبد الله بك السيد من نوابغ

البعثات وقد ترجمنا له فيما يلى ، ومصطفى بك السراج وقد شرع فى عمل قاموس فرنسى عربى لم يتمه ، وصالح مجدى بك صاحب رسالة (حلية الزمن) فى ترجمة رفاعة بك ومؤلف كثير من الكتب ، ومحمد رشدى بك . ومحمد أفندى الطيب مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة المحاسبة والمساحة ، ومحمد أفندى البحيرى مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة التجهيزية ، ومحمد أفندى سليمان مدرس اللغة الانجليزية بالمدارس الحربية وأول من برع فى الترجمة من الانجليزية ، وخورشد أفندى فهمى من خريجى البعثات ، وعلى أفندى سلامة مدرس اللغة الفرنسية والجغرافية . وحسين خاكى أفندى ، وعبد السلام سلمى أفندى ، وعلى أفندى شكرى ، وقاسم أفندى محمد ، ومحمد أفندى لاظ ، ومصطفى أفندى صفوت ، ومصطفى أفندى الكريدلى ، ومحمد أفندى زيور ، وأحمد أفندى صفى الدين ، وعثمان فوزى باشا ، والسيد عمارة أفندى ، ومنصور عزمى أفندى ، وبحر أفندى أحمد ، وحسن أفندى قاسم ، وقاسم أفندى أسعد ، وإسماعيل سرى أفندى ، وحسن عيسوى أفندى ، والدكتور مصطفى أبو زيد ومراد مختار أفندى ، وحسن أفندى وفائى الخطاط الشهير .

ومن الطبقة الثالثة : محمد قدرى باشا العالم المشرع الكبير صاحب الكتب الثلاثة الخالدة فى جمع وترتيب أحكام الشريعة الإسلامية فى المعاملات المدنية والأحوال الشخصية والوقف على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة وصوغها فى قالب القوانين الحديثة ، وهى كتاب (مرشيد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) فى المعاملات الشرعية ، وكتاب (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية) وكتاب (قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف) وهذه الكتب الثلاثة هى مرجع رجال القضاء والقانون إلى اليوم وإلى ما شاء الله فى المحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة ، وقدرى باشا هو أيضا مؤلف كتاب (تطبيق ما وجد فى القانون المدنى موافقا لمذهب أبى حنيفة) ووزير الحقانية ثم المعارف فى عهد توفيق باشا .

ومحمد عثمان جلال بك الشاعر الناثر والأديب الكبير صاحب كتاب « العيون اليواقظ » عرّبه عن لا فونتين ورواية « الشيخ متلوف » ورواية « بول وفرجينى » ومحمد شيمى بك مأمور التشهيل بالإسكندرية ثم قاض فمستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة (٦٤) .

وعبد السميع أفندى عبد الرحيم ، وأحمد خير الله بك المترجم بمحافظة الإسكندرية ثم قاض بالمحكمة المختلطة ، وأحمد محمود أفندى ، وبحـــر عبد الله أفندى وعبد الله محفوظ

(٦٤) كما جاء فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة .

أفندى ، وحسن يوسف أفندى ، وعمر صبرى أفندى ، وعلى رشاد أفندى ، وأحمد حلمى أفندى ، وعبد الله يوسف أفندى ، ومتولى محمود أفندى مترجم ديوان الإسكندرية .

هذا وقد ذكر العلامة محمد قدرى باشا أحد خريجى مدرسة الألسن أن تلاميذ هذه المدرسة قد عربوا نحو ألفى كتاب أو رسالة فى مختلف العلوم والفنون وأن جميع الذين نبغوا فى الترجمة والتعريب على عهد محمد على وإسماعيل هم تلاميذ رفاعة بك أو تلاميذ تلاميذه ، وظاهر مما كتبه قدرى باشا (٦٥) عن هذه المدرسة أن مستوى الترجمة قد هبط فى مصر بعد إقفالها ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء فى التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة كما يقول قدرى باشا بالأجانب ، واقترح لهذه المناسبة إنشاء مدرسة خاصة لتعليم اللغات الأوروبية والشرقية ، والذى نعرفه أن هذا الاقتراح لم يلق تنفيذا وتقديرا فالمعروف أن مدرسة الألسن بعد أن أقفلت فى عهد عباس باشا أعيدت فى عهد إسماعيل سنة ١٨٦٨ باسم مدرسة الإدارة التى كانت تسمى مدرسة الإدارة والألسن ، ثم عرفت بمدرسة الإدارة فقط ، ثم تطورت منذ سنة ١٨٨٦ إلى مدرسة الحقوق ، فمدرسة الحقوق هى خليفة مدرسة الألسن ، ولكن فنّ الترجمة وما يقتضيه من تخريج المترجمين العلماء الأكفاء لم يكن موضع العناية لا فى مدرسة الإدارة ولا فى مدرسة الحقوق .

مؤلفاته

نشأ رفاعة بك فى فجر النهضة العلمية والأدبية الحديثة ، وكان هو أول من حمل لواءها ، استوفى العلوم الأزهرية ونال حظا كبيرا من العلوم العصرية الأوروبية ، فكان منهاجه العلمى أن ينقل إلى بنى وطنه علوم الإفرنج فى التاريخ والجغرافية والرياضيات والقانون ، وكان طليعة حركة التعريب فى النهضة الحديثة .

وقد اقترن إنتاجه بنزعة وطنية قوية تلقاها كما أسلفنا من فطرته الطيبة وكرم أخلاقه وما أثارته مشاهد الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٠ فى نفسه من عواطف وطنية صادقة ، فاتجه إنتاجه إلى تهذيب النفوس وإرشادها إلى ما فيه رفعة الوطن ومجده .

وكانت له نفس شاعرة جادت بشعر تترقرق فيه معانى الوطنية ، وله قلم جمع بين الأدب

---

(٦٥) فى كتابه (معلومات جغرافية) المطبوع سنة ١٨٦٩ .

العربى والثقافة الأوروبية ، ولم يقف إنتاجه عند حدود التعريب بل ألّف وابتكر صحائف وكتبا ممتعة فى التاريخ والأدب والتربية والأخلاق .

ويضاف إلى هذه الخصائص والمزايا إيمان ثابت وعقيدة دينية صادقة ، وعزيمة ماضية ، وصبر طويل ، وجلد على العمل انفرد به عن النظير وكان له أكبر الأثر فى خصْب إنتاجه العلمى والأدبى ، فمن هذه العناصر تتكون شخصية رفاعة بك من ناحية التأليف والتعريب . وسنذكر هنا على ضوء هذه الملاحظات مؤلفاته ومعرباته ، وسنجتهد فى ترتيبها بحسب ظهورها .

١ – فأول تآليفه رحلته إلى فرنسا المعروفة (بتخليص الإبريز فى تلخيص باريز) تتضمن مشاهداته فى رحلته وما انطبع منها فى ذهنه أثناء أقامته بباريس ، وفيها وصف أحوال فرنسا ونظام الحكم فيها وأخلاق أهلها وعاداتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم وعقائدهم وصنائعهم وأحوالهم المعاشية والسياسية والاجتماعية ، وفى هذه الرحلة يتبين اتجاه المترجم إلى الأبحاث التاريخية والجغرافية ، فإنه يجعلها الغاية الأولى من مشاهداته ، فما من بلد مر به أو أقام فيه إلا ويذكر لمعة من ماضيه وحاضره ، ويتبين منها أيضا وفرة مادته من الأدب واللغة . وميله إلى التعمق فى البحث والاستقصاء ، ودقة ملاحظاته ونفاذ بصيرته ، وتمسكه بأهداب الدين مع سعة الفكر والرغبة فى الأخذ بأسباب تقدم الأمم الأوروبية ، ويدلك على شغفه بالعلم إسهابه فى وصف علوم فرنسا وعلمائها ومكاتبها وجمعياتها العلمية ومدارسها ومعاهدها وثروتها العلمية من الكتب والمجلات والصحف .

وهذه الرحلة كما قدمنا هى أول رحلة مصرية بأوروبا فى تاريخ مصر الحديث ، وقد طبعت ببولاق ، وسر لها محمد على سرورا كبيرا وأمر بقراءتها فى قصوره وتوزيعها على الدواوين والوجوه والأعيان وقراءتها فى المدارس المصرية .

٢ – وعرَّب وهو فى باريس كتاب (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) طبع ببولاق سنة ١٨٣٣ بعد عودة المترجم من فرنسا .

٣ – وأخذ وهو فى فرنسا يعرب كتاب المسيو ملتبرون Maltbrun فى الجغرافية ، فعرب الجزء الأول منه بعنوان (الجغرافية العمومية) ثم عرب فى مصر جزء آخر .

٤ – وله فى الجغرافية العمومية كتاب آخر اسمه الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار .

٥ – وكتاب (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) وهو كتاب ضخم عربه عن عدة كتب

فرنسية وأضاف إليه إيضاحات واسعة ، ويتناول جغرافية مصر وسائر بلدان العالم ، وقد عرضه على محمد على باشا فأمر بطبعه ونشره لتعميم نفعه وطبع ببولاق سنة ١٨٣٨ .

٦ – وله فى الرياضيات والطبيعيات كتاب (مبادئ الهندسة) عربه عن لوجندر وطبع سنة ١٨٤٣ وكتاب (تعريب المعلم فرادر) فى المعادن النافعة لتدبير المعايش طبع سنة ١٨٧٣ .

٧ – وعرّب وهو بالخرطوم كتاب (مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك) لمؤلفه لافونتين وقد تكلمنا عنه .

٨ – وله فى النحو كتاب (جمال الأجرومية) طبع سنة ١٨٦٣ .

٩ – والتحفة المكتبية فى تقريب اللغة العربية ، جمع فيها قواعد النحو ، طبعت سنة ١٨٦٨ .

١٠ – وظهر له سنة ١٨٦٦ (تعريب القانون المدنى الفرنسى) المعروف بالكود (قانون نابليون) وهو عمل ضخم يدل على علوّ كعب رفاعة بك فى العلم والفقه والقانون والتعريب وقد أسلفنا الكلام عنه .

١١ – وعرّب (قانون التجارة الفرنسى) وظهر سنة ١٨٦٨ .

١٢ – وفى سنة ١٨٦٩ ظهر كتابه الممتع (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) وهو فيما نعلم أجلّ مؤلفاته وأوفاها بيانا وأعمها نفعا وأغزرها مادة ، يشتمل على وصف مصر وبيان حضارتها وأخلاقها وعلومها وصنائعها وحكومتها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويتضمن مباحث قيمة فى التاريخ والجغرافية والآداب والأخلاق والمواعظ والحكم ، وفيه نبذ ممتعة عن الحقوق والواجبات الوطنية .

١٣ – روضة المدارس ، وهى المجلة التى تولى الإشراف على تحريرها وله فيها مباحث قيمة فى الأدب والتاريخ وقد سبق الكلام عنها .

١٤ – وظهر له سنة ١٨٧٢ كتابه القيم (المرشد الأمين للبنات والبنين) وهو كتاب أخلاق وتربية للمتعلمين والمتعلمات وقد تكلمنا عنه واقتبسنا منه .

١٥ – وظهر له سنة ١٨٦٥ الجزء الأول من كتاب (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) طبع ببولاق فى تاريخ مصر ولم يصدر منه إلا الجزء الأول وفيه تاريخ مصر القديم وتاريخ العرب قبل الإسلام ، ويقول صالح مجدى بك أنه أخرج الجزء الثانى ، ولكننا لم نعثر عليه وليس فى دار الكتب إلا الجزء الأول .

١٦ – وله رسالة (الكواكب النيرة ، فى ليالى أفراح العزيز المقمرة) فى تهانى الخديو إسماعيل بأفراح أنجاله .

١٧ – آخر مؤلفاته كتاب (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) وهو تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام وقد نشر تباعا فى مجلة روضة المدارس بالعدد ٤ من السنة الثالثة والأعداد التالية من السنة الثالثة والرابعة والخامسة .

وعدا هذه المؤلفات قد نقح وهذب مؤلفات أخرى لتلاميذه ، وذكر صالح مجدى بك فى رسالته حلية الزمن مؤلفات أخرى لرفاعة بك لم تطبع ولم أعثر عليها ، وهى (رسالة فى الطب) و (مختصر معاهد التنصيص) و (مجموع المذاهب الأربعة) و (شرح لامية العرب) و (ترجمة منتسكيو) .

وعن (ترجمة مونتسكيو) قرأت للأستاذ الشيخ عبد الحكيم سلمان رسالة يقول فيها أنه سمع من ابن رفاعة بك أن أباه عرَّب هذا الكتاب ، ورأيت فى قصيدة لرفاعة بك فى (مناهج الألباب المصرية) ما يؤيد ذلك إذ يقول عن نفسه :

على عدد التواتر معرباتى ... تفى بفنون سلم أو جهاد
و (ملطبرون) يشهد وهو عدلٌ ... و (منتسكو) يقر بلا تمادى [٦٦]

هذا ما وسعه المقام فى الكلام عن مؤلفات رفاعة بك ، عليه الرحمة والرضوان .

على مبارك باشا

هو العالم الجليل ، أبو التعليم فى عصر إسماعيل وتوفيق ، وناظر المعارف والأشغال والأوقاف ، وصاحب الخطط التوفيقية .

كانت البعثة التى التحق بها بعثة عسكرية هندسية تخصصت فى العلوم الحربيةوالرياضيات ، ولكن نبوغه اتجه إلى التربية والتعليم وإلى الجغرافية والتاريخ أكثر من اتجاهه إلى الحربية والرياضيات ، ولذلك جعلناه قرينا لرفاعة بك .

وقد عاد من البعثة بعد وفاة محمد على باشا ، ونظراً لأن معظم سنى حياته العلمية والقومية اقترنت بعصر إسماعيل وتوفيق فقد أرجأنا ترجمته والكلام عنه إلى كتاب « عصر إسماعيل » .

(٦٦) مناهج الألباب ص ٢٦٦ طبعة ثانية .

الهندسة والرياضيات

مصطفى بهجت باشا

المعروف أثناء دراسته بمصطفى محرمجى أفندى ، هو مصطفى بهجت باشا المهندس المشهور ، تلقى علومه بمدرسة قصر العينى ، وكانت إعدادية للمدارس الحربية والعالية [٦٧] وأقام بها ثلاث سنوات ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة بالقلعة ، وسافر إلى فرنسا ضمن أعضاء البعثة الأولى ، وأقام بباريس عشر سنوات أتقن فى خلالها العلوم الرياضية والفنون الهندسية ، ولما أتم دروسه عاد إلى مصر فعين ناظرًا لمدرسة قصر العينى المذكورة ، وبقى فى هذا المنصب سنتين ، ونال رتبة بكباشى ، ثم عين ناظرا لمدرسة المدفعية بطره ، ثم باشمهندس الجفالك ، وعهد إليه وضع مشروع لتسهيل الملاحة فى الشلالات ، فقدم مشروعا فى هذا الصدد لم ينفذ ، ونال رتبة أميرالاى ، ثم اشترك مع المهندس الفرنسى موجيل بك فى بناء القناطر الخيرية ، ثم عين مفتشا لهندسة المنوفية والغربية ، وعهد إليه عباس باشا بوضع تصميم لتجديد الجامع الأحمدى بطنطا فقام بمهمته خير قيام إلى أن تم بناؤه فى عهد إسماعيل ، وباشر إنشاء السكة الحديدية من بنها إلى كفر الزيات سنة ١٨٠٧ ونال رتبة لواء ، وعين مفتش هندسة الوجه القبلى مدة ثلاث سنوات ثم اعتزل العمل .

وفى عهد الخديو إسماعيل عين مفتشا لهندسة الوجه القبلى ثانيا ، ومن أعماله أنه خطط تصميم الترعة الإبراهيمية من أسيوط إلى جسر كوم الصعايدة الفاصل بين مديريتى المنيا وبنى سويف [٦٨] ، وعين ناظرًا لديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) من سبتمبر سنة ١٨٧٠ إلى مايو سنة ١٨٧١ ، ثم كلف بالإقامة بالقناطر الخيرية وموالاة مظهر باشا بالرسوم والتفاصيل التى يطلبها منه أثناء إقامة الأخير بباريس مع موجيل بك والأخصائيين من كبار المهندسين الفرنسيين لإصلاح العيون التى ظهر بها خلل بقناطر فروع دمياط إلى أن أدركته الوفاة ، ويعد من كبار المهندسين فى تاريخ مصر الحديث .

---

(٦٧) انظر ص ٣٨٦ (الطبعة السابقة) .

(٦٨) الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٥٦ .

محمد بيومى أفندى

كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة ، ومن نوابغ علماء الرياضيات ، ولد بمصر ، وأصله من (دهشور) بمديرية الجيزة ، ذهب إلى فرنسا ضمن البعثة الأولى سنة ١٨٢٦ ، وأقام بها تسع سنوات أتقن فى خلالها دراسة الهندسة والعلوم الرياضية فى مدرسة الهندسة ، ونال إجازتها (الدبلوم) ونبغ فى الرياضيات .

ولما عاد من فرنسا عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وكان أستاذا ومراجعا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين ، أمثال سلامة باشا ، ومحمود باشا الفلكى ، وطائل أفندى ، ودقلة أفندى ، وإسماعيل باشا محمد ، وعامر بك حموده ، وغيرهم ، وصار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة المسيو لامبير بك ، فكان « المرجع إليه والمعول عليه » كما يقول على باشا مبارك فى ترجمته[٦٩] .

ثم انتقل من التدريس فى مدرسة المهندسخانة إلى قلم الترجمة بديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) واشترك مع رفاعة بك رافع فى العمل .

وله جملة مؤلفات فى الهندسة والرياضيات ومنها كتاب (جرّ الأثقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٠ ، و (ثمرة الاكتساب فى علم الحساب) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٦ ، وكتاب (الهندسة الوصفية) فى مجلدين ، و (جامع الثمرات فى حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٧ .

وعين فى عهد عباس باشا الأول مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفى بها فى منفاه .

قال عنه على باشا مبارك : « وكان من أعظم رجال تلك الرسالة ، حسن الأخلاق ، مهيبا جليلا ، ذا رأى حسن » .

محمد مظهر (باشا)

من تلاميذ البعثة الأولى ، أقام بباريس عشر سنوات ، وتخصص لدراسة الرياضيات

(٦٩) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٨ .

والهندسة ، ونبغ فى العلوم الهندسية والرياضية ، وقد امتدحه المسيو جومار فى رسالته عن أعضاء البعثات وقال عنه : « إن نبوغ مظهر أفندى فى الرياضيات لما يسترعى النظر[٧٠] » ولما عاد إلى مصر عين ناظراً لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطره ، ونال رتبة بكباشى ، وتولى وظائف هندسية متنوعة ، وهو الذى بنى فنار الإسكندرية الكبير القائم بطرف شبه جزيرة رأس التين ، وهو من أجلّ أعماله ، وكان وقتئذ مظهر أفندى ، واشترك مع المسيو موجيل بك فى بناء القناطر الخيرية ، واختص بالإشراف على إنشاء قناطر فرع رشيد ، ونال رتبة أميرالاى ونال فى عهد إسماعيل باشا رتبة الباشوية (ميرميران) ، ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر أرسل إلى فرنسا ليجتمع بموجيل بك الذى كان مشرفا على بنائها وبعض الأخصائيين للنظر فى أمر إصلاحها .

إبراهيم رمضان بك

من كبار المهندسين ، عاد قبل أن يتم دراسة بعض العلوم الرياضية ، وعين فى وظيفة معيد مدرس لمظهر (باشا) ناظر مدرسة المدفعية ، فاستطاع استكمال ما نقصه ثم عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وله مؤلفات عديدة فى الرياضيات منها (القانون الرياضى فى فن تخطيط الأراضى) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٤ وكتاب (اللآلى البهية فى الهندسة الوصفية) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٥ (والمنحة اللدنية فى الهندسة الوصفية) طبع بمطبعة المهندسخانة سنة ١٨٥٢ .

أحمد دقله بك

هو من بلدة (بسيون) غربية مركز كفر الزيات ، نشأ فى مدارس مصر وأرسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ ، وتخصص فى العلوم الرياضية ، وعاد سنة ١٨٣٥ وعين معيدا للأستاذ محمد بيومى أفندى كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم عين بعد ذلك مدرسا لعلوم الجبر ، وهندسة الرى والقناطر والجسور ثم وكيلا للمدرسة مع إلقائه الدروس بها ، وانتقل سنة ١٨٤٩ إلى قلم الهندسة وتوفى سنة ١٨٥٦ .

---

(٧٠) المجلة الآسيوية Journal Asiatique عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٥ .

قال عنه على باشا مبارك[٧١] : « وأكثر المهندسين الموجودين الآن (سنة ١٣٠٥هـ) تلقوا عنه ، وكان حسن الإلقاء ، يجتهد فى التعليم ، ويحث على الفهم ، وكان من أعظم المهندسين » ، وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٣ .

أحمد طائل أفندى

هو من بلدة بلتان قليوبية مركز طوخ ، نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر ، والتحق بالبعثة بمدارس فرنسا الهندسية ، وعاد منها سنة ١٨٣٥ ، وعين بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيداً لدروس للأستاذ محمد بيومى أفندى ، ثم عين بعد ذلك مدرسا للعلوم الميكانيكية والجبر ، ثم مهندسا للركاب العالى سنة ١٨٤٢ ، ثم أرسل للخرطوم مدرسا بالمدرسة الابتدائية التى أنشأها عباس باشا الأول ، فذهب إليها صحبة رفاعة بك رافع والأستاذ بيومى أفندى ، وعاد من منفاه فى أول حكم سعيد باشا مصابا بالحمى ، وتوفى بعد وصوله إلى بولاق بليلتين ، قال عنه على باشا مبارك[٧٢] : « وكان قصير القامة صغير الجسم كثير الفهم لا يبالى بأكثر الأمور ، وله جرأة على الأمراء وإقدام وكان محبا للتلامذة يرغب فى تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم » .

أحمد فايد (باشا)

نشأ نشأته الأولى بمدارس مصر ، وأقام بفرنسا عشر سنوات يتلقى العلوم بمدارسها ، وعين بعد عودته مدرسا للرياضيات بمدرسة المهندسخانة ، وصار من كبار أساتذتها ثم وكيلا لها ، وتخرج على يده كثير من المهندسين المشار إليهم بالبنان ، وله مؤلفات فى الهندسة والرى ، منها كتاب (الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية) ترجمه عن الفرنسية وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤١ ، و(تحرك السوائل) طبع سنة ١٨٤٧ ، و (الدرة السنية فى الحسابات الهندسية) طبع سنة ١٨٥٢ .

---

(٧١) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٦٥ .
(٧٢) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٧٨ .

محمود باشا الفلكى

لم يكن محمود باشا الفلكى من تلاميذ بعثات محمد على لأنه التحق بالبعثة فى عهد عباس ، لكنه تعلم علومه الأولى فى مدارس محمد على وهو من زملاء العلماء المتقدم ذكرهم ، على أن حياته العامة ترتبط بعصر إسماعيل ، لذلك ترجمنا له فى كتاب « عصر إسماعيل » .

أحمد بك السبكى

من أعضاء البعثة الخامسة ، وهو من (سبك الثلاث) منوفية ، ترجم له العلامة على باشا مبارك لمناسبة الكلام عن سبك الثلاث (٧٣) فقال : « ومن هذه البلدة أيضا الأمير أحمد بك السبكى ابن أحمد بن سليمان عجيلة من عائلة تسمى العجايلة يقال إن أصلهم من بيت عجيل من مديرية الشرقية » . وذكر عنه أنه دخل صغيرا مكتب (مدرسة) منوف سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣ م) « ضمن أولاد المكاتب الذين جلبهم العزيز المرحوم محمد على باشا من البلاد » ، ثم نقل إلى مدرسة قصر العينى ، ثم إلى مدرسة أبى زعبل ، ثم إلى المهندسخانة ببولاق ، ثم سافر ضمن بعثة الأنجال إلى فرنسا ، فأقام بباريس سنتين ، ثم دخل مدرسة الفرسان الحربية ، وبعد تمام تعليمه حضر إلى مصر فى عهد إبراهيم باشا فجعل ضابطا من ضابط الفرسان بالألاى الأول برتبة ملازم أول سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٧م) ، وجُعل مدرسا فى ذلك الألاى ، وبعد سبع سنوات خرج من خدمة الألاى وألحق بالمهندسين الذين عهد إليهم رسم خريطة قنال السويس برتبة يوزباشى فى عهد سعيد باشا ، وبعد انتهاء هذه المهمة عهد إليه معاونة العالم الكبير محمود باشا الفلكى فى رسم خريطة الوجه البحرى ، وبعد انتهائها أنعم عليه برتبة صاغقول أغاسى ، ونال رتبة البكباشى فى أوائل عهد إسماعيل ، وألحق بديوان (وزارة) الأشغال ، ونال رتبة قائمقام ، وندب لمهات عديدة ، وصحب محمود باشا الفلكى إلى دنقله لرصد الكسوف الكلى للشمس سنة ١٢٧٦ (١٨٥٩) وسافر إلى سواكن بمعية إسماعيل باشا الفلكى لاكتشاف موضع يوافق إنشاء سكة الحديد من سواكن إلى شندى بالسودان ، فأقام فى هذه المهمة نحو أربعة أشهر فى عمل الرسوم ثم اتضح عدم إمكان إنفاذ المشروع وتتذ لما كان فى الطريق من الأودية والعقبات ، وعهد إليه مرة أخرى فى رسم خريطة الوجه القبلى من

(٧٣) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٩

أسيوط إلى القاهرة ، فاستوفاها رسما وميزانية ، وأيضا فى وضع تصميم ترعة تخرج من القناطر الخيرية إلى بحيرة مريوط ، فوضع لها الرسوم والميزانيات ، وبالجملة كان من كبار المهندسين الذين انتفعت البلاد من خدماتهم .

حسن بك نور الدين

هو من (سنهور) غربية ، ومن زملاء على باشا مبارك فى بعثة الأنجال ، ترجم له فى كلامه عن سنهور[٧٤] فقال عنه ما خلاصته أن مولده سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢م) وتلقى التعليم الأولى فى مكتب (كفر مجر) القريبة من سنهور ، وانتقل بعد سنتين إلى مدرسة طنطا فأقام بها سنة ، ثم التحق بمدرسة قصر العينى بمصر ، وانتقل منها إلى مدرسة أبى زعبل ، ثم إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وكان فى فرقة على باشا مبارك فأقام بالمدرسة خمس سنوات أتم فيها دراسة العلوم الرياضية النظرية والعملية وكان من ضمن السبعة الأوائل من الفرقة الأولى الذين اختارتهم الحكومة فى بعثة الأنجال لإتقان العلوم الحربية ، فسافر ضمن هذه البعثة ، ودخل مدرسة المهندسخانة بباريس ، واستمر بها سنتين ، ثم انتقل إلى مدرسة القناطر والجسور فأقام بها أربع سنوات ، وكان يجمع بين العلم والعمل ، فيقضى كل سنة ثمانية أشهر فى تلقى العلوم وأربعة أشهر فى مشاهدة الأعمال الهندسية فى المدن والأقاليم والثغور كالقناطر والموانئ والسكك الحديدية والمصانع .

وعاد إلى مصر سنة ١٨٥٤ وتقلد المناصب الفنية ، وكان من نوابغ المهندسين وله أعمال وخدمات جليلة فى السكك الحديدية والمالية ، ومنها ، أنه رسم تصميم سكة الفيوم الحديدية ، وأنشأ سكة حديد دسوق ، وخط الصالحية ، وعين باشمندس سكة حديد القاهرة وتنقل فى مناصب عدة ، قال عنه على باشا مبارك أنه « إنسان حسن السير والسيرة ، ديّن صالح ، محب للصلحاء والعلماء » .

---

(٧٤) الخطط التوفيقية جـ ١٧ ص ٦٠

الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا

ناظر مدرسة الطب ، وكبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى ، وهو من (زاوية البقلى) مركز منوف ، ومن أنبغ نوابغ البعثات العلمية ، ترجم له العلامة على باشا مبارك فوصفه « بالعالم التحرير ، والعَلَم الشهير ، السيد محمد على باشا الحكيم » ، ولد فى زاوية البقلى سنة ١٨١٥ ، وقد اشتهرت هذه البلدة بمن نبغ من أبنائها ، قال على باشا مبارك عنها[٧٥] : « وهذه القرية وإن كانت صغيرة لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثرة من ترقى منها فى الوظائف السنية والخدمات الميرية من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة » .

ترعرع المترجم فأدخله أهله مكتبا ببلده ، فتعلم الكتابة وشيئا من القرآن الحكيم ، وفى التاسعة من عمره أدخله أحمد أفندى البقلى مكتب أبى زعبل فلبث فيه ثلاث سنين وأتم قرءاة القرآن ، ثم دخل مدرسة أبى زعبل التجهيزية ، فمكث بها أيضا ثلاث سنين ، وبدت عليه مخايل الذكاء ، واشتهر بحسن السير ، فكان أول فرقته ، ثم دخل مدرسة الطب ، وكان ناظرها الدكتور كلوت بك ، فاشتهر بالنبوغ وتوقد القريحة ، وبذل جهده فى الدرس والتحصيل ففاق أقرانه ، ولما أتم دراسة الطب اختاره كلوت بك ضمن البعثة التى أرسلت لفرنسا للتبحر فى العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس « وبذل غاية جهده فى تحصيل العلوم الطبية والجراحية وشهد له جميع أساتذتها بالتفوق على من معه مع كونه أصغرهم سنا » .

وكان بارًّا بأهله ، ذكر عنه على باشا مبارك أن مرتبه حين ألحق بالبعثة كان مائة وخمسين قرشا ، فترك لوالدته خمسين ، وأبقى لنفسه المائة ، وأتم مع زملائه امتحانات الطب بمدرسة باريس ، ولم يبق عليه سوى تأليف الرسالة الطبية التى ينال بها دبلوم الطب ، فألف رسالة طبية فى الرمد الصديدى المصرى ، وحصل على الدبلوم ، وعاد إلى مصر سنة ١٨٣٨ ، فعين مدرسا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب وكبيرا لجراحى المستشفى ، ونال رتبة صاغقول أغاسى ، ثم بعد قليل أعطى رتبة بكباشى ، وفى عهد عباس باشا الأول انتقل من منصبه

(٧٥) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٨٤ .

بالقصر العينى ، وعين طبيبا فى أحد أقسام القاهرة وهو قسم قيسون وذلك « لمنافسة حصلت بينه وبين بعض أطباء المستشفى الأوروبيين » ، ولما ناله من الشهرة صار مقصد المرضى من جميع الجهات ، وقلّ الوارد على مستشفى قصر العينى ، وظلت شهرته فى اتساع ، ومكث كذلك نحو خمس سنين ، ثم نال رتبة قائمقام وعين كبيراً لأطباء الألايات السعيدية ثم عاد لمنصب كبير جراحى مستشفى قصر العينى وعين وكيلا للمدرسة ومدرس الجراحة بها ، ثم أنعم عليه برتبة أميرالاى ، وجعله سعيد باشا طبيبه الخاص ، مع إبقاء وظائفه وأخذه فى معيته ، وأنعم عليه برتبة المتمايز واصطحبه فى رحلته بأوروبا .

وفى عهد الخديو إسماعيل باشا عين ناظراً لمدرسة الطب ورئيسا لمستشفى قصر العينى ورغب إليه الخديو أن يؤلف الكتب لإحياء العلوم الطبية ، ونال الرتبة الأولى ، ثم عين رئيسا لأطباء الحملة الحربية التى جردها الخديو إسماعيل على الحبشة بقيادة السردار راتب باشا ، فأدى خدمات جليلة لجنود الحملة ، واستشهد هناك سنة ١٨٧٦ ، فكانت وفاته فى ساحة الواجب والجهاد .

ومما يذكر له أنه بذل جهدا كبيرا فى مكافحة الكوليرا التى انتابت مصر سنة ١٨٦٥ ، وكافأته الحكومة على جهوده بالنيشان المجيدى من الرتبة الثالثة .

وأظهر ناحية فى شهرته أنه كان نابغة الجراحين ، وكان باراً بالناس ، محبا للخير يعطف على الفقراء من المرضى ، فلا يطلب منهم أجراً ، وله فى الطب تآليف قيمة ، كتاب فى الجراحة الصغرى سماه « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » طبع سنة ١٨٤٣ ، وكتاب « غرر النجاح فى أعمال الجراح » فى جزأين طبع سنة ١٨٤٦ ، و « نشر الكلام فى جراحة الأقسام » لم يطبع ، وكتاب فى العمليات الجراحية الكبرى فى مجلدين سماه « غاية الفلاح فى أعمال الجراح » طبع سنة ١٨٦٥ ، وأصدر سنة ١٨٦٥ مجلة « اليعسوب » بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم دسوقى بك وهى أول مجلة طبية عربية ظهرت فى مصر .

إبراهيم بك النبراوى

هو من (نبروه) بمديرية الغربية ، تلقى التعليم الأولى فى مكتب البلد ، ثم ترك المكتب وتعلق بالبيع والشراء والتجارة ، وسافر إلى مصر للتجارة فخسر فيها فدخل الأزهر ، واشتغل بطلب العلم إلى أن اختارت الحكومة من الأزهر بعض تلاميذه لإلحاقهم بمدرسة الطب بأبى

زعبل ، فرغب المترجم الالتحاق بها فانتظم فى سلكها ونال بها رتبة ملازم ، ونبغ فيها ، فكان أحد أعضاء البعثة الطبية الذين اختارهم الدكتور كلوت بك لإتمام علومهم فى فرنسا ، فسافر ضمنها وأقام بفرنسا ١٣سنة وأتم علومه وعاد سنة ١٨٣٣ ، وارتقى إلى رتبة يوزباشى ، وعين أستاذا بمدرسة الطب وكانت قد انتقلت إلى (قصر العينى) وبعد قليل نال رتبة صاغ قول أغاسى ، وذاع صيته ، واشتهرت كفاءته ، فاختاره محمد على طبيبا له ، وقربه وأغدق عليه من المنح والإنعامات ، ونال رتبة أميرالاى ، وكان مقصد الأمراء والبيوت الكبيرة فى العلاج ، واصطحبه محمد على فى رحلته بأوروبا سنة ١٨٤٨ ، واختاره عباس باشا الأول أيضا طبيبا له بعد ولايته الحكم ، واصطحبته والدة عباس باشا فى رحلتها إلى الحجاز ، ولما رجع المترجم من الحج وجد زوجته الأفرنجية التى تزوج بها أثناء دراسته بأوربا قد توفيت ، فتزوج بإشراقة من جوارى والدة عباس باشا أنعمت بها عليه ، ومازال فى عز ونعمة إلى أن توفى سنة ١٨٦٢ . وقد وصفه العلامة على باشا مبارك الذى نقلنا عنه معظم هذه الترجمة بأنه كان إنسانا كريم الشيم ، رفيع الهمة يغلب عليه الفرح والانبساط ، فكنت تراه دائما مستصحباً للمغانى وآلات الطرب ، قال : وهو أنجب من اشتهر فى الجراحة ، ذو إقدام على مالم يقدم عليه غيره . فمن ذلك أنه كان يشق على ادرة الرجل ويعمل فيها العمليات المنتجة للصحة ولم يسبقه فى ذلك غيره[٧٦] .

وله من المؤلفات (الأربطة الجراحية) ترجمه عن الفرنسية وطبع سنة ١٨٣٨ ، ونبذة فى (الفلسفة الطبيعية) تأليف كلوت بك ترجمها إلى العربية ، ونبذة فى (أصول الطبيعة والتشريح العام) لكلوت بك أيضا ترجمها إلى العربية .

أحمد حسن الرشيدى بك

هو من نوابغ خريجى مدرسة الطب المصرية والبعثات ، ومن أركان النهضة الطبية العلمية بتآليفه وتراجمه ، وأكثر علماء الطب تأليفا وترجمة وتعريباً ، نشأ فى الأزهر ، وانتقل منه إلى مدرسة الطب فى أبى زعبل ، وأتم العلوم الطبية فى فرنسا ضمن أعضاء البعثة الرابعة ، وبعد عودته عين استاذا فى مدرسة الطب ، وأخذ فى الترجمة والتاليف بهمة لاتعرف اتكلل وكفاءة ومقدرة ومتانة فى اللغة فاق فيها زملاءه وأنداده ، وقد بلغت مؤلفاته تسعة فى عهد محمد

(٧٦) الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٣ .

على ، ثم ركدت حركة العلم والتأليف فى عصر عباس ، وسعيد ، فلما صارت الأريكة الخديوية إلى الخديو إسماعيل قربه إليه وحثه على العمل ، فألف كتاب (عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج) وتوفى سنة ١٨٦٦ ، وهاك مؤلفاته .

١ - (رسالة فى تطعيم الجدرى) ترجمها عن كلوت بك وطبعت سنة ١٨٣٦ .

٢ - كتاب (الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية) طبع سنة ١٨٣٨ .

٣ - (ضياء النيرين فى مداواة العينين) معرب عن الفرنسية طبع سنة ١٨٤٠ .

٤ - (طالع السعادة والإقبال فى علم الولادة وأمراض النساء والأطفال) ترجمه على هيبة أفندى الحكيم وصححه الرشيدى فى جزأين طبع سنة ١٨٤٢ .

٥ - نبذة فى (تطعيم الجدرى) طبع سنة ١٨٤٣ .

٦ - (بهجة الرؤساء فى أمراض النساء) طبع سنة ١٨٤٥ .

٧ - (نزهة الإقبال فى مداواة الأطفال) طبع سنة ١٨٤٥ .

٨ - (الروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية) فى مجلدين طبع سنة ١٨٤٧ .

٩ - (نخبة الأماثل فى علاج تشوهات المفاصل) .

١٠ - (عمدة المحتاج فى علمى الأدوية والعلاج) وهو أهم كتبه وهو دائرة معارف طبية فى أربعة مجلدات كبيرة ، طبع سنة ١٨٦٧ بعد وفاة المؤلف .

محمد الشافعى بك

من أعضاء البعثة الرابعة ، ولما عاد من فرنسا عين أستاذا بمدرسة الطب ، ثم ناظرا عليها ، وهو أستاذ سالم باشا الطبيب المشهور ، وله فى التأليف والترجمة كتاب :

١ - (أحسن الأغراض فى التشخيص ومعالجة الأمراض) طبع سنة ١٨٤٣ فى جزأين .

٢ - (الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال) لمؤلفه كلوت بك عربه المترجم وطبع بمطبعة بولاق ١٨٤٤ .

٣ - (السراج الوهاج فى التشخيص والعلاج) طبع سنة ١٨٦٤ فى أربعة مجلدات .

محمد الشباسى بك

من أعضاء البعثة الرابعة : أقام بفرنسا ١٣ سنة لإتمام العلوم الطبية ، ولما عاد إلى مصر عين أستاذا للتشريح بمدرسة الطب .

وله فى التأليف كتاب (التنوير فى قواعد التحضير) ألفه بإرشاد الدكتور كلوت بك وطبع سنة ١٨٤٧ - وعرب كتب (التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٥ .

مصطفى بك السبكى

من أعضاء البعثة الرابعة . ومدرس الرمد بمدرسة الطب ، ومن مشاهير أطباء العيون - توفى سنة ١٨٤٤ .

عيسوى أفندى النحراوى

من أعضاء البعثة الرابعة . أستاذ علم التشريح بمدرسة الطب ومترجم كتاب (التشريح العام) المطبوع بمطبعة بولاق سنة ١٨٣٥ .

حسين غانم الرشيدى أفندى

من أعضاء البعثة الرابعة ، كان قبل سفره إلى فرنسا من مصححى الكتب الطبية بمدرسة الطب ، سافر إلى فرنسا سنة ١٨٣٢ وأقام بها ١٣ سنة ، وأتقن علم الصيدلة ، وبعد عودته عين أستاذا لهذا الفن بمدرسة الطب ، ثم عين مديرا لمعمل الصيدلة فى عهد محمد على ، وهو مؤلف (الدر الثمين فى فن الأقرباذين) طبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٤٨ ، وقد أشاد كلوت بك بذكره هو والسيد أحمد حسن الرشيدى وعدهما من نوابغ البعثات المصرية .

محمد عبد الفتاح

من خريجى البعثة الثالثة ، ترجم كتبا عدة فى الطب والتاريخ الطبيعى ، منها كتاب .

١ - (نزهة المحافل فى معرفة المفاصل) . طبع سنة ١٨٤١ .

٢ – (مشكاة اللائذين فى علم الأقرباذين) طبع سنة ١٨٤٤ .

٣ – (البهجة السنية فى أعمار الحيوانات الأهلية) طبع سنة ١٨٤٤

٤ – (المنحة لطالب قانون الصحة) طبع سنة ١٨٤٥ .

على هيبة

من خريجى البعثة الأولى ، ومن كبار الأطباء . ترجم كتاب (طالع السعادة فى فن الولادة) الذى صححه أحمد حسن الرشيدى – وكتاب (إسعاف المرضى فى علم منافع الأعضا) ترجمه عن الفرنسية وطبع ببولاق سنة ١٨٣٦ .

حسين عوف باشا وإبراهيم دسوق بك
(طبيبا العيون)

كلاهما من تلاميذ البعثة السادسة ، وكلاهما أتم دراسة الطب والجراحة بمدرسة قصر العينى ، وبلغ رتبة يوزباشى ، ثم أرسل إلى النمسا سنة ١٨٤٥ للتخصص فى الرمد على الدكتور بجر الاختصاصى فى الرمد بمدينة (بج) ونال كلاهما شهادة التخصص من الأستاذ المذكور ، ولما عادا إلى مصر أمر محمد على باشا باقامتهما بالقاهرة للانتفاع بفنهما وعلاجهما أمراض العيون ، واختارت الحكومة بعض التلاميذ للتخرج على يدهما والتخصص فى الرمد لإرسالهم إلى البنادر المهمة للقيام بمهام أطباء الرمد .

وأنعم على كل منهما برتبة صاغقول اغاسى ، وقد وصل حسين عوف إلى رتبة الباشوية ، وكان من كبار أساتذة الطب ، وتخرج على يده كثير من الأطباء ، وكان إبراهيم دسوقى بك أيضاً من أساتذة المدرسة المذكورة .

مصطفى الواطى بك

من تلاميذ البعثة الخامسة ، أتم الطب فى مدرسة الطب المصرية ، وأرسل إلى باريس وأقام بها سنتين ونصفا للتخصص فى صناعة طب الأسنان ، وترأس فى مصر قسم ترجمة الطبيات بفروعها فى قلم الترجمة ثم صار وكيلا لمدرسة الطب .

عثمان أفندى إبراهيم

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وكان زميلا لمصطفى الواطى ، ولما عاد الاثنانُ أصدر محمد علي باشا أمره بابقائهما بالمستشفى لتدريس هذا الفن للتلاميذ ومعالجة المرضى .

رجال الدولة والسياسة

الأمير إسماعيل (الخديو إسماعيل باشا)

كان من تلاميذ البعثة الخامسة ، ودرس الفنون الحربية بفرنسا ، وتولى أريكة مصر بعد وفاة سعيد باشا ، وقد خصصنا للكلام عنه كتاب « عصر إسماعيل » .

محمد شريف باشا

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وهو الوزير الكبير شريف باشا مؤسس النظام الدستورى فى مصر ، وصاحب الموقف المشرف فى الدفاع عن وحدة مصر والسودان ، والمستقيل من رئاسة الوزارة اعتراضاً على سلخ السودان عن مصر ، والقائل كلمته الخالدة : « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ، ولما كانت حياته العامة قد اقترنت بعهد إسماعيل وتوفيق فقد ترجمنا له فى كتاب « عصر إسماعيل » .

الحربية والإدارة العسكرية

مصطفى مختار بك

مدير ديوان المدارس

من تلاميذ البعثة الأولى ، وكان من قبل موظفا بديوان محمد على ، وتخصص لدراسة الفنون الحربية ، وكان هو وعبدى شكرى (باشا) وحسن (باشا) الإسكندرانى بمثابة الرؤساء الثلاثة للبعثة الأولى ، وقد خصهم رفاعة بك الذى زاملهم فى الدراسة بالذكر فقال عنهم[٧٧] : « قد بعث صاحب السعادة (محمد على باشا) فى السفر إلى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء

(٧٧) فى كتابه تخليص الابريز ص ٢٠ .

من أكابر ديوانه السعيد ، وجعلهم أرباب نظر عام على من عداهم وهم على هذا الترتيب ، فأولهم صاحب الرأى التام والمعرفة والأحكام ، حائز فضيلتى السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم حضرة عبدى أفندى المهر دار ، والثانى صاحب الرأى السديد ، والطالع السعيد ، من خلع فى حب المعالى العذار ، حضرة مصطفى مختار أفندى الدويدار ، والثالث الحاوى بين العلم والعمل ، واليراع والأسل ، حضرة الحاج حسن الإسكندرانى » .

وقد عاد المترجم من فرنسا بعد أن أتم دراسته سنة ١٨٣٢ ونال رتبة بكباشى ولقب بك ، واشترك فى الحرب السورية الأولى وكان فيها من خاصة أركان حرب إبراهيم باشا وياورا له [٧٨] ، ثم عين بعد ذلك رئيس مجلس شورى المدارس ، ثم مدير « ديوان المدارس » ، فهو أول وزير للمعارف فى تاريخ مصر الحديث ، وعين رئيسا للمجلس العالى فى عهد محمد على باشا خلفا لعبدى شكرى باشا ، وكانت الأعمال الهندسية محالة إلى عهدته ، فكان وزيرا للمعارف والأشغال وتوفى سنة ١٨٣٨ .

أمين بك الكرجى

من تلاميذ البعثة العلمية الأولى ، أتقن فى فرنسا فن صب المدافع وصنع الأسلحة ، وعين بعد عودته بالطوبخانة المصرية « معمل الأسلحة والمدافع » برتبة يوزباشى ، وأخذ يتدرج إلى أن صار ناظر الكهرجالات (معامل البارود) فى عهد محمد على ، ونال رتبة أميرالاى ، وقد ذكره كلوت بك فى كتابه ، وعده فى مقدمة نوابغ البعثات المصرية ويسميه (أمين بك مدير فابريقة ملح البارود) .

أحمد بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص فى فرنسا لدراسة الفنون الحربية ، وقضى فى دراسته ست سنوات ، واشترك فى الحرب السورية الأولى ، وكان من أركان حرب إبراهيم باشا ، وقد عهد إليه بعد صلح كوتاهيه بتحصين مضايق جبل طوروس التى انتهت إليها حدود مصر الشمالية ، فاضطلع بهذه المهمة وقام بها خير قيام ، واشترك معه فيها الكولونل سليم بك ، ولازم إبراهيم باشا فى واقعة نصيبين .

(٧٨) رسائل البارون (بو الكونت) ص ٢٤٤ .

على باشا إبراهيم

ناظر المعارف العمومية فى عهد توفيق باشا ، تعلم بمدارس مصر ، وسافر إلى فرنسا سنة ١٢٦٠هـ ضمن البعثة الخامسة ، وأقام بباريس سنتين ، ثم نقل إلى مدرسة الطوبجية بمدينة (متس) Metz وأقام بها سنتين ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى ، وألحق بالألايات الفرنسية ، وفى سنة ١٢٦٦ أمر عباس باشا الأول بعودة جميع طلبة البعثة ، فعاد المترجم إلى مصر ، ونال رتبة يوزباشى ، وعين مدرسا لإلهامى باشا ابن عباس باشا[٧٩] ، ثم ألحق بأركان حرب سليمان باشا الفرنساوى (الكولونل سيف) وصار ناظرًا للمدرسة التجهيزية سنة ١٨٦٤ ثم ناظراً لدروس المدارس الحربية ، ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة ، ثم ناظراً للمعارف العمومية .

حماد عبد العاطى (باشا)

أصله من (دير الجنادلة) مركز أبو تيج ، يسميه على باشا مبارك « الأمير الجليل حماد بك ابن عبد العاطى ، كان له جد شهير يسمى عيسى له زاوية هناك تسمى زاوية عيسى »[٨٠] .

نشأ نشأته العلمية الأولى فى مدرسة أبو تيج سنة ١٢٤٩هـ ، ثم انتقل منها إلى مدرسة قصر العينى ، ثم مدرسة أبى زعبل ، ثم إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم انتخب ضمن تلاميذ البعثة الخامسة لتعلم الفنون الحربية بفرنسا ، فدخل مدرسة المدفعية بمدينة (متس) ودرس بها فن الاستحكامات والفنون الحربية الأخرى ، وخدم فى الألايات الطوبجية الفرنسية لحو سنة ، ثم عاد إلى مصر ، وتدرج فى وظائف عدة ، منها التدريس بالمدارس الحربية ، ونظارة قلم الهندسة بديوان الأشغال ، ونال رتبة البكباشى ، ثم الميرالاى ، وصار مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة[٨١] سنة ١٨٧٩ .

---

(٧٩) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٤٥ .

(٨٠) الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٧١ .

(٨١) كما ذكر فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة .

الملاحة والعلوم البحرية وبناء السفن

الأميرال عثمان نور الدين باشا

هو من أول من أرسلهم محمد على إلى أوروبا لتلقى العلوم ، وقد ترجمنا له فى الفصل الحادى عشر (ص ٤٥١ بالطبعة السابقة) .

الأميرال حسن باشا الإسكندرانى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لدراسة فنون الملاحة والهندسة البحرية فى فرنسا ، وكان يبلغ من العمر حين سفره بهذه البعثة ٣٧ سنة ، وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ، فالتحق بالأسطول المصرى ، وبرهن على كفاءته ومهارته ، وارتقى فى المناصب إلى أن صار رئيس ترسانة الإسكندرية وناظرًا للبحرية ونال رتبة الباشوية .

وقد تولى قيادة الأسطول المصرى الذى حارب الروسيا فى حرب القرم سنة ١٨٥٣ فى عهد عباس باشا الأول وسعيد باشا ، وكان هذا الأسطول مؤلفا من ١٢ سفينة حربية ، وأظهر شجاعة ودراية ، وغرق فى تلك الحرب سنة ١٨٥٥ مع السفينة (مفتاح جهاد) التى كانت تقله وغرق معه معظم جنود وضباط السفينة ، وكانت هذه آخر الحملات التى قامت بها السفن الحربية من الأسطول الضخم الذى أنشأه محمد على الكبير .

محمد شنان بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لدراسة العلوم والفنون البحرية ، وبعد عودته خدم الأسطول ، وتولى قيادة السفينة الحربية (البحيرة) من سفن الأسطول المصرى الذى كان يقوده الأميرال حسن باشا الإسكندرانى فى حرب القرم كما تقدم ذكره ، وغرق مع السفينة المذكورة .

محمود نامى بك

من تلاميذ البعثة الأولى وزميل حسن (باشا) الإسكندرانى وشنان (بك) فى البعثة المذكورة ، وبعد عودته عينه محمد على محافظا لبيروت أثناء الفتح المصرى ، فبقى بهذا المنصب

سبع سنوات من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٤٠ وسار سيرة عدل وإصلاح مما حببه إلى نفوس الأهلين ، وهو جد الداماد أحمد نامى بك رئيس حكومة سورية سابقا .

محمد بك راغب

من تلاميذ البعثة الثالثة ، تخصص فى إنجلترا لتعلم فن بناء السفن ، وعين مع حسن بك السعران لرئاسة قسم الهندسة وإنشاء السفن فى ترسانة الإسكندرية وتوليا العمل الذى كان يقوم به المسيو سريزى بك فى الترسانة .

عبد الحميد الديار بكر لى ويوسف أكاه أفندى وعبد الكريم أفندى .

تعلموا الفنون البحرية فى إنجلترا وصاروا من أمهر ضباط الأسطول المصرى .

الحقوق والعلوم السياسية

عبدى شكرى باشا

من تلاميذ البعثة الأولى وهو ابن حبيب أفندى كتخدا محمد على ، وقد التحق بالبعثة وعمره ٢٩ سنة ، وتخصص لدراسة الحقوق والإدارة الملكية ، وعاد من فرنسا سنة ١٨٣٠ ثم عين مأمورا للبعثة بفرنسا وترقى فى المناصب إلى أن صار رئيسا للمجلس العالى فى عهد محمد على ونال رتبة الباشوية ، وعين مديرا لديوان المدارس أى وزيرا للمعارف العمومية فى عهد عباس باشا الأول ، وقد ذكره الدكتور كلوت بك ضمن نوابغ خريجى البعثات .

أرتين بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، عاد من فرنسا بعد أن أتم دراسة الحقوق والإدارة الملكية ، وعين وكيلا لمدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم سكرتيرا أول وترجمانا لمحمد على باشا ، وهو الذى تولى إبلاغ وكلاء الدول بمصر (إبريل سنة ١٨٣٩) بلاغ محمد على قبل الحرب السورية الثانية أنه كتب إلى إبراهيم باشا ألا يخوض غمار الحرب إلا إذا تحقق من زحف الجيش العثمانى ، وقد صار وزيرا للتجارة والخارجية خلفا لبوغوص بك ، ويعده الدكتور كلوت بك من نوابغ البعثات المصرية وهو والد يعقوب أرتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية سابقا .

أسطفان بك

من تلاميذ البعثة الأولى ، وقد عين مديرا للمدرسة المصرية التى أنشئت للبعثة العلمية الخامسة بباريس ، ويعده الدكتور كلوت بك من نوابغ البعثات ، وكان من كبار موظفى الحكومة فى عهد عباس باشا الأول ووزيرا للخارجية فى عهد سعيد باشا .

عبد الله بك السيد

من تلاميذ البعثة الخامسة ، وهو من العجميين بالفيوم ، تعلم فى مدرسة الألسن وأتقن علومها والتحق بالبعثة الخامسة ، وتخصص فى فرنسا لدراسة الحقوق ، وبعد عودته تقلد المناصب فى الحكومة وآخرها أنه عين رئيسا للمحكمة التجارية بالإسكندرية ، ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة سنة ١٨٧٥ وتوفى سنة ١٨٧٦ (٨٢) .

الطبيعيات والزراعة

أحمد يوسف أفندى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص فى دراسة العلوم الكيماوية ، وعين بعد عودته ششنجيا بدار الضرب سنة ١٨٣٢ ، وقد صحب محمد على باشا فى رحلته بالسودان للكشف عن مناجم الذهب ، وذكره فى هذا الصدد رفاعة بك رافع ويسميه أحمد أفندى يوسف الجشنجى (٨٣) ورحل أيضا إلى بلاد المكسيك بأمريكا لزيارة مناجم الذهب بها ، ثم عين مديرا لدار الضرب وكانت من المناصب الكبيرة فى ذلك العهد .

حسنين أفندى على البقلى

من تلاميذ البعثة الثانية وهو أخو محمد على باشا البقلى ، تعلم بمدرسة قصر العينى ثم التحق بالبعثة الثانية ، وبعد عودته عين جشنجيا بدار الضرب بالقلعة ومدرس الكيمياء والطبيعة بقصر العينى وتوفى سنة ١٨٥٣ ، قال عنه على باشا مبارك (٨٤) أنه « كان من أحسن الناس خلقا وخُلقا وله وقوف تام على صنعته » .

---

(٨٢) كما جاء فى الكتاب الذهبى للمحاكم المختلطة . (٨٣) مناهج الألباب المصرية ص ٢٥٦ طبعة ثانية .

(٨٤) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٨٧٩.

أحمد بك ندا

من تلاميذ البعثة الخامسة ، تخصص فى العلوم الكيماوية وأتقن صناعة الصابون وشمع العسل ، وعين بعد عودته أستاذا فى مدارس الطب والمهندسخانة وأركان الحرب ، وله مؤلفات جليلة ، منها (الأقوال المرضية فى علم الطبقات الأرضية) طبع ببولاق سنة ١٧٨١ ، و (حسن البراعة فى علم الزراعة) ترجمه من الفرنسية عن فيجرى بك طبع ببولاق سنة ١٨٦٦ ، و (حسن الصناعة فى علم الزراعة) وهو من تأليفه طبع ببولاق سنة ١٨٧٤ ، و (الآيات البينات فى علم النباتات) طبع ببولاق سنة ١٨٦٦ ، و (الحجج البينات فى علم الحيوانات) ترجمه من الفرنسية طبع ببولاق سنة ١٨٦٧ ، وله مباحث جليلة فى علم النبات نشرت بمجلة روضة المدارس .

عبد الهادى إسماعيل

من تلاميذ البعثة الخامسة ، أتم دراسته بمدرسة الطب البيطرى بمصر ثم بفرنسا وعين بعد عودته مدرسا بمدرسة الطب البيطرى ، وآخر المناصب التى تولاها أن عين ناظراً لمدرسة الطب البيطرى فى عهد الخديو إسماعيل .

يوسف أفندى

من تلاميذ البعثة الأولى ، تخصص لعلوم الزراعة وعين بعد عودته مديرا للحدائق وناظراً لمدرسة الزراعة بنبروه .

الفنون الجميلة

حسن أفندى الوردانى

من تلاميذ البعثة الأولى ، أتم فى فرنسا دراسة الرسم والزخرفة والفنون الجميلة ، وعين بعد عودته مدرسا لفن الرسم والنقش بمدرسة المهندسخانة ببولاق بدل الأستاذ الفرنسى الذى كان بها ، ونبغ فى فنه وتخرج على يده كثير من التلاميذ ، وقد أشاد الدكتور كلوت بك بذكره فى كتابه وعدّه من نوابغ البعثات المصرية .

محمد أفندى مراد

من تلاميذ البعثة الثالثة ، عين بعد عودته أستاذا فى الرسم والنقش والزخرفة ، وكان نابغاً فى فنه ، وقد امتدحه الدكتور كلوت بك فى كتابه وعده من نوابغ البعثات .

محمد أفندى إسماعيل

من تلاميذ البعثة الثالثة أيضا ، قضى فى أوروبا ٢١ سنة ، وعين بعد عودته أستاذا بمدرسة المدفعية (الطوبجية) فى طره وكان ماهرا فى الرسم والنقش والزخرفة ، وقد أثنى عليه الدكتور كلوت بك فى كتابه .

حسين باشا كوجك

هو حسين باشا فهمى المعمار ، كان من تلاميذ البعثة الخامسة ، ونبغ فى فنون الهندسة والرسم والزخرفة ، وتولى وظيفة وكيل ديوان الأوقاف ، وهو واضع رسم ومقاسات مسجد الرفاعى بالقاهرة بناء على تكليفه من قبل والدة الخديو إسماعيل باشا[٨٥] وقد تم بناء المسجد بعد وفاته .

محمد صادق باشا

أتم فى فرنسا دراسة الرسم والزخارف وعين بعد عودته مدرسا للرسم بالمدارس ثم بالمدرسة الحربية بالقلعة فى عهد سعيد باشا .

الطباعة والصحافة والنشر

إن الكلام عن الطباعة يتصل بالنهضة العلمية ، فهى من أهم أسباب هذه النهضة إذ هى الوسيلة العملية لنشر العلوم والمعارف ، ولم يفت محمد على باشا توجيه عنايته إليها ، فقد تقدم القول بأنه أرسل إلى روما وميلانو نقولا مسابكى أفندى سنة ١٨١٦ للتخصص فى فن

(٨٥) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١١٤ .

الطباعة [٨٦] ، وقد اعتزم من ذلك الحين إنشاء مطبعة بولاق تلك المؤسسة الجليلة التى مازالت قائمة إلى اليوم تشهد بما أداه محمد على للنهضة العلمية من جليل الخدمات .

أسست المطبعة فى نوفمبر سنة ١٨٢٠ ، وجُعل نقولا مسابكى أفندى مديرا لها وأمدها محمد على باشا بكل ما يلزمها من الحروف والمكابس والآلات حتى استوفت حظا كبيراً من الإتقان ، وأعدها لطبع لوائح الحكومة ومنشوراتها ولطبع الكتب العلمية فى الطب والرياضيات والآداب والتاريخ والعلوم الفقهية وغيرها .

ومما يدل على شديد عنايته بها أنه اختار للقيام بتصحيح مطبوعاتها طائفة من علماء الأزهر ، والتصحيح فنّ دقيق ينبنى عليه إخراج الكتب والمؤلفات صحيحة خالية من الأغلاط المطبعية التى تشوهها ، ولعلك تلاحظ فى الكتب التى كانت تطبع فى ذلك العصر خلوها من الأغلاط ، وهذا راجع إلى حسن اختيار المصححين فى مطبعة بولاق .

فى هذه المطبعة ظهرت باكورة الكتب المترجمة والمؤلفة فى بدء النهضة العلمية الحديثة ، فلا غرو أن كانت من دعائم هذه النهضة ، وقد عنى خريجو المدارس والبعثات بنقل العلوم التى نقلوها إلى اللغة العربية ثم بالتأليف فيها ، ومن هنا نشأت نهضة الترجمة والتأليف التى ازدان بها عصر محمد على ، وأخذت العلوم والمعارف تنتشر تدريجا بين طبقات الشعب ، وكان لحسن تنشيط الحكومة لهذه النهضة أثر فعال فى إظهارها ، فإن محمد على كان يستحث العلماء والمؤلفين على الترجمة والتأليف ويكافئهم مكافآت سخية ، ويستثير فى نفوسهم روح الهمة والعمل ويأمر بطبع مؤلفاتهم على نفقة الحكومة وتوزيعها فى المدارس والدواوين .

ومما يُروى عنه فى هذا الصدد أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة وسلم كلا منهم كتابا بالفرنسية فى المادة التى درسها بأوروبا وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية ، وأمر بإبقائهم فى القلعة وإلا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم ، فترجموها فعلا وأمر بطبعها فى مطبعة بولاق وتوزيعها على المدارس التى وضعت لها تلك الكتب ، ونظراً لأن المترجمين فى بدء النهضة كانوا فى حاجة إلى من يراجع كتبهم قبل طبعها لضبط عباراتها ، فقد اختار محمد على طائفة من « المحررين » من علماء الأزهر مهمتهم مراجعة عبارات الكتب قبل طبعها وضبط ألفاظها ومصطلحاتها ، وقد قام بهذا العمل وقتا ما أساتذة مدرسة الألسن وتلاميذها ، ومن المحررين الذين مهروا فى عملهم الشيخ محمد عمر

(٨٦) راجع ما كتبناه عن الطباعة فى عهد الحملة الفرنسية بالجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية »

التونسى صاحب « الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية » ، وهو معجم للمصطلحات الطبية ، والشيخ محمد عمر الهراوى ، والشيخ مصطفى حسن كساب وغيرهم .

وقد ذكرنا فى تراجم أعضاء البعثات نموذجا من الكتب المعربة والمؤلفة التى طبع معظمها فى مطبعة بولاق .

وعدا هذه المطبعة كان يوجد مطابع أخرى صغيرة ، منها مطبعة بمدرسة المدفعية بطره ، وأخرى فى أبى زعبل ، وثالثة فى مدرسة الفرسان بالجيزة ، وكانت هذه المطابع تخرج لوائح ومطبوعات هذه المدارس وبعض مؤلفات تلاميذها .

وفى مطبعة بولاق كانت تطبع (الوقائع المصرية) وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، أسست سنة ١٨٢٨ وصدر أول عدد منها فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٢ (٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨) وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم اقتصرت على اللغة العربية ، وتنشر أخبار الحكومة ودواوينها ومصالحها وبعض الأنباء الخارجية ، وهى أول جريدة عربية أسست فى مصر ، ولم يسبقها إلى الظهور جريدة أخرى فى تاريخ مصر الحديث ؛ إذ أن الجرائد التى ظهرت على عهد الحملة الفرنسية كانت تنشر باللغة الفرنسية ، أما « سلسلة التاريخ » التى كان يحررها السيد إسماعيل الخشاب فلم تكن جريدة وإن كان بعض المؤلفين يسميها خطأ جريدة الحوادث اليومية ، بل كانت سجلا لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، وكذلك صحيفة « التنبيه » التى اعتزم الجنرال منو إصدارها بالعربية لم تصدر فعلا كما بيناه فى الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية (٨٧) » .

وقد ظلت (الوقائع المصرية) الجريدة الرسمية للحكومة المصرية حتى اليوم ، فهى أقدم الصحف العربية وأطولها عمرا .

* * *

(٨٧) راجع الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ص ١٤٥ والجزء الثانى ص ٢٢٣ و ٢٢٨ (ومن الطبعة الأولى) .

الفصل الثالث عشر

أعمال العمران والحالة الاقتصادية

من القواعد الأساسية فى نهضة الأمم أن إنماء ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالى من أكبر دعائم الاستقلال ، لأن العمران مادة التقدم ، والثروة الأهلية هى قوام الاستقلال المالى ، ولا يتحقق الاستقلال السياسى مالم يدعمه الاستقلال المالى والاقتصادى ، تلك الحقائق التى أجمعت الآراء على صحتها ووجوب العمل بها ، كان محمد على أول من قدرها قدرها ، فقد اتجهت أنظاره منذ أوائل حكمه إلى إصلاح حالة البلاد الاقتصادية وإنشاء أعمال العمران فيها لتنمو ثروتها القومية ، ولم تفتر عزيمته عن متابعة جهوده من هذه الناحية حتى خلّف أعمالا ومنشآت يزدان بها تاريخه .

منشآت الرى والزراعة

سد ترعة الفرعونية

فمن أول أعماله سد ترعة الفرعونية ، وقد ذكره الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢١ (١٨٠٦ م) وذى الحجة سنة ١٢٢٣ (يناير سنة ١٨٠٩) وذكر إتمامه فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٤ (أبريل سنة ١٨٠٩) ، وذكر المسيو لينان (باشا) دى بلفون[1] . كبير مهندسى الرى فى عصر محمد على عن هذه الترعة أنها كانت تصل بين فرعى النيل بادئة من بير شمس ومارة بمنوف ثم تصب فى فرع رشيد ، وكان الغرض منها تغذية هذا الفرع من مياه فرع دمياط وأن هذه الترعة قد أضرت بالبلاد والأراضى القائمة على فرع دمياط والتى تروى منه وخاصة من المنصورة وما يليها شمالا ، لأن الترعة كانت تستنفد الكميات الكبيرة من هذا الفرع فيقل ماؤه ، ويطغى عليه البحر فيختلط بماء النيل ويفسده بملوحته إلى قبلى فارسكور ، فتحرم زراعة الأرز فى تلك الجهات من ماء الرى العذب ، وقد شكا أهلها على توالى السنين ما تجلبه عليهم هذه

(١) فى كتابه (مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة التى تمت فى مصر) ص ٣٤٣ .

الترعة من المضار ، فسدها محمد على بجسر من الأحجار ليمنع انسياب مياه فرع دمياط إلى الفرع الآخر ، وأنشأ ترعا أخرى تعوض جهات البحيرة ما كان يجيئهم من ترعة الفرعونية قبل سدها .

فتح ترعة المحمودية

ومن أعماله الجليلة شقّ ترعة المحمودية (ترعة الإسكندرية القديمة أو خليج الأشرفية)[٢] وكانت الأتربة والرمال قد طمرتها ، فشرع فى حفرها وجعل فتحتها من (العطف) بعد أن كانت الترعة القديمة تأخذ مياهها من الرحمانية ، ولم يجعل فتحتها عند الرحمانية لما كان بها من تراكم الردم والرمال .

وقد عُنى بفتح هذه الترعة عناية كبيرة ، فكان يتعهد الأعمال فيها بنفسه ، وبذل همة عالية فى سبيل إتمامها ، وكان غرضه من شقها إحياء الأراضى الزارعية فى مديرية البحيرة ، وجعل الترعة طريق المواصلات النيلية بين الإسكندرية وداخل البلاد ، وكانت المواصلات من قبل بطريق رشيد ، ولكن صعوبة اجتياز البوغاز كانت تعطل المواصلات من هذا الطريق ، وكان ذلك من أهم البواعث التى حفزت محمد على باشا إلى إنشاء الترعة ، وقد عهد بتصميم حفرها إلى مهندس فرنسى ، وهو المسيو كوست Coste . ولما تم حفرها افتتحها فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ وذهب خصيصا إلى الإسكندرية لحضور الافتتاح مصحوبا بابنه إبراهيم باشا وصهره الدفتردار ، وطبوز اوغلى .

وقد اقتضى حفر هذه الترعة بذل مجهودات هائلة ومتاعب جسيمة وضحايا كثيرة احتملها المصريون ، واحتسبوا فيها وصابروا وصبروا . ويكفيك لتعرف مبلغ الضحايا التى بذلت فى هذا السبيل ما كتبه فى هذا الصدد المسيو (مانجان) الذى كان شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العصر ، فقد ذكر أنه مات من الفلاحين الذين اشتغلوا فى حفر ترعة المحمودية اثنا عشر ألفا فى مدة عشرة أشهر ، وأن هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتى الترعة تحت أكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها ، وقال إن معظمهم مات من قلة الزاد والمؤونة أو من الإعنات فى العمل ، وكذلك من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الجنود القساة المنوط بهم حراستهم . فقد كانوا يجبرونهم على العمل المهلك بدون انقطاع ولا هوادة من الفجر إلى الليل ، وقال إن

(٢) كانت الترع تسمى فى ذلك العصر خلجانا فيقال خليج الأشرفية عن ترعة الأشرفية

عدد من اشتغلوا فى حفرها بلغ ٣١٣٠٠٠ من الفلاحين جىء بهم من مديريات البحيرة ، والغربية ، والشرقية ، والدقهلية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة .

وقد أتت هذه الترعة بثمرات عظيمة ، فمن جهة المواصلات صارت تجرى فيها السفن بين الإسكندرية والداخل تحمل حاصلات البلاد أو وارداتها ، وكانت سبباً فى عمران البلاد التى مرت بها فى إقليم البحيرة وإحياء أراضيها ، وأفاد عمران الإسكندرية منها فائدة كبرى ، إذ جعلتها الترعة ملتقى المتاجر الذاهبة إلى داخل البلاد أو الآتية منها ، فاتسعت حركة التجارة والعمران فيها ، فضلا عن أن مياه الترعة قد ساعدت على الإكثار من الزرع وغرس الأشجار والحدائق فى ضواحى المدينة ، فاتسع نطاق العمران ، وابتنى الأغنياء القصور وأنشأوا البساتين على ضفاف الترعة فى جهات كانت من قبل مقفرة جرداء .

وقد زار المارشال (مارمون) هذه الجهات سنة ١٨٣٤ فاستوقفه ماشاهده من الحدائق الغنّاء المنشأة بعد فتح ترعة المحمودية ، وكان يعرف حالة الإسكندرية وضواحيها مذ كان قومنداناً للثغر فى عهد الحملة الفرنسية ، فاستطاع أن يدرك الفارق العظيم بين حالتها القديمة ، وما أوجدته الترعة من العمران والتقدم .

وأفرد الجبرتى نبذا عديدة لفتح ترعة المحمودة ، وهذا يدلك على أنها كانت عملا جليلا من أهم أعمال العمران فى ذلك العصر ، فذكر بدء حفرها فى حوادث جمادى الثانية سنة ١٢٣٢ (أبريل سنة ١٨١٧) ، ثم ألمع إلى استمرارالعمل فيها فى حوادث شعبان سنة ١٢٣٢ (يونيه سنة ١٨١٨) ، ثم انقطعت أخباره عنها ، والظاهر أن انهماك محمد على فى الحرب الوهابية إذ كانت فى دورها الأخير أدى إلى انقطاع العمل فى حفر الترعة وقتا ما ، وعاد الجبرتى إلى ذكر اهتمام الباشا بأمر الترعة وحفرها فى حوادث ربيع الثانى وجمادى الأولى سنة ١٢٣٤ (يناير وفبراير سنة ١٨١٩) ، وتكلم فى حوادث شوال سنة ١٢٣٤ (أغسطس سنة ١٨١٩) عن ضحايا الترعة ، ولعمرى إن وصفه ليعطينا فكرة جلية عن مبلغ ماقاساه الفلاحون من الأهوال فى حفرها ، وكثرة من مات منهم من الشدائد التى عانوها .

فإذا قرأتَ ما ذكره الجبرتى فارجعْ بفكرك إلى الماضى ، واذكر أن الأراضى الواسعة والبلاد العامرة التى تمر فيها الآن ترعة المحمودية من منبعها إلى مصبها كانت صحراء قاحلة لا ينبت فيها زرع ، ثم تحولت بعد حفرها إلى مزارع تزدهر بالحياة والعمران ، وإذا ذهبت يوما إلى دمنهور وأخذت الطريق الزراعى المعبَّد الذى يصل بك إلى الإسكندرية ، رأيت ترعة المحمودية

تنساب بمنظرها البديع ومائها الرقراق بين بلدان عامرة ، وحدائق غناء ومزارع نضرة ، وأشجار باسقة ، طيور تحلق زرافات فى السماء أو تغرد فوق الأغصان المتهدلة على جانبى الطريق ، ووجدت على امتداد البصر مناظر تملأ النفس بهجة وسروراً ، وكلما سرت فى الطريق رأيته مكتظا بالمركبات والدواب تنقل الناس من مختلف البلاد ، وتحمل حاصلاتهم ومتاجرهم ، وترى الترعة ذاتها لا ينقطع فيها عبور المراكب والصنادل والبواخر حاملة المتاجر ذاهبة وآتية بين الإسكندرية ودمنهور ، فحيثما ذهبتَ تجد معالم العمران المترامى مداه ، وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق ، فإذا سرّحت الطرف فى تلك المناظر البهجة فاذكر أن الفضل فى ذلك العمران يرجع لمن حفروا بأيديهم ترعة المحمودية ، وبذلوا مهجهم وأرواحهم حتى جرى ماء النيل فى تلك النواحى حاملا إلى الخلائق والناس والأراضى عناصر الخصب والحياة ، وإذا تأملتَ فى كل ذلك فاذكر تضحيات الآباء والأجداد ، ومبلغ ما بذلوه فى سبيل رفاهية الأجيال والأعقاب ، وتمهلْ فى سيرك قليلا ، واستمطر الرحمة على من استشهدوا فى سبيل ذلك العمران ، وتمثل بقول المعرى :

خفّف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدم العهد هوان الآبـاء والأجداد

قال الجبرتى فى وصفه : « وكان الباشا سافر إلى الإسكندرية بسبب ترعة الأشرفية ، وأمر حكام الجهات بالأرياف بجمع الفلاحين للعمل ، فأخذوا فى جمعهم ، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المراكب ، وتعطلو عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعد ما قاسوا ما قاسوه ، ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح ، ولما رجعوا إلى بلادهم للحصيدة طولبوا بالمال وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن ، وكيلة قمح ، وكيلة فول ، وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون ، الكيل الوافر ، فما هم إلا والطلب للعود إلى الشغل فى الترعة ونزح المياه التى لا ينقطع نبعها من الأرض ، وهى فى غاية الملوحة ، والمرة الأولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر وقلة المياه العذبة ، فينقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة وتأخر رى الإسكندرية » ، وذكر انتهاء حفر الترعة فى حوادث ربيع

الأول سنة ١٢٣٥ (ديسمبر سنة ١٨١٩) ، وختم كلامه بقوله : « ورجع المهندسون والفلاحون إلى بلادهم بعد ما هلك معظمهم » ، وذكر سفر محمد على باشا إلى الإسكندرية للاحتفال بفتح الترعة فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢٣٥ (يناير سنة ١٨٢٠) .

الترع الأخرى

وشق محمد على ترعا أخرى فى مختلف المديريات ، وكان يعنى بتطهيرها وصيانتها ، وهاك بيان أهم الترع التى أنشئت فى عهده :

فى البحيرة : المحمودية ، والخطاطبة .

فى الغربية : امتداد ترعة الجعفرية . وترعة مسجد الخضر (الخضراوية) ، وبجيرم .

فى الدقهلية : البوهية ، والمنصورية ، والشرقاوية ، وأم سلمة ، ودويدة .

فى المنوفية : النعناعية ، والسرساوية والباجورية .

فى الشرقية : ترعة الوادى ، والمسلمية ، وبحر مشتول ، والصادى ، وبحر الرمل وترعة بردين ، ومصرف بلبيس .

فى القليوبية : الزعفرانية ، والباسوسية ، والشرقاوية ، والقرطامية ، والبولاقية القبيلة وترعة قنبة ، ومصرف العموم .

فى بنى سويف : ترعة البرانقة .

فى المنيا : ترعة الفشن .

فى جرجا : ترعة السبخة ، والمرعشلى .

فى قنا وإسنا : ترعة الشنهورية ، وتوسيع ترعة بلاجيا ، والرمادى ، والعقيلى والشال ، والنابه .

الجسور

ومن أعماله إنشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة إلى البحر الأبيض المتوسط لمنع لطغيان المياه على الضفتين ، وقد اشتركت البلاد والقرى فى إقامة هذه الجسور بنسبة ما يخص زمامها ، وأنشأ جسورا أخرى فرعية ، منها جسر الرقة فى بنى سويف ، وجسر

الطهنشاوى والقيسى ، والبرانقة فى المنيا ، وجسر دنهيا ، وجسر فاو ، وبنى كلب ، والمحرق ، وكودية بأسيوط ، وجسر مشطا ، والشباسات ، والوادية ، والمنشاة فى جرجا ، وجسر فرشوط ، وجسر أبو دياب فى قنا .

القناطر

وأنشأ قناطر عديدة على الترع لضبط مياهها تيسيرا للانتفاع بالرى منها ، وأهمها القنطرة الكبرى ذات العيون التسع على بحر مويس بالزقازيق ، وقناطر المسلمية ، وبحر مشتول ، والصفراء ، والعلاقمة ، وفاقوس بالشرقية ، وقناطر البريجات والمحمودية (فى البحيرة) — وقناطر البوهية ، والمنصورية (فى الدقهلية) — وقناطر السنطة ، والراهبين ، ودميرة ، وتيرة . وبيلة ، ونشرت (فى الغربية) — وقناطر النعناعية ، والقرينين والسرساوية ، والباجورية ، وميت عفيف (فى المنوفية) — وقناطر الشرقاوية ، والزعفرانية ، وأبى المنجى (فى القليوبية) ، وخزان طامية وسنورس (فى الفيوم) . وقناطر جسر شوشة فى بنى سويف . وقنطرة الرقة فى الجيزة ، وقناطر منبال ، والجرنوس ، وسنشتاد ، والطحاوية . والطهنشاوى (فى المنيا) ، وقناطر العتامية بمنفلوط ، وقطع أبو عفريتة بملوى ، وعلى بك بالقرب من أبنوب ، ويسره ، وأسيوط . وبنى سميع ، وقلاى فى مديرية (أسيوط) . وقنطرة السوهاجية ، وقنطرة الشباسات ، وسمهود ، والمصالحة فى مديرية (جرجا) وقنطرة المراشدة بفرشوط فى مديرية (قنا) .

إصلاح جسر أبو قير

ومن أجلّ أعماله إصلاح سد أبو قير القديم الذى كان متهدما ، وسد فتحة بحيرة أبو قير بجسر من الأحجار يقيها تسرب مياه البحر إليها ويقى ترعة المحمودية طغيان المياه الملحة عليها ، ومن ذلك الحين أخذت بحيرة أبو قير تجف تدريجيا حتى صارت الآن أراضى زراعية .

قال لمسيو لينان دى بلفون[٣] أن إقامة جسر أبو قير وسد فتحة البحيرة كان عملا شاقا اقتضى عدة سنين لعمق المياه فى داخل خليج أبو قير ، إذ كان عمقها خمسة أمتار فى ناحية الجسر ، وطول هذا الجسر ١٢٤٣ مترا ، وقد ذكر الجبرتى نبأ هذا الإصلاح فى حوادث سنة ١٢٣١هـ (١٨١٦م) ، وعدّه من « محاسن الأفعال » .

(٣) مذكرات عن أهم أعمال للنفعة العامة التى تمت فى مصر ص ٣٤٢ .

سد أشتوم الديبة فى بحيرة المنزلة

وكذلك سد فتحة الديبة من فتحات بحيرة المنزلة بالأحجار ، والغرض منه تقليل تسرب مياه البحر إلى البحيرة لأن هذه المياه كانت تطغى على الأراضى المجاورة لها فتتلفها ، ويقول لينان باشا[٤] إن الفتحة القريبة من دمياط وفتحة الطينة قد انسدتا من ذاتهما ، فلا يدخل منهما إلا القليل من مياه البحر ، وكذلك فتحة أم مفرج ولم يبق من فتحات البحيرة سوى أشتوم الجميل .

القناطر الخيرية

كانت أراضى الوجه البحرى إلى أوائل القرن الماضى تروى بطريق الحياض كرى الوجه القبلى ، فلا يزرع فيها إلا الشتوى ، ولا يزرع الصيفى إلا على شواطئ النيل أو الترع القليلة المشتقة منه ، وقد أخذ محمد على فى تغيير هذا النظام تدريجاً ، إذ أخذ فى شق الترع وتطهيرها وإقامة الجسور على شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الرى فى معظم السنة ، وصارت الترع تروى الأراضى فى غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ، ولا سيما بعد إقامة القناطر عليها .

وقد توّج محمد على أعمال الرى التى أقامها بإنشاء « القناطر الخيرية » ، واسمها يغنى عن التعريف ، فإنها قوام نظام الرى الصيفى فى الوجه البحرى ، وهى وإن كانت آخر أعماله فى الرى إلا أنها أعظمها نفعا وأجلها شأنا وأبقاها على الدهر أثراً .

وقد فكر فيها بعد ما شاهد بنفسه فوائد القناطر التى أنشأها على الترع المتقدم ذكرها ، ورأى أن كميات عظيمة من مياه الفيضان تضيع هدرا فى البحر ، ثم تفتقر الأراضى إلى مياه الرى فى خلال السنة فلا تجد كفايتها منها ، فاعتزم ضبط مياه النيل للانتفاع بها زمن التحاريق ولإحياء الزراعة الصيفية فى الدلتا ، وذلك بإنشاء قناطر كبرى فى نقطة انفراج فرعى النيل المعروفة ببطن البقرة .

عهد محمد على بدراسة هذا المشروع إلى جماعة من كبار المهندسين ، منهم المسيو لينان دى بلفون (لينان باشا) كبير مهندسيه ، فوضع له تصميما وشرع فى العمل وفقا لهذا التصميم سنة

---

(٤) ص ٣٤٥ .

١٨٣٤ [٥] ، ثم ترك لوقت آخر ، وعندما اعتزم محمد على استئناف العمل استرشد بمهندس فرنسى آخر وهو المسيو موجيل بك Mougel إذ أعجبته منه مقدرته الهندسية فى إنشاء حوض السفن بميناء الإسكندرية ، فعهد إليه وضع تصميم إقامة القناطر الخيرية ، فقدم مشروعا يختلف عن تصميم المسيو لينان .

فالمسيو لينان كان يرى إنشاء القناطر على الأرض اليابسة بعيداً عن المجرى الأصلى للفرعين ، واختار لذلك قطعتين بين ملتويين من ملتويات فرعى النيل حتى إذا تم إنشاؤها حوّل الفرعين إليها بحفر مجريين جديدين ، ولكن مشروع موجيل بك يقتضى إقامة القناطر مباشرة فى حوض النهر .

ويتألف المشروع من قنطرتين كبيرتين على فرعى النيل يوصل بينهما برصيف كبير ، وشق ترع ثلاث كبرى تتفرع عن النيل فيما وراء القناطر لتغذية الدلتا ، وهى الرياحات الثلاثة المعروفة برياح المنوفية ورياح البحيرة ورياح الشرقية الذى عرف بالتوفيق لأنه أنشئ فى عهد الخديو توفيق باشا .

وقد شُرع فى العمل على قاعدة تصميم موجيل بك وبمعاونة مصطفى بهجت (باشا) ومظهر (باشا) المهندسين الكبيرين المتخرجين من البعثات العلمية .

ووضع محمد على باشا الحجر الأساسى للقناطر الخيرية فى احتفال فخم يوم الجمعة ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ (سنة ١٨٤٧) ، وكانت مدة حكمه إلى ذلك العهد ٤٣ سنة ، ولكن العمل كان قد بدأ قبل ذلك ، واستمر العمل لإنفاذ المشروع ، ثم اعتراه البطء والتراخى لما أصاب همة الحكومة من الفتور فى أخريات أيام محمد على ، ثم توقف العمل بعد وفاته أثناء ولاية عباس الأول بحجة أن حالة الخزانة لا تسمح ببذل النفقات الطائلة التى يتكفلها إنفاذ المشروع ، وارتأى عباس توفيراً للنفقات أن تؤخذ الأحجار اللازمة للبناء من الهرم الكبير ، ولكن المسيو لينان أقنعه بخطأ هذا الرأى بفكرة أن اقتلاع الأحجار من الهرم يقتضى من النفقات ما يزيد عن نفقات اقتلاعها من المحاجر [٦] ، وقد تم بناء القناطر وأنشئ رياح المنوفية فى عهد سعيد باشا .

---

(٥) مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر ص ٣٨١ .

(٦) فى كتاب (مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر) ص ٤٢٠ أن الفكرة نبتت أولا فى رأس محمد على فأقنعه لينان بالعدول عنها .

ويقول المسيو شيلو Chelu [(٧)] : « إن مشروع القناطر الخيرية كان يعد فى ذلك العهد أنه أكبر أعمال الرى فى العالم قاطبة ، لأن فن بناء القناطر على الأنهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه اليوم ، فإقامة القناطر الخيرية بوضعها وضخامتها كان يعد إقداماً يداخله شىء من المجازفة » .

وقال المسيو باروا [(٨)] Baroi : « إن هذه أول مرة أقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير » .

وقد ظهر خلل فى بعض عيون القناطر فى عهد إسماعيل سنة ١٨٦٧ فأصلح الخلل طبقا لآراء موجيل بك (وكان قد غادر مصر إلى فرنسا) وبهجت باشا ومظهر باشا ، ثم أصلح بناء القناطر ثانية فى العصر الحديث لتقويتها ، وتمت أعمال الإصلاح والتقوية سنة ١٨٩١ حتى بلغت شأوها الحالى ، ورجعت الحكومة إلى رأى موجيل بك فى هذا الإصلاح ، وجاء مصر وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من سنه ، فعينته الحكومة مهندسا مستشارا للقناطر ، فتم الإصلاح وفقا لرأيه ، وبذلك تسنى لهذا المهندس الكبير أن يكون على يده إنشاء القناطر من ابتداء العمل فيها إلى تمام بنائها .

توسيع نطاق الزراعة

كانت الحاصلات التى تزرع فى مصر هى القمح والشعير والأرز والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والزعفران والبرسيم وقصب السكر والتيل (القنب) والكتان والنيلة والقرطم والدخان والحناء والبصل والسمسم والسلجم والعصفر والخضر والفواكه ، وقليل من القطن الردىء ، ففكر محمد على فى توسيع نطاق الزراعة بابتكار أنواع جديدة زادت فى ثروة مصر الزراعية .

غرس أشجار التوت

عُنى بغرس أشجار التوت لتربية دود القز (الحرير) واختار لهذا المشروع أراضى وادى الطميلات بالشرقية ، فخصص ثلاثة آلاف فدان ليغرس فيها أشجار التوت ، وخصص

---

(٧) كبير مهندسى السودان المصرى فى كتابه (النيل والسودان ومصر) طبع سنة ١٨٩١ ص ٣٩٤ .

(٨) السكرتير العام لوزارة الاشغال فى كتابه (الرى فى مصر) طبع سنة ١٩١١ ص ٣١٦ .

لخدمتها ألفين من الفلاحين جهزهم بستة آلاف رأس من المواشى واحتفر نحو ألف ساقية للرى ، وجلب من سوريا ولبنان خمسمائة مزارع وصانع من الأخصائيين للقيام على تربية دود الحرير ، ثم عمم غرس أشجار التوت فى الدقهلية والمنوفية والغربية والقليوبية ودمياط ورشيد والجيزة ، وبلغ عدد ما خصص لغرس أشجار التوت ثلاثة آلاف فدان فى وادى الطميلات وسبعة آلاف فى المديريات الأخرى ، وبلغ عدد أشجار التوت فى القطر المصرى ثلاثة ملايين شجرة باعتبار ٣٠٠ شجرة فى كل فدان[٩] وبلغ محصول الحرير سنة ١٨٣٢ – ١٨٣٣ (١٢٠٠٠) أقة[١٠] .

وذكر الجبرتى البدء فى غرس أشجار التوت بوادى الطميلات فى حوادث سنة ١٢٣١ (سنة ١٨١٦م) وذكر فى حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٣٢ (مارس سنة ١٨١٧) إنفاذ المشروع وإتمام إنشاء السواق وغرس الأشجار ، وإيفاد الفلاحين إلى الوادى لتعميره وبناء الكفور والمساكن لهم ، وجلب العمال والمزارعين الأخصائيين فى تربية دود القز من الشام ولبنان ، وقال فى حوادث رجب سنة ١٢٣٥ (أبريل سنة ١٨٢٠) إن الباشا « توجه لناحية الوادى لينظر ما تجدد به من العمائر والمزارع والسواق ، وقد صار هذا الوادى إقليما على حدته وعمرت به قرى ومساكن ومزارع » .

يتبين مما تقدم أن تجربة دود القز فى البلاد التى غرست فيها أشجار التوت قد نجحت نجاحا عظيما ، ولكنها أصيبت بعد ذلك بمرض انتاب دود الحرير فى أوروبا ومصر فقل الإنتاج وأفسد تقاوى الدود وأهملت تربيته فى أواخر عصر محمد على .

غرس الأشجار

وقد غرس محمد على فى بعض أنحاء القطر العدد الوفير من الأشجار على اختلاف أنواعها لاستخدام أخشابها فى بناء السفن وأعمال العمران ، وذلك بعد أن قطع كثيرا من الأشجار المغروسة لاتخاذ أخشابها فى إقامة السواق وصنع عربات المدافع والسفن الحربية .

زراعة القطن

كان القطن المألوف زرعه إلى سنة ١٨٢١ من صنف ردىء لا يصلح إلا للتنجيد ، وكان

---

(٩) مانجان ٣ ص ١٨٨ .

(١٠) احصاء كادلفين فى كتابه (مصر والنوبة) ج ٢ ص ٧٣ .

هناك صنف نادر يزرع فى بعض الحدائق ويفوق القطن القديم فى طول تيلته ونعومته ومحصول هذا النوع ضئيل لأنه يزرع كأشجار الفاكهة ، ويغزله النساء فى البيوت ، ففى سنة ١٨٢١ حدث فى مصر انقلاب فى زراعة القطن بها ، ذلك أن المسيو جومل Jumel الذى استقدمه محمد على من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج شاهد فى حديقة محو بك[١١] هذا النوع الجيد من القطن ، فأعجبته رتبته وأشار على محمد على باشا أن يعمم زراعته فى الأراضى الزراعية بعد أن كان زرعه مقصورا على الحدائق ، وقد فطن محمد على إلى ما ينال مصر من الأرباح الوفيرة إذا أكثر من زراعته ، فاعتزم تعميمه ، وأنشأ السواقى اللازمة لرى الأطيان التى تزرعه ، واشتراه بأثمان مرتفعة ليشجع الفلاحين على زرعه ، فلم تمض عدة سنوات حتى انتشر هذا النوع من القطن وصار يعرف باسم قطن محو بك أو قطن جومل ، ثم أدخل محمد على نوعاً آخر وهو قطن (سى ايلاند) الأمريكى ، ومن ثم أخذ القطن المصرى ينافس قطن البنغال وأمريكا ، وأقبلت على طلبه مصانع النسيج فى فرنسا وإنجلترا ، وتقدمت زراعته وأخذ محصوله يزداد سنة فسنة ، ولم تمض سنوات معدودة حتى صدرت مصر من هذا القطن سنة ١٨٢٧ - ٣٤٤ ألف قنطار ، وأصبح القطن على توالى السنين أساس ثروة مصر الزراعية .

وقد احتكرت الحكومة بيع قطن القطر المصرى بأكمله طبقا لنظام الاحتكار الذى ستتكلم عنه فيما يلى ، فكان الفلاح الذى يزرع القطن لا يتصرف فى محصوله إلا بالبيع للحكومة والحكومة تشترى القنطار الذى زنته ١٢٠ رطلا بثمن يتراوح بين ١١٢ و ١٥٠ أو ١٧٥ قرشا ، وعلى البائع أن ينقل قطنه إلى المخازن (الشون) التى أنشأتها الحكومة لهذا الغرض فى عواصم المراكز والمديريات ، ويخصم من الثمن قيمة ما على الفلاح من الضرائب إذا لم يكن وفاها من قبل ، وقد أقبل الفلاحون على زراعة القطن بعد أن رأوا الحكومة تشترى القنطار من النوع الجيد بـ ١٧٥ قرشا ؛ فإن الفدان كان يغل من الريع أكثر مما تنتجه زراعة الحبوب والغلال ، وشجعت الحكومة زراعة القطن بما أنشأته من السواقى فى القرى ، وبما فتحت من الترع وأقامت من القناطر والجسور ، فتوافرت مياه الرى اللازمة لزراعة القطن ، ويقول المسيو مانجان أن الحكومة أنقصت سعر مشترى القطن حوالى سنة ١٨٣٧ مما حدا بالفلاحين إلى التراخى فى زراعته .

---

(١١) أحد كبار الحكام فى عصر محمد على وحكمدار السودان فترة من الزمن

زراعة الزيتون

كانت زراعة الزيتون قبل عصر محمد على نادرة فى مصر، فلم تكن تغرس أشجاره إلا فى مديرية الفيوم وفى بعض الحدائق بضواحى القاهرة، ففكر فى الاستكثار من أشجار الزيتون لاستخراج الزيت من ثمره، ولكونه غذاء صالحا للجنود، وخاصة بحارة الأسطول.

فأمر بغرس كثير من أشجار الزيتون فى الوجه البحرى والوجه القبلى، وحذا إبراهيم باشا حذو أبيه، فغرس آلافا عدة من الأشجار فى أطيانه الواسعة، ويقول المسيو مانجان إن أشجار الزيتون تثمر فى مصر بعد ثلاث سنوات أى فى أسرع مما تثمر فى البلاد الأخرى، وهذا يدل على صلاح معدن الأراضى فى مصر ومناخها لهذا النوع من الشجر.

فى زراعة النيلة

كانت زراعة النيلة معروفة فى مصر وبقيت على حالتها القديمة لغاية سنة ١٨٢٦ إلى أن جلب محمد على فى تلك السنة بزور النيلة الهندية، واستحضر بعض الهنود الأخصائيين فى زراعتها، فأخذت زراعتها فى النمو والتقدم، وبلغ ما تنتجه الأطيان المخصصة لزراعتها، ٧٧٣٠٠ أقة فى السنة، وقد احتكرت الحكومة تجارتها وبيعها لطالبيها، وأنشأت الفابريقات الخاصة بها.

زراعة الخشخاش (الأفيون)

واستحضرت الحكومة من أزمير بعض الأرمن الذين مارسوا زراعة الأفيون وخصصتهم لزراعته فى مصر، وقد بلغت حاصلاته سنة ١٨٣٣ – ١٤٥٠٠ أقة، واحتكرت الحكومة بيع المحصول، فكانت تبيع الأقة بـ ١١٠ قرشا صاغا ويستخرج من بزرة الأفيون زيت للوقود، وحاولت الحكومة زراعة البن اليمنى فى أراضى مصر ولكن المحاولة أخفقت رغم تكرارها، ووسع محمد على نطاق زراعة القنب (التيل) فنجحت زراعته واستخدام ثمره لصنع التيل والحبال.

منشآت الصناعة

إن الكلام عن الصناعة فى عهد محمد على يقتضى التمييز بين الصناعات الكبرى والصناعات الصغرى ، أما الصناعات الصغرى ، فيمكن القول إجمالا بأنها تقهقرت فى هذا العهد بسبب نظام الاحتكار الذى سنتكلم عنه فى موضعه بالفصل الرابع عشر ، فإن الاحتكار قد شمل الصناعات التى كانت قائمة وهى الصناعات الصغرى فأضر بها وبأصحابها ضررا كبيرا ، وأما النهضة الصناعية التى حدثت فى ذلك العهد فهى نهضة الصناعات الكبرى التى استحدثها محمد على بإنشاء الفابريقات أى المصانع الكبيرة التى تدار بالآلات .

وقد أسلفنا الكلام عن المصانع الحربية والبحرية التى تعد من أعظم المنشآت الصناعية فى ذلك العصر كما بيناه فى موضعه بالفصل الحادى عشر والثانى عشر ، ونحن ذاكرون هنا معامل الصناعات الأخرى كالغزل والنسيج وما إليها ومعامل الحديد والنحاس .

مصانع الغزل والنسيج

مصنع الخرنفش

من أول المصانع التى أنشأها محمد على باشا فابريقة الغزل والنسيج بالخرنفش . أنشئت سنة ١٨١٦ [١٢] ، واستدعى لها عمالا فنيين من فلورانس بإيطاليا ، تخصصوا فى غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف ، وبعد قليل من الزمن نقلت الأنوال الخاصة بصناعة الحرير إلى فابريقة أخرى ووضعت بدلها مغازل للقطن وماكينات لصنع الأقمشة القطنية . فركب بها مائة دولاب ، عشرة منها للغزل السميك وتسعون دولابا للغزل الرفيع أى بنسبة دولاب للخيوط السميكة إلى تسعة للخيوط الرفيعة وهى النسبة المتبعة عادة فى معامل الغزل . وتحمل الدواليب الأولى ١٠٨ مغزلا على خط واحد ، والتسعون الثانية ٢١٦ مغزلا ، وفى الفابريقة سبعون ماكينة ، وعدد يوازيها من العدد الأخرى لتجهيز القطن قبل غزله .

وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريقة قسم للنسيج به ثلثمائة نول تنسج من خيوط القطن أقمشة مختلفة أنواعها كالبافتة والموسلين والبصمة والشاش والباتست . والأقمشة

---

(١٢) مانجان ج ٣ ص ١٩٥ .

التى تنسج فى هذه الفابريقة كانت ترسل لتبييضها فى المبيضة التى أنشئت لهذه الغاية على شاطئ النيل بين بولاق وشبرا ، ثم تعاد إلى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها ، ويوجد بالفابريقة وُرَش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين لإصلاح الآلات التى يصيبها العطب .

فابريقة مالطة ببولاق

وأنشأت الحكومة فى بولاق فابريقة أخرى سميت فابريقة (مالطة) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى العدد الكبير من العمال المالطيين الذين كانوا يشتغلون فيها ، وعهد بإدارتها إلى المسيو جومل ، وقد أعدت لغزل القطن ثم نسجه أقمشة مختلفة الأنواع ، وكان فيها من دواليب الغزل ٢٨ دولابا و ٢٤ عدة ، وآلات تجهيز القطن ، وتدور هذه الآلات كما فى فابريقة الخرنفش بواسطة أربعة عشر طنبورا تحركها عدة يجرها ثمانية من الثيران ، وكل دولاب يشتغل عليه رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تقطعها حركة العدة ، ويبلغ عدد الأنوال فى فابريقة مالطة ٢٠٠ نول تنسج خيوط القطن ويصنع منها البافتة والبصمة والباتست والموسلين .

وفيها ورشة تحتوى عمالا من سائر الحرف معدين لإصلاح آلاتها وإصلاح آلات مصانع الوجهين البحرى والقبلى ، وفيها ورشة للنجارة يشتغل فيها صناع فرنسيون وأروام يصنعون نماذج وأشياء أخرى دقيقة الصنع ، وفيها أيضا ورشتان للخراطة بكل منهما آلة ضخمة تحركها ثمانية من الثيران ، وإحدى هاتين الورشتين إذا تحركت دواليبها تتحرك لها صوانى وأقلام من الفولاذ للتضليع والتخريم والتثقيب ومحافر ومناشر لنشر الخشب والنحاس ، ومخارط عديدة ، وفى الورشة الأخرى مخرطة كبيرة ومرازب ومطرقة ومنفاخان كبيران .

وكان بالقرب من فابريقة (مالطة) ثمانون ورشة حدادة لصنع مراسى المراكب وكل ما يلزم لبناء السفن وما يستهلك من الحديد والفحم فى هذه الورش عظيم جدا ، ويلحق بالفابريقة معمل لسبك الحديد ، وقد لاحظ عليه المسيو مانجان[١٣] بعض العيوب فقال إن أفرانه ليست محكمة الوضع وتستهلك من الوقود أكثر مما يلزم ، والرمل المستعمل لم يكن مدقوقا دقا جيدا ، وفى غالب الأحيان كان يفسد العمل لإهمال العمال ولكونهم لا يدعون القوالب تجف الجفاف المطلوب ، وفى هذا المسبك ثمانية أفران كانت تعمل باستمرار ، وعمالها مصريون يعملون تحت إدارة رؤساء من السوريين .

---

(١٣) ج ٣ ص ٢٠٠ .

فابريقتا إبراهيم أغا والسبتية

وكان بالقرب من فابريقة مالطة مصنعان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بفابريقة إبراهيم أغا ، والآخر بفابريقة السبتية ، وفيهما تسعون دولابا لغزل القطن وستون ماكينة لتجهيز القطن للمغازل ، ولم يكن فى هاتين الفابريقتين سوى ورش الغزل وليس فيها ورش للصنائع الأخرى كما فى فابريقة مالطة ، وهذه الفابريقة تمدها بكل ما يلزم لإصلاح عددها وآلاتها وتستورد القطن الذى تغزله من مستودع الحكومة للأقطان كما تفعل الفبريقات الأخرى وأجور العمال فيها تساوى أجورهم فى تلك الفبريقات .

المبيّضة

وقد أنشئ فيما بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل مبان ومنازل خلوية وحظيرة واسعة أطلق على ذلك كله اسم (المبيضة) وفيها كانت تبيض الأقمشة التى تصنع فى الفابريقات بالأساليب الصناعية الحديثة ، وتطبع فيها ثياب البصمة (الشيت) بواسطة الألواح أو الأسطوانات ، وتطبع فى الشهر نحو الثمانمائة مقطع من البصمة ، ويقول المسيو مانجان الذى نقلنا عنه هذه البيانات [١٤] إن البصمة التى تصنع فى مصر قد أمتازت بجودتها وإتقانها ودقة صنعها ومتانتها وجمال رسومها وتنوع أشكالها وثبات ألوانها على الغسيل ، فصار الجمهور يفضلها على أنواع الشيت الواردة من ألمانيا وإنجلترا حتى قل الوارد منها ، وأنشئ أيضا فى شبرا شهاب (بالقليوبية) وشبين والمحلة الكبرى والمنصورة مبيضات أخرى ، والأثواب المعدة للبيع تُلمَّع فى هذه المبيضات ثم تطوى ، وتطبع المبيضات المناديل التى تزين بها النساء رءوسهن ويستعمل لهذا الغرض أربعمائة ثوب من الموسلين فى الشهر .

مصنع نسيج البركال

وبالقرب من مبيضة بولاق أنشئ بناء جميل تم فى سنة ١٨٣٣ لنسج البركال (نوع من

---

(١٤) ج ٣ ص ٢٠٢ .

الشيت الرفيع) ركب فيه ١٥٠ نولا للنسيج ، منها تسعة فقط تشتغل ، وهى تدار بواسطة آلة بخارية ، وكل نول ينسج فى الأسبوع أربعة أثواب من البركال ، وطول الثوب أربعون ذراعا فى عرض ذراع ونصف ، وكان فى هذا المصنع أربعة من الصناع الإنجليز يتولون تعليم العمال المصريين صناعة هذا النسيج ، والطابق العلوى لهذا المصنع خاص بالغزل .

مصنع أمشاط الغزل بحى السيدة زينب

وأنشئ فى حى السيدة زينب معمل لصنع أمشاط الغزل ، يخرج فى كل شهر ثلاثين مجموعة من الأمشاط التى تستعمل للغزل ، ويدرب الصبيان على هذا النوع من العمل ، وكان المصنع يورد لفابريقات الغزل الأمشاط اللازمة ويتولى أيضا إصلاح ما يعطب منها ، وفى هذا المصنع قسم للنسيج به ثلثمائة نول وخمسمائة عامل ويخرج فى الشهر ١٢٠٠ ثوب تقريبا طول الثوب ٣٢ ذراعا فى عرض ذراعين ، والعامل ينسج ثمانية أذرع فى اليوم من أيام الصيف وستة فى أيام الشتاء .

مصنع الجوخ ببولاق

وأنشأت الحكومة مصنعا للجوخ على شاطئ النيل فى بولاق ، وقد لقى فى مبدأ أمره عقبات عديدة فانقضت عدة سنوات وهو لا يؤتى ثمرة ، وكلف الخزانة أموالا طائلة ، على أن إرادة محمد على باشا لم تنثن أمام هذه الصعاب ولم يتراجع عن عزمه فى إنجاح هذا المصنع لما كان ينتظره من النفع فى سد حاجات الجنود من جهة الملبس ، ورأى أن أساس النجاح هو فى اختيار الخامات وفى مهارة العمال الذين يعهد إليهم بالعمل ، فأمر وكلاءه فى مرسيليا أن ينتخبوا له رؤساء ماهرين للعمل ، تتوافر لديهم من الكفاءة أكثر ممن سبقوهم ليعهد إليهم تدريب العمال والتلاميذ على إتقان العمل ، كل فيما يخصه ، فاختار خمسة فرنسيين من رؤساء العمل فى مصنع الجوخ بلا جندوك Languedoc قضوا أربع سنوات فى تخريج التلاميذ فى مصنع بولاق وتعليمهم أسرار الصناعة وإدارة الآلات الحديثة ، وبذلك تكوّن فى مصنع بولاق طائفة من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والعصارين .

ولم يكتف محمد على باشا بذلك بل أنفذ إلى فرنسا طائفة من المصريين الأذكياء وألحقهم بالبعثة العلمية وتعلموا هذه الحرف المتنوعة فى معامل ريمس Reims وإلبيف

Elboeuf حيث أرسلهم إليها مدير البعثة المصرية اتباعا لأوامر محمد على ، وكان فى المعمل مائة نول لنسيج الجوخ تدور بعلتين يحرك كلا منهما ثمانية ثيران وتحرك العلتان تسع عجلات ، ويحتوى المعمل على كثير من العدد ، وآلات الكبس والعصر وغيرها من الجهازات والأسطوانات ، وفى مصبغة المصنع ست خوابى (قزانات) منها واحدة من القصدير ، والألوان التى تستعمل لصبغ الجوخ هى الأزرق الأدكن ، والأزرق السماوى ، والأحمر والبنى ، والأخضر الأدكن .

وكان الجوخ ينسج أيضا فى دمنهور وفى بعض المصانع الأخرى بالقاهرة ، ويستعمل فى نسجه الصوف الردىء ويعمل منه الكبابيت ويرسل ما يصنع منها إلى مصنع بولاق لدهنه وصبغه وكبسه ، ويبلغ ما تخرجه هذه المصانع فى الشهر نحو عشرين ألف ذراع تقريبا ترسل إلى الإسكندرية ، وتستهلك فى ملابس بحارة الأسطول وقد امتاز الجوخ الذى يصنع فى مصنع بولاق بالجودة وكان من خير الملابس للجنود والضباط .

مصنع الحرير

كان ينسج فى مصر من الأقمشة الحريرية قبل عصر محمد على باشا القطنى والألاجة وبعض أنواع الحرير والقطن ، ولكن محمد على أكثر من غرس أشجار التوت ليكثر من إنتاج الحرير . وأحضر من الآستانة عمالا متخصصين فى الحرير لنسجه وصنع الأقمشة الحريرية منه على اختلاف أنواعها كما ينسج فى الآستانة وفى الهند ، وأنشأ لهذا الغرض مصنعا للحرير فى الخرنفش وتولى أولئك العمال الأخصائيون تدريب العمال المصريين على إتقان نسيج الحرير فلقى المصنع نجاحا وصار به مائتا نول لنسج الحرير الخام الوارد من الشام أو من تربية دود القز فى مصر ، ولنسج الأسلاك الذهبية المعروفة بالمقصب ، وقد بلغت زنة الحرير الذى نسج فى مصر سنة ١٨٣٣ أربعة آلاف أقة ، وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية ، وكانوا فى غاية من الحذق ، ولهم ذوق فى تحليته بالألوان والرسوم الجميلة ، ولكن منسوجاتهم فى الحرير لم تصل إلى مرتبة المنسوجات الايطالية فى ثبات ألوانها .

مصنع الحبال

وأنشأت الحكومة فى القاهرة مصنعا للحبال ، ترسل مصنوعاته إلى الإسكندرية

لاستخدامها فى ترسانة الثغر وفى السفن الحربية والتجارية ، وتصنع الحبال فى هذا المصنع من القنّب .

نسيج الصوف

وصنعت فى القاهرة منسوجات الصوف وكانت تعمل منها ملابس البحارة المصريين وأغطية النوم (البطانيات) ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلى وبلغت أنوال نسيج الصوف الموجود منها من قبل وما أنشئ فى ذلك العصر ٤٠٠٠ نول .

فابريقة الطرابيش فى فوه

كانت فابريقة الطرابيش التى أنشأها محمد على فى فوه من أنفع وأهم المصانع التى أسسها سواء فى نظامها أو فى قلة نفقاتها أو جودة مصنوعاتها ، وأول مدير لها تاجر مغربى استدعى لها الصناع من تونس المشهورة بصناعة الطرابيش ، وقد تدرب العمال المصريون على يد أولئك الصناع فصاروا معلمين بعد أن كانوا تلاميذ ، وأتقنوا طريقة تحضير الصوف ونسجه طرابيش وكبسها وصبغها ، ويستورد الصوف المستعمل فى هذه الصناعة من (أليكانت) وثمن الأقة منه ٢٥ قرشا ، ومن الصنف الجيد الرفيع ٣٠ قرشا ، ولا يغسل هذا الصوف قبل نسجه لنظافته ونصوع بياضه .

وكان يصنع كل طربوش من خيط واحد لا من خيوط متعددة ، وبغير ذلك لا يمكن كبسه جيدا ، وعندما توضع الطرابيش فى المكبس تترك به ثلاثة أيام بلياليها مع صب الماء المغلى عليها باستمرار ، ثم يصب عليها مخلوط الصابون الذى يصنع فى الفابريقة نفسها ، ثم تمر فى الماء البارد لتنظيفها .

وكانت الطرابيش تصبغ بالقرمز والعفص والطرطير والشبة .

وتصنع فابريقة فوه كل يوم ستين دستة (٧٢٠ طربوشا) مختلفة أنواعها وأثمانها ، وتصنع الطرابيش الرديئة من الصوف المخلوط ، ويستورد الجيش المصرى من مصنع فوه ما يطلبه من الطرابيش للجنود ، وإذا ما استكمل الجيش حاجته منها يباع ما زاد إلى التجار من الأهلين .

مصانع الغزل والنسيج فى الوجه البحرى

قليوب

أنشئت فى الوجه البحرى عدة مصانع لغزل القطن ونسجه ، وأول هذه المصانع مصنع قليوب ، وكان واسعا مستوفى العدد والآلات تصنع فيه الدواليب والأمشاط ويشتغل فيع عدد كبير من العمال ، وبه عدة عمال من الإفرنج يرأسون بعض الأقسام ، وبه سبعون دولابا ، وثلاثون محلاجا (مشطا) تحركها ثلاث عدد ، ويغزل القطن فى هذا المصنع من نوع الغزل الذى تصنعه فابريقات القاهرة ، وبقليوب مسبك للحديد ولكنه كان غير منتظم وبه عيوب عديدة .

شبين الكوم

وفى شبين الكوم مصنع آخر لغزل القطن به سبعون دولابا وثلاثون محلاجا (مشطا) يحركها عدتان وترسل مصنوعاته من الغزل إلى القاهرة .

المحلة الكبرى

وأنشئ فى المحلة الكبرى مصنع كبير لغزل القطن به مائة وعشرون دولابا وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد تدور كل عدة بواسطة ثمانية من الثيران ، وبه مائتا نول تنسج عليها الأقمشة من الخيوط التى تغزل فيه ، ويحتوى هذا المصنع على مسبك وورش للحدادة والبرادة والخراطة تصنع فيه دواليب الغزل وأمشاطه وغيرها من الآلات التى ترسل للمصانع الأخرى .

زفتى وميت غمر

وأنشئت فى زفتى فابريقة لغزل القطن بها ٧٥ دولابا و ٥٠ محلاجاً بملحقاتها تحركها ثلاث عدد ويستورد هذا المغزل من مصنع المحلة ما يلزمه من المهمات والخامات ، وفى ميت غمر مغزل يشبه مغزل زفتى فى عدد دواليبه ومحالجه .

المنصورة

وأنشئت فى المنصورة فابريقة للغزل والنسيج ولها مخزن يلحق بها ، وبها أربع عدد تحرك ١٢٠ دولابا وثمانين محلاجا ، والخيوط التى تغزلها هذه الدواليب والمحالج تنسج فى الفابريقة على ١٦٠ نولا ، وفى هذه الفابريقة مسبك للحديد ومصنع للحدادة والبرادة والخراطة .

دمياط

وكان فى دمياط قبل عصر محمد على مغزل صغير ، فأنشئت فيها فابريقة للغزل والنسيج على مثال فابريقة المنصورة .

دمنهور

وأنشئ فى دمنهور مصنع للغزل به ١٠٠ دولات وثمانون محلاجا ، وفابريقة أخرى لغزل الصوف ونسجه تصنع فيها الكبابيت وأغطية النوم (البطانيات) اللازمة لجنود البر والبحر ، وترسل مصنوعاتها إلى مصنع الجوخ فى القاهرة ببولاق حيث تضغط وتلون وتكبس .

فوه

وفى فوه مصنع لغزل القطن فيه ٧٥ دولابا للغزل وأربعون مشطا تحركها عدتان تدير كل واحدة منها ثمانية من الثيران .

رشيد

وفى رشيد مصنع للغزل به ١٥٠ دولابا للغزل و ٨٠ محلاجا يحركها أربع عدد وتنسج فيه قلوع المراكب ، وبها مصانع للحدادة لعمل الحدايد اللازمة للسفن ، وقد أنشأ بها المستر توماس جالويه وهو ميكانيكى إنجليزى آلة بخارية لتدير طواحين تبييض الأرز .

مصانع الغزل فى الوجه القبلى

بنى سويف

وأنشئت عدة مصانع لغزل القطن فى الوجه القبلى ، فنى بنى سويف مصنع كبير به ١٢٠ دولابا وثمانون محلاجا تحركها ثلاث عدد .

أسيوط

وفى أسيوط مصنع للغزل به من العدد والآلات مثل ما فى مصنع بنى سويف ، والقطن المغزول فى هذين المصنعين يرسل إلى القاهرة لنسجه فى فابريقاتها وبيعه .

بقية مصانع الغزل

وأسس محمد على عدا المصنعين السابقين مصانع لغزل القطن فى المنيا ، وفرشوط ، وطهطا وجرجا وقنا ، فكانت تشتغل ولكن فى حالة غير مرضية ، ولم ترسل إلى الحكومة شيئا من مصنوعاتها .

نظرة عامة فى مصانع الغزل والنسيج

كان بمصانع غزل القطن كافة ١٤٥٩ دولاباً للغزل منها ١٤٥ دولاباً للغزل السميك و ١٣١٤ للغزل الدقيق ، وتصنع الأولى ١٤٥٠٠ رطل من الخيوط فى كل يوم من أيام الصيف و ١٠١٥٠ رطلا فى أيام الشتاء ، وتصنع الثانية (دواليب الغزل الدقيق) ١٣١٤٠ رطلا فى كل يوم من أيام الصيف و ٨٥٤٠ رطلا فى أيام الشتاء .

وكان يصدر جزء من القطن المغزول إلى ثغور البحر الأدرياتى وثغور التوسكان (بإيطاليا) ومن هناك يرسل إلى داخل إيطاليا وألمانيا ، أما باقى القطن المغزول فإنه ينسج أقمشة فى مصر فتباع الأقمشة المنسوجة فى المدن والقرى بالقطر المصرى ، ويصدر بعضها إلى سوريا والأناضول وجزر بحر الأرخبيل ، قال المسيو مانجان : وكان يمكن أن تزاد مصنوعات الفابريقات بمقدار الخمس إذا ضاعف رؤساء العمل رقابتهم على العمال وإذا دفعت أجور هؤلاء بانتظام .

وقد راجت الأقمشة التى صنعتها الفابريقات المصرية فى الأسواق رواجا أضر بالواردات الأجنبية التى من نوعها وخاصة المصنوعات الرخيصة كالبصمة (الشيت) فإن وارداتها قلت عن ذى قبل ، والبفتة الهندية بعد أن كانت تغمر الأسواق المصرية انقطع الوارد منها لما حلت محلها البفتة المصرية ، وكذلك حصل لأقمشة البنغال .

ولكن العيب الجوهرى فى مصانع الغزل والنسيج التى أنشأها محمد على أنها كانت قائمة على نظام الاحتكار ، وهذا النظام لا يتفق والتقدم الصناعى ، وقد انتقده المسيو مانجان الذى عاينه وخبره فقال فى صدده إن الصناعة الحرة هى التى توافق مصلحة الأهلين ومصلحة الحكومة معاً ، وكان من الأوفق ترك الصناعة حرة فى يد الأهالى ما عدا بعض مصانع غزل القطن التى يمكن الحكومة أن تربح من بقائها ، وقال إن كثيراً من الأيدى العاملة التى تستخدمها الحكومة فى معاملها كانت تعود على البلاد بفائدة أكبر لو اشتغلت فى الزراعة .

والواقع أن معظم المصانع التى أنشأها محمد على قد أقفلت فى أواخر عهده وأقفل باقيها فى عهد عباس باشا الأول ، وسبب اضمحلالها أن إدارتها كانت فى يد موظفى الحكومة ، فانعدمت فيها الإدارة الحرة التى هى مناط ارتقاء المشروعات الصناعية والاقتصادية ، ولم يكن الموظفون أمناء ولا أكفاء لإدارتها ولا غيورين على عملهم فيها ، فأدى سوء الإدارة فى معظم تلك المصانع وضعف الرقابة على الموظفين إلى اضمحلالها ، وكانت الحكومة تستورد الفحم والآلات من أوروبا وتنفق على إدارة المصانع النفقات الطائلة ، فكانت النتيجة أن إيراداتها قلت على مر السنين عن مصروفاتها وتسبب عنها خسارة على خزانة الحكومة ، كما أن إنقاص الجيش والبحرية فى أواخر عهد محمد على قد عطل المصانع التى تصنع حاجات الجيش لعدم الحاجة إلى مصنوعاتها .

ولكن مما لا نزاع فيه أن إنشاء مصانع الغزل والنسيج كان أساساً لنهضة صناعية كبيرة وتجربة جليلة يمكن الاستفادة منها لإقامة النهضة الصناعية على قواعد صحيحة .

مصانع نسيج الكتان

كانت الأقمشة الكتانية تصنع فى مصر قبل عصر محمد على ، ومصانعها موزعة فى مختلف المديريات ، وقد بلغت ما تنتجه فى ذلك العصر كل سنة ثلاثة ملايين مقطع يستهلك أكثرها فى

مصر ويصدر قسم منها إلى (تريستا) و (ليفورن) وكان فى مصر ثلاثون ألف نول لنسيج أقمشة الكتان .

معمل سبك الحديد

أقيم فى بولاق مسبك للحديد ، وهو بناء مشيد تشييدا فخما وله منظر رائع ، وكان يؤدى أعظم الخدمات ، وقد تكلف البناء وحده نحو ستين ألفا من الجنيهات ، وضع تصميمه المستر جالويه المهندس الميكانيكى الإنجليزى الذى كان يشتغل فى خدمة الحكومة ، وجعله على نموذج مسابك لندره ، وكان يتولى رئاسة العمل فيه رئيس إنجليزى يعاونه خمسة من العمال الإنجليز وثلاثة من المالطيين وأربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع أقسام المسبك ، ورئيسه القائد أدهم بك الذى تكلمنا عنه آنفا .

وكان يصب فى هذا المسبك كل يوم خمسون قنطارا من الحديد المعد لصابورة السفن والآلات اللازمة للمعامل والفابريقات .

مصانع ألواح النحاس

وأنشأت الحكومة مصنعا لعمل ألواح النحاس التى كانت تبطن بها السفن ، وتولى إدارته المستر جالويه الميكانيكى الإنجليزى يعاونه أربعة رؤساء عمل ، اثنان للأسطوانة ، وثالث لمراقبة الآلة البخارية ، والرابع للسبك وتنقية النحاس من المواد الغريبة .

وكان فى المصنع عشرون عاملا مصريا من العمال الفنيين موزعين على الأعمال المختلفة ، منهم واحد للسبك ، وثلاثة للأسطوانة ، يشتغلون فى إخراج ألواح النحاس ، وعملية السبك الواحدة تقتضى ٣٥ قنطارا من النحاس ، والأسطوانات تخرج كل يوم من سبعين إلى مائة لوح من النحاس مختلفة المقاس والسُّمك .

معامل السكر فى الوجه القبلى

أسست الحكومة سنة ١٨١٨ معملا للسكر فى (الريرمون) [١٥] على مثال مصانع السكر فى جزائر الإنتيل بأمريكا ، تولى إدارته فى أول أمره إنجليزى ثم خلفه صاحب مصنع فى جزيرة

(١٥) الآن من بلاد مركز ملوى بمديرية أسيوط .

كورسيكا ، وقد اشتهر هذا المعمل بحسن الإدارة والنظام والاقتصاد ، فاتسعت أعماله وتقدمت حاصلاته وانتشرت مقطوعيته فى البلاد ، ولكن استيراد السكر المكرر من معامل أوروبا منذ سنة ١٨٢٦ أضر بإنتاج معمل الريرمون وفضل الناس السكر الوارد من أوروبا لجودته ورخص أسعاره .

وبلغ إنتاج معمل الريرمون (سنة ١٨٣٣) ١٢١٩٥ قنطارا من السكر الخام وأنشأت الحكومة معملين آخرين للسكر أحدهما فى (ساقية موسى) والثانى فى الروضة (مركز ملوى) ، وقد كرر من السكر الخام فى المعمل الأول ٥٢٠٠ قنطارًا ، واستُخرج الروم من مصنع الريرمون واستعمل لهذا الغرض ٤٨٠٠ قنطارًا من العسل .

مصانع النيلة

وأنشئت مصانع للنيلة فى شبرا شهاب ، والعزازنة وميت غمر ، والمنصورة ، ومنوف ، وابيار ، والأشمونيين ، وبركة السبع ، والمحلة الكبرى ، والجيزة ، وأبو تيج ، وملوى ، ومنفلوط ، وطهطا ، وأسيوط ، والفشن ، وهذه المصانع تستنفد سدس محصول القطر المصرى ، وكانت النيلة ترسل من المصانع إلى القاهرة حيث تبيعها الحكومة وتصدر منها للخارج بعد استنفاد حاجة المستهلكين .

مصانع أخرى

وأنشئت مصانع أخرى مختلفة ، منها مصنع للصابون ، ومدبغة للجلود برشيد ومصنع للزجاج والصينى ، وآخر للشمع ، وأنشئ مصنع للورق ولكنه لم ينجح فى تجربته وأهمل العمل فيه[١٦] ، ومعاصر للزيت وكانت موجودة من قبل .

أعمال العمران الأخرى

وقد عُنى محمد على بعمران المدن بما استحدثه فيها من المبانى العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما إليها ، فمن ذلك أنه أنشأ بالقلعة قصره الشهير (قصر الجوهرة) الذى كان

---

(١٦) كما يقول كادلفين فى كتاب (مصر والنوبة) ج ١ ص ١٣١ .

مقر الحكم فى عهده[١٧] ، وقصر شبرا ، وسراى رأس التين بالإسكندرية ، وهى أعظم قصوره وأفخمها[١٨] ، وابتنى القصور فى بعض عواصم المديريات ليقيم بها أثناء تجواله بالأقاليم .

وأنشأ الدفترخانة بجوار القلعة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاترها وسجلاتها ، وهى من أجلّ منشآته ولا تزال قائمة تؤدى الغرض منها ، وقد حفظت وثائق الحكومة طوال هذه السنين بعد أن كانت تبدد ويعفى أثرها قبل ذلك العهد .

وأصلح قنطرة المجراة التى كانت تنقل المياه من النيل بمصر القديمة إلى القلعة ، وفتح طريقا واسعا محفوفًا بالأشجار بين مصر وشبرا ، وهدم كثيرا من التلال والكيمان التى تحيط بالقاهرة أو تتخللها وتثير الرياح ما بها من الأتربة والقاذورات وتهيلها على المدينة فتفسد الجو وتضر بصحة الناس وأبصارهم .

وأصلح بركة الأزبكية واحتفر حولها قناة تنصرف إليها مياه البركة فظهرت أرضها وتحولت إلى بستان كبير ، وهو البستان الذى أنشئت فى وسطه حديقة الأزبكية الحالية على عهد إسماعيل .

وبنى جامعه الكبير بالقلعة وأوصى أن يدفن فيه .

وأنشأ داراً للرصد (رصدخانة) فى بولاق ولكن إدارتها لم تنتظم فأقفلت فى أواخر عهده ، وأصدر أمرا بمنع خروج الآثار القديمة من مصر وتأسيس دار للآثار فى منزل الدفتردار ، وعنى باستخراج الأحجار والرخام من المحاجر المصرية .

وعنى بعمران الإسكندرية التى تقدمت تقدما عظيما فى عهده بفضل وصول ترعة المحمودية إليها وإنشاء الترسانة والأسطول بها ولأنها صارت ملتقى التجارة بين مصر والخارج وكان يطيل الإقامة بها كل سنة ، وقد فتح شارعا كبيرا مرصوفا بالأحجار بين باب رشيد وسراى رأس التين .

وأنشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس ، وعنى بشؤون البلاد الصحية كما بيناه فى الكلام عن كلوت بك وأنشأ المستشفيات والمحاجر الصحية على النظام الأوروبى .

---

(١٧) هامش الطبعة الثالثة – وقصر الحرم بالقلعة أيضا ويشغله الآن المتحف الحربى .

(١٨) هامش الطبعة الثالثة – وقصر أثر النبى بمصر القديمة على شاطئ النيل بجوار مسجد أثر النبى وهو قصر صغير بناه فى أوائل عهده .

ورتب البريد يُحمل برًّا على أيدى السعاة يقطعون المراحل على متون الجياد وبحراً على ظهر السفن .

وأنشأ خطوطا تلغرافية بأن أقام أبنية مرتفعة على شكل أبراج ممتدة على خط واحد ، وأقام على كل بناء آلة التلغراف على طريقة (شاب) القديمة فكانت الأنباء تنقل من مرحلة إلى أخرى إلى أن تصل إلى الجهة المقصودة ، وتستغرق الرسالة التلغرافية بهذه الطريقة من الإسكندرية إلى مصر خمسا وثلاثين دقيقة[19] أما التلغراف الحالى فقد أدخله سعيد باشا .

وشرع فى إنشاء سكة حديدية من القاهرة إلى السويس بطريق الصحراء ولكن المشروع لم يدخل فى دور التنفيذ وعدل عنه محمد على ، واستخدمت القضبان التى أعدت له فى مد سكة حديدية قصيرة بمحاجر طره[20] لنقل الأحجار إلى شاطئ النيل كى تستعمل فى بناء القناطر الخيرية .

التجارة

اتسع نطاق تجارة مصر الخارجية فى عصر محمد على لازدياد حاصلاتها وخاصة القطن ، وقد ربحت الحكومة منها أرباحا وفيرة لأنها كانت تحتكر التجارة الخارجية بأجمعها .

وقد ساعد إنشاء الأسطول فى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط على توسيع نطاق المواصلات البحرية بين مصر والبلدان الأخرى ، وكان لإصلاح ميناء الإسكندرية فضل كبير فى هذا الصدد ، فنشطت التجارة الخارجية نشاطا عظيما ، ومنذ أنشئ أسطول مصر فى البحر الأحمر فكر محمد على فى إعادة طريق التجارة بين الهند وأوروبا عن طريق مصر بعد أن تعطلت زمنا طويلا لاكتشاف رأس الرجاء الصالح[21] فبسط سيادة مصر فى البحر الأحمر وطهره من القرصان الذين كانوا يتهددون السفن التجارية فيه ، ومدّ طريقا لسير قوافل التجارة بين السويس والقاهرة وأنشأ به المحطات وبسط الأمن فى مراحله لتأمين القوافل على متاجرها ، وأنشأ لذلك ديوانا سمى ديوان المرور كان مقره بالأزبكية ، وكانت المتاجر القادمة من البحر الأحمر ترسل من السويس إلى النيل ثم إلى الإسكندرية فأعاد جهد المستطاع سبيل المواصلات

---

(١٩) كما قدرها كادلفين فى كتاب (مصر والنوبة) ج ١ ص ٨٧ .

(٢٠) ايتان (مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر) ص ٥٤٠ .

(٢١) أنظر الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» (وص ٥٠ بالطبعة الأولى) .

القديم بين الشرق وأوروبا عن طريق مصر.

وقد لفت هذا الطريق أنظار الشركة الهندية الإنجليزية ورأته آمن وأقصر من طريق رأس الرجاء الصالح وطريق البصرة والفرات وحلب والإسكندرونة ، فاتفقت مع الحكومة المصرية على نقل طرود البريد المسافرين عن طريق السويس وكان المستر (توماس واجهورن) أحد كبار موظفيها واسطة هذا الاتفاق ، وقد لقي من محمد على باشا تعضيدا كبيرا فكانت السفن التجارية تسير من بملباى إلى السويس ثم ينتقل منها البريد والسياح إلى الإسكندرية عن طريق القاهرة ومن الإسكندرية إلى مرسيليا بحرا ومنها إلى إنجلترا .

الصادرات والواردات

تتألف صادرات مصر فى ذلك العهد من القطن ، والأرز ، والحبوب ، والصمغ والأنسجة الكتانية ، والصودا ، والتمر ، والخضر الجافة ، والأفيون ، والحناء وغير ذلك .

وكانت تستورد من الخارج الأنسجة القطنية ، والأجواخ ، والطرابيش ، والأنسجة الصوفية ، والأثواب الحريرية ، والأخشاب ، والحديد ، والأوانى ، والخردوات ، والنحاس ، والسكاكين ، والورق ، والعقاقير ، وأصناف العطارة ، والفحم ، والقرمز ، والسكر ، والزجاج ، والمرايا ، والزيوت ، والأنبذة ، والمشروبات الروحية ، وغير ذلك ، وأحصى الدكتور كلوت بك تجارة مصر الخارجية مع أوروبا وتركيا سنة ١٨٣٦ فبلغت بحسب إحصائه [٢٢] :

٢.١٩٦.٠٠٠ جنيه للصادرات و ٢,٦٧٩,٠٠٠ جنيه للواردات

وأورد على باشا مبارك [٢٣] إحصاء عن صادرات وواردات الإسكندرية دون سواها من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٤٢ استخلصنا منه البيان الآتى :

	الصادرات	الواردات
سنة ١٨٢٣	١,٥٨٥,٧٦٤ ج	٨٠٤,٥١٩ ج
سنة ١٨٤٢	١,٨٠٦,٨٨٠ ج	٢,٤٧٠,٩٢٠ ج

* * *

(٢٢) لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣١٧ من الأصل الفرنسى .

(٢٣) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٩ .

الفصل الرابع عشر

نظام الحكم

النظام السياسى

كانت الحكومة المصرية على عهد محمد على حكومة مطلقة تسود فيها قاعدة حكم الفرد ، لكن الفرق بينها وبين ما كانت عليه فى عصر المماليك أن محمد على باشا وضع نظاما لإدارتها ، فحل هذا النظام محل الفوضى والارتباك ، فهو وإن كان يعد من دعاة الحكم المطلق (وهذه نقطة ضعف فى تاريخه) إلا أن ميزته أنه كانت لديه فكرة النظام والإصلاح كما أنه كان يميل إلى مشاورة مستشارية فى الأمور قبل إبرامها .

الدواوين

ومن هنا جاءته فكرة تأسيس بعض المجالس أو الدواوين التى كان يرجع إليها فى مختلف الشؤون .

فقد ألف مجلسا للحكومة يسمى (الديوان العالى) ومقره القلعة ، وكان يتداول مع أعضائه فى الشؤون المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها ، ورئيس هذا الديوان يلقب بكتخدا بك أو كتخدا باشا وهو بمثابة وكيل الباشا أو نائبه ، وله سلطة واسعة المدى فى كافة شؤون الحكومة ، وكان بمثابة رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وصار هذا الديوان يُعرف على مدى السنين بالديوان الخديوى وسمى أيضا وقتا ما (ديوان المعاونة) .

وألف على التعاقب لكل فرع من فروع الحكومة مجلسا أو (ديوانا) يختص به ، فكان هناك ديوان للحربية (الجهادية) ، وديوان للبحرية ، وديوان للتجارة والشؤون الخارجية ، وديوان للمدارس (المعارف العمومية) وديوان للأبنية وآخر للأشغال ، وكانت هذه الدواوين بمثابة فروع وأقسام للديوان العالى .

ولما تقدمت شؤون الحكومة ألف سنة ١٨٣٤ مجلسا دعاه (المجلس العالى) . يتألف من

نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الأزهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة ، واثنين من ذوى المعرفة بالحسابات واثنين من الأعيان عن كل مديرية من مديريات القطر المصرى ينتخبهما الأهالى .

وعين لرئاسة هذا المجلس عبدى شكرى بك (باشا) أحد خريجى البعثة العلمية الأولى ، وكان قد تلقى فى فرنسا علم الإدارة والحقوق ، ومدة عضوية أعضاء المجلس النائبين عن التجار والعلماء والمديريات سنة واحدة .

وغنىٌّ عن البيان أن هذه المجالس أو الدواوين لم تكن على درجة كبيرة من الرقىّ وحسن النظام ، لكنها كانت الخطوة الأولى لنظام حكومى لم تعرف البلاد مثله من قبل حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى مختلف نواحى الحكم .

قال الدكتور كلوت بك فى هذا الصدد : « من المحقق أن هذه الهيئات الحكومية لم تبلغ درجة الإتقان لكن ينبغى ملاحظة ما بذله محمد على من الجهود فى هذا السبيل وما بثه من روح النظام وتقرير أوضاعه وما أظهره من سداد النظر وصدق العزيمة فى وضع النظام الإدارى الحكومى ولا ريب أنه إذا توافر عنده الوقت الكافى وتخلص من مشاغله الحالية[١] وأخرجت المدارس عددا كافيا من الإكفاء سيضع لمصر نظاما دستوريا ثابتا يكون قد بحثه ونفذه بما عهد فيه من الحكمة »[٢] .

مجلس المشورة

(سنة ١٨٢٩)

كانت المجالس المتقدمة مجالس حكومية تنفيذية تتألف فى الجملة من كبار الموظفين ، ولم تكن هيئات شعبية تمثل طبقات الأمة أو يصح اعتبارها نواة لنظام نيابى أو شبه نيابى ، ولكنَّ هيئة واحدة ألفها محمد على سنة ١٨٢٩ يصح أن تعد نواة لنظام شورى وهى (مجلس المشورة) ويتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء وأعيان القطر المصرى برئاسة إبراهيم باشا ، وهذا المجلس يشبه فى عدد أعضائه وتمثيلهم لمختلف الطبقات أن يكون جمعية مؤلفة من ١٥٦

(١) سنة ١٨٣٩ إبان اشتداد الأزمة بينه وبين تركيا .

(٢) لمحة عامة إلى مصر تأليف الدكتور كلوت بك وتعريب الأستاذ محمد مسعود بك .

عضواً منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من كبار أعيان القطر المصرى .

وهو من جهة التمثيل أفضل من (الديوان العمومى) الذى أنشأه نابليون فى عصر الحملة الفرنسية ، فإن هذا الديوان كان مؤلفا من أعيان وتجار القاهرة فقط[٣] ، وهو أقرب فى تشكيله إلى (الديوان العام) الذى أسسه نابليون أيضا إذ كان مؤلفاً من العلماء والأعيان النائبين عن مختلف مديريات القطر المصرى[٤] .

أما من جهة السلطة فلم يكن لمجلس المشورة سوى سلطة استشارية ، وكذلك الديوان العمومى والديوان العام فى عهد الحملة الفرنسية ، وكانت مشورته مقصورة على مسائل الإدارة والتعليم والأشغال العمومية ، وما يقترحه الأعضاء فى هذا الصدد مما ترشدهم إليه اختباراتهم ، وينظر فى الشكايات التى تقدم إليه ، وينعقد مرة واحدة فى السنة ويجوز أن يستمر الانعقاد عدة جلسات .

أعضاء مجلس المشورة

يهمنا كثيراً أن نذكر هنا أسماء أعضاء مجلس المشورة ، لأنهم تألفت أول هيئة نيابية شورية فى عصر محمد على ، وجدير بنا أن نعرف أسماءهم بعد أن أثبتنا فى الجزءين الأول والثانى من « تاريخ الحركة القومية » أسماء أعضاء الهيئات التمثيلية التى تألفت على التعاقب فى عهد الحملة الفرنسية[٥] لكى يكون لدينا صورة جلية لمن يصح التعبير عنهم بأنهم نواب الشعب فى مختلف أدوار الحركة القومية ولنقف من هذا البيان على أسماء كبار أعيان مصر فى ذلك العصر ، لأن الذين انتخبوا لعضوية مجلس المشورة كانوا بالبداهة رؤساء العشائر والعائلات وكبار الأعيان البارزين فى القاهرة والأقاليم .

ذكرت (جريدة الوقائع)[٦] نبأ انعقاد مجلس المشورة لأول مرة ، فقالت أنه اجتمع عصر يوم ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ (٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩) فى قصر إبراهيم باشا (القصر

(٣) انظر الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ١٥ .

(٤) أنظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ١٠٤ .

(٥) أنظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ٩٦ والجزء الثانى ص ١٦ و ١٨ و ٢٢٠ (من الطبعات الأولى) .

(٦) عدد ٤٩ .

العالى)[٧] وتحت رئاسته، وحضر الاجتماع جميع الأعضاء، وعرض عليه كل الشؤون الخاصة بالأقاليم خصوصا ما كان موجودا منها بالديوان العالى وذكرت أسماء الأعضاء ننقلها بترتيب نشرها فى الوقائع مع بيان وظائفهم وألقابهم، بعد حذف عبارات التفخيم التى كانت مألوفة فى لغة ذلك العصر.

إبراهيم باشا (رئيس المجلس)

أعضاء من رؤساء مصالح الحكومة والعلماء

عباس باشا (حفيد محمد على)، أحمد باشا مأمور الأقاليم الوسطى، محمد خسرو بك مأمور الجيزة والمنوفية والبحيرة، شريف بك (الكتخدا بك) مأمور الأقاليم الصعيدية، محمود بك ناظر الجهادية، السيد البكرى نقيب الأشراف، السيد السادات، الشيخ الأمير مفتى المالكية، الشيخ محمد المهدى مفتى الحنفية، الشيخ على، الحاج إبراهيم أفندى ناظر مجلس المشورة، كتخداى أغا والى جدة، أمير اللواء محمد بك ناظر عموم المهمات الحربية ومعمل البارود والطبخانة وعموم الفابريقات، حسن أغا رئيس بوابى الركاب العالى وناظر المواشى الأميرية، خليل أفندى ناظر الترسانات، عبد الباقى أفندى مدير خزينة الجهادية وباشمحاسبجى، محمد أفندى الداوندار سابقا، محمد أمين أفندى ناظر الأبنية الأميرية، حسين بك ناظر الأرز والغلال، الحاج عبد الله أغا سركردكان، حسين أغا ناظر الجوقة، عمر أفندى ناظر الجلود، محمد أفندى ناظر المنسوجات، أمين أفندى ناظر البيع، حافظ أفندى معاون الفابريقات، عرفى أفندى معاون جورنال المحروسة، أحمد مميش أفندى المعاون، محمد عارف أفندى المعاون، على راغب أفندى المعاون، خالد أفندى المعاون، سامى أفندى محرر الوقائع المصرية، كاشف أفندى باشكاتب الوقائع المصرية.

أعضاء من مأمورى الأقاليم

خليل بك محافظ دمياط، سليمان أغا مأمور الجعفرية، حسين بك مأمور زفتى، حسين أغا مأمور الفيوم، إسماعيل أغا مأمور نصف البهنسا، حسن بك مأمور الجيزة، رستم أفندى

---

(٧) هامش الطبعة الثالثة – هو من أجمل القصور التى أنشأها إبراهيم باشا، وكان موضعه فى المنطقة المعروفة الآن بجاردن سيتى بين ساحل النيل وشارع قصر العينى، وباسمه سمى شارع القصر العالى.

مأمور نصف المنوفية ، محمد أفندى مأمور نصف المنوفية ، رستم أفندى مأمور نصف البحيرة ، حسن أفندى مأمور نصف الشرقية ، إبراهيم أغا مأمور طنطا ، إبراهيم بك مأمور نبروه ، محرم أغا مأمور نصف البهنسا ، تيمور أغا مأمور نصف الشرقية ، يوسف أفندى مأمور فوه ، صالح أفندى مأمور ميت غمر والسنبلاوين ، محمد أغا مأمور القليوبية ، إبراهيم أغا مأمور شرق أطفيح ، الحاج عبد الرازق أغا مأمور محلة دمنه ، محمود أغا مأمور المنيا ، محمد أفندى مأمور أسيوط ، حسين أغا مأمور منفلوط ، الشيخ المصرى بجرنال المحروسة ، الشيخ عبد الله فواز بجرنال أسيوط .

مشايخ وأعيان الأقاليم

الجيزة : الشيخ حسن ، الشيخ عبد الواحد .

السنبلاوين : الشيخ موسى خليفة ، الشيخ حفناوى ، الشيخ على الغول ، الشيخ إسماعيل أبو جاد ، الشيخ خضر ، الشيخ عبد الرحيم سلامى ، الشيخ حسين سالم ، الشيخ أحمد سعدى .

ميت غمر : الشيخ رزق الله . الشيخ الحاج شريف ، الشيخ محمد خليل ، الشيخ عبد الله هلال ، الشيخ حنفي شرف الدين ، الشيخ على غندور ، الشيخ الحاج منصور ، الشيخ همام حبيب ، الشيخ عيسى سالم ، الشيخ قاسم طه ، الشيخ محمد المغربى ، الشيخ سليمان حجاب ، الشيخ سليمان منصور .

الفيوم : الشيخ نصر عثمان ، الشيخ محمد الشبكى .

زفتى : الشيخ محمد فتوح ، الشيخ على سالم .

أشمون جريس : الشيخ محمد عبيد .

منوف : الشيخ إبراهيم شحاته .

أبو كبير : الشيخ أيوب عيسوى ، الشيخ عبد الغالب سالم ، الشيخ صالح ، الشيخ منصور ، الشيخ على المكاوى ، الشيخ مصطفى على .

شبية «شرقية» : الشيخ حسن أباظة ، الشيخ غيث ، الشيخ بغدادى أباظة .

مليج : الشيخ محمد أبو عامر ، الشيخ أبو عمارة .

أبيار : الشيخ حاجى سليمان ، الشيخ حاجى أحمد

غربية : الشيخ إبراهيم أبو درباله ، الشيخ على أبو أحمد

ههيا : الشيخ أحمد دربة

قسم أول شرقية : الشيخ إبراهيم سالم ، الشيخ محمد خضر ، الشيخ محمد عليوه

المنيا : الشيخ فرج ، الشيخ عبد الهادى

الفشن : الشيخ على شريعى ، الشيخ حبيب

شرق أطفيح : الشيخ حسين أبو على ، الشيخ حماد

بنى سويف : الشيخ بكر بدر ، الشيخ محمد الحولى ، الشيخ عبد الرحمن أبو زيت

سمنود : الخواجة على

بشبيش : الشيخ أبو يوسف ، الشيخ أحمد سرجانى ، الشيخ حسن أبو زيت

نبروه : الشيخ على كرفوز ، الشيخ فوده ، الشيخ أحمد أبو إسماعيل ، الشيخ غانم محمد ، الشيخ إسماعيل رضوان ، الشيخ محمد أبو على

المحلة الكبرى : الشيخ حبيب جاويش ، الشيخ مطاوع دهلان ، الشيخ مصطفى ، الشيخ عيسوى خضر ، الشيخ على أبو عامر

الشباسات : الشيخ يونس ، الشيخ عبد الرحمن ، الشيخ شمس الدين ، الشيخ إسماعيل

كفر الشيخ : الشيخ محمد أبو صادر ، الشيخ عمر ، الشيخ إبراهيم سليمان

فوه : الشيخ يوسف رجب

طنطا : الشيخ أحمد المنشاوى ، الشيخ أحمد ربع ، الشيخ على أبو عائد

العزيزية : الشيخ موسى ، الشيخ محمد عبد الله ، الشيخ إبراهيم ، والشيخ أبو نصير

المحلة : الشيخ يوسف سماح ، الشيخ محمد عبد الله ، الشيخ الخولى عبيد

دمنهور : الشيخ دسوق خير الله

الرحمانية : الشيخ محمد

النجيلة : الشيخ مصطفى .

كفر الزيات : الشيخ حسن سليمان .

القليوبية : الشيخ محمد القاضى ، الشيخ خضر ، الشيخ محمد الشواربى ، الشيخ جمعة منصور ، شيخ العرب أحمد حبيب .

بعض أعمال مجلس المشورة

يتبين من الاطلاع على ما نشرته الوقائع المصرية من قرارات مجلس المشورة نوع الأعمال التى كان يتداول فيها ، فغالبها كان خاصا بالإدارة والتعليم والأشغال والقضاء ، ومعظم قراراته كان بناء على اقتراحات الأعضاء الموظفين فيه .

ومما يلفت النظر أن أول قرار له فى أولى جلساته كان خاصا بالتعليم ، إذ قرر إعداد مكتب لتعليم كتبة الديوان اللغتين العربية والتركية ، وأحوال الفلاحة وتعيين محمد أفندى دويدار ناظرًا لهذا المكتب ، والشيخ مصطفى مدرسا للغة العربية ، وقرر أنه كلما يتم تعليم عدد من كتبة الديوان يرسلون إلى الأقاليم ويجىء خلافهم لتعليمهم ثم إرسالهم « ويستمر العمل حتى يصير القائمون بالعمل فيهم الكفاءة الإدارة مصالح الحكومة ».

فالقرار كما ترى مفيد وحكيم ، إذ هو يرمى إلى ترقية المستوى العلمى لكتبة الدواوين وإرسال من يتم تعليمهم إلى الأقاليم حتى يشغلوا الوظائف عن جدارة واستحقاق ، وذلك هو عين الصواب .

وقرر فى جلسة ٢ ربيع الأول أرتداء جميع الموظفين كساوى الجهادية ، وقرر فى جلسة ٣ ربيع الأول بناء على طلب الدفتردار (مدير الشؤون المالية) جعل أعمال السخرة بالمناوبة بحيث يتناوب أهل كل بلد العمل أسبوعا بعد أسبوع ، إلا إذا كان كثيراً فيستخدمون بأجمعهم حتى يتم ، ولا يعفى من العمل إلا عمال الفابريقات .

وقرر فى هذه الجلسة ذاتها بناء على طلب مأمور السنبلاوين أن يكون عمل الفلاحين فى التطهيرات وبناء القناطر وإصلاح الجسور فى أشهر توت وبابه وكيهك وطوبه وأمشير وبرمهات وبؤونه ، وبنى اقتراحه على أن الفلاحين فى باقى أشهر السنة يكونون مشغولين بالزراعة والحصاد وجنى القطن ، فوافق المجلس على الاقتراح ، وكلف مأمور الديوان الخديوى بأن يأمر بذلك نظار الأقسام ومأمورى الأقاليم .

ومن قراراته أنه قرر أخذ ١٠٠ غلام من كل ثمن من أثمان القاهرة وبولاق ومصر القديمة وجملتهم ١٠٠٠ غلام لتشغيلهم بالأجرة فى فابريقات الحكومة ، وكذلك قرر أخذ الصالحين للعمل من المتسولين (الشحاذين) للالتحاق بهذه الفابريقات وأن ترتب لهم أرزاق يومية ،

وبعد تعلمهم الصناعة ترتب لهم أجور يومية ، ولهذا القرار قيمته فى تعليم الصناعة ومحاربة البطالة .

وبحث فى عقاب الموظفين ومشايخ البلاد (العمد) الذين تمتد يدهم إلى الرشوة (البرطيل) أو سلب أموال الأهالى ، فقرر إلزامهم برد ما أخذوه ومجازاتهم بالعقوبات الشديدة.

ويقول المسيو لينان باشا فى كتابه (مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة بمصر ص ٤٣٣) أنه عرض مشروعه فى بناء القناطر الخيرية على مجلس المشورة ، فطلب منه المجلس بيان ما يقتضيه المشروع من النفقات ، فأبدى له رقما تقديريا ، ويطالعنا المسيو لينان بحقيقة هذا المجلس فقد قال عنه أنه « مؤلف من مشايخ الأقاليم الذين كان المراد أن يحلوا محل الترك فى الحكم ، ولكنه لم يدم طويلا » ، فيتبين من ذلك أن هذا المجلس الذى كان يمكن أن يكون نواة لنظام نيابى لم يكن طويل العمر ، ولذلك لم يظهر له أثر فى معظم عهد محمد على .

القانون الأساسى سنة ١٨٣٧

وفى سنة ١٨٣٧ وضع محمد على باشا قانونا أساسيا يعرف بقانون (السياستنامة) أحاط فيه بنظام الحكومة واختصاص كل مصلحة من مصالحها العامة ، وقد حصر السلطة فى سبعة دواوين وهى :

أولا : الديوان الخديوى ، وينظر فى شؤون الحكومة الداخلية العامة وله سلطة قضائية إذ كان يفصل فى بعض الدعاوى الجنائية ، فقد ورد فى لائحة تأسيسية أنه يختص بالضبط والربط فى مدينة القاهرة والفصل فى الخصومات والشكايات التى ترفع إليه ، أما الدعاوى الشرعية فكان يحيلها إلى المحاكم الشرعية ، وكان يختص بالحكم فى جرائم القتل والسرقات إلى أن أنشئت سنة ١٨٤٢ (جمعية الحقانية) التى سيرد الكلام عنها ، وكان له الإشراف والرئاسة على عدة مصالح ، منها مصلحة الأبنية (المبانى) وفروعها ، والمخبز الملكى ، والكيلار العامر (إدارة المخصصات الغذائية للباشا) ، والسلخانة ، والقوافل ، وديوان المواشى ، وترسانة بولاق ، والمستشفيات الملكية ، والروزنامة (إدارة أموال الميرى) وبيت المال ، والأوقاف المصرية ، والتمرخانة ، وجبال المرمر ، ومحاجر طره ، وأثر النبى ، ومهمات ترعة المحمودية ، وخزينة الأمتعة ، والبوستة ، وأمور الأحكام بالإسكندرية .

ثانيا : ديوان الايرادات ، وهو قسمان ، أحدهما يختص بحسابات كافة المديريات وجزيرة

كريد ، والحجاز والسودان ، والثانى يختص بإيراد مدينتى مصر والإسكندرية والكمارك والمقاطعات والزمامات ، وكان لهذين القسمين مفتشون يعرفون بمفتشى الأقاليم للتنقيب على المصالح .

ثالثا : ديوان الجهادية ، وإليه يرجع النظر فى نظام الجنود البرية وضبط وربط حركاتها وتعليماتها ، ومهمات الفيالق والثكنات ومواضع الخيام والقلاع ، والمستشفيات العسكرية ، والشؤون الصحية للجنود وورش ومخازن المهمات الحربية ، ومعامل البارود وتعلقاتها وأشوان المؤن العسكرية والمخابز ، وعلى العموم كافة المصالح العسكرية .

رابعا : ديوان البحر ، وإليه يرجع النظر فى إدارة وتنظيم الدوننمة (الأسطول) وضبط وربط حركاتها ، والترسانة والمخازن والخزينة البحرية وتجهيز المهمات والمؤونة وسائر حاجات الدوننمة والمستشفيات البحرية .

خامسا : ديوان المدارس وإليه يرجع النظر فى أمور المدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية (العالية) والكتبخانات ومخازن الآلات والأدوات ، والقناطر الخيرية ، ومطبعة بولاق وإدارة الوقائع المصرية ومصلحة الأمور الهندسية وإدارة زرائب المارينوس والاصطبلات الكبرى فى شبرا .

سادسا : ديوان الأمور الأفرنكية والتجارة المصرية وإليه يرجع النظر فى العلاقات الخارجية ومعاملة الأجانب وبيع متاجر الحكومة ومشترياتها

سابعا . ديوان الفابريقات وإليه يرجع النظر فى إدارة فابريقة الطرابيش فى فوه وكافة الفابريقات التى كانت توجد فى مدينة مصر ومدن الأقاليم .

وكان مفروضا على رئيس كل من هذه الدواوين أن يقدم للباشا تقريرًا فى كل أسبوع عن أحوال ديوانه ، وكشفا شهريا بحساباته إلى تفتيش الحسابات ، وميزانية سنوية عن الإيراد والمصرف .

المجلس الخصوصى والمجلس العمومى

وفى يناير سنة ١٨٤٧ ألف محمد على ثلاثة مجالس جديدة عدا الهيئات المتقدمة أهمها (المجلس الخصوصى) واختصاصاته النظر فى شؤون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وكان يرأسه إبراهيم باشا ، وأعضاؤه كتخدا باشا

(عباس باشا حفيد محمد على) وأحمد باشا يكن وحسن بك رئيس جمعية الحقانية ، وبرهان بك .

و (المجلس العمومى) أو (الجمعية العمومية) بديوان المالية وهى هيئة مؤلفة من مدير المالية ووكيل الديوان الخديوى ومدير المدارس (أدهم بك) ومدير الحسابات (باسليوس بك) ومفتش القابريقات (لطيف بك) ومفتش الشفالك (حافظ بك) ورؤساء أقلام دواوين الحكومة ، وينعقد هذا المجلس مرتين فى الأسبوع على الأقل وينظر فى شؤون الحكومة العمومية التى تحال عليه ، ويرسل قراره إلى (المجلس الخصوصى) فإذا وافق عليه أحاله على الباشا ليأمر بتنفيذه إذا أقره .

(مجلس عمومى) آخر بالإسكندرية يختص بالنظر فى شؤونها يرأسه ناظر ديوان الإسكندرية ، وأعضاؤه ناظر ديوان البحرية وناظر ديوان التجارة ومأمور الضبطية وأمين الجمرك وناظر الترسانة ووكيل اللدونانمة .

نظرة عامة فى هذا النظام

إن إنشاء حكومة قوية من أجلّ الأعمال التى قام بها محمد على ، لأنها قضت على الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى البلاد ، وبهذه الحكومة أمكنه أن يتم الإصلاحات التى فكر فيها ، وكان لها الفضل الكبير فى نشر لواء الأمن فى البلاد ، وهذا الأمن الذى بسطه محمد على باشا كان من أهم دعائم العمران فى وادى النيل ، ومن الحق أن نقولْ إن استتباب الأمن والنظام من مميزات هذا العصر ، لأن عصر المماليك اشتهر بفقدان الضبط والربط فلم يكن المزارعون والتجار والملاك يأمنون على أموالهم وأملاكهم بل كانت تتخطفها المناسر وقطاع الطرق ، ومعلومٌ أنه إذا لم يستتب الأمن فى بلد فلا يُرجى له تقدم أو حضارة ، فمحمد على قد وضع أول دعامة لعمران مصر بضبط الأمن والضرب على أيدى الأشقياء وقطاع الطرق وقرصان النيل ، وهذا من أجلّ أعماله مدة حكمه ، قال المسيو جومار فى هذا الصدد . « إن من أهم نتائج حكم محمد على وأدعاها للإعجاب بسط رواق الأمن بحيث يستطيع الإنسان أن يجتاز الجهات البعيدة عن النيل آمنا مطمئنا بعد أن كان يستهدف لاختطاف العربان إياه إذا تخطى عتبة الصحراء بل فى وسط الجهات الزراعية ، وقد أخضعت الحكومة سطوة العربان ومنعت غزواتهم ، ويمكن الإنسان أن يسير وسط مضاربهم آمنا على نفسه ، وهم يشتغلون

بتربية المواشى والغنم والاتجار بها فى الأسواق » .

لميزة حكومة محمد على أنها وطدت دعائم الأمن فى البلاد ، وبذلك أمكنها أن تقوم بالإصلاحات التى مرّ بك ذكرها ، ولكن بجانب ذلك لا مندوحة عن القول بأن محمد على لم يتجه ذهنه قط إلى إنشاء نظام دستورى أو شبه دستورى بالمعنى المفهوم منه ، وهذه نقطة ضعف وموضع نقد شديد فى تاريخه ، وما الهيئات التى أسسها إلا مجالس تنفيذية كانت الكلمة العليا فيها له أو لكتخدائه ، ومجلس المشورة لم يعمر طويلا ، والظاهر أن ميوله النفسية لم تتجه إلى ناحية النظام الدستورى ، ولو أنه عنى بهذه الناحية لأمكنه أن يعد الأمة للاضطلاع بمسئوليات الحكم فى عهده ، ولكنه لم يفعل ، وترك المسألة فوضى بين خلفائه والشعب ، فوقع التصادم بينهما فى أواخر عهد إسماعيل وأوائل عهد توفيق حتى أفضى إلى الثورة العرابية ثم إلى الاحتلال الإنجليزى .

التقسيم الإدارى والموظفون

كانت مصر مقسمة إلى ١٦ إقليما طبقا للتقسيم الذى كان معمولا به فى عهد الحكم التركى[٨] ، فأدخل محمد على تعديلا فى هذا التقسيم بأن جعل من مصر سبع مديريات جعل عليها حكاما سماهم المديرين ، وهى التسمية الباقية إلى اليوم .

وجعل فى الوجه البحرى أربع مديريات ، فالمديرية الأولى تشمل البحيرة والقليوبية والجيزة ، ثم صارت البحيرة مديرية قائمة بذاتها وكذلك الجيزة .

والمديرية الثانية تشمل المنوفية والغربية ، ثم انفصلت كل منهما وصارت مديرية قائمة بذاتها ، والمديرية الثالثة تشمل المنصورة (الدقهلية) ، والمديرية الرابعة تشمل الشرقية .

وواحدة تتألف منها مصر الوسطى من جنوبى المنيا إلى جنوبى الجيزة ، ثم سميت مديرية الأقاليم الوسطى ، وشملت بنى سويف والفيوم والمنيا .

واثنتان تتألف منهما مصر العليا ، والأولى من شمالى قنا إلى جنوبى المنيا ، والثانية من وادى حلفا إلى قنا ، ثم سميت أسيوط وجرجا مديرية (نصف أول وجه قبلى) وسميت قنا وأسنا مديرية (نصف ثانى وجه قبلى) .

أما القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط والسويس فكل منها محافظة .

---

(٨) أنظر الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ص ٥٨ .

وقسمت كل مديرية إلى مراكز ، والمراكز إلى أقسام (أخطاط) ، أما المراكز فقد سمى رؤساؤها المأمورين ، وهى التسمية الباقية إلى اليوم ، ورؤساء الأقسام بالنظار ، وهذه التسمية لم يعد لها وجود الآن ، والقسم يشمل فى دائرته جملة نواح (قرى) لكل ناحية رئيس يدعى شيخ البلد الموجود منذ القدم (والمعروف الآن بالعمدة) ، وبقى بجانبه (الخولى) ووظيفته مسح الأطيان ، و(الصراف) لجمع أموال الميرى ، و (الشاهد) وهو المعروف بالمأذون .

فمحمد على هو أول من سمى أقسام مصر الإدارية (مديريات) وأول من سمى رؤساءها (مديرين) ، وسمى رئيس المركز مأمورا ، ورئيس القسم ناظرا ، فهذه الأسماء من مبتكراته .

البوليس

وكان يتولى إدارة الأمن وحفظ النظام فى القاهرة موظفان كبيران ، يسمى أحدهما الوالى ، وكان موجودا قبل عصر محمد على ، والآخر الضابط (ويسمى ضابط مصر) وهو بمثابة حكمدار البوليس الآن ، ثم آل الأمر إلى الاقتصار على الثانى ، وتحت إمرته ضباط موزعون فى أنحاء المدينة تميزهم من غيرهم علامة خاصة وعليهم ضبط الأمن ، والمحافظة على سلامة الأفراد ، ويقومون أثناء الليل بالنوبة ، فإذا مضت ساعة من غروب الشمس ألقوا القبض فى الطريق على كل شخص لا يحمل بيده مصباحا . وبهذا تقفر الشوارع وتكاد تخلو من السابلة أثناء الليل ، ويتولى رقابة الأسواق موظف يعرف بالمحتسب .

النظام القضائى

لم يتغير النظام القضائى كثيرا عما كان عليه فى عهد المماليك[٩] .

ولم يدخل محمد على فى هذا النظام تعديلا أو إصلاحا ، غير أنه جعل للديوان الخديوى اختصاصا قضائيا كما مر بك بيانه ، وأنشأ سنة ١٨٤٢ هيئة قضائية جديدة تسمى (جمعية الحقانية) جعل من اختصاصها محاكمة كبار الموظفين على ما يتهمون به فى عملهم ، وتحكم أيضا فى الجرائم التى تحيلها عليها الدواوين ، وكانت بمثابة محكمة جنايات وجنح ، وهى مؤلفة من رئيس وستة أعضاء منهم اثنان من أمراء الجهادية واثنان من البحرية واثنان من ضباط البوليس .

(٩) أنظر الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ص ٣٤ .

وأنشأ محكمة تجارية تسمى (مجلس التجارة) للفصل فى المنازعات التجارية بين الأهلين ، أو بينهم وبين الإفرنج ، وتتألف هذه المحكمة من رئيس ونائب رئيس وباشكاتب ، وكاتب ، وثمانية أعضاء من التجار ، خمسة منهم من الوطنيين وثلاثة من الأجانب ، وكان بكل من الإسكندرية والقاهرة محكمة من هذا النوع .

وكان المديرون يجمعون بين السلطتين القضائية والإدارية ، ولهم اختصاص جنائى واسع المدى يصل إلى الحكم بالإعدام ، ومن هنا جاء إسرافهم فى الظلم والإرهاق .

النظام المالى والاقتصادى

الملكية والضرائب

تكلمنا فى الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » (ص ٢٨ وما بعدها) عن نظام ملكية الأراضى فى عهد المماليك . وخلاصة ما ذكرنا أن السلطان سليم اعتبر نفسه مالكا لأراضى مصر ، وبذلك كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، وأن المماليك بسطوا أيديهم على الكثير من أراضى مصر فصارت ملكا لهم ، وباقى الأراضى موزع بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف ، وأن الفلاحين كانوا يملكون النزر اليسير من الأراضى ينتفعون بها ويتوارثونها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والإتاوات ، وهذه الضرائب والإتاوات تدفع للملتزمين ، والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى « التزاما » أى يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه على أن يلتزموا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب .

إلغاء نظام الالتزام

تغير هذا النظام فى عهد محمد على باشا تغيرا عظيما ، فإنه بعد أن غلب المماليك وخاصة بعد أن قضى عليهم فى مذبحة القلعة عمد إلى أملاكهم التى كانت تحت أيديهم واستخلصها لنفسه ، ثم ألغى نظام الالتزام ونزع الأراضى التى كانت تحت أيدى الملتزمين والتى كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها لهم ، واعتبرها ملكا للحكومة ، ووزع منفعتها على الفلاحين كأطيان مؤجرة ، وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أفدنة أو أربعة أو خمسة ، وبذلك آلت له حقوق الملتزمين وسلطتهم ، وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة بعد أن كانت علاقتهم بالملتزمين .

وقد توصل محمد على إلى إلغاء نظام الالتزام بأن طلب من الملتزمين أن يطلعوه على سندات ملكيتهم ، فلما قدموها له قرر بطلانها جميعا ، واعتبر الحكومة أو بعبارة أوضح اعتبرته ذاته مالكا لجميع أراضى مصر.

أحدث إلغاء نظام الالتزام استياء شديدا بين الملتزمين ، وكانوا يؤلفون طبقة كبيرة من الملاك والأعيان والمشايخ فى مختلف البلدان يتعيشون منه ، فأراد محمد على أن يعوضهم شيئا مما فقدوه من مزايا التزامهم ، فأبقى تحت أيديهم (الأطيان الوسية) أى التى أقطعها إياهم ولاة الأمور من قبل للقيام بأعباء الالتزام ، فخولهم حق الانتفاع بها مدى الحياة مع إعفائهم من دفع ضريبتها ، وقرر لهم عدا ذلك معاشات سنوية تدفع لهم من إدارة الروزمانة تعادل ما كانوا يربحونه من الأطيان الداخلة فى التزامهم ، وكان حقهم فى هذا الربح مستمدا من أساس الالتزام نفسه . فأساسه أن يعجّل الملتزم للحكومة ضريبة سنة يدفعها مقدما على أن يجبيها بعد ذلك من الفلاحين ، فجعل محمد على هذه الرواتب السنوية فى مقابل ما كان يصل إلى أيديهم من أرباح الالتزام وسميت (الفائض) وقيدت فى الروزنامة لاسم كل ملتزم ، تدفع له مادام حيا ، على أنه مما يجدر ملاحظته أن هذا الفايض أقل بكثير مما كانوا ينالونه من مزايا الالتزام ، لأن محمد على لجأ إلى طريقة تدل على ذكائه ودهائه فى حساب هذا الفائض ، ذلك أنه قبل أن يعلن عن نيته فى إلغاء الالتزام طلب من الملتزمين أن يقدموا له كشوفا بأرباحهم من التزاماتهم ، وهى التى تسمى بالفائض أو فائض الالتزام ، فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عزم الحكومة على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة ، فأنقصوا قيمة هذه الأرباح جهد ما استطاعوا ، فاعتمد محمد على باشا على هذا الحساب وحدد لهم رواتب مساوية لها ، واسترد فى مقابل ذلك الأملاك التى كانت تحت يدهم التزاما .

وضع محمد على إذن يده على أطيان الملتزمين ، أما الأراضى الموقوفة على المساجد ومعاهد البر والخيرات فقد تركها بداءة ذى بدء حتى لا يثير عليه هياج المستحقين والنظار ، لكنه ما لبث أن ألغاها وضمها إلى أملاك الحكومة ، آخذا على عهدته الإنفاق على المساجد ، ورتب للشيوخ الذين كانوا يتولون إدارة الأطيان الموقوفة معاشات سنوية ضئيلة ، ولم يبق من الأوقاف على الخيرات سوى النزر اليسير وبذلك توصل محمد على إلى وضع يده على أطيان الملتزمين ثم على الأطيان الموقوفة .

ومما يجب الإلماع إليه أنه لم يكن فى مصر ملاك بالمعنى الصحيح حينما ألغى محمد على نظام

الالتزام ، ولم يكن سوى الملتزمين . ولذلك يسميهم كثير من المؤلفين الإفرنج (ملاكا) ، فإلغاء الالتزام كان بمثابة إلغاء الملكية المعروفة فى ذلك العصر ، وهى ملكية الانتفاع ، ولو أن محمد على بعد إلغاء الالتزام ملّك الفلاحين الأراضى لكان ذلك إنشاء لنظام الملكية ، ولكنه اعتبر الحكومة مالكة لجميع الأراضى ، ولم يرتب للفلاحين حقوق الملكية عليها ، بل كانت الحكومة تعد الفلاحين أجراء عندها أو منتفعين بأطيانها ، فتستأجرهم للعمل فى الأرض بالمياومة وتعين للواحد منهم قرشاً واحداً فى اليوم ، إما نقداً وإما أصنافا ، ويبقى لهم حق الانتفاع بالأرض ماداموا يدفعون ضريبتها ، فإذا تأخروا عن أداء الضريبة نزعت الأرض من تحت يدهم ، وأعطيت لفلاحين آخرين ينتفعون بها ، وكان للحكومة أن تنزع الأرض من تحت يد من تشاء إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك دون أن تدفع له تعويضا ، وكانت تعطى الفلاحين ما يلزم الزراعة من آلات الرى والحرث والمواشى ، ومأمور المركز هو الذى يحدد لكل فلاح مساحة الأرض التى تعطى له ومقدار ما يخصص لكل نوع من الزراعات ، وإذا جاء الحصاد اشترت الحكومة من الفلاح حاصلاته بالثمن الذى تحدده طبقا لنظام الاحتكار ، ولا تترك إلا الحبوب ثم شمل الاحتكار الحبوب أيضًا .

وكان الانتفاع قاصرا على المنتفع مدى الحياة ، فلا يتوارثه أعقابه ، على أن العمل جرى على أنه بعد وفاة المنتفع يتولى مشايخ البلاد ثم المديرون إعطاء حق الانتفاع لورثة المتوفى على سبيل المنح ، كما منح من قبل إلى المورث لا على أنه حق موروث ، ولذلك كان الفلاحون عرضة لأهواء المشايخ وتحكمهم كلما أرادوا أن يمنح لهم هذا الحق .

ومما تقدم يتبين أن حق ملكية الفلاحين للأراضى الزراعية لم يتقرر فى عصر محمد على ، وإنما جاء تقريره بمقتضى قانون سنة ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا .

ولا نزاع فى أن إلغاء الالتزام مع عدم تقرير حق الملكية لا يمكن أن يعد إصلاحا ، بل هو أبعد ما يكون عن الإصلاح ، قال المسيو مانجان ، وهو صديق لمحمد على : أن التعديلات التى أدخلها الباشا فى نظام الملكية ، لم تكن متفقة مع الصالح العام ، فلا هو احترم الملكية الفردية ، ولا هو اعترف بها ، كما أن الذين عجزوا عن دفع الاتاوات والضرائب المختلفة التى فرضت على أملاكهم اضطروا أن يتنازلوا عنها ، وقال إنه لما أمر محمد على بمسح الأراضى فى القطر المصرى زاد عدد الأفدنة بسبب تغيير مقياس المساحة وإنقاص طول القصبة ، وزاد بالتالى ما يطلب على الأرض من الضرائب ، وبإلغاء الالتزام حُرم الملتزمون من الأملاك التى

كانوا يستثمرونها ، فإلغاء الالتزام مع عدم إنشاء الملكية الفردية معناه إلغاء الملكية وامتلاك الحكومة لجميع الأراضى الزراعية ، ولئن كان محمد على قد أمر بترتيب إيراد سنوى للمتلزمين الذين نزعت الأرض من تحت أيديهم إلا أن هذه الرواتب لا تتوارث فكانت تسقط بوفاة الملتزم ، ويقول المسيو مانجان أيضا إن هذا النظام القاسى قد نشر الأحزان فى العائلات ، وقد أسهب الجبرتى فى وصف تذمر الناس من هذا النظام فى حوادث ربيع الأول سنة ١٣٢٩ هـ (سنة ١٨١٤ م) .

ولقد دافع بعض الكتاب الإفرنج عن هذا النظام ، ولكنه دفاع ضعيف لا يرتكز على أساس صحيح ، ولم يجدوا ما يبررونه به سوى قولهم إن هذه الطريقة مكنت الحكومة من أن تنظم زراعة الأراضى على الأساليب الجديدة ، وتدخل الزراعات التى لم تكن معروفة عند الفلاحين من قبل ، وأن هذه الطريقة هى التى نهضت بحاصلات مصر الزراعية فى عصر محمد على . وغنى عن البيان أن هذا الدفاع لا يثبت أمام البحث والتمحيص ، فإن تحسين الزراعية وإدخال الزراعات الجديدة لا يستلزم جعل جميع الأراضى الزراعية ملكا للحكومة ، ولا يتعارض مع تخويل الفلاحين حق الملكية ، ولقد خول لهم هذا الحق فى عهد سعيد باشا فلم تقف معه حركة النهوض الزراعى ، بل كانت الملكية الفردية – ولم تزل – من دواعى نشاط الفلاحين وجهدهم فى العمل ، وهذا الجهد والنشاط هما قوام العمران .

على أن الذين دافعوا عن هذا النظام مثل الدكتور كلوت بك اعترفوا بأنه نظام مؤقت ، وأنه يمهد السبيل لتقرير حق الملكية الزراعية ، ومعنى ذلك أن حق الملكية هو النظام الطبيعى الذى لا ندحة عن تقريره فى كل بلد من البلاد المتحضرة .

أحدث إلغاء الالتزام كما قلنا تذمرا بين الملتزمين ، على أن ملتزمى الوجه البحرى والجيزة قد أذعنوا لأمر الحكومة ورضوا بما رتبته لهم من الفائض السنوى مهما كان ضئيلا ، أما ملتزمو الوجه القبلى ، ومعظمهم من سلالة المماليك ورؤساء العشائر ذوى النفوذ والعصبية فإنهم لم يذعنوا ، واضطر محمد على أن يجرد عليهم قوة حربية لإخضاعهم فغلبتهم وحرمتهم ميزة (الفائض) واضطر بعضهم إلى الهجرة ، ونزع محمد على أملاكهم ، وأضافها إلى مجموع الأراضى الزراعية التى اعتبرها ملكا له .

ولما كانت أراضى الوسية حقا للملتزمين مدى الحياة فقط فقد شرع كثير من الملتزمين فى وقفها حتى لا يحرم ورثتهم من ريعها ، وزادت الوقفيات زيادة كبيرة حتى اضطرت الحكومة

فى عهد سعيد باشا سنة ١٨٥٥ إلى تخويل أصحاب (الأواسى) حتى توريثها لأعقابهم إلى أن تنقرض ذريتهم فتعود ملكيتها إلى الحكومة .

الأبعاديات والشفالك

ويظهر أن محمد على بعد احتكاره ملكية أطيان القطر المصرى رأى أن يخفف غلواء هذا الاحتكار ويقرر نوعا من الملكية الفردية ، بأن أقطع كثيرًا من أعيان الدولة ورجال الجهادية والموظفين وبعض كبار الأعيان مساحات شاسعة من الأراضى البور قدرها كلوت بك بـ ٢٠٠ ألف فدان ليستحثهم على إصلاحها وإحياء مواتها ،وبذلك يزداد عمران البلاد وتتسع الأراضى الزراعية ، وهذه الأراضى مما لم يمسح فى دفاتر التاريع ، وقد أعفاها من الضرائب ، وسميت أباعد أو أبعاديات لأنها كانت مستبعدة عن مساحة فك الزمام التى عملت سنة ١٨١٣ ، ولأجل أن يستحث أصحاب تلك الأبعاديات على العمل فيها وإصلاحها أصدر أمرًا فى سنة ١٨٣٨ بمنعهم من أن يؤجروها ويأمرهم ويؤكد عليهم أن يشتغلوا بأنفسهم فى إصلاحها .

وخص أفراد أسرته وكبار حاشيته بأراض أخرى أوسع من الأبعاديات سميت (جفالك) أو (شفالك) وأعفاها أيضاً من الضرائب ، وكانت تعطى بهذه الأطيان (تقاسيط) من مصلحة (الروزنامة) أو حجج تحرر بالمحاكم الشرعية ، وكانت كذلك فى المبدأ خارجة عن الأراضى الممسوحة التى تجنى منها الضرائب .

وحقوق أصحاب هذه الأطيان من الأبعاديات والشفالك كانت مقصورة على حق الانتفاع إلى أن لاحظ محمد على أن عدم تخويلهم حق الملكية قد صرف أصحابها عن العمل لإصلاحها فخولهم حق الملكية والتصرف الشرعى فيها فى أواخر حكمه (سنة ١٨٤٢) .

مساحة الأراضى الزراعية

ورأى محمد على باشا من وسائل العمران مساحة الأراضى الزراعية فى جميع المديريات توصلا إلى حصرها وفرض ضرائب ثابتة سنوية عليها ، وذلك هو (التاريع) المشهور الذى بدأ بعمله فى سنة ١٨١٣ وعهد به إلى ابنه إبراهيم بك (باشا) ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المسّاحين ، وتعد دفاتر التاريع التى أمر محمد على بوضعها من أهم أعماله العمرانية ، وفيها

مساحة أطيان القطر المصرى المزروعة وحدود كل أطيان البلاد وأحواضها ومساحة سكن كل بلد ومساحة الأراضى المستعملة للمنافع العمومية كالترع والجسور والطرق والمدافن .

وعرف كل فلاح ما عليه من الضريبة ، ومنح مشايخ البلاد عن كل مائة فدان من زمام البلد خمسة أفدنة لا يدفعون عنها ضريبة مقابل خدماتهم للحكومة وإيواء من يحضر إليهم من الموظفين ، وقد سميت هذه الأطيان (مسموح المشايخ) أو مسموح المصطبة .

على أن معظم هؤلاء المشايخ ساءت تصرفاتهم واستبدوا بتسخير الفلاحين فى خدمة أراضيهم وكثرت شكاوى الناس منهم ، فأمر سعيد باشا سنة ١٨٥٨ بإبطال مسموح المشايخ وضم تلك الأراضى إلى زارعيها من الفلاحين بأعلى ضريبة فى كل بلد .

وكانت مساحة الأراضى المزروعة سنة ١٨٢١ مليونى فدان وبلغت سنة ١٨٤٠ ٣,٨٥٦,٠٠٠ فدان[١٠] أى أنها بلغت الضعف تقريبا فى مدى عشرين عاما .

الضرائب

لم يكن للضرائب قاعدة أو نظام قبل أن يمسح محمد على أراضى مصر (سنة ١٨١٣) بل كانت القاعدة أنه كلما احتاجت الحكومة إلى المال فرضت اتاوة جديدة أو زادت الاتاوات القديمة .

وقد كان محمد على يستشير العلماء فيما يفرضه من الضرائب ، وذلك فى السنوات الأولى من حكمه ، إلى أن تخلص من نفوذ السيد عمر مكرم فأطلق يده فى فرض ما يشاء من الضرائب والاتاوات كلما احتاج إلى المال ، وعظمت حاجته إلى الأموال يجبيها لمناسبة الحملة على الوهابيين ، فإنها اقتضت نفقات طائلة ، ولما أخفقت الحملة الأولى جهز حملات أخرى واحتاج إلى أموال جديدة ، ففرض ضريبة على أراضى الرزق التى كانت معفاة من المال من قبل ، فشكا المشايخ والأهلون من أن مثل هذه الضريبة تؤدى إلى ضياع غلة الأطيان الموقوفة على المساجد والمعاهد الدينية والأسبلة والمنشآت الخيرية ، ولكن هذه الشكوى لم تلق قبولا .

ولما تمت عملية مساحة أطيان القطر المصرى قررت الحكومة فرض ضريبة ثابتة على الأطيان ، وفرزت الأراضى الزراعية إلى درجات بحسب قيمتها ونوعها وجعلت لكل درجة

---

(١٠) إحصاء كلوت بك ج ٢ ص ٢٦٤ (من الأصل الفرنسى) .

ضريبة محدودة ، فقدرت الضريبة على كل فدان بأربعة قروش ونصف على الأقل فى عموم القطر ، وبخمسة وأربعين قرشا أو تسعة وأربعين قرشًا على الأكثر ، ثم عدلت الضرائب غير مرة علىّ مر السنين بوضع تقسيمات جديدة للأراضى ومراتبها ، وكان الغرض من هذه التعديلات زيادة سعر الضريبة وبالتالى زيادة ما يجبى منها ، وحجة محمد على فى هذه الزيادات أن الإصلاحات التى قام بها والحروب التى باشرها استنفدت إيرادات الحكومة ، فكان لا مندوحة له عن زيادة الضرائب ، كما أنه استحدث ضرائب جديدة لسد العجز فى ميزانية الحكومة .

وكان من نتائج زيادة الضرائب وافتقار الأراضى إلى الأيدى العاملة بسبب تجنيد الآلاف من الفلاحين فى الجيش أن تأخرت قرى كثيرة عن أداء نصيبها فى الضريبة ، وهجر كثير من الفلاحين بلادهم لفداحة الضرائب ، ففكر محمد على فى ابتكار الوسائل لأداء المنكسر من الخراج ، فقرر وقتًا ما (سنة ١٨٣٩) تضمين القرى خراج القرى المجاورة وتضمين الأهالى الموسرين خراج المعسرين ، على أن هذه الوسيلة كان لها نتائج سيئة ، لأنها فضلا عما فيها من الظلم والحيف فإنها تؤدى إلى إقفار القرى الموسرة وإجبارها على دفع الضرائب أضعافًا مضاعفة .

ففكر فى طريقة أخرى وهى نظام العُهَد (جمع عهدة) ، وذلك أنه عهد إلى بعض الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية أن يكون فى (عهدتهم) جباية ضرائب بلاد بأكملها ، على أن يكونوا مسئولين عن الدفع من مالهم الخاص إذا لم يجبوها ، ولا ريب أن هذا النظام قريب الشبه بنظام الالتزام الذى ألغاه محمد على ، على أنه يختلف عنه فى كون (المتعهد) لا يستطيع أن يجبى من أصحاب الأراضى إلا الضريبة المحددة ، أما الملتزم فكان يجبى منهم ما تشاء أهواؤه وأطماعه .

على أن مركز الفلاح إزاء (المتعهد) لم يكن مما يغبط عليه ، لأن المتعهد بما التزم به من أداء الضريبة كان يسخر الفلاح لأطماعه لأنه يعتبر نفسه كالدائن الذى يسدد عنه دينه ، وكانت الحكومة ملزمة إذا هجر الفلاحون بلادهم أن تعيدهم إليها حتى يستوفى المتعهد منهم ما دفعه عنهم ، وفى هذا من مطاردة الناس وإرهاقهم مالا يغيب عن البال .

ولقد أحدث نظام (العهد) مساوئ كثيرة ، فألغته الحكومة سنة ١٨٥٠ إذ أصدرت أمرًا باسترجاع البلاد من المتعهدين ، على أنها أنعمت على بعضهم بما كان فى أيديهم من العهد

وجعلتها لهم رزقة بلا مال يملكون رقبتها ومنفعتها ملكًا مطلقًا ، وسمحت لآخرين من المتعهدين بأن يتمتعوا مدى حياتهم بمنفعة العهد التى كانت فى أيديهم[١١] .

فرضة الرءوس أو الضريبة على الدخل

هى ضريبة تجبى من الأفراد على اعتبار أنها جزء من اثنى عشر جزءًا من المال المفروض أنه يعدل الدخل ، وهذه الضريبة مفروضة على الذكور المراهقين كافة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم ، وتختلف تبعاً لتفاوت الناس فى الثروة من ١٥ قرشاً إلى ٥٠٠ قرش فى السنة ، وتجبى هذه الضريبة فى المدن عن النفوس ، وفى القرى عن المنازل ، ويبلغ ما يحصل منها عادة سدس إيراد الحكومة .

ضرائب أخرى

وهناك ضرائب أخرى تجبى على الماشية ، فالبقر والجاموس يدفع عنها عشرون قرشًا للرأس الواحد فى السنة ، وسبعون إذا كانت تباع للجزارين وتخصص للذبح على أن تبقى جلودها ملكاً للحكومة ، والجمال والنعاج يدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش ، وقوارب النقل يدفع عن كل قارب منها ٢٠٠ قرش ، والنخيل يدفع عنه ضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ومتوسطها قرش ونصف عن كل نخلة ، وقوارب الصيد يدفع عنها ضريبة .

نظام الاحتكار

احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية والاتجار بها

إن الكلام عن نظام الملكية والضرائب يستتبع الكلام على الاحتكار للارتباط بينهما ، ذلك أنه كان مألوفًا من عهد المماليك أن تجبى الضرائب نوعًا من حاصلات الأرض ، ولم يكن الفلاحون الذين خولهم محمد على حق الانتفاع بالأراضى من اليسار بحيث يستطيعون أداء الضريبة نقدًا فى موعدها ، كما أن الحكومة من جهة أخرى كانت تعطى الفلاحين أدوات

---

(١١) عاد العمل بنظام العهد مرة أخرى فى عهد إسماعيل باشا إلى أن صدر قرار مجلس شورى النواب فى ١٦ شعبان سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦ م) بهلك عهد البلاد ابتداء من سنة ١٢٨٤ لمساواة الأهالى بعضهم ببعض .

الزراعة والمواشى والبذور التى يحتاجون إليها قرضاً ، فكانت قيمتها دينًا عليهم يجب أن يؤدوه مع الضرائب ، وهم كما قدمنا عاجزون عن أدائها نقداً لما كانوا عليه من الفقر والفاقة ، لذلك أذن محمد على باشا للفلاحين أن يؤدوا الضريبة صنفاً من حاصلات أراضيهم ، وأنشأ فى المديريات شونا (جمع شونة) لتحفظ فيها الحاصلات التى تجبى من الفلاحين ، ومن هنا صارت الحكومة مالكة لمعظم حاصلات القطر المصرى الزراعية .

وكانت الحكومة تتولى بيعها للأهالى ولتجار الجملة من الأجانب الذين يصدرونها للخارج ، وتتولى هى أيضًا تصديرها لحسابها وبيعها فى ثغور فرنسا وإيطاليا والنمسا والجلترا ، فربحت من هذا العمل أرباحًا طائلة ، فكانت هذه الأرباح مغرية لها باحتكار حاصلات القطر المصرى والاتجار بها .

وذلك أن محمد على قرر أن تحتكر الحكومة جميع الحاصلات الزراعية بحيث يحظر على الفلاحين أن يبيعوها إلى التجار ، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بأثمان تقررها هى ، فصارت الحكومة محتكرة لتجارة حاصلات القطر المصرى بأكملها ، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار ، فبعد أن تملكت الحكومة معظم الأراضى الزراعية واحتكرتها بإلغاء نظام الالتزام واسترداد أملاك الملتزمين وإلغاء معظم الأوقاف ، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعية ، أى أن الحكومة صارت المالكة للأراضى الزراعية ثم المحتقرة لحاصلاتها جميعًا ، فلم يكن للفلاح ملكية لا على الأرض ولا على ما تنتجه !

قررت الحكومة إذن شراء الحاصلات من الفلاحين بأثمان تحددها هى ، وكانت تخصم من الثمن ما عليهم من الضريبة وتدفع لهم الباقى نقداً وصارت هى التى تتولى التصرف فى الحاصلات وبيعها والاتجار بها وتصديرها وشمل الاحتكار حاصلات القطر المصرى بأجمعها كالقطن والأرز والغلال والقمح والنيلة والسكر والأفيون الخ .

وصار الفلاحون إذا احتاجوا للغلال للقوت يضطرون إلى شرائها من الحكومة ثانية ، وكثيرًا ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن المبيع ، فتشتد الضائقة بالناس وترتفع أسعار الغلال فى الوقت الذى تفيض بها مخازنها .

ولا جرم أن هذه الوسيلة وإن كانت تعود على الحكومة بالمكاسب (زمنًا ما) إلا أنها من الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية تشل حركة التقدم الاقتصادى ، لأن إجبار الفلاحين على بيع حاصلات أراضيهم للحكومة وتحديدها على سعر البيع ، عمل ينطوى على الظلم والإرهاق ،

وفيه مصادر لحق الملكية وحرمان المالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع من تزاحم التجار على الشراء ، ذلك التزاحم الذى ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع ، كما أن العمل بمثل هذا النظام يقتل كل همة فردية ويقبض أيدى الناس عن العمل ، ومن ثم يحول دون تقدم البلاد أدبيًا وماديًا ، ويضرب على الشعب حجابًا من الفقر والجمود .

وقد ذكر الجبرتى احتكار الحكومة للغلال والسكر فى حوادث سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢) وسنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥) ، وذكر فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣١ (١٨١٦ م) احتكارها حاصلات الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم والقمح والفول والشعير والأرز ، وذكر فى حوادث جمادى الأولى سنة ١٢٣٢ هـ (مارس ١٨١٧) اشتداد أزمة الأقوات بسبب الاحتكار .

ولم يفت معظم كتاب الإفرنج انتقاد هذا النظام فيما كتبوه عنه ، فقد قال المسيو موربيه : « إن هذا الاحتكار هو الجانب السيئ فى تاريخ محمد على » ، وقال المسيو مريو Merruau [١٢] : « لا حاجة بنا إلى الإطالة فى عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد على ، لقد ربح الباشا منه أرباحًا طائلة ، لكنه أفضى إلى فقر الفلاحين المدقع وكاد يهوى بهم إلى المجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشظف العيش » .

احتكار الصناعة

سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة والتجارة إلى الصناعة . فبعد أن صار محمد على المالك الوحيد لأراضى مصر ، ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها ، صار الصانع الوحيد لصنائعها ، والظاهر أنه رأى الاحتكار مما يزيد إيراد الحكومة لأنه فتح بابًا جديدًا للربح ، فعمد إلى احتكار الصناعة ، لكن هذه الطريقة أضرت بالحالة الاقتصادية فى مصر ضررًا بليغًا .

قال المسيو مانجان فى هذا الصدد : «كان فى البلاد صناعات يتولاها الأفراد ويربحون مما يبيعونه من مصنوعاتهم إلى أهل البلاد ، وما يصدرونه منها للخارج ، كنسيج أقمشة الكتان والقطن والحرير وصناعة الحصر والجلود واستقطار ماء الورد وصبغ النيلة وغير ذلك [١٣]

(١٢) فى كتاب (مصر الحديثة» (١٨٤٠–١٨٥٧) .

(١٣) ذكرنا أنواع الصناعات الصغرى الموجودة فى ذلك العصر تفصيلا فى الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ص ٥٤ .

وكانت هذه الصناعات تشغل عدداً من السكان يربحون منها نحو ثلاثين ألف كيس كل سنة (١٥٠٠٠٠ جنيه) ولكن محمد على احتكر هذه الصناعات وأضاف أرباحها إلى حسابه وبعد أن كان الصناع يستثمرون هذه الصناعات صاروا يعملون فيها لحساب الحكومة ، ويقبضون رواتب معلومة ، كعمال مأجورين ، وقال إن من نتائج هذا النظام أن كثيراً من صناع النسيج فضلوا ترك صناعاتهم واشتغالهم بالزراعة وآثروها على الاشتغال عمالا لحساب الحكومة والاستهداف لسوء معاملة موظفيها ، وأن المصنوعات فى نظام الاحتكار قد هبطت جودتها عما كانت عليه حين كانت الصناعة حرة ولا غرور فإن الصانع الذى لا يعمل لحسابه لا يتقن العمل كما يتقنه لو كان ربحه عائداً إليه ، وقال إن احتكار الصناعات قد أضر بالأهالى ، لأن الاحتكار من طبيعته أن يتلف مصادر الثروة ، ويحرم الصانع نتيجة كده وتعبه » .

وقد ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣١ و ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ و ١٨١٧ م) احتكار الحكومة صناعة الغزل والنسيج وما أحدثه الاحتكار من الضيق وارتفاع أسعار المنسوجات وكيف أنه شمل «كل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الأصناف من إبريسم وحرير وكتان إلى الخيش والفل والحصير فى سائر الإقليم المصرى طولا وعرضاً من الإسكندرية ودمياط إلى أقصى بلاد الصعيد» .

وذكر أيضاً فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢٣٥ (سبتمبر سنة ١٨٢٠) احتكار الحكومة للصابون وتجارته والبلح بأنواعه والعسل وصناعة الخيش والقصب والتلى الذى ينسج من أسلاك الذهب والفضة للتطريز والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس .

مالية الحكومة وميزانيتها السنوية

من كلامنا عن نظام الحكم نتبين فى الجملة موارد الحكومة المالية من الضرائب والعوائد وأرباح الاحتكار .

وقد بنيت ميزانية الحكومة فى عصر محمد على على هذا الأساس ، والآن نذكر مفردات الميزانية من إيراد ومصروفات عن سنة ١٨٣٣ كما أحصاها المسيو مانجان[١٤] ، ومنها يعرف

(١٤) ج ٣ ص ١٥٠ .

نظام الحكومة المالى فى تطبيقه وتنفيذه ، وقد أورد المسيو مانجان مفردات الميزانية بالأكياس ، ولما كان الكيس مقداره خمسمائة قرش فقد حولناها إلى جنيهات لسهولة البيان .

ميزانية سنة ١٨٣٣ – مفردات الإيرادات

	جنيه
الميرى أو الضريبة العقارية	١,١٢٥,٠٠٠
فريضة الرءوس أو ضريبة النفوس	٣٥٠,٠٠٠
العوائد[١٥] على الحبوب	١٨٠,٠٠٠
ربح الحكومة من احتكار الأصناف الآتية وهى : القطن ، والنيلة ، والأفيون ، والسكر ، والنبيذ ، والأرز ، والعسل ، والشمع ، والحناء ، وماء الورد ، وبزر الكتان ، وبزر السمسم ، وبزر الخس ، وبزر القرطم ، والحرير ، والزعفران ، والنتر .	٤٥٠,٠٠٠
ربح الحكومة من نسيج الأقمشة وبيعها	٦٠,٠٠٠
ربح الحكومة من فابريقة الأثواب الحريرية	٤٧,٥٠٠
دخل الحكومة من جمرك الإسكندرية وعوائد الدخولية	٣٠,٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك دمياط وبولاق	٣٦,٧٦٥
دخل الحكومة من جمرك مصر القديمة	٨,٠٠٥
دخل الحكومة من جمرك السويس والقصير	٣٠,٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك أسوان	١,٣٥٠
رسوم الصيد فى بحيرة المنزلة	١٣,٧٥٠
رسوم الملح والمراكب والأسماك	١٧,٥٠٠
المكوس على البضائع السورية الآتية من طريق البر	١,٠٠٠
ربح الحكومة من الجير والمصيص والأحجار	٢٢,٠٠٠
عوائد السوائل	١٣,٨٥٥

(١٥) تجبيها الحكومة على الغلال التى تنقل من بلد إلى آخر .

	جنيه
عوائد السنامكى	١,٣٠٠
عوائد الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٢,٩٠٠
ربح الحكومة من الجلود الخام والمدابغ	٣٥,٠٠٠
المكوس فى الوجه البحرى والقبلى	١٦,٠٠٠
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٢,٥٠٠
عوائد المواشى المخصصة للذبح	١٠,٠٠٠
عوائد صب الفضة والمقصب	٢,٢٥٠
رسوم التركات (بيت المال)	٦,٠٠٠
عوائد الوكائل والأسواق فى الوجه القبلى	٢,٠٠٠
رسوم الخرج	٣,٢٠٠
ربح دار الضرب (الضربخانة)	١٥,٠٠٠
ربح بيع الحصر	٤,٠٠٠
ربح بيع النطرون	٣,٠٠٠
ربح بيع الصودا بالإسكندرية	١,٥٠٠
ربح ملح النشادر	٢,٠٠٠
عشور النخيل	٢٠,٠٠٠
أجرة السفن المملوكة للحكومة	١٢,٠٠٠
مجموع الايرادات	٢,٥٢٥,٢٧٥ج

مفردات المصروفات

ميزانية الجيش	٦٠٠,٠٠٠ج
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	١٩٩,٢٩٥
مرتبات الكتبة والموظفين	١٠٠,٠٠٠
معاشات الملتزمين الذين ألغى التزامهم	١٧,٥٠٠

	جنيه
نفقات قافلة الحج	١١,٠٠٠
نفقات الفابريقات وأجور العمال	١٠٨,٠٠٠
نفقات إنشاء القصور والفابريقات والقناطر والجسور	٩٠,٠٠٠
أموال مرسلة إلى الاستانة	٦٠,٠٠٠
ميزانية موظفى البحرية ورجالها	٣٠٠,٠٠٠
مخصصات لصيانة قصور نائب الملك (محمد على)	٥٠,٠٠٠
مخصصات غذائية للموظفين	٢٥,٠٠٠
أجور الخيالة الترك غير النظاميين (الباشبوزق)	٣٢,٥٠٠
أجور العربان	٢٥,٠٠٠
معاشات للأرامل والنساء	٣٠,٠٠٠
أشياء مجلوبة من أوروبا برسم الفابريقات	٧٥,٠٠٠
مصاريف ترسانة بناء السفن فى بولاق	١٦,٥٠٠
نفقات المدرسة الحربية [١٦]	٧,٥٠٠
نفقات المطبعة	١,٧٥٠
نفقات إنشاء السفن الحربية	٧٧,٥٢٥
مخصصات غذائية لنائب الملك	٢٠,٠٠٠
ثمن مهمات حربية	٧٠,٠٠٠
المعينات لعلف الجمال والبغال والخيول	١٢,٥٠٠
مخصصات لإدارة مشتريات الكشامير والأجواخ والأثواب الحريرية والجواهر إلخ	٧٠,٠٠٠
مجموع المصروفات	١,٩٩٩,٠٧٠

ويقول المسيو مانجان إن زيادة الايراد عن المنصرف لا يفيد بقاء متوفر نقدى فى خزانة الحكومة ، فإن الإيراد كان ينقص فى آخر السنة عن تقدير الميزانية . ففى كل عام يبقى جزء من

(١٦) لاحظ مانجان على هذه الميزانية خلوها من نفقات المدارس عامة وكذلك نفقات البعثات العلمية ، ويلاحظ أيضا أنه لم يرد بها سوى نفقات مدرسة حربية واحدة على تعداد المدارس الحربية .

الميرى غير مسدد من أصحاب الأطيان وقد تخسر الحكومة فى اتجارها بالأصناف التى احتكرتها بسبب إفلاس بعض التجار ممن يبتاعون منها تلك الأصناف ، وكذلك كانت تقع اختلاسات فى الجمارك مما يؤدى ذلك إلى نقص صافى الإيرادات بحيث لا يتوفر منها شىء فى الخزانة فى ختام العام .

مقارنة بين ميزانيات بعض السنوات

وإذ قارنا ميزانيات بعض السنوات فى عصر محمد على يتبين مبلغ التقدم المطرد فى مالية الحكومة .

السنة	الإيرادات	المصروفات
١٨٢١	١٩٩,٧٠٠ ج	٩٤٧,٠٩٠ ج
١٨٣٣	٢,٥٢٥,٢٧٥ ج	١,٩٩٩,٠٧٠ ج
١٨٤٢ [١٧]	٢,٩٢٦,٦٢٥ ج	٢,١٧٦,٨٦٠ ج

* * *

(١٧) والآن (١٩٢٨–١٩٢٩ تاريخ إعداد الطبعة الأولى من الكتاب) بلغت إيرادات الحكومة ٤٠,٣٦٦,٩٧٥ ج والمصروفات ٣٧,٢٢٩,٥٥٩ ج وفى سنة ١٩٤٤ – ١٩٤٥ بلغت إيراداتها المحصلة ٨٧,٧٣٠,٥٢٨ ج ومصروفاتها الفعلية ٨٢,٠٩٧,٠٠٠ج .

الفصل الخامس عشر

الحالة الاجتماعية

تطوّرت حالة مصر الاجتماعية تطورا بعيد المدى فى عصر محمد على ، فتكونت هيئة اجتماعية تختلف كثيرا عما كانت عليه من قبل .

عدد السكان

كان سكان مصر فى أواخر القرن الثامن عشر يبلغون ثلاثة ملايين نسمة ، وإذا أخذنا بإحصاء المسيو مانجان عن سنة ١٨٢٣ فإن عددهم كان تلك السنة ٢,٥١٤,٤٠٠ وهذا النقص فى العدد له أسباب معقولة ، فإن سكان مصر قد نقصوا فى عهد الحملة الفرنسية والسنوات التى أعقبتها ، وفى أوائل حكم محمد على ، لكثرة الفتن والثورات والحروب التى أفنت عددا كبيرا من السكان وأنقصت النسل ، على أن الإحصاء الذى عمل سنة ١٨٤٥ دلّ على زيادة عدد السكان إلى ٤,٤٧٦,٤٤٠ نسمة ، فلنتكلم عن طبقاتهم وحالتهم الاجتماعية فى ذلك العصر .

طبقات المجتمع

أسلفنا الكلام فى الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » بالطبعة الأولى (ص ٤٨) عن حالة مصر الاجتماعية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وبينا أن سكان مصر فى ذلك العصر كانوا فئتين : فريق الحكام ، وفريق المحكومين ، فالحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد السنين الطوال ، والمحكومون هم الشعب المصرى بطبقاته الأربع التى فصلنا الكلام عنها وهم طبقة العلماء ، وطبقة الملاك والتجار ، وطبقة المزارعين ، وطبقة الصناع .

الهيئة الحاكمة

تبدلت طبقات المجتمع فى عصر محمد على ، فبادت فئة المماليك ، ولم يعد لهم حول ولا قوة ، بل لم يعد لمعظمهم وجود ، وآل الحكم إلى محمد على باشا وأسرته ، ولا يغيب عن البال أن محمد على أصبح بولايته الحكم بإرادة زعماء الشعب جزءاً من الهيئة الاجتماعية المصرية ، وأنه قد تمصر واستعرب ، فأسس دولة مصرية ، وجيشًا مصريًّا ، وأسطولا مصريًّا ، وثقافة مصرية عربية ، واندمجت شخصيته فى شخصية مصر ، فأصبح مصريًّا حكمًا وسياسة وعملا . وزاد فى هذا الاندماج أنه رهن مصيره ومصير أسرته بمركز مصر ومستقبلها ، واتخذ مصر موطناً له كما اتخذ نابليون الكورسيكى الأصل الايطالى الجنس فرنسا موطناً له ، ورضيت هى به عاهلا لها وموضع فخرها .

ومما أكد ارتباط محمد على بمصر واندماجه فيها إعلانه الحرب على تركيا ومناصبته إياها العداء ، وحروبه المتواصلة عليها ، فقد جعلت هذه الحروب لمصر وحاكمها شخصية منفصلة عن السلطنة العثمانية ، واستمد محمد على قوته من الجيوش المصرية ، ونال انتصاراته الحربية باسم مصر ، ولحساب مصر وعظمتها ، وانقطعت الصلات القديمة التى كانت تجعل ولىّ الأمر فى مصر نائبًا عن سلطان تركيا ، بل انقطعت الروابط بين مصر وتركيا ، وصار لمصر شخصية مستقلة أظهرها محمد على واندمج فيها ، ومن هنا يبدو لك الفرق عظيمًا بين حكم الأمراء المماليك وحكم محمد على باشا ، .فالمماليك بحكم ابتياعهم أصلا من أسواق الرقيق واعتمادهم على هذا المصدر فى تأليف بطانتهم وأشياعهم وجنودهم ، كانوا يستمدون كيانهم وقوتهم من مصدر خارجى ، فهم أبداً يعدون أنفسهم عنصراً منفصلا عن البلاد ، وهم لذلك ولقلة تناسلهم لم يندمجوا فى الهيئة الاجتماعية المصرية ، ولا كان لهم بها صلة ما ، أما محمد على والأسرة المحمدية العلوية فقد استمدوا قوتهم ومجدهم من قوة الأمة المصرية ، ولعلك تذكر فى كلامنا عن الجيش المصرى النظامى أن محمد على لم يستطع تأليفه من العناصر غير المصرية ، كالأرناءود والترك والدلاة وغيرهم لما فطروا عليه من التمرد والعصيان ، وأنه لم يوفق لإنشائه إلا من صميم المصريين ، فالقوة الحربية التى شاد عليها محمد على ملكه ، والتى هى عماد الدول والممالك ، كانت مادتها مصرية ، وعنصرها مصرى ، وهذه الاعتبارات قد قضت على ما فى نفس محمد على من العواطف القديمة نحو تركيا ومقدونيا ، وزادته اندماجًا فى مصر .

وهذه الحقيقة تنطبق كذلك على أعوانه ممن كانوا فى الأصل من أصل غير مصرى ، فكثير منهم كانوا من سلالة تركية أو مقدونية ، ولكن الحروب التى اشتركوا فيها تحت لواء محمد على وإبراهيم قد فصلتهم عن موطنهم الأصلى وأدمجتهم فى مجموعة الشعب المصرى ، فصارت مصر وطنًا خالدًا لهم ولأسراتهم وذراريهم ، حاربوا من أجلها ، وبذلوا جهودهم وأرواحهم ودماءهم فى سبيل رفعتها ومجدها ، وهؤلاء قد اندمجوا فى الشعب وصاروا جزءًا من الهيئة الاجتماعية المصرية الجديدة ولا غرابة فى ذلك فإن من مميزات مصر أنها تدمج فى كيانها العناصر والقوميات التى تتصل بها برابطة الفتح أو التوطن ، وتصبغها على الزمن بصبغة القومية المصرية ، ولقد عبر إبراهيم باشا عن هذا الشعور بحديثه الذى نقلناه عنه (ص ٢٤٧ وبالطبعة السابقة) وذكر البارون (بوالكونت) ، حديثًا آخر لمصطفى مختار بك ياور ابراهيم باشا وملازمه فى حروب سورية والأناضول (ووزير المعارف العمومية فى عهد محمد على) قال فيه : « إننا وإن كنا فى الغالب مولودين فى تركيا لكننا قد اكتسبنا الجنسية المصرية بحكم التوطن ، وأنتم معشر الفرنسيين تعترفون بالجنسية الفرنسية لمن يقيم بفرنسا عشر سنوات ، أما نحن فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن أتراكاً ، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذى لا يترك فى طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب ، ولقد اندمجنا فى أمة أخرى أرق وأنبل وأذكى من الأمة التركية ، اندمجنا فى تلك الأمة العربية التى سبقت أوروبا إلى الحضارة وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذى يتجلى للناظرين فى المدن الزاهرة التى أنشأتها والعمائر الجميلة التى أقامتها » .

فأول عمل سياسى واجتماعى لمحمد على أنه أدمج شخصية أسرته فى كيان مصر وقوميتها ، وكذلك نحا نحوه أعوانه فى الحكم ممن كانوا فى الأصل من عنصر غير مصرى ، وهنا يبدو لك جانب من عبقرية محمد على ، فلقد كان فى بداءة حكمه لا يعدو أن يكون واليًا من ولاة السلطنة العثمانية ، فلو أنه حذا حذوهم وكان على شاكلتهم لتعصب للجنسية التركية وعمل على تتريك المصريين كما عمل ولاة السلطنة العثمانية إذ كانوا دائبين على تتريك العناصر العربية ، فيحاربون اللغة العربية ، والقومية العربية ، ويثيرون فى هذا السبيل الفتن والثورات فى مختلف الأنحاء ، ويضعون القيود والعقبات أمام تقدم الشعب ، لكن محمد على باشا عمل على نقيض تلك السياسة فأحيا القومية المصرية واندمج فيها واقتادها إلى الأمام ، وأسس دولة مصرية ، وعرشًا مصريًا وملكًا مصريًا .

ويكفيك لتتبين مبلغ عمله فى إحياء القومية المصرية أن الثقافة التى نشر لواءها فى مصر كانت ثقافة مصرية عربية ، وأنه لم يفكر يوماً فى إنشاء ثقافة تركية أو مقدونية ، وأن الفضل يرجع إليه فى بعث اللغة والآداب العربية من مرقدها بعد أن ظلت مئات السنين ذاوية مضمحلة فى عهد الحكم التركى وحكم المماليك .

واندمج إذن محمد على وأسرته وأعوانه فى الحكم فى الهيئة الاجتماعية ، ولا شك أن اندماج هذا العنصر فيها قد قواها وبعث فيها روحاً جديدة كان لها أثرها فى تقدم مصر السياسى والاجتماعى ، صحيح أن فئة من المصريين الذين كانوا من عنصر تركى أو مقدونى قد ظلوا ينظرون إلى المصريين الصميمين بعين الزراية ، واستمرت هذه الحالة النفسية حتى صارت مع الزمن من بواعث الثورة العرابية ، لكنها كانت تتلاشى تدريجاً ، وأدى تطور الحوادث إلى محو الفوارق بينهم ، وصارت القومية المصرية مفخرة المندمجين فيها وموضع حبهم وتقديسهم ، وقد ساعد على محو هذه الفوارق ما اكتسبته سلالة الترك والمقدونيين المتمصرين من الثقافة والتهذيب فى المدارس والمعاهد التى أسسها محمد على باشا ، فإن هذه الثقافة قد صبغت شبابهم بالصبغة المصرية ، فتلاشت الفروق القديمة التى كان يشعر بها آباؤهم ، وكذلك ساعد على محوها اتصالهم بالمجتمع المصرى بصلات النسب والمصاهرة ، واندماجهم فى الأهالى ومشاركتهم إياهم فى الحياة الاجتماعية باشتغال الكثيرين منهم وخاصة سكان الأقاليم بالتجارة وزراعة أملاكهم ، ومساهمتهم فى أعباء الخدمة العامة .

هذا بالنسبة إلى محمد على وأسرته ورجالات دولته ، وهم قوام الهيئة الحاكمة ، وإتماماً للكلام عن هذه الهيئة يجب أن نتكلم عن الطبقة المتعلمة التى اشتركت فى الحكم ، فلا يعزب عن الذهن أن المدارس التى فتحها محمد على والبعثات العلمية التى أرسلها إلى أوروبا قد كونت عنصراً جديداً من صميم المصريين كان له فضل كبير فى تقدم المجتمع المصرى والإدارة المصرية ، ذلك هو عنصر الشباب المتعلم الذى ثقفته العلوم والمعارف ، فنهض بالهيئة الاجتماعية المصرية نهضة كبرى ، وكان رسول العلم والحضارة والعمران فى ربوع وادى النيل ، فى المدن والقرى والأقاليم ، وتولى الوظائف العامة فى عصر محمد على وخلفائه ، فاضطلع بأعبائها فى الحربية والبحرية والإدارة والتعليم والمالية والصحة والأشغال العمومية ، وعلى يده تمت منشآت الرى والعمران ، كفتح الترع وإقامة القناطر وإنشاء المدارس والمعاهد والمستشفيات وبناء القصور والثكنات والقلاع والاستحكامات والمصانع والترسانات والموانىء

والمنائر والسفن الحربية والتجارية وغير ذلك من المنشآت العامة .

فالهيئة الحاكمة فى عصر محمد على كان قوامها شخصية محمد على وأسرته ورجالات حكومته وخريجى المدارس والمعاهد والبعثات العلمية ، ونظرة بسيطة فى تأليف هذه الهيئة تدلك على مبلغ التقدم الذى تدرج إليه نظام المجتمع فى ذلك العصر ، قياساً إلى ماكانت عليه الهيئة الحاكمة فى عصر المماليك ، فالحكام المماليك كانوا خليطاً من أجهل العناصر لم يهذبهم تعليم ولا عرفان ، فلا جرم أن بقيت إدارة الحكومة فى عهدهم مثلا لأحط نظم الحكم ، وقد بينا فى الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » مبلغ ما وصل إليه انحطاط نظام الحكم فى عصرهم وما أفضى إليه من التأخر فى حالة البلاد الاجتماعية والعلمية ، أما الهيئة الحاكمة فى عصر محمد على فقد نالت حظاً كبيراً من الرقى وخاصة بعد ما خرجت البعثات والمدارس الحديثة عددا كافيا من الشباب المتعلم ، ولا شك أن هذا الرقى قد نهض بالأداة الحكومية ورفع مستواها فى مختلف الأعمال ، فإنشاء الدواوين وتنظيمها ، وتأسيس المعاهد والمدارس ، ونشر لواء الحضارة والعلوم هو أثر من آثار الهيئة التى تولت الحكم فى عصر محمد على ثم فى عصر سعيد وإسماعيل .

فالطبقة المتعلمة فى المدارس والبعثات – وهى الطبقة الممتازة من طبقات المجتمع – بدأت فى الظهور على عهد محمد على ، وقد كان لها فضل كبير فى ترقية مستوى الهيئة الاجتماعية ، ومنهم من لعبوا دوراً كبيراً فى حياة مصر السياسية أو العلمية فى عهده وعهد خلفائه ، أمثال شريف باشا وعلى باشا مبارك ورفاعة رافع الطهطاوى ومظهر باشا وبهجت باشا وغيرهم ممن ترجمنا لهم .

ويكفيك أن تلقى نظرة على كثير من المعاهد والمبانى العامة التى أنشئت فى ذلك العصر وتحصر ثمراتها لتعرف أثر ذلك العنصر الجديد من الهيئة الحاكمة فى تقدم مصر وتطور الهيئة الاجتماعية المصرية .

هذه كلمتنا عن الهيئة الحاكمة ، وإذْ تكلمنا عن الحكام فلنتكلم عن المحكومين ، ولنستعرض الطبقات الأخرى من الشعب وما طرأ عليها من التبديل فى عصر محمد على .

الأزهر والعلماء

فالعلماء هم الطبقة التى كانت لها فى عهد المماليك النفوذ العظيم والتأثير الكبير فى الأمة

وقيادة أفكارها كما أوضحنا ذلك فى الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » ، وكانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير ، وإليهم يرجع تدبير الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية فى عهد الحملة الفرنسية ، وبعد انتهائها ، وهم الذين أثاروا الشعب على حكم المماليك ثم على الوالى التركى ، كما تراه مبسوطًا فى الجزأين الأول والثانى ، ولكن نفوذهم قد تضاءل فى عهد محمد على وانحلت زعامتهم بتحاسدهم وتخاذلهم وائتمارهم وإياه بالسيد عمر مكرم حتى انتهت المؤامرة بنفيه كما سبق الكلام عن ذلك فى الفصل الأول ، فلم تقم لهم قائمة بعد نفى زعيمهم وإقصائه من الميدان ، بل صاروا تبعاً للحكومة من غير أن يكون لهم أثر فى سياستها أو فى مشاريعها ، وهذا تأويل ما ذكرناه فى الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » (ص ٣٦١ وبالطبعة الأولى) لمناسبة الكلام عن عظم نفوذ العلماء فى أوائل القرن التاسع عشر إذ قلنا إنهم « كانوا موئل الشعب ، يفزع إليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوئ خورشد باشا هى الباعثة على ذلك ، ففى عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالى عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر » .

وفى الواقع أنهم لم يخلص لهم نفوذهم القديم بعد نفى السيد عمر مكرم ، ولم يبق لهم إلا أثارة من الاحترام يسبغها عليهم انتسابهم إلى الدين والأزهر .

ومما زاد فى تضاؤل نفوذ العلماء أن الأزهر ظل على نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم والإصلاح التى نهض بها محمد على باشا ، فانتقل مركز الثقافة من الأزهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات ، وانكمش العلماء ولم يشتركوا فى حركة التجديد والإنشاء فى مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك فى حروب مصر أو فى إدارة حكومتها أو فى سياستها وأعمال العمران التى قامت بها ، وبديهى أن انعكافهم على المسائل الدينية ، وعجزهم عن الاشتراك فى الأعمال العامة التى تمت فى عصرهم ، كل ذلك كان له أثره فى تضاؤل نفوذهم وإضعاف كلمتهم ، إذ ما من شك أن الفئة التى تخرجت من المدارس الحربية والبحرية أو العلمية والهندسية هى التى اضطلعت بأعباء الأعمال العامة سواء فى خارج مصر أو فى داخلها ، وهم بحكم توليهم عبء الجهاد وسياسة الحكم وحملهم لواء النهضة قد امتازوا على طبقة العلماء وحجبوها بما نالوه من السلطان والنفوذ ، وتضاءلت منزلة العلماء وظهر الفرق جسيماً بين ما آل إليه أمرهم من الضعف وخمول الذكر وما كان لهم من نفوذ وسؤدد حين تولوا قيادة الحركات الشعبية فى عهد

الحملة الفرنسية أو بعدها ، وحين كانوا فى أوائل حكم محمد على يتقدمون الصفوف فى الدعوة إلى التطوع للجهاد دفاعاً عن الذمار كما فعلوا عند مجىء الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ .

ولهذه المناسبة يحضرنا ما رواه الجبرتى عن رجوع إبراهيم باشا بعد انتصاراته فى حروب الوهابية وكيف استقبل العلماء الذين جاءوا لتهنئته ، فقد لاحظ الجبرتى أنه لم يقابلهم بالاحترام اللائق ، وذكر فى هذا الصدد : « أن إبراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعاظماً فى نفسه جداً ، وداخله من الغرور مالا مزيد عليه ، حتى أن المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه ، وهو جالس فى ديوانه لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام ، فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة فلم يجبهم ولا بالإشارة » .

فهذا الذى ذكره الجبرتى يعطينا فكرة عن تضاؤل منزلة العلماء بعدما كان لهم من صولة ونفوذ ، ونعتقد أن تقصيرهم عن الاضطلاع بالأعباء العامة كان له أثر كبير فى سقوط هيبتهم ، فضلا عن تحاسدهم وتنافسهم ، وخذلانهم للسيد عمر مكرم ، فلا غرو أن يقابلهم ابراهيم باشا بعد قدومه من حرب شاقة احتمل فيه ما احتمل من الشدائد والأهوال بغير المقابلة التى كان يقابلهم بها محمد على فى أوائل حكمه .

ومما يسترعى النظر أن يد الإصلاح التى تناولت التعليم والإدارة والرى والحربية والبحرية لم تمتد إلى الأزهر ، بل تركه محمد على كما كان على نظامه القديم ، ولعل السبب فى ذلك أنه خشى أن يثير سخط العلماء والجماهير إذا هو عرض لنظام التعليم فيه أو أقدم على إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث ، أو لعله لم يجد من بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد إليه بها ولو أنه وجد من بينهم مثل السيد جمال الدين الأفغانى أو الشيخ محمد عبده لنهض الأزهر منذ نيف وثمانين سنة نهضة علمية واجتماعية تؤتى أبرك الثمرات ، ولكن محمد على لم يفكر فى إصلاح الأزهر ، ولا فكر فيه علماؤه وأقطابه ، فوقفت حركته وانتقلت النهضة العلمية إلى المدارس النظامية التى أسسها محمد على .

على أن الأزهر ظل مع ذلك المورد السائغ الذى استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها ، فمنه اختارت الحكومة طلبة المدارس العالية التى أنشأتها ، وكثيرًا من أعضاء البعثات العلمية التى أوفدتها إلى أوروبا ، فتخرج منه بواسطة البعثات والمدارس علماء نابهون كان لهم القدح المعلى فى نهضة مصر العلمية والاجتماعية ، فالأزهر من هذه الناحية كان له فضل كبير على النهضة العلمية الحديثة ، ومن جهة أخرى فإن الحكومة كانت تختار من رجاله

بعض المتضلعين فى اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية فى الطب والرياضيات وغيرها ، ويسمون المحررين ، وطائفة أخرى لتصحيح الكتب عند طبعها وهم المصححون ، ولهؤلاء وأولئك فضل كبير على نهضة التعريب والتأليف .

الزراع والصناع والتجار

تقدمت حالة الفلاح تقدماً نسبياً عما كانت عليه فى عهد المماليك[١] ، ولكن لا يخفى أن حياته فى الجملة بقيت تدعو إلى الألم والإشفاق . فإن ما ذكرناه عن حرمانه حق التملك واستهدافه لفداحة الضرائب ومساوئ الاحتكار ومظالم الحكام جعله فى حالة تعسة ، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة أعمال العمران لم يقترن بها ارتقاء حالة الفلاح الاجتماعية ، وقد وصف المسيو مانجان حالته فى ذلك العهد بقوله : « إذا صح أنه لا يوجد فى العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكاناً ، وإذا بقى فيها العدد الذى بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل فى ذلك إنما يرجع إلى خصوبة أرضها وقناعة فلاحيها[٢] » .

وقد ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرار الكثيرين منهم إلى الهجرة من قراهم ، وخربت قرى عديدة بسبب هذه الهجرة ، واضطرت الحكومة إلى إصدار الأوامر المشددة برجوع المهاجرين وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب ، ولكن مهما قيل فى مظالم ذلك العصر ، فإنها لا تذكر بجانب مظالم الحكام فى عهد المماليك .

أما الصناع فإن أمرهم يحتاج إلى بيان ، فالعمال الذين انتظموا فى سلك المصانع الكبرى التى أنشأها محمد على كالترسانة الحربية والبحرية أو الفابريقات التى سبق الكلام عنها ، فإنهم مارسوا صناعات جديدة حذقوها ومهروا فيها ، وتكونت منهم طبقة من العمال الفنيين كانوا موضع إعجاب من شاهد أعمالهم ، وكان لهم أثر صالح فى تقدم مصر الصناعى ، ويكفيك أن ترجع إلى شهادة الإفرنج فى هذا الصدد لتعرف مدى هذا التقدم .

أما عمال الصنائع اليدوية فى الصناعات الصغرى التى كانت معروفة من قبل فهؤلاء قد

(١) انظر الجزء الأول من « تاريخ الحركة القومية » (وبالطبعة الأولى ص ٣٢) .

(٢) مانجان ج ٢ ص ٣٤٢ .

ساءت حالتهم بسبب نظام الاحتكار حتى اضطر كثير منهم كما يقول المسيو مانجان إلى ترك الصناعة والاشتغال بالزراعة .

وكذلك طبقة التجار قد تراجعت واضمحل شأنها لاحتكار الحكومة التجارة الداخلية والخارجية ، وبالرغم من ازدياد متاجر مصر فى ذلك العصر فإن ثمرة التجارة كانت تعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الإفرنج الذين كانوا يتبادلون وإياها حركة التجارة الخارجية ، ولذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارتها الخارجية بظاهرة غريبة ، وهى تضاؤل الثروات الشخصية ، فحينما كانت حاصلات مصر أقل مما وصلت إليه ، كان الأهالى أيسر حالا ، ولما زادت الحاصلات حل الفقر محل اليسر عند الأهلين ، وذلك راجع إلى نظام الاحتكار الذى فرضته الحكومة على حاصلات مصر ، ولم ينتفع من هذه الزيادة فى الحاصلات سوى الإسكندرية التى اتسعت تجارتها وصارت سوقًا لأقطان القطر المصرى وحاصلاته ، أما المحلات التجارية فى القاهرة ودمياط ورشيد فقد هبط عددها عما كانت عليه من قبل .

ويقول المسيو مانجان (ج ٣ ص ٢٢٧) أن عدد التجار المصريين فى القاهرة قد تناقص فى ذلك العصر ، ومما يستدعى النظر ويؤيد هذا القول أنه لم يظهر فى ذلك العصر من التجار الوطنيين من شغل مركزًا كبيرًا فى عصر محمد على مثل السيد أحمد المحروقى كبير تجار مصر فى أوائل القرن التاسع عشر وابنه السيد محمد المحروقى ممن ترجمنا لهم ، وهذا كله راجع إلى مساوئ نظام الاحتكار .

الأعيان

وبقى الأعيان من ذوى البيوت والعصبيات القديمة حافظين لمكانتهم ، غير أنهم صاروا فى عهد محمد على أكثر خضوعا للحكومة مما كانوا فى عهد المماليك .

العربان

كان عدد العربان أو البدو المصريين فى عصر الحملة الفرنسية نحو مائة ألف ، تتألف منهم ستون قبيلة ، وعدد المقاتلة منهم من ١٨ إلى ٢٠ ألفا من الفرسان ، ولم يتغير هذا الإحصاء كثيرًا فى عصر محمد على . وكانوا إلى أوائل القرن التاسع عشر لم يألفوا حياة الحضر ، فكان تنقلهم فى صحراء يجعلهم فى حرب مستمرة مع الفلاحين القائمين على الزراعة ، وانصرف كثير

منهم إلى قطع الطريق والاعتداء على القرى الآمنة ، وكلامنا ينصرف إلى غالبية العربان فإن بعض القبائل البدوية كانت ولم تزل متصفة بكريم الخصال ، تكرم الضيف وتأوى الجار وتنصر الضعيف وتحمى الذمار .

فكر محمد على مليا فى علاج حالة العربان ، ورأى من الحكمة بادىء الأمر أن يهادن زعماء القبائل ، ويسلك حيالهم مسلك المحاسنة ، فعقد الاتفاقات معهم ، ولكن القبائل نقضت هذه الاتفاقات ، فأدرك محمد على أن لا مناص من أخذهم بالقوة ، فجرد عليهم كتائب الفرسان فأخذت تناوشهم وتسد عليهم السبل إلى أن أذعنوا وثابوا إلى الطاعة وطلبوا الصلح فرضى أن يصالحهم على أن يقيم زعماؤهم بالقاهرة ليكونوا رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم وأجرى عليهم الرواتب والأرزاق فكان لهذه الوسيلة تأثير كبير فى إخلاد القبائل إلى الهدوء والسكينة ، ولجأت الحكومة إلى وسيلة حكيمة تصرف بها البدو المنتشرين فى أطراف البلاد عن عيشة البداوة وتدخلهم فى حظيرة العمران ، فأقطعهم أراضى شاسعة أعفتها من الضرائب ينتفعون بها ويستغلونها .

وقد كانت هذه الوسيلة من بواعث تحضير القبائل البدوية ، وإدماجها فى جسم الهيئة الاجتماعية ، ولما اجتذب محمد على رؤساء العشائر من العربان حبب إليهم أن ينتظموا فى سلك الجيش النظامى الذى أسسه ، وعرض عليهم أن تدفع الحكومة لمن ينتظم من العربان فى سلك الجيش أجورهم على شرط أن يأتى كل منهم بفرسه وبندقيته ، فلبوا الدعوة واستفاد الجيش المصرى منهم فوائد جمة ، واشتركوا فى حروب السودان والحجاز وسورية والأناضول ، واتخذ منهم إبراهيم باشا حرسه الخاص .

ولقد كان إدماج القبائل البدوية فى جسم الهيئة الاجتماعية من أهم أعمال العمران التى قام بها محمد على .

بقايا الرقيق

كانت تجارة الرقيق لم تزل مباحة فى ذلك العصر ، فاستخدم كثير من الترك وقليل غيرهم فتيان المماليك يشترونهم من أسواق الرقيق ليكونوا أتباعاً لهم وخدماً وقد بلغ عدد أولئك الفتيان ٢٠٠٠ مملوك ، يضاف إليهم من أسروا من الأروام فى حرب اليونان واعتنقوا الإسلام (ص ٢٤٠ الطبعة السابقة) ، وكان يوجد فى بيوت الأغنياء نحو ثلاثة آلاف من (الجوارى البيض)

الشركسيات ، منهن نحو ستمائة من يونانيات الموره أو من جزيرة كريت وسافز ، وقد اعتنق غالبهن الإسلام وصرن فى حكم الجوارى البيض ، وكان يوجد فى القاهرة أيضا نحو ألف جارية حبشية أو سودانية بنسبة جارية فى كل بيت يقمن فى البيوت بالخدمة والطهى وتربية الأطفال ونحو ألفين من السوادنيين أشتراهم الأفراد من أسواق الرقيق ، ونحو ٢٥٠٠ آخرين منتظمين جنودا فى سلك الجيش المصرى ، وقد أندمج كل أولئك فى جسم الهيئة الاجتماعية المصرية وصاروا مع الزمن والتناسل من عناصر تكوينها لا يختلفون فى شىء عن عناصرها الأصلية .

* * *

الفصل السادس عشر

شخصية محمد على
والحكم على عصره

لا جدال فى أن محمد على قد سما بأعماله إلى مصافّ عظماء الرجال ، وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة وتدرج من جندى بسيط إلى أن ارتقى عرش مصر ، فأسس ملكًا عريضاً ، وغالب دولا كباراً ، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة ، وبعثَ حضارةً زاهرة ، وأنبت ثقافة كان لها الفضل الكبير فى نشر لواء العلم والعرفان فى وادى النيل .

فالرجل الذى ينشئ كل ذلك ، وكان أمياً لم يتلق تعليمًا عاليًا ولا أوليًا ، لابد أن يعد بحق من عظماء الرجال ، ولولا عظمته لما تخطى نشأته الأولى ، وإذا تخطاها فلا يلبث أن يقف عند حد يتناسب مع مرتبته أو مرتبة أقرانه ، ولكن اضطلاعه بالمهات الكبرى التى أخذها على عاتقه ، وتأسيسه ذلك الملك الضخم رغم ما اعترضه من العقبات ، وبقاء أثره خالداً طوال هذه السنين وإلى ما شاء الله يدل على مبلغ عبقريته .

نعم إن العناية الإلهية لاحظته فى مختلف أدوار حياته ، وكان لها فضل كبير فيما وصل إليه من عز وسؤدد ، ولكنَ منْ من العظماء لم تكن للعناية والأقدار دخل أيما دخل فيما نالوه من نجاح وتوفيق ؟ ومَن مِن العظماء المجهولين لم يَقبر عظمتهم إدبارُ الحظ وغَلَبَةُ الأقدار ؟ فمع اعتقادنا بما للحظ والعناية الإلهية من الأثر فى حياة محمد على ، لا نشك فى أن المواهب التى توافرت لديه كان لها القسط الأكبر فى نجاحه وتوفيقه .

وأول تلك المواهب ذكاؤه الخارق ، وبعد نظره ، وسعة حيلته .

فقد جاء إلى مصر ضابطًا صغيرًا فى الحملة العثمانية التى جردتها تركيا لإخراج الفرنسيين من البلاد ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، فلو كان على ذكاء عادى لانتهى أمره بما انتهى إليه معظم ضباط الجيش التركى ، ولكنه لمح من خلال الأفق ما تتمخض عنه الأمة المصرية من نزوع إلى الحرية ، وما يجيش فى صدرها من آمال كبار ، وما تشعر به من سخط على نظام

الحكم القديم ، فماشاها فى ميولها وسايرها فى آمالها ، ورسم لنفسه خطة الوصول إلى عرش مصر من طريق إرادة الشعب ، وهى فكرة مبتكرة بالقياس إلى ذلك العصر تدل على ذكاء محمد على ودهائه وبعد نظره .

ثم تأمل كيف اختط لنفسه طريق الوصول إلى السلطة بين مختلف الأطماع والمنازع المختلفة ، فلقد كان يعمل لهذا الغرض وأمامه سلطتان يجب أن يتخلص منهما واحدة بعد الأخرى ، وهما سلطة المماليك حكام البلد الأقدمين ، وسلطة الوالى التركى الذى كان يمثل حكومة الاستانة ، وكانت هذه الحكومة تعمل على أن تكون لها الكلمة العليا فى البلاد بعد أن احتلتها بجيوشها ، ثم كانت أمامه عقبة أخرى وهى سلطة الجند الأرناءود والدلاة وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية فاستطاع محمد على بدهائه وصبره وذكائه أن يضرب كل سلطة بالأخرى ، وأن يشق لنفسه طريق النجاح والوصول إلى الغاية التى يطمح إليها .

كان خسروا باشا (والى مصر سنة ١٨٠٢) يعمل للتخلص من محمد على ، فحاربه هذا بالجند إذ حرضهم على التمرد والمطالبة برواتبهم المتأخرة ، وكانت نتيجة تلك الحركة سقوط خسرو باشا وطرده من القاهرة ، وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ، ولكنه لم يشأ أن يتعجل الوصول إلى السلطة ، بل أخذ نفسه بالصبر والتريث حتى تتهيأ له الظروف الملائمة التى يستقر له فيها الحكم من غير منازع ، فترك رؤساء الجند ينادون بطاهر باشا قائمقاماً ، ولعله كان يتوقع ألا يطول مقامه فى الحكم لما اشتهر عنه من الظلم ، فثار عليه الأتراك الإنكشارية وقتلوه ، وخلا منصب الوالى من جديد ، غير أن محمد على تريث أيضًا ولم يتعجل ، وكان الانكشارية قد اتفقوا على تعيين أحمد باشا واليًا على مصر ، فلم يرض بهذا التعيين وتحالف مع الأمراء المماليك على إقصائه وترك السلطة لهم ، وألقى فى روع كبيرهم إبراهيم بك أنه الأحق بولاية مصر ، وبذلك ضرب الأتراك بالمماليك ، ثم ترك هؤلاء يحتملون أمام الشعب مساوىء الحكم ، فما لبثوا أن استهدفوا للثورة التى أقصتهم عن الحكم .

ويدلك على دهائه وأناته أنه كان فى استطاعته أن يثب إلى الحكم بعد سقوط دولة المماليك ، لكنه آثر الانتظار واختار للولاية خورشد باشا ، وبقى هو فى صف الشعب يدافع عن مطالبه ويتودد إلى زعمائه ، فلما ساءت سيرة خورشد وكثرة مظالمه ثار عليه الشعب وخلعه كما رأيته مفصلا فى الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ، وهناك طلب الزعماء من محمد على أن يقبل منصب الولاية وألحوا عليه فى أن يجيب طلبهم ، فقبل ما عرضوه عليه وصار الوالى

المختار من الشعب .

واستطاع بذكائه وصدق نظره فى الأمور وسعة حيلته أن يذلل العقبات التى اعترضته فى السنوات الأولى من حكمه ، فتغلب على دسائس الأتراك والإنجليز ومساعى المماليك ، كما فصلنا ذلك فى الفصول الأولى ، كل ذلك يدلك على مقدرته بل على عبقريته ، وخاصة إذا لاحظت أنه إلى ذلك الحين كان أمياً ، إذ من المعروف أنه لم يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز الأربعين وبعد أن تبوأ عرش مصر وتخطى العقبات الأولى فى حكمه .

ويتجلى لك بعد نظره ورجاحة عقله وأخذه الأمور بالأناة والحكمة أنه لما اعتزم إدخال النظام الجديد فى الجيش المصرى لم يغامر بإنفاذ عزمه ، بل انتظر السنين الطوال يتحين الفرص الملائمة لإنفاذ مشروعه ، ولو أنه استعجل الأمر وتسرع لاستهدف لهياج الجنود ، ولشهدت البلاد ثورة من ثورات الجند التى تودى بمراكز الولاة بل توردهم موارد الحتف والهلاك .

ولعلك تذكر حين هودته من الإسكندرية بعد جلاء الحملة الإنجليزية عن البلاد سنة ١٨٠٧ كيف ثار الجند فى القاهرة وعاثوا فى أسواقها فساداً ، وكيف استعمل الحكمة فى إخماد ثورتهم . واعتزم من ذلك الحين أن يتخلص من الجيش القديم ويحل محله جيشاً حديثاً قوامه النظام والطاعة ، ولكنه لم يمض فى تحقيق برنامجه إلا حوالى سنة ١٨١٩ – ١٨٢٠ ، وما ذلك إلا لما آنسه من الخطر إذا هو أنفذ مشروعه قبل ذلك الحين ، فمثل هذه الأناة والحكمة وسعة الحيلة لا تصدر إلا عن دهاقين الساسة ذوى الرءوس الكبيرة ، وبهذه الصفات نجح فى تأسيس الجيش المصرى النظامى ، فتأمل كيف انتظر أكثر من اثنتى عشرة سنة قبل أن يبدأ فى إنفاذ فكرته ، وكيف أنه عندما بدأ فى دور التنفيذ كان شديد الاحتياط بعيد النظر ، فأسس المدرسة الحربية الأولى لتخريج الضباط النظاميين فى (أسوان) أى فى أقاصى الوجه القبلى ، لكى يبدأ بمشروعه بعيداً عن الدسائس والفتن التى كانت القاهرة مسرحاً لها .

فبمثل هذا الذكاء وبعد النظر والأناة استطاع محمد على أن يشق لنفسه طريق النجاح ، وهو من هذه الناحية جدير بأن يعلم ساسة الدول وزعماء الأمم كيف يأخذون الأمور بالحكمة والصبر ورجاحة العقل .

ومن مواهبه التى ذللت العقبات فى طريقه وكفلت له الاضطلاع بالمهات الجسام . الشجاعة وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، فهذه الصفات كانت من أكبر مميزاته بعد الذكاء وحسن التدبير .

أما عن شجاعته واستخفافه بالمخاطر فلعلك تذكر حادثة (براوسطه) وكيف امتنع أهلها عن أداء ما عليهم من الضرائب ، فعرض محمد على على حاكم قوله أن يأخذ على عهدته إجبار أهلها على الإذعان ، وسار إليهم فى عشرة من الجند ، وكيف استطاع أن يعتقل أعيان المدينة ويسوقهم إلى قوله ، وبذلك أذعن أهل براوسطه وأدوا ما عليهم من الخراج [١] ، فهذه الحادثة تدلك على ما جبلت عليه نفس محمد على من الجرأة ، واقتحام الأخطار ، فلقد كان هدفًا لأن يذهب ضحية مغامرته فى تلك القرية الثائرة ، ولا شك أن تلك الشجاعة التى ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت كما أسلفنا من أخص صفاته بل هى من أسباب نجاحه فى تأسيس ملكه العظيم [٢] .

وتتجلى لك شجاعته وقوة عزيمته فى إقدامه على الحروب ومواصلته القتال رغم ما اعترضه من الهزائم والعقبات ، واحتفاظه برباطة جأشه فى أشد الأوقات حرجًا ، ولو لم تكن الشجاعة وعلو الهمة من أخص مواهبه لاضطربت نفسه وتولاها اليأس أمام المخاطر التى استهدف لها فى كثير من المواطن .

ففى حرب الوهابيين استهدفت الحملات التى جردها على الحجاز للهزائم والخسائر الفادحة ، وكانت تجيئه فى بعض المواطن أنباء مخيفة عما حل بجيشه من الكوارث فلم يتزلزل لهذه الأنباء بل كان يقابلها بالجلد والثبات وقوة العزيمة ، وكان كلما أخفقت حملة جرد غيرها ، ماضيًا فى تحقيق غايته ، وقد شهد له الجبرتى ، ولم يكن من مناصريه ، بعلو الهمة لمناسبة الكارثة التى حلت بالجيش المصرى فى واقعة (الصفراء) فقال عنه : « ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى » .

ولو تابعت وقائع الحرب الوهابية لتحققت أنه لولا همة محمد على وقوة إرادته لما استطاع أن يواصل هذه الحرب ثمانى سنوات متواليات حتى وصل بها إلى نهايتها من الظفر بالوهابيين وبسط نفوذ مصر وسلطتها على جزيرة العرب .

وتبدو لك أيضاً شجاعة محمد على فى إعلانه الحرب على تركيا وزحفه عليها ، فإن محاربة السلطنة العثمانية وهى وقتئذ دولة الخلافة وصاحبة الجيوش الجرارة التى لا ينضب معينها ، أمر يحتاج إلى حظ كبير من الشجاعة وعلو الهمة ، بل والمجازفة والاستهداف للأخطار ، إذ لو ظفر

---

(١) أنظر الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣١١ .

(٢) الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية » ص ٣١٢ .

به السلطان فى واقعة من وقائع تلك الحروب الطاحنة لكانت دولة محمد على بل حياته عرضة للخطر ، فهذا الإقدام له قيمته فى الحكم على شخصيته .

وإذا قال قائل إن محمد على إنما حارب تركيا فى الوقت الذى بدت عليها فيه أعراض الضعف والهرم ، فماذا نقول عن وقوفه فى وجه الدول الأوروبية جمعاء عُقب انتصار الجيش المصرى فى بيلان وقونيه ، واعتراضه على حرمانه ثمرة انتصاراته ، فإذا رجعت إلى الخطابات التى وجهها إلى مندوبى الدول واعتراضه على تدخلهن ومصارحتهن بعدم النزول على إرادتهن تجلى لك مبلغ شجاعته ورباطة جأشه وقوة يقينه ، ثم ماذا نقول فى تحديه الدول الأوروبية فى الحرب التركية الثانية عقب انتصاره فى واقعة نصيبين ورفضه الإذعان لقراراتها وطرده سفراءها من مصر؟ كل ذلك يدل على مبلغ ما تذرع به من شجاعة النفس ومغالبة المصاعب وتلك لعمرى صفات العبقرية والعظمة .

وتتبين قوة عزيمته من أنه أنشأ من العدم جيشاً ضخماً على أحدث نظام ، وأسطولا قوياً رفع علم مصر فوق ظهر البحار ، وأوجد حكومة منتظمة حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، وأنشأ المدارس والمعاهد حيث كانت الجهالة فاشية . والمستشفيات حيث كانت الأمراض تفتك بالأهلين ، وشق الترع وأقام الجسور حيث كانت مياه النيل تذهب هدراً دون أن تنتفع منها الأراضى ، وأسس البعثات وأقام المصانع والمبانى العامة ، كل ذلك يدل على ما تفعله العزيمة الحديدية ، وقد شهد له الجبرتى بقوة العزم والشهامة ، فقال عنه لمناسبة إصلاحه سد أبو قير : « فأرسل إليه المباشرين والقومة والرجال والفعلة والنجارين والبنائين والمسامير وآلات الحديد والأحجار والمؤن والأخشاب العظيمة والسهوم والبراطيم حتى تممه وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، ولو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أقرانه » ، وهى شهادة لها قيمتها من مؤرخ عُرف بأحكامه الشديدة عن محمد على .

وقد ذكر عنه الكونت بنديتى قنصل فرنسا العام فى مصر وقتئذ أنه لما شرع فى إقامة القناطر الخيرية وسمع بالاعتراضات التى أبديت على المشروع من جهة العقبات والمصاعب التى تحول دون نجاحه كان جوابه : « إن هذا صراع بينى وبين النهر العظيم ! ولكنى سأخرج فائزاً من هذا الصراع ! » ، فهذا الجواب يدلك على مبلغ شعوره بقوة إرادته ، ولولا تلك الإرادة لما اعتزم أن يقهر النيل ويتحكم فى جريانه بواسطة مشروعه الكبير.

ومن أخص صفاته التى لازمته طول حكمه حبه للعمل وجلده على احتمال أعبائه ، فلم يكن يعرف لنفسه هوادة ، وكان يهتم بدقائق أعمال الحكومة ويراقبها بنفسه ، ولا ينام من الليل إلا قليلا ، وكان يصرف معظم وقته فى مراقبة الأعمال والعمال ، ويكثر من التجول فى الأقاليم ليراقب بنفسه تنفيذ التعليمات التى يصدرها ، وبهذه الوسيلة كان يبث روح العمل والنشاط فى نفوس الموظفين ويشعرهم دائمًا بأن عينه لا تغفل عن مراقبة أعمالهم ، وغنىٌ عن البيان أن هذا يستدعى مثابرة وجلدًا على العمل ونشاطًا لا يعرف الملل والكلال ، وهذا النشاط كان أمراً غير مألوف فى ملوك الشرق وأمرائه الذين هم فى الغالب أميل إلى الدعة والكسل والانصراف إلى الراحة وترك حبل الأمور على غاربها والانكباب على الملاهى والملذات ، فمحمد على كان فذًّا بين ملوك الشرق وحكامه ، وهو بنشاطه المنقطع النظير قد أعطى الملوك والحكام كافة أحسن مثال للاضطلاع بمهام الأمور ، ولقد كان هذا النشاط موضع إعجاب الإفرنج الذين لم يألفوا مثل تلك الحركة المستمرة من حكام الشرق وملوكه ، ولقد تعجبوا على الأخص حينما رأوه وهو فى سن السبعين يقوم برحلة طويلة شاقة فى السودان ويتوغل فى أصقاعه النائية مستهدفًا للمتاعب والأمراض متنقلا من جهة إلى أخرى على أتم ما يكون من النشاط واليقظة ، فهذه الحركة وذلك النشاط مع التقدم فى السن يعطينا فكرة عما غرس فى نفسه من علو الهمة وحبه للعمل .

ولا يخفى أن حبه للعمل ويقظته فى مراقبة موظفى الحكومة كان لهما فضل كبير فى تقدم الأداة الحكومية فى عهده وبعْث روح النشاط فى فروعها بعد أن كانت الحكومة مصابة بالجمود أو بما يشبه الشلل فى عهد الحكم التركى وحكم المماليك .

تلك هى الصفات والمواهب التى تكونت منها شخصية محمد على وجعلت منه رجلا عظيما ، والآن فلنبحث عن أثر هذه العظمة ونتائجها فى ولايته الحكم ، لأن من العظماء من تتوافر فيهم صفاتِ العظمة ولكنهم يقصرونها على ذواتهم وأنفسهم فلا تنال البلاد منهم ثمرة ما ، بل قد يجلبون عليها النكبات والكوارث ، ومع ذلك يعدون عظماء ، ولكن محمد على كان من صنف العظماء الذين نالت البلاد على أيديهم كبرى الفوائد .

فهو من الوجهة السياسية كان يرمى إلى إنشاء دولة مصرية مستقلة ، قوية البأس عظيمة السلطان ، منيعة الجانب ، وهى غاية تعد المثل الأعلى للقومية المصرية ، ولقد حقق فعلا تلك الغاية وجعل من مصر دولة فتية مستقلة تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا إلى أقاصى

السودان جنوبًا ، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسمًا من الأناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر طبقًا لمعاهدة لندره كما فصلناه فى موضعه فقد بقيت حدودها الأصلية سليمة شملت استقلال مصر والسودان وحققت وحدة وادى النيل السياسية والقومية.

وغنىٌّ عن البيان أن تحقيق هذا المشروع العظيم ليس من الهنات الهينات ، ولا ينهض به رجل عادى ، بل يحتاج إلى سياسى كبير من أعظم الرجال همة ودهاء ، فإن أى خطأ يبدر منه كان يكفى لإحباط المشروع فى خطواته الأولى ، أو هدمه من أساسه بعد تمامه ، ولكن محمد على أحاط مشروعه بالحذر وبعد النظر والحكمة ، ويكفيك برهانًا على بعد نظره فى السياسة ، أنه لما عُرض عليه مشروع حفر قناة السويس أعرض عنه رغم إلحاح بعض الماليين والسياسيين الإفرنج ، إذ رأى أنه سيؤدى إلى تدخل الدول فى شئون مصر واتجاه الأطماع إليها وجعلها هدفًا للدسائس الاستعمارية مما يفضى إلى ضياع استقلالها ، ومما يؤثر عنه أنه قال فى هذا الصدد : « إذا أنا فتحت قناة السويس فسأنشئ بوسفوراً ثانيًا ، والبوسفور سيؤدى إلى ضياع السلطنة العثمانية ، وبفتح قناة السويس تستهدف مصر للأطماع أكثر مما هى الآن ، ويحيق الخطر بالعمل الذى قمت به وبخلفائى من بعدى » .

ولقد حققت الأيام صدق نظره ، وما كان أجدر خلفاءه أن يعملوا برأيه فلا يغامروا بمستقبل البلاد وينشئوا فيها بسفوراً ثانيًا أفضى إلى ضياع استقلالها ، ولكن هكذا شاء جَدُّ مصر العاثر أن يتنكبوا سبيله ويفتحوا تلك القناة التى كانت شؤمًا على البلاد .

إن كفاءة محمد على كرجل سياسى بعيد النظر ظهرت فى تأسيس الدولةِ المصرية المستقلة وفى إبعاد اليد الأجنبية عن التدخل فى شئونها ، ومن هنا جاءته فكرة المعارضة فى فتح قناة السويس ، وتبدو هذه الكفاءة أيضاً فى كونه مع وفرة أعمال الإصلاح والعمران التى تمت على يده ، لم يحمِّل مصر ديناً لدولة أجنبية ، ولم يقع فيما وقع فيه خلفاؤه من مديد الاستدانة وفتح ثغرات التدخل الأجنبى فى شئون البلاد .

ومما يذكر له فى هذا الصدد ، أن شركة إنجليزية طلبت إليه أن يأذن لها بإجراء إصلاحات هامة فى ميناء السويس تريد من اتساعها وتجعلها مرفأ كبيراً ، فأبى أن يجيب الطلب ، وكذلك لم يطمئن إلى مد سكة حديدية بين مصر والسويس على يد شركة إنجليزية أخرى ، وبعد أن اتفق وإياها على إنفاذ المشروع عدل عنه خوفاً من عواقب امتداد النفوذ البريطانى فى مصر .

ففضل محمد على ليس مقصوراً على تحقيق استقلال مصر بل هو فوق ذلك قد وضع الدعائم الكفيلة بصيانة ذلك الاستقلال ، ورسم السياسة الحكيمة التى تجعله بمنجاة من المخاطر ، ولو أن خلفاءه حذوا حذوه واتبعوا سياسته لما تصدع بناء الاستقلال فى عهدهم .

تلك كانت أعمال محمد على ومقاصده من الوجهة السياسية ، أما من الوجهة العمرانية فقد كان من الرجال ذوى الخطط الواسعة النطاق فى الإصلاح ونشر لواء العلم والحضارة فى البلاد ، ولا نريد هنا أن نسرد أعماله فى هذا الصدد فيكفى أن نرجع بك إلى ما كتبناه عنها فى الفصول السابقة ، فهو من غير شك باعث نهضة الإصلاح والعمران فى مصر الحديثة .

وهو من الوجهة الحكومية قد أسس حكومة نظامية ، ولم يكن بمصر ثمة حكومة من قبل ، بل كانت هيئة قوامها الخلل والفوضى ، لكن محمد على أوجد حكومة مستقرة ، لها قواعد وأنظمة ودواوين وإدارات ، وسن لها قوانين ولوائح ، فهو من هذه الوجهة يعد من كبار رجال الدول ، ولا شك أن فكرة التنظيم هى ناحية بارزة من نواحى عبقريته ، فهو الذى بث روح النظام فى هيئات الحكومة وفروعها ، فى الجيش ، والبحرية ، والتعليم ، والشئون الخارجية ، والرى ، إلى غير ذلك .

كذلك يجب أن نذكر لمحمد على أنه عُنى بتنشئة أولاده وأحفاده تنشئة عملية علمية ، فلم يتركهم رهن المقاصير والسرايات ، وبين الخدم والغانيات ، كما كان شأن ملوك الشرق فى الغالب ، بل عنى بتربيتهم وتعليمهم وتعويدهم الاضطلاع بمهام الدولة ، ووكل إليهم كما مر بك قيادة الجيوش وخوض غمار الحروب ، فعهد إلى طوسون قيادة الحملة الأولى على الوهابيين ، وإلى إبراهيم الحملة الثانية ، والى إسماعيل الحملة على السودان ثم عاونه فيها إبراهيم ، وعهد إلى إبراهيم باشا قيادة الجيوش فى حرب المورة ، ثم فى حروب الشام والأناضول ، وعلم ابنه سعيدا فنون البحرية ودربه عليها علماً وعملا ، وأرسل طائفة من أبنائه وأحفاده إلى فرنسا ضمن البعثات العلمية .

على أن من الواجب أن نقرر إثباتاً للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء فى عصر محمد على ، فقد وقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة ، ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول إن أعمال الإصلاح التى تمت فى عصر محمد على لم ينتفع بها الجيل الذى عاش فى ذلك

العصر بل انتفعت منها الأجيال التى توالت من بعده ، أما جيل محمد على فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق ، ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ، ولاحق الملكية ، فلعلك تذكر أن محمد على قد تملك كل أراضى مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها ؛ كما احتكر التجارة والصناعة ، وقد أساء هذا النظام إلى الشعب إساءة كبرى لأنه ضرب عليه حجاباً من الفقر والجمود ، وصارت الحكومة هى المالكة لكل أطيان القطر وحاصلاته وتجارته وصناعته ، وهذه الحالة هى موضع ضعف فى سياسة محمد على الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى تعدد مشاريعه فى الإصلاح لم يفكر تفكيراً جدياً فى إيجاد نظام للشورى يعود الشعب الاشتراك فى الحكم كما بينا ذلك ، وهذا عيب كبير فى سياسته .

وإذ تكلمنا عن المظالم التى أرهقت الشعب فى عهده فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التى كانت تقع فى عصر المماليك .

حدثنى صديق لى عن جده الذى أدرك عصر محمد على أنه كان يقول إننا كنا نحتمل مظالم حكمه لأنها بمقارنتها بمظالم المماليك كانت أخف منها وأرحم ، وهذا القول فيه ناحية من الصواب ، وينير لنا طريق الحكم على عصر محمد على ، فلأجل أن نحكم على عظيم من العظماء أو على عصر من العصور يجب علينا أن ندرس الرجل فى مجموعه ، والعصر بأكمله ، ثم نقارن بين ذلك العصر والعصر الذى سبقه ، ثم الذى تلاه ، وبذلك يكون الحكم صحيحاً ، والرأى فيه سديداً ، فإذا نحن نظرنا إلى تاريخ محمد على فى مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومى وباعث نهضة الإصلاح والعمران فى مصر ، وأنه من هذه الناحية أكبر بنّاء فى صرح القومية المصرية ، ومهما عددنا على حكمه من المآخذ فمن المحقق أنه لو لم يتول حكم مصر لظلت كما كانت ولاية من ولايات السلطنة العثمانية يتعاقب عليها الولاة الجهلاء الذين كانت ترسلهم الاستانة كل سنة أو سنتين والذين لم يكن لهم همٌّ سوى الحصول على نصيبهم فى الخراج وإرسال الخزانة السوية إلى الاستانة ، ثم يتركون شئون الحكومة فى يد المماليك يعيثون فى الأرض فساداً ، ويجعلون الحكم أداة للمظالم والفوضى ، مما أدى إلى تأخر البلاد فى كل نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلو لم يتول محمد على حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفوضى ، كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية كالعراق وسورية وفلسطين ، أو لاحتلتها دولة من دول

الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وما زالت تحتلها إلى اليوم (تاريخ آخر طبعة من الكتاب) .

فهذه المقارنة تظهر لنا فضل محمد على ومبلغ المزايا التى عادت على مصر من عبقريته وجهوده ومواهبه ، وهذا فيما نعتقد هو حكم الإنصاف على محمد على وعصره .

* * *



إبراهيم باشا

قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال

(١٧٨٩ - ١٨٤٨)

الفصل السابع عشر

إبراهيم باشا

(١٧٨٩ – ١٨٤٨)

من الواجب أن نفرد فصلا لإبراهيم باشا ، ولئن كانت الفصول السابقة تصلح أن تكون تاريخًا له ، فإن بطولته تدعونا أن نختم هذا العصر بفصل خاص بإبراهيم .

تاريخه

هو أكبر أنجال محمد على ، وساعده الأيمن فى فتوحاته ومشروعاته ، وقائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال ، يقترن اسمه باسم أبيه فى كثير من جلائل الأعمال ، وأهمها تأليف الجيش المصرى وقيادته فى ميادين القتال إلى حيث حقق استقلال مصر ورفع ذكرها بين الأمم .

ولد فى قوله سنة ١٧٨٩ ، وجاء مصر هو وأخوه طوسون فى سبتمبر سنة ١٨٠٥ ، وعهد إليه أبوه بمهات عدة ، مارس فيها شئون الدولة وأعمالها الإدراية والحربية ، فكانت له توطئة للاضطلاع بالمهام الجسيمة التى تولاها من بعد ، فقد تولى منصب الدفتردارية سنة ١٨٠٧ ولما يبلغ العشرين ، والدفتردار هو بمثابة وزير المالية اليوم ، وقام فى هذا المنصب بعمل من أجلّ أعمال العمران ، وهو مساحة أطيان القطر المصرى .

وتولى أيضًا حكم الصعيد وجمع بين هذا المنصب ومنصب الدفتردارية ، وقاتل المماليك ، ولكنه لم يشترك معهم فى حرب حقيقية ، وظلت كفاءته الحربية دفينة إلى أن سطع نجمها أولَ وهلة فى الحرب الوهابية ، فهى أول حرب خاض إبراهيم غمارها وتجلت فيها مواهبه ، ولا نريد هنا أن نعود إلى وقائع تلك الحرب ، فقد وفينا الكلام عنها فى الفصل الخامس .

فالحرب الوهابية كانت أول ميدان للقتال ظهرت فيه بطولة إبراهيم باشا ، تلك البطولة التى لازمته فى الحروب التالية .

وتتبين لك ناحية من كفاءته وصدق نظره فى كونه أول من استعان بخبرة الأوروبيين فى

الحروب ، فاصطحب معه فى الحرب الوهابية طائفة من الإفرنج ، منهم الضابط الفرنسى فيسير أحد ضباط أركان الحرب كما تقدم ذكره ، وهذا أمر لم يكن مألوفًا ولا سائغًا بين قواد الشرق إلى ذلك العهد ، ولكن إبراهيم باشا ، لذكائه وحصافته ، عرف أن الأمم الشرقية لا تنهض إلا إذا اقتبست خبرة علماء أوروبا وقوادها .

وبعد أن انتهت الحرب الوهابية عاون إبراهيم باشا أخاه إسماعيل فى فتح السودان ، ولكنه لم يطل مكثه هناك إذ أصيب بمرض شديد اضطره إلى العودة لمصر.

وجاءت حرب اليونان ، فعهد إليه محمد على قيادة الجيوش المصرية فى البر والبحر ، وقد رأيت مما سطرناه فى الفصل السابع كيف ظهرت عبقريته فى تلك الحرب التى تولى قيادة الجيش المصرى فى ميادينها أربع سنوات متوالية .

وإذ كانت الحروب والشدائد هى المدرسة العملية التى تكون فيها إبراهيم باشا فإن حملة المورة قد أكسبته خبرة واسعة فى فنون الحرب والقتال ، ذلك أنه حارب فيها جيوشًا أوروبية يقودها ضباط وقواد درس معظمهم أساليب النظام الحربى الحديث ، واختلط بكثير منهم بَصَراو خبرهم ، وحادثهم ، فاقتبس من تلك الحروب معارف جمة زادته بَصَراً بفنون القتال .

ثم جاءت حروب الشام والأناضول ، فخاض غمارها وقد اكتملت خبرته ومواهبه الحربية ، فتجلت فيها عبقريته ، وعظمت مكانته ، واقترن اسمه فيها بأسماء كبار القواد والفاتحين ، وطبق ذكره الخافقين .

ويطيب لنا فى هذا المقام أن نعيد هنا الكلمة التى ذكرناها عنه فيما سبق ففيها خلاصة تاريخه المجيد : « وأنك لتلمح عظمة إبراهيم من كونه قاد الجيش المصرى فى ميادين النصر إلى حيث جعل تركيا والدول الأوروبية تقف مبهوتة مضطربةً أمام وثبات ذلك الفاتح الكبير ، كأنما هى أمام القَدَر » .

إن تاريخ إبراهيم باشا مقترن بتاريخ الجيش المصرى وحروبه فى عصر محمد على ، ولقد فصلنا الكلام فى هذا الصدد فى فصول عدة[1] فهذه الفصول هى تاريخ لإبراهيم ، ولا يخفى أن هذه الحروب كما أسلفنا هى التى حققت لمصر استقلالها ، فلا غرو أن يكون أدق تعريف لشخصية إبراهيم باشا أنه « قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال » ، وهو التعريف

(١) الفصل الخامس والسابع والثامن والتاسع والعاشر.

الذى اخترناه لنضعه بجانب صورته ، ولعمرى أن قيادته لجيوش مصر فى حروب استقلالها لهى أعظم ما يزين تاريخه .

وقد ذاعت شهرته فى أوروبا فنال فيها مكانة عالية لما استفاض عن بطولته وشهرته الحربية ، وتجلت هذه المكانة حينما سافر إلى أوروبا فى سبتمبر سنة ١٨٤٥ للاستشفاء من مرض عضال أصابه ، وذهب إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا ، فقوبل بأعظم مظاهر الحفاوة والإجلال ، وبلغ لندره فى يونيه سنة ١٨٤٦ ، فقابلته الملكة فكتوريا وعظماء الإنجليز بالترحاب والاحترام .

ولم تقتصر مواهب إبراهيم فى ميادين القتال ، بل ظهرت كفاءته الإدارية فى تنظيم الحكم المصرى فى سورية وتوطيد دعائم الأمن فيها كما بسطنا ذلك فى الفصل الثامن ، وفى المهام الإدارية التى تولاها فى مصر ، وإذ كان من مزاياه فى حياته الحربية حرصه على النظام ، فقد استمسك بهذه الميزة فى تنظيم الشئون الإدارية التى تولاها ، وكان فى أوقات السلم شديد العناية بالشئون الزراعية وتنظيمها ، وامتاز بميله إلى تنسيق الحدائق وتنظيم أشجارها ونباتها ، كأنها فى نظره صفوف من الجنود يجب أن يسود النظام بينها ، وبلغ شغفه بتنظيمها أن استخدم مهندسًا زراعيًا إنجليزيًا عهد إليه تنسيق حدائقه الواسعة فى جزيرة الروضة وغرس فيها العدد الوفير من أشجار الفاكهة والرياحين .

صفاته وآراؤه ومبادئه

إن أبرز صفة من صفات إبراهيم باشا شجاعته وإقدامه ، فالشجاعة هى أكبر ناحية من نواحى عبقريته ، وبجانبها حبه للنظام ، وصرامته فى تطبيق قواعده ، ولا غرو فالنظام هو أساس الحياة العسكرية وقوام تقدم الجيوش وقوتها ، وهو أول ما امتاز به الجيش المصرى على الجيوش التركية فى ميادين القتال ، وأول الأسباب التى كفلت له النصر والظفر ، وكان إبراهيم باشا لصرامته فى النظام يطبقه على نفسه ، فيعيش عيشة الجندى البسيط فى مأكله ونومه ، ويقاسم جنوده السراء والضراء ، ويشاركهم شظف العيش ، وكثيرًا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيرًا على قدميه ليعطى جنوده المثال فى احتمال شدائد الحروب ومتاعبها فلا غرابة إذ تعلقوا به واستبسلوا فى القتال تحت رايته .

وكان يجمع إلى الشجاعة الذكاء الحاد وصدق النظر والرغبة الشديدة فى الأخذ بأسباب

تقدم الأمم الأوروبية ، وكان من مزاياه البساطة فى معيشته والرغبة عن مظاهر الفخفخة والأبهة ، وهذا الخلق نادر بين قواد الشرق وأمرائه ، فإنهم أبداً يحيطون أنفسهم بمظاهر الأبهة والعظمة ، لكن إبراهيم باشا كان على حظ كبير من عظمة النفس ، فلم يكن فى حاجة إلى العظمة المصطنعة .

وقد قابله كثير من عظماء الإفرنج ورجالهم السياسيين والحربيين ووصفوه فيما كتبوه وصفًا يعطينا صورة حية من شخصيته وأفكاره ومبادئه ، ومن أصدق من وصفوه البارون (بوالكونت) Bois Le Comte[1] فقد اجتمع به بالقرب من طرسوس بالأناضول فى أغسطس سنة ١٨٣٣ عقب انتصاره فى معركة قونية وإبرام اتفاق كوتاهية ، واستطلع آراءه وأفكاره فكتب عنه مايأتى :

«دخلتُ على إبراهيم فى خيمته ولم يكن معه أحد ، وكان يجلس على ديوان كبير فى صدر الخيمة على الطريقة الأوروبية ، وأمامه كراسى عدة ، وقد بدا لى أنه بلغ الأربعين ، وهو قوى البنية ، قصير القامة ، كبير الرأس ، جميل الأسنان ، ذكى النظر ، نشيط فى كل حركاته ، قصير الذراعين ، شأن أفراد عائلته ، لكن ذراعيه أقصر من ذراعى أبيه ، وقد لمحت روح الحماسة بادية فى حديثه ولهجته ، لما ناله من الانتصارات الأخيرة ، وهو شغف بالحروب ، لا يكترث كثيراً بحياته التى طالما جعلها هدفاً للمخاطر بشجاعة بلغت حد المجازفة ، يسير فى حياته على هذه الوتيرة ، ولا يطيب نفساً إلا فى جو العمل والنشاط والحركة ، وقد رأيته مشغولا بمشروعات جمة ترمى إلى إصلاح سوريه فى الوقت الذى يستريح فيه من عناء المعارك ، ويلوح لى كأن هذه الراحة هى حالة يرغم عليها ولا يميل إليها ، ويشعر بأنها لا يصح أن يطول مداها» .

وقد تجاذب إبراهيم باشا والبارون بوالكونت أطراف الأحاديث ، ودار الكلام على الحرب الأخيرة ، قال البارون فى هذا الصدد : حدثنى إبراهيم بلهجة طبيعية قائلا : «إنه ليؤلمنى أن الدول منعتنى من متابعة الزحف» ، فأجبته : إنى أظن بالعكس أنه قد آن الوقت الذى يحق

(٢) هامش الطبعة الثالثة – البارون بوالكنت سياسى وكاتب فرنسى تولى بعض المناصب الممتازة فى وزارة الخارجية الفرنسية وندبته حكومته سنة ١٨٣٣ فى مهمة لدى محمد على لإقناعه بسحب جيوشه من الأناضول تمهيدًا لعقد الصلح بينه وبين تركيا ، وقد قابله مرارًا وأكرم وفادته ، ونجحت مساعى فرنسا فى إقناع محمد على بالصلح مع تركيا ، وهو الصلح المعروف باتفاق كوتاهية (أبريل – مايو سنة ١٨٣٣) أنظر ص ٢٩١ (وبالطبعة السابقة) .

فيه للدول أن تفكر فى وقف سموكم عن الزحف ، فإنه لم يكن أمامكم سوى بضع خطوات لتصل الجنود المصرية إلى أسكدار ، وهنالك تشب الثورة فى الاستانة .

فأجابنى : ولكنى كنت شديد الرغبة فى دخول الاستانة على رأس جيشى ، فقلت له : وماذا تقصدون سموكم من الذهاب إلى الاستانة وماذا كنتم صانعين بها ؟

فأجابنى : ما كنت أدخلها للهدم بل للإصلاح ، ولكنى أقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء بدل الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الامبراطورية .

فقلت له : إن سموكم يؤكد بحديثه المخاوف التى ألمعت إليها فى كلامى ، فإن ما كنتم تنوون إحداثه هو ما كنا نعمل على منعه ، لا لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو سموكم أو نحو أبيكم ، ولكن لأن الانقلاب الذى كنتم عازمين على إحداثه فى الاستانة يفضى إلى مشاكل قد تشعل نار الحرب فى أوروبا بأسرها .

فأجابنى : إنك واهم فيما تظن ، فإن هذا الانقلاب كان يحدث دون أية مقاومة ، فإن السكان على جانبى البوسفور والدردنيل يطلبوننى لإحداث الانقلاب الذى يتم فى هدوء وسرعة دون أن تجدوا الوقت للشعور بوقوعه ، تقولون إنكم تبغون الدفاع عن كيان تركيا وجعلها قوية ، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث سلطنة قوية تقوم على أنقاض هذه السلطنة المفككة التى تحاولون عبثًا تأييدها والتى ستنحل يوماً بين أيديكم وتسبب لكم وقتئذ مشاكل لاعداد لها .

وهنا سكت إبراهيم باشا قليلا عن الكلام ، كأنما استوقفته فكرة طارئة ثم قال : إننى أبحث كثيراً وأتساءل لماذا تحقد الدول الأوروبية كل هذا الحقد على الأمم الإسلامية ؟

فقلت له : إنى لم أفهم كلام سموكم .

قال : نعم ، فإنك تقول الآن أن وصول جيشى إلى أسكدار يحدث ثورة فى الإستانة ، وأنى أوافقكم وأرى رأيكم ، ولكن أليس هذا دليلا على أن الأمة الإسلامية لا تريد حكم السلطان محمود ؟ فبأى حق ترغمون هذه الأمة على مالا تريده وهل يحق لكم معشر الفرنسيين أن تمنعوها من اختيار حكامها ؟ عجباً ! لقد كنتم حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة ، وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم ، تنادون أن لكل أمة الحق فى اختيار ولى أمرها ونظام الحكم الذى تبتغيه ، بل أنكم ساعدتم اليونانيين فى ثورتهم ، فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق ؟

قال البارون بوالكونت : « وكان إبراهيم باشا يلقى حديثه هذا فى حماسة وذكاء ويمزج الأدلة القوية بشىء من الفكاهة والدعابة ، وكان جوابى له أن سموه يخطئ فى تقدير المبدأ الذى أملى على الدول الأوروبية سياستها فى المسألة الشرقية ، فإنها لا تنظر إلى مثل هذه المسألة فى ذاتها بل تنظر إليها من ناحية تأثيرها فى مركز الدول فإذا رأت مثلا كما فى الحالة التى نحن بصددها أن ثورة أهلية تفضى إلى تزلزل التوازن الدولى وإحداث حرب عامة كان من الطبيعى أن تعمل كل دولة ما تراه حائلا دون وقوع هذه الكارثة .

فقال إبراهيم باشا : إن هذا عبث فإن أسباب الخصام بين الدول الأوروبية لا تنتهى ، ودخلت معه فى تفاصيل طويلة لأقنعه بخطأ فكرته » .

وكان البارون (بوالكونت) قد قابل محمد على قبل اجتماعه بإبراهيم ، واستطلع رأى كليهما فى الحالة السياسية ، ودون خواطره عن شخصية الاثنين والمقابلة بينهما ، فقال عن إبراهيم أنه لم تتوافر عنده القدرة على تأسيس الممالك مثلما توافرت عند أبيه ، ولكن عنده من المواهب ما يكفل المحافظة على كيانها وبقائها ، وأن من أسباب قوة الدولة المصرية الارتباط المتين بين محمد على وإبراهيم ، وأن إبراهيم قد حافظ على عظيم احترامه وإجلاله لأبيه ولم يداخله أى زهو وخيلاء ، ولم تتغير علاقته به حتى بعد الانتصارات العظيمة التى نالها ، لدرجة أنه لم يسمح لنفسه أن يشرب الدخان فى حضرته ، وإذا بعد عنه لا يفتأ يبدى له من الإخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل .

وقال عن الفوارق فى آرائهما : « أن محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق ، أما إبراهيم فإنه أقرب إلى المبادىء الحرة . وقد خالف أباه فى مسألتين جوهرتين ، فالمسألة الأولى أنه لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذى اتبعه فى مصر وسوريه ولو أنه نفذ فى هذا الصدد أوامر أبيه ، والمسألة الأخرى أنه يجاهر برأيه فى إحياء القومية العربية ، وذكر عن آرائه فى هذا الصدد ما نقلناه فى موضعه وأضاف إليها أنه كان يسمع مثل هذه الأقوال من حاشية إبراهيم وخاصة رجاله ، بخلاف ما كان يسمعه من بطانة محمد على التى كانت متشبعة بالفكرة التركية ، وقال إن فكرة إبراهيم باشا أن يجعل من الإمبراطورية التى أسسها أبوه دولة عربية بحتة ، أى أن يكون حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأمة واحدة (وهى الأمة المصرية) وأن يعيد إلى القومية العربية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها » .

ولايته حكم مصر

(أبريل سنة ١٨٤٨ – نوفمبر سنة ١٨٤٨)

إن عظمة إبراهيم لم تجئه من طريق ولايته الحكم ، بل توافرت عنده وانقادت له من قبل ، فلقد أسبغت عليه بطولته فى ميادين القتال صفات العظمة والمجد ، أما مدة حكمه فلم تزد على سبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً ولم تتسع ليخط فيها صفحة جديدة يضمها إلى سجله الخالد .

تولى الحكم فى حياة أبيه ، ذلك أن محمد على فى أخريات سنيه قد اعتلت صحته وأصيب بضعف فى قواه العقلية ، ولم يعد فى استطاعته الاضطلاع بأعباء الحكم ، وقد ظهرت عليه أعراض هذا الضعف غير مرة ولم ينجع فيه دواء .

فعقد إبراهيم باشا مجلساً خاصاً برئاسته واستقر رأى المجلس على أن يتولى إدارة شئون الحكومة بدل أبيه ، فتولى الحكم فى إبريل سنة ١٨٤٧ وأبلغ الأمر إلى الباب العالى فأرسل إليه فى يوليه فرمان التقليد ، وقد عنى إبراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية .

وفاته

(١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨)

ولكن المنية عاجلته فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ، توفى وله من العمر ستون سنة هلالية ، فخسرت مصر بوفاته قائد جيشها المظفر الذى كان لبطولته اليد الطولى فى تحقيق استقلالها .

وفاة محمد على باشا

(٢ أغسطس سنة ١٨٤٩)

وبعد وفاة إبراهيم ولى الحكم عباس باشا الأول ، ومازال محمد على مصاباً بمرضه العضال إلى أن توفى يوم ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩) بسراى رأس التين

بالإسكندرية ، ونقلت جثته إلى القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ، ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الأبدية ، وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل الكبير بعد أن خلف مجداً لا يبليه الزمان ، توفى بعد أن أسس الدولة المصرية وحقق استقلالها وأتم وحدتها وشيد دعائم نهضتها ، وتم على يده من الأعمال الجليلة ما تنوء به العصبة من عظماء الرجال .

* * *

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

معاهدة جلاء الإنجليز عن الإسكندرية المبرمة بين محمد على باشا من جانب ، والجنرال شربروك والكبتن فيلوز من جانب آخر
(وهى المعاهدة التى انتهى بها الاحتلال الإنجليزى الثانى)

« بما أن الجنرال فريز Fraser قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والكبتن هلويل Hollowel قائد الأسطول الإنجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك Scherbrook والكبتن فيلوز Fellowes من ضباط البحرية الإنجليزية سلطة إبرام الاتفاق الخاص بالجلاء عن الإسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر ، والجنرال شربروك والكبتن فيلوز المذكورين على الشروط الآتية » :

المادة ١

توقف فوراً الأعمال العدائية من الجانبين ، وتجلو القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت ، وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن ، ويسلم صاحب العظمة محمد على باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه أسحق بك ومهر داره (حامل الختم) سليمان أفندى رهائن يبقون على ظهر إحدى السفن الحربية الإنجليزية إلى أن يتم تنفيذ هذه المعاهدة .

المادة ٢

جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم من الأرقاء يطلق سراحهم ويرسلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة إنجليزية .

المادة ٣

يصدر عفو عام عن سكان الإسكندرية أو غيرهم من الأهلين لما وقع منهم فى الماضى ويؤمنون على أرواحهم وأملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف إلى اتخاذ الطريق الذى سلكوه .

المادة ٤

بما أن أمين بك الألفى قد بارح الإسكندرية أثناء الاحتلال الإنجليزى فإن صاحب العظمة محمد على باشا يعد بأنه فى حالة عودة أمين بك المذكور إلى الميناء ألا يناله سوء ويعطى أمانًا له ولحاشيته بشرط أن لا يتجاوز عددهم اثنى عشر شخصًا .

المادة ٥

نظرًا لتفرق الأفراد الأرقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطانى ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب إنجليزى فى الإسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا ، ولهذا المندوب أن يحصل من صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لأداء مهمته فى إحضار هؤلاء الأفراد ، ويسمح له بأن يرسل كل من يوجد منهم إلى أية سفينة إنجليزية تكون راسية فى الميناء أو يرسلهم إلى صقلية أو مالطة بأية طريقة أخرى تتيسر له .

« حررت هذه المعاهدة فى معسكر صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر بالقرب من دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ الموافق ١١ رجب سنة ١٢٢٢ » .

« إمضاءات : محمد على باشا : شربروك ، فيلوز » .

وثيقة رقم ٢

اتفاق الإسكندرية

(٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠)

« بين الكومودور نابييه Npier قائد القوات البريطانية البحرية الراسية أمام الإسكندرية من جانب ، وبوغوص يوسف بك وزير خارجية صاحب السمو نائب ملك مصر المفوض من قبل سموه من جانب آخر ، تم إبرام الاتفاق الآتى بالإسكندرية يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ » .

المادة ١

بما أن الكومودور نابييه بصفته المبينة أعلاه أحاط صاحب السمو محمد على علماً أن الدول أشارت على الباب العالى بإعادة حكم مصر الوراثى إلى عهدته ، وبما أن سموه يرى فى ذلك وسيلة لوضع حد للحرب وويلاتها ، فإنه يتعهد بأن يصدر أوامره إلى ابنه إبراهيم باشا بإجراء الجلاء فوراً عن سوريه ويتعهد أيضاً بإعادة الأسطول العثمانى بمجرد أن يصله أخطار رسمى بأن الباب العالى يتنازل له عن حكم مصر الوراثى وأن يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من الدول .

المادة ٢

يضع الكومودور نابييه تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة من سفنه لتنقل إلى سوريه الضابط الذى يعهد إليه صاحب السمو إبلاغ القائد العام للجيش المصرى أمره بالجلاء عن سوريه ويعين الأميرال ستويفورد قائد القوات البريطانية من ناحيته ضابطاً لملاحظة تنفيذ هذا الأمر .

المادة ٣

وبناء على ما تقدم يتعهد الكومودور نابييه بوقف الحركات العدائية من جانب القوات البريطانية ضد الإسكندرية وكل جهة من الأراضى المصرية ويبيح حرية الملاحة لكل السفن

المعدة لنقل الجرحى والمرضى وسائر الجنود المصرية الذين ترغب الحكومة المصرية نقلهم إلى مصر بطريق البحر .

المادة ٤

للجيش المصرى الحق فى أن ينسحب من سوريه حاملا معه مدافعه وأسلحته وجياده وذخائره وأمتعته وفى الجملة كل ما معه من مهمات الجيش .

وقد حررت نسختان من هذا الاتفاق .

« توقيع : شارل نابيبه ، بوغوص يوسف »

مراجع البحث

ذكرنا فى هوامش الصحائف المراجع التى اعتمدنا عليها .

* * *

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

الفهـــرس

	صفحة		صفحة
صورة المؤلف	٣	مقدمة الطبعة الأولى	١١
مقدمة الطبعة الرابعة	٥	خلاصة الجزأين الأول والثانى	١٧
مقدمة الطبعة الثالثة	٧	عبد الرحمن الرافعى وفكره فى كتابه عصر محمد على	٢١
مقدمة الطبعة الثانية	٩		

الفصل الأول
الزعامة الشعبية فى السنوات الأولى من حكم محمد على

موقف محمد على فى بداءة حكمه	٢٧	رواية الجبرتى	٣٨
موقف تركيا	٢٨	حصار دمنهور	٤٠
دسائس السياسة الإنجليزية	٢٩	تضامن محمد على والعلماء فى مقاومة فرمان العزل	٤٠
معاضدة زعماء الشعب لمحمد على	٢٩	استعداد محمد على للحرب	٤٢
هجوم المماليك على القاهرة وإخفاقهم	٣٠	رواية الجبرتى	٤٢
استيلاء محمد على على الجيزة	٣١	موقف زعماء الشعب	٤٢
رحيل قبطان باشا إلى الأستانة	٣٢	سياسة محمد على	٤٣
رجوع محمد على إلى زعماء الشعب فى مهمات الأمور	٣٢	معركة النجيلة	٤٤
مكانة السيد عمر مكرم	٣٣	رواية الجبرتى عن معركة النجيلة	٤٤
الحرب بين محمد على والمماليك	٣٥	استئناف حصار دمنهور ودفاعها المجيد	٤٥
محاولة عزل محمد على وإخفاقها	٣٥	حبوط مؤامرة العزل	٤٦
دسيسة إنجليزية جديدة	٣٦	وفاة عثمان بك البرديسى	٤٧
مجىء أسطول عثمانى إلى مصر لعزل محمد على	٣٧	إخفاق محمد بك الألفى ووفاته	٤٨
		الحملة على المماليك فى الصعيد	٥٠

الفصل الثانى
الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها

	صفحة		صفحة
أسباب الحملة	٥٣	حالة الشعب النفسية وتطوعه للقتال	٦٤
حالة الأفكار فى القاهرة والأقاليم	٥٣	فضل السيد عمر مكرم	٦٤
مجىء العمارة الإنجليزية	٥٦	معركة الحماد	٦٨
احتلال الإسكندرية	٥٧	رواية الجبرتى عن معركة الحماد	٧٢
موقف المماليك	٥٩	تأثير معركة الحماد فى الموقف الحربى	٧٣
واقعة رشيد وهزيمة الإنجليز فيها	٦٠	إبرام الصلح وجلاء الإنجليز عن البلاد	٧٥
رواية الجبرتى عن واقعة رشيد	٦١	عودة محمد على إلى القاهرة	٧٦
نصيب المصريين فى المعركة	٦٢	فتنة الجند فى القاهرة وإخمادها سنة ١٨٠٧	٧٧
نتائج واقعة رشيد	٦٣		

الفصل الثالث
اختفاء الزعامة الشعبية من الميدان

الموقف السياسى	٨١	نفى عمر مكرم إلى دمياط	٩٥
تخاذل الزعماء وحالتهم النفسية	٨٢	رحيله إلى منفاه	٩٦
الخلاف بين محمد على والسيد عمر مكرم	٨٤	موقف الشيوخ بعد نفى زعيمهم	٩٧
الوقيعة بالسيد عمر مكرم	٨٧	عمر مكرم فى منفاه	٩٨
تدبير المؤامرة	٩١	كتاب محمد على إلى السيد عمر مكرم	٩٩
اشتداد الأزمة	٩٤	عودة عمر مكرم إلى القاهرة ونفيه ثانياً	٩٩

الفصل الرابع
انفراد محمد على بالحكم

انتقال محمد على إلى القلعة	١٠٣	مذبحة القلعة	١٠٨
موقف محمد على إزاء المماليك	١٠٤	الرأى فى مذبحة القلعة	١١٤

الفصل الخامس

تحقيق الاستقلال القومى

حروب مصر فى عهد محمد على

	صفحة
نظرة عامة فى تلك الحروب من الوجهة القومية	١١٧
الحملة الإنجليزية	١١٨
الحرب الوهابية	١١٨
أسبابها	١١٩
الدعوة الوهابية	١٢١
معدات الحملة	١٢٥
وقائع الحملة	١٢٦
احتلال ينبع	١٢٧
احتلال بدر	١٢٧
هزيمة الصفراء	١٢٧
موقف طوسون باشا	١٢٨
احتلال الصفراء	١٢٩
فتح المدينة	١٢٩
فتح مكة	١٣٠
احتلال الطائف	١٣٠
تحرج موقف الجيش المصرى	١٣٠
هزيمة الجيش المصرى فى تربه	١٣١
إخلاء الحناكية	١٣١
خسائر الجيش	١٣١
سفر محمد على إلى الحجاز	١٣٢
اعتقال الشريف غالب	١٣٢
احتلال قنفذه ثم إخلاؤها	١٣٣
طلب محمد على المدد من مصر	١٣٤
وفاة سعود بن عبد العزيز	١٣٤
حصار الوهابيين الطائف	١٣٥
رفع الحصار عن الطائف	١٣٥
التأهب لمعاودة القتال	١٣٦
واقعة بسل	١٣٦
احتلال المصريين تربه ورنيه ثم بيشه	١٣٧
احتلال قنفذه	١٣٧
احتلال الرس	١٣٧
طلب الوهابيين الصلح	١٣٧
رجوع محمد على إلى مصر	١٣٨
مؤامرة لطيف باشا	١٣٨
مشروع الصلح وإخفاقه	١٤٠
رجوع طوسون باشا إلى مصر	١٤١
استئناف الحرب فى الحجاز بقيادة إبراهيم باشا	١٤٢
وفاة طوسون باشا	١٤٣
حصار الرس	١٤٣
فتح الشقراء	١٤٦
فتح الدرعية	١٤٦
رواية الجبرتى	١٤٨
انتهاء الحرب الوهابية	١٤٩
الحفلات الحربية فى عهد محمد على	١٥٠
مقتل عبد الله بن سعود	١٥١
تخريب الدرعية	١٥١
عودة إبراهيم باشا إلى مصر	١٥٢
فتح سيوه	١٥٢

الفصل السادس
فتح السودان

	صفحة		صفحة
أسباب فتح السودان	١٥٦	محو بك	١٧٤
مقدمات الحملة	١٥٩	خورشد باشا	١٧٤
معدات الحملة	١٦٠	أحمد باشا أبو ودان	١٧٥
وقائع الحملة	١٦١	أحمد باشا المنكلى ثم خالد باشا	١٧٥
فتح دنقلة	١٦١	رحلة محمد على فى السودان	١٧٥
معركة كورتى	١٦٢	عمران السودان فى ظل الحكم المصرى	١٧٦
من بربر إلى أم درمان	١٦٢	تأسيس المدن	١٧٧
فتح سنار	١٦٣	الخرطوم	١٧٧
فتح كردفان	١٦٣	كسلا	١٧٨
فتك الأمراض بالجنود	١٦٤	فامكه	١٧٩
مجىء إبراهيم باشا ثم عودته	١٦٤	توطيد دعائم الأمن	١٧٩
فتح فازوغلى	١٦٥	الزراعات وأعمال العمران الأخرى	١٨٠
البحث عن مناجم الذهب	١٦٥	الحملات والبعثات الجغرافية	١٨١
مقتل إسماعيل باشا	١٦٦	حملات البكباشى سليم بك قبطان	١٨٣
ما ذكره الجبرتى عن فتح السودان	١٦٧	الحملة الأولى	١٨٣
نظام الحكم فى السودان	١٧٠	الحملة الثانية	١٨٤
الجيش المصرى بالسودان	١٧٢	الحملة الثالثة	١٨٥
حكمدارو السودان فى عهد محمد على	١٧٣	حدود السودان المصرى فى عهد محمد على	١٨٦
عثمان بك	١٧٣		

الفصل السابع
حرب اليونان

الثورة اليونانية	١٨٩	استعانة تركيا بالأسطول المصرى	١٩١
إعلان الثورة فى الموره	١٩٠	رواية الجبرتى	١٩٢

	صفحة
الحملة المصرية على كريت	١٩٣
الحملة على المورة	١٩٣
معدات الحملة	١٩٤
الحرب البحرية على شواطئ الأناضول	١٩٤
النزول إلى بر المورة	١٩٦
حصار نافارين	١٩٧
استيلاء المصريين على نافارين	١٩٩
نشاط السفن اليونانية	١٩٩
مهاجمة السفن اليونانية سواحل مصر	٢٠٠
فتح مدينة كلاماتا	٢٠٠
فتح مدينة تريبولتسا	٢٠١
فتح مدينة ميسولونجى	٢٠١
حصار أثينا	٢٠٣
إعداد حملة جديدة	٢٠٣
تدخل الدول	٢٠٣
إقلاع الحملة المصرية إلى مياه نافارين	٢٠٥
مقدمات واقعة نافارين البحرية	٢٠٦
واقعة نافارين	٢٠٨
اختلاف وجهة نظر تركيا ومصر بعد الواقعة	٢١٣
اتفاق مصر والدول	٢١٤
جلاء الجيش المصرى عن المورة	٢١٤
نتائج الحرب اليونانية	٢١٥

الفصل الثامن
الحرب فى سورية والأناضول

أسباب الحملة على سورية	٢١٧
مشروع إنشاء دولة عربية	٢١٨
الأسباب المباشرة للحملة	٢٢١
تأليف الحملة	٢٢٢
سير الحملة	٢٢٣
احتلال غزة ويافا وحيفا	٢٢٣
حصار عكا	٢٢٣
موقف تركيا	٢٢٤
انتصار المصريين فى الزراعة	٢٢٥
فتح عكا	٢٢٧
فتح دمشق	٢٢٨
واقعة حمص	٢٢٩
الموقف الحربى بعد واقعة حمص	٢٣٦
واقعة بيلان	٢٣٦
زحف الجيش المصرى فى الأناضول	٢٤٢
واقعة قونيه	٢٤٤
حركات الأسطول المصرى	٢٥٠
المسألة المصرية وتدخل الدول	٢٥١
رسالة محمد على فى التمسك بحقوق مصر	٢٥٣
احتلال كوتاهيه ومغنيسيا وإقامة الحكم المصرى فى أزمير	٢٥٥
اتفاق كوتاهيه	٢٥٥
الحكم المصرى فى سورية	٢٥٧
نظام الحكم فيها	٢٥٧

	صفحة
الثورات فى الشام — أسبابها	٢٦٢
وقائع الثورة — ثورة فلسطين	٢٦٤
قمع العصيان	٢٦٥
حضور محمد على باشا	٢٦٦
إخماد الثورة	٢٦٦
اضطرابات أخرى	٢٦٧
ثورة النصيرية	٢٦٧
ثورة حوران	٢٦٨
الحرب السورية الثانية	٢٧٠
محمد على وإعلان الاستقلال	٢٧٠
مقدمات الحرب السورية الثانية	٢٧١
خطة الترك فى الزحف على الشام	٢٧٢
عبور الترك نهر الفرات	٢٧٢
إرسال محمد على المدد إلى الشام	٢٧٣
حركات الجيش المصرى قبيل واقعة نصيبين	٢٧٣
قوات الطرفين	٢٧٤
واقعة نصيبين	٢٧٥
الواقعة	٢٧٧
نتائج الواقعة	٢٨٠
وفاة السلطان محمود	٢٨١
تقدم إبراهيم باشا	٢٨١
تسليم الأسطول التركى	٢٨٢

الفصل التاسع
معاهدة لندرة ومركز مصر الدولى

	صفحة
تدخل الدول بعد معركة نصيبين	٢٨٥
موقف الدول	٢٨٦
موقف الروسيا	٢٨٦
موقف فرنسا	٢٨٦
موقف إنجلترا	٢٨٧
موقف النمسا وبروسيا	٢٨٨
موقف تركيا	٢٨٨
مذكرة الدول إلى الباب العالى	٢٨٩
إبرام معاهدة لندرة وشروطها	٢٩٠
دسائس إنجلترا فى سوريا	٢٩٢
رفض محمد على باشا شروط المعاهدة	٢٩٤
الحرب بين مصر والدول المتحالفة وثورة السوريين على الحكم المصرى	٢٩٧
استيلاء الحلفاء على الثغور السورية	٢٩٨
سقوط عكا	٢٩٨
انسحاب فرنسا من الميدان	٢٩٩
مهمة الكومودور نابييه	٣٠٠
إخلاء الجيش المصرى سورية	٣٠٣
رأى مؤرخى سورية فى الحكم المصرى	٣٠٤
إخلاء جزيرة العرب	٣٠٨
مركز مصر الدولى بعد معاهدة لندرة	٣١٢
قيود الفرمانات	٣١٤
فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١	٣١٤
لائحة ١٩ أبريل سنة ١٨٤١	٣١٧
فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١	٣١٧
النتيجة	٣١٨

الفصل العاشر
دعائم الاستقلال
الجيش

	صفحة
الجيش	٣٢١
مشروع تأسيس الجيش النظامى	٣٢٢
المحاولة الأولى لتنفيذ المشروع وإخفاقها	٣٢٢
رواية الجبرتى	٣٢٣
موقف محمد على إزاء الجيش القديم	٣٢٤
رواية الجبرتى	٣٢٥
البدء فى تنفيذ المشروع	٣٢٦
سليمان باشا الفرنساوى	٣٢٦
المدرسة الحربية الأولى بأسوان	٣٢٧
التجنيد	٣٢٩
المدارس الحربية	
مدرسة أسوان	٣٣٢
مدرسة قصر العينى	٣٣٢
مدرسة المشاة	٣٣٣
مدرسة الفرسان بالجيزة	٣٣٣
مدرسة المدفعية بطره	٣٣٤
مدرسة أركان الحرب بالخانكة	٣٣٥
مدرسة الموسيقى العسكرية	٣٣٦
المدرسة البحرية بالإسكندرية	٣٣٧
مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة	٣٣٧
معمل صب المدافع	٣٣٨
مخازن البارود والقنابل	٣٣٨
رأى المارشال مارمون فى ترسانة القلعة	٣٣٨
إبراهيم أدهم باشا	٣٣٩
مصنع البنادق بالحوض المرصود	٣٤١
معامل البارود	٣٤٢
ملابس الجند ومرتباتهم	٣٤٣
الإدارة الحربية	٣٤٤
الروح الحربية	٣٤٤
شهادة الثقات للجيش المصرى	٣٤٥
رأى سليمان باشا الفرنساوى	٣٤٥
رأى كلوت بك	٣٤٦
رأى المارشال مارمون	٣٤٨
رأى المسيو مريو	٣٥٠
القلاع والاستحكامات	٣٥٠
حصون الإسكندرية	٣٥١
حصون أبو قير	٣٥٢
حصون رشيد	٣٥٢
إحصاء الجيش المصرى فى عهد محمد على	٣٥٣
إحصاء سنة ١٨٣٣	٣٥٣
إحصاء سنة ١٨٣٩	٣٥٤

الفصل الحادى عشر
الأسطول

	صفحة
النواة الأولى للأسطول	٣٦٣
رواية الجبرتى	٣٦٤
ترسانة بولاق وإنشاء السفن	٣٦٤
الدونتمة المصرية فى البحر الأبيض	٣٦٥
تجديد الأسطول بعد واقعة نافارين	٣٦٦
إنشاء دار الصناعة الكبرى بالإسكندرية	٣٦٦
سريزى بك	٣٦٧
الحاج عمر	٣٦٧
كيف أسست الترسانة	٣٦٨
أقسام الترسانة	٣٦٩
أخشاب السفن	٣٧١
تذليل العقبات	٣٧١
السفن التى أنشئت أو رممت فى ترسانة الإسكندرية	٣٧٢
سفن النقل	٣٧٥
حفلات نزول السفن الحربية إلى البحر	٣٧٥
استقالة سريزى بك	٣٧٦
المعسكر البحرى للتعليم برأس التين	٣٧٧
مدرسة بحرية على ظهر البحر	٣٧٧
البعثات البحرية	٣٧٨
إصلاح الميناء	٣٧٩
إنشاء حوض لترميم السفن	٣٧٩
فنار الإسكندرية	٣٨٠
البحرية المصرية كما وصفها شهود العيان	٣٨٠
زيارة المارشال مارمون للترسانة	٣٨٠
رأيه فى كفاءة المصريين	٣٨١
زيارته للأسطول	٣٨٢
رأى كلوت بك	٣٨٢
كفاءة عمال الترسانة المصريين	٣٨٤
قواد الأسطول المصرى	٣٨٥
الأميرال إسماعيل بك	٣٨٥
الأميرال محرم بك	٣٨٥
الأميرال عثمان نور الدين باشا	٣٨٦
الأميرال مصطفى مطوش باشا	٣٨٨
الأميرال محمد سعيد باشا	٣٨٨
إحصاء الأسطول المصرى فى عهد محمد على	٣٨٩
إحصاء سنة ١٨٣٧	٣٨٩
إحصاء سنة ١٨٣٩	٣٩٠
إحصاء سنة ١٨٤٣	٣٩٣

الفصل الثانى عشر
التعليم والنهضة العلمية

	صفحة
نظرة عامة	٣٩٧
مدرسة الهندسة بالقلعة	٣٩٧
رواية الجبرتى	٣٩٨
مدرسة المهندسخانة ببولاق	٤٠٠
مدرسة الطب	٤٠٠
مدرسة الصيدلة ومدرسة الولادة	٤٠١
كلوت بك	٤٠١
مدرسة الألسن	٤٠٣
بقية المدارس العالية والخصوصية	٤٠٣
المدارس الحربية والبحرية	٤٠٣
ديوان المدارس	٤٠٣
المدارس الابتدائية	٤٠٤
البعثات العلمية	٤٠٧
الإرساليات الأولى	٤٠٧
البعثات الكبرى	٤٠٨
عدد طلبة البعثات وما أنفق عليهم	٤٠٩
عناية محمد على بأعضاء البعثات	٤٠٩
البعثة الأولى	٤١٠
البعثة الثانية	٤١٣
البعثة الثالثة	٤١٤
البعثة الرابعة	٤١٦
البعثة الخامسة	٤١٧
البعثة السادسة	٤٢١
البعثة السابعة	٤٢٢
البعثة الثامنة	٤٢٢
البعثة التاسعة	٤٢٢
تراجم طائفة من أعضاء البعثات ، التاريخ والجغرافية والأدب	٤٢٥
رفاعة بك رافع الطهطاوى	٤٢٧
على مبارك باشا	٤٦٤
الهندسة والرياضيات	٤٦٥
مصطفى بهجت باشا	٤٦٥
محمد بيومى أفندى	٤٦٦
محمد مظهر باشا	٤٦٦
إبراهيم رمضان بك	٤٦٧
أحمد دقله بك	٤٦٧
أحمد طائل أفندى	٤٦٨
أحمد فايد باشا	٤٦٨
محمود باشا الفلكى	٤٦٩
أحمد بك السبكى	٤٦٩
حسن بك نور الدين	٤٧٠
الطب والجراحة	٤٧١
محمد على البقلى باشا	٤٧١
إبراهيم بك النبراوى	٤٧٢
أحمد حسن الرشيدى بك	٤٧٣
محمد الشافعى بك	٤٧٤
محمد الشباسى بك	٤٧٥
مصطفى بك السبكى	٤٧٥

صفحة

عيسوى أفندى النحراوى ٤٧٥
حسين غانم الرشيدى أفندى ٤٧٥
محمد عبد الفتاح ٤٧٥
على هيبه ٤٧٦
حسين عوف باشا وإبراهيم دسوقى بك ٤٧٦
مصطفى الواطى بك ٤٧٦
عثمان أفندى إبراهيم ٤٧٧
رجال الدولة والسياسة ٤٧٧
الأمير (الخديوى) إسماعيل ٤٧٧
محمد شريف باشا ٤٧٧
الحربية والإدارة العسكرية ٤٧٧
مصطفى مختار بك ٤٧٧
أمين بك الكرجى ٤٧٨
أحمد بك ٤٧٨
على باشا إبراهيم ٤٧٩
حماد عبد العاطى باشا ٤٧٩
الملاحة والعلوم البحرية وبناء السفن ٤٨٠
الأميرال عثمان نور الدين باشا ٤٨٠
الأميرال حسن باشا الإسكندرانى ٤٨٠
محمد شنان بك ٤٨٠

صفحة

محمود تامى بك ٤٨٠
محمد بك راغب ٤٨١
الحقوق والعلوم السياسية ٤٨١
عبدى شكرى باشا ٤٨١
أرتين بك ٤٨١
اسطفان بك ٤٨٢
عبد الله بك السيد ٤٨٢
الطبيعيات والزراعة ٤٨٢
أحمد يوسف أفندى ٤٨٢
حسنين أفندى على البقلى ٤٨٢
أحمد بك ندا ٤٨٣
عبد الهادى إسماعيل بك ٤٨٣
يوسف أفندى ٤٨٣
الفنون الجميلة ٤٨٣
حسن أفندى الوردانى ٤٨٣
محمد أفندى مراد ٤٨٤
محمد أفندى إسماعيل ٤٨٤
حسين باشا كوجلك ٤٨٤
محمد صادق باشا ٤٨٤
الطباعة والصحافة والنشر ٤٨٤

الفصل الثالث عشر
أعمال العمران والحالة الاقتصادية

نظرة عامة ٤٨٧
منشآت الرى والزراعة ٤٨٧
سد ترعة الفرعونية ٤٨٧
فتح ترعة المحمودية ٤٨٨
الترع الأخرى ٤٩١
الجسور ٤٩١
القناطر ٤٩٢
إصلاح جسر أبو قير ٤٩٢
سد أشتوم الدبية فى بحيرة المنزلة ٤٩٣
القناطر الخيرية ٤٩٣

	صفحة		صفحة
توسيع نطاق الزراعة	٤٩٥	شبين الكوم	٥٠٥
غرس أشجار التوت	٤٩٥	المحلة الكبرى	٥٠٥
غرس الأشجار	٤٩٦	زفتى وميت غمر	٥٠٥
زراعة القطن	٤٩٦	المنصورة	٥٠٦
زراعة الزيتون	٤٩٨	دمياط	٥٠٦
زراعة النيلة	٤٩٨	دمنهور	٥٠٦
زراعة الخشخاش	٤٩٨	فوه	٥٠٦
منشآت الصناعة	٤٩٩	رشيد	٥٠٦
مصانع الغزل والنسيج	٤٩٩	مصانع الغزل فى الوجه القبلى	٥٠٧
مصنع الخرنفش	٤٩٩	بنى سويف	٥٠٧
فابريقة مالطة ببولاق	٥٠٠	أسيوط	٥٠٧
فابريقتا إبراهيم أغا والسبتية	٥٠١	بقية مصانع الغزل	٥٠٧
للبيضة	٥٠١	نظرة عامة فى مصانع الغزل والنسيج	٥٠٧
مصنع نسيج البركال	٥٠١	مصانع نسج الكتان	٥٠٨
مصنع أمشاط الغزل بحى السيدة زينب	٥٠٢	معمل سبك الحديد	٥٠٩
مصنع الجوخ ببولاق	٥٠٢	مصنع ألواح النحاس	٥٠٩
مصنع الحرير	٥٠٣	معامل السكر فى الوجه القبلى	٥٠٩
مصنع الحبال	٥٠٣	مصانع النيلة	٥١٠
نسيج الصوف	٥٠٤	مصانع أخرى	٥١٠
فابريقة الطرابيش بفوه	٥٠٤	أعمال العمران الأخرى	٥١٠
مصانع الغزل والنسيج فى الوجه البحرى	٥٠٥	التجارة	٥١٢
قليوب	٥٠٥	الصادرات والواردات	٥١٣

الفصل الرابع عشر
نظام الحكم

النظام السياسى	٥١٥	أعضاء مجلس المشورة	٥١٧
الدواوين	٥١٥	بعض أعمال مجلس المشورة	٥٢١
مجلس المشورة	٥١٦	القانون الأساسى سنة ١٨٣٧	٥٢٢

	صفحة
المجلس الخصوصى والمجلس العمومى	٥٢٣
نظرة عامة فى هذا النظام	٥٢٤
التقسيم الإدارى والموظفون	٥٢٥
البوليس	٥٢٦
النظام القضائى	٥٢٦
النظام المالى والاقتصادى	٥٢٧
الملكية والضرائب	٥٢٧
إلغاء نظام الالتزام	٥٢٧
الأبعاديات والشفالك	٥٣١
مساحة الأراضى الزراعية	٥٣١
الضرائب	٥٣٢
فرضة الرءوس أو الضريبة على النخل	٥٣٤
ضرائب أخرى	٥٣٤
نظام الاحتكار	٥٣٤
احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية والاتجار بها	٥٣٤
احتكار الصناعة	٥٣٤
مالية الحكومة وميزانيتها السنوية	٥٣٦
ميزانية سنة ١٨٣٣	٥٣٧
مقارنة بين ميزانيات بعض السنوات	٥٤١

الفصل الخامس عشر
الحالة الاجتماعية

عدد السكان	٥٤٣
طبقات المجتمع	٥٤٣
الهيئة الحاكمة	٥٤٤
الأزهر والعلماء	٥٤٧
الزراع والصناع والتجار	٥٥٠
الأعيان	٥٥١
العربان	٥٥١
بقايا الرقيق	٥٥٢

الفصل السادس عشر
شخصية محمد على والحكم على عصره ٥٥٥

الفصل السابع عشر
إبراهيم باشا

تاريخه	٥٦٧
صفاته وآراؤه ومبادئه	٥٦٩
ولايته الحكم	٥٧٣
وفاته	٥٧٣

	صفحة
وفاة محمد على	٥٧٣
وثائق تاريخية	٥٧٥
وثيقة رقم ١ – معاهدة جلاء الإنجليز عن الإسكندرية	٥٧٥
وثيقة رقم ٢ – اتفاق الإسكندرية	٥٧٧
الفهرست	٥٧٩
فهرست الخرائط والرسوم	٥٩٢

فهرست الخرائط والرسوم

	صفحة
محمد على	٢٥
خريطة مواقع الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧	٥٥
خريطة الحرب الوهابية	١٤٥
خريطة السودان المصرى فى عهد محمد على	١٧١
خريطة مدينة الخرطوم فى عهد محمد على	١٨١
خريطة حرب اليونان	١٨٨
خريطة ميناء نافارين والواقعة البحرية	٢١١
خريطة الحرب فى سورية والأناضول	٢٢٦
خريطة واقعة حمص	٢٣٣
خريطة واقعة بيلان	٢٤٠
خريطة واقعة قونيه	٢٤٧
خريطة واقعة نصيبين	٢٧٩
رفاعة بك رافع الطهطاوى	٤٢٦
إبراهيم باشا	٥٦٥

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعىَ ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على(الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية
تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :
تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .
الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :
الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)
الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .
الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :
(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)
الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .
وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :
تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :
من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومى .
من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتى (١٨٨٩ - ١٩٥١) :
خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية فى مصر :

تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :

فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥

وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :

(الطبعة الأولى – يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ – ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :

فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)

مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٥٣٤٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٦٩٨-X	ISBN

١ / ٨٩ / ٩٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الأعمال الكاملة

يُنظر إلى عبد الرحمن الرافعي على أنه جبرتى مصر الحديث ، فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصرى فبدأه بتاريخ الحركة القومية فى عصر المماليك والحملة الفرنسية . . حتى ثورة ٢٣ يوليو فى سبع سنوات ، وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية نجده يكتب أيضاً مؤلفات أخرى هامة . .

وكتابات الرافعى تتسم بالصدق والدقة والحيدة . . فهو يبدأ بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه . . ومن ثم فإن فكر الرافعى يسود هذه المؤلفات ويعبّر عن كفاح الشعب المصرى فى مواجهة القوى المختلفة والملابسات التى أحاطته . .

ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقارئ العربى . . حتى يقف على تاريخ وطنه العظيم . . وكفاحه المشرف . . ومطالبته الدائبة بالحرية والحق والديمقراطية .